

جونْ فْاولز

امرأة الضابط الفرنسي

ترجمة: د. محمد درويش

امرأة
الضابط
الفرنسي



الناشرين



الإمارات العربية المتحدة – أبو ظبي – هاتف 6314468 2 971 + – فاكس 6314462 2 971+
ص.ب 2380 – الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.kalima.ae



لبنان – بيروت – هاتف 786233 - 785108 - 785107 1 961+ – فاكس: 786230 1 961+
ص.ب 5574-13 – الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

الطبعة الأولى 1430هـ – 2009م
ردمك 978-9953-87-617-7

 الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم،
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+) – ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb – الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي The French Lieutenant's Woman
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونيًا من الناشر Vintage Classics
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

امرأة الضابط الفرنسي

تأليف

جون فاولز

ترجمة

د. محمد درويش

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة






أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

مقدمة المترجم

يبدو البحث عن جون فاولز معقدا كالبحث في متاهة. مثله في ذلك مثل بحث الشخصيات الرئيسية في رواياته. ولا سبيل الى الاهتداء اليه الا بالتفكير بالاسلوب الذي يمارس به نشاطه الادبي وما ينطوي عليه من ظلال المعاني. لقد اصبحت اعماله مثار اهتمام النقاد في الفترة الاخيرة لهذا السبب ولسبب اخر هو انتعاش تقييم الاسطورة الحديثة والفنّ في الكتابات المعاصرة على الرغم من بطء سير عملية التقييم هذه. تجدر الاشارة الى ان فاولز، شأنه شأن العديد من الكتاب البريطانيين، لم ينل شهرة حقيقية الا بعد ان حققت اعماله نجاحا على المستويين التجاري والنقدي في الولايات المتحدة على حدّ تعبير الناقد والروائي الانكليزي مالكولم برادبري(*). فالنقاد البريطانيون يقتربون على نحو حذر من مؤلفيهم الممتازين، وهذا هو السبب في ان النقد الادبي للرواية البريطانية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية كان دوما نقدا هزيلا لا يراعي حقوق الكتاب ومشاعرهم. بيد ان فاولز حظي دوما بقدر معين من الاهتمام وهو اهتمام محير الى حدّ ما لأن نجاحه الشعبي لا يدعم في اغلب الاحوال شهرته الادبية بل يقف على الضد منها.

ظهرت **جامع الفراشات** اولى روايات فاولز في العام 1963 وكانت تبدو رواية علاقات طبقية. وقد اشار فاولز في مقابلة صحفية الى انه قرر لدى كتابته هذه الرواية «ان يكتب وفق اشد قواعد الواقعية صرامة» لأن المظهر الخارجي للرواية يمتد الى دانيال ديفو وجين اوستن وجان بول سارتر والبير كامو. وهذه مسألة مثيرة للاهتمام لأن نكهة هؤلاء الكتّاب متباينة تماما، كما ان نكهة متباينة تظهر من بين ثنايا الكتاب نفسه بقصتيه. غير ان فاولز ذكر «ان المضامين الجنسية والنفسية الدرامية للمواقف المتطرفة المعزولة» هي التي اثارته واثارت من متعته.

(*) Bradbury, Malcolm: No, Not Bloomsbury, London 1987.

كما ان الرواية، شأنها شأن بحمل اعمال فاولز الاخرى، ذات بعد انحطاطي قوي، وتعتمد، مثل الكثير من انماط ادب الانحطاط على السير في طريق معقدة وراء رغبة غامضة ذات صلة بالجنس عند المرأة وبغرابة الفنّ نفسه. وهي اسوة بالكثير من ادب الانحطاط تغير من الاسلوب الاستطرادي او الواقعي في الكتابة لتحيله الى اسلوب رمزي وغامض. فالبطلة ميراندا تمثل موضوع رغبة كليغ الغامضة، وهي الصورة السابقة لكثير من بطلات فاولز اللاحقات، وتعرف ثورة الفنّ ضد الطبيعة بقولها: «عندما ترسم شيئا ما فانه يعيش وعندما تصوره فانه يموت». واذا ما ماتت حقا، فإن اللغز المقترن بها يظل كما هو، ومن المؤكد انه يتكرر كثيرا في كل ما كتبه فاولز لاحقا.

غير ان جون فاولز رسّخ من شهرته كاتبا متوهجا، متألقا بكتابه الثاني **الساحر** الصادر في العام 1966 وهو كتاب طالما اقض مضجعه. وفي العام 1977، نشر نسخة منقحة عنه الى حدٍّ ما لحل بعض اشكالات الخيبة التي مر بها ولتزويدنا بنصين عوضا عن نص واحد على غرار النهايتين اللتين وضعهما لرواية **امرأة الضابط الفرنسي**. ولم تحظَ **الساحر** باستقبال طيب على الرغم من ان مستوى مشروعها وتطلعاتها الخيالية والعقلية الواضحة كانت غير مألوفة وكان ينبغي لها ان تتبوأ مكانة مهمة في اي مناخ ثقافي يتناغم وهذه الاشياء. وقد حاولت هذه الرواية الضخمة (617 صفحة) ان تستغور كما يبدو تاريخ الوعي في الغرب ابان القرن العشرين، وهو مشروع نادر بما فيه الكفاية، نُفِّذَ بدرجة عالية من المهارة والخيال والذكاء. واذا كانت رواية **امرأة الضابط الفرنسي** تقليدا شكليا للرواية الفكتورية وجهدا ممتازا في تقييم الفارق التاريخي والعقلي بين مثل هذه الرواية والقارئ الحديث - بما في ذلك بناء وعي العالم الذي كان قائما قبل مئة سنة ووعي العالم الان، ذلك الوعي المتغلغل في تلافيف المجتمع والذي ينتج نمطا من الوحدة الثقافية بين العالم الداخلي والعالم الخارجي - فإن رواية **الساحر** كانت على ما يبدو محاولة لعمل شيء يشبه ذلك للقرن العشرين. ويتطلب فهم هذه الرواية مستويات متعددة من الوعي والتصور كما يتطلب ايضا استغوارا اجتماعيا وعاطفيا ونفسانيا. لقد كانت مشروعا بالغ الجرأة، وتعد نصا اساسيا في اي محاولة لفهم جون فاولز.

نقــرأ بعد ذلك رواية **امرأة الضابط الفرنسي** الصادرة في العام 1969 فنألف اصـــوات جـــون فاولز المتعددة. فهو في بعض الاحيان صوت واثق تمام الثقة، وفي احيان اخرى يلوح في منتهى القلق. وتارة نجده ينتمي الى القرن التاسع عشر انتماء تاريخـــيا رائعـــا، واستاذا في فن عريق وتارة اخرى ينتمي الى القرن العشرين انتماء تاريخـــيا ايضا، غير انه انتماء قلق، يشعر فاولز فيه بالاسى لموت الرواية والقارئ في النص. هذه التمثلات جادة تكتسب صفة التأمل العقلي، غير انه في بعض الاحيان يتنكر ويدخل اجواء القصة فتراه يركب القطار او يفرض نظريات القرن العشرين على شخصيات القرن التاسع عشر.

الكـــتابة في هـــذه الرواية تبدو وهي تمر بين يدي روائي يهتم اهتماما شديدا بمـــشكلات العـــصر الفكـــتوري الخاصـــة بالايمان في مواجهة الشكوك العلمية، وبالوقوف «بين عالمين: الاول عالم ميت والثاني لا يقوى على الولادة»، كما يقول ماثـــيو ارنـــولد. ويهتم كذلك بالاحصائيات الخاصة بالبغاء وتأثير تشارلز داروں ومضامين كارل ماركس والعلاقة بين الحاضر الذي هو ماضٍ في الرواية والمستقبل الـــذي هـــو الحاضـــر في الـــرواية، والعلاقة بين موروث الرواية الفكتوري المثير للاعجـــاب والوضع في القرن العشرين الذي يجعل من المستحيل الكتابة في داخله؛ هـــناك ايـــضا جون فاولز اخر، يتسم بالاعتدال والجد وضبط النفس، جون فاولز الاستطرادي، الجامع المانع في الغالب، العارف بكل شيء، الروائي القادر على سرد الاحداث كأنه ينقلها نقلا، متأملا اياها تأملا حصيفا.

رواية **امرأة الضابط الفرنسي** يمكن ان تعد رواية ذكية تكشف عن استفادة الكاتب الحديث من الموروث الفكتوري، وبهذا تصبح رواية ليبرالية معمارها يقوم في الاســـاس علـــى اساليب الواقعية الاخلاقية والتأويل الاخلاقي الذي ينتمي الى شكل القرن التاسع عشر. وبهذا، فإن الرواية توسع مدى البصيرة الاخلاقية والوعي الاجتماعـــي الـــذي نحصل عليه من قراءة جورج اليوت على سبيل المثال، ليصبح مـــضافا الى شكل اكثر حداثة في اشكال التصور تساعدنا في ذلك المعرفة التاريخية المتـــزايدة والمـــشاعر الطيبة الفياضة. انها قصة التحرر من التاريخ، حيث يحل محل النفاق والافراط في الاحتشام والجهل والميوعة العاطفية - وكلها من سمات العصر الفكتوري - الصدق والمصداقية والايمان الصحيح والحرية؛ وهي من سمات العصر

الحديث. فتنطلق البطلة سارة بوصفها امرأة وكائنا اجتماعيا غريبا من سجنها الذي يقــيدها ويكبح جماحها. ويجوز لنا ان ننظر الى الرواية على انها رواية حديثة تدور عن شخصين، بل عن سارة قبل كل شيء، يكتشفان تحررها وانعتاقهما الحديث في عــالم موشــح برداء التجربة الفكتورية ووجهاء المجتمع الفكتوري، وقد نسج هذا الرداء مؤلف مثقف واسع الاطلاع يتمتع بموهبة عظيمة في المحاكاة. وفي وسعنا ان ننظــر اليها على انها «ميتا – نص» من نصوص ما بعد الحداثة او هي رواية يكون فيها وعي الطبيعة الخيالية لكل الروايات واضحا، كما تعي الشخصيات انها داخل قصة وتحاول البحث عن حريتها منها.

هــذه الــنقاط مهمة، لأنها تخص قضية العلاقة بين الكاتب البريطاني المعاصر والموروث، مدى فائدتها وقدرته في ديمومة الحقائق الاجتماعية والاخلاق التي نراها شاخــصة، وكـــذلك علاقته بالاسلوب الذي يمكن ان تنقل فيه الكتابة الحديثة او تطرح للاختبار من مادة الرواية الفكتورية وواقعيتها.

يــؤكد الناقد مالكولم برادبري ان رواية **امرأة الضابط الفرنسي** هي «احد افضل الكتب التي ظهرت في بريطانيا منذ الحرب، واعتقد بانها رواية واعية ظهرت في وقــت مثير للاهتمام كان فيه العديد من الكتّاب البريطانيين يعيدون التفكير في علاقــتهم بموروثهم. وقد قدّمها روائي اتخذ بحثه في الرواية منحى مغايرا على نحو درامي مثير للانتباه، روائي يعي وعيا شديدا النسيج النقدي المحيط به على الرغم من انه يقاومه باساليب اخرى. وتقف هذه الرواية على التخوم التي انتجت اكثر التعقيدات في الرواية البريطانية الحديثة، التخوم بين رواية القرن التاسع عشر الواقعية والرواية الحديثة. وهــي اسوة بالكثير من الروايات الحديثة تعزز الحيرة والارتباك باستخدام العناصر التي الفــنا فهمها وشرحها بشكل من اشكال الشعرية. اننا نميل الى تحسس طريقنا عبر الكــتاب كمــا نتحســـسه خلال عمل واقعي عظيم، رواية من روايات الواقعية الليــبرالية التي تنبه الى الشخصية والتجربة الاجتماعية والاسلوب الذي يغذي كل مــنهما الاخــر. الا اننا نعي ايضا هذه المفارقة الحديثة، وكما هو شأن العديد من الروايات الحديثة كروايات نابوكوف او ماركيز على سبيل المثال، تميل الى مقاربة نقاشاتنا النقدية من حول الرواية وهي في اعلى درجات التوتر والشك، فيها النقاط التي تستغور الواقعية والخيال، الكتابة الغامضة، التقرير والفنتازيا».

تجــــدر الاشارة الى ان **الساحر** وامرأة **الضابط الفرنسي** تجمعهما العديد من المظاهــــر المشتركة. فهما تعتمدان على سرد متقن، على توظيف مهارات الروائي الواقعية والملغزة. وتهتم الروايتان بالمسعى نحو تحقيق الذات تحقيقيا وجوديا في عالم تطغى عليه قوة التاريخ وتعقيداته الاجتماعية وتعيش الشخصيات فيه الى حدٍّ كبير داخـــل شـــروط التاريخ الصارمة. وفي كلتا الروايتين يتم اخراج البطلين من عالم الوعي التقليدي والواقعي الى عالم اخر تسيطر عليه الالغاز ويهيمن عليه الغموض، ولا يمكـــن عَـــدُّ اي من الروايتين بمثابة ابطال شامل للواقعية او النـــزعة الانسانية الادبية. فالواقعية مذهب برع فيه فاولز والانسانية نـــزعة يؤمن بها كل الايمان. انّ الروايتين اعادة بناء مضغوط لالغاز الواقعية واستغوار هام للصعوبات والاحتمالات الـــتي تـــواجه الروائـــي الحديث الذي لا يملك استعدادا للاستغناء عن الخصائص الانسانية التي تتميز بها الرواية.

جون فاولز روائي دقيق، روائي يذكرنا بمنهج الشك الذي سارت عليه ناتالي ساروت ويمثل قضية مثيرة للاهتمام في موروث روائي بريطاني لم يستسغ كثيرا هذا النمط من البحث الفنّي. الا انّ السؤال يظل مطروحا: اهو كاتب بالمعنى الحديث؟ معـــنى معاصريه التجريبيين؟ لعل هناك اجابة عن مثل هذه التساؤلات في مجموعته القصـــصية **البرج الابنوسي** الصادرة في العام 1974 عندما صور لنا الفنّان **بريزلي** الـــذي يختار التعبير عن ابتكاراته على نحو ما، بكتابته فنا عن الحاضر يتداخل فيه الكـــثير مـــن الماضي: «وراء حداثة الكثير من العناصر الخارجية ثمة ولاء لموروث موغل في القِدَم». وفي وسعنا ان نلاحظ الى اي مدى تلائم هذه العبارة جون فاولز نفـــسه. فقـــد بحـــث، شأنه شأن العديد من الروائيين البريطانيين بمن فيهم ايريس مردوخ التي يبدو منطقيا مقارنته بها، عن سحر معاصر في اسرار فن حديث يضغط علـــيه الـــتاريخ وفكر القرن العشرين فيما وراء حدود الرواية الفكتورية. وهو لم يتنكر لهذه العناصر في الفنّ تازيا التي تنتمي الى موروث الواقعية وفكرة الشخصية. ففي حين تكون فيه الرواية التقليدية شكلا واقعا في اسر التاريخ، خاضعة لافكاره الخاصة بالمعرفة الشاملة ونسق التطور، فإن فاولز ينشد كسر هذا الاطار، ويسمح بادخـــال فكـــرة الوعـــي الحديث والتزامه بالحرية فيه. في حين تعارض الاساليب الاســـتطرادية والتبسيطية في الرواية التقليدية كل ما هو انحطاطي وجنسي وملغز،

فإن فاولز يفتح الباب على مصراعيه امام تلك المملكة الزائلة. ان رواياته النموذجية تختـــصر التمـــرينات، وتجعله اليوم واحدا من الكتّاب العظام بسبب براعته المتقنة ورغبـــته في ان يرى مواجهة جديدة بين ظروف الوجود الحديث وتياراته من جهة وشكل الفنّ من جهة ثانية.

د. محمد درويش

1

تمد عينيها غربا
فوق البحر،
سواء كانت الريح عاصفة او لطيفة،
وقفت دوما
يحدوها الامل
هناك فقط
يستقر بصرها،
لا يبدو ثمة سحر
في اي مكان اخر

(هاردي – الاحجية).

الــريح الــشرقية هي اسوأ الرياح في خليج لايم؛ فخليج لايم هو ذلك الجزء الاكــبر مــن الــضلع الممــتد جنوب غربــي انكلترا، وفي وسع شخص محب للاســتطلاع ان يستنتج على الفور العديد من الاحتمالات القوية بشأن الشخصين اللــذين شرعا بالسير في الجزء الادنى من رصيف لايم ريجيس، تلك المنطقة الصغيرة والعريقة في القدم، صباح يوم لاذع، عاصف في اواخر اذار/مارس عام 1867.

لقــد شجّع الكوب ما تولده الالفة على مدى السنوات السبعمئة على الاقل ولا يرى اهل لايم الحقيقيون فيه اكثر من مخلب طويل من جدار رمادي اللون، قدیم، ينثني قــبالة البحــر. وبما انه يمتد في الواقع بعيدا عن البلدة الرئيسية، مثل بايريس[1] الصغيرة لاثينا البالغة الصغر، فانهم يبدون تقريبا وقد اولوا ظهورهم له. المؤكد انه قد كلفهم بما فــيها الكفاية لاصلاحه على امتداد القرون كي يبرروا شيئا من النفور منه. الا انه من وجهــة نظر اكثر قدرة على التشخيص واقل دفعا للضرائب يعد اجمل متراس بحري في الــساحل الجنوبــي لانكلترا. وهو كما تقول كتب السياحة ليس مجرد مكان عابق

(1) بايريس: مدينة يونانية تعد ميناء للعاصمة اثينا. (المترجم)

بسبعمئة سنة من تاريخ انكلترا او ان السفن ابحرت منه لمواجهة الارمادا، او لأن الدوق مونماوث حط فيه [عندما قاد التمرد ضد والده تشارلز الثاني عام 1681]... بل لأنه في خاتمة المطاف قطعة رائعة من الفنّ الشعبي.

بدائي، لكنه معقد، ضخم ولكنه رقيق، يمتلئ بالانحناءات الدقيقة والكتل مثل عمل من اعمال هنري مور ومايكل انجلو، خالص نقي، لاذع، نموذج للكتلة الكبيرة. االبالغ؟ ربما، لكن في الامكان التحقق من كلامي، اذ إن الكوب لم يتغير الا قليلا منذ العام الذي اكتب عنه، على الرغم من ان بلدة لايم قد تغيرت. كما ان اختبار الكلام يفتقر الى الانصاف اذا ما نظرت بعيدا صوب اليابسة.

على اي حال، لو انك توغلت صوب الشمال وباتجاه اليابسة في عام 1867، كما كان يفعل الانسان انذاك، فإن توقعاتك من شأنها ان تكون منسجمة. كانت ثمة مجموعة من عشرة بيوت او نحو ذلك ومكان صغير مخصص للمراكب – بان فيه مركب شراعي مثل فلك قيد الانشاء – وقد جثمت جميعا في البقعة التي يرتد فيها الكوب عائدا صوب اليابسة. على بعد نصف ميل الى الشرق تمتد فوق المروج المنحدرة سطوح منازل لايم المغطاة بالقرميد. انها مدينة بلغت اوج ايامها في القرون الوسطى وبعد ذلك بدا اضمحلالها. في جهة الغرب كان جرف صخري رمادي اللون، كئيب المنظر، ينتصب شاهقا فوق الساحل الكثير الحصى وكان معروفا بين سكان المنطقة باسم وير كليفز. ووراء ذلك كله، ثمة جرف صخري اخر يمتد داخل اليابسة، تحجبه عن الانظار غابة كثيفة. من هنا، فإن الكوب يبدو في الاغلب المتراس الاخير – في وجه الساحل الموحش المتآكل الممتد الى جهة الغرب. وفي هذا الصدد يمكن التحقق من كلامي ايضا. لا شيء اليوم يشير الى وجود بيت كان قائما في ما مضى او الى اكواخ ساحلية بائسة في ذلك الاتجاه.

هكذا فالجاسوس المحلي – وقد كان واحد حقا – ربما استطاع ان يستنتج بأن هذين الشخصين غريبان، لهما ذوقهما الخاص، ولا سبيل الى الحيلولة دون استمتاعهما بالكوب بسبب ريح عاتية لا غير. من جهة اخرى، في وسع هذا الجاسوس ان يقرب منظاره اكثر وعندئذ ربما سيتمكن من الارتياب في ان عزلة مشتركة كانت تثير اهتمامهما اكثر من النحت البحري ومن المؤكد انه سيلاحظ انهما شخصان لهما ذوق رفيع جدا فيما يخص مظهرهما الخارجي.

كانت السيدة الشابة ترتدي اشد الثياب اناقة. كانت ثمة ريح اخرى تهب في العام 1867، بداية ثورة ضد الكرنيولين[2] والقبعة الكبيرة. ربما استطاعت العين ان تلاحظ من خلال المنظار تنورة حمراء ضاربة الى الارجواني، ضيقة وقصيرة على نحو يبعث على الجراة اذ لاح كاحلان ابيضان من تحت المعطف الاخضر الصارخ وفوق الحذاء الاسود الذي كان يمشي وئيدا فوق الحجارة، كما كانت تعلو شعر الرأس واحدة من القبعات الصغيرة المسطحة غير الملائمة، وقد زينتها في جانبها خصلة رقيقة من ريش طائر ابيض – وهو تصميم لقبعات نسائية ما كانت نساء لايم لتجرؤ على اعتمارها قبل مضي سنة اخرى على الاقل. اما الرجل الطويل القامة الذي كان يرتدي بدلة ذات لون رمادي فاتح، تخلو من اي عيب، ويضغط على الجزء الاعلى من قبعته بيده الفارغة، فقد قلل كثيرا من حجم شاربه الذي كان محكمو افضل الازياء الرجالية الانكليزية قد اعلنوا انه مبتذل قليلا اي مضحك للاجنبي– قبل سنة او سنتين. ومن شأن الوان ثياب السيدة الشابة ان تثير انتباهنا اليوم على انها حادة على نحو واضح. الا ان العالم كان يومئذ على وشك اكتشاف الاصباغ الاصطناعية. كما ان بغية المرأة من اللون كان التألق لا التحفظ وذلك للتعويض عن اشياء كثيرة اخرى في سلوكها المتوقع.

لكن في المكان الذي من شأن الشخص المتطلع بالمنظار نحو البحر ان يكون فيه، ثمة شخص اخر فوق ذلك السد الحاجز للامواج، المثير للكآبة، الملتوي. كان ذلك الشخص يقف عند الجزء المجاور للبحر، وقد انحنى كما يبدو فوق ماسورة مدفع انتهى بها الامر لأن تكون عمودا تُشد اليه حبال المراكب. كانت ثياب الشخص سوداء، تثير حركتها الريح، لكن الشخص ظل ثابتا لا يتحرك، محدقا، محدقا صوب البحر، مثل نصب حي ينظر الى غريق، شخص من الاساطير وليس من اي جزء من الحياة التافهة في الاقاليم.

(2) الكرنيولين: قماش قاسٍ لتبطين الثياب. (المترجم)

2

في ذلك العام 1851 كان عدد الاناث في بريطانيا من اللواتي جاوزن السنة العاشرة يقدر بـــ 8,155,000 مليون مقارنة بـــ 7,600,000 من الذكور. وبهـــذا يـــصبح واضحا انه اذا كان مقدرا للفتاة الفكتورية ان تغدو زوجة واما، فانه لم يكن محتملا وجود عدد كافٍ من الرجال يفي بالغرض.

اي. رويستون بايك – وثائق انسانية من العصر الفكتوري الذهبي

ساتشر شراعا من فضة وابحر صوب الشمس،
ساتشر شراعا من فضة وابحر صوب الشمس،
ولسوف يبكي حبيبي الغادر، ولسوف يبكي حبيبي الغادر
ولسوف يبكي حبيبي الغادر، من اجلي بعد الرحيل

اغنية شعبية من الريف الغربي – «بينما كانت سيلفيا تتمشى»

– يـــا عزيـــزتي تيـــنا. لقد اعلنا عن ولائنا لنبتون[3] وسيغفر لنا اذا ما اوليناه ظهورنا الان.

– لست كثير الشهامة.

– ماذا يعني هذا، رجاء؟

– كـــان ينبغي ان اعتقد بانك كنت ترغب في اطالة فرصة الامساك بذراعي باحتشام.

– يا للرقة التي وصلنا اليها!

– لسنا في لندن الان.

– في القطب الشمالي ان لم اكن مخطئا.

– ارغب في السير حتى النهاية.

وهكـــذا استدار الرجل وقد بدت عليه نظرة يأس تتسم بالواقعية كأنها اخر نظرة يلقيها على اليابسة وواصل الاثنان طريقهما على امتداد الكوب.

---

(3) نبتون: سيد البحر عند قدماء الرومان. (المترجم)

- كما ارغب في سماع ما دار بينك وبين ابي من حديث يوم الخميس الماضي.

- لقد سبق ان تبينت خالتك بعض التفاصيل مني عن ذلك المساء البهيج.

توقفت الفتاة ونظرت الى عينيه.

- تشارلز. يجوز ان تكون صعبا كما تشاء مع اي شخص اخر، ولكن لا ينبغي لك ان تكون صعبا معي.

- ما رأيك اذا يا عزيزي لو اننا سنرتبط معا برباط الزوجية المقدس؟

- وتحتفظ بسخريتك لناديك.

دفعته بتكلف لمواصلة السير.

- وصلتني رسالة.

- اه. من والدتك؟

- اعلم ان شيئا ما قد حدث... عند الميناء.

واصلا السير بضع خطوات قبل ان يرد. فقد بدا تشارلز لبرهة انه ميال الى ان يكون جادا، الا انه غيّر من رأيه.

- اعترف بانني ووالدك النبيل اختلفنا في مسألة فلسفية صغيرة.

- انت شخص مولع بالاذى.

- اردتُ ان اكون نزيها.

- وماذا كان موضوع حديثكما؟

- طرح والدك رأيا بانه كان ينبغي عرض السيد داروِن في قفص على الملأ في حديقة الحيوان. في القفص المخصص للقردة. وقد حاولت ان اشرح بعض الادلة العلمية القائمة من وراء فرضية داروِن. لكنني اخفقت. هذا كل شيء.

- كيف تُقدم على ذلك... وانت تعرف اراءَ ابي!

- كنت اتسم بالاحترام الشديد.

- هذا يعني انك كنت مفعما بالكراهية.

- لقد اعلن حقا انه لن يزوج ابنته لشخص يعتقد ان جده كان... بيد انني اظن انه عند التفكير في حالتي سينظر الي بوصفي قردا يحمل لقبا من القاب النبلاء.

سددت اليه نظرة وهما يواصلان سيرهما وادارت رأسها الى الجانب على نحو فضولي، وهي اشارة مميزة لتعبير عن القلق - وفي هذه الحالة، القلق بشأن ما اعتقدته حقا العقبة الكاداء امام خطوبتهما. لقد كان والدها رجلا ثريا واسع الثراء بيد ان جدها كان تاجر البسة. اما والد تشارلز فكان يحمل لقب (بارون). ابتسم وضغط اليد ذات القفاز المتدلية من ذراعه الايسر.

- لقد سوينا الامر فيما بيننا يا عزيزتي. من المناسب جدا ان تشعري بالخوف ازاء والدك. لكنني لن اقدم على الزواج به. كما انك نسيت انني عالم. وقد كتبت دراسة. فلا بد ان اكون كذلك. واذا ما ابتسمت على هذا النحو فانني ساجعل من حياتي وقفا على الاحفوريات[4] لا عليك.

- لست ميالة لأن اكون غيورة من الاحفوريات.

ثم توقفت وقفة تدل على المكر.

- طالما انك تسير فوقها الان منذ ما يقرب من الدقيقة - ولم تتلطف وتتنازل حتى بالنظر اليها.

القى نظرة حادة الى اسفل، وجثم على ركبتيه بسرعة. كانت اجزاء من الكوب مغطاة بصخور احفورية.

- يا الله! انظري الى هذه. صخرة بورتلاند. لا بد ان هذه الصخرة قد اتت من الصخور الكلسية في (بورتلاند)[5].

- التي ساحكم عليك بأن تقضي عمرك في مناجمها - ان لم تنهض على قدميك فورا.

امتثل لامرها وهو يبتسم.

- والان. الست عطوفة عليك اذ اتيت بك الى هنا؟ انظر!

ثم قادته الى جانب المتراس حيث يكمن صف من صخور مسطحة محشورة جانبيا في الجدار تستخدم بمثابة سلالم تؤدي الى ممر أخفض.

---

(4) الاحفوريات: بقايا حيوان او نبات من عصر جيولوجي سالف مستحجرة في اديم الارض. وتسمى ايضا «المتحجرات». (المترجم)

(5) بورتلاند: شبه جزيرة صخرية على القنال الانكليزي مشهورة بصخورها التي ترجع الى العصر الجوراسي الذي بدا قبل 190 مليون سنة واستغرقت قرابة 54 مليون سنة. (المترجم)

هذه هي السلالم نفسها التي جعلت فيها جين اوستن بطلتها لويزا ماسكروف تسقط منها في روايتها الاقناع.

يا له من مشهد رومانسي.

– كان السادة المهذبون رومانسيين... انذاك.

– وعلميّين في الوقت الراهن، هلا نبدا هبوطنا المحفوف بالخطر؟

– ونعود ادراجنا.

مرة اخرى واصل الاثنان سيرهما. وعند ذاك لاحظ هو، او على الاقل ادرك، جنس الشخص الواقف عند النهاية.

– يا للسماء! ظننت ذلك الشخص صياد سمك. لكن اليست هي امرأة؟

انعمت ايرنستينا النظر – فقد كانت عيناها الرماديتان البالغتا الجمال مصابتين بقصر البصر. وكان كل ما في وسعها مشاهدته هو شبح معتم.

– اهي شابة؟

– انها على مسافة بعيدة لا استطيع ان اتأكد منها.

– غير انني استطيع ان احمن من هي. لا بد انها **المأساة** المسكينة.

– مأساة؟

– لقب. احد القابها.

– وما هي الالقاب الاخرى؟

– الصيادون يطلقون عليها لقبا بذيئا.

– يا عزيزتي تينا. المؤكد انك...

– يطلقون عليها لقب امرأة... الضابط الفرنسي.

– عجـــبا! وهل هي منبوذة الى الحدّ الذي تضطر فيه الى قضاء اوقاتها خارج البيت في هذا المكان؟

–انها... مجنونة الى حدّ ما. لنعد ادراجنا. فانا لا احب الاقتراب منها.

توقفا. وجال ببصره صوب الشبح الاسود.

– لكنك اثرت رغبتي في الفضول. من هو الضابط الفرنسي هذا؟

– رجلٌ قيل عنها انه...

– وقع في غرامها؟

– بل اسوأ من ذلك.

– ومن ثم هجرها؟ اهناك طفل؟

– لا لا اظن ان هناك اي طفل. كل ما هناك اشاعات.

– لكن ما الذي تفعله في ذلك المكان؟

– يقولون انها في انتظار عودته.

– لكن... اليس هناك من يهتم بامرها؟

– انها تعمل خادمة بشكل ما عند السيدة بولتيني العجوز. و لم يكن يسمح لها بالظهور في اثناء زياراتنا. غير انها تقطن هناك. ارجوك لنعد ادراجنا. انني لم ارها.

بيد انه ابتسم.

– لو انها وثبت اليك فسوف احميك واثبت لك عن شجاعتي. هيا.

هكـــذا ســـار الاثنان مقتربين اكثر من الشبح الواقف قرب ماسورة المدفع. كانـــت قـــد خلعت قبعتها وامسكت بها بيدها. اما شعرها فكان محكم الشد الى الـــوراء داخل ياقة معطفها الاسود – وهو معطف غريب يبدو اكثر شبها بمعطف رجـــل خـــيال من معطف امرأة كان زيه سائدا في السنوات الاربعين الماضية. و لم تكـــن هي الاخرى لتعرف الكرينولين. لكن الواضح ان سبب ذلك انما يكمن في النـــسيان لا في معرفة اخر الاذواق اللندنية. ابدى تشارلز ملاحظة مبتذلة بصوت عالٍ كي يحذرها من انها ليست وحيدة. غير انها لم تلتفت. تقدم الاثنان الى حيث في وســـعهما مشاهدة وجهها من الجانب ورؤية بصرها المسدد مثل بندقية صوب الافـــق البعـــيد. في هذه الاثناء هبت ريح اقوى اضطرت تشارلز الى وضع ذراعه حـــول خاصرة ايرنستينا كي يسندها، واضطرت المرأة الى التشبث على نحو اقوى بالماســـورة. حالمـــا سمحـــت الريح، تقدم الى امام دون معرفة السبب. ربما ليظهر لايرنستينا كيفية اثارة خوف وزة.

– ســـيدتي الطيـــبة. اننا لا نستطيع رؤيتك في هذا المكان دون ان نقلق على سلامتك. ان عاصفة اشد –

التفـــتت لتنظـــر اليه – او من خلاله – كما ظن تشارلز. و لم يكن الجانب الايجابـــي في ذلك الوجه هو الذي بقي واياه بعد ذلك اللقاء الاول بل كل الجانب الـــذي لم يـــتوقعه ابدا؛ فقد كان عصرهما هو العصر الذي يفضل فيه شكل المرأة

الــرزين، المحتــشم، المطيع. وعلى الفور شعر تشارلز انه قد تجاوز حدوده، كان الكــوب تعــود ملكيته الى ذلك الوجه لا الى مقاطعة لايم العريقة. لم يكن وجها جميلا مثل وجه ايرنستينا. من المؤكد انه لم يكن وجها جميلا وفق مقاييس واذواق اي عصر. لكنه كان وجها يصعب نسيانه، وجها مأساويا، يتفجر الحزن منه على نحــو صــاف، طبيعي، بلا توقف، مثل تفجر الماء من ينبوع غابة. لم يكن فيه اي مكــر، او نفاق او هستيريا او قناع. وقبل كل شيء بلا اي اثر يدل على الجنون. كان الجنون في البحر الخالي، الافق الخالي والافتقار الى سبب لمثل هذا الحزن. كان الينبوع طبيعي بخصيصته، ولكنه غير طبيعي في انبجاسه في صحراء.

فكــر تشارلز بعد ذلك مرات ومرات في تلك النظرة الشبيهة بالرمح. ومن الطبيعي ان التفكير على هذا النحو لا يعني مجرد وصف شيء بل الاثر الذي يملكه. وشــعر بنفــسه في تلك اللحظة القصيرة كأنه عدو ظالم، اخترقه الرمح وحط من قدره بحق.

لم تقــل المرأة شيئا. واستغرقت نظرتها الى الوراء ثانيتين او ثلاث ثوانٍ على الاغلــب. ثم واصــلت التحديق الى جهة الجنوب. تشبثت ايرنستينا بكم تشارلز، واستدارت وهي تهز كتفيها وتبتسم لها، وعندما اقتربا من اليابسة اكثر قال:

– اتمــنى لــو انــك لم تذكري تلك الحقائق القذرة. هذه هي مشكلة الحياة الريفية. فكل واحد يعرف الاخر وليست هناك اسرار. ولا قصص عاطفية.

بعد ذلك تحرشت به واصفة اياه بالعالم ومحتقر الروايات.

3

مـــن بـــين كـــل العقود الزمنية في تاريخنا، فان الرجل الحكيم سيختار خمسينيات القرن التاسع عشر ليكون شابا فيها.

جي. ام. يونغ – صورة عصر

بعـــد ان عـــاد تشارلز الى مأواه في وايت لاين اثر طعام الغداء شرع يحدق الى وجهـــه في المـــرآة. كانت افكاره مبهمة على نحو لا سبيل الى وصفها. بيد انها كانت تتـــضمن عناصر غامضة، مشاعر هزيمة غير واضحة لا تتصل بأي وسيلة بالحادثة عند الكـــوب بل تتصل بامور تافهة معينة تفوه بها في اثناء الغداء عند الخالة ترانتر، وباعذار محـــددة ومميزة قدمها؛ فيما اذا كان اهتمامه بعلم الاحاثة[6] هدفا كافيا لقدراته الطبيعية؛ فـــيما اذا كـــان من شأن ايرنستينا ان تفهمه حقا مثلما فهمها هو، كما تتصل بمشاعر عامـــة ذات هدف غير محدد ربما كان اصلها – كما استنتج اخيرا – ليس سوى خطر انقضاء عصر يوم مصحوب بالمطر. على اي حال، كان العام هو 1867. وهو كان في الثانية والثلاثين من العمر ليس الا. كما انه دوما تطلب من الحياة امورا كثيرة.

علـــى الرغم من ان تشارلز احب ان ينظر الى نفسه على انه عالم شاب ربما لـــيس مـــن شأنه ان يندهش كثيرا اذا ما وصلت اليه الانباء مستقبلا عن الطائرة والمحـــرك النفاث والتلفزيون والرادار: ان ما كان من شأنه ان يثيره حقا هو الموقف المـــتغير من الزمن نفسه. فالبؤس الكبير المفترض عن قرارنا هو الافتقار الى الزمن. واحساسنا بذلك، وهو احساس لا ينطلق من الحب النـــزيه للعلم، ولا من الحكمة بالتأكـــيد، احساسنا بذلك هو السبب في اننا نخصص مثل هذه النسبة الضخمة من الابـــداع والمـــال في مجتمعنا للعثور على وسائل اسرع في تنفيذ الاعمال – كأن الهـــدف النهائي للجنس البشري يتمثل في الاقتراب لا من البشرية الكاملة بل من ومـــيض برق كامل. غير ان المسألة عند تشارلز، وعند الكثير من معاصريه ونبلاء

---

(6) علـــم الاحاثـــة: علـــم يـــبحث في اشكال الحياة في العصور الجيولوجية السالفة كما تمثلها المتحجرات او المستحاثات الحيوانية والنباتية. (المترجم)

مجـــتمعه تقـــريبا هي ان بصمة الزمن على الوجود كانت بطيئة تماما. ولا تتمحور المـــشكلة في كل ما يريد الفرد ان يفعله بل نسج ما فعله المرء لملء رحاب الفراغ الواسعة الموجود امامه.

مـــن اكثـــر اعراض الثراء شيوعا اليوم هو العصاب المدمر؛ في قرنه كان هو الـــسام الهـــادئ. صحيح ان موجة الثورات في العام 1848، ذكرى الاصلاحيين[7] الـــذين مضى عهدهم الان، كانت تقف مثل ظلال هائلة وراء ذلك العصر؛ لكن مـــن وجهة نظر الكثيرين - بمن فيهم تشارلز - فإن اهم شيء يخص ذلك التذمر البعـــيد انمـــا هو الفشل في الانفجار. لقد كانت الستينيات فترة مزدهرة لا جدال فـــيها. وجـــاءت الثـــروة الى الحرفيين، وحتى الى الطبقات العاملة التي قلصت من احـــتمال اندلاع الثورة، في بريطانيا العظمى على الاقل، تماما. وغني عن القول ان تشارلز لم يكن يعرف شيئا عن الالماني الذي كان يعمل بهدوء، كعادته دوما، عصر ذلك اليوم في مكتبة المتحف البريطاني، والذي قدر لعمله بين تلك الجدران الكئيبة ان يثمـــر ثمـــرة حمـــراء متألقة. ولو انك وصفت تلك الثمرة او الاثار الناجمة عن اســـتهلاكها العشوائي مؤخرا، فإن المؤكد الا يصدقك تشارلز تماما - وعلى الرغم مـــن ذلك، فبعد ستة اشهر من شهر اذار/مارس عام 1867 صدر الجزء الاول من رأس **المال** في هامبورغ.

هـــنالك ايضا اسباب شخصية لا تحصى تبيّن ان تشارلز لم يكن مؤهلا لدور المتـــشائم المتناغم. فجده البارون كان ضمن ثاني صنفين لوجهاء الريف الانكليز: صـــيادو ثعالب، مسرفون في شرب الشراب الفرنسي الأحمر من بوردو، ومثقفون يجمعـــون كـــل ما موجود تحت الشمس. وقد جمع في الاساس الكتب، ولكنه في السنوات الاخيرة خصص جزءا من ثروته، واكثر من ذلك صبر اسرته، للتنقيب في الروابـــي غير المؤذية التي كانت تملأ ارضه البالغة ثلاثة الاف فدان في (ويلتشاير). الدلـــون وحجارة المنهير[8] والصوان وقبور خاصة بالعصر الحجري الحديث كلها

---

(7) يقـــصد بالاصلاحيين او «الميثاقيين» بعض المصلحين السياسيين الانكليز في القرن التاسع عـــشر الذين قدموا للبرلمان الانكليزي «ميثاقا» ذا مطالب تهدف الى تحسين اوضاع الطبقة العاملة من الناحيتين الاجتماعية والصناعية. (المترجم)

(8) المنهير: حجارة او نصب حجرية عمودية يعود اصلها الى ما قبل التاريخ. (المترجم)

طاردهـــا بلا هوادة. اما ابنه الاكبر فقد طارد تذكارات الصيد القابلة للحمل بلا هـــوادة حـــتى اخرجها من البيت عندما ورثه. غير ان السماء الحقت العقاب بهذا الابن، او باركته، اذ حرمته من الزواج. اما الابن الاصغر للرجل العجوز، اي والد تشارلز، فقد ورث مالا وأراضيَ شاسعة.

كانت حياته تكتنفها مأساة واحدة - فقد توفيت في ان واحد زوجته الشابة والطفلة المولودة حديثا التي كان مقدرا لها ان تصبح شقيقة تشارلز الذي كان يبلغ ســـنة واحـــدة مـــن عمـــره. بيد انه هضم احزانه. و لم يغدق عاطفته القوية عليه وحـــسب، بـــل اتى له بعدد من المعلمين الخصوصيين والمدرسين الصارمين وباع حـــصته مـــن الارض واســـتثمر امواله بدهاء في اسهم في سكة الحديد، وبغباء في مـــوائد. باختـــصار، عاش، وكانه ولد في العام 1702 لا في 1802، وصرف الجزء الاعظم من حياته لاجل المتعة... وتوفي بسببها الى حدّ كبير في العام 1856. وهذا كـــان تشارلز وريثه الوحيد، لم يكن وريث ثروة ابيه حسب التي اخذت بالتناقص - فقـــد انتقمت لعبة القمار اخيرا من ازدهار سكة الحديد، بل ورث ايضا ثروة عمه الـــضخمة جدا. وكان من الواضح في عام 1867 ان عمه لم يظهر اي علامة تشير الى قرب موته على الرغم من عودته الشاملة الى المشروب المفضل.

كان تشارلز يحب عمه مثلما كان عمه يحبه. غير ان هذا الحب ما كان ليظهر دوما في علاقتهما. وعلى الرغم من ان تشارلز قدم ما يكفي من التنازلات في صيد طـــيور الحجل عندما كان يطلب منه فعل ذلك، فانه رفض رفضا باتا وقاطعا صيد الـــثعالب. لم يكن ليهمه ان كانت الطريدة لا تؤكل، ولكنه كان يشمئز من سوء الـــصيادين. وكان هنالك ما هو أسوأ: كان يهوى على نحو لا يوصف السير على القدمين بدلا من ركوب الخيل. والسير على القدمين ليس تسلية السيد النبيل الا اذا كان في جبال الالب السويسرية. لم يكن يحمل ضغينة محددة للجواد نفسه بل كان قـــد ورث كراهية العالم الطبيعي لاعاقة الملاحظة من مسافات قريبة وعلى مهل. علـــى اي حـــال، كان محظوظا. ففي يوم من ايام الخريف وقبل سنوات عديدة، اصاب طائرا غريبا كان يحلق فوق حدود احد حقول القمح العائدة لعمه. وعندما اكتشف نوع الطائر الذي اصطاده وندرته، انتابه غضب مبهم ازاء نفسه. فقد كان ذلـــك الطائـــر واحـــدا من اواخر طيور الحبارى العظيمة التي تصطاد فوق سهل

ســالزبري. غــير ان عمه ابتهج كثيرا. وحنط الطائر وظل الى الابد يحدق بعينين ثمــوران ببريق الرغبة، مثل ديك رومي اسود، خارج الصندوق الزجاجي في غرفة الاستقبال في قصر وينــزيات.

كــان عمه يثير سأم زواره من الطبقة العليا على نحو لا متناهٍ بقصة الاسلوب الــذي انجز فيه العمل؛ وكلما شعر بانه ميال الى حرمان تشارلز من الارث - وهو موضوع يجعله ارجواني اللون لأن ممتلكاته موروثة لذكر فقط - فانه يستعيد حنان العم عند الوقوف امام الحبارى الخالد الذي اصطاده تشارلز وتأمله. كانت لتشارلز عــيوبه، فهو لم يكتب دوما مرة واحدة في الاسبوع، كما انه مولع ولعا مشؤوما بقضاء اوقات العصر في مكتبة قصر وينــزيات، وهي حجرة قلما استخدمها عمه.

على اي حال، له عيوب اخطر من هذه العيوب. ففي كيمبرج بدأ حقا بتعلم شــيء مــا خلافا لمعظم شبان عصره بعد ان جمع الاثار الفريدة كما ينبغي ودفع اشتراكه في مجلة (39 مقالة). الا انه انخرط في السنة الثانية من الدراسة مع مجموعة فاســدة، وانتهــى به الامر ذات ليلة كثيرة الضباب في لندن الى امتلاك جسد فتاة عاريــة. واندفــع من بين ذراعيها اللندنيتين المكتنــزتين الى اذرع الكنيسة، واثار رعــب والــده ذات يــوم بعد ذلك الحادث بفترة قصيرة بالاعلان عن رغبته في الانخــراط في الكهنوت. فكان هناك رد واحد لمثل هذه الازمة. لا بد من ارسال الشاب الفاسد الى باريس. وهناك تلطخت سمعة عذريته البراقة بالاعتراف. وحدث الشيء نفسه، كما فكّر والده، بخصوص زواجه المقرر بالكنيسة. فقد رأى تشارلز ما كان يقف وراء الدعوة المغرية لحركة اوكسفورد[9] - الخاصية الدنيوية للمذهب الكاثوليكــي. وامتنع عن تبديد روحه الانكليزية السلبية والمرتاحة في ان واحد - طــرف واحد مفارقة ازاء طرف واحد عرف - على البخور واللاعصمة البابوية.

---

(9) حــركة اوكسفورد: حركة دينية ظهرت في القرن التاسع عشر في جامعة اوكسفورد هدفها تجديــد الفكــر الكاثوليكي داخل كنيسة انكلترا في وجه النزعات البروتستانتية التي كانت تــتخللها. وكان سبب ظهور هذه الحركة هو ذلك التحول الذي طرأ على العلاقة بين الدولة وكنيــسة انكلترا من 1828-1932. من ابرز قادة الحركة (جون هنري نيومان 1801 -1890) و(ريتــشارد هــوريل فرودي 1803-1836) و(جون كيبل 1792-1866). هذا وقد نشرت افكــار الحــركة في (90 كراسة) كتب (24) منها (نيومان) الذي كان يشرف على تحرير السلسلة كلها. (المترجم)

وعـــندما عـــاد الى لندن شق طريقه ومر بسرعة بين العديد من النظريات الدينية الـــسائدة يومذاك غير انه برز من بينها (بعد ان رأى اكثر مما يمكن انكاره واقل مما يدفـــع على الثقة بالنفس) لا أدريا(*) (10) سليما ووجد في الطبيعة، لا في الانجيل، ما يشير الى الله في الوجود. لو انه خلق قبل مئة سنة لأصبح مؤمنا بالله ايمانا مبنيا على العقل، لا على الوحي، بل لاصبح مؤمنا بأن الله والطبيعة شيء واحد.

اذا كـــان في صحبة الاخرين فانه يذهب الى صلاة الصبح في الاحاد. اما اذا كان وحيدا فانه قلما كان يفعل ذلك.

عـــاد ادراجه بعد مرور ستة اشهر على وجوده في مدينة الخطيئة عام 1856. وتوفي والده بعد مرور ثلاثة اشهر وتم ايجار البيت الواسع في بلغرافيا وانتقل تشارلز للسكن في بيت اصغر في كنـــزغتون وهو بيت يناسب شابا اعزب اكثر من غيره. وفي ذلـــك البيت كان يقوم برعايته خادم وطاه وخادمتان، وهي مجموعة متواضعة العـــدد ازاء رجـــل له مثل علاقاته وثروته. بيد انه كان سعيدا هناك اضافة الى انه قـــضى وقـــتا طويلا في الرحلات. ونشر مقالة او مقالتين عن رحلاته في الاماكن النائية في مجلات حديثة، بل ان ناشرا مغامرا طلب منه ان يؤلف كتابا عن الاشهر التسعة التي امضاها في البرتغال، غير ان تشارلز وجد في التأليف شيئا يحط من قدره الى حـــدّ ما - ووجد فيه ايضا شيئا يشبه العمل الشاق والتركيز المتواصل. وتسلى بالفكـــرة لكـــنه تخلى عنها. في الواقع، ان التسلية بالافكار كان شغله الشاغل في العقد الثالث من عمره.

لكنه على الرغم من ذلك لم يكن ضائعا في الزمن الفكتوري البطيء او شابا عابثا في الاساس. ولقاء عابر مع شخص كان يعلم بهوس حده جعله يدرك ان ايام الرجل العجوز التي لا نهاية لها في الاشراف على مجموعات العمال المرتبكين المنقبين في الريف كان ينظر اليها بين افراد الاسرة على انها دعابة لا اكثر. وتذكر اخرون

(*) لـــم يكـــن مـــن شـــأنه ان يطلق على نفسه هذه الصفة لسبب بسيط هو ان الكلمة لم ينحتها (هكسلي) الا في العام 1870، وعند ذلك الوقت اصبح المصطلح ضرورة كبيرة لا بد منها. (المترجم)

(10) الـــلا أدري: مـــن يعـــتقد بأن وجود الله وطبيعته واصل الكون امور لا سبيل الى معرفتها. (المترجم)

الـــسير تـــشارلز سميثـــسون بوصفه رائدا في علم الاثار البريطانية الما قبل رومانية. وعـــرض المـــتحف البريطاني بامتنان عددا من مقتنياته التي كانت موجودة خارج البلاد. وادرك تشارلز رويدا رويدا انه يقترب في طبعه من جده اكثر مما يقترب من اي من ولدي جده. وفي غضون السنوات الثلاث الاخيرة ازداد شغفه باطراد بعلم الاحاثـــة، وهو ميدان بحثه الذي عزم على الخوض فيه. فشرع يرتاد مجالس الادب الـــتي تعقـــدها الجمعـــية الجيولوجية. ونظر العم وهو يرى تشارلز يخرج من وينـــــزيات مسلحا بالمطارق وبكيس يضع فيه مقتنياته نظرة ملؤها الازدراء. فقد كان يعتقد ان الشيء الوحيد الذي يجدر بأي سيد مهذب ان يحمله انما هو سوط قصير او مسدس. لكن ذلك على الاقل افضل من الكتب اللعينة في المكتبة الملعونة.

علـــى اي حال، هناك اهتمام اخر يفتقر اليه تشارلز وهو امر لا يثير بهجة عمه. فالاشـــرطة الصفر والنرجس البري، شعار حزب الاحرار، كانا محرمين في وينـــزيات، اذ كـــان الرجل العجوز من اشد المتحمسين للون الازرق الذي يمثله حزب المحافظين. وكانـــت له اهتماماته الا ان تشارلز رفض رفضا مؤدبا كل المحاولات الرامية الى دفعه للخـــوض في انتخابات البرلمان. واعلن انه ليس لديه اي معتقدات سياسية. وفي السر كـــان معجبا بغلادستون[11]. ولكن في وينـــزيات، كان ينظر الى غلادستون على انه الخـــائن الاكبر الذي لا يجوز التفوه باسمه. وهكذا، فقد سدّ احترام الاسرة والتكاسل الاجتماعي وعلى نحو مناسب ما كان يبدو حياة طبيعية له.

انني اخشى ان يكون الكسل احدى صفات تشارلز المميزة. لقد ادرك، شأنه شـــأن معاصـــريه، ان المسؤولية الشخصية المبكرة للقرن كانت تتحول الى احترام شخصي: اي ان ما كاد يدفع بريطانيا الجديدة باطراد هو الرغبة في ان تبدو محترمة بـــدلا من الرغبة في فعل الخير من اجل الخير. كان يدرك انه صعب الارضاء. لكن كيف في وسع المرء ان يكتب التاريخ ومن ورائه يقف ماكولي[12]؟ الشعر او الرواية

(11) ولـــيم ايوارت غلادستون (1809–1898) سياسي بريطاني من زعماء حزب الاحرار تولى رئاسة الوزارة عدة مرات. (المترجم)

(12) توماس ماكولي (1800–1859) سياسي وكاتب ومن اشهر المؤرخين في العصر الفكتوري في بريطانيا. (المترجم)

وســـط تلـــك الكوكبة اللامعة من اصحاب المواهب في تاريخ الادب الانكليزي؟ كيف يمكن للمرء ان يكون عالما مبدعا ولا يزال ليل[13] ودارون على قيد الحياة؟ او ان يكون رجل دولة بينما يشغل دزرائيلي[14] وغلادستون كل الفراغ المتاح؟

سترون ان تشارلز كانت لديه طموحات كبيرة. وهذا شأن الكسالى الاذكياء وذلـــك مـــن اجل تبرير كسلهم امام ذكائهم. لقد كان لديه باختصار كل السأم الـــذي عرف به بايرون لكن دون ان يملك ايا من المنافذ التي كانت امام بايرون: العبقرية والزنى.

لكن على الرغم من امكانية تأجيل الموت، وهو ما كانت الامهات اللواتي لديهن بـنات للزواج يقدرن على التوقع به، فانه دوما يأتي في النهاية برفق. وحتى لو لم يكن تشارلز ليملك الامكانيات الاخرى، فانه كان شابا مثيرا للاهتمام. فرحلاته الى الخارج ازالت على نحو مؤسف شيئا من مظهر الجد الصارم (الذي كان الفيكتوريون يطلقون علـــيه صفة الجد والاستقامة الاخلاق والامانة وغيرها من الاف الصفات المظللة) الذي كـــان مطلوبا من الانكليزي النبيل في ذلك الوقت. وكانت تحيط به من الظاهر روح ســـاخرة وهـــي علامـــة مؤكدة على الانحطاط الاخلاقي المتوارث. غير انه لم يدخل مجـــتمعا، الا ورمقـــته اعـــين الامهات، وربت على كتفه الاباء، وابتسمت في وجهه الفتـــيات ابتسامة متكلفة. لقد احب تشارلز تماما الفتيات الجميلات و لم يكن لينفر من اغـــرائهن واغراء ابائهن الطموحين بسلوك سبيل الضلال. وبهذا اكتسب شهرة الترفع والبرود، وهي مكافاة ليست عديمة القيمة للاسلوب الانيق - في ذلك الوقت الذي بلغ فـــيه الـــثلاثين من عمره كان بارعا في مهمته مثل ابن عرس - الذي كان يتنشق فيه الطعم ومن ثم يدير ظهره لفخاخ الزوجية التي كانت تهدد طريقه.

في اغلـــب الاحـــوال كان عمه يوبخه بخصوص هذه المسألة. بيد ان تشارلز سرعان ما كان يوضح الامر مستخدما اسلوبا مثبطا، فيتذمر الرجل العجوز.

---

(13) سير تشارلز ليل (1797-1875) رائد من رواد علم طبقات الارض في العصر الفكتوري. قـــال إن مظاهـــر ســـطح الارض يمكن تفسيرها على انها نتاج عمليات فيزياوية وكيماوية وبيولوجية منذ العصور الجيولوجية. (المترجم)

(14) بنجامـــين دزرائيلـــي (1804-1881) سياســـي بريطانـــي، رئـــيس الـــوزراء (1868) و(1874-1880)، اشترى حصة مصر من اسهم قناة السويس عام 1875. (المترجم)

– لم اعثر على المرأة المناسبة بعد.

– هراء. انك لم تبحث عن اي امرأة.

– بل بحثت حقا. عندما كنت في مثل سنك...

– لقد عشت من اجل طرائدك وموسم طيور الحجل.

كـــان العجوز يحدق بحزن في مشروبه المفضل. فهو في الواقع لم يندم لأنه لم تكـــن لديه زوجة، لكنه كان يفتقر افتقارا يائسا الى الاطفال فحرم من شراء المهرة والمسدسات لهم. ورأى حياته وهي تتلاشى دون ان تترك اثرا.

– كنت اعمى. اعمى

– عمـــي العزيـــز. نظـــري ممتاز. فهون عليك. كنت ايضا ابحث عن الفتاة المناسبة. و لم اعثر عليها.

4

الذي حدث هو الذي سيبقى! مباركون هم
الذين يتركون اعمال الحب الكاملة لتبقى
ويجيبون عنها اجابة صامتة، فهم موتى
لم تكن الحياة بلا هدف، على الرغم من انهم غادروها هربا.

السيدة نورتون – سيدة غاراي 1863

عاشـــت اغلـــب الاسر البريطانية من الطبقتين الوسطى والارستقراطية فوق بالوعة من قاذوراتها.

اي. رويستون بايك – وثائق انسانية من العصر الفكتوري الذهبي

كـــان المطـــبخ الـــسفلي في بيت السيدة بولتيني الكبير في ريجنسي، والذي ينتصب، على نحو رشيق واضح يشبه مكانتها الاجتماعية، في موقع ممتاز فوق احد الـــتلال الشديدة الانحدار وراء لايم ريجيس ليبدو اليوم بلا ريب بيتا لا يطاق تقريبا بسبب عدم ملائمته من الناحية العملية. وعلى الرغم من ان ساكني البيت في العام 1867، من شأنهم ان يعرفوا معرفة واضحة من هو الطاغية في حياتهم، فإن الوحش الحقيقي فعلا في عصر يشبه عصرنا من شأنه ان يكون بلا ادنى شك المطبخ الواسع الـــذي كان يحتل مجمل الجدار الداخلي في الغرفة الفسيحة ذات الاضاءة الضعيفة. وكـــان يحتوي على ثلاثة مواقد ينبغي تغذيتها بالوقود مرتين في اليوم وتنظيفها من الرماد مرتين ايضا في اليوم. ولما كان العمل المنـــزلي السلس في البيت يعتمد عليها، فانه لم يكن هناك اي مجال لتركها تنطفئ. وبغض النظر عن مدى حرارة النهار في فـــصل الـــصيف وبغـــض النظر عن وجود ريح جنوبية غربية في كل وقت، فإن الـــوحش كـــان يـــنفث سحبا سودا من دخان خانق – لا بد من تغذية الافران القاســـية. ثم هـــناك لون تلك الجدران. فقد كانت تصرخ من اجل الحصول على ظـــلال خفـــيفة، مـــن اجل اللون الابيض. وبدلا من ذلك، فقد كانت خضراء، صـــفراوية، كئيبة. كانت تمتلئ بالزرنيخ، وهي مادة لم يكن ليعرفها سكان البيت (واذا اردنا ان نكون منصفين، فإنها لم تكن معروفة من الطاغية في الطابق العلوي).

ربمـــا كان من حسن الحظ ان الغرفة رطبة وان الوحش ينفث مثل هذه الكمية من الدخان والزيوت. وعلى الأقل اخمد الغبار اللعين.

كان رئيس عرفاء هذا المكان الجهنمي الكئيب امرأة تدعى السيدة فيرلي وهي سيدة نحيفة، ضئيلة، ترتدي الثياب السوداء دوما. و لم يكن هذا بسبب كونها ارملة بقدر ما يعود الى طبعها. ربما كانت كآبتها الحادة تعود الى رؤية اعداد لا حصر لها مـــن المخلـــوقات الاقـــل شـــأنا التي كانت تتقاطر على المطبخ. السقاة، الخدم، البـــستانيون، سائـــسو الخيل، خادمات الطابق العلوي، خادمات الطابق السفلي؛ الـــذين كانـــوا يحـــتملون من مقاييس السيدة بولتيني واساليبها ما يجعلهم يطلقون سيقانهم للريح. وكان هذا الفعل مخزيا لهم وينم عن الجبن. لكن عندما يطلب منك ان تـــستيقظ في الساعة السادسة صباحا وان تعمل من الساعة السادسة والنصف وحـــتى الـــساعة الحادية عشرة والعمل مرة اخرى من الحادية عشرة والنصف الى الـــرابعة والنصف وبعد ذلك من الساعة الخامسة وحتى الساعة العاشرة على مدار الايـــام، اي بمعدل مائة ساعة في الاسبوع، فإن الاحتياطي الذي تملكه من القبول والشجاعة قد لا يكون كبيرا جدا.

وقـــد نقل كبير الخدم الرابع قبل الاخير الى السيدة بولتيني ملخصا اسطوريا لمـــشاعر الخدم قال فيه: «سيدتي. انني افضل ان اقضي البقية الباقية من عمري في الملجـــأ على ان اعيش اسبوعا اخر تحت هذا السقف». وقد ارتاب البعض حقا في ان يكون احد ما قد تجرأ حقيقة وتفوه بمثل هذه العبارات امام السيدة المرعبة. غير ان العاطفة الكامنة وراءها باتت مفهومة عندما هبط الرجل السلالم حاملا حقائبه، واعلن انه مضطر الى ذلك.

امـــا كيف تمكنت السيدة فيرلي التي لم تكن اسما على مسمى [لان فيرلي تعـــني عادلة] مـــن تحمـــل سيدتها طيلة تلك المدة فتلك احدى عجائب المنطقة. والاحـــتمال الاكبر هو انها كانت ستصبح بولتيني اخرى لو ان الحياة اتخذت مجرى اخر معها. في الواقع، ان الحسد الذي كان يتأجج في داخلها هو الذي اضطرها الى البقاء هناك، اضافة الى متعتها السوداوية في الكوارث المنـــزلية التي غالبا ما كانت تحل بالبيت. باختصار، كانت المراتان ساديتين ابتداء. وكان في مصلحتهما معا ان تغفر احداهما للاخرى.

كانت السيدة بولتيني يستحوذ عليها هاجسان اثنان: او مظهران اثنان لنفس الهـاجس. الاول هو القذارة – على الرغم من انها كانت تستثني المطبخ الى حدّ ما لأن الخدم وحدهم يعيشون فيه – والثاني هو الخلود. وفي كلا المجالين لم يغب عن بصرها الحاد اي شيء خلاف ذلك.

كانـت اشـبه بنسر يهبط بقوة، فتتحول باستمرار في اوقات فراغها التي لا تنتهـي. وكانت ذات موهبة طبيعية في المقام الاول بحاستها السادسة العجيبة فيما يخـص الغـبار وبصمات الاصابع والبياضات المنشاة على نحو غير كافٍ والروائح والـبقع والاشـياء المكسورة وكل انواع البلوى التي ترثها البيوت. فقدَ كان اي بستاني يطرد من العمل اذا ما دخل المنـزل والتراب عالق في يديه، ورئيس الخدم اذا مـا عثر على ما يشير الى وجود مشروب مفضل في مستودعه، والخادمة اذا ما عثر على قطعة من الصوف تحت فراشها.

غير ان الشيء المقيت اكثر من غيره هو انها لم تكن لتقر بأي حدود لسلطتها حتى خارج المنـزل. والفشل في الظهور في الكنيسة، في اوقات الصباح والمساء في الاحـاد انما كان يعبر عن اسوأ انواع الانحلال الاخلاقي. ولتساعد السماء الخادمة التي تشاهد خارج البيت وهي تتنـزه على قدميها بصحبة شاب عصر يوم يندر ان يكـون لـديها فـيه اي عمل – فهذه المناسبة تحدث مرة واحدة في الشهر وعلى مضض – ولتساعد السماء ايضا الشاب العاشق الذي يحاول الاقتراب من منـزل مارلـبورو سرا لتحقيق لقاء غرامي: فالبساتين عبارة عن غابة حقيقية من أفخاخ بشرية انسانية – صفة الانسانية هنا تعود الى حقيقة ان الفكوك العظيمة القابعة في الانـتظار كانـت بكامل اسنانها وانها من القوة بحيث تستطيع كسر ساق انسان. هؤلاء الخدم الحديديون هم الذين كانوا موضع اعتزاز السيدة بولتيني وهم الذين لم تطردهم ابدا.

كـان يمكـن ان يكـون ثمة موقع للسيدة في الغستابو. فقد كان اسلوبها في الاستجواب يدفع اكثر الفتيات ثباتا وصلابة الى البكاء في الدقائق الخمس الاولى. وفي طريقتها كانت صورة مصغرة لاكثر الصفات العنجهية للامبراطورية البريطانية الـصاعدة. وفكـرتها الوحـيدة عن العدل هي انها لا بد ان تكون على صواب، وفكرتها الوحيدة عن الحكومة هي قصف السكان الوقحين قصفا ملتهبا.

لكـــنها بـــين افـــراد طبقتها، وهي دائرة محدودة تماما، كانت معروفة بحبها للاخـــرين. واذا ما خامرك الشك في هذه السمعة فسيقدم معترضوك دليلا لا يرقى الـــيه اي شـــك: الم تأوي السيدة بولتيني الحنون امرأة الضابط الفرنسي؟ انني قلما احتاج الى ان اضيف في ذلك الوقت بأن السيدة الحنون لم تكن تعرف سوى ذلك اللقب الاغريقي.

وقعـــت هذه الحادثة المثيرة في ربيع العام 1866 اي قبل سنة واحدة تماما من التاريخ الذي اكتب عنه، وهي ذات صلة بسر حياة السيدة بولتيني العظيم. انه سر بسيط. لقد كانت تؤمن بالجحيم.

كان قس لايم في ذلك الوقت رجلا متحررا نسبيا من الناحية اللاهوتية. لكنه كـــان يعرف جيدا ايضا اين تكمن مصلحته الرعاوية. لذا كان يلائم لايم تماما التي كانـــت تضم تقليديا طائفة تقلل من شأن الكهنوت والطقوس وتؤكد على المبادئ الانجيلية. وكان يتمتع بموهبة بلاغية وهاجة عند القاء مواعظه، وابقى كنيسته خالية مـــن الـــصلبان والـــصور والزخرفة وكل الدلائل الاخرى التي تشير الى السرطان الكاثوليكي. ولما افصحت السيدة بولتيني له عن نظرياتها الخاصة بالحياة الاخرة، لم يجادلهـــا فـــيها لأن اصحاب المناصب الذين لا يحيون حياة رغيدة لا يجادلون ابناء الكنيـــسة الاثرياء. فقد كانت ثروة السيدة بولتيني تستجيب لنداءاته بنفس القدر الـــذي كانت تمسك فيه عن تقديم العون عندما يتعلق الامر باجور العاملين عندها البالغ عددهم ثلاثة عشر فردا. وفي شتاء تلك السنة الماضية (وهو شتاء رابع هجوم عظيم تشنه الكوليرا على بريطانيا الفكتورية) اصيبت السيدة بولتيني بوعكة صحية، وكـــان القس يتردد بين وقت واخر على زيارتها شأنه في ذلك شأن الاطباء الذين اضـــطروا دوما الى طمأنتها والقول بانها تعاني من اضطراب بسيط في المعدة وليس من القاتل الشرقي الرهيب.

لم تكـــن الـــسيدة بولتيني امرأة غبية. بل كانت حادة الذهن في الموضوعات العملـــية وكـــان مستقبلها محط اعتبار كبير شأنه في ذلك شأن كل القضايا الماسة براحتها. وبينما كانت مستلقية في غرفة نومها، فكّرت في الشك الممكن الذي بدا يـــراودها على نحو مطرد: هل يقدر الله الاحسان بما قدم المرء ام بما يقدر حقا على تقديمـــه؟ وفي هـــذا الصدد كانت لديها معرفة افضل من القس. فقد قدمت مبالغ

كبيرة من المال الى الكنيسة، الا انها كانت تعلم انها اقل من نسبة العشر التي ينبغي ان يقـــدمها اولئك الحريصون على ان يكونوا مرشحين حقيقيين لدخول الجنة. من المؤكد انها نظمت وصيتها كي تضمن توزيع ثروتها بالتساوي من بعد وفاتها. وقد ظلت في اعماقها فترة اطول من بقاء البكتريا في امعائها. وفي يوم ما، وبينما كانت تـــتماثل للـــشفاء، انتهزت فرصة احدى زيارات القس القلقة واستنطقت ضميرها استنطاقا حذرا. في الوهلة الاولى، كان ميالا الى ابعاد مخاوفها الروحية.

– سيدتي العزيزة. انت في وضع متأرجح. ان الخالق بصير، حكيم. وليس من شأننا ان نرتاب في رحمته – او عدله.

– لكن لنفترض انه سألني ان كنت طاهرة الضمير؟

ابتسم القس:

– ستردين بأن ضميرك ينتابه القلق. وبرحمته الواسعة سوف...

– لكن لنفترض خلاف ذلك؟

– اذا تحـــدثت على هذا النحو يا عزيزتي السيدة بولتيني فسوف اؤنبك تانيبا قاسيا. اننا لا نجادل في فهمه.

ثم ران الصمت. كانت السيدة بولتيني تشعر انها في صحبة شخصين اثنين عند وجـــود القس. الاول هو شخص ادنى منها مكانة اجتماعيا، شخص اعتمد عليها في الكثير من متعه، وفي جزء كبير من التكاليف المستمرة التي تصرف على الكنيسة وفي اداء مهامه غير الدينية اداء حسنا بين الفقراء. اما الثاني فهو ممثل الكنيسة الذي ينبغـــي لها ان تخضع له رمزيا. لهذا السبب، كان سلوكها امامه يأخذ منحى غريبا يفتقـــر الى الاتـــساق. من الاعلى الى الاسفل في لحظة ومن الاسفل الى الاعلى في لحظة اخرى. وفي بعض الاوقات كانت تحتال لكلا الموقعين بجملة واحدة.

– اه لو ان فردريك المسكين لم يقضِ نحبه لقدّم لي النصح.

– بـــلا ريب. ولكانت نصيحته مثل نصيحتي. في وسعك ان تطمئني الى هذه الـــنقطة. فانا اعرف انه كان مسيحيا. والكلام الذي اتفوه به هو مفهوم مسيحي صحيح.

– كان تحذيرا. عقابا.

فرمقها القس بنظرة صارمة.

- حذار يا سيدتي العزيزة؛ حذار. ان المرء لا يتجاوز على امتياز خالقنا.

غــيرت مــن موقعها. اذ لا يستطيع كل قساوسة الكون ان يبرروا لها موت زوجها المبكر. ظلت المسألة بينها وبين الله، سرا يشبه حجر الاوبال الاسود الكريم الذي كان يشع في بعض الاحيان مثل نذير مقدس ويمثل في احيان اخرى مبلغا من المال دفع مسبقا ثمنا لكفارة ربما لا تزال مدينة بها.

- لقد اعطيت. لكنني لم اعمل معروفا.

- العطاء معروف كبير.

- لست مثل السيدة كوتون.

لم يندهش القس لهذا الانتقال الدنيوي المفاجئ. فقد كان يدرك ادراكا جيدا مــن معــرفته الــسابقة ان السيدة بولتيني كانت تعرف انها متخلفة كثيرا في ذلك الــسباق الخــاص بعمل التقوى. فالسيدة كوتون التي تقطن وراء بلدة لايم ببضعة امــيال اشتهرت بحياتها التي تصرفها في التصدق على الفقراء. وكانت تزور احدى الجمعيات التبشيرية وتترأس اجتماعاتها، وانشأت ملجأ للنساء الساقطات - صحيح ان صــراحة الــتوبة والــندم كانت من القوة بحيث ان معظم اللواتي استفدن من جمعيــتها المجدلــية رجعن مرة اخرى الى احضان الخطيئة باسرع وقت - غير ان الــسيدة بولتــيني كانت تجهل تلك الحقيقة مثلما كانت تجهل لقب المأساة الاكثر بذاءة.

سعل القس.

- السيدة كوتون مثال لنا جميعا.

كانت عبارته مثل صب الزيت على النار؛ ربما لم يكن يجهل ذلك.

- كان عليَّ أن اقوم بالزيارات.

- سيكون ذلك عظيما.

- ان الزيارات تلك هي التي تسبب لي الازعاج.

لم يسعفها القس بشيء.

- اعلم انني سيئة.

- هونِ عليك.

- نعم، سيئة تماما.

بعد ذلك ران صمت طويل فكّر في اثنائه القس بطعامه الذي يحين موعده بعد ساعة واحدة، بينما فكّرت السيدة بولتيني في سوء طبعها. وهنا قدمت حلا توفيقيا لمعضلتها بخنوع غير مألوف منها.

– لو كنت تعرف سيدة ما، شخصا نبيلا مرت به ظروف غير مؤاتية...

– لست افهم تماما غرضك.

– ارغب في ان تكون لي رفقة. لدي صعوبات في الكتابة الان. كما ان قراءة السيدة فيرلي ضعيفة جدا. وسأكون سعيدة اذا ما قدمت المأوى لمثل هذا الشخص.

– حسنا جدا. اذا كانت هذه رغبتك فسأقوم بالتحريات.

جفلـــت الـــسيدة بولتيني قليلا وهي ترمي بنفسها على هذا النحو الجامح في احضان المسيحية الصادقة.

– يجب الا يشوب سلوكها الاخلاقي اي شائبة. اذ لا بد من التفكير بما لدي من خدم.

– حتما، حتما يا سيدتي العزيزة.

هنا نهض القس.

– الافضل ان لا يكون لديها اقارب، لأن اقارب من هو عالة على غيره يمكن ان يصبحوا سببا للمتاعب.

– اطمئني، فلن اعرض اي شخص غير ملائم.

ضغط على يدها واتجه صوب الباب.

– ارجو الا يكون الشخص في مقتبل العمر يا سيد فورسايث.

انحنى لها، وغادر الحجرة. الا انه توقف في منتصف السلالم المؤدية الى الطابق الارضـــي. لقـــد تذكـــر. وفكّر. ربما كان هناك احساس ليس عديم الصلة تماما بالخبث، ثمرة ساعات طويلة من النفاق – او على الاقل عدم الصراحة التامة – ازاء جانـــب السيدة بولتيني الرقيق، دافعٌ بأي ثمن جعله يستدير ويعود ثانية الى حجرة استقبالها حيث وقف في مدخلها.

– فتاة مؤهلة مرت في خاطري. اسمها سارة وودراف.

5

وآلهفتي، اي فائدة ترتجى من طرح
قضية عديمة الجدوى؟ لوعد الموت
ابتداء موتا، لما كان الحب
او لكان سجينا في اضيق الحدود

مجرد الفة لذوي الطبع البليد،
او لكان شبقا في اخشن الاشكال
يدمر العشب ويسحق الاعشاب
يتشمس ويزداد سمنه في الغاب

احياء لذكرى ارثر هنري هالم-تينيسون – 1850

كان الشبان تواقين كثيرا لرؤية لايم

جين اوستن – الاقناع

كانت ايرنستينا ذات وجه يناسب تماما سنها. وجه صغير الذقن، بيضوي الشكل. رقيق مثل زهرة البنفسج. وربما تشاهده ساكنا في رسوم كبار رسامي ذلك العصر؛ في اعمال فيز، في اعمال جون ليتش. ولم تكن عيناها الرماديتان وشـــحوب بشرتها الا لتزيد من رقة بقية الاجزاء. وكانت في اللقاءات الاولى تخفض من ناظريها على نحو غاية في الجمال كأنها قد يغمى عليها اذا ما تجرأ اي رجـــل نبيل على مخاطبتها. غير انها كانت تملك انحدارا دقيقا في طرف جفونها، وانحـــدارا مشابها في زاويتي شفتيها - واذا شئنا توسيع المقارنة نفسها قلنا انه يشبه في رقته اريج زهور البنفسج في شهر شباط/فبراير - يتبرأ على نحو حاذق ولكـــن جلي من انحنائه الدال على الاحترام والواضح امام الرجل العظيم. ومن شـــأن الانسان الفكتوري المتزمت ان يسئ الظن في تلك الاشارة غير المفهومة غير انها امام رجل من مثل تشارلز كانت تثبت انها لا تقاوم. وبهذا كانت تشبه الى حـــدّ كـــبير احـــد الاطفال الصغار، جيورجينا، فكتوريا، البرتينا، ماتيلدا

وغيرهـــن اللـــواتي جلـــسن تحت حماية مشددة في كل حفلة رقص. لكنها لم تشبههن تمام الشبه.

عندما خرج تشارلز من منـــزل الخالة ترانتر في شارع برود ليسير مئة خطوة او نحـــو ذلك كي يصل إلى الفندق الذي ينـــزل فيه ويصعد بوقار السلالم المؤدية الى جناحه -اليس كل عشاق الكون المعروفين مجانين؟ - ويتفحص وجهه الوسيم امام المرآة، فإن ايرنستينا منحت نفسها حرية الانصراف وتوجهت الى غرفتها. فقد كانت ترغب في ان تلقى نظرة اخيرة على خطيبها من خلال الستائر المخرمة. كما كانت ترغب ايضا في ان تكون في الغرفة الوحيدة التي تستطيع حقا ان تحتملها في منـــزل خالتها.

بعـــد ان اعجبت ايرنستينا بطريقة مشيته وبخاصة الاسلوب الذي رفع فيه قبعته لخادمة الخالة ترانتر التي صادف وجودها خارج المنـــزل في مهمة قصيرة، وكـــرهته لـــتلك التحية لأن الفتاة كانت تملك عينين صغيرتين وقحتين كعيون فلاحـــات دورسيت وسحنة وردية استفزازية ولان تشارلز كان قد حرم عليه النظـــر ثانـــية الى اي امرأة يقل عمرها عن الستين سنة؛ بعد هذا كله، عادت ايرنـــستينا الى غرفتها وكانت غرفة مؤثثة لها وحسب ذوقها وهو ذوق فرنسي مـــؤكدا وكـــان في ذلـــك الوقت اثاثا ثقيلا كالاثاث الانكليزي بيد انه كان ذهبـــــي اللـــون، غريبا. اما بقية ارجاء منـــزل الخالة ترانتر فكانت تعود في طرازها الى ربع قرن من الزمن على نحو واسع، لا يرحم ولا يرقى اليه شك: اي كـــان متحفا يضم اشياء صنعت في المقام الاول خلال فترة الرفض الدقيق لكل الاشـــياء المبهجة والجميلة، اشياء يمكن ربطها بذكرى او اخلاق بريني البغيض وجورج الرابع.

لم يكن في مستطاع احد ان يكره الخالة ترانتر؛ حتى إن التفكير بالغضب من ذلك الوجه الباسم على نحو بريء والمهذار- وبخاصة المهذار - كان امرا لا معقـــولا. فقد كانت تملك التفاؤل العميق الذي عرفت به الخادمات المسنات الـــناجحات، ان العزلة تعلم الاعتماد على الذات او تفسدها. وقد بدات الخالة ترانتـــر تستفيد من كل شيء لصالحها، وانتهى بها الامر الى اعمام هذه الفائدة على العالم كله.

علـــى اي حال، لقد بذلت ايرنستينا ما في وسعها كي تثير غضبها، بخصوص استحالة تناول الطعام في الساعة الخامسة؛ بخصوص موضوع الاثاث الكئيب الذي كـــان يخـــنق بقية الغرف؛ بخصوص موضوع عناية الخالة المفرطة باسمها الخالي من العـــيوب (اذ لم يكن من شأنها ان تصدق ان العريس وعروس المستقبل ربما يرغبان في الجلـــوس وحـــيدين او يخرجان وحدهما)؛ وفوق هذا كله، بخصوص موضوع وجود ايرنستينا في بلدة لايم نفسها.

لقـــد تعين على الفتاة المسكينة ان تعاني الكرب الذي يعانيه كل طفل وحيد ابـــويه مـــنذ بدء الزمان – اي الهيمنة الماحقة التي لا تلين من القلق الابوي. فمنذ ولادتهـــا كـــان ابسط سعال تصاب به يستدعي قدوم الاطباء، ومنذ بلوغها الحلم كانـــت اقل نـــزوة تنتابها تتطلب دعوة مصممي الديكور وخياطي الملابس. واقل عبوس يجعل امها وأباها دوما في حوار تأنيبـــي يمتد سرا ساعات طويلة. لكن كل شيء كان على ما يرام فيما يخص الملابس الجديدة والستائر الجديدة، باستثناء قضية واحـــدة لم تـــنفع معها كل شكواها تلك هي قضية صحتها. فقد كانت والدتها وكـــذلك والـــدها علـــى اقتناع تام بانها مصابة بالسل. وما كانا يشمان رائحة الـــرطوبة في ســـرداب مـــا حتى يقررا الانتقال من ذلك البيت، وما ان تصادفهما الامطـــار يومين اثنين في عطلة ما حتى يقررا الذهاب الى بقعة اخرى. وقد اجرى علـــيها نـــصف اطباء شارع هارلي الفحوصات دون جدوى، فهي لم تكن مصابة بداء خطير طيلة حياتها. ولم تكن لتشعر بالكسل والبلادة والضعف المزمن. كانت تستطيع – خاصة اذا ما اتيحت لها اي فرصة– الرقص طوال الليل، وتلعب الريشة في الـــصباح الـــتالي دون ان ينتابها اي وهن. بيد انها لم تعد قادرة على تغيير فكرة والـــديها الشغوفين بها تماما مثلما لا يقدر طفل صغير على هدم جبل من الجبال. آه لو اســـتطاعا ان يعرفا ما يخبئ المستقبل! فقد كان مقدرا لايرنستينا ان تعيش وتعمر اكثر من جيلها. اذ ولدت في العام 1846 وتوفيت في اليوم الذي غزا فيه هتلر بولندا.

وهكـــذا اصبح بقاؤها السنوي مع شقيقة امها في لايم جزءا لا يتجزأ من نظامها غير الضروري تماما. كانت في المعتاد تأتي لتسترد عافيتها بعد فصل الشتاء، اما في هذا العـــام فقد ارسلت مبكرا لتستجمع قواها استعدادا للزواج. مما لا ريب فيه ان نسمات القـــنال افادتها الى حدٍّ ما بيد انها كانت دوما تهبط بالعربة الى لايم وعلى وجهها سحنة

ســـجين يـــصل الى سيبيريا. كانت رفقة المكان مواكبة للعصر مثل اثاث الخالة ترانتر المبعثر. اما فيما يخص المتعة فكانت هذه اسوأ من لا شيء عند سيدة شابة الفت افضل مـــا في وســـع لـــندن ان تقدمه لها. وبهذا فإن علاقتها بالخالة ترانتر تشبه علاقة طفلة جـــريئة، جوليـــيت انكليزية بصحبة ممرضتها ذات القدمين المسطحتين اكثر مما تشبه العلاقـــة التي من شأن المرء ان يتوقعها بين خالة وابنة اختها. في الواقع، لو ان روميو لم يظهـــر على نحو رؤوف على المسرح في الشتاء الماضي ويقطع لها عهدا بأن يشاركها عـــزلتها العقابية لتمردت. المؤكد ان ايرنستينا كانت تتمتع بارادة شخصية اقوى بكثير ممـــا هو مسموح به لاي فرد من حولها؛ واكثر مما يسمح به العمر نفسه. لكن لحسن الحـــظ كانـــت تحترم التقاليد احتراما شديدا وتشارك تشارلز روح السخرية والتهكم؛ وهـــي ليست اقل الصفات التي جذبت احدهما الى الاخر اول وهلة. فلولا هذه الروح وكـــذلك روح الدعابـــة لكانت طفلة مدللة فظيعة. من المؤكد ان الشيء الذي كان يخلصها انما هو مناجاتها نفسها بعبارة: (ايتها الطفلة المدللة الفظيعة).

في اثـــناء وجودها في غرفتها عصر ذلك اليوم فتحت ازرار ثوبها ووقفت امام مرآتها مرتدية قميصها التحتاني الفضفاض وتنورتها التحتانية. ولبضع لحظات بدت تائهة وسط تأمل ذاتي نرجسي تماما. كانت رقبتها وكتفاها تلائم وجهها، هي في منتهـــى الجمال حقا، واحدة من اجمل الفتيات اللواتي عرفتهن. وفي محاولة لاثبات ذلك، عمدت الى رفع ذراعيها، وارخت شعرها، وهو امر كانت تعرف انه ينطوي علـــى الاثم علـــى نحو مبهم الا انه ضروري مثل حمام حار او فراش دافئ في ليلة شـــتوية. تخـــيلت نفسها في لحظة خطيئة حقا مثل امرأة سيئة؛ راقصة، ممثلة. واذا كـــنت تـــراقبها، فانـــك ستشاهد شيئا غريبا تماما. اذ توقفت فجأة واستدارت للاعجاب بنفسها من الجانب، القت نظرة سريعة صوب السقف. تحركت شفتاها. وعلى جناح السرعة فتحت خزانة الملابس، واخرجت منها مبذلا نسويا فضفاضا.

لقد خطرت ببالها فكرة جنسية، خيال صورة متخيلة على نحو باهت لتطويقة ليـــئوكون[16] والاجساد العارية – اذ صادف وهي تدور على قدم واحدة ان لمحت

(16) ليـــئوكون: كاهن من طروادة قتلته واولاده اثنتان من افاعي البحر بعد ان حذر الطرواديين مـــن الحـــصان الخشبي. خلد اسطورته نحات اغريقي في تمثال من الرخام يظهر تطويق الافاعي بشكل لا خلاص منه لاجساد ليئوكون واولاده العراة. (المترجم)

في المـــرآة احدى زوايا سريرها. ولم يكن جهلها المطبق بحقيقة الجماع وحده الذي اثـــار رعبها، بل هالة العذاب والقسوة التي يتطلبها الفعل على ما يبدو والتي تلغي رقـــة الاشارة والحذر اللذين يشوبان الملاطفة المسموح بها التي جذبتها الى تشارلز. لقـــد شاهدت مرة او مرتين الحيوانات في حالة السفاد، فظل العنف يستحوذ على عقلها.

هكذا ابتكرت ما يشبه الوصية الخاصة - كانت الكلمات المتعذر سماعها هي علـــى وجـــه الـــتحديد **لا ينبغي لي** - كلما حاولت الايماءات الجسدية الانثوية لجـــسدها الجنسية، ذات المساس بالحيض او بالولادة، ان تقتحم وعيها. لكن على الـــرغم من محاولة المرء ان يبعد الذئاب عن باب داره، فإنها تظل تعوي في الظلام. كانت ايرنستينا تريد زوجا، ان يكون تشارلز هو ذلك الزوج، تريد اطفالا، بيد ان الثمن الذي فكّرت على نحو غامض بوجوب دفعه بدا غاليا.

لقـــد كانـــت معظم نساء عصرها يشعرن بنفس المشاعر. وينطبق الامر على معظـــم الرجال ايضا. وليس مما يثير الدهشة ان الواجب قد اصبح مفهوما اساسيا في فهمـــنا العـــصر الفكـــتوري[17]؛ او فيما يخص هذه المسألة مفسدا للبهجة في عصرنا[*].

بعـــد ان هدأت ايرنستينا الذئاب اتجهت صوب منضدة الزينة، وسحبت احد الادراج، واخـــرجت مـــنه مفكـــرتها المغلفة بجلد اسود والمزودة بماسكة مذهبة. واخـــرجت مـــن درج اخر مفتاحا مخفيا وفتحت المفكرة. وعلى الفور نظرت في الـــصفحة الاخيرة. كانت قد كتبت فيها في يوم خطوبتها لتشارلز تواريخ الاشهر والايـــام الـــتي تفصلها عن الزواج. ورأت الخطوط الصغيرة التي خطتها في خلال الشهرين الماضيين ولا يزال هناك ما يقرب من التسعين رقما. وهنا تناولت ايرنستينا

---

(17) العصر الفكتوري: منسوب الى الملكة فكتوريا الانكليزية (1837-1901). (المترجم)

(*) المقطعـــان المأخـــوذان مـــن قصيدة «احياء لذكرى ارثر هنري هالم» اللذان اوردتهما في مـــستهل هـــذا الفـــصل مناسبان في هذا المقام. من المؤكد ان اكثر الحجج غرابة في تلك المجموعة الشهيرة للقلق في الحياة بعد الموت معبر عنه في المقطع (35) من هذه القصيدة. ان الـــزعم بأن الحب لا يمكن ان يكون الا بهيئة شبق مفرط اذا انعدم خلود الروح انما هو هـــروب مصحوب بذعر من (فرويد). لقد كانت السماء عند الفكتوريين سماء الى حد كبير لأن الجسد - يترك على الارض مع رغباته الجنسية. (المؤلف)

القلـــم الرصاص الذي تعلوه قطعة من العاج والمثبت في اعلى المفكرة وشطبت يوم السادس والعشرين من اذار/مارس. لا تزال هناك تسع ساعات على انقضاء اليوم، غـير انها كانت تسمح لنفسها باللجوء الى هذا الغش البسيط عادة. ثم عادت الى بداية المفكرة، او قربها، اذ كانت هدية من هدايا العيد، وقلبت حوالى خمس عشرة صـفحة مكـتوبة بخط انيق حتى وصلت الى صفحة خالية كانت قد وضعت فيها زهـرة يـاسمين. نظرت اليها نظرة ملية برهة وجيزة ثم مالت كي تشم رائحتها، فانـثال شـعرها فـوق الصفحة، واغمضت عينيها لترى ان كان في وسعها ان تـستدعي مرة اخرى اكثر الايام بهجة، اليوم الذي ظنت انها ستموت فيه من فرط سعادتها، اليوم الذي بكت فيه على نحو متصل، اليوم الذي يفوق الوصف...

بـيد انهـا سمعـت وقع اقدام الخالة ترانتر على السلالم، فاسرعت الى اخفاء المفكرة، وبدات تمشط شعرها البني الرقيق.

6

آه يـا مـود، ايتها الظبية البيضاء كالحليب، انت لا تصلحين ان تكوني زوجة ابدا.

تينيسون – مود 1855

كـان وجه السيدة بولتيني يعبر عن جهل واضح عصر ذلك اليوم الذي رجع فـيه القس والمح اليها عن بلاغه. فمع سيدات من طرازها، تكون الدعوة الفاشلة في المعرفة في اغلب الاوقات دعوة ناجحة لعدم الموافقة اذ كان وجهها يناسب تماما الـرأي الثاني. وكانت عيناها لا تشبهان ابدا **بيوت الصلاة الساكنة** التي عبر عنها تينيـسون. اما الجزء السفلي من خديها فكان يغطيهما اللُغْد تقريبا ويضغط على شـفتيها معا في رفض في محله لكل شيء يهدد مبدأيها في الحياة: الاول هو (وهنا استعير عبارة ترايتشكي[18] الساخرة) **الحضارة صابون** والثاني هو ان **الشيء الجدير بـالاحترام هـو الـشيء الذي لا يلحق الاساءة بـي**. كانت تشبه احد ابناء بكين البـيض، واذا توخيـنا الدقة اكثر فإنها تشبه احد ابناء بكين المنتفخين لأنها كانت تخفي تحت صدرها جيبا يحتوي على الكافور كي يقيها من الكوليرا: – وهذا فإنها حيثما كانت، برز منها دوما شيء محفوظ – لا اعرفها.

شـعر القس انه عومل بازدراء. وتساءل: ما الذي قد يحدث لو ان السامري الرحيم[19] صادف السيدة بولتيني بدلا من المسافر المسكين.

---

(18) ترايتشكي، هنري، (1834–1896) مؤرخ الماني. (المترجم)

(19) اشارة الى رواية السامري الوارد ذكرها في انجيل لوقا (الفصل العاشر: 30–35) التي تقول ان عيـسى المسيح قال: كان رجل منحدرٌ من اورشليم الى اريحا فوقع بين لصوص فعرّوه وجـرحوه ثم مضوا وقد تركوه بين حي وميت فاتفق ان كاهنا كان منحدرا في ذلك الطريق فابـصره وجاز وكذلك لاوي وافى المكان فابصره وجاز ثم ان سامريا مسافرا مر به فلما راه تحنن فدنا اليه وضمد جراحاته وصب عليها زيتا وخمرا وحمله على دابته واتى به الى فـندق واعتنـى بامره وفي الغد اخرج دينارين واعطاهما لصاحب الفندق وقال اعتنِ بامره ومهما تنفق فوق هذا فانا ادفعه لك عند عودتي. (المترجم)

– لم افترض انك تعرفينها، فهي فتاة من تشارماوث.

– فتاة؟

– لست متأكدا من عمرها. انها امرأة، سيدة في نحو الثلاثين، ربما اكثر. لا اريد ان اجازف بالتخمين.

شعر القس انه بدا حديثه بداية ضعيفة عن المدعي عليه الغائب.

– انها قضية مثيرة للشجن، وتستحق الكثير من عطفك.

– اهي متعلمة؟

– نعم، حقا. لقد درست لتصبح مربية اطفال، بل كانت هي مربية في الحقيقة.

– ماذا تفعل الان؟

– اظنها بلا عمل.

– لماذا؟

– انها قصة طويلة.

– من المؤكد انني ارغب في سماعها قبل ان تباشر.

هكذا جلس القس ثانية، واخبرها بما كان يعرفه او بقسم مما كان يعرفه عن سارة وودراف لأنه قرر ان يضع حياته في خطر في محاولة شجاعة لانقاذ روح السيدة بولتيني.

– كان والد الفتاة يقيم في منزل اللورد ميريتون بالقرب من بيمنستر. وهو فلاح لا اكثر، بيد انه رجل ذو مبادئ سامية وكان يحظى باحترام فائق وسط جيرانه. وقد زود الفتاة بثقافة افضل مما يمكن ان يتصور اي شخص.

– اهو متوفى؟

– منذ بضع سنوات. واشتغلت الفتاة مربية في اسرة القبطان جون تالبوت في تشارماوث.

– افي وسعه تزويدنا برسالة معلومات عنها؟

– اذا كنت قد فهمت محادثتنا السابقة فهما صحيحا، فاننا نناقش عملا من اعمال البر يا عزيزتي السيدة بولتيني وليس طلب وظيفة.

هزت رأسها قليلا وهي اقرب علامة على الاعتذار عرفت بها حقا.

– ممـــا لا ريب فيه ان الحصول على مثل هذه الرسالة امر ممكن. لقد تركت بيـــته بـــناء علـــى رغبتها. اما القصة فهي كما يلي: لا بد انك تتذكرين المركب الفرنـــسي الذي اظن بانه قد جاء من سانت مالو ودفعت به الرياح العاتية في شهر كانون الاول/ديسمبر الماضي قرب بلدة ستونبارو. مما لا ريب فيه انك تتذكرين ان ثلاثـــة مـــن طاقم المركب قد انقذ حياقم اهالي تشارماوث وكان اثنان من بينهم بحارة لا اكثر. اما الثالث فهو ضابط المركب وقد اصيبت ساقه اصابة شديدة عند الـــصدمة الاولى، بـــيد انه تشبث باحد الصواري ووصل الى الشاطئ. لا بد انك قرأت عن الموضوع.

– من المحتمل تماما. انني لا احب الفرنسيين.

– ولمـــا كان القبطان تالبوت ضابطا بحريا هو الاخر، فقد طلب من اهل بيته ان يولـــوا العناية للضابط الاجنبـــي الذي لم يكن يتحدث الانكليزية واستدعيت الانسة وودراف للترجمة والعناية به.

– اتتحدث بالفرنسية؟

كان ذعر السيدة بولتيني لهذا الاكتشاف الرهيب كافيا تقريبا لاغراق القس. بيد انه انحنى وابتسم على نحو مهذب.

– هذا شأن معظم مربيات الاطفال يا سيدتي العزيزة. وليس العيب فيهن اذا كـــان العـــالم يتطلب منهن مثل هذه الامور. لكن لنعد الى السيد الفرنسي. انني اعرب عن اسفي اذ اقول بانه لم يكن يستحق تلك الصفة.

– سيد فورسايث!

انتـــصبت في مكانهـــا ولكن ليس على نحو اقوى مما ينبغي لئلا تضطر الرجل المسكين الى ان يصمت.

– انـــني اســـارع الى القول بأن اي سلوك شائن لم يحدث في بيت القبطان تالبوت او بقدر ما يتعلق الامر بالانسة وودراف في اي زمان او مكان لاحقين. اذ قطع لي السيد فورسي – هاريس عهدا بذلك. وهو على دراية بالظروف على نحو افضل مني.

الشخص الذي ورد ذكره هو قس بلدة تشارماوث.

– بيد ان الرجل الفرنسي تمكن من اللعب بعواطف الانسة وودراف.

وعندما شفيت ساقه سافر بالعربة الى ويماوث، كما يفترض عموما، ليعود الى وطـــنه. وبعد مرور يومين على رحيله طلبت الانسة وودراف من السيدة تالبوت وعلـــى جـــناح السرعة ان تسمح لها بترك عملها. وقد قيل لي ان السيدة تالبوت حاولت انتزاع اسباب المرأة، لكن دون جدوى.

– وتركتها تمضي دون اشعار؟

انتهز القس فرصته على نحو ذكي.

– صـــحيح. كان تصرفا في منتهى الحماقة. كان ينبغي لها ان تدرك ادراكا افـــضل. ولـــو ان الانـــسة وودراف كانت تعمل في وظيفة تتصف بوعي اكبر لما راودني الشك في استحالة حدوث مثل هذه الواقعة.

توقف هنيهة ليترك السيدة بولتيني تدرك الاطراء المستتر.

– سأختـــصر في ســـرد قصتي. لحقت الانسة وودراف بالرجل الفرنسي في ويمـــاوث. فاصبح سلوكها هذا يستحق الشجب والاستنكار، غير انني علمت انها مكثت هناك مع احدى قريباتها.

– ذلك لا يغفر لها في نظري.

– مـــؤكدا، الا انـــه ينبغي ان تتذكري انها ليست سيدة بالفطرة. فالطبقات الدنيا لا تدقق كثيرا في المظاهر كما هو شأننا. يضاف الى ذلك، انني اغفلت القول بـــأن الـــرجل الفرنسي اخذ عهدا على نفسه ان يخطب الفتاة وقد ذهبت الانسة وودراف الى ويماوث معتقدة انها ستتزوج.

– لكن هل هو غير كاثوليكي؟

كانـــت السيدة بولتيني ترى نفسها مثل جزيرة باتموس[20] في محيط هائج من الكثلكة.

– اخشى ان سلوكه ينم عن عدم ايمانه بأي معتقد مسيحي. الا انه بلا ريب قـــد اخـــبرها انه واحد من افراد طائفتنا الدينية السيئة الحظ في ذلك البلد الضال. وبعد مرور بضعة ايام قفل راجعا الى فرنسا بعد ان قطع وعدا للانسة وودراف بانه حالمـــا يلتقي اهله ويزود بسفينة جديدة – من اكاذيبه الاخرى انه سيرقى الى رتبة

(20) باتمـــوس: اصـــغر الجـــزر اليونانية تبلغ مساحتها 11 ميلا مربعا وكانت فيما مضى منفى واصبحت فيها مدرسة دينية في العام 1669. (المترجم)

نقـــيب اثر عودته - فسيعود ثانية الى هنا، الى لائم نفسها كي يتزوجها ويأخذها معـــه. ومنذ ذلك الوقت وهي تنتظره. من الواضح تماما ان الرجل كان مخادعا بلا قلب. ومما لا ريب فيه انه كان يمنّي نفسه بارتكاب فعل احمق، مقيت ازاء المخلوقة المـــسكينة في ويماوث. لكن عندما كشفت له مبادؤها الدينية القوية عبث مراميه، رحل عنها.

- ما الذي حدث لها منذ ذلك الحين؟ من المؤكد ان السيدة تالبوت لم تعدها ثانية.

- الـــسيدة تالبوت امرأة غريبة الاطوار الى حدٍّ ما يا سيدتي. وقد عرضت ان تعـــيدها مرة اخرى. غير انني اصل الان الى الخاتمة الحزينة لقصتي هذه. ان الانسة وودراف ليـــست مخـــبولة. حاشا ان تكون كذلك. انها قادرة تماما على انجاز اي اعمـــال توكل اليها. بيد انها تعاني من نوبات كآبة عنيفة. لا شك ان سبب ذلك يعود جزئيا الى الندم. لكنه يعود ايضا، وهو ما اخشاه، الى الوهم الثابت في عقلها بـــأن الملازم رجل شريف وانه سيعود اليها يوما ما. لهذا السبب، ربما تشاهد غالبا وهـــي تتردد على سواحل البحر القريبة من بلدتنا. وقد حاول السيد (فورسي - هاريس) جادا ان يبين للمرأة لا جدوى سلوكها هذا فضلا عن افتقاره إلى اللياقة. انها جزعة قليلا يا سيدتي.

ران الـــصمت بعـــد ذلك. وكيَّف القس نفسه وفق سيد وثني - للاحتمال المحـــض. ادرك ان الـــسيدة بولتيني كانت منهمكة في التفكير. ففكرتها عن نفسها تطلـــبت مـــنها ان تبدو مذعورة، فزعة، لفكرة السماح لمثل هذه المخلوقة بدخول بيت مارلبورو. لكن ينبغي تبرير مثل هذا العمل امام الله.

- الديها اقارب؟

- لا استنتج ذلك.

- كيف اعالت نفسها منذ...؟

- علـــى نحو يدعو للشفقة غالبا. ادرك انها كانت تقوم ببعض اشغال التطريز واظن ان السيدة ترانتر استخدمتها لانجاز مثل هذا العمل الا انها تعيش في الاساس على ما ادخرته من موقعها السابق.

- لقد ادخرت اذا.

استرد القس انفاسه مرة اخرى.

– لو قبلت بها يا سيدتي فانني اعتقد انها ستجد الخلاص حقا.

وهنا لعب ورقته الرابحة.

– وربما ستخلص غيرها ايضا على الرغم من انني لست في موقع الحكم على ضميرك.

وفجاة غشيت السيدة بولتيني رؤيا سماوية تحير البصر. انها رؤيا السيدة كوتون وقد انخلع انفها الطاهر. قطبت حاجبيها، وأمعنت النظر في سجادتها الكثيفة الوبر.

– احب ان استدعي السيد فورسي – هاريس.

بعد مرور اسبوع جاء السيد فورسي – هاريس يرافقه قس بلدة لايم ورشف الشراب الفرنسي وتحدث بمثل ما نصحه به زميله القس بعد ان حذف منه ما اراد. كما قدمت السيدة تالبوت رسالة مطولة ضمنتها معلومات، اضرت اكثر مما نفعت، لأنها فشلت تماما في ادانة سلوك المربية ادانة كافية. وقد اثارت عبارة واحدة على وجه الخصوص من غضب السيدة بولتيني: «كان المسيو فارغون شخصا جذابا الى حدّ كبير وقد رغب القبطان تالبوت في ان اقول لك ان حياة البحار ليست افضل مدرسة للاخلاق». كما لم تهتم ايضا للعبارة القائلة ان الانسة سارة وودراف كانت «معلمة مطيعة وماهرة» او لعبارة «ان اطفالي الصغار مشتاقون اليها كثيرا» بيد ان لين السيدة تالبوت الواضح وعدم دقة معاييرها وانفلات عواطفها الاحمق ساعد في النهاية سارة مع السيدة بولتيني. فقد مثل ذلك تحديا لها.

هكذا جاءت سارة لاجراء المقابلة وهي في صحبة القس. وقد اثارت بهجة السيدة بولتيني سرا منذ البداية اذ ظهرت منبوذة، سحقتها الظروف على نحو بالغ. وبدت على نحو يدعو الى الارتياب كما هي حقا – فتاة في الخامسة والعشرين وليس في «الثلاثين او ربما اكبر من ذلك». لكن حزنها الوحيد البالغ الوضوح كان ظاهرا على محياها مما يدل على انها كانت اثمة. ولم تكن السيدة بولتيني لترغب في عمل اي شي لاي شخص لا يبدو واضحا جدا انه من ذلك الصنف. ثم هناك احتياطيها من المال الذي اعتبرته السيدة بولتيني عرفانا صامتا.

يـضاف الى ذلك كله، ان وجود الذكريات عن الكثير من الخدم الذين غادروا المنـزل جعل السيدة العجوز تنفر من الوقاحة والجرأة وهما صفتان ترادفان في تجـربتها الحديث قبل الاستئذان وتوقع الطلبات مما يحرمها من متعة الاستفسار عن سبب عدم التوقع.

بعـد ذلـك كتبت رسالة بناء على اقتراح من القس. كان الخط جميلا جدا والهجـاء يخلـو من الاخطاء. بل الها وضعت اختبارا اكثر مكرا، اذ اعطت سارة انجـيلها، وطلبت اليها ان تقرأ. كانت السيدة بولتيني قد فكّرت في اختبار المقطع وكانت ممزقة النفس بين المزمور (119): «طوبى للكاملين في سلوكهم» والمزمور (140): «انقـذني يا رب من انسان السوء». وفي نهاية المطاف اختارت الاول. و لم تـصغ للصوت الذي كان يتلو حسب، بل اصغت ايضا لاي علامة قاتلة تشير الى ان كلمات ناظم المزامير لم تصب في قلب القارئ.

كـان صوت سارة ثابتا وقويا الى حدّ ما، وكان يحتفظ باثار لكنة ريفية غير ان اللكـنة الـرقيقة في تلك الايام لم تكن متطلبا (مستلزما) اجتماعيا كبيرا كما حـدث بعـد ذلك. فقد كان هناك رجال في مجلس اللوردات، بل دوقات ايضا، ظلوا محتفظين بلكنة اقاليمهم، و لم يظن احد سوءا بهم. ولعل صوتها ارضى السيدة بولتيني اول الامر مقارنة مع تلعثم السيدة فيرلي الذي يعوزه الالهام. لقد خلب لبها. وهكـذا الامـر فيما يخص سلوك الفتاة وهي تقرأ: «ان عاداتي موجهة كي تحفظ شرائعك».

وهنا بقي استجواب قصير.

– ان السيد فورسايث يخبرني بانك مرتبطة بهذا الشخص الاجنبـي.

– لا ارغب في الحديث عن ذلك يا سيدتي.

لـو ان اي خادمة تجرأت وتفوهت بمثل هذه العبارة امام السيدة بولتيني فإن يـوم الغضب سيحل بعد ذلك. الا ان هذه العبارة قيلت صراحة، بلا خوف، لكن على نحو يدعو الى الاحترام. وهكذا تركت السيدة بولتيني اول مرة الفرصة الذهبية تفوت دون ان تستأسد.

– لا اسمح بوجود كتب فرنسية في منـزلي.

– لا املك ايا منها. ولا حتى كتبا انكليزية يا سيدتي.

في وســـعي ان اضـــيف انها لم تكن تملك اي كتاب لأنها باعت كتبها كلها وليس لأنها نذير مبكر بماكالوهان[21] الفظيع.

- من المؤكد ان لديك انجيلا؟

هزت الفتاة رأسها علامة النفي. فتدخل القس.

- سأهتم بذلك يا عزيزتي السيدة بولتيني.

- قيل لي انك دوما تقضين الوقت في الامور الدينية.

- نعم يا سيدتي.

- ارجو ان تظلي كذلك. نسأل الله العزاء في شدائدنا كلها.

- احاول ان اشاطرك ايمانك يا سيدتي.

وهنا طرحت السيدة بولتيني اصعب اسئلتها، وهو سؤال سبق ان طلب منها القس الا تطرحه.

- ماذا سيحدث لو ان هذا... الشخص قد عاد؟ ماذا سيحدث؟

الا ان ســـارة مـــرة اخرى قامت بافضل ما تستطيع: لم تقل شيئا، بل احنت رأســـها لا غـــير ومـــن ثم هزته. فسمحت السيدة بولتيني لنفسها وهي في افضل حالات مزاجها ان تدرك بأن تلك علامة الندم الصامت.

لذلك بدات عملها الصالح.

لم يخطـــر في بالهـــا ان تـــسأل عن السبب الذي يدفع سارة الى الدخول في خدمـــتها بينما كانت قد رفضت في السابق وظائف العمل من اشخاص اقل تزمتا مـــن السيدة بولتيني. كان هناك سببان اثنان بسيطان: الاول هو ان بيت مارلبورو كـــان يطـــل على خليج لايم على نحو رائع. اما الاخر فهو اشد بساطة: كانت لا تملك الا سبعة بنسات في هذا العالم.

---

(21) هربـــرت مارشال ماكلوهان (1911) مفكر كندي في ميدان التربية والاتصالات، امن بقوة تأثيـــر التلفزيون والكُمبيوتر وغيرها من وسائل الاتصال الالكترونية في انماط الفكر سواء في علم الاجتماع، الفن، العلوم او الدين وقال ان مستقبل الكتاب زائل لا محالة نتيجة لذلك. اهم مؤلفاته (الوسط هو الرسالة - 1967). (المترجم)

7

ان الانتاجية الاستثنائية في الصناعة الحديثة... تسمح بالاستخدام غير المنـتج لعدد اكبر واكبر من اوساط الطبقة العاملة وبالتالي اعادة تقديم عبـيد المنازل القدامى، على نطاق متسع دوما، تحت اسم طبقة الخدم، بمن في ذلك الخدم، الخادمات والخدم من ذوي البزات الخاصة، الخ.

ماركس - رأس المال 1867

عندما فتح سام الستائر، غمر الصباح تشارلز مثلما كانت السيدة بولتيني - الـتي كانت لا تزال تغط في النوم - تتمنى لو ان الجنة تغمرها بعد موتها اثر توقف مهيب، اذ ان مناخ شاطئ دورسيت اللطيف يوفر مثل هذه الايام عشر مـرات او ما يقرب من ذلك في العام الواحد. ولا يوفر هذا المناخ اياما مقبولة في غير اوانها، بل جزء ساحر من دفء المتوسط واشراقه. وتصاب الطبيعة بمس مـن الجنون في اثناء ذلك. فالعناكب التي ينبغي ان تكون في سبات، تتراكض فـوق صـخور تـشرين الـثاني/نوفمبر الحارة، وتشدو الشحارير في كانون الاول/ديسمبر، وتتفتح زهور الربيع في كانون الثاني/يناير، ويحاكي اذار/مارس، حزيران/يونيو.

جلـس تشارلز منتصبا في فراشه وخلع قلنسوة النوم على عجل، وترك سام يفـتح النافذة على مصراعيها واستند الى يديه وشرع يمعن النظر في شعاع الشمس الـذي فـاض في الغرفة. زالت الكآبة الحقيقية التي اثارت الغم في نفسه في اليوم السابق مع زوال السحب، وشعر ان هواء الربيع الدافئ، يشق طريقه بلطف داخل قميص نومه نصف المفتوح ويتجه صوب رقبته المكشوفة. وقف سام يشحذ شفرة الحلاقـة في حـين تـصاعد البخار على نحو جذاب مذكرا الى حدّ ما بذكريات بروسـتية، اذ كشف عن العديد من الايام السعيدة والثقة الكبيرة بالمكانة والنظام والهـدوء والمدنـية من خلال الابريق النحاسي الذي اتى به معه. وفوق الشارع المرصوف بالحجارة من تحت، كان ثمة راكب يسير بهدوء متجها صوب البحر، في حين عبثت نسمة اكثر قوة بالستائر المخملية ذات اللون الاحمر قرب النافذة. لكنها

ظلــت جمـــيلة تحت ذلك الضياء. كان كل شيء حسنا تماما. ومن شأن العالم ان يكون دوما في هذا الزمان، في هذه اللحظة.

كـــان هناك عَدْو خفيف الوقع لحوافر صغيرة، ثغاء ومواء لا ينقطعان. نهض تشارلز ونظر من النافذة. كان ثمة رجلان مسنان يرتديان ثيابا فضفاضة ويتجاذبان اطــراف الحديث في مواجهته، احدهما راعٍ يتكئ على عصاه في حين وقفت اثنتا عـــشرة شاة والكثير من الحملان بقلق وسط الشارع. لقد اصبحت بقايا مثل هذا الــزي الفلكلوري الخاص بانكلترا القديمة صورة رائعة بحلول العام 1867 الا انه لم يكـــن زيـــا نادرا. ففي كل قرية، هنالك اكثر من عشرة مسنين يرتدون مثل تلك الملابـــس. رغـــب تشارلز في ان يقدر على لفت الانتباه. فقد كان الريف ساحرا حقا. وهنا التفت الى خادمه.

– قسما بشرفي يا سام انني في مثل هذا اليوم يمكن ان افكر بالا اشاهد لندن ثانية ابدا.

– لو بقيت واقفا امام الهواء فلن تراها ايضا يا سيدي.

نظـــر الـــيه سيده نظرة ساخرة. فقد مضى على وجوده مع سام اربعة اعوام ويعـــرف احـــدهما الاخـــر افضل مما يعرف شريكان بعضهما بعضا في الكثير من البيوت التي يعتقد ان الفة اكبر تسودها.

– لقد عدت الى الشراب يا سام.

– لا يا سيدي.

– هل الغرفة الجديدة افضل؟

– نعم يا سيدي.

– وحجرة الطعام؟

– مرضية تماما يا سيدي.

– هذا يتطلب الاثبات. كانت مرحلة الصباح عسيرة عليك، تدفع البخيل الى الغناء. اذا كنت تتناول الشراب.

اختـــبر ســـام حافة الشفرة القاطعة فوق طرف ابهامه الصغير وقد بانت على وجهه أمارات تشير الى انه في اي لحظة قد يغير من رايه ويجرها فوق رقبته، او ربما حتى فوق وجه سيده الباسم.

- انها فتاة المطبخ في بيت السيدة ترانتر يا سيدي. انني اذهب...

- ارجو ان تضع هذه الالة جانبا وتوضح كلامك.

- لقد شاهدتها. هناك في الخارج.

ثم هز ابهامه في اتجاه النافذة:

- كانت تنادي من الجهة الاخرى من الشارع.

- ما الذي كانت تناديه؟

ازدادت تعابير سام عمقا حتى كاد يزعق:

- الديك كيس لجمع السخام؟

ثم توقف مكتئبا:

- هذا ما نادت به، يا سيدي.

ابتسم تشارلز ابتسامة عريضة.

- انـــي اعرف الفتاة. اهي الفتاة ذات الرداء الرصاصي؟ التي لا يمكن النظر اليها لفرط قبحها؟

كـــان كلاما قاسيا من تشارلز لأنه كان يتحدث عن الفتاة التي رفع لها قبعته في عصر اليوم السابق. وهي مخلوقة تصلح للزواج وفي وسع بلدة لايم ان تفخر بها.

- ليست قبيحة تماما، في مظهرها في الاقل.

- آه، ان سيد الحب غير عادل مع اهالي لندن الفقراء.

بانت نظرة ساخطة على وجه سام.

- لـــيس مـــن شأني ان اؤذيها بأي شيء. انها عاملة ناضرة الوجه في حقل الالبان.

- اظنك تستخدم الكلمات بمعناها الحرفي يا سام. جائز انك ولدت في حانة، كما اكدت انت مرارا...

- بل في البيت المجاور لها يا سيدي.

- بالقرب منها. الا انني لن اسمح لك ان تتكلم بلغة اهل الحانة في يوم كهذا.

- انه الاذلال يا سيد تشارلز، وقد سمع كل سائسي الخيل بالامر.

فـــيما شمل كل سائسي الخيل شخصين اثنين تماما، احدهما اصم، فإن تشارلز لم يظهر سوى قدر ضئيل من التعاطف.

ابتسم، ومن ثم اشار الى سام بصب الماء الحار.

– الان احـــضر لي فطوري، ايها الصديق الطيب. سأحلق ذقني بنفسي هذا الصباح. اريد ان آكل فطيرتين اثنتين.

– نعم يا سيدي.

بيد ان تشارلز اوقف سام الساخط قرب الباب، وهدده بفرشاة الحلاقة.

– الفتـــيات الريفيات كثيرات الخجل فلا يصح ان يطلقن مثل هذه العبارات الفظـــة عليهن امام سيد بارز من سادة لندن الا اذا تعرضن للاستفزاز. اول الامر على نحو مؤلم. اخشى انك تسرعت تماما يا سام.

وقف سام فاغرا فاه.

– واذا لم تسرع في احضار طعامي فانني سأربط حذائي بمؤخرتك.

اغلـــق الـــباب، لكن ليس على نحو بالغ الرقة. بينما غمز تشارلز لنفسه امام المرآة. ثم تظاهر فجأة بانه اكبر سنا بمقدار عقد من الزمن: كل الرصانة والجد لرب الاســـرة الـــشاب الوقور. ثم ابتسم ابتسامة متسامحة امام وجوهه المتعددة وشعوره بالنـــشاط والخفـــة. وانتصب وانهمك في تأمل ملامحه تأملا رقيقا. كانت ملامحه اعتـــيادية تماما – جبين مستعرض، وشارب اسود مثل شعر رأسه الذي بان اشعث بعد خلعه قلنسوة النوم مما جعله يبدو اصغر سنا مما هو حقا. كانت بشرته شاحبة على نحو مناسب على الرغم من انها اقل شحوبا من الكثيرين من السادة في لندن – ففـــي ذلـــك الـــوقت لم تكـــن لفحة الشمس رمزا جنسيا مرغوبا على المكانة الاجتماعـــية، بل على العكس، كانت اشارة على المرتبة الدنيا. نعم. ومن خلال تفحـــصه وجهه، تبين له انه عبارة عن وجه احمق في لحظة كهذه. ومرت به موجة صـــغيرة مـــن ملل اليوم السباق. انه وجه بريء اكثر مما ينبغي عندما يجرد قناعه الـــشكلي الذي يتخذه خارج المنـــزل؛ لم يحقق الا الشيء القليل. ولم يكن هناك حقـــا سوى الانف المفلطح والعينين الرماديتين الهادئتين. اما التهذيب والمعرفة فهما الشيئان اللذان كان يملكهما حقا اكثر من اي شيء.

وهنا بدا يغطي وجهه الغامض برغوة الصابون.

كـــان سام اصغر سنا منه بعشر سنوات، غير انه لا يصلح للخدمة، اضافة الى انه شارد الذهن، مزهو، مشاكس، يظن نفسه حاد الذهن، شديد الولع بالضحك،

كسول، يحتفظ في زاوية فمه بقطعة صغيرة من البقدونس او عود من التبن، يهوى الجياد او وضع العصافير تحت منخل عندما ينادى عليه من الطابق العلوي.

ان اي خادم من اهالي لندن الفقراء اسمه سام يثير في نفوسنا على الفور ذكرى ويلر الخالد. والمؤكد تماما ان سام هذا برز من ذلك الماضي. الا ان ثلاثين سنة مرت على ظهور مذكرات بيكويك في هذا العالم، كما ان هيام سام بالفرس لم يكن عميقا حقا بل كان اشبه برجل حديث من الطبقة العاملة يظن ان معرفة السيارات معرفة دقيقة انما هو دليل على التقدم الاجتماعي. كما انه لم يعرف شيئا عن سام ويلر عن طريق الكتاب، بل عن المسرحية المعدة عن الكتاب. وكان يعرف ان الزمن قد تغير. وان معرفة جيله من ابناء لندن الفقراء اوسع من ذلك. واذا ما ارتاد الاصطبلات فإن هدفه يتمثل في اظهار معرفته الاوسع امام سائسي الخيل وندل الحانات.

شهد منتصف القرن شكلا جديدا تماما من اشكال الاناقة الشديدة يبرز في الساحة الانكليزية. فمجموعة الطبقة العليا القديمة الشاحبة المتحررة من الرجال الشديدي الاناقة كانت تعرف باسم الطبقة **الانيقة**. بيد ان الحرفيين الشبان الجدد الذين انتعشت احوالهم واولئك الذين اصبحوا من كبار الخدم شأن سام شرعوا ينافسوهم في الثياب الجاهزة. وكانت الطبقة المتأنقة تطبق عليهم صفة **المقلد لمن هو ارقى منه**. كان سام نموذجا صحيحا لمثل هؤلاء المقلدين بهذا المعنى المحدد للكلمة. فقد كان لديه احساس حاد بطبيعة الازياء؛ وهو احساس يستوي في حدته واحساس الشبان المتأنقين في ستينيات القرن العشرين. وكان يصرف معظم نقوده في شراء احدث الملابس. واظهر علامة اخرى من علامات هذه الطبقة الجديدة في صراعه من اجل التمكن من اللغة.

بحلول العام 1870 كان عجز سام ويلر المعروف في عدم قدرته لفظ الصوت (ف) الا بصورة الصوت (و) – وهي علامة دالة على سكان لندن منذ قرون عديدة – محط احتقار **المقلدين** والروائيين البورجوازيين الذين استمروا فترة من الوقت على ادراج ذلك على نحو غير دقيق في حوار شخصياتهم اللندنية الفقيرة. لقد كان صراع المقلدين يمس مسا شديدا صوت الحرف (هـ). وهو صراع عنيف في حالة صديقنا سام ينتهي في اغلب الاحوال بالهزيمة لا النصر، غير ان لفظة

صوت الحرفين (ا) و(هـ) لفظا خاطئا لم يكن لفظا مضحكا حقا، بل كان اشارة على ثورة اجتماعية وهو امر اخفق تشارلز في ملاحظته وادراكه.

لعل ذلك سببه ان سام كان يوفر شيئا ضروريا جدا في حياته - فرصة يومية للحديث، للعودة الى ايام التلمذة، التي يستطيع تشارلز من خلالها - اذا جاز التعبير - ان يظهر ولعه الباعث على الاسى في التوريات والتلميحات المتكلفة: دعابة تعتمد على الامتياز الثقافي، مصحوبة بتجرد مقزز على نحو فريد. لكن على الرغم من ان نزعة تشارلز قد تلوح وهي تزيد الطين بلة فيما يخص الاستغلال الاقتصادي، فانه لا بد لي من التوضيح ان صلته بسام كانت تظهر حقا حبا من نمط ما، رابطة انسانية كانت افضل بكثير من الحاجز الصلد الذي كان يعمل انذاك الكثير من الاثرياء الجدد في عصر مشبع بثروات جديدة على اقامته بينهم وبين خدمهم.

مما لا ريب فيه ان تشارلز كان عنده العديد من الخدم البدائل. اما الاثرياء الجدد في عصره، فلم يملكوا ايا من هذه البدائل. كانوا في حقيقة الامر اولاد الخدم في اغلب الاحوال. لم يكن قادرا على تصور عالم بلا خدم، في حين كان الاثرياء الجدد قادرين على مثل ذلك التصور. وهذا مما جعلهم كثيري المطالب وهم في منزلتهم الرفيعة نسبيا. فحاولوا تحويل خدمهم الى الات في حين كان تشارلز يدرك ادراكا جيدا ان خادمه هو صاحبه ايضا الى حدّ ما - انه سانشو بانزا[22]، العنصر الهزلي الواطئ الذي كان يدعم هيامه الروحي بايرنستينا - دوروثي. باختصار، احتفظ بسام لأنه غالبا ما كان يسليه، وليس لأنه لم تكن هناك الالات افضل منه.

بيد ان الفرق بين سام ويلر وسام فارو - اي بين 1836 و1867 - كان ممثلا في الآتي: كان الاول سعيدا بدوره، اما الثاني فكان شقيا به. وكان من شأن ويلر ان يرد على الاهانة بانتقام لفظي بينما تيبس سام في مكانه، رفع من حاجبه، وادار ظهره.

(22) سانشو بانزا: خادم (دون كيشوت) في رواية سرفانتس الشهيرة، يمثل الجانب المادي ازاء سيده الحالم المثالي. (المترجم)

8

يجري البحر الآن حيث كانت الاشجار تنمو،
آه ايتها الارض كم شهدت، من متغيرات
هناك حيث يزمجر الشارع الطويل الان،
كان سكون البحر يسود.

التلال ظلال، وهي تسير
من شكل الى شكل، ولا شيء ثابت،
تذوب مثل ضباب، تلك الاراضي الصلدة،
تأخذ شكل غيوم، ثم تضيع.

تينيسون – احياء لذكرى 1850

لكن اذا اردت اليوم الا تفعل اي شيء، وان تكون محترما في الوقت نفسه، فافضل ذريعة تتذرع بها هي ان تنهمك في دراسة عميقة.

ليزلي ستيفن – تخطيطات من كيمبرج 1865

لم يكن سام وحده صاحب الوجه المكفهر في بلدة لايم ذلك الصباح، اذ استيقظت ايرنستينا وهي ذات مزاج لم تزده اشراقة اليوم الا سوءا. كان مرضها مألوفا. الا انه كان يستحيل تحميل تشارلز عواقبه. وهكذا، فعندما قدم على نحو مناسب في الساعة العاشرة للزيارة في منزل الخالة ترانتر وجد تلك السيدة وحدها في استقباله: لقد قضت ايرنستينا ليلة مضطربة قليلا وهي تريد ان تخلد الى الراحة. الا يرغب في المجيء عصرا لتناول الشاي عندما تتماثل الى الشفاء حتما؟

كان الرد على سؤال تشارلز الجزع: الا ينبغي استدعاء طبيب؟ هو النفي على نحو مؤدب، وعندها استأذن بالانصراف. واصبح لديه وقت كاف من الفراغ بعد ان امر سام بشراء ما يستطيع من زهور وحملها الى بيت المريضة الفاتنة مع الاستئذان بالسماح له ان يقدم زهرة او زهرتين من عنده للسيدة الشابة التي تكره السخام. وازاء هذه الخدمة البسيطة يتحرر من اعماله في ذلك

النهار مكافأة له (ليس كل أصحاب العمل الفكتوريين مسؤولين عن الشيوعية مسؤولية مباشرة).

كان خيار تشارلز بسيطا. فهو من شأنه ان يذهب حيثما تستدعي صحة ايرنـــستينا منه الذهاب. الا انه لا بد من الاعتراف بأن بلدة لايم ريجيس نفسها هي التي سهلت على نحو بهيج القيام بالتزاماته لما قبل الزواج. ستونبارو، بلاك فين، وير كليفز - هؤلاء الأسماء قد لا تعني الا القليل لك. بيد ان بلدة لايم تقع في وسط احدى المناطق الصخرية الناتئة المعروفة باسم صخرة لياس[23] الزرقاء. وهـــذه الـــصخرة غير جذابة لمن هو متعطش للمناظر الطبيعية وحسب. فهي رماديـــة اللـــون كئيبة تماما، خليط من انواع الطين المتحجر. لهذا فهي كالحة، منفرة اكثر مما هي جميلة. بل هي مضللة لأن طبقاتها هشة، تميل الى الانـــزلاق وكان من نتائج ذلك ان هذا الامتداد الصغير من الساحل الصخري الذي يصل الى اثني عشر ميلا او ما يقرب من ذلك تآكل بسبب البحر على مدار التاريخ اكثـــر من اي جزء اخر تقريبا في انكلترا. الا ان طبيعته ذات الاحافير الكثيرة وحـــركته جعلـــت منه قبلة علماء الاحاثة البريطانيين. وفي غضون المائة سنة الاخيرة او ما يقرب من ذلك، كان الانسان هو الحيوان الاكثر شيوعا على هذا الساحل بمطرقته الجيولوجية.

كـــان تشارلز قد زار قبل الان ما يعتبره اشهر المحلات في بلدة لايم تقريبا في تلـــك الايام - دكان الاحفوريات القديمة الذي اسسته ماري انينغ المدهشة، وهي امـــرأة لم تـــتلقَّ اي تعليم رسمي الا انها ذات موهبة في اكتشاف عينات جيدة غير مـــصنفة انـــذاك. وكانت اول انسان يشاهد عظام الاكصور[24]. ومن اكبر مخازي علم الاحاثة البريطاني هو ان اي نموذج محلي لم يكن يحمل صفة anningii الخاصة علـــى الرغم من ان العديد من العلماء في ذلك الزمن وظفوا مكتشفاتها بامتنان في ترسيخ شهرتهم الذاتية. وقد زار تشارلز هذا المكان تعبيرا عن تقديره لتلك الذكرى البارزة. ودفع من ماله لمختلف انواع الاصداف المتحجرة التي اشتهاها للخزائن التي كانت تغطي جدران مكتبه في لندن. على اي حال، كانت لديه خيبة امل واحدة،

---

(23) ذات صلة بقسم فرعي من العصر الجوارسي الاوربي. (المترجم)

(24) الاكصور: زحافة بحرية منقرضة سميكة الشكل. (المترجم)

اذ كـــان في ذلك الوقت متخصصا في فرع لم يملك دكان الاحفوريات القديمة ما يعرضه من نماذج لها للبيع الا قليلا.

كانـــت هـــذه الـــنماذج هي القنفذي الجلد[25] او القنفذ البحري المتحجر. وتـــسمى أحيانا القشور (وهي مأخوذة عن كلمة لاتينية تعني الغلاف الخارجي او الغدفـــة) في حين يسميها الاميركيون دولارات الرمل. وتختلف الغدف من حيث الشكل على الرغم من انها دوما متماثلة اشد التماثل، وتشترك في نموذج من الحزوز ذات الحافـــات الناتئة الدقيقة. وفضلا عن قيمتها العلمية فإنها عبارة عن اجسام في منتهـــى الجمال. كما تتمتع بفتنة اضافية متمثلة في صعوبة العثور عليها. فقد تنقب بحثا عنها اياما كثيرة ولا تعثر على واحدة منها، في حين ان الصباح الذي تعثر فيه على اثنتين او ثلاث منها انما هو صباح جدير بالذكرى. ولعل السبب الذي جعل تـــشارلز مفتونا بها على نحو لا شعوري هو انه رجل لديه وقت كافٍ يريد مَلءه كما انه هاوٍ بالفطرة. طبيعي ان لديه اسبابا علمية وامام زملائه من الهواة قد يقول ســـاخطا إن قـــنفذيات الجلـــد **اهمل شأنها على نحو مخجل** وهذا مسوغ مألوف لقـــضاء وقت طويل مما ينبغي في ميدان بالغ الصغر. لكن بغض النظر عن دوافعه، فقد انصرف بكليته الى الغدف.

الان نجـــد ان هـــذه الغـــدف لا تظهر من بين الصخور الزرقاء، بل من بين طـبقات مـــن حجر الصوان المركبة. وقد نصحه صاحب دكان الاحفوريات بأن الـــبقعة الممتدة الى غرب المدينة هي المكان الافضل للبحث وليس بالضرورة منطقة الساحل. وهكذا، فبعد مرور نصف ساعة على زيارة تشارلز الخالة ترانتر، عاد مرة اخرى الى الكوب.

كان السد الحاجز للامواج غير منعزل في ذلك اليوم. فهناك صيادون يكسون بمادة القطران ويصلحون شباكهم ويعملون بصفائح السرطان وجراد البحر. وهناك انـــاس من طبقة اعلى شأنا، وزوار مبكرون وسكان من المنطقة نفسها يتنـــزهون بجانـــب البحر المتموج واللطيف في هذا الوقت. ولاحظ تشارلز انه لا اثر لوجود المـــرأة الـــتي كانت تمعن النظر في البحر. ولم يعد النظر فيها او في سد الكوب بل

---

(25) القـــنفذي للجلد: واحد من قنفذيات الجلد وهي طائفة من الحيوانات البحرية تشمل نجم البحر والقنفذ البحري. (المترجم)

انطلـــق بخطوات سريعة مرنة تختلف اختلافا شديدا عن نـــزهاته المألوفة البطيئة في البلدة وسار على امتداد الشاطئ تحت وير كليفز.

مـــن شأنه ان يجعلك تبتسم، فقد كان مهيئا تماما لدوره. كان يرتدي حذاء ثقـــيلا بمـــسامير كبيرة ووقاء من نسيج يغلف ساقي بنطاله الفضفاض مصنوع من الصوف السميك. وكان لديه معطف ضيق وطويل على نحو لا معقول وقبعة ذات لـــون بيجي غير محدد، وعصا ضخمة من خشب الدردار كان قد اشتراها في اثناء طريقه صوب سد الكوب، وكيس كبير تستطيع ان تستخرج منه مجموعة ثقيلة من المطـــارق والاغطية والمفكرات وعلب الحبوب والقوائم واشياء اخرى لا يعلمها الا الله. ولا شيء يستعصي على فهمنا اكثر من منهجية الفكتوريين. وفي وسع المرء ان يـــشاهد ذلـــك على ابلغ ما يكون من الوضوح **وابلغ ما يكون من السخف** في النـــصيحة التي تقدم مجانا للمسافرين في الطبعات الاولى من كتب ارشاد السياح. ويتـــساءل المرء: اين يكمن العثور على اي متعة؟ وفي حالة تشارلز: كيف لم يشعر ان الثياب الخفيفة من شأنها ان تغدو مريحة اكثر؟ ان القبعة غير ضرورية؟ ان الحذاء الثقـــيل بمـــساميره الـــضخمة فوق شاطئ ينتشر فوقه الجلمود مناسب مثل حذاء التزحلق على الجليد؟

حـــسنا. اننا نضحك. لعل ثمة شيء مثير للاعجاب في هذا الفصل بين ما هو مـــدعاة للـــراحة وما هو مقبول. ونجد هنا، مرة اخرى، نقطة الاختلاف هذه بين قرنين: اهو الواجب(*) ذلك الذي يدفعنا ام لا؟ لو اننا اخذنا هذا الهاجس بالملابس، بالاستعداد لكل احتمال، على انه حماقة وجهل بما هو تجريبـــي فاننا نرتكب غلطة كـــبيرة، او ربمـــا تافهـــة، بشأن اسلافنا، كما اظن، لأن رجالا من مثل تشارلز، يشبهونه في ارتداء ثياب اكثر مما ينبغي ومزودين بمعدات اكثر من اللازم، هم الذين وضعوا اسس كل علومنا الحديثة. وكانت حماقتهم في ذلك الجانب ليست اكثر من

(*) بوصـــفي منكرا بأن مذهب اللا ادرية والالحاد في اواسط العصر الفكتوري لا الحديث كانا يـــرتبطان علـــى وجه التحديد بالمعتقد اللاهوتي، فالافضل ان اورد عبارة (جورج اليوت) الشهيرة: «الله لا يمكن تصوره، الخلود لا يصدق، الا ان الواجب امر ومطلق». وفي وسع المرء ان يضيف بأن الواجب امر من باب اولى في وجود مثل هذا الارتداد الديني المزدوج والفظيع. (المؤلف)

علامـــة تـــشير الى جدهم في علم اكثر اهمية من غيره. كانوا يدركون ان التفاسير الـــسائدة عـــن العالم غير دقيقة، وانهم سمحوا لنوافذهم المفتوحة امام الحقيقة بأن تـــشوها مسحة التقليد والدين والركود الاجتماعي؛ كانوا يعرفون، باختصار، ان امامهم اشياء لا بد من اكتشافها وان الاكتشاف ستكون له اهمية قصوى لمستقبل الانسان. اننا نعتقد - الا اذا كنا نعيش في مختبر ابحاث - انه لا يوجد امامنا شيء يـــستدعي الاكتـــشاف وان الاشياء الوحيدة ذات الاهمية البالغة لنا تخص حاضر الانسان. اهذا افضل لنا؟ ربما. بيد اننا لسنا الذين سيصدرون الحكم في النهاية.

لهـــذا لا يجدر بـــي ان اضحك كثيرا في ذلك اليوم عندما حاول تشارلز - وهـــو يدق وينحني ويتفحص طريقه على امتداد الشاطئ - للمرة العاشرة ان يجتاز فجـــوة اوســـع مما ينبغي بين الجلمود فانـــزلق على نحو مذل فوق ظهره. لم يكن تـــشارلز ليعتـــرض علـــى الانـــزلاق، فالنهار كان جميلا والاحفوريات كثيرة. وسرعان ما وجد نفسه وحيدا تماما.

تـــلألأ البحر، وصاحت طيور الكروان. بينما حلقت امامه مجموعة من طيور البحـــر صـــائدة المحار بالوانها السود والبيض والقرنفلية، وهي تبشر برحلته. وهنا ظهرت برك صخرية مغرية، ومرت في ذهن الرجل المسكين هرطقات مروعة: او لم يكـــن اكثـــر مدعاة للهو، لا، لا، اكثر فائدة من الناحية العلمية لو انه يدرس علم الاحياء البحرية؟ لعله يترك لندن ويقطن في بلدة لايم. بيد ان ايرنستينا ما من شأنها ان توافق على ذلك. ثم جاءت لحظة انسانية تماما - وانا سعيد ان اسجلها - القى فـــيها تـــشارلز نظرة حذرة من حوله وتأكد من عزلته التامة وبعدها خلع حذاءه والـــوقاء الـــذي يلفه وجوربيه. انها لحظة من لحظات تلاميذ المدرسة، وحاول ان يتذكـــر بيـــتا شـــعريا من هوميروس يجعل من تلك اللحظة لحظة فريدة. بيد ان اهتماماته تشتت لضرورة الامساك بسرطان صغير يتجه سريعا حيث سقطت على عينيه اليقظتين قطرات ماء.

بقـــدر ما قد تستخف بتشارلز لكثرة ما يحمل من ادوات، لعلك تستخف به ايـــضا بـــسبب افتقاره الى التخصص. لكن عليك ان تتذكر ان التاريخ الطبيعي لم يتـــصف بصفة تنتقص من القدر انذاك مثلما هو اليوم لكونه يعد هروبا من الواقع؛ وفي اكثـــر اوقـــات الهروب الى الوجدان. لقد كان تشارلز عالم طيور وعالم نبات

كفــوء ايــضا. وربما كان الافضل لو انه اغمض عينيه عن كل شيء سوى قنافذ البحــر الاحفــورية او وهب حياته لتصنيف الاشنات، اذا كان التقدم العلمي هو الــذي تــتحدث عنه، وحتى لو تمكنت من ان تثبت لي ان من شأن التخصص ان يكــون اكثــر فائدة لتشارلز، العالم غير الموهوب فانه ينبغي لي مواصلة القول بأن التعميم كان افضل لتشارلز الانسان. هذا لا يعني ان الهواة يستطيعون الاشتغال في كــل حقــل، اذ حري بهم ان يشتغلوا في كل حقل، ولتحل اللعنة على المتزمتين العلميين الذين يحاولون سجنهم في زنــزانة ضيقة.

كان تشارلز يسمى نفسه داروينيا، الا انه على الرغم من ذلك لم يفهم دارون حق الفهم. بيد ان دارون نفسه لم يفهم في ذلك الوقت. فالشيء الذي اثاره ذلك العبقــري هو سلم الطبيعة اللينياني[28] الذي كان مرتكزه العظيم متمثلا بعبارة: لا يمكــن لانــواع جديدة ان تدخل العالم. ويوضح هذا المبدأ الهوس اللينياني بالتصنيف واطلاق الاسماء وبتحجير ما هو كائن. وفي وسعنا ان نلاحظ هذا الهوس الان على أنه محاولــة محكــومة بقضاء وقدر لتثبيت واقرار ما هو في حالة تدفق مستمر حقا، ويبدو مناســبا تماما ان لينايوس نفسه اصيب بالجنون في نهاية المطاف، فقد ادرك انه في متاهة، الا انهــا ليست متاهة ذات جدران وممرات متغيرة على الدوام حتى إن دارون نفسه لم يــتخلص من القيود السويدية وقلما يمكن توجيه اللوم الى تشارلز بسبب الافكار التي خطرت بباله وهو يمعن النظر في الطبقات الصخرية في الجرف القائم من فوقه.

كان يعلم ان تلك المقولة سخيفة. الا انه وجد في الطبقات نظاما يبعث على الثقة الى حــدٍّ كــبير في الوجود. ربما وجد رمزا اجتماعيا معاصرا جدا في الاسلوب الذي كانــت تــتهاوى فيه تلك السلسلة الصخرية ذات اللون الازرق والرمادي. الا ان ما شــاهده حقــا هو نمط من انماط تضخيم الزمن رتبت فيه القوانين القاسية (وبهذا فهي قــوانين الهــية رحيمة اذ من ذا الذي يجرؤ على الجدل بأن النظام لم يكن افضل شيء

(28) اللينياني: نسبة الى كارلوس لينايوس، الاسم اللاتيني لــ (كارل فون ليني) (1707–1778)، عــالم النــبات والمستكــشف الــسويدي الــذي يعد اول من وضع مبادئ تحديد الاجناس والانــواع الخاصــة بالكائــنات الحــية وابــتكار نظــام مــوحد لتــسميتها. اهم مؤلفاته (Genera Plantarum-1737) (Systema Naturae-1735) (Flora Lapponica-1737) (Species Plantarum-1753) (المترجم)

انـــساني؟) نفـــسها وعلى نحو تقليدي تماما كي يكون البقاء للاصلاح والاقوى، مثلا (تـــشارلز سميثسون) في هذا اليوم الربيعي اللطيف وحيد، تواق، يبحث، يفهم، يقبل، يلاحظ ويشعر بالامتنان. والشيء الذي ينقصه حقا هو حتمية انهيار سلم الطبيعة: فاذا كـــان في وســـع انواع جديدة ان تظهر الى حيز الوجود فإن الانواع القديمة مضطرة غالـــبا الى فسح المجال امامها. كان تشارلز يدرك الانقراض الشخصي - ولم يكن في وسع اي فكتوري عدم ادراك ذلك. بيد ان المفهوم الذي كان يغيب عن ذهنه في ذلك اليوم هو الانقراض الجماعي مثلما كان تغيب عنه اصغر سحابة من السماء الممتدة من فـــوقه. لكن على الرغم من ذلك، سرعان ما امسك بمثال ملموس جدا في يده عندما استأنف مرة اخرى ارتداء جوربيه والنسيج الوقائي والحذاء.

كانـــت قطعة جميلة جدا من الصخور وعليها اثار من صدفة متحجرة، واضحة تماما، جزئيات صغيرة من عالم كبير، كواكب تدور، تشق طريقها فوق عشر بوصات (ســـنتيمترات) من الحجارة. بعد ان كتب ورقة ثبت فيها الاكتشاف ومكانه، قفز مرة اخـــرى خارج العلم - الى الحب هذه المرة. عزم على ان يعطيها لايرنستينا اثر عودته. فهي قطعة جميلة لا شك في انها ستحبها. وقبل هذا كله، فإنها سترجع اليه ثانية واياها. والافـــضل من هذا، فإن الوزن المتزايد فوق ظهره جعل منها عبئا، اضافة الى انها هدية، وهكذا رفع الواجب - الانسجام مع تيار المرحلة - رأسه العنيد.

ينطـــبق الشيء نفسه على الوعي بانه تحول على نحو ابطأ مما كان يرمي اليه. فـــتح ازرار معطفه، واخرج ساعته الفضية. الساعة الثانية! نظر وراءه نظرة حادة بعـــدها فشاهد الامواج وهي تضرب سفح نقطة على بعد ميل واحد. ليس هناك خطـــر من عزلته اذ كان في مستطاعه ان يرى ممرا منحدرا، لكنه آمن، امامه تماما ويـــؤدي بالجرف صوب الغابة الكثيفة الممتدة فوقه. بيد انه لم يستطع العودة على امـــتداد الـــشاطئ. فقد كانت وجهته حقا هي هذا الممر، وكان عازما على السير باتجاهـــه بعجالـــة ومـــن ثم الصعود الى المستويات التي تبرز منها طبقات حجارة الصوان. ولكي يعاقب نفسه على بطئه، اسرع في سيره اكثر مما ينبغي، واضطر الى الجلـــوس دقـــيقة واحـــدة طلبا للراحة بعد ان اخذ يتصبب عرقا من تحت قميصه التحـــتاني المقيت. الا انه سمع جدولا صغيرا بالقرب منه فروى ظمأه، وبلل منديله، وربت وجهه. ثم شرع ينظر من حوله مرة اخرى.

9

اعرف ان هذا القلب، لم يخلق ابدا لحب طويل،
غير ان شيئا يتوقد في اعماقه، غريب جدا، قلق جدا،
لا يعرف التدجين.

ماثيو ارنولد - وداع 1853

بيــــنت السببين الاكثر وضوحا اللذين دفعا سارة وودراف الى عرض نفسها امــــام معاينة السيدة بولتيني. الا انها كانت اخر انسان يورد الاسباب، مهما كان ذلك على نحو غريزي، اضافة الى ان هناك اسبابا كثيرة اخرى؛ في الواقع، لا بد من وجودها لأنها لم تكن تفتقر الى ادراك سمعة السيدة بولتيني في الاوساط الادنى مرتبة في بلدة لايم. وقد ظلت مترددة يوما واحدا ثم ذهبت الى السيدة تالبوت سعيا وراء مــــشورتها. وكانت السيدة تالبوت امرأة طيبة القلب الى حدّ كبير، الا انها لم تكن شــــابة حادة الذهن تماما. على الرغم من انها كانت تود ان تعيد سارة اليها ثانية - بل انها عرضت بتصميم كامل ان تفعل ذلك من قبل - فإنها كانت تدرك ان سارة اصبحت الان عاجزة عن الاهتمام المتواصل على مدار اليوم بمتطلباتها التي ينبغي ان تنجــــزها بوصفها مربية اطفال. الا انها على الرغـم من ذلك كانت لا تزال ترغب في تقديم يد العون لها.

كانـــــت تعلم ان سارة واجهت الفقر المدقع، وظلت يقظة على امتداد الليالي وهي تتخيل مشاهد من الادب الاكثر رومانسية في مراهقتها، مشاهد كانت تجثم فيها بطلات يتضورن جوعا فوق درجات ابواب مكسوة بالثلوج او تتناهن الحمى في غــــرفة علوية مجردة من الاثاث يرشح من سقفها الماء. بيد ان صورة واحدة - وهــــي صـــــورة اعتيادية من صور القصص التي تصورها السيدة شيروود - كانت تلخص اسوأ مخاوفها: امرأة مطاردة تقفز من فوق جرف عالٍ. ويشع وميض البرق فيكـــــشف عن الرؤوس الوحشية لمضطهديها من فوق. الا انّ اسوأ ما في الامر هو الهلع الصارخ المرتسم على وجه المخلوقة الشاحب، والتي قضي عليها والطريقة التي ارتفعت بها عباءتها الى اعلى، سوداء، واسعة، جناح غراب يهوي اثر موت رهيب.

لهــذا السبب اخفت السيدة تالبوت شكوكها عن السيدة بولتيني ونصحت سارة ان تقبل العمل. فقبّلت المربية السابقة بول وفرجينيا الصغيرين مودعة اياهما، وســارت عائدة الى بلدة لايم امرأة مدانة. لقد وثقت بحكم السيدة تالبوت، فليس في وسع اي امرأة ذكية تثق باخرى غبية، بغض النظر عن مدى طيبة قلبها ان تتوقع شيئا غير ذلك.

كانت سارة ذكية حقا، غير ان ذكاءها الحقيقي ينتمي الى نوع نادر الوجود، وهــو ذكاء من شأنه ان يمر حقا دون ان تكشفه اي من اختباراتنا الحديثة الخاصة بالملكــات العقلية. وهو لم يكن من النمط التحليلي او الذي يفض المشاكل. مما لا ريب فيه ان الموضوع الوحيد الذي تسبب في هيمنة عذابها هو الرياضيات. كما انه لم يفــصح عــن نفــسه بأي شكل من اشكال الحيوية او الحذق حتى في ايامها الــسعيدة. كــان ذكاؤها عبارة عن قدرة رهيبة - رهيبة عند شخص لم تسبق له زيارة لندن و لم يختلط بالعالم - في تصنيف قيمة الناس: في فهمهم بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

كانـــت تملك نمطا من معادل نفساني يشبه ما موجود في مهارة تاجر الخيول الواســع الخبرة؛ القدرة على التفريق من اول نظرة بين الجواد الجيد والجواد السيئ. او، اذا ما قفزنا قرنا واحدا الى الامام، كأنها ولدت بجهاز حاسوب في قلبها. واقول قلــبها لأن القيم التي كانت تحسبها تعود الى ذلك المكان اكثر مما تعود الى العقل. كــان في مــستطاعها ان تدرك زيف الجدل الفارغ، الثقافة المزيفة، المنطق المنحاز عندما يصادفها. الا انها كانت تتغلغل في اعماق الناس على نحو ذكي. كانت ترى الناس على حقيقتهم، لا كما يسعون الى الظهور به من مظاهر دون ان تتمكن من تفسير ذلك شأنها في ذلك شأن الحاسوب الذي لا يستطيع ان يفسر العمليات التي يقــوم بها. ولن يكون كافيا القول انها كانت حكما اخلاقيا ممتازا على الناس. فقد كان استيعابها اوسع من ذلك واذا كانت الاخلاق وحدها هي المحك لديها لما كان مــن شأنها ان تتصرف على النحو الذي تصرفت به - فحقيقة المسألة ببساطة هي انها لم تسكن مع احدى قريباتها في ويماوث.

كــان عمق البصيرة الغريزي هذا اول لعنة في حياتها. اما اللعنة الثانية فكانت ثقافــتها. لم تكن ثقافة واسعة جدا، وليست افضل من الثقافة التي يمكن الحصول

علـيها في فـصل دراسي من الدرجة الثالثة للشابات حيث تلقت علومها في اثناء النهار ودفعت ثمن تعليمها في المساء - وأحيانا حتى وقت متأخر من الليل - برتق الملابس وغيرها من الاعمال الوضيعة. لم تكن علاقاتها طيبة مع غيرها من الطالبات اذ كنّ لا يبالين بها وكانت تطمح الى السمو من خلالهن. وهكذا صادف ان قرأت من الروايات والشعر، ملاذ المتوحدين الذين لا رفيق لهم، اكثر مما قرأ اقرانها. وافادا بوصـفهما البديل عن التجربة. وبلا وعي، كانت تحكم على الناس بمعايير وولتر سكوت وجين اوستن اكثر من اي معايير عملية اخرى تتوصل اليها. فكانت ترى الذين يحيطون بها شخصيات روائية فتحكم عليهم حكما شعريا. لكن واحسرتاه! فالـشيء الذي علمت نفسها به افسده كثيرا الشيء الذي علمه الاخرون لها. وفي ضوء مظهر السيدة الخادع الذي ظهرت به، اضحت ضحية مثالية في مجتمع قوامه التمييـز الطبقـي. فقد اضطرها والدها الى الخروج من طبقتها، الا انه لم يفلح في رفعهـا الى الطـبقة التالية. وامام شبان الطبقة التي غادرتها اصبحت امرأة ممتازة، منـتقاة اكثر من اللازم لا يصح الزواج بها. اما امام شبان الطبقة التي كانت تطمح اليها، فقد ظلت امرأة عادية اكثر مما ينبغي.

كان هذا الاب على العكس مما وصفه به قس بلدة لايم بانه **رجل ذو مبادئ رفيعة**، اذ كان يجمع العديد من المبادئ السيئة. فلم يكن القلق على ابنته الوحيدة هـو الذي دفعه الى ارسالها الى مدرسة داخلية، بل الهوس برفعة المقام. فاذا ما عاد المـرء اربعة اجيال الى الوراء من جهة الاب، فانه يصل كما يبدو الى نبلاء مهذبين معتـرف بهـم. بـل هـناك ثمة صلة بعيدة باسرة دريك، وهذه حقيقة لا تتصل بالموضـوع، ترسخت رويدا رويدا على مدار السنين لتتحول الى الزعم بالانحدار مباشرة من السير فرانسيس العظيم. مما لا شك فيه ان الاسرة كانت تملك ذات يوم بيتا من نوع رديء في تلك الارض الباردة بين دارتمور واكسمور. وقد شاهد والد سـارة ذلك البيت بأم عينيه ثلاث مرات، وعاد الى المزرعة الصغيرة التي استأجرها من مقاطعة ميريتون الشاسعة ليجلس في سكينة ويزرع ويحلم.

لعلـه اصـيب بخيبة امل عندما قفلت ابنته راجعة من المدرسة وهي في سن الثامـنة عـشرة - من يدري اي معجزات ستحل عليه؟ - وجلست عند الجانب الاخـر مـن المنضدة المصنوعة من خشب الدردار، وطفقت تراقبه عندما تفاخر

بنفسه، تراقبه بتحفظ هادئ اثاره، اثاره مثل سيد لا نفع لها – فهو رجل مولود في ديفـــن والمال يعني كل شيء لاهالي ديفن – اثاره حتى جن جنونه في نهاية المطاف. وتخلى عن ارضه المستأجرة، واشترى مزرعة خاصة به. اشتراها بثمن بخس، وتبين له ان الصفقة التي ظنها مذهلة انقلبت الى طامة كبرى. فظل سنوات طويلة يكافح من اجل ابقاء الرهن العقاري ومظهر المكانة الرفيعة المثير للضحك. بعد ذلك اصابه مس من الجنون حقا، وارسل الى المصحة العقلية في دورتشستر وتوفي فيها بعد سنة واحدة. وفي ذلك الوقت، كان قد مضى على سارة عام كامل وهي تكسب رزقها بنفـــسها؛ ففـــي البداية عاشت مع اسرة في دورتشستر كي تكون على مقربة من ابيها. وعندما توفي انتقلت للعمل في اسرة تالبوت.

علـــى الرغم من الافتقار الى المهر، ايا كان نوعه، فإنها كانت فتاة لافتة للنظر علـــى نحو يصعب معه تفسير عدم وجود من يتقدم لخطوبتها. لكن بعد ذلك تماما اخذت اللعنة الاولى والموروثة تعمل عملها. فكانت تمعن النظر في الادعياء الواثقين اكثـــر مما ينبغي بانفسهم. فكانت تشاهد وضاعتهم، كياستهم التي تظهر شعورهم بالتفوق، احسانهم، حماقاتهم. وهذا تبين على نحو يتعذر الهرب منه ان ترضخ للقدر الوحيد الذي صرفت الطبيعة منه ملايين السنين لجعلها تتجنبه: البقاء دون زواج.

لنتخـــيل ما هو مستحيل، وهو ان السيدة بولتيني وضعت قائمة ادرجت فيها الحـــسنات والمـــساوئ فيما يخص موضوع سارة وفي نفس اليوم الذي انهمك فيه تشارلز انهماكا بالغ الذروة في هروبه من واجبات خطوبته الشاقة. على الاقل، من الممكـــن التصور بانها ربما انجزتها عصر ذلك اليوم طالما ان سارة، الانسة سارة في منـــزل مارلبورو كانت غير موجودة.

لنبدأ بداية سارة بحساب الاعتماد. النقطة الاولى من شأنها ان تكون بلا ريب النقطة الاقل احتمالا في الوقت الذي قطع فيه العهد قبل مضي عام. ويمكن كتابتها على النحو الاتي: **جو عائلي اكثر سعادة**. والحقيقة المثيرة للدهشة هي ان اي خادم او خادمة لم يبعد او تبعد من البيت (من الناحية الاحصائية ثبت في الماضي صرف الخادمات في الغالب).

لقـــد بـــدا هذا التحول الغريب ذات صباح بعد اسابيع قليلة من قيام الانسة سارة باداء مهامها، اي، مسؤوليتها عن روح السيدة بولتيني. فقد اكتشفت السيدة

العجـــوز بحاســـتها المميزة الاعتيادية تقصيرا فادحا في الواجب: فقد اهملت خادمة الطابق العلوي واجبها المتمثل في ان تسقي كل يوم ثلاثاء بلا كلل نبات السرخس في غـــرفة الاســـتقبال الثانية، اذ كانت السيدة بولتيني تحتفظ بغرفة لها. وقد بدت النـــباتات خـــضراء اللون على نحو لا يتطلب سقيها. بيد ان السيدة بولتيني كانت خـــلاف ذلـــك علـــى نحو هائج. واستدعيت المتهمة، واعترفت بأنها نسيت اداء واجـــبها. ربما كان في وسع السيدة بولتيني ان تغض النظر عن ذلك بتثاقل، غير ان صـــحيفة الاتهـــام المـــوجهة للفتاة كانت تتضمن هفوتين او ثلاث هفوات مماثلة ارتكبـــتها مؤخـــرا. فدق ناقوس الخطر، وبدات السيدة بولتيني تقرع هذا الناقوس واحـــساس متجهم بالواجب ينتابها مثلما ينتاب كلب يوشك ان يغرس اسنانه في كاحلي لص؛ ساتسامح بالكثير الا انني لن اتسامح بهذا الشأن.

- لن اكرر هذا يا سيدتي!

- من المؤكد تماما انك لن تكرري ذلك في منـــزلي.

- اوه يا سيدتي. ارجوك يا سيدتي.

سمحـــت السيدة بولتيني لنفسها ان تستمتع بضع لحظات جادة وحادة بدموع الفتاة.

- ستعطيك السيدة فيرلي مرتبك.

كانـــت الانسة سارة حاضرة في اثناء هذه المحادثة لأن السيدة بولتيني كانت تملـــي عليها رسائل موجهة في معظمها الى اساقفة او على الاقل بلهجة من يخاطب الاســـاقفة. وهنا طرحت سؤالا، فكان اثره مذهلا. اولا، كان اول سؤال تطرحه في حضرة السيدة بولتيني وليست له اي صلة مباشرة بواجباتها. ثانيا، كان يعارض ضمنا حكم السيدة العجوز. ثالثا، لم يكن موجها للسيدة بولتيني بل للفتاة.

الانت على ما يرام يا ميلي؟

ســـواء كان الاثر ناجما عن صوت عاطفي في تلك الغرفة او عن حالة الفتاة، فإنهـــا روعت السيدة بولتيني اذ خرت على ركبتيها وفي الوقت نفسه هزت رأسها وغطت وجهها. وعلى الفور اسرعت الانسة سارة الى جوارها. وبعد دقيقة واحدة ادركـــت ان الفتاة كانت متوعكة حقا وقد اغمي عليها مرتين في الاسبوع الفائت وكانت تخشى ان تخبر احدا...

عـــندما رجعـــت الانـــسة سارة، بعد وقت قصير، من الحجرة التي تنام فيها الخادمـــات والـــتي رقدت فيها ميلي الان، جاء دور السيدة بولتيني لتطرح سؤالا مثيرا.

- ماذا ينبغي لي ان افعل؟

رمقـــتها الانسة سارة بنظرة كانت تتضمن شيئا جعل من كلماتها التالية مجرد تنازل في سبيل الوصول الى اتفاق.

- افعلي ما تظنين انه الافضل يا سيدتي.

وهكـــذا سمح لاندر زهرة، الغفران، بموطئ قدم متقلقل في منـــزل مارلبورو. وعندما اتى الطبيب ليلقي نظرة على الخادمة واعلن انها مصابة بفقر الدم، اكتشفت السيدة بولتيني المتعة المنحرفة في الظهور بمظهر الشفقة الحقيقية. واعقب ذلك حادثة او حادثـــتين اتخذتا نفس المنحى وان لم تكونا بذلك المستوى الدرامي. انها حادثة واحـــدة او حادثـــتان لا اكثـــر لأن سارة اناطت بنفسها مهمة القيام باجراءات التفتـــيش. لقـــد فهمت سارة السيدة بولتيني وسرعان ما برعت في التعامل واياها مثلما يفلح كاردينال ماهر في التعامل مع بابا ضعيف، على الرغم من ان ذلك كان يهدف الى غايات اسمى.

امـــا الـــنقطة الثانية الاكثر احتمالا في قائمة السيدة بولتيني المفترضة فإن من شـــأنها ان تكـــون: «صوتها». اذا كانت السيدة تعاني من خلل في بعض القضايا الدنـــيوية ذات المـــساس بافـــراد طاقمها، فإنها كانت تهتم اهتماما كبيرا برعايتهم الـــروحية. فكانت هناك الزيارة الالزامية المزدوجة للكنيسة في ايام الاحاد، وهناك الطقوس الصباحية اليومية - التراتيل والدرس والصلاة - التي كانت تشرف عليها الـــسيدة العجـــوز اشرافا يتسم بالغرور. اما الان فالشيء الذي بات يثيرها هو ان نظراتها المتفرسة الرهيبة نفسها لم تعد قادرة على وضع خدمها في حالة من الخنوع والـــندم الـــتامين اللذين كانت تعتقد ان الله (فضلا عنها هي شخصيا) يتطلباهما. كانـــت وجوههم الاعتيادية عبارة عن مزيج من الخوف من السيدة بولتيني وعدم الفهم التام - مثل خرفان مرتبكة، لا اثمين مهتدين. الا ان سارة غيرت ذلك كله.

كـــان صوتها بلا ريب صوتا في منتهى الجمال، منضبطا، واضحا على الرغم مـــن نـــبرة الحزن التي كانت تشوبه دوما وقوة المشاعر غالبا. الا انه كان قبل كل

شيء صوتا صادقا. وشاهدت السيدة بولتيني للمرة الاولى في عالمها الصغير الجاحد خدمها بوجوههم اليقظة تماما والورعة حقيقة.

ذلك امر حسن. الا ان هناك جولة ثانية من العبادة ينبغي انجازها. فقد سُمح للخـــدم باقامـــة صلاة المساء في المطبخ تحت انظار السيدة فيرلي اللامبالية وصوتها الجاف القوي. اما في الطابق العلوي فلا بد من وجود من يقرأ للسيدة بولتيني على انفـــراد. وفي هذه المناسبات الموحية بالالفة والدفء كان صوت سارة يسمع وهو في افضل حال وابلغ تأثير. وفي احدى المناسبات، او في مناسبتين اثنتين، حققت ما لا يمكن تصديقه، اذ انتزعت من بين هاتين العينين العنيدتين دمعة. ومما لا شك فيه ان مـــثل هـــذا الاثر لم يكن مقصودا بل نجم عن فرق شاسع بين امرأتين اثنتين: كانـــت السيدة بولتيني تؤمن بإله لم يكن موجودا ابدا في حين كانت سارة تعرف إلها موجودا.

انهـــا لم تبتكر في صوتها، شأن الكثير من القساوسة والوجهاء البارزين الذين كان يطلب اليهم قراءة الدرس، عامل التغريب اللاواعي على الطراز البريختي («هذا مقطع من الانجيل يتلوه عليكم المحافظ»)، بل ابتكرت ما هو خلاف ذلك. كانت تـــتحدث مباشرة عن معاناة المسيح، عن انسان ولد في الناصرة كأنه لم يكن هناك اي زمـــن في التاريخ، بل غالبا في بعض الازمان، عندما كان الظلام يلف الحجرة، وبدت وكأنها قد نسيت وجود السيدة بولتيني كأنها شاهدت معاناة المسيح امامها. وذات يـــوم وصـــلت الى مقطـــع (إلهـــي إلهي لماذا تركتني)[29]. فقرأت الكلمات وتلعـــثمت وصـــمتت. التفت السيدة بولتيني لتلقي نظرة عليها فادركت ان وجه ســـارة كانـــت تـــسيل فوقه العبرات. عوضت تلك اللحظة عن عدد لا متناهٍ من الصعوبات التي حدثت مؤخرا، وربما ستفدي ذات يوم روح السيدة بولتيني المعذبة الان اذ نهضت هذه السيدة العجوز ولمست كتف الفتاة.

اني اغامر بجعل سارة تبدو مثل شخص متعصب. الا انها لم تكن تملك نظرية لاهوتـــية. ومثلما كانت تبصر الناس، فإنها كانت تبصر الحماقات، الزجاج الملون

(29) المـــزمور (21): مـــن سفر المزامير وهي عبارة يسوع التي صرخها بصوت عظيم قائلا: الوهـــي الوهي لما شبقتني الذي تفسيره الهي الهي لماذا تركتني، (انجيل مرقس الفصل 15-34). (المترجم)

وحـــرفية الكنيـــسة الفكتورية. كانت تدرك ان هناك معاناة. وصلت من اجل ان تنتهـــي تلـــك المعاناة. انا لا استطيع ان اقول ماذا يمكن ان تكون في عصرنا. وفي عصر يسبق عصرنا، كان يمكن ان تكون قديسة او امرأة امبراطور. ويعود السبب في هــــذا الى الافراط في التدين من جهة او الجنس من جهة اخرى بل بسبب تلك الطاقة النادرة المنصهرة التي كانت تشكل جوهرها - الادراك والعاطفة.

ثمـــة نقـــاط اخرى: القدرة في عدم اثارة السيدة بولتيني - وهي قدرة مذهلة بخصيـــصتها وفـــريدة تقـــريبا - وتحمل المسؤوليات البيتية المختلفة بهدوء دون ان تتجاوز على غيرها، ومهارتها في اشغال الابرة.

اهـــدت ســـارة السيدة بولتيني غطاء لظهر الكرسي وذراعيه لمناسبة ذكرى ميلادها - ولم يكن سبب ذلك ان اي من الكراسي التي كانت تستخدمها السيدة بولتـــيني كان بحاجة الى مثل هذه الوقاية، بل لأن الكراسي في ذلك الوقت كانت تـــبدو شـــبه عارية دون مثل هذا الملحق - وكان هذا الغطاء مطرزا تطريزا متقنا ويحتوي على حاشية تمثل نبات السرخس وزنابق الوادي. فسرت السيدة بولتيني بها سرورا عظيما، وكان يذكر السيدة الرهيبة دوما وسرا - ربما كانت سارة قبل كل شـــيء اشبه بكاردينال ماهر- وفي كل مرة تتربع على عرشها بالجانب الذي يمكن غفـــرانه في الفتاة التي تحميها. وكان اثر هذا في سارة يشبه الاثر الذي كان يحدثه دوما طائر الحبارى الفاني في تشارلز.

اخـــيرا اجتازت سارة اختبار الكراسة الدينية - وكان هذا اقسى عذاب عند الـــضحية. فقد كانت السيدة بولتيني تعتمد اعتمادا كبيرا على قوة الكراسة الدينية شأنها في ذلك شأن الكثير من الارامل النبيلات الفكتوريات والوحيدات. ولا بأس ان كـــان عـــشر الذين يستلمونها يستطيعون قراءتها - في الواقع ان عددا كبيرا لا يـــستطيع قـــراءتها - ولا بـــأس ان كان عشر هؤلاء الذين يستطيعون قراءتها حقا يفهمون ما يقصده كتابها الجليلون. لكن في كل مرة كانت تذهب لتسليم دفعة من هذه الكراسات فإن السيدة بولتيني كانت ترى عددا موازيا لها من النفوس الناجية مـــن الخطيئة وقد سجلت لحسابها في السماء. وكانت ترى في التفكير العلني الذي تقـــوم به امرأة الضابط الفرنسي حلاوة اضافية. وهكذا كان شأن بقية سكان بلدة لايم او سكانها الفقراء، وكانوا اكثر لطفا مما قد تتصوره السيدة بولتيني.

ابتكـــرت ســـارة صيغة صغيرة: «من السيدة بولتيني. نرجو القراءة والتفكير الجـــاد». وفي الـــوقت نفسه، كانت تنظر الى عيون سكان البيوت البسيطة نظرة متفرســـة. فالـــذين كانـــت تعلو وجوههم ابتسامة العارفين بامرها اضاعوا تلك الكراســـات بينما ماتت الكلمات في افواه الثرثارين. واظن انهم تعلموا من هاتين العيـــنين اكثر من الكراسات المطبوعة باحرف متراصة دقيقة، التي كانت تحشر في ايديهم.

ينبغي لنا الان ان ننتقل الى نقطة الضعف في هذه العلاقة. واول نقطة ستكون بـــلا ريب: «انها تخرج بمفردها». كانت الترتيبات الاولية تقضي ان تتمتع الانسة ســـارة بوقت فراغ في عصر يوم واحد من كل اسبوع، وكان هذا يعد من السيدة بولتـــيني اكثـــر من اعتراف كبير بمكانتها الارفع مقارنة بمكانة الخادمات. كما انه كـــان من مقتضيات توزيع الكراسات. الا ان القس كان قد اشار بذلك. وبدا ان الامـــور تسير على ما يرام مدة شهرين اثنين. وذات صباح، لم تحضر الانسة سارة الى صـــلاة الصبح في منـــزل ماربورو. وعندما ارسلت الخادمة للبحث عنها تبين انهـــا لم تستيقظ، فذهبت السيدة بولتيني لرؤيتها. كانت سارة غارقة في البكاء مرة اخرى، الا ان السيدة بولتيني لم تشعر الا بالانـــزعاج في هذه المرة. على اي حال، ارسلت في طلب الطبيب، فمكث مدة طويلة وحده في صحبة سارة. وعندما هبط ليرى السيدة بولتيني نافذة الصبر، القى عليها محاضرة قصيرة عن مرض الاكتئاب – كان رجلا سابقا لزمانه ومكانه – وامرها ان تسمح للخاطئة ان تتنشق هواء منعشا اكثر وان تتمتع بحرية اكبر.

– هذا اذا كنت مصرا على تلك الضرورة الملحة.

– انـــي اصـــر يا سيدتي العزيزة، واؤكد ذلك، ولن اكون مسؤولا خلاف ذلك.

– انه امر غير مناسب.

– بيد ان الطبيب لفه صمت قاسٍ.

– سأستغني عنها عصرين اثنين.

لم يكـــن الطبيب غروغان يعتمد ماليا اعتمادا كبيرا على السيدة بولتيني، على العكـــس من القس. واذا شئت الصراحة، ما من شهادة وفاة في بلدة لايم من شأنه

ان يوقــع عليها بحزن اقل من شهادة وفاتها. غير انه تمالك سوء طبعه مذكرا اياها بأن تنام عصر كل يوم بناء على اوامره الصارمة. وهكذا حصلت سارة على حرية جزئية كل يوم.

كانت نقطة الضعف التالية هي «الا تكون موجودة في حضرة الزوار». وهنا وجــدت السيدة بولتيني نفسها في معضلة لا تطاق حقا. فقد كانت ترغب في ان يــبدو احــسانها امام الاخرين وهذا يعني حتمية ان يشاهد الاخرون سارة. الا ان ذلك الوجه يلحق اكبر الاثار الضارة في الضيوف. فالحزن البادي عليه يوجه اللوم والتأنــيب، وتدخلــه النادر جدا في الحديث - الذي يتطلبه اساسا سؤال سابق ما فيــستوجب الرد (عرف الزوار الاذكياء الذين يترددون كثيرا على المنــزل وعلى الفور كيف يجعلون تعابيرهم المؤدبة حول السكرتيرة - الرفيقة بلاغية على ما يبدو في طبيعــتها وفي محــتواها) - كانت له صفة حاسمة تثير القلق فيما بينهم ليس من خلال اي رغبة من طرف سارة في القضاء على الموضوع بل بسبب اضفاء البساطة او الفطــرة اضفاء بريئا على بعض المسائل التي كانت تظهر في الصفات المعاكسة. وهــنا كانــت تلوح امام السيدة بولتيني في هذا الاطار مثل احد الاشخاص فوق مشنقة تذكرها على نحو واهن من ايام شبابها.

اظهرت سارة حنكتها ثانية، اذ كانت تبقى حاضرة عند وجود بعض الزوار القدامــى. امــا في اثــناء حضور بقية الزوار، فكانت تنسحب اثر الدقائق القليلة الاولى، او تتوارى عن الانظار حينما يعلن عن وصولهم وقبل دخولهم مباشرة. هذا هــو السبب الذي فسر عدم مشاهدة ايرنستينا لها في منــزل مارلبورو. وقد سمح هــذا على الاقل للسيدة بولتيني ان تسهب في الحديث عن المحنة التي اضطرت الى تحملــها على الرغم من ان غياب المحنة او زوالها كان يوحي بفشل محدد في قدرتها على تحملها، وهي محنة مرهقة في الغالب. على اي حال لا يمكن القاء الذنب على سارة الا نادرا.

بــيد انــني تركــي اسوأ نقطة حتى النهاية، وهي: «لا تزال تظهر ما يوحي بارتباطها بمن غرر بها».

بذلت السيدة بولتيني محاولات كثيرة لانتزاع تفاصيل الخطيئة ودرجة تكفيرها الحالــية مــنها. فاي امرأة ارفع منــزلة، ما كانت ترغب في سماع شيء اكثر من

اعتراف خاطئة من بنات جنسها. الا ان سارة كانت حساسة مثل شقائق البحر في هـــذه القضية. ومهما لاح الاسلوب الذي تقترب فيه السيدة بولتيني من الموضوع اســـلوبا غير مباشر، فإن الخاطئة كانت تخمن ما الذي سيحدث. وكانت اجاباتها عن الاسئلة المباشرة متشابهة دوما في فحواها، ان لم تكن في كلماتها الحقيقية، مثل الاجابات التي قدمتها في اول تحقيق يجرى لها.

لمـــا كانـــت الـــسيدة بولتيني قلما تغادر منـــزلها ولا تغادره ابدا سيرا على الاقـــدام، بـــل في عربة تنقلها الى بيوت من هم في مكانتها، فانه كان ينبغي لها ان تعـــتمد علـــى غيرها في نقل اخبار نشاطات سارة التي تقوم بها خارج منـــزلها. ولحـــسن حظها فإن مثل هاتين العينين موجودتان. والافضل من ذلك، فإن العقل الكامن وراء تلك العينين كان عقلا يوجهه الحقد والازدراء، ولهذا كان سعيدا في نقـــل التقارير المتواترة الى السيدة العنيدة. طبيعي ان هذا الجاسوس لم يكن سوى السيدة فيرلي. فعلى الرغم من انها لم تكن تجد اي لذة في القراءة، الا انه ساءها ان تنـــزل مرتبتها. وعلى الرغم من ان الانسة سارة كانت مؤدبة، ونـــزيهة معها، وبـــذلت عنايتها في الا تبدو بمظهر من يستحوذ على مهامها في ادارة شؤون البيت فـــإن صـــراعا ما كان موجودا حتما؟ فلم تكن السيدة فيرلي مسرورة لأنها كانت تقـــوم بواجـــبات اقل وهذا يعني ان تأثيرها اقل. وكان انقاذ سارة لاميلي - وغير ذلـــك من التدخلات الحكيمة - جعلها تحظى بشعبية واحترام في الطابق السفلي. وكـــان غـــضب السيدة فيرلي الشديد يتمثل في عدم استطاعتها الحديث بسوء عن الـــسكرتيرة - الرفيقة امام التابعين لها. كانت امرأة شديدة الحساسية، امرأة تكمن لـــذتها الوحيدة في معرفة الاسوأ وخشية الاسوأ. وبهذا نمت كراهية ضد سارة نموا بطيئا، قاسيا في شدته.

كانت امرأة ماكرة بلغت من الدهاء حدا لم تخفه عن السيدة بولتيني. بل انها تظاهـــرت بالاســـى الشديد لحال «الانسة وودراف المسكينة» وكانت تقاريرها مدبجـــة بكلمات من مثل **اخشى واخاف** الا انها كانت تملك فرصا عظيمة للقيام باعمال التجسس، لا لأنها كانت هي نفسها ترتاد البلدة غالبا بحكم ادائها واجباتها حـــسب، بل لأنها كانت تملك شبكة من الاقارب والاصدقاء تحت تصرفها. وقد اشـــارت لهؤلاء الاصدقاء بأن السيدة بولتيني تواقة لأن تعرف - ولاسباب دينية لا

غـــير – عـــن سلوك الانسة وودراف خارج الاسوار الحجرية الشاهقة التي تحيط بحدائـــق منـــــزل مارلبورو. وكانت ثمرة ذلك ان كل حركة وايماءة من سارة في ســـاعات فـــراغها كانت تنقل الى السيدة فيرلي بعد ان يبالغ فيها على نحو غامض وتفـــسر تفـــسيرا محـــرفا، اذ كانت بلدة لايم ريجيس انذاك، مثلما هي الان، بلدة تكتنفها الاقاويل مثلما تكتنف اليرقات برميلا من الجبن.

كـــان نموذج حركاتها الخارجية – عندما كانت تعفى من قراءة الكراسات – في منتهى البساطة؛ فقد كانت تتبع الطريق نفسه دوما عصرا، فتسير في شارع باوند ومن ثم تدلـسف الى شارع برود المنحدر حتى تصل الى بوابة كوب وهي عبارة عن شقة من الارض شـــبه مستوية تطل على البحر ولا صلة لها بجدار الكوب. وكانت تقف هناك الى جـــوار الجدار، وتمعن النظر في البحر مدة ليست طويلة عموما – مدة ليست اطول من المدة التي يستغرقها قبطان سفينة في اعطاء التخمين الدقيق عندما يظهر فوق الجسر – قبل ان تتجه صوب كوكمويل او الى الجهة الاخرى، الى الغرب، فتسير في ممر يبلغ طـــوله نـــصف مـــيل، ويدور من حول خليج لطيف يؤدي الى الكوب تماما. فاذا ما ســـارت صوب كوكمويل فإنها في غالب الاحوال ستذهب الى الكنيسة وتصلي بضع دقائق (وهي حقيقة جديرة بالذكر لم تعدها السيدة فيرلي) قبل ان تدخل الزقاق المجاور للكنيـسة والمـــؤدي الى مرج جروف الكنيسة. وكان ذلك العشب يرتفع باتجاه سور بـلاك فـــن. فوق هذه الارض المعشوشبة، كان يمكن مشاهدتها وهي تتحول وتلتفت مـــرارا الى البحر، الى النقطة التي يلتقي فيها الممر بالطريق القديم المؤدي الى تشارماوث الـــذي تأكل واصبح جزءا من بلاك فن وعندئذ تعود ادراجها الى بلدة لايم. وكان من شـــأنها ان تقوم بهذه الجولة عندما يبدو الكوب مزدحما، لكن عندما كان يحيله الطقس او الظروف الى مكان مهجور فإنها كانت في الاغلب تسلك ذلك الطريق، وينتهي بها المطـــاف الى الوقوف حيث شاهدها تشارلز اول مرة. وفي ذلك المكان كانت تشعر، على ما يفترض، انها اقرب ما تكون الى فرنسا.

كانـــت هذه الامور كلها تنقل الى السيدة بولتيني على نحو مشوه وشائن، الا انهـــا كانـــت انذاك تعيش اولا متعة امتلاك لعبتها الجديدة وكانت ميالة الى اتخاذ المواقـــف العدائـــية المنسجمة وطبعها الفاسد النازع الى الشك والارتياب. وعلى الرغم من ذلك، فإنها لم تتردّد في تقريع اللعبة.

- لقد أُخبرت يا انسة وودراف بانك تشاهدين دوما في نفس الاماكن لدى خروجك.

خفضت سارة من بصرها امام العينين المنطويتين على الاتهام.

- انك تراقبين البحر.

غير ان سارة ظلت ملتزمة بالصمت.

- انـــي راضية لانك في حالة توبة. في الواقع، انني لا استطيع ان اصدق ان تكوني غير ذلك في ظل ظروفك الراهنة.

اخذت سارة دورها.

- انني اشعر بالامتنان يا سيدتي.

- لست مهتمة بموضوع امتنانك لي. فهناك الواحد العلي الذي يستحق اولا ذلك.

همست الفتاة.

- كيف انني لم اعرف ذلك؟

- قد يبدو للشخص الجاهل انك مستمرة في خطيئتك.

- لو عرفوا قصتي يا سيدتي فلن يفكروا على ذلك النحو.

- لكـــنهم يعـــتقدون ذلك حقا. لقد اخبرت بانهم يقولون بانك تبحثين عن اشرعة الشيطان.

نهضت سارة بعد ذلك، واتجهت صوب النافذة. كان الوقت بداية الصيف امتـــزج اريج زهو الليلك بشدو الشحارير. امعنت النظر قليلا في ذلك البحر الذي طلب اليها ان تنكر نفسها عليه، ثم استدارت صوب السيدة العجوز التي تـــربعت فـــوق كرسيّها على نحو لا سبيل الى تهدئتها مثل ملكة استوت على عرشها.

- اترغبين في ان انصرف يا سيدتي؟

صعقت السيدة بولتيني في اعماقها. ها هي بساطة سارة مرة اخرى تنتزع كل كـــراهيتها المتأججة. كذلك صوتها وعوامل سحرها الاخرى التي اصبحت مدمنة عليها! الاسوأ من ذلك، فإنها قد تنبذ الفائدة المتنامية لها على تلك الجسور المقدسة. لهذا خففت من حدة لهجتها.

- اريـــد منك ان تبيني ان هذا الشخص قد خرج من قلبك. انا اعلم انه قد خرج. لكن يجب ان تظهري ذلك.

- كيف لي ان اظهر ذلك.

- بالتحول في اماكن اخرى. بالا تظهري عارك. واذا لم يكن هناك اي سبب يدعو الى ذلك، فليكن بناء على طلبـــي.

انتصبت سارة محنية الرأس في حين ران الصمت. وبعد ذلك تفرست في عيني السيدة بولتيني، وابتسمت ابتسامة باهتة اول مرة منذ وصولها.

- سافعل ما ترغبين فيه يا سيدتي.

كانت هذه تضحية ماكرة، اذا شئنا ان نعبر عنها بمصطلحات لعبة الشطرنج لأن السيدة بولتيني استمرت في القول بانها لا تريد ان تنكر عليها تماما فوائد نسيم البحر وان في وسعها ان تتجول قرب البحر في بعض الاحيان، لا في كل الاحيان. «وارجو الا تقفي هناك وتواصلي النظر».

باختـــصار كانت صفقة عقدت بين هاجسين. فقد كان عرض سارة مغادرة المنـــزل دافعا كي ترى كل منهما الحقيقة بمنظارين مختلفين.

التزمت سارة بالجانب الخاص بها من الصفقة، او على الاقل، ذلك الجانب الذي يخـــص خط جولاتها. فلم تعد تذهب الى الكوب الا فيما ندر الان على الرغم من انها في اثـــناء ذهابهـــا كانت لا تزال تسمح لنفسها بالوقوف وامعان النظر كما حدث في ذلك اليوم الذي اتينا على وصفه. على اي حال، ان الريف الذي يحيط ببلدة لايم يحفل بالامـــاكن المعدة للمشي. والقليل منها لا يطل على البحر. واذا كان هذا كل ما تتوق اليه سارة، فما عليها سوى التجول فوق العشب في منـــزل مارلبورو.

مـــرت السيدة فيرلي اثر ذلك بفترة بائسة استمرت شهورا كثيرة. فلم تحذف مناســـبة واحدة حدث فيها التوقف والتفرس. الا ان هذه المناسبات لم تكن كثيرة. واستطاعت سارة في ذلك الوقت ان تكتسب نوعا من سطوة العذاب على السيدة بولتيني جنبها اي نقد حاد. فقبل كل شيء، كانت المأساة المسكينة مجنونة، وهو ما كنت الجاسوسة والسيدة تذكران بعضهما بعضا به.

مما لا ريب فيه انك خمنت الحقيقة: انها اقل جنونا مما كانت تبدو عليه... او علـــى الاقل، ليست مجنونة على النحو الشائع عموما. اذ كان الكشف عن عارها

يهدف الى تحقيق غرض ما. والناس الذين لديهم اهداف يعرفون متى يتحقق الهدف على نحو مرض ويمكن السماح لهم بالخلود الى السكينة فترة وجيزة.

لكن في يوم ما، قبل اقل من اسبوعين من بدء قصتي، كانت السيدة فيرلي قد جاءت الى السيدة بولتيني ووجهها يكاد يصرح بموت صديق قريب.

- لدي خبر لا يبعث على السرور اود الافصاح عنه يا سيدتي.

كانت هذه العبارة قد اضحت مألوفة للسيدة بولتيني مثل دوامة عاصفة لصياد سمك. الا انها تقيدت بالاتفاق.

- الا يخص الامر الانسة وودراف؟

- اتمنى الا يخصها يا سيدتي.

تفرست مدبرة المنـــزل على نحو هادئ في سيدتها.

- الا انني اخشى ان الواجب يدفعني الى ضرورة اخبارك.

- ينبغي الا نخشى ما هو واجبنا ابدا.

- ابدا يا سيدتي.

علـــى الرغم من ذلك، ظل فمها مطبقا. وربما كان في وسع طرف ثالث ان يتـــساءل عن الاهوال التي يمكن ان تنجم عن ذلك. و لم يكن من شأن منظر افعى تتلوى فوق المذبح في الكنيسة ان يبدو ملائما اكثر.

- لقد اخذت تتجول في وير كومونـــز يا سيدتي.

يـــا له من هبوط مفاجئ من الذروة! الا ان السيدة بولتيني بدت غير مقتنعة بذلك. بل ان فمها بان على نحو غريب وقد تدلى تماما.

10

مرة واحدة، مرة واحدة لا غير، رفعت عينيها
وفجاة احمرت خجلا على نحو عذب، غريب
لتجد انهما التقتا بعيني...

تينيسون – مود 1855

... بما فيها من شقوق خضر بين الصخور الرومانسية، حيث تطن اشجار الغابات المتناثرة والبساتين العامرة ان اجيالا كثيرة لا بد قد قضت نحبها منذ ان هيأ انهيار الجرف الجزئي الاول الارض لمثل هذه الحالة، حيث يشاهد مثل هذا المنظر البالغ الروعة الذي لا يشبه اي مشاهد مماثلة في جزيرة وايت الشهيرة.

جين اوستن – الاقناع

يمتد بين بلدة لايم ريجيس واكسماوث التي تبعد عنها ستة اميال الى جهة الغرب واحد من اغرب المناظر الساحلية في جنوب انكلترا. ولا يلفت هذا المنظر النظر من الجو، اذ يلاحظ المرء انه في حين تمتد الحقول حتى حافة الجرف في اي بقعة اخرى على الساحل، فإنها تتوقف هنا على مسافة ميل واحد منها او ما يقرب من ذلك. فقطعة الارض المزروعة ذات اللونين الاخضر والبني المحمر تستحول بنظام بهيج الى سلسلة مظلمة من اشجار واعشاب، ليست هناك اي سطوح ولو ان شخصا حلق على نحو منخفض بما فيه الكفاية فإن في ميسوره ان يلاحظ بأن التضاريس غير متوقعة، تقطعها شقوق عميقة تؤكدها الجروف الغريبة وابراج الجير والصوان التي تهيمن على اوراق النباتات اليانعة من حولها مثل اسوار قلاع مهدمة. هذا من الجو... اما على القدمين فإن هذه البراري التي تبدو عديمة الاهمية، تكتسب امتدادا غريبا. فقد حدث ان تاه اناس فيها ساعات طويلة، ولا يستطيعون ان يصدقوا – بعد ان يروا على الخارطة المكان الذي تاهوا فيه ان احساسهم بالعزلة – والأسى ان كان الجو سيئا – يمكن ان يبدو بتلك الدرجة من الشدة.

والجرف شديد الانحدار لأن هذه البقعة من الارض عبارة عن منحدر يبلغ طوله ميلا واحدا احدثته عمليات التأكل في وجه الجرف العمودي القديم. ان الاماكن المستوية نادرة شأنها شأن الزوار الذين يفدون اليها. بيد ان هذا الانحدار يميل بها وبنباتاتها في النتيجة الى جهة الشمس، وهذه الحقيقة، مضاف اليها الماء المتدفق من ينابيع لا تعد ولا تحصى والمتسبب في عملية التأكل، اضفت على المنطقة غرابتها النباتية - فاشجار القطلب البرية والبلوط الاخضر وغيرها من الاشجار نادرا ما تشاهد نامية في انكلترا، كذلك شأن اشجار الدردار والزان العظيمة، الصدوع البرازيلية الخضراء اللون التي تحتشد باللبلاب والنباتات المعترشة للياسمين البري، نباتات السرخس التي يبلغ ارتفاعها سبعة او ثمانية اقدام، ازهارها التي تتفتح قبل اي منطقة اخرى في المقاطعة بشهر. وفي فصل الصيف، تستطيع هذه المنطقة السريفية ان توفر ما يشبه الاحراش الاستوائية. كما ان هذه المنطقة، شأنها شأن اي منطقة لم يعش فيها الانسان او يسعى الى تطويرها، تمتلك اسرارها، ظلالها، مخاطرها، وهي بسيطة اكثر مما ينبغي من الجانب الجيولوجي لأن هناك شقوقا ومنحدرات فجائية يمكن ان تتسبب في حدوث كارثة، وفي اماكن يصيح فيها انسان مكسور الساق باعلى صوته اسبوعا كاملا ولا يسمعه احد. ومما يبدو غريبا، ان هذه المنطقة كانت اقل وحشة مما هي عليه الان قبل مئة عام. اذ لا يوجد اليوم اي كوخ تحت الجرف. في حين كان هناك البعض منها في عام 1867 وكان يقطنها حراس الطرائد وسكان الغابات وقطيع او قطيعان من الخنازير. اما اناث الظبي الاحمر فلا بد انها مرت بايام اقل سكينة بعد ان كانت واثقة من توفر العزلة التامة. اما الان فقد بات الجزء السفلي من الجرف مقفرا تماما، اذ تداعت جدران الكوخ واصبحت بقايا يعلوها اللبلاب في حين توارت عن الانظار ممرات الاغصان القديمة. وليس ثمة طريق خاص بالسيارات قريبا منه، اما الطريق الوحيد الباقي الذي يقطعه فهو غير سالك في الغالب. وقد جرى ذلك بسبب اجراء من البرلمان: حفظ الطبيعة على المستوى القومي. لم يضع كل شيء لمصلحة ذاتية.

فالى هذا المكان، الذي يعد جنة عدن انكليزية في مثل هذا اليوم التاسع والعشرين من شهر اذار/مارس عام 1867، دخل تشارلز عندما ارتقى الممر القادم

مــن الشاطئ عند خليج بينهاي. كما ان هذا المكان نفسه هو الذي كان النصف الشرقي منه يدعى وير كومونــز.

عــندما روى تــشارلز ظمأه ورطب حاجبيه بمنديله المبلل، شرع ينظر حوله نظــرة جــادة. او على الاقل، حاول ان ينظر حوله نظرة جادة، غير ان المنحدر الصغير الذي وجد نفسه فيه، والاحتمالات الجائزة امامه، الاصوات، الاريج، النمو الطبيعي الذي لا تشوبه شائبة، والخصب الوفير، اضطرته الى مناهضة العلم. كانت الارض القريبة منه تنتشر فيها زهور الربيع الصفر والذهبية ويحاذيها البرقوق الابيض المتفتح في كل مكان. وكانت هناك مجاميع من نباتات الحمَّاض والمسك، وهي ارق زهور الربيع الانكليزية، في نفس البقعة التي كانت فيها اشجار البلسان ذات القمم الخضر تظلل الضفتين المكسوتين بالطحلب لذلك الجدول الصغير الذي ارتوى منه. والى الجــزء الاعلى من المنحدر، شاهد الرؤوس البيض للشقائق، والى الوراء منها كانت ثمة اكوام ذات لون اخضر غامق من اوراق نباتات ذات زهرات زرقاء اللون شــبيهة بالاجراس. وفي مكان بعيد، سمع صوت الطائر النقار وهو ينقر في اغصان شجرة عالية في حين سمع من فوق رأسه صفير عصفور الدغناش المغرد. كما كانت طـيور مغردة اخرى وصلت مؤخرا تشدو فوق كل شجرة وفي كل دغل. وعندما اســتدار شــاهد البحر الازرق الذي يندفع بعيدا من تحته، وخليج لايم برمته وقد اكمــل اســتدارته، والجروف المستدقة التي كانت تنحدر في القوس الاصفر لضفة شيزل اللامتناهية التي كانت حافتها البعيدة تلامس جبل طارق الانكليزي الغريب المعــروف ببورتلاند بيل، وهو عبارة عن ظل رمادي خفيف محشور تحت السماء الصافية.

لقــد استطاع فن واحد لا غير من الامساك بمثل هذه المناظر - الا وهو فن النهضة. فكانت الارضية التي تتحول فيها شخوص بوتيشيلي[30]، الهواء الذي يحيط بأغــاني رونــسار[31]. لا يهم ماذا كانت اهداف ومقاصد وعي الثورة الثقافي، او فظائعــه او اخفاقاته. كانت النهضة في جوهرها النهاية الخضراء لواحد من اقسى

---

(30) ساندرو بوتيشيلي (1445-1510) رسام ايطالي من مواليد فلورنسا. (المترجم)

(31) بييــر دو رونــسار (1524-1585) شــاعر فرنسي يعد احد اعظم شعراء عصر النهضة الفرنسية واغزرهم انتاجا. (المترجم)

شتاءات المدنية، كانت نهاية السلاسل والقيود والحدود. ووسيلتها واحدة لا تتغير: الموجـــود هو الجيد. باختصار، كانت تتصف بكل الصفات التي لم يكن يتصف بها عـــصر تشارلز، لكن لا تظن انه لم يكن يدرك ذلك وهو واقف في مكانه. صحيح انه عند تفسيره مشاعره الغامضة الخاصة بالقلق، اللا انسجام، الحدود، كان يقترب من روسو والاساطير الطفولية عن العصر الذهبـــي والبدائي النبيل. اي، انه حاول ان ينبذ عدم ملاءمة مقترب عصره الى الطبيعة بالافتراض ان المرء ليس في مستطاعه ان يـــدخل ثانـــية في الاسطورة. وقال لنفسه انه مدلل اكثر مما ينبغي بفعل المدنيّة ولـــيس في استطاعته بعد الان ان يقطن في الاماكن الطبيعية ثانية، وقد جعله هذا الامـــر حـــزينا على نحو ممتع مشوب بألم. فهو فكتوري رغم كل ذلك. وليس في وســـعنا ان نـــتوقع مـــنه ان يشاهد ما بدأنا توا بادراكه – وبمساعدة معرفة اكبر ودروس اكثـــر في الفلسفة الوجودية المتوفرة لدينا – وهو ان الرغبة في الاستحواذ والـــرغبة في المـــتعة رغبتان مدمرتان معا. وكان ينبغي لكلامه الى نفسه ان يكون: «انـــا امـــتلك هذا الان، فانا سعيد اذا». بدلا من العبارة الفكتورية المألوفة: «لا استطيع ان امتلك هذا الى الابد فانا حزين اذا».

اســـتعاد العلـــم هيمنته ثانية في اخر الامر، وبدأ تشارلز يبحث بين طبقات الصوان المنتشرة على امتداد مجرى الجدول عن اختباراته. فعثر على قطعة صغيرة من محـــار محـــوري الشكل متحجر، بيد ان قنافذ البحر فاتته ملاحظتها فتوغل داخل الاشجار رويدا رويدا الى جهة الغرب، كان ينحني ويتفحص الارض فحصا متأنيا بعينـــيه ويتحـــرك بضع خطوات الى الامام، ثم يستأنف نفس العمل. وبين وقت واخـــر، كـــان يقلب ما يبدو انه قطعة من الصوان بطرف عصاه. الا انه لم يكن محظوظا. مرت ساعة، وبدأ واجبه ازاء ايرنستينا يثقل عليه شهوته للقنافذ. نظر الى ســـاعته، وكـــتم لعـــنة كاد ان يتفوه بها، ثم قفل راجعا الى المكان الذي ترك فيه حقيبـــته. وفي جزء اعلى من المنحدر، وجد امامه طريقا، فسار فيه منطلقا صوب بلـــدة لايم والـــشمس الغاربة من ورائه. كان هذا الطريق يتجه وينحني قليلا الى الـــداخل على مقربة من سور حجري نما عليه اللبلاب، ثم يتشعب دون علامة الى العديد من الشعب على نحو لا يرحم. تردد اول الامر، ثم سار مسافة خمسين ياردة او مـــا يقـــرب من ذلك (45 مترا) على امتداد الطريق الادنى الذي كان يغور في

الخــدود مــستعرض، وتظلله الظلال الكثيفة. غير انه توصل الى حل لمعضلته - لا يدري تماما كيف هي الارض من امامه - اذ ان ممرا اخر تفرع فجأة عن يمينه عائدا الى البحر ثانية من فوق منحدر صغير تعلوه الاعشاب ومن هناك يستطيع ان يحدد وجهته تحديدا واضحا. لهذا اندفع الى اعلى يشق طريقه بين العليق - اذ كان الممر غير سالك تقريبا - ووجهته السهل الاخضر الصغير.

انفتح الطريق من امامه على نحو مستساغ مثل مرج صغير من مروج الالب، بينما اتضح من خلال الاذناب البيض لثلاثة او اربعة ارانب سبب قصر العشب.

انتصب تشارلز تحت نور الشمس. كانت نباتات رجل الطير تزين العشب في حــين اوشكت مجموعة خضراء زاهية اللون من نبات السَّمسق على التفتح. وهنا تقدم تشارلز نحو حافة السهل.

وهناك شاهد شخصا ما من تحته.

مــرت به لحظة رهيبة، ظن فيها انه عثر على جثة. لكن الجثة لم تكن سوى امــرأة نائمــة. لقد اختارت اغرب بقعة من الارض وهي عبارة عن رف عريض منحدر من العشب يمتد مسافة خمسة اقدام (1.5 متر) تحت مستوى سطح السهل، ويخفيها عن رؤية اي شخص لها الا اذا وصل الحافة نفسها كما هو شأن تشارلز. كانــت الجدران الطباشيرية من وراء هذه الشرفة الطبيعية الصغيرة قد جعلت من المكــان مأوى للشمس، لأن اعرض محور فيه كان يشير الى الجنوب الغربــي. الا انــه لــيس مــأوى يفضل اختياره الكثيرون، اذ كانت حافته الخارجية تطل على مــنحدر يــصل الى ثلاثين او اربعين قدما وسط كتلة متشابكة بشعة من العليق. وقليلا الى الوراء منها كان الجرف الحقيقي يطل على البحر تماما.

كان احساس تشارلز الاني يتمثل في التراجع عن مشهد المرأة. لكنه لم يعرف من هي. فوقف حائرا لا يدري ما يفعل وهو ينظر الى طبيعة المشهد الآسر دون ان يدركــه. تــردد، واوشك ان ينصرف، الا ان حب الفضول عنده دفعه الى الامام ثانية.

كانــت الفــتاة مستلقية على ظهرها، مستسلمة استسلاما تاما لنوم عميق. وكان معطفها مفتوحا يكشف عن ثوب نيلي لا يخفف من وطأة قسوته سوى ياقة بيــضاء صــغيرة عند الرقبة. كان وجه النائمة مائلا الى الجهة الاخرى منه في حين

كـــان ذراعها الايمن متدليا الى جهة الخلف وقد مال على نحو طفولي. وثمة مجموعة متفرقة من الشقائق فوق العشب المحيط به. كانت الطريقة التي استلقت بها تنطوي علـــى رقة شديدة لا تخلو من ايحاءات جنسية، فايقظت صدى باهتا في تشارلز عن لحظـــة مـــن لحظات وجوده في باريس. فتاة اخرى، لا يستطيع الان ان يتذكر اسمها، ربما لم يعرفه البتة، شوهدت مستلقية ذات فجر في حجرة نوم تطل على نهر السين.

سار حول حافة السهل المقوسة حيث يتمكن من رؤية وجه النائمة على نحو افـــضل. وعـــند ذاك فقـــط ادرك هوية المرأة التي تطفل عليها. انها امرأة الضابط الفرنـــسي. كـــان جزء من شعرها مسدلا يكاد يغطي نصف خدها، وكان يبدو عـــندما شـــاهدها عـــند الكوب بنيا غامقا. اما الان فتشوبه صبغة حمراء، ودفء شـــديد، ويخلو من البريق الضروري انذاك الذي يكسبه زيت الشعر النسائي. اما البـــشرة مـــن تحته فكانت سمراء تماما، ضاربة الى الحمرة تقريبا، في تلك الاشعة، كانـــت الفـــتاة تهـــتم بالصحة اكثر من اهتمامها بالوجه الشاحب ذي الوجنتين الواهنـــتين. انـــف بارز، حاجبان كثيفان... اما الفم فلم يستطع ان يتبينه. واستاء على نحو غريب لأنه مضطر لمشاهدتها على نحو مقلوب لأن طبيعة الارض لم تسمح له بالالتفاف ورؤيتها من زاوية مناسبة.

وقـــف في مكانـــه عاجزا عن فعل اي شيء سوى التفرس فيها، منتشيا بهذا اللقاء غير المتوقع وقد غلبته مشاعر غريبة ايضا - مشاعر ليست جنسية، بل اخوية، ربمـــا ابوية، اليقين من براءة هذه المخلوقة، من نبذها ظلما من المجتمع، وكان هذا يعـــد عاملا من عوامل حدسه بوحدتها المروعة. فعلاوة على اليأس، لم يكن قادرا علـــى تـــصور الشيء الذي يدفعها الى هذا المكان القفر في عصر كانت فيه النساء مـــستقرات تقـــريبا في بـــيوتهن، مستسلمات، عاجزات عن بذل الجهد الجسماني المتواصل.

في نهاية الامر وصل الى حافة السور الواقي من فوقها، والمهيمن على وجهها تمامـــا. وهنا رأى ان الحزن الذي سبق له ان لاحظه قد تلاشى. كان وجهها وهي نائمـــة رقـــيقا، ربما يشوبه شبح ابتسامة. وفي تلك اللحظة تماما، وفي حين كانت يتمايل الى الجانبين وهو يحاول ان يهبط الى اسفل، استيقظت من نومها.

نظـــرت الى الاعلى على الفور، نظرت نظرة سريعة، فكانت محاولته التراجع الى الخلف لا طائل من ورائها. لقد اكتشف امره، وكان سيدا مهذبا لا سبيل لديه الى انكـــار فعلـــته. لهذا رفع قبعته، وانحنى عندما نهضت سارة على قدميها وجلة مذعورة، وعدّلت من معطفها، وأمعنت النظر فيه من مكانها. لم تقل شيئا بل سمرته في مكانه بنظرة رعب وذهول، ربما لم تكن تخلو من الاحساس بالخجل. كانت لها عينان جميلتان، عينان سوداوان.

مكـــثا واقفـــين على تلك الحالة بعض الوقت وقد اسرهما الحيرة المشتركة. كانت تبدو في منتهى الصغر وهي تقف في مكان ادنى منه وقد اختفى جسدها من مـــنطقة الخـــصر والى الاسفل في حين تشبثت بياقتها كأنها على وشك ان تستدير وتـــندفع بعـــيدة عن انظاره اذا ما خطا خطوة واحدة باتجاهها. ثاب الى رشده، وادرك الكلام المناسب.

- معذرة الف مرة. لقد وجدتك مصادفة على نحو غير مقصود.

ثم استدار وسار بعيدا. لم ينظر وراءه بل اندفع الى اسفل نحو الممر الذي تركه ومـــن ثم الى الطـــريق المتشعب حيث سأل نفسه عن السبب الذي جعله يفتقر الى سرعة البديهية ولم يسأل عن الطريق الذي ينبغي له ان يسلكه وانتظر نصف دقيقة ليتحقق من لحاقها به او عدمه الا انها لم تظهر وعلى الفور، سار بثبات وهو يرتقي الطريق المنحدر.

لم يكـــن تـــشارلز يعرف، لكن في تلك الثواني القصيرة المتوازنة فوق البحر المنتظـــر، في ذلـــك السكون المسائي المنير الذي لا يعكره سوى اندفاع الموجات الهـــادئ، كـــان العصر الفكتوري برمته مفقودا. ولا اقصد بهذا انه سلك الطريق الخطأ.

11

بشكل مطابق تماما للاخرين،
ودون تفكير بما يعنيه حقا،
اذهب الى الكنيسة – هذا ما يريده العالم منك،
والى الحفلات – هذا ما يريده العالم ايضا،
وتزوج – هذا ما يرغب فيه بابا وماما،
واخواتك وزملاؤك في المدرسة.

اي. إتش، كلف – الواجب 1841

«اوه، لا، من هو!» صاحت بازدراء،
«لن ادفع فيه بنسا واحدا،
افضل ما فيه واضح للعيان،
سترته زاهية الالوان. صحيح،
لكن اهله لم يربوه
ليتعلم شيئا واحدا...»

وليم بارنز – قصائد بلهجة دورسيت المحلية 1869

في الوقت الذي حدث فيه هذا اللقاء تقريبا، نهضت ايرنستينا متململة من فراشها، واحضرت مفكرتها ذات الجلد الاسود من منضدة زينتها. في البداية عادت متجهمة الوجه، الى حدّ ما، الى افتتاحية ذلك الصباح وهي افتتاحية لم تكن مؤكدا مؤثرة جدا من وجهة النظر الادبية: «حررت رسالة الى والدي. لم اشاهد تشارلز الاعز، لم اخرج من البيت على الرغم من روعة الطقس. لم اشعر بالسعادة».

كان يوما سلبيا تماما للفتاة المسكينة التي لم يكن امامها سوى الخالة ترانتر لتظهر لها استياءها. هناك زهور النرجس والنرجس الاسلي التي ارسلها تشارلز والتي اخذت الان تتنشق عبيرها الا ان هذه الزهور نفسها اغاظتها اول الامر. كان بيت الخالة ترانتر صغيرا وسمعت سام وهو يطرق الباب الرئيس في الطابق السفلي. وسمعت ماري الشريرة، الوقحة وهي تفتح الباب – اصوات هامسة اعقبتها قهقهة

واضحة مكتومة صدرت عن الخادمة، واصطفاق باب. وراود ذهنها شك بغيض، شنيع، بأن تشارلز كان موجودا وهو يغازلها. حرك ذلك واحدا من اعمق مخاوفها ازاءه.

كانت تعرف انه عاش في باريس وفي لشبونه وانه سافر كثيرا؛ كانت تعرف انه يكبرها باحد عشر عاما، وكانت تعرف انه جذاب امام النساء. وكانت ردوده علـــى اسـئلتها المازحة الحذرة ذات الصلة بمغامراته السابقة مازحة حذره بدورها دومـــا. تلـــك هي المعضلة. فقد شعرت انه لا بد اخفى عليها شيئا ما - كونتيسة فرنـــسية مأســـاوية. مركيزة برتغالية مشبوبة العاطفة. ولم يسمح عقلها لنفسه ليـــنطلق الى عاملة باريسية شابة او فتاة حانة ذات عينين لوزيتين في سينترا[32]، وهـــو امـــر من شأنه ان يكون اكثر قربا من الحقيقة. بيد ان موضوع ممارسته الحب مع نساء اخريات كان يثير لديها، على نحو ما، قلقا، اقل من ذلك الذي تـــثيره ممارسته الحب مع فتاة عصرية. الطبيعي ان ايرنستينا تفوهت بعبارة «لا ينبغـــي لي» حالما كان يراود ذهنها اي تفكير اثم. غير انها كانت تغار من قلب تشارلز حقا، اذ لم تستطع احتمال التفكير انه قلب يشاركها فيه احد سابقا او لاحقـــا. كانت سكين اوكام[33] المفيدة غير معروفة منها. وهكذا، فإن الحقيقة البـــسيطة المتمـــثلة في انه لم يعشق فتاة باتت دليلا واضحا امام ايرنستينا - في ايامهـــا الكئيبة - بانه كان ذات يوم عاشقا مشبوب العاطفة. فمظهره الهادئ عدته صمتا رهيبا لميدان معركة سابقة، واترلو بعد شهر، بدلا من ان تنظر اليه على حقيقته - مكان بلا تاريخ.

---

(32) ســـينترا: بلـــدة بـــرتغالية جبلية في الشمال الغربي من لشبونة تغنى بجمالها الاخاذ الشاعر الانكليزي لورد بايرون في قصيدته الشهيرة تشايلد هارولد. (المترجم)

(33) سكين اوكام: نسبة الى وليم الاوكامي اعظم علماء الفرانسيسكان ولد في بلدة اوكام بمقاطعة سري بانكلترا حوالى 1300 وتوفي حوالى 1349 درس في اوكسفورد وباريس ولما خرجت اراؤه الى حدّ ما عن حرفية العقيدة صدر اليه الامر في 1324 بالمثول امام البابا في افينيون وطـــرد من الكنيسة عام 1328 ووجد الحماية في بلاط الامبراطور لويس في ميونيخ. كان معاديـــا للميتافيزيقيا وكان يقول «لا ينبغي الاكثار من الكيانات الى حدّ يتجاوز ما تدعو اليه الحاجـــة». وقد اصبحت هذه العبارة تعرف باسم سكين اوكام. والكيانات التي كان يقصدها هي الصور والجواهر وما شابهها. (المترجم)

لما اغلق الباب الرئيس، سمحت ايرنستينا للوقار ان يسيطر عليها دقيقة ونصف الدقيقة تماما في حين امتدت يدها الرقيقة وجذبت باصرار المقبض الذهبـي اللون الى جـنب سريرها. تناهى صوت رنين متصل يبعث على البهجة من المطبخ وبعد ذلـك تماما، سمع صوت وقع اقدام وطرق، وانفتح الباب لتظهر ماري وهي تحمل زهـرية وفـيها مجمـوعة من زهور الربيع. دخلت الفتاة، ووقفت قرب السرير، ووجههـا تكاد تغطيه الزهور؛ كان وجهها باسما يصعب على اي رجل ان يكون غاضبا منه. لهذا فإن ايرنستينا، خلاف ذلك، قطّبت حاجبيها على نحو يبعث على التوبيخ لمرأى الزهور غير السار.

في نظـري، كانـت مـاري أجمل الشابات الثلاث اللواتي اتى ذكرهن في الـصفحات السابقة. كانت تملك حيوية اكبر الى ما لا نهاية وكانت اقل ما يمكن مـن الانانـية. وكانت تملك ما يناسب ذلك من الفتنة الجسدية... بشرة وردية صـافية، شـعر بلون الذرة، عينان زرقاوان واسعتان لذيذتان، عينان تثيران الرجل وتعـيدانه بالتالي الى سابق عهده، عينان تفوران مثلما تفور افضل انواع الشراب علـى نحـو يتعذر السيطرة عليهما، لكن دون ان يلحقا اي اذى؛ كما ان الثياب الفكـتورية الحزينة التي غالبا ما كانت تضطر الى ارتدائها لم تستطع اخفاء قوامها الرشـيق وقابليتها على الاكتناز (البدانة) - في الواقع، إن كلمة \اكتناز قاسية. لقد اوردت ذكر اسم رونسار قبل قليل. واعتقد ان قوامها يتطلب واحدة من صفاته، صـفة ليس لدينا في اللغة الانكليزية ما يقابلها: rondelet، اي كل ما هو مثير في الجـسد الـريان (البدين) دون ان يفقد ما هو جميل في الرشاقة. ان حفيدة حفيدة حفـيدة مـاري التي تبلغ العشرين من عمرها في هذا الشهر الذي اكتب فيه الان تـشبه الى حدّ كبير جدها. كما ان وجهها معروف في العالم اجمع لأنها واحدة من اشهر الممثلات الشابات في السينما الانكليزية.

الا انـني اخشى انه لم يكن وجهها يناسب العام 1867. فعلى سبيل المثال، لم يكن ابدا وجهها يلائم السيدة بولتيني الذي الفته منذ ثلاث سنوات، اذ كانت ماري ابـنة اخت احدى قريبات السيدة فيرلي التي تملقت السيدة بولتيني كي تتقبل هذه المبـتدئة للعمل في المطبخ القاسي. بيد ان بيت مارلبورو وماري اخذ يلائم احدهما الاخر مثلما يلائم قبر من القبور طائر الحسون. وعندما كانت السيدة بولتيني تفتش

ذات يوم مقاطعتها على نحو مكتئب وشاهدت من نافذتها في الطابق العلوي منظرا يثير الاشمئزاز ويتمثل في قيام صبي الاصطبل باستجداء قبلة دون ان يلقى مقاومة ناجحة، فإن طائر الحسون منح حريته فورا، واذ ذاك طار الى منزل السيدة ترانتر على الرغم من تحذيرات السيدة بولتيني الصارمة لتلك السيدة من حماقة اضمار مثل ذلك الفجور.

كانت ماري سعيدة في شارع برود وكانت السيدة ترانتر تهوى الفتيات الجميلات، وتفضل اكثر الفتيات الجميلات الضاحكات. المؤكد ان ايرنستينا كانت ابنة اختها وكانت تقلق عليها اكثر. الا انها كانت لا تشاهد ايرنستينا الا مرة او مرتين في السنة، اما ماري فكانت تشاهدها يوميا. ومن وراء المظهر المغناج المتحرك، كانت الفتاة تتصف بمودة رقيقة. و لم تكن لتتقيد بشيء، بل ترد الدفء الذي يمنح لها. و لم تعرف ايرنستينا سرا رهيبا عن ذلك البيت في شارع برود. فعندما كان الطاهي يتمتع بيوم اجازة، كانت السيدة ترانتر تجلس وتتناول طعامها بصحبة ماري وحدهما في مطبخ الطابق السفلي. و لم تكن تلك الساعات اوقاتا حزينة لأي واحدة منهما.

لم تكن ماري بلا اخطاء. وكان احد اخطائها غيرتها من ايرنستينا. فهي لم تعد فجأة الفتاة المفضلة ضمنا في البيت عندما وصلت السيدة الشابة من لندن وحسب، بل ان السيدة الشابة القادمة من لندن اتت معها بصناديق مملوءة بأجد ازياء لندن وباريس، وهو امر ليس بالحسنة عند خادمة لا تملك سوى ثلاثة فساتين، ولا تحب اي واحد منها على الرغم من ان افضلها لا تستطيع الا ان تكرهه لا لشيء الا لأنه قدم لها من الاميرة الشابة القادمة من العاصمة. كما اعتقدت ايضا ان تشارلز رجل وسيم يصلح ان يكون زوجها، الا انه جذاب اكثر مما ينبغي لمخلوقة شاحبة من مثل ايرنستينا. وهذا هو السبب في ان تشارلز كان غالبا ما يحظى بعون هاتين العينين الرماديتين والزرقاوين عندما كانت تفتح له الباب او تمر به في الشارع. والحقيقة التي لا تجارى او تبارى هي ان تلك المخلوقة كانت تختار اوقات خروجها ودخولها كي تتزامن وخروج تشارلز ودخوله. وفي كل مرة كان يرفع قبعته محييا في الشارع، كانت تحتقر ذهنيا ايرنستينا، لأنها كانت تعلم جيدا السبب الذي يدفع ابنة اخت السيدة ترانتر للذهاب الى الطابق العلوي

حالمـــا يغادر تشارلز البيت. وكانت تجرؤ على التفكير، شأنها شأن اي فتاة مغناج، باشياء لم تفعلها سيدتها الشابة. وكانت تدرك ذلك.

بعد ان سمحت ماري على نحو ملائم وخبيث لصحتها وبهجتها ان تظهر امام المريضة، وضعت الزهور فوق المنضدة المجاورة للسرير.

- من السيد تشارلز يا انسة تينا.

كانت تتكلم بلهجة معروفة بنفورها من استعمال الضمائر والاضافات.

- ضعيها فوق منضدة الزينة. انني لا احب ان تكون قريبة جدا مني.

امتـــثلت ماري ونقلت الزهور الى المكان الاخر، وشرعت تعيد ترتيبها قليلا قبل ان تلتفت وتبتسم لايرنستينا التي كانت نهبا للشكوك.

االحضرها بنفسه؟

لا يا انسة.

اين السيد تشارلز؟

- لا اعرف يا انسة. فانا لم اسأل عن ذلك.

كان فمها مطبقا تماما كأنها تريد ان تنفجر في قهقهة.

- غير انني سمعتك تتحدثين مع الرجل.

- نعم يا انسة.

- عن اي شيء؟

- عن الساعة لا غير.

- اهذا هو السبب الذي يدفعك الى الضحك؟

- نعم يا انسة. انه اسلوب كلامه يا انسة.

كـــان ســـام الذي ظهر عند الباب يشبه شبها قليلا الشاب الساخط المهموم الـــذي شـــحذ الشفرة. فقد دفع باقة الزهور الجميلة بين ذراعي ماري المشاكسة: «هذه للسيدة الجميلة في الطابق العلوي». ثم وضع قدمه على نحو حاذق في المكان الـــذي كان فيه الباب على وشك ان يغلق، واخرج بيده الاخرى من وراء ظهره، علـــى نحـــو حاذق ايضا، باقة صغيرة من زهور بلون الزعفران، «وهذه للمحبوبة اكثر في الطابق السفلي»، وقد احمر وجه ماري خجلا، وقل ضغط الباب على قدم ســـام بشكل غامض. ورأها وهي تشم الزهور الصفر على نحو يفتقر الى الكياسة،

ولكـــن بـــصدق فبدت قطعة صغيرة من الزعفران البرتقالي على الانف الفاتن والوقح.

- كيس جمع السخام سيسلم كما هو مطلوب.

عضت على شفتيها، وانتظرت.

- بشرط واحد. بلا دفع مؤجل. وسيدفع الثمن فورا.

- كم يكلف اذا؟

تفرس الرجل الجريء في ضحيته كأنه يحسب ثمنا منصفا. ثم وضع اصبعه فوق فمـــه، وغمـــز لهـــا غمزة عميقة لا لبس فيها. فكانت حركته تلك سببا في اثارة ضحكتها المكتومة، واصطفاق الباب.

القت ايرنستينا اليها نظرة ما كان من شأنها ان تلحق العار بالسيدة بولتيني.

- ستتذكرين انه قادم من لندن.

- نعم يا انسة.

- لقد حدثني عنه السيد سميثسون قبل وقت قصير. ان الرجل يظن نفسه دون جوان.

-ماذا يعني هذا يا انسة تينا؟

كان ثمة قلق تواق محدد للحصول على معلومات اخرى في وجه ماري الذي اثار استياء ايرنستينا كثيرا.

- لا يهـــم الان. لكـــن اذا شرع في المغازلة فانني ارغب في ان تخبريني فورا. والان احضري لي شيئا من عصير الشعير وكوني اكثر حكمة في المستقبل.

في هـــذه اللحظـــة مر بريق خاطف في عيني ماري، يشبه ومضة تحدٍ، الا انها خفـــضت مـــن بـــصرها بيـــنما امالت قبعتها الصغيرة المخرمة احتراما رمزيا لها وانصرفت. ثلاث مجموعات من درجات السلم الى اسفل وثلاث مجموعات اخرى الى اعلى، ومثل ايرنستينا التي لم تكن لديها اي رغبة في احتساء شراب شعير الخالة ترانتر المفيد ولكن غير الممتع، عزت ماري نفسها بالذكرى.

الا ان مـــاري ربحـــت الصفقة بمعنى ما، لأنها ذكرت ايرنستينا، التي لم تكن بطبيعـــتها طاغـــية البـــيت بل مجرد طفلة مدللة رهيبة، وبأنها لا بد ان تتوقف عن الانهمـــاك في لعـــبة السيدة وان تكون سيدة بجد. طبيعي ان الفكرة راقت لها؛ ان

تستحوذ على بيت شخص اخر، ان تكون بعيدة عن الوالدين، الا ان الخدم يمثلون معــضلة كما يقول الجميع. و لم يعودوا كسابق عهدهم، كما يقول الجميع ايضا. كانـــوا يثيرون السأم بمعنى ما. ربما لم تكن حيرة ايرنستينا وألمها بعيدين كثيرا عن حـــيرة تـــشارلز وألمـــه في حين كان يتفصد بالعرق ويتعثر في طريقه على امتداد الـــشاطئ. كانت الحياة الاداة الصحيحة، والتفكير خلاف ذلك هرطقة. لكن في هذه الاثناء، لا بد من حمل... في هذا الزمان والمكان.

احـــضرت ايرنـــستينا مفكـــرتها لتطرد مثل هذه الهواجس الكئيبة التي ظلت ملازمة لها عصر ذلك اليوم، واعتدلت في سريرها، وعادت الى الصفحة التي تحتوي على زهرة الياسمين.

كانـــت بوادر تصنيف المجتمع في لندن على اساس الثراء والنفوذ قد بدأت في لندن عند منتصف القرن. من المؤكد ان اي شيء لم يحل محل كرامة النسب، الا انه اصـــبح من المقبول عموما ان ينتج المال والعقول صورة طبق الاصل، معترف بها، للمكانـــة الاجتماعـــية المرضية. كان دزرائيلي نموذجا، لا استثناء، لعصره. ربما لم يكن جد ايرنستينا اكثر من تاجر ألبسة ميسور الحال في ستوك نيوونيغتون في مطلع شـــبابه. الا انـــه توفي تاجرا ثريا جدا - بل اكثر من ذلك، اذ كان قد انتقل من الناحية التجارية الى مركز لندن، وفتح له واحدا من اضخم المتاجر في حي الويست انـــد، ووسع من افاق تجارته في ميادين اخرى علاوة على الالبسة. اما والدها فقد مـــنحها حقـــا ما ورثه هو اصلا: افضل تعليم يمكن للنقود ان تشتريه. كان سيدا مهـــذبا في كل شيء باستثناء اصوله. وقد تزوج زواجا حكيما بامرأة من منـــزلة ارفع منه وهي ابنة واحد من انجح محامي المنطقة التجارية بلندن وكان في وسعه ان يـــضاهي المدعـــي العام و لم يكن اقل شأنا من بين اجداده الاقربين. لهذا السبب، كانت مخاوف ايرنستينا الخاصة بمكانتها الاجتماعية بعيدة الاحتمال، حتى في ضوء المعايير الفكتورية، و لم تكن على الاقل لتثير قلق تشارلز واضطرابه.

ذات يوم قال لها:

- فكّري بمدى ابتذال الاسم سميثسون الذي يوحي بالخزي.

- اه حقـــا. لو كان اسمك اللورد بربازون فافازور فيردي فير، لتعين عليّ ان احبك اكثر كثيرا.

الا ان ثمة مخاوف كانت تكمن وراء سخريتها.

لقد التقى بها اول مرة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر المنصرم في منـــزل سيدة كانـــت قـــد وضعت عينها عليه لعلها تحظى به لواحدة من بناتها ذوات الابتسامة المـــتكلفة. وكـــان من سوء حظ اولئك الفتيات ان والديهن قد اعطيا التعليمات النهائـــية لهـــن قبل حلول المساء، فارتكبن خطأ قاتلا بمحاولة التظاهر امام تشارلز بانهن مهتمات بعلم الاحاثة، وان عليه ان يعطيهن عناوين اكثر الكتب امتاعا بشأن الموضـــوع - في حـــين اظهرت ايرنستينا اصرارا رقيقا واهيا على الا تحمله محمل الجـــد. وقد همست بانها سترسل له اي نماذج مثيرة للاهتمام من الفحم تعثر عليها في دلـــو الفحم لديها. وفي وقت لاحق اخبرته بانها تعتقد بانه في منتهى الخمول. لمـــاذا؟ ارجـــوك. لأنه قلما يدخل اي حجرة استقبال في لندن ولا يجد عينات لا تحصى من الاشياء المثيرة لاهتمامه.

كان كل شيء يشير للشابين ان المساء سيكون مثيرا للسأم. ولما رجع الاثنان الى منـــزليهما، وجدا ان الامر ليس كذلك.

فقـــد شـــاهد كل واحد في الاخر ذكاء حادا، رقة الملمس، وصراحة مثيرة للـــبهجة. فافصحت ايرنستينا القول بانها وجدت في السيد **سميشسون** تحولا مقبولا مـــن ظهـــور الشركاء الباعث على الضجر، الذين عرضوا عليها للمعاينة في ذلك الموســـم. لقـــد قامت والدتها بتحريات سرية، وشاورت زوجها الذي قام بدوره بتحـــريات اكثـــر. اذ لا يوجد شاب ذكر يضع قدمه في حجرة استقبال في البيت المطـــل على حدائق الهايد بارك لم يفحص فحصا يشابه فحص دائرة الامن الحديثة لعلماء الذرة. اجتاز تشارلز محنته السرية بنجاح عظيم.

امـــا الان فقد رأت ايرنستينا خطأ منافساتها: اي زوجة يرمى بها امام تشارلز مـــا من شأنها ان تلمس شغاف قلبه. لهذا، عندما شرع يزورها في منـــزل والدتها ويلتقـــيها في حفـــلات السهرة، كانت لديه خبرة غير اعتيادية في اكتشاف عدم وجود اي اشارة تدل على وجود فخ الزواج الاعتيادي، او اي اشارات خفية من جانـــب الام توضـــح بأن الحبيبة اللطيفة تحب الاطفال او انها «تواقة في السر لأن ينتهـــي الموسم» (كان المفروض ان يقطن تشارلز في وينـــزيات حالما يؤدي عمه واجـــبه ويـــرحل) او اشـــارات اقل ايحاء من جانب الاب عن حجم الثروة التي

ستقدمها «ابنتي الغالية جدا» لزوجها. كانت الاشارات الاخيرة غير ضرورية كما يبدو في كل الاحوال، فقد كان المنزل في هايد بارك يناسب دوقا كي يقطن فيه. كما ان غياب الاخوة والاخوات يغني عن الاف الكشوفات المصرفية.

لم تبالغ ايرنستينا في تمثيل دورها اكثر مما ينبغي. على الرغم من انها سرعان ما وطدت العزم تماما على الاستحواذ على تشارلز، وهو ما يمكن ان تفعله اي ابنة مدللة. فكانت تتحقق من وجود غيره من الشبان الجذابين دوما. ولم تختر الطريدة الحقيقية بدافع المحاباة او الاهتمام. كانت من حيث المبدأ غير جادة معه، ودون ان تفصح القول، كانت تعطيه الانطباع بانها تهواه للهوه - كانت تدرك انه لن يتزوج. وفي ذات امسية من امسيات شهر كانون الثاني/يناير قررت ان تزرع البذرة المقررة للمصير (المحتومة).

شاهدت تشارلز يقف بمفرده. وفي الجهة المقابلة من الغرفة شاهدت ارملة عجوز مهيبة، من نمط سيدات حي مي فير الشبيهات بالسيدة بولتيني، وادركت انها ستكون مناسبة لتشارلز مثلما يناسب زيت الخروع طفلا موفور الصحة. فذهبت اليه.

- ألن تذهب للحديث مع الليدي فير ويذر؟

- افضل الحديث معك.

- سأعرفك اليها. وعندئذ سيكون لديك شرح عياني لمجريات الاحوال في بواكير الفترة الطباشيرية.

ابتسم.

- بواكير العصر الطباشيري[34]، لا الفترة الطباشيرية.

- لا بأس. انا واثقة انها راسخة في القدم بما فيه الكفاية وانا اعرف مدى سأمك بأي شيء حدث في التسعين مليون سنة الماضية. هيا.

ثم شرع الاثنان يجتازان الغرفة معا. لكن ايرنستينا توقفت في منتصف الطريق المؤدي الى السيدة التي تنتمي الى بواكير العصر الطباشيري، ووضعت يدها فوق ذراعه برهة وجيزة، وأمعنت النظر في عينيه.

---

(34) العصر الطباشيري: العصر الثالث والاخير من الدهر الوسيط. (المترجم)

– اذا كـــنت عازما على ان تكون عازبا كبيرا مشاكسا يا سيد سميثسون فلا بد لك من ان تتمرن على اداء دورك.

ثم تحـــركت قـــبل ان يتمكن من الرد. وربما كان ما قالته لا يعدو اكثر من استمرار في مناكدها. الا ان عينيها افصحتا للحظة قصيرة الها قدمت عرضا واضحا يـــشبه في طريقته تلك العروض التي تقدمها اولئك النسوة في لندن في ذلك الزمن وهن يترددن عند ابواب المنازل في منطقة هيماركت.

لم تعرف ايرنستينا الها لمست جزءا حساسا جدا في روح تشارلز العميقة، في احـــساسه بانه يتقدم في السن مثل عمه في وينـــزيات، وان الحياة تمر به، وان كان شديد الوساوس، كما هو شأنه في اشياء كثيرة اخرى، وانه كان كسولا، انانيا.. واسوأ من ذلك، انه يسافر الى خارج البلاد في غضون السنتين المنصرمتين. وادرك ان رحلاته السابقة كانت تعويضا عن افتقاره الى الزوجة. كان ذلك يبعد ذهنه عن الـــشؤون المنــــزلية، ويسمح له بمضاجعة اي امرأة بين وقت واخر، وهي متعة حرمها على نفسه تحديدا، ربما لتذكره ليلة الروح المكفهرة التي تسببت فيها مقالته الاولى في ذلك الموضوع في انكلترا.

لم يعـــد الـــسفر يـــثيره، بل النساء. لهذا السبب كان في وضع متناهٍ من الاحـــباط الجنسي طالما ان رقة الاخلاق لم تسمح له ان يلجأ الى حيلة بسيطة وقـــضاء اسبوع واحد في اوستند[35] او باريس. لم يكن ليسمح لمثل هذا الهدف ان يفرض اسباب الرحلة. فقضى الاسبوع وهو مستغرق في التفكير العميق. ثم استيقظ صباح يوم ما.

لقد بات كل شيء بسيطا. لقد احب ايرنستينا. وفكّر في متعة الاستيقاظ في مثل هذا الصباح، البارد، المكفهر الذي اكتست فيه الارض بطبقة خفيفة من الثلج، ومشاهدة ذلك الوجه الصغير الرزين العذب وهو يرقد الى جواره – بصورة شرعية امـــام الله وامامه (وهي حقيقة اصابت تشارلز بقدر من الذهول). بعد مرور دقائق قلـــيلة، ايقظ سام من نومه بالرنين المتواصل ليقول له: «سام. انني مجنون مئة بالمئة ولتغفر لي السماء ذلك».

(35) لوستند: منتجع وميناء بلجيكي مشهور بصيد الاسماك وتربية المحار وصناعة السفن والتبغ والصابون، وهو نقطة لانطلاق القطارات الى مختلف ارجاء القارة الاوروبية. (المترجم)

بعـــد مرور يوم او يومين قابل المجنون والد ايرنستينا، وكانت مقابلة قصيرة، مرضية تماما. هبط الى حجرة الاستقبال حيث كانت والدة ايرنستينا تجلس في حالة مـــن اشد حالات الذعر. لم تستطع حمل نفسها على الحديث مع تشارلز، بيد انها اشارت على نحو غامض باتجاه بيت النباتات الزجاجي، ففتح تشارلز الباب الابيض المـــؤدي الـــيها، ومكث واقفا امام نفحة الهواء الحار المعبق بالشذى. لا بد له من الـــبحث عن ايرنستينا الا انه وجدها في نهاية المطاف في احد الاركان القصية تكاد تحجبها تعريشة. شاهدها وهي تنظر اليه نظرة خاطفة ومن ثم تخفض بصرها بسرعة وتـــشيح النظر جانبا. كانت تحمل مقصا بيدها وتتظاهر بقطع بعض الازهار الميتة من النبات الذي تفوح منه رائحة قوية. وقف تشارلز وراءها مباشرة وسعل.

- جئت كي اودعك.

تظاهـــر بانـــه لم يلحظ النظرة المعذبة التي القتها اليه وذلك باللجوء الى حيلة بسيطة وهي الامعان في النظر الى الارض.

- قـــررت ان ارحل عن انكلترا. وساقضي البقية الباقية من حياتي في السفر. اهناك من سبيل اخر يقضي فيه اعزب عجوز مهموم ايامه؟

كـــان على استعداد للاستمرار في ذلك المنوال. الا انه شاهد ايرنستينا وهي تحني رأسها ويشتد بياض اصابعها بفعل القوة التي كانت تمسك بها المنضدة فأدرك ان من شأنها عادة ان تكتشف مضايقته فورا. وادرك ايضا ان بطء فهمها نابع الان من احتدام عواطفها وهو ما اتضح له.

- الا انني لو صدقت بأن هناك من يهتم بـــي على نحو كافٍ ويشاطرني...

لم يـــتمكن مـــن الاستمرار في الحديث، اذ التفت، وابصر عيناها غارقتين في الدموع. التقت ايديهما فجذبها نحوه. لم يتبادلا القبلات، لم يستطيعا ذلك. كيف تستطيع ان تكبت على نحو لا يرحم كل الغريزة الجنسية الطبيعية عشرين سنة ولا تـــتوقع ان تنـــتاب الـــسجين نـــوبات من البكاء عندما تفتح الابواب امامه على مصاريعها؟

بعد مرور بضع دقائق، قاد تشارلز الفتاة بعد ان ثابت الى رشدها قليلا وسارا في ممر البيت الزجاجي الساخن واتجها صوب الباب المؤدي الى حجرة الاستقبال. بيد انه توقف امام احدى نباتات الياسمين، والتقط زهرة، ووضعها مازحا فوق رأسها.

– انها ليست بهدال[36]. غير انها تفي بالغرض. اليست كذلك؟

وهكذا تبادلا القبلات بشفاه بريئة تشبه براءة الاطفال في خلوها من الجنس. طفقـــت ايرنستينا تبكي ثانية. ثم كفكفت دمعها وسمحت لتشارلز ان يأخذها الى حجـــرة الاســـتقبال حيث كان يقف كل من والدها ووالدتها. لم تكن هناك اي ضرورة للكلمات. فقد هرعت ايرنستينا الى ذراعي امها المفتوحتين، وشرع الدمع ينهمـــر من مقلتيها اكثر من قبل. في هذه الاثناء، وقف الرجلان يبتسمان احدهما للاخــــر، الاول كأنـــه انجـــز لتوه صفقة تجارية ممتازة، والثاني كأنه غير واثق من الكوكب الذي حط توا فوقه، الا انه رغب مخلصا في ان يكون سكانه اصدقاء.

(36) الهـــدال: نـــبات طفيلـــي دائـــم الخضرة يستخدم في زينة ذكرى الميلاد، وحفلات الزواج. (المترجم)

12

مم يتكون الاغتراب في العمل؟ اولا: ان العمل سطحي للعامل، اي انه ليس جزءا من طبيعته، وهو بالتالي لا يحقق ذاته في العمل بل ينكر ذاته، وينتابه الاحساس بالشقاء، لا بالرفاهية... لهذا لا يشعر العامل انه في بيته الا عندما يكون لديه فراغ في حين يشعر في اثناء العمل انه بلا بيت.

ماركس: مخطوطات اقتصادية وسياسية -1844

وكان يوم بهجتي
صافيا وكاملا كما اقول؟

تينيسون -احياء لذكرى... 1850

اخذ تشارلز يحث الخطى الى الامام، ويترك الافكار الخاصة بالمرأة الغامضة من ورائه وهو يشق طريقه في غابة وير كومونــز. سار مسافة ميل واحد او ما يقرب مــن ذلك حتى وصل في آن واحد الى نهاية الاشجار واول معلم من معالم المدنية، وهو كوخ طويل مسقف بالقش ينتصب على اسفل طريقه قليلا، يحيط به مرجان او ثلاثة مروج تتجه كلها صوب الجرف. وفي الوقت نفسه الذي خرج فيه تشارلز مــن الغابــة، شــاهد رجلا يسوق قطيعا من الابقار خارج زريبة منخفضة قرب الكوخ. وسرعان ما لاح في ذهنه مشهد: طاس من حليب بارد لذيذ. انه لم يأكل شــيئا مــنذ ان تــناول تينك الفطيرتين. الشاي والرقة في منــزل السيدة ترانتر يجــتذبانه، غــير ان طــاس الحليب كان يصيح به... وهو ليس بعيدا. هبط احد المنحدرات المكسوة بالعشب وطرق باب الكوخ الخلفي.

فــتحت امرأة صغيرة السن، ضخمة الجثة، يلمع ذراعاها المكتنــزان برغوة الــصابون باب الكوخ. نعم. تلقى الترحيب وفي وسعه ان يشرب كل ما يستطيع من الحليب. اسم المكان؟ يبدو ان اسم المكان هو معمل الالبان. لحق بها تشارلز الى داخل الحجرة ذات السقف المائل التي تحتل مجمل الجزء الخلفي من الكوخ. كانت

حجـــرة مظلمـــة، تكثر فيها الظلال، وفي منتهى البرودة، ارضيتها مكسوة بألواح ومعبقة برائحة الجبن الاخذ بالنضج. وثمة صف من طاسات حامية، ومقالٍ نحاسية ضخمة، وضعت فوق مسند وفوق كل واحدة قشرة ذهبية من القشدة، امتدت من تحـــت الجـــبن الذي جثم على نحو دائري مثل مجموعة من الاقمار الاحتياطية فوق الــــروافد الخــــشبية العلــيا. واذ ذاك تذكر تشارلز انه سبق له ان سمع بهذا المكان. فالقـــشدة والــــزبدة اللتان ينتجهما هذا المكان مشهورتان في المنطقة. وقد تحدثت عنهما الخالة ترانتر. وعندما ذكر اسمها نظرت اليه المرأة التي غرفت الحليب الدسم مـــن ممخـــضة اللـــبن القريبة من الباب، ووضعته في طاس بسيط ذي لونين ازرق وابيض كما خيل له، وابتسمت له. اذ اصبح اقل غربة ولقي ترحيبا اكبر.

وبينما كان يتجاذب اطراف الحديث او بينما كانت تتحدث اليه المرأة الواقفة فـــوق العشب خارج معمل الالبان، عاد زوجها لاخراج قطيعه من الابقار. كان رجـــلا اصـــلع الــــرأس، كث اللحية، تلوح على وجهه امارات الكآبة الواضحة: التـــشاؤم. نظر الى زوجته نظرة حادة، فامسكت عن الكلام فجأة، ودخلت ثانية للاهـــتمام بأوعيتها النحاسية. كان الزوج رجلا قليل الكلام بلا ريب على الرغم مـــن انه تكلم بما فيه الكفاية عندما استفسر منه تشارلز عن المبلغ الذي يطلبه ثمنا لطـــاس الحليب الممتاز. وسرعان ما انتقل من يد الى اخرى بنس واحد تزينه احد الرؤوس الفاتنة لفكتوريا الشابة، هذا البنس الذي لا يزال حتى الان يظهر بين وقت واخـــر، في قطـــع النقد الصغيرة وقد مسح فيه كل شيء الا الرأس الجميل بفعل استخدامه على مدى القرن.

كـــان تشارلز على وشك ان يرتقي الطريق الا انه ما ان شرع يخطو خطوة واحـــدة الى الوراء حتى ظهر شخص يتشح بالسواد من بين الاشجار المنتصبة فوق الــــرَجلين. انها الفتاة. رمقت الشخصين الواقفين من تحتها بنظرة ومن ثم واصلت سيرها، الى بلدة لايم. نظر تشارلز الى صاحب حقل الالبان الذي استمر يتفرس في الفتاة من فوقه على نحو محتوم. من الواضح انه لم يسمح للرهافة ان تقف في طريق الحكم التوقعي.

– اتعرف تلك السيدة؟

– نعم.

- اتأتي من هنا غالبا؟

- غالبا بما فيه الكفاية.

واصل صاحب الحقل النظر. ثم قال:

- انها ليست سيدة. انها بغي الضابط الفرنسي.

مـــرت بـــضع لحظات قبل ان يدرك تشارلز معنى تلك العبارة. واذ ذاك نظر نظـــرة غـــضب الى صاحب الحقل الملتحي الذي كان ميثوديا[37] ولهذا كان مولعا بتـــسمية الاشـــياء بأسمائها مهما كانت جارحة لا سيما عندما تكون هذه الاشياء خطيئة شخص اخر. وتبدى لتشارلز وهو يجسد كل الغيبة والنميمة الزائفة في بلدة لايم. لقد كان في وسع تشارلز ان يصدق اشياء كثيرة عن ذلك الوجه النائم ولكن ليس ابدا ان تكون صاحبته بغيا.

بعد مرور ثوانٍ معدودة، وجد نفسه في طريق العربات المؤدي الى بلدة لايم، وشـــاهد وشـــاحين ابيضين بين الغابة التي ترتفع عن الارض واعشابا طويلة تخفي البحـــر جزئيا. والى الامام كان شبح الفتاة الاسود ذات القبعة يسير من امامه. لم تكـــن تسير سيرا سريعا بل بخطوات معتدلة، تخلو من التصنع الانثوي كأنها امرأة اعـــتادت ان تقطـــع مـــسافات طويلة. انطلق تشارلز للحاق بها، وبعد مائة ياردة (91 متـــرا) او نحـــو ذلـــك اقترب منها. لا بد انها سمعت صوت وقع حذائه ذي المـــسامير الكـــبيرة على حجر الصوان، الا انها لم تلتفت. ظن ان المعطف اكبر مما ينبغي الى حدّ ما وان كعبـــي حذائها ملطخان بالطين. عندئذ تردد لحظة. غير ان ذكـــرى النظـــرة المكفهرة التي ارتسمت على وجه صاحب حقل الالبان المعترض ابقت تشارلز على هدفه النبيل الاول: ان يظهر للمراة المسكينة ان ليس كل فرد في عالمها انسانا متوحشا.

- سيدتي!

اســـتدارت لتحده يبتسم لها وقد خلع قبعته. وعلى الرغم من ان وجهها كان يحمل الان قدرا كافيا من الدهشة، فإن ذلك الوجه كان له مرة اخرى تأثير غريب فيه. وبدا انه بعد كل مرة يرى فيها ذلك الوجه لا يستطيع ان يصدق تأثيره وانه لا

---

(37) الميـــثودي، المنهجـــي: احد اتباع الحركة الدينية الاصـلاحية التي قادها في اوكسفورد عام 1729 (تشارلز وجون ويزلي) محاولين فيها احياء كنيسة انكلترا. (المترجم)

بد له من رؤيته ثانية. بدا وجها يحتضنه ويرفضه في ان واحد، كأنها شبح في حلم، ساكن في وقفته ولكنه دائم الحركة.

- انـــي مدين لك باعتذارين. انني لم اعرف يوم امس انك سكرتيرة السيدة بولتيني. اخشى انني خاطبتك على نحو يفتقر الى الكياسة تماما.

أمعنت النظر في الارض.

- لا بأس يا سيدي.

- والان وبعد ان... لقد خشيت ان تصابــي بوعكة.

لم تنظر اليه هذه المرة ايضا. بل امالت رأسها، واستدارت لمواصلة سيرها.

- الا استطيع مرافقتك؟ طالما اننا نسير في اتجاه واحد؟

توقفت، الا انها لم تلتفت.

- افضل السير وحدي!

- ان السيدة ترانتر هي التي جعلتني ادرك غلطتي. انني...

- انا اعرف من انتَ يا سيدي.

ابتسم لمقاطعتها حديثه فجاة.

- اذا...

وفجأة رمقته بنظرة من عينيها، لاح من ورائهما نوع من اليأس.

- ارجو ان تتركني اواصل السير في طريقي بمفردي.

تلعثم في ابتسامته. ثم انحنى وتراجع الى الخلف، الا انها بدلا من مواصلة السير في طريقها، أمعنت النظر في الارض برهة وجيزة.

- وأرجو الا تخبر احدا انك شاهدتني في هذا المكان.

هنا استدارت، وواصلت سيرها دون ان تنظر اليه ثانية كأنها كانت تدرك ان طلـــبها لا طائـــل من ورائه، وندمت لذلك حالما تفوهت به. فراقب تشارلز قفاها الاسود وهو يبتعد بينما كان يقف في منتصف الطريق. وكل ما بقي عنده الصورة التالـــية لتلك العينين: عينين واسعتين على نحو غير اعتيادي، كأنهما تستطيعان ان تـــشاهدا اكثـــر وان تتعذبا اكثر. وكان اتجاه نظرهما - وهو ما لم يعرفه، بيد ان النظـــرة الـــتي استقبلها هي نظرة التسليم الديني - يحتوي على عنصر الصد الاكثر غرابة. كانتا تقولان له:

لا تقترب مني.

نظـــر مـــن حوله في محاولة لفهم السبب الذي دعاها الى الرغبة في الا يعرف احد ما بالها كانت في هذه الغابة البريئة. رحل ربما، لقاء غرامي غير شرعي؟ الا انه تذكر بعد ذلك قصتها.

عـــندما وصل تشارلز في نهاية المطاف الى شارع برود، قرر ان يزور السيدة ترانتر وهو في طريقه الى الوايت لأين لكي يوضح بانه استحم، وارتدى ثيابا انيقة.

فـــتحت ماري الباب، الا ان السيدة ترانتر مرت من امام الردهة مصادفة - واذا توخيـــنا الدقـــة اكثر فإنها خرجت عمدا الى الردهة - واصرت بأن عليه الا يسرف في اعتماد قواعد السلوك المهذب الصارمة (يتمسَّك بالرسميَّات)، او ليست ثـــيابه افـــضل دلـــيل على اعذاره؟ لهذا تناولت ماري حاجياته وقادته الى حجرة الاســـتقبال الخلفية الصغيرة التي كانت تغمرها بقايا اشعة الشمس الغاربة وحيث كانت المريضة مضطجعة وقد ارتدت ثوب نوم رماديا وقرمزيا.

- اشعر كأنني ملاح ارلندي انتقل الى مخدع الملكة.

قـــال تشارلز شاكيا بينما كان يقبل اصابع ايرنستينا على نحو يظهر انه كان حقا عاملا ارلنديا مسكينا تماما.

جذبت يدها.

لن تحظى بقطرة من الشاي حتى تشرح كل لحظة في يومك.

وهكـــذا وصف لها كل ما حدث له، او كل شيء تقريبا لأن ايرنستينا اوضحت حـــتى الان مرتين ان موضوع امرأة الضابط الفرنسي يثير قرفها - في المرة الاولى عند الكـــوب وفي المـــرة الثانية بعد ذلك عند تناول طعام الغذاء عندما قامت الخالة ترانتر بتـــزويد تشارلز بنفس المعلومات التي افاد بها قس بلدة لايم امام السيدة بولتيني قبل اثني عشر شهرا. بيد ان ايرنستينا انبت خالتها المرضة لازعاجها تشارلز بأقاويل مملة، وقد رضخت السيدة المسكينة لامرها، وكانت في الغالب تنبه لسذاجة لم تكن تدركها.

اخـــرج تـــشارلز قطعة الصدف المتحجرة التي اتى بها الى ايرنستينا، فوضعت هذه حجاب النار الواقي جانبا، وحاولت ان تمسك بها، غير انها لم تستطع وغفرت لتـــشارلز كل شيء لتجشمه عمل يحتاج إلى عناء، ثم غضبت منه مازحة لتعريض حياته وجسده للخطر.

– ان الجـــزء الاسفل من الجرف من اروع القفار. لم تكن لدي اي فكرة عن وجـــود مثل هذه الاماكن في انكلترا. لقد ذكرتني ببعض المشاهد البحرية في شمال البرتغال.

فصاحت ايرنستينا.

– لمـــاذا؟ ان الـــرجل في حلـــم. اعترف الان يا تشارلز. انك لم تكن تقطع الحجارة البريئة المسكينة بل كنت تغازل حوريات الغابة.

اظهـــر لها تشارلز لحظة حرج لا سبيل الى شرحها، وعمد الى رسم ابتسامة فـــوقها. كان على وشك ان يخبرها بشأن الفتاة اذ فكر بطريقة ظريفة يصف فيها كيفـــية مـــصادفته اياها. الا ان ذلك بدا اشبه بالخيانة، خيانة احزان الفتاة الحقيقية وخيانـــته نفسه. وكان يعلم انه سيكون كاذبا لو صرف النظر عن ذينك اللقائين. غير ان الصمت لاح اخر الامر اقل زيفا في تلك الغرفة البسيطة.

يبقـــى ان نوضـــح السبب الذي كان يثير فيه وير كومونـــز صورة سدوم وعامورة[38] في وجه السيدة بولتيني قبل اسبوعين.

في الواقع لا يحتاج المرء الى ايضاح اكبر من القول انه كان اقرب مكان لبلدة لايم يـــستطيع الـــناس الذهاب اليه دون ان يتحسس عليهم احد. والمنطقة معروفة بتاريخها الغامض الطويل والباعث على الازعاج. وقد عدت دوما ارضا مشاعا حتى صدور قانون استملاكها من السلطات. وبعد ذلك بدا التجاوز عليها وضمها كما تـــشهد علـــى ذلك اسماء حقول مزرعة الالبان التي سرقت كلها منها. وقام احد السادة من اصحاب البيوتات الكبيرة الواقعة وراء الجزء الاسفل من الجرف بتحقيق وحـــدة بمـــوافقة اصدقائه – كما هو مألوف في التاريخ – في المجتمع. صحيح ان المواطـــنين الجمهوريين في بلدة لايم استعدوا للقتال بالسلاح – هذا اذا كان الفأس سلاحا. فقد عقد السيد العزم على اقامة مشتل لاغراض علمية في الجزء الاسفل من الجـــرف. فرفع الامر الى المحكمة وتم التوصل الى تسوية اثر ذلك، اذ نقلت ملكية جـــزء مـــن المنطقة اليه في حين ظلت الاشجار النادرة على وضعها دون ان يمسها شيء. الا ان الارض المشاع وضع حدّ لها.

---

(38) ســـدوم وعامـــورة: مدينتان بفلسطين القديمة على شاطئ البحر الميت دمرهما الله لانغماس اهلهما في الرذيلة والفساد. (المترجم)

على الرغم من ذلك ظل هناك احساس بين السكان المحليين بأن وير كومونز كانت ملكية عامة. كما ان منتهكي حرمة اراضي الغير سقطوا بإثم اقل من اي مكان اخر وهم يطاردون الارانب والدراج. وفي يوم ما اكتشفت الاهوال؛ كانت عصبة من الغجر تقطن في تلك المنطقة اقامت مخيمها في وادٍ صغير بعيد عن الانظار مدة طويلة لا يعرفها احد. وسرعان ما نُبذ هؤلاء المنبذون، غير ان ذكرى وجودهم ظلت شاخصة، وباتت تقترن بذكرى طفلة صغيرة اختفت في الوقت نفسه تقريبا من احدى القرى المجاورة. واصبح من الامور الشائعة ان الغجر اصطحبوا الطفلة واياهم ومن ثم القوا بها في قدر طعام معد من الارانب، ومن ثم دفنوا عظامها.

بيد ان اخطر اتهام موجه الى منطقة وير كومونز يقترن بسلوك لا اخلاقي شائن. فقد كان ممر العربات المؤدي الى حقل الالبان والمنطقة الواقعة الى الوراء منه والمؤدية الى الغابة يمثل طريق العاشق حقا على الرغم من انه لم يحمل ابدا ذلك الاسم الريفي المألوف. فقد كان يجذب اليه العشاق في كل صيف. وكان المبرر في ذلك هو الحصول على طاس من الحليب من حقل الالبان. وكان العديد من الممرات الصغيرة الجذابة، اذا ما عاد المرء ادراجه، تؤدي الى اجمات السرخس والزعرور البري المتوارية عن الانظار.

كانت تلك البلوى المستمرة مزعجة بما فيه الكفاية. ما زال هناك ظلام كثيف، وكان ثمة موروث سابق لعهد الطوفان (اقدم من شكسبير بكثير) يقول ان الشبان ينبغي لهم في ليلة منتصف الصيف ان يذهبوا حاملين المصابيح، مصطحبين عازف الكمان، وبرميلا صغيرا او برميلين من شراب عصير التفاح ويتجهوا الى مرج صغير يعرف باسم دونكيز غرين، الذي يقع في قلب الغابة وهناك يحتفلون رقصا بالانقلاب الشمسي. وقد ذكر البعض ان ما هو اكثر من الرقص كان يحدث بعد منتصف الليل في حين زعم من هو اقسى من اولئك البعض بأن الكثير من الامور الاخرى كانت تحدث والقليل القليل من الرقص.

لقد ضاعت المنطقة الخضراء هذه مؤخرا بسبب الزراعة العلمية التي كانت تاخذ شكل الورم الهلامي. غير ان العادات نفسها تلاشت فيما يخص تلاشي الاعراف الجنسية. وقد مرت سنين طويلة لم يمر احد في اثنائها بمنطقة دونكيز غرين

في لــيلة منتصف الصيف باستثناء ثعلب او شبل حيوان الغرير. لكن الامر لم يكن كذلك في عام 1867.

قــبل عــام واحد من ذلك التاريخ، طلبت لجنة من السيدات بزعامة السيدة بولتــيني من السلطات المدنية ان توضع بوابة على الطريق، ويصار الى وضع سياج للمــنطقة وغلقهــا. بيد ان اصواتا ديمقراطية اكثر كتب لها الفوز. ولا بد من بقاء المنطقة العامة مقدسة الى ابعد حد. وكان هناك بعض المؤمنين بالمذهب الحسي من بين اعضاء المجلس البلدي قالوا بأن الطريق الى حقل الالبان انما هو متعة بريئة، وان حفلة دونكيز غرين ليست اكثر من مسرحية هزلية سنوية. الا انه يكفي القول بانه ليس على احد ابناء المدينة المحترمين الا القول بأن فتى ما او فتاة ما هما من نمط وير كومونــز وعندئذ ستبقى سمعتهما ملطخة الى الابد. واذ ذاك لا بد ان يكون الفتى شبقا والفتاة عاهرة.

لهذا السبب، وجدت سارة السيدة بولتيني تجلس في انتظارها عندما عادت من جولتها في ذلك المساء الذي اجبرت فيه السيدة فيرلي نفسها على انجاز واجبها على نحــو نبــيل. قلــت في انتظارها، الا ان عبارة على نحو رسمي من شأنها ان تكون مناســبة اكثــر. حضرت سارة الى حجرة الاستقبال الخاصة للقيام بقراءة الانجيل (الكتاب المقدس) المسائية، ووجدت نفسها كأنها في مواجهة فوهة مدفع. كان من الواضح تماما ان السيدة بولتيني ستنفجر في اي لحظة، وبدوي هائل.

اتجهــت ســارة صــوب المنضدة المخصصة لتلاوة الكتاب المقدس في ركن الغرفة... . غير انها لاحظت ان الامور ليست على ما يرام.

– اهناك خطب يا سيدة بولتيني؟

فقالت رئيسة الدير:

– خطب كبير. لقد نقل الي خبر لا استطيع تصديقه.

– ايخصني انا؟

– ما كان ينبغي لي ان استمع الى الطبيب. كان ينبغي لي ان اصغي الى اوامر فطرتي السليمة.

– ما الذي اقترفته؟

– انا لا اظنك مجنونة ابدا، انك مخلوقة ماكرة، شريرة. وانت تعرفين ماذا فعلت.

- ساقسم بالكتاب المقدس...

غير ان السيدة بولتيني نظرت اليها نظرة ساخطة.

- لن تفعلي شيئا من هذا القبيل! ذلك كفر.

تقدمت سارة الى الامام، ووقفت امام سيدتها.

- ينبغي لي ان اعرف ما هي التهمة الموجهة لي.

فما كان من السيدة بولتيني الا ان اخبرتها. ولدهشتها الكبيرة لم تظهر سارة اي علامة تشير الى الاحساس بالخجل.

- لكن اين هي الخطيئة في التجوال قرب وير كومونز؟

- الخطيئة! انت شابة، وحيدة في مثل هذا المكان!

- لكن يا سيدتي، ليس المكان الا غابة كبيرة.

- اعرف جيدا ما هو المكان. واعرف ما يدور فيه. واعرف نوع الاشخاص الذين يرتادونه.

- لا احد يرتاده. لهذا السبب اذهب الى هناك؛ كي اكون وحيدة.

- اتكذبينني يا انسة! الا اعرف ما اقول؟

كانت الحقيقة البسيطة الاولى هي ان السيدة بولتيني لم تشاهد وير كومونز ابدا، حتى ولو من مكان بعيد لأنها كانت بمنأى عن انظار اي طريق تسلكه العربات. والحقيقة البسيطة الثانية هي انها كانت مدمنة على تعاطي الافيون - لكن قبل ان يأخذك الظن بانني اضحي بما هو مقبول على حساب الاثارة، دعني اضيف على عجل بانها لم تعرفه. فالشيء الذي نطلق عليه اسم الافيون كانت تسميه مستحضر الافيون. كانت العديد من سيدات القرن التاسع عشر يرشفن كميات كبيرة منه...، فقد كان ذلك الدواء رخيصا بما يكفي لمساعدة كل الطبقات على التغلب على تلك الليلة السوداء الخاصة بالجنس اللطيف. كان، باختصار معادلا مساويا تقريبا للحبوب المسكنة المستعملة في عصرنا. اننا لا نحتاج الى معرفة السبب وراء كون السيدة بولتيني واحدة من سكان وادي الدمى الفكتوري، غير ان الامر له صلة بحقيقة ان مستحضر الافيون يجعل المرء يحلم احلاما سعيدة كما اكتشف ذلك كولرج[39] ذات مرة.

---

(39) صموئيل تايلور كولرج (1772-1834): شاعر رومانسي انكليزي يعد من اعظم المنظرين الادبيين في عصره. (المترجم)

انا لا استطيع ان اتخيل اي صورة شبيهة بصور بوش[40] تلك التي رسخت في ذهن السيدة بولتيني عن وير كومونـــز على مر السنين، ولا العربدة الشيطانية التي تصورتها من وراء كل شجرة، وما هي الافعال الفرنسية المستهجنة تحت كل ورقة شـــجرة. بيد انني اظن اننا نستطيع القول مطمئنين بانها اصبحت المعادل الموضوعي لكل ما كان يجري في عقلها الباطن.

وكان من جراء تلك الثورة ان التزمت هي وسارة الصمت. وبعد ان حررت السيدة بولتيني نفسها شرعت تغير مجرى الحديث.

- لقد سببت حزنا عظيما لي.

- لكـــن ماذا اقول؟ لقد حُرّم علي الذهاب الى البحر. حسنا جدا. لن اذهب الى البحر- انني ارغب في العزلة. هذا كل ما هنالك. هذه ليست خطيئة. لا يجوز ان اوصف بالخاطئة لذلك السبب.

- الم تسمعي احدا يتحدث عن منطقة وير كومونـــز؟

- على اساس انه مكان من النوع الذي اوحيت به؟ لا، ابدا.

بدت السيدة بولتيني بعد ذلك خجولة امام سخط الفتاة، وتذكرت ان سارة لم تقطن في بلدة لايم الا منذ وقت قريب، ولهذا السبب، فهي - كما هو مفهوم - تجهل العار الذي تجلبه.

- حـــسنا جدا. لكن ارجو ان تفهمي على نحو واضح. انني لا اسمح لأي من الـــذين يعملـــون عندي بالذهاب الى تلك المنطقة او حتى يشاهدون بالقرب منها. وستقتصرين في جولاتك على الاماكن المناسبة. واضح.

- نعم. ساتجول في طرق الفضيلة.

ظـــنت السيدة بولتيني في لحظة رهيبة انها كانت موضع سخرية. غيران سارة كانت قد خفضت من عينيها على نحو وقور كأنها كانت تصدر قرارا بالحكم على نفسها. وكانت كلمة **فضيلة** مرادفة للمعاناة.

- اذا ارجو الا نسمع شيئا عن هذه الحماقة. انني افعل هذا لصالحك.

همست سارة:

---

(40) هايروثيموس بوش (1450-1516): رسام هولندي يعد من اواخر رسامي القرون الوسطى اهتم بالموضوعات الدينية التي يصعب فهمها. (المترجم)

- اعرف ذلك.

ثم اضافت:

- شكرا لك يا سيدتي.

لم تستفوه المرأتان بأي كلمة اثر ذلك. فعادت وقرأت المقطع الذي اشرته السيدة بولتسيني. وكان نفس المقطع الذي سبق لها ان اختارته للقراءة في المقابلة الاولى. قرأت سارة بصوت ينم عن الخشوع التام لكنه يخلو من اي عاطفة كما يبدو. جلست المرأة العجوز في مواجهة الظلال الداكنة في الطرف القصي من الغرفة. وبدت مثل صنم... ناسية التضحية التي يتطلبها وجهها الصارم الذي لا يعرف الرحمة.

في وقت لاحق من تلك الليلة كانت سارة تشاهد واقفة - لا ادري ممن تشاهد اللهم الا من بوم عابر - قرب النافذة المفتوحة في حجرة نومها المظلمة. كان الصمت يغلق البيت، والمدينة ايضا، اذ كان الناس يأوون الى فراشهم عند الساعة التاسعة في تلك الايام التي لم تشهد بعد الكهرباء والتلفزيون. كانت الساعة انذاك الواحدة. وكانت سارة ترتدي ثياب النوم وقد ارخت شعرها، واخذت تمعن النظر في البحر. كان ثمة مصباح بعيد يبعث ضوءا خافتا متقطعا من فوق المياه المظلمة وفي اتجاه بورتلاند بيل حيث كانت سفينة ما تبحر صوب بريدبورت. شاهدت سارة نقطة الضوء الصغيرة و لم تشغل بالها في التفكير فيها.

لو انك اقتربت منها اكثر لوجدت ان وجهها غرق في عبرات صامتة. انها لم تكن واقفة قرب نافذتها باعتبار ذلك جزءا من يقظتها الغامضة من اجل اشرعة الشيطان، بل كان ذلك مقدمة للابتعاد عنها.

لن اتركها تترنح عند حافة النافذة، او تتمايل الى الامام ومن ثم تنهار باكية فوق بساط غرفتها العتيق. اننا نعلم انها كانت حية بعد اسبوعين من تلك الحادثة، ولهذا السبب فهي لم تقفز. كما لم تكن دموعها ونشيجها من النمط الهستيري الذي يتطلب فعلا عنيفا، بل كانت دموعا سببها البؤس المشروط العميق، لا العاطفي، الذي كان يتدفق تدفقا بطيئا، بلا توقف، ينز مثل دماء من تحت الضمادات.

من هي سارة؟

من اي ظلال خرجت؟

13

لان اندفاع الصانع اعمى، ايزيس متخفية وراء قناع...

تينيسون – مود 1855

لا ادري. ان هـــذه القـــصة التي ارويها محض خيال. وهذه الشخصيات التي انـــتجها لم تـــوجد خارج مخيلتي. ولو انني تظاهرت حتى الان انني اعرف عقليات شخـــصياتي وافكارهـــا الباطنية فذلك يرجع الى انني اكتب ضمن بعض مفردات وصوت موروث كان مقبولا تماما في الزمن الذي تدور فيه احداث قصتي وهو ان الروائـــي يأتي في المرتبة الثانية بعد...: ربما هو لا يعرف كل شيء، الا انه يتظاهر بانه يعرف كل شيء. بيد انني اعيش في عصر ألن روب – غريلّيه ورولان بارثيس. ولو كانت هذه رواية، فإنها لا يمكن ان تكون رواية وفق المعنى الحديث للكلمة.

اذا ربمـــا اكون اكتب سيرة ذاتية منقولة؛ ربما اعيش الان في احد البيوت التي وصـــفتها في الـــرواية؛ ربما كان تشارلز يمثلني انا متنكرا. ربما ان المسألة ليست الا لعبة. ان نساء عصريات من مثل سارة موجودات. ولم افهمهن قط. او ربما احاول ان امـــرر لك كتابا مخفيا من المقالات عنك وبدلا من عناوين الفصول، ربما كان ينبغـــي لي ان اكتب: في **احقية الوجـود، وهـم التقدم، تاريخ شكل الرواية، علم اسباب الحرية، بعض المظاهر** المنسية **عن العصر الفكتوري**... حسبما تشاء.

ربمـــا تفترض ان الروائي ما عليه الا جذب الخيوط الصحيحة وعندئذ ستتصرف الدمـــى تصرفا حيا، ويقدم، عند الطلب، تحليلا شاملا لدوافعها واغراضها. من المؤكد انـــني ارمي في هذه المرحلة (الفصل الثالث عشر – الكشف عن حالة سارة العقلية) الى قول كل شيء، او كل ما يهم. الا انني اجد نفسي فجأة مثل رجل في ليلة ربيع قاسية يـــراقب مـــن فوق العشب تلك النافذة العلوية المظلمة في بيت مارلبورو. انني اعلم ان سارة في سياق واقعية روايتي ما من شأنها ان تكفكف دموعها وتميل الى الاسفل وتقدم فصلا في الاعتراف. ان من شأنها ان تستدير على الفور لو انها شاهدتني هناك في نفس الوقت الذي يظهر فيه القمر، وتتوارى عن الانظار في الظلال الداخلية.

غـــير انني روائي، ولست رجلا في احدى الحدائق - ااستطيع ملاحقتها الى حيث اريد؟ الا ان الاحتمال ليس كون الشيء جائزا. غالبا ما يتمكن الازواج من قتل زوجاتهم - والعكس بالعكس - دون ان يتعرضوا لعواقب وخيمة. الا انهم لا يفعلون ذلك.

مـــن الجائـــز ان تظـــن ان الروائيين لديهم دوما الخطط الثابتة التي يعملون بموجـــبها، بحـــيث إن المستقبل الذي جرى التوقع به في الفصل الاول انما هو دوما حقـــيقة الفـــصل الثالث عشر. بيد ان الروائيين يكتبون لاسباب مختلفة لا تحصى: ســـعيا وراء المـــال، الشهرة، مراجعي الكتب، الاباء، الاصدقاء، الاحباء، الزهو، الفخـــر، حب الفضول، المتعة: تماما مثلما يستمتع صانع الاثاث بصناعته، والحكّام بالحكم، ومثلما يستمتع سكان صقلية بافراغ المسدس في ظهر عدو. في وسعي ان امـــلأ صفحات كتاب كاملة بايراد الاسباب ومن الممكن ان تكون كلها صحيحة على الرغم من ان هذا الشيء لا ينطبق على الجميع. فهناك سبب واحد نشترك فيه جميعـــنا: انـــنا نرغب في انتاج عوالم تتساوى في واقعيتها والعالم الواقعي، ولكنها تخـــتلف عن العالم الواقعي او الذي كان واقعيا. لهذا السبب لا نستطيع ان نخطط. انـــنا نعلم ان العالم عبارة عن نظام، لا ألة. ونعلم ايضا ان العالم المبتكر على اساس اصيل ينبغي ان يكون مستقلا عن خالقه؛ ان العالم المخطط له (العالم الذي يكشف تمامـــا مخططه) هو عالم ميت. وعندما تبدأ شخصياتنا واحداثنا بالتمرد علينا فإنها عندئذ فقط تبدأ بالحياة. وعندما ترك تشارلز سارة عند حافة الجرف فانني امرته ان يـــذهب مباشـــرة الى بلدة لايم ريجيس. الا انه لم يمتثل للامر، بل استدار واتجه بلا مسوغ الى حقل الالبان.

الا انـــك قد تقول: اه. ان ما اعنيه حقا هو ان الفكرة مرت في ذهني حينما كـــنت اكـــتب انـــه ربما كان مما يدل على ذكاء اكبر ان اجعله يتوقف ويشرب الحلـــيب... ومن ثم يلتقي بسارة مرة اخرى. من المؤكد ان هذه احدى التفسيرات لما جرى، غير انني لا استطيع الا ان انقل - وانا هنا شاهد ممكن الوثوق به تماما - بأن الفكرة بدت لي وهي تأتي على نحو واضح من تشارلز، لا مني انا؛ وهو لم يبدأ فقـــط بالحـــصول علـــى استقلال ذاتي؛ ينبغي لي ان احترم ذلك، والا احترم كل خططي شبه الرائعة الخاصة به اذا ما رغبت في ان يكون حقيقيا.

بمعـــنى ادق، لا بد لي - كي أكون حرا - من اعطائه هو وتينا وسارة وحتى السيدة بولتيني البغيضة حرياتهم.

لا يزال الروائي مبتكرا لأنه مبتكر (على الرغم من ان الرواية الطليعية الحديثة الاوفر حظا لم تستطع الغاء الروائي الغاء تماما). كل ما حدث هو اننا لم نَعُدْ نعلم بكـــل شيء، ونصدر الاحكام القضائية؛ ولكن في الصورة اللاهوتية الجديدة حيث الحرية هي المبدأ الاول لا السلطة.

هـــل حطمت الوهم على نحو شائن؟ لا. ان شخصياتي لا تزال موجودة وفي واقع ليس اقل او اكثر واقعية من الواقع الذي حطمته قبل قليل. ان الرواية محبوكة في كـــل متماســـك كما اشار احد الاغريق قبل حوالى الفين وخمسمئة سنة. وقد وجـــدت هـــذه الواقعـــية الجديدة (او اللا واقعية) صحيحة اكثر. وارغب في ان تـــشاطرني مشاعري بانني لا اسيطر على هذه المخلوقات سيطرة تامة في ذهني اكثر مما تسيطر انت على اطفالك وزملائك واصدقائك وحتى نفسك، بغض النظر عما تبذله من جهد ومهما حاولت ان تكون مثل السيدة بولتيني المعاصرة.

لكـــن هذا محال؟ فالشخصية اما ان تكون **واقعية** او **متخيلة**. ولو فكّرت ان هـــذه ليست الا محاضرة زائفة، فلا استطيع عندئذ سوى الابتسام. فانت لا تعتقد بأن ماضيك نفسه على هذا النحو من الواقعية. فتعمد الى اظهاره في صورة معينة، تعطيه مظهرا خداعا او تلطخه، تفرض عليه رقابة، تصلحه، تفرغه في قالب روائي ومـــن ثم تـــركنه فـــوق احـــد الرفوف - كتابك، سيرتك الذاتية المنطوية على الرومانـــسية. اننا جميعنا نهرب من واقعية الواقع. وهذا هو تعريف أساسي للجنس البشري.

هكذا، اذا ظننت أن هذا الاستطراد غير المحظوظ (الا انه الفصل الثالث عشر) لا صلة له بوقتك، تقدمك، مجتمعك، نشوئك، وكل تلك الاشباح المكبرة الاخرى في الليل والتي تقرقع باصفادها وراء مشاهد هذا الكتاب... فلن اجادلك، غير انني سأرتاب منك.

انـــا لا انقل اذا سوى الحقائق الخارجية: ان سارة بكت في الظلام غير انها لم تنتحر، وواصلت التردد على منطقة وير كومونـــز على الرغم من الحظر الواضح. لهـــذا السبب، فإنها قفزت حقا على نحو ما، وكانت تعيش في حالة سقوط طويل

لأن الاخـــبار، عـــاجلا او اجلا، ستصل السيدة بولتيني بخصوص مضاعفة الخاطئة خطيئـــتها. صحيح ان سارة اخذت تتردد على الغابة على نحو اقل مما كان مألوفا لـــديها. وهي حالة من الحرمان كان من السهل احتمالها اول الامر بسبب الطقس المـــصحوب بالمطـــر في ذينك الاسبوعين التاليين. وصحيح ايضا انها اتخذت بعض الاحتـــياطات الصغيرة من النوع العسكري. فقد كان طريق العربات يتجه في ممر ضـــيق صـــغير، افضل بقليل من طريق العربات الجيد نفسه، ومن ثم ينحني الى وادٍ عريض يدعى وير فالي حتى يلتقي بعد ذلك عند ضواحي بلدة لايم بطريق العربات الـــرئيس المؤدي الى سيدماوث وأكستر. وكانت هنالك مجموعة صغيرة متناثرة من البـــيوت المحترمة في وير فالي ولهذا السبب كان محلا مناسبا للتجوال فيه. ولحسن الحـــظ لم تكن اي من تلك البيوت لتطل على تقاطع طريق العربات بالممر. وحالما كانـــت ســـارة تصل الى هناك، فإنها تنظر من حولها للتأكد من عدم وجود احد. وذات يوم انطلقت في سيرها وهي عازمة على التوغل داخل الغابة. وبينما هي في ذلك الممر وصلت الى الطريق المؤدي الى حقل الالبان وشاهدت شخصين يتقدمان من حول حافة مرتفعة. فما كان منها الا ان اتجهت صوبهما، وعندما وصلت قرب الحافـــة اخذت تراقب للتأكد من ان الشخصين لم يسلكا طريق حقل الالبان. ومن ثم عادت ادراجها، ودخلت مأواها دون ان يشاهدها احد.

كانـــت تجـــازف باللقاء باشخاص اخرين يتنـــزهون في الطريق نفسه. كما كانـــت هناك المجازفة برؤية صاحب حقل الالبان وأعين اسرته. الا انها تمكنت من تجـــنب هذا الخطر الاخير بأن اكتشفت لنفسها ان احد الممرات الجذابة المؤدية الى اجمـــة السرخس من فوق الطريق تلتف بعيدا عن مرأى حقل الالبان وتتجه صوب الممر وتخترق الغابة. وكانت تسلك هذا الطريق الى عصر ذلك اليوم عندما ظهرت شاخصة، على نحو متهور، كما ندرك الان، امام الرجلين.

كان السبب بسيطا. لقد نامت نوما طويلا، وكانت تعلم أنها تأخرت عن موعد القـــراءة. وكان من المقرر ان تتناول السيدة بولتيني طعامها في بيت السيدة كوتون في ذلـــك المساء. وتقدم الوقت ساعة كي تسمح لنفسها بالاستعداد للامر الذي كان في جوهـــره دومـــا، ان لم يكن في مظهره، عبارة عن صدام هائل بين دينوصورين اثنين، حيث يحل المخمل الاسود محل الغضروف الحديدي. لم تكن معركة اقل عنادا وقسوة.

كما صعقها وجه تشارلز الذي كان يمعن النظر في الارض. شعرت ان سرعة سقوطها تزداد؛ عندما تندفع الارض القاسية الى الاعلى، عندما يكون السقوط من مثل هذا الارتفاع، ما هي فائدة الحذر؟

14

- ان رأيـــي بالعشرة الطيبة، يا سيد اليوت، هي عشرة الناس الاذكياء الواســعي الاطــلاع الذين يملكون احاديث كثيرة. هذا ما اسميه العشرة الطيبة.

قال برفق:

- انــت علــى خطأ. تلك ليست بالعشرة الطيبة، بل هي افضل عشرة. العــشرة الطيبة لا تتطلب سوى المولد، الثقافة، الاخلاق، وفيما يخص الثقافة، ليست لطيفة جدا.

جين اوستن - الاقناع

اذا لم يكن على زوار بلدة لايم في القرن التاسع عشر ان يمروا بمحنة المسافرين الى المستوطنات الاغريقية القديمة (في الواقع ان تشارلز لم يكن مضطرا لالقاء خطبة علــى غرار بيريكليس[41]، علاوة على موجز شامل لانباء العالم من على سلالم دار الــبلدية) فانــه كـــان سينتظر منهم مؤكدا السماح لانفسهم ان يكونوا معرضين للمعاينة والحديث. وقد حذرت ايرنستينا تشارلز قبل الان من هذا الامر: ان عليه ان ينظر الى نفسه على انه ليس اكثر من وحش في معرض وان يتلقى النظرات غير المهذبة وان يتحمل وخز المظلات باكبر ما يستطيع من المودة. وهكذا كان يضطر مـــرتين او ثلاث مرات في الاسبوع الى القيام بزيارات الى سيدات ويعاني ساعات مـــن السأم الموجع كان العزاء الوحيد فيها المشهد الصغير الذي كان يحدث بانتظام يبهج النفس عندما كانا يرجعان الى منـــزل الخالة ترانتر. وكان من شأن ايرنستينا ان تـــبحث بـــتوق في عينيه اللتين كانت تغلفهما سحب من حديث قصير مبتذل لـــتقول له: «اكان الامر فظيعا؟ اني وسعك ان تغفر لي؟ اتكرهني؟» واذا ما ابتسم لهـــا فإنها كانت تلقي بنفسها بين ذراعيه كأنه تمكن باعجوبة ان ينجو من احداث شغب او انهيار جليدي.

---

(41) بيـــريكليس: (495؟ 429 ق. م) رجـــل دولـــة اثينـــي، بلغت اثينا في عهده اوج ازدهارها السياسي والثقافي. (المترجم)

هكـــذا تحدد ان يقع الانهيار الجليدي في الصباح الذي تلا اكتشاف تشارلز مـــنطقة الجزء السفلي من الجرف في بيت مارلبورو. لم يكن هناك اي شيء اتفاقي او عفوي بشأن هذه الزيارات. و لم يكن في الامكان حدوث مثل ذلك الشيء طالما ان شخصيات الزوار والذين يزارون تنكشف في المدينة الصغيرة بسرعة لا تصدق. وقـــد استتبع ذلك قدر من الاحساس الصارم بنظام التشريفات. وربما كان اهتمام السيدة بولتيني بتشارلز لا يزيد عن اهتمام تشارلز بها. الا انها ستشعر باهانة كبرى لو لم يتم اقتياده اليها مصفدا بالاغلال لتضع من فوقه قدمها الصغيرة المكتنـــزة - وبعد وصوله مباشرة، لأنه كلما تأخر عن الزيارة في اثناء اقامته قل الاحترام.

هؤلاء الزوار كانوا في الاساس خصوما في لعبة. وكانت الزيارات غير مهمة؛ المهـــم هو الاستخدامات اللذيذة التي يمكن ان توظف فيها عندما تحدث. «عزيزتي الـــسيدة ترانتـــر، كانت ترغب في ان أكون اول من يلتقي...» و«انني في منتهى الدهشة لأن ايرنسيتنا لم تزرك بعد - لقد افسدتنا - زيارتان حتى الان...» و«انني واثقـــة انـــه خطـــا غير مقصود - ان السيدة ترانتر انسانة حنونة غير أنها شاردة الذهن...» هذه العبارات وغيرها من الفرص المشابهة التي يسيل فيها اللعاب كانت تعتمد على وجود زوار **مهمين** مثل تشارلز. و لم يكن في مستطاعه ان يتجنب قدره شـــأنه شـــأن فـــار مكتنـــز يتدلى من بين مخالب قط جائع - العديد من القطط الجائعة، اذا توخينا الدقة.

عـــندما اعلن عن وصول السيدة ترانتر بصحبة رفيقتيها الشابتين في الصباح الـــذي اعقب لقاء الغابة، نهضت سارة مسرعة كي تغادر الحجرة. غير ان السيدة بولتـــيني طلـــبت مـــنها البقاء، وكانت فكرة السعادة الجديدة تجعلها وقحة دوما وكانـــت هـــي علـــى اي حال تملك ما يكفي من الاسباب - بعد امسية السيدة كوتـــون - لأن تكون اكثر من وقحة. وقد اعتبرت ايرنستينا شابة تافهة وكانت واثقـــة ان زوجها في المستقبل هو شاب تافه ايضا. وكان من واجبها تقريبا ان تثير حرجهم. علاوة على ذلك، كانت تعلم ان مثل تلك المناسبات الاجتماعية اشبه ما تكون بقميص خشن الملمس للخاطئة. لقد تآمر الجميع.

اُدخـــل الزوار، وتقدمت السيدة ترانتر الى الامام وهي تحدث حفيفا، رقيقة، مسرفة في التعبير عن عواطفها. وقفت سارة بحياء، تشعر بألم ان المكان لا يناسبها،

في الجـــزء الخلفي من الحجرة، بينما وقف تشارلز وايرنستينا هادئين فوق السجادة من وراء السيدتين الاكبر سنا، واللتين كانتا تعرفان بعضهما بعضا عقودا من الزمن تكفي لجعل ما يشبه العناق الرمزي امرا ضروريا. ثم تقدمت ايرنستينا وهي تنحني انحناءة واهية قبل ان تصافح اليد الملكية.

– كيف حالك يا سيدة بولتيني؟ يبدو انك على ما يرام تماما.

– ان رخاء الروح لمن هي في سني يا انسة فريمان اهم من كل شيء.

– اذا لن اخشى عليك شيئا.

كـــان مـــن شأن السيدة بولتيني ان تفضل الاستمرار في هذا الموضوع المثير للاهتمام، بيد ان ايرنستينا التفتت كي تقدم تشارلز الذي انحنى من فوق يد السيدة العجوز.

– انه لمن دواعي سروري العظيم يا سيدتي. بيت رائع.

– انه اكبر مما ينبغي، وانا احتفظ به اكراما لزوجي العزيز، فأنا اعلم انه كان يتمنى – بل يتمنى – ان يكون كذلك.

ثم القت نظرة فاحصة الى ما وراء تشارلز حيث كان ينتصب أغلى ما في بيت الرئيس ممثلا في لوحة زيتية لفردريك يعود تاريخها الى عامين قبل وفاته في 1851، وكـــان يبدو واضحا انه رجل حكيم، متدين، جليل، بهي الطلة؛ وقبل كل شيء ارفـــع من الجميع. من المؤكد انه كان رجلا ورعا وجليلا الى ابعد الحدود، غير ان الرسام استمد الخيال من اجل سجاياه الاخرى. لقد ظلت السيدة بولتيني التي رحل عـــنها منذ زمن امرأة تافهة تماما على الرغم من ثرائها الكبير. وكان العمل الوحيد المهـــم حقـــا في حياته هو تركه اياها. القى تشارلز نظرة شاملة على هذا الهيكل العظمي في الحفل باحترام مناسب.

– اه حقا. افهم. طبيعي تماما.

– لا بد من اطاعة رغباتهم.

– وهو كذلك.

هنا انتهزت السيدة ترانتر الفرصة بعد ان ابتسمت لسارة كي تتدخل في هذا اللحن الافتتاحي الكئيب.

– يسعدني ان التقي بك يا عزيزتي الانسة وودراف.

ثم تقدمت، وضغطت على يد سارة، ونظرت اليها نظرة قلقة حقا، واضافت بصوت خفيض:

ألن تأتي لزيارتي - عندما ترحل العزيزة تينا؟

ثم اعقبت ذلك بنظرة اخرى استغرقت ثانية واحدة وهي تطوف في وجه سارة. لقد قيم ذلك الحاسب الالكتروني الموجود في قلبها السيدة ترانتر منذ زمن طويل، وبقي فيه الشريط الذي يتضمن النتيجة. وسرعان ما سقط ذلك التحفظ، ذلك الاستقلال القريب على نحو خطر من التحدي الذي اصبح قناعها في اثناء وجود السيدة بولتيني. فابتسمت في نفس اللحظة، على الرغم من ان ابتسامتها كانت حزينة، وأومات ايماءة متناهية في الصغر: لو استطاعت فستزورها.

بعد هذا جرى تقديم الاخرين، ومالت الشابتان برأسيهما ببرود الواحدة تجاه الأخرى بينما انحنى تشارلز وراقب عن كثب ليرى ان كانت الفتاة ستفشي بأي شكل سر لقائيهما في اليوم السابق، غير ان عينيها تجنبتا عمدا عينيه. وكان منجذبا لمعرفة كيف سيكون تصرف الحيوان البري في هذه البيئة المغلقة، وسرعان ما خاب ظنه اذ لاحظ ان التصرف كان ينم عن الخنوع التام. فقد تجاهلت السيدة بولتيني سارة تجاهلا تاما الا اذا طلب منها ان تحضر شيئا ما، او ان تقرع الجرس عندما يتقرر ان السيدات يفضلن تناول الكاكاو. وكان ذلك شأن ايرنستينا ايضا وهو ما لاحظه تشارلز بشيء من الانزعاج. وقد بذلت الخالة ترانتر ما في وسعها لاشراك الفتاة في الحديث، غير انها ظلت جالسة في مكان منفصل تقريبا وكان وجهها يتّسم بالانشداه، باشاحة النظر، الذي يمكن ان يفسر على انه الاحساس بمكانتها الادنى. وقد التفت هو نفسه اليها على نحو مؤدب لتوكيد فكرة مرة ومرتين، لكن بلا طائل. فقد كانت ترد بأقل ما يمكن، وظلت تتجنب النظر في عينيه.

ومع اقتراب موعد نهاية الزيارة اخذ تشارلز يدرك مظهرا جديدا تماما للوضع. فقد اتضح له ان خنوع الفتاة الصامت كان على الضد من طبيعتها، وانما لهذا السبب كانت تلعب دورا، وان ذلك الدور يتمثل في الانفصال التام عن سيدتها ورفضها لها. وقد خاضت السيدة بولتيني والسيدة ترانتر في جدول موضوعات الحديث اللطيفة - وهي موضوعات ربما كانت قليلة من حيث

العـــدد لكنها طويلة لا نهاية لها... الخدم، الطقس، الولادات القادمة، الجنازات والزيجات، السيد دزرائيلي والسيد غلادستون - وهذا على ما يبدو في مصلحة تشارلز على الرغم من انه كان يسمح للسيدة بولتيني ان تدين ادانة قوية مبادئ الاول الشخصية ومبادئ الثاني السياسية(*)- بعد ذلك يجري الحديث عن موعظة الاحـــد الاخـــيرة وقصور التجار المحليين وبعد ذلك العودة الى الخدم على نحو طبيعي. وفي حين كان تشارلز يبتسم، ويرفع من حاجبيه، ويومئ في خلال هذا المظهر المألوف فانه عقد العزم على ان الانسة وودراف الصامتة كانت تتعذب في ظـــل الاحـــساس بالظلم؛ ولا تفعل شيئا يذكر لاخفاء ذلك وهو ما يتضح للمراقب الذكي.

كـــان هذا مفهوما من تشارلز لأنه لاحظ شيئا غاب عن انظار كل شخص تقـــريبا في بلدة لايم. لكن ربما كان من شأن استنتاجه ان يظل في مرحلة الشكوك لولا ان افصحت مضيفته عن سلوك مميز لها.

- تلك الفتاة التي طردتها من العمل، الم تتسبب في ازعاج اكثر لكم؟

ابتسمت السيدة ترانتر.

- ماري؟ لن افرط بها من اجل العالم كله.

- لقـــد اخبرتني السيدة فيرلي انها شاهدتها هذا الصباح وهي تتجاذب اطراف الحديث مع شخص ما.

(*) انـــصافا للـــسيدة، ربمـــا يمكـــن القول إن ازدراءها الشامل في ربيع ذلك العام 1867 كان يـــشاطرها فـــيه اخرون كثيرون. فقد اعد السيد غلادرائيلي والسيد دزيستون عملا مشتركا يـــصيب بالـــدوار في تلك السنة. اننا ننسى أحيانا ان الموافقة على لائحة الاصلاح الكبيرة الاخيـــرة (التي اصبحت فيما بعد قانونا في شهر اب/أغسطس التالي) انما كان مهندسها ابي حـــزب المحافظـــين الحـــديث في حين عارضها اشد المعارضة الاحرار. لهذه السبب وجد المحافظون من مثل السيدة بولتيني وقد اخذ يدافع عنهم ضد هول مشاهدة من هم احط شانا قـــريبين من التصويت، زعيم الحزب الذي كانوا ينفرون منه على اسس اخرى واقعية. وقد ذكر (ماركس) في أحد مقالاته المنشورة في صحيفة (نيويورك ديلي تريبيون) ان المحافظين البريطانيين في الواقع «يمثلون شيئا مختلفا تمام الاختلاف عن المبادئ المستنيرة والليبرالية التـــي يتشدقون بها. وبهذا، فانهم يشبهون في موقعهم المدمن الذي يقوم امام اللورد المحافظ ويعلـــن انه يمثل مبادئ ضبط النفس غير انه لسبب ما يُكثر من المشروب المفضل في ايام الاحاد. وهذا النموذج لم ينقرض. (المؤلف)

تفوهت السيدة بولتيني بكلمة **شخص** على نفس النحو الذي قد يستعمل فيه فرنسيان وطنيان كلمة **نازي** في اثناء الاحتلال.

- شخص شاب، لا تعرفه السيدة فيرلي.

رمقت ايرنستينا تشارلز بنظرة حادة تنطوي على تأنيب. وفي لحظة غضب تصور انه متهم، ثم ادرك الامر.

ابتسم، ثم اضاف لفائدة السيدة بولتيني:

- مما لا شك فيه اذا انه خادمي سام يا سيدتي.

تفادت ايرنستينا عينيه.

- اردت ان اقول انني شاهدهما يتجاذبان اطراف الحديث يوم امس.

- من المؤكد اننا لن نسعى الى منعهما من الحديث اذا ما التقيا.

- هناك فرق كبير بين ما هو مقبول في لندن وما هو ملائم في هذه المنطقة. اعتقد انه من الضروري الحديث الى سام. فالفتاة سهلة الانقياد.

بدت السيدة ترانتر جريحة المشاعر.

- يا عزيزتي ايرنستينا، ربما كانت جريئة، الا انني لا املك ادنى سبب لـ...

- خالتي العزيزة الحنون. انا اعرف جيدا كم انت مولعة بها.

سمع تشارلز لهجتها الجافة فتقدم للدفاع عن السيدة ترانتر.

- اتمنى لو ان الكثير من السيدات مولعات على هذا النحو. فليست هناك اشارة اكيدة تدل على البيت السعيد افضل من وجود خادمة سعيدة عند بابه.

اطرقت ايرنستينا تفكر في ذلك وقد احكمت اطباق شفتيها. اما السيدة ترانتر الطيبة فقد احمر وجهها لهذا الاطراء، واطرقت هي الاخرى في حين اصغت السيدة بولتيني لهذه النيران المتقاطعة بشيء من المتعة. وقررت الان انها تكره تشارلز على نحو يكفي لأن تكون فظة معه.

- ان زوجتك في المستقبل حكم افضل منك في هذه الشؤون يا سيد سميثسون. انني اعرف الفتاة التي يجري الحديث عنها، وقد اضطررت الى طردها. ولو كنت اكبر سنا لعرفت ان المرء لا يمكن ان يكون مترمتا اكثر مما ينبغي في مثل هذه الامور.

ثم اطرقت بدورها، وهي اشارة تدل على ان موضوعا ابدت رأيها فيه وانه لهذا السبب قد انتهى.

– انني انحني احتراما لتجربتك العظيمة يا سيدتي.

غير ان لهجته كانت باردة، ساخرة بلا ريب.

جلست السيدات الثلاث وكل واحدة تتفادى النظر الى الاخريات: السيدة ترانتر بدافع الاحراج، ايرنستينا بدافع الانزعاج من نفسها؛ لأنها لم تكن ترمي الى التسبب في مثل هذا الزجر لتشارلز، وتمنت لو انها لزمت الصمت، اما السيدة بولتيني فبدافع كونها السيدة بولتيني وهكذا، فإن نظرة لم تشاهدها اولئك النسوة بودلت اخيرا بين سارة وتشارلز. كانت نظرة قصيرة جدا، الا انها كانت زاخرة بالمعاني؛ غريبان ادركا ان لهما عدوا مشتركا. وللمرة الاولى لم تنظر الى اعماقه، بل نظرت اليه. فوطد تشارلز العزم على ان ينتقم من السيدة بولتيني وان يلقن ايرنستينا درسا ضروريا على ما يبدو في الانسانية المشتركة.

وتذكر ايضا نزاله الاخير مع والد ايرنستينا في موضوع داروين. ان التعصب الاعمى سائد اكثر مما ينبغي في البلاد ولن يسمح بذلك عن الفتاة التي سيتزوجها. وسيتحدث الى سام. نعم. انه سيتحدث اليه.

اما كيف تحدث فهو ما سنراه بعد لحظة واحدة. غير ان الفحوى العام لتلك المحادثة كان مفهوما مقدما لأن **شخص** السيدة بولتيني كان في تلك اللحظة يجلس في المطبخ في الطابق السفلي من منزل السيدة ترانتر.

لقد التقى سام بماري في شارع كومبي ذلك الصباح وسألها على نحو بريء ان كان ممكنا تسلم السخام في غضون ساعة من الزمن. وكان يعلم حقا ان السيدتين الشابتين ستكونان في منزل مارلبورو.

كانت المحادثة في ذلك المطبخ جادة على نحو يثير الدهشة، اكثر جدية بكثير من تلك المحادثة في غرفة استقبال السيدة بولتيني. مالت ماري الى خزانة الاطباق وادوات الطهو وقد طوت ذراعيها الجميلتين في حين برزت خصلة من شعرها الاصفر بلون الذرة من تحت قبعتها التي ترتديها في اوقات التنظيف. وكانت بين الفينة والفينة تطرح الاسئلة، غير ان سام كان يتولى الحديث في معظم الوقت. ولم تلتقِ عيونهما الا قليلا، واذ ذاك كانا يشيحان النظر احدهما عن الاخر كأن اتفاقا مشتركا عقد بينهما.

15

... فيما يخص الطبقات العاملة، فإن الاخلاق شبه الوحشية للجيل السابق قد تبدلت لستحل محلها حسية عميقة، منتشرة انتشارا كليا تقريبا...

تقرير من اقليم المناجم 1850

او في ومضة العينين الاكثر غموضا
ثمة سبب لابتسامة خاطفة

تينيسون احياء لذكرى... 1850

عندما جاء صباح اليوم التالي، وشرع تشارلز يحس بقسوة قلب سام اللندني، فانه لم يكن في الواقع يخون ايرنستينا بغض النظر عن طبيعة القضية مع السيدة بولتيني. وقد انصرفا بعد وقت قصير من الحديث الذي اوردنا وصفا له فيما مضى وكانت ايرنستينا صامتة في الطريق المؤدي الى شارع برود. وعندما وصلا الى ذلك المكان شعرت الها اصبحت وحدها برفقة تشارلز. وما ان اغلق الباب من وراء ظهر خالتها حتى انفجرت باكية (بلا مقدمات اهام الذات المألوفة) ورمت نفسها بين ذراعيه. لقد كان ذلك اول اختلاف يعكر صفو حبهما، وقد اثار رعبها ان تزجر امرأة عجوز رهيبة حبيبها الرقيق تشارلز وكل ذلك بسبب نوبة استياء من جانبها. وعندما ربت على كتفها على نحو لائق وكفكف دمعها تحدثت بقدر ما تريد فسرق تشارلز قبلة من كل جفن مبلل انتقاما منها، وغفر لها على الفور.

– لماذا يتعين علينا يا عزيزتي الساذجة تينا ان ننكر على الاخرين الشيء الذي جعلنا في منتهى السعادة؟ ما الذي سيحدث لو ان هذه الخادمة الشريرة وخادمي سام المتهور احبا بعضهما بعضا؟ اينبغي لنا ان نرجمهما بالحجارة؟

ابتسمت له وهي جالسة في كرسيها.

– هذه نتيجة محاولة التصرف كالبالغين.

ركع الى جانبها، وامسك يدها.

- ايتها الطفلة الجميلة. ستظلين هكذا دوما عندي.
احنت رأسها كي تقبل يده، وبدوره قبل قمة رأسها.
وهمست:
- ثمانية وثمانون يوما. لا استطيع احتمال الفكرة.
- لنهرب معا ونذهب الى باريس.
- تشارلز.. يا له من تفكير شرير!

رفعت رأسها فقبلها فوق شفتيها. ثم اتكات ثانية على زاوية الكرسي، بريئة براءة الاطفال، خجلة، وقلبها يدق بعنف حتى إنها ظنت انها على وشك الاغماء. انها رقيقة لا تحتمل مثل هذه التحولات المفاجئة في العواطف. احتفظ بيدها وضغط عليها بمرح.

- اذا استطاعت السيدة بي الجديرة بالاحترام ان ترانا الان؟

غطت وجهها بكلتا يديها، وشرعت بالضحك، كانت قهقهات مكبوتة انتقلت الى تشارلز وارغمته على الوقوف على قدميه والذهاب الى النافذة والتظاهر بالوقار - الا انه لم يستطع الحيلولة دون النظر الى الوراء فيشاهد عينيها من بين اصابعها. كانت ثمة اصوات اخرى مكبوتة في الغرفة الساكنة وكلاهما مرت به نفس الفكرة: الحريات الجديدة المدهشة التي حققها عصرهما، كم هو رائع ان يكون الانسان شابا حديثا بكل ما في الكلمة من معنى، ويمتلك احساسا حديثا بالدعابة، على بعد الف عام من...

- اوه يا تشارلز... اوه يا تشارلز. اتذكر السيدة التي تنتمي الى بواكير العصر الطباشيري؟

كان ذلك بداية لانفجارها ثانية، مما اثار من حيرة السيدة ترانتر المسكينة التي كانت في الخارج، تظن ان شجارا لا بد قد نشب. وفي نهاية المطاف استجمعت شجاعتها للدخول، لترى ان كان في وسعها اصلاح ذات البين. كانت تينا لا تزال تضحك عندما هرعت صوب الباب، وقبلتها فوق وجنتيها.

- خالتي العزيزة. لست حنونا اكثر من اللازم. انا طفلة فظيعة، فاسدة. ولا اريد ثوبي الاخضر الخاص بالنزهات. اني وسعي ان امنحه لماري؟

هكذا، وفي وقت لاحق من ذلك اليوم نفسه برزت ايرنستينا بصدق في صلاة ماري. انني اشك في ان ماري قد سمعتها لأنها بدلا من ان تأوي الى الفراش مباشرة

بعـــد ان نهضت من على ركبتيها، كما ينبغي على كل المصلين الطيبين، لم تستطع ان تقـــاوم رغـــبة بارتداء الثوب الاخضر مرة واحدة واخيرة. لم يكن لديها سوى ضـــوء الشمعة كي تراه من خلالها. غير ان ضوء الشمعة لم يكن يوما ما سيئا عند اي امـــرأة. ذلك الشعر الأشقر الوفير المتدلي، ذلك اللون الاخضر المفعم بالحيوية، تلك الظلال المتأرجحة، ذلك الوجه الخجول، البهيج المدهش.

- لقد قررت يا سام انني لست محتاجا لك.

لم يـــستطع تشارلز رؤية وجه سام لأن عينيه مغمضتان. وكان يحلق له ذقنه. غير ان الطريقة التي توقفت بها شفرة الحلاقة اخبرته عن الصدمة التي سيطر عليها.

- في وسعك الذهاب الى كنـــزنغتون.

ثم ران صمت كان من شأنه ان يلين قلب اي سيد اقل سادية منه.

- اليس لديك ما تقول؟

- نعم يا سيدي. سأكون اكثر سعادة هناك.

- قـــررت ان لا فائـــدة ترجـــى منك. وانا ادرك تماما ان هذا هو وضعك الطبيعي. الا انني افضل ان ارى لا فائدة ترجى منك، في لندن، التي الفت اكثر من غيرها الذين لا ترجى منهم اي فائدة.

- لم افعل شيئا يا سيد تشارلز.

- وارغب ايضا في ان اجنبك معاناة الاضطرار الى مقابلة تلك الخادمة الوقحة في منـــزل السيدة ترانتر.

وتناهى الى الاسماع صوت انفاس عالية. فتح تشارلز احدى عينيه بحذر.

- اليست هذه قسوة مني؟

نظر سام نظرة ثابتة فوق رأس سيده.

- لقد اعتذرت وقبلت اعتذارها.

- ماذا؟ من عاملة في حقل البان؟ مستحيل.

اضـــطر تشارلز الى اغماض عينيه على وجه السرعة كي يتجنب وضع سام فرشاة الصابون الخاص بالحلاقة على نحو فظ فوق وجهه.

- جهل يا سيد تشارلز. جهل مطبق.

- ادرك ذلك. اذا الامور اسوأ مما تصورت. لا بد لك من الرحيل دون شك.

غير ان سام لقي ما فيه الكفاية. فترك الصابون في محله حتى اضطر تشارلز الى فتح عينيه ورؤية ما حدث. كان سام يقف مقطبا حاجبيه، او على الاقل، ما يبدو شبيها بذلك.

– ماذا بك الان؟

– انها هي يا سيدتي(*).

– دبة؟ اتتحدث اللاتينية الان؟ لا بأس. ان فطنتي تفوقك، ايها الدب، والان اريد الحقيقة. في الامس لم تكن مستعدا للمس الشابة بأي شيء. اتنكر ذلك.

– كنت معرضا للاستفزاز.

– اه. لكن اين هي الحركة الاولى؟ من هو المستفز الاول؟

غير ان تشارلز لاحظ انه بالغ في الامر. كانت الشفرة ترتعش في يد سام، لا بقصد القتل، بل بفعل السخط المكبوت. فمد تشارلز يده واخذها منه، ثم لوّح بها له.

– في اربع وعشرين ساعة يا سام؟ في اربع وعشرين ساعة؟

شـــرع سام ينظف حوض الغسيل بمنشفة كان من المقرر ان ينظف بها وجنتي تشارلز. ران الصمت، وعندما تكلم كان صوته مخنوقا.

– لسنا جياد، بل كائنات بشرية.

عندئذ ابتسم تشارلز ووقف على قدميه، ثم سار من وراء رجله، ثم وضع يده على كتفه، فالتفت نحوه.

– اعتذر لك يا سام. لكنك ستقر بأن علاقاتك السابقة بالجنس اللطيف قلما جعلتني مستعدا لهذا الوضع.

اطرق سام ممتعضا. ثمة سخرية ماضية محددة لتجثم عليه. – ان هذه الفتاة – مـــا اسمها؟ – ماري – ربما تكون الانسة ماري هذه لهوا كبيرا يستحق الاثارة – دعـــني انهي كلامي – غير انني علمت انها مخلوقة رقيقة. موثوق بها في اعماق قلبها ولن اسمح لذلك القلب ان يتحطم.

– ذلك يحطمني يا سيد تشارلز!

(*) لفـــظ سام جملة «انها هي يا سيدي» بلهجة اهل لندن (الكوكني): "Er sir"فبدا وكانه يقول كلمة "Ursa" التي تعني «دب» او «دبة» باللاتينية. (المترجم)

– حسنا جدا. انني اصدقك دون ان تتحطم، لكنك لن تذهب الى البيت ثانية او تـــتجاذب اطراف الحديث مع المرأة الشابة في عرض الشارع قبل ان اتحدث الى السيدة ترانتر، وارى ان كانت تسمح بمجاملاتك طمعا في الفوز بقلب المرأة.

رفـــع سام بصره ثانية بعد ان كان قد اطرق طويلا، ونظر الى سيده، وابتسم ابتسامة يرثى لها، مثل جندي يحتضر على الارض قرب قدمي ضابطه.

– انني بطة من داربـــي يا سيد. بطة متفتحة من داربـــي.

الافضل ان اضيف ان البطة من داربـــي هي بطة مطبوخة توا ولهذا لا امل في بعثها.

16

مود في اشراقة شبابها وفتنتها تغني عن الموت، وعن الشرف الذي لا يمـوت حتـى كدت ان ابكي من اجل زمن بمثل هذه الوضاعة والقذارة ومن اجل نفسي البالغة الوهن والدناءة

تينيسون: مود 1855

لـم اعرف، صدقني، المشاعر بين الرجال والنساء حتى كنت في مروج احـدى القرى في اثناء عطلات باتت الان غبية اسير الهوينى ذات يوم طويل، فاتر الهمة كما قال تينيسون اتجول طويلا فاتر الهمة، على نحو اخرق فوقعت عيناي مصادفة على فتاة بلا قبعة، بلا قلنسوة...

اي. إتش. كلف كوخ توبر – نا – فوليتش 1848

مـرت خمـسة ايـام هادئة بعد اليوم الذي قد وصفته. و لم تتسنَّ اي فرصة لتـشارلز للاستمرار في استكشافاته الجزء السفلي من الجرف. وذات يوم، كانت هـناك نـزهة الى سدماوث؛ اما صباحات الايام الاخرى فكانت تتخللها زيارات او بعـض التـسالي المقـبولة من مثل الرمي بالسهام، الذي اظهرت له الشابات الانكليزيات حماسا شديدا انذاك، واصبح مبهجا ان يتحول اسيادٌ وديعون لاحضار الـسهام الـتي تـرميها السيدات من جذوع الاشجار (اخشى ان سهام ايرنستينا القـصيرة البصر قلما وصلت هناك) ومن ثم عودهم وهم يتبادلون سرد الدعابات عن كيوبيد[24] والقلوب والخادمة ماريان.

امـا في اوقـات العـصر، فكانت ايرنستينا تقنعه عادة بالبقاء في بيت الخالة ترانتـر؛ فهـناك شـؤون منـزلية في منتهى الاهمية تنبغي مناقشتها طالما ان بيت كنـزنغتون صـغير اكثر مما ينبغي وان ايجار بيت بلغرافيا الذي سينتقلان اليه في نهايـة المطـاف لن يصبح في متناول يدي تشارلز قبل مرور عامين اثنين. وبدا ان الحـوادث المؤسفة الصغيرة قد غيرت من ايرنستينا اذ غدت تحترم تشارلز احتراما

(24) كيوبيد: اله الحب عند الرومان. (المترجم)

شديدا، وتطيعه طاعة عمياء حتى إن تشارلز شكا انه بدا يشعر مثل باشا تركي - وتوسل اليها، دون اصالة في الطلب، ان تختلف واياه في موضوع ما لئلا ينسى ان زواجهما سيكون زواجا مسيحيا.

دفـع تـشارلز ثمـن هذا الغلو المفاجئ في الاحترام لكل رغبة من رغباته بكلام لطيف. اذ كان يتمتع بما يكفي من الدهاء ليدرك ان ايرنستينا قد فوجئت. فحتى وقت اخـتلافهما ربما كانت مولعة بالزواج اكثر من ولعها بزوجها المستقبلي. اما الان فقد عـرفت الرجل كما عرفت الوضع. لا بد من الاقرار بأن تشارلز وجد ان هذا التحول مـن الجفاف الى الرقة عبارة عن ظل يزداد كثافة بمرور الزمن. وكان سعيدا اذ وجدها تـتملق الـسيه، وتمطره بضروب العناية المفرطة، وتستشيره وتبجله. واي رجل لا يريد ذلـك؟ غير انه عاش سنوات طويلة من العزوبية المتحررة وكان في طبعه طفلا مدللا، مـروعا الى ابعـد الحدود. وكان يبدو غريبا له حتى في ذلك الوقت انه ليس حرا في اوقـات الـصباح، وان خطـط ما بعد الظهيرة يجوز التضحية بها ارضاء لنـزوة من نـزوات تينا. ان لديه حقا واجبات تسنده؛ وكان متوقعا من الازواج فعل مثل تلك الاشـياء، لهذا لا بد له من القيام بها - مثلما ينبغي له ارتداء القميص التحتاني الخشن وانتعال الحذاء ذي المسامير الكبيرة اذا ما اراد التنـزه في الريف.

والاماسـي! تلـك الساعات التي كانت تنيرها مصابيح الغاز والتي لا بد من اشغالها دون الاستمتاع بالسينما او التلفزيون! قلما كانت هذه مشكلة كبيرة عند الـناس الـذين لديهم رزق كبير يكسبونه: فعندما تكون قد اشتغلت اثنتي عشرة ساعة في اليوم فإن مشكلة قضاء الوقت من بعد العشاء محلولة بيسر. لكن الاثرياء غير المحظوظين يستحقون الشفقة. فبغض النظر عن السماح الذي يعطى لهم بقضاء اوقـاتهم وحـيدين قبل ساعات المساء، فإن الاعراف كانت تقتضي انذاك حتمية احـساسهم بالـسأم من جراء صحبة من يرافقونهم. دعونا اذا نشاهد كيف يعبر تـشارلز وايرنـستينا صحراء واحدة محددة كهذه. على الاقل كانت الخالة ترانتر بعـيدة عـنهما، لأن السيدة الطيبة ذهبت لتناول الشاي عند جارة عانس ألم بها المرض، صورة طبق الاصل منها في كل شيء باستثناء الملامح والتاريخ.

كـان تشارلز ممددا على نحو رشيق فوق الاريكة، واضعا اصبعين فوق خده، والاصـبعين الاخرين اضافة الى الابهام تحت ذقنه، ومرفقه فوق ذراع الاريكة، في

حـــين اخـــذ يحدق في تينا الجالسة في الجهة الاخرى من السجادة وهي تقرأ كتابا صغيرا مجلدا بجلد احمر حملته في يدها اليسرى بينما حملت في يدها اليمنى درع النار (وهو عبارة عن جسم يشبه مضرب كرة المنضدة مغطى بقماش الاطلس المزركش ومـــزين بـــشريط احمر داكن من حول حافاته وهدفه منع الحرارة المنبعثة من ذلك الفحـــم المفـــرقع من ان تحمر تلك الملامح الشاحبة البسيطة) الذي كان يهتز، بلا انتظام، طبقا لايقاع القصيدة السردية المنتظم التي كانت تقرأها.

كان المجلد من اكثر الكتب رواجا في ستينيات القرن التاسع عشر: **سيدة غاراي** للسيدة **كارولاين نورتون** الذي قالت عنه مجلة ادنبرة ريفيو: «القصيدة عبارة عن قصة مؤثـــرة، رقـــيقة، عفـــيفة، من قصص العذاب والحزن والحب والواجب والطاعة والمـــوت» - سلسلة جميلة بلا ريب من الصفات والاسماء الرئيسة في منتصف العصر الفكتوري التي يتوقع المرء ان يصادفها (دعوني اضيف قائلا احسن بكثير مما استطيع انا ان ابتكره). ربما تظن ان السيدة **نورتون** مجرد شاعرة تافهة غير مشوقة من شعراء ذلك العـــصر. صحيح ان شعرها تافه كما سترى بعد قليل بيد انها لم تكن امرأة تافهة. فهي اولا حفيدة شريدان[43]، وعشيقة ملبورن[44] كما رددت الشائعات، وقد صدق زوجها تلك الشائعات مما حدا به الى اتخاذ اجراء ناجح ضد السياسي الكبير. وكانت من اشد انصار الحركة النسوية؛ او ما يمكن ان نصطلح عليه اليوم بحرية المرأة.

كانـــت ســـيدة العنوان، اي السيدة غاراي، زوجة طروب لاحد اللوردات الفرنـــسيين المفعمـــين بالحـــيوية والنشاط وقد جرى لها حادث تسبب في عوقها (إصابتها بالعَرَج) اثر الصيد فوهبت البقية الباقية من حياتها الموغلة في الحزن لعمل الـــبر - اعمال اكثر نفعا من تلك التي تؤديها السيدة كوتون لأنها اسست احد المستـــشفيات. ومع ان احداث القصيدة تقع في القرن السابع عشر فإنها كانت في تـــأبين فلورنس نايتنغيل[45]. مما لا شك فيه ان هذا هو السبب في ان تمس القصيدة

---

(43) ريتـــشارد شـــريدان (1751-1861): كاتـــب مسرحي انكليزي، برع في التاليف المسرحي وبخاصة في الكوميديا الاجتماعية. (المترجم)

(44) وليم لام ملبورن (1779-1848): رئيس وزراء بريطاني (1834،1835-1841). (المترجم)

(45) فلـــورنس نايتنغيل (1820-1910) ممرضة انكليزية لقبت بـــ «السيدة ذات المصباح» وتعد مؤسسة علم التمريض. (المترجم)

قلـــوب العديـــد من النساء في ذلك العقد. اما نحن الذين نحيا بعد ذلك الزمن فاننا نعـــتقد بـــأن المـــصلحين العظام انما كانوا ينتصرون على المعارضة الكبيرة او على اللامـــبالاة الكـــبيرة. وقد تعين على السيدة ذات المصباح الحقيقية ان تكافح ضد المعارضـــة وضـــد اللامبالاة. غير ان هناك عنصرا في العاطفة - كما اوضحت في مكـــان اخر - قد يكون مؤذيا تقريبا ايضا. وللوهلة الاولى يبدو من المستبعد تماما ان تكـــون ايرنستينا قد قرأت القصيدة. كانت تحفظ بعض ابياتها عن ظهر قلب. وفي كل مرة تقرأها فيها (كانت تقرأها صراحة ثانية الان لأنها كانت فترة الصوم) تـــشعر بالسمو والنقاء، بانها امرأة شابة افضل. انني لست في حاجة الى ان اضيف هنا الى انها لم تذهب قط الى اي مستشفى، ولم تهتم باحد سكان الاكواخ المرضى في حياتها. ان ابويها ما كانا ليسمحا لها بذلك. غير انها شخصيا لم تفكر قط بتأدية مثل ذلك العمل.

آه. انك تقول إن النساء كن مقيدات بدورهن في ذلك الزمن. لكن تذكر تاريخ هـــذا المـــساء: الـــسادس من نيسان/أبريل 1867. اي قبل اسبوع من انتهاز (جون ســـتيوارت مـــل)[46] الفرصة في مبنى البرلمان في ويستمنستر في اثناء احدى المناقشات المبكـــرة الخاصـــة بلائحـــة الاصلاح ليبرهن ان الوقت قد حان لاعطاء المرأة الحقوق المتـــساوية في صـــناديق الاقتراع. وقد قوبلت محاولته الجريئة (هزم الاقتراح بـــ 193 صوتا مقابل 73 صوتا بينما امتنع الثعلب العجوز دزرائيلي عن التصويت) بابتسامة من الانـــسان العادي والقهقهة من مجلة بنش - اذ اظهر احد الرسوم الكاريكاتيرية مجموعة مـــن السادة تحيط بمجلس وزراء قوامه النساء - والعبوس الرافض من اغلبية حزينة من النساء المثقفات اللواتي زعمن ان تأثيرهن يمارس على نحو اعظم في البيت. وعلى الرغم مـــن ذلك، فإن الثلاثين من أذار/مارس 1867 يعد النقطة التي يمكن ان تورخ بها بداية تحريـــر المـــرأة في انكلتـــرا. اما ايرنستينا التي قهقهت لدى رؤيتها مجلة بنش في عدد الاسبوع الماضي بعد ان اعطاها اياها تشارلز، فلا يمكن عتقها تماما.

غير اننا انطلقنا من مساء البيت الفكتوري، فلنعد اليه. تفرس تشارلز في وجه ايرنستينا الرزين وثمة غمامة تشوب عينيه الهادئتين.

---

(46) جـــون ستيوارت مل (1806-1873) فيلسوف وعالم اقتصاد انكليزي، نادى بالحرية الفردية ودعا الى الاخذ بمذهب المنفعة. (المترجم)

- استمر؟
- انت تقرأين على نحو بالغ الجمال.

تنحـــنحت برقة، ورفعت الكتاب ثانية. كانت حادثة الصيد قد وقعت توا: اللورد يهتم برعاية سيدته التي سقطت.

«يفرق كتل شعرها الأشقر،
يرفعها، عاجزة، برفق مُروّع،
ينظر الى وجهها بعينين مذعورتين؛ -
فتموت - حبيبة روحه - تموت!»

تنتفض عينا ايرنستينا على نحو جاد وهما تنظران الى تشارلز. اما عيناه فمغمضتان كأنه يتصور المشهد المأساوي. يومئ على نحو كئيب وكله اذان صاغية.

تستأنف ايرنستينا.

«ربما قد سمعت من خلل الصدمة المخيفة لتلك الفكرة،
نبضات قلبه كأنها ساعة هائلة»؛
ثم يتذبذب ذلك النبض القوي حتى يتوقف،
عندما يقتلع من ذلك الخوف برعشة مفاجئة،
صدرت من تلك الشفتين الشاحبتين الواهنتين المرتعشتين:
«اوه، كلاود» قالت وأمسكت عن الكلام، لكن حتى الان
وعلى مدى كل ايام الحب منذ ان التقيا اول مرة،
لم تنبض دماء قلبه بمثل هذا العهد الذي يرثى له
بانها كانت كل شيء له، كما الان».

قـــد قـــرأت البيت الاخير على نحو بالغ الاهمية. ثم ترمق تشارلز بنظرة من عينـــيها. لا تزال عيناه مغمضتين، الا انه كما يتضح بالغ التاثير لا يقوى حتى على الايمـــاء. تأخذ نفسا قصيرا وعيناها لا تزالان مصوبتين تجاه خطيبها المضطجع على نحو حزين، وتواصل القراءة.

«اوه يا كلاود - العذاب» - «اوه يا غرترود،
يا حبيبتي!»
ثم لاحت على شفتيها الواهنتين ابتسامة باهتة،

تتّسم بارتياح من نغمته –

«لقد نمت ايها العظم الكريه».

صـــمت. وجه تشارلز اشبه بوجه رجل في جنازة. نفس آخر ونظرة قوية من القارئة.

«اه! سعداء هم الذين في حزنهم وعذابهم

لا يشتاقون الى وجه اليف عبثا –»

تشارلز!

علـــى حين غرة، يغدو الكتاب صاروخا يمس تشارلز مسا عرضيا فوق كتفه ويهوي على الارض وراء الاريكة.

نعم؟

يـــشاهد ايرنـــستينا واقفة على قدميها وكلتا يديها على شفتيها على نحو غير مألوف تماما. يجلس منتصبا في مكانه ويهمس:

اوه يا عزيزتي.

لقد ضبطت متلبسا بالجريمة يا سيدي. لا عذر لديك.

لا بـــد ان تشارلز قدم ما يكفي من الاعذار والتكفير لأنه في اثناء فترة طعام الغداء التالي مباشرة استطاع ان يستجمع شجاعته ويتذمر عندما اقترحت ايرنستينا للمرة التاسعة عشرة مناقشة تأثيث مكتبه في البيت الذي لم يعثرا عليه بعد. ان ترك تـــشارلز مؤسسته الصغيرة المريحة في كنـــزنغتون لم يكن اقل التضحيات المتوقعة. وفي وســـعه ان يتحمل هذا التذكير المتكرر بها. ساندته الخالة ترانتر ومُنح على هذا الاساس وقت ما بعد الظهر«للتنقيب البائس» بين الصخور.

كـــان يعرف على الفور المكان الذي يرغب في الذهاب اليه. لم تكن في ذهنه اي فكـــرة سوى فكرة امرأة الضابط الفرنسي عندما عثر عليها فوق مروج الجرف الـــبرية. الا انه كان يملك في ما مضى الوقت ليلاحظ اكواما لا بأس بها من حجر الـــصوان المتساقط عند سفح جرف صغير كانت قمته تمثل المرج نفسه. كان هذا هـــو الدافع بلا ريب الذي ادى به الى السير بعد ظهر ذلك اليوم الى ذلك المكان. كان الحماس الجديد، ازدياد حدة الحب بينه وبين ايرنستينا، قد اكتسح جميع الافكار، كلها باستثناء الفكرة العابرة عن سكرتيرة السيدة بولتيني، من عقله الواعي.

عـــندما وصل المكان الذي اضطر فيه الى الصعود وسط العليق، فإنها من غير ريب مرت في ذهنه ثانية وعلى نحو واضح. تذكر بحيوية كيف كانت مستلقية في ذلـــك الـــيوم، لكنه عندما عبر العشب، ونظر الى الاسفل صوب مكانها، وجده خالـــيا. وســـرعان ما نسي امرها. وعثر على طريق يتجه الى اسفل الجرف فشرع يبحث بين ركام الحجارة عن قشوره. كان يوما اكثر برودة من اليوم الذي جاء به الى هـــنا مـــن قبل. كانت الشمس والغيوم تتعاقب الواحدة اثر الاخرى على نحو ســـريع، يلائم شهر نيسان/أبريل، بيد ان الريح كانت شمالية. لهذا كان الجو دافئا عـــند جهة الجرف السفلية المواجهة للجنوب. كما ان دفئا جديدا سرى في جسد تـــشارلز علـــى الفور عندما شاهد قشرة ممتازة عند قدميه يبدو ان انشطارها عن حجر الصوان لم يمضِ عليه وقت طويل.

الا انـــه بعـــد مضي اربعين دقيقة اضطر الى ان يسلم نفسه لحقيقة واحدة وهي انه لن يؤاتيه حظ آخر، على الاقل بين صخور الصوان تحت الجرف فعاد الى المـــرج مـــن فوق وسار في الممر المؤدي الى الغابة. واذ ذاك شاهد حركة سوداء!

كانـــت في منتـــصف الطريق المنحدر، منشغلة في جذب معطفها العالق بالنـــبات فلـــم تسمع تشارلز وهو يقترب منها. وحالما رأها توقف عن السير. كان الممر ضيقا غير انها شاهدته، فوقفا في مكانيهما، يفصل بينهما خمسة عشر قـــدما (4.5 متر)، وقد انتابهما الحرج كما يبدو، على الرغم من ان ملامحهما كانـــت متبايـــنة. اذ كـــان تـــشارلز يبتسم في حين حدقت سارة به بارتياب شديد.

– آنسة وودراف!

اومـــات ايمـــاءة لا يـــدركها الحس او العقل وبان عليها التردد، كأنها تود الالـــتفات إلى الـــوراء لو استطاعت الى ذلك سبيلا. غير انها ادركت انه يقف الى الجانـــب فاســـرعت الى المرور من امامه. وفي هذه الاثناء زلت قدمها فوق زاوية خداعة من الممر المكسو بالطين، وسقطت على ركبتيها. فقفز الى الامام، وساعدها كـــي تنهض على قدميها، فاصبحت الان مثل حيوان هائج، ترتعش، لا تقدر على النظر اليه ولا تقوى على الكلام.

شجعها على المضي في الطريق بعد ان وضع يده بمنتهى اللطف فوق مرفقها. كانت ترتدي المعطف الاسود نفسه، والثوب النيلي ذا الياقة البيضاء نفسه. كانت بشرتها وردية متفتحة تناسب على نحو يثير الاعجاب الحياء البالغ في سلوكها ولا ادري ان كان ذلك بسبب سقوطها او لأنه كان يمسك بذراعها او لأن الهواء بارد. كانت الريح قد عبثت قليلا بشعرها وكانت تبدو عليها أمارات صبي ضبط متلبسا بسرقة التفاح من احد البساتين... إثم، الا انه إثم تمردي. وفجأة نظرت الى تشارلز نظرة سريعة من الجانبين والى الاعلى بعينيها البنيتين القاتمتين الجاحظتين تقريبا اللتين يظهر فيهما البياض الشديد الوضوح: انها نظرة منفرة، خائفة في نفس الوقت. فما كان منه الا ان ترك ذراعها.

- اخشى ان افكر في ما قد يحدث لك يا انسة وورداف اذا ما التوى كاحلك يوما ما في مكان كهذا.

- لا يهم.

- لكنه امر يهم مؤكدا يا سيدتي العزيزة. ومن طلبك الي في الاسبوع الماضي، افترض انك لا ترغبين في ان تعلم السيدة بولتيني بمجيئك الى هذه المنطقة. لا سمح الله ان أسأل عن اسبابك. غير انني يجب ان اوضح بانك اذا كنت ضعيفة على نحو ما، فانني الشخص الوحيد في بلدة لايم الذي في مستطاعه ان يرشد منقذيك اليك. أليس كذلك؟

- انها تعلم. من شأنها ان تخمن ذلك.

- اتعلم انك تأتين الى هنا - الى هذا المكان بالذات؟

تفرست في الارض المكسوة بالعشب كأنها لن تجيب على اي اسئلة اخرى، توسلت اليه ان ينصرف، غير ان شيئا ما في ذلك الوجه، الذي انعم فيه تشارلز النظر من الجانب، جعله يصمم على عدم الذهاب. ادرك الان ان كل شيء فيه مضحى به من اجل تينك العينين. انهما لا تستطيعان اخفاء براعة التفكير واستقلال الروح. فيهما انكار صامت لاي عاطفة، التصميم على ان تكون على ما هي عليه. في ذلك الوقت. كان نمط الحواجب الرقيقة، القصيرة، المقوسة هو السائد، غير ان حاجبي سارة كانا داكنين تماما، او على الاقل على نحو غير مألوف، يشبه لونهما لون شعرها الذي زاد من شدة سوادهما، فمنحها مسحة صبيانية في بعض الاحيان.

لا اقـصد بهذا انها كانت ذات وجه رجولي، وسيم، كبير الذقن، كالذي شاع في العـصر الادواردي[47] - مـن طـراز جمال فتاة جبسون[48]. كان وجهها حسن التقاطيع، ينم عن انوثة كاملة. وكانت القوة الكامنة في عينيها توازيها القوة الحسية الكامـنة في فمهـا، الذي كان واسعا - لا يلائم ثانية الذوق السائد الذي كان يتراوح بين فم جميل صغير، بلا شفتين تقريبا، وقوس كيوبيد الطفولي. كان تشارلز لا يـزال تحـت تأثير علم الفراسة للافاتير[49] شأنه شأن معظم رجال عصره. انتبه لذلك الفم ولم ينخدع اذ رأه مطبقا على نحو غير طبيعي.

اصـداء بثتها بلا ريب نظرة واحدة سريعة من تلك العينين الداكنتين في ذهن تشارلز، الا انهما ليستا بانكليزيتين. كان يقرن مثل هذه الوجوه بالاجنبيات - واذا شئنا الصراحة (اكثر صراحة مما هو عليه مع نفسه) بالاسرة الاجنبية. وهذا مؤشر على مرحلة جديدة في وعيه بسارة. لقد ادرك انها اكثر ذكاء واستقلالية مما كانت توحي به. اما الان فقد فكّر في خصائص اكثر غموضا وخفاء.

ان مثل هذا الاحساس الغريزي بطبيعة سارة الحقيقية من شأنه ان يكون مثيرا للـنفور عـند معظم الانكليز في عصره. وقد اثار هذا قليلا من نفور تشارلز - او على الاقل صدمه. لقد كان يشترك في الكثير من اهواء معاصريه وعلى نحو يكفي لأن يرتاب في الامور الحسية بأي شكل من الاشكال. وفي حين كان من شأن هذه الاهواء ان تجعل من سارة - بفعل احدى تلك المعادلات الرهيبة التي تقع بناء على امـر من الانا العليا - مسؤولة على نحو غامض عن ولادتها بالشكل الذي ولدت

---

(47) العصر الادواردي: نسبة الى ادوارد السابع (1841-1910)، ملك بريطانيا وايرلندا (1901-1910) وهـو ابـن الملكـة فكـتوريا ووريثها. تولى العرش وهو في الستين من العمر. (المترجم)

(48) تـشارلز دانا جبسون (1867-1944): رسام امريكي اشتهر بمجموعة رسومه التي عرفت باسم فتاة جبسون ووصفت وصفا دقيقا النموذج الانثوي الامريكي في مطلع القرن العشرين، وكانـت فتاته هذه تستمد ملامحها من ملامح زوجته اصلا، وقد نشر هذه الرسوم في مجلة لايـف الاسبوعية، كما نشر عددا اخر منها في العديد من كتبه مثل لندن كما يراها جبسون (1895)، (شخصيات ديكنز) (1897)، تخطيطات من مصر (1899). (المترجم)

(49) يـوهان كاسبر لافاتير (1741-1801): كاتب وقس بروتستانتي سويسري يعد مؤسس علم الفراسة امتد تاثيره خارج حدود بلاده حتى ان غوته نفسه اشتغل معه في كتابة مقالات في علم الفراسة بعض الوقت. (المترجم)

فـــيه، فـــإن تشارلز لم يكن كذلك. وفي هذا الخصوص نستطيع ان نشكر هواياته العلمـــية. انا لا اقول ان تشارلز تبرأ تماما من سارة الا انه ابعد ما يكون عن توجيه اللوم لها مما كانت تتصور.

جزئيا اذا، كانت هواياته العلمية... غير ان تشارلز كانت لديه ميزة تتمثل في انه قرأ - سرا، لأن الكتاب قدم للمحاكم بتهمة الفحش والدعارة - رواية ظهرت في فرنـــسا قـــبل عـــشر سنوات، رواية قدرية في افتراضاتها هي مدام بوفاري[52] الـــشهيرة. وبينما كان ينظر الى الوجه القريب منه، قفز الى ذهنه اسم ايما بوفاري فجـــأة ومـــن مكـــان مجهـــول. ان مثل هذه التلميحات ليست سوى هواجس، واغراءات. وهذا هو السبب الذي جعله في النهاية لا ينحني وينسحب.

اخيرا قالت:

- لم اعلم انك هنا.

- كيف يمكن لك ان تعرفي؟

- لا بد من العودة.

ثم استدارت، غير انه تكلم بسرعة.

- اتسمحين لي ان اقول شيئا ما اولا؟ شيئا ربما لا يحق لي قوله وانا الشخص الذي لا اعرف شيئا عنك او عن ظروفك؟

وقفت في مكانها محنية الرأس، مولية ظهرها اياه.

- استمر في كلامي؟

ظلت صامتة. تردد لحظة ثم قال:

- لا استطيع التظاهر بأن ظروفك لم تناقشها امامي يا آنسة وودراف السيدة ترانتر. انني لا ارغب الا في القول ان هذه الظروف نوقشت مناقشة ملؤها العطف والاحـــسان. انما تعتقد انك غير سعيدة في ظل وضعك الراهن، الذي فهمت انك قـــبلت به بسبب من قسوة الظروف، لا بسبب ملائمته لطبيعتك او مزاجك. لقد تعرفت الى السيدة ترانتر منذ فترة قصيرة ليس الا.

---

(52) مـــدام بوفاري: رواية كتبها الروائي الفرنسي (غوستاف فلوبير 1821-1880) في سنة 1857، عـــدها الـــنقاد اول روايـــة واقعية تصور انحدار البطلة تدريجيا في علاقة غرامية تعمدت اقامتها بأمل للحصول على المال لتسديد ديونها وتنتهي على نحو مأساوي. (المترجم)

توقف فجأة عن الكلام عندما نظرت سارة بسرعة من حولها صوب الاشجار المنتــصبة مــن ورائهما. لقد سمعت اذناها المرهفتان صوتا ما، غصنا يتكسر تحت الاقــدام. الا انــه قبل ان يتمكن من سؤالها عما هو الخطب. سمع بدوره اصوات رجــال خفيــضة. الا انهــا عند ذلك الوقت كانت قد بدأت تتصرف، فلملمت تــنورتها، وسارت مسرعة فوق العشب صوب جهة الشرق على بعد اربعين ياردة (36 مترا)، وهناك توارت عن الانظار وراء اجمة امتدت قليلا فوق العشب. وقف تشارلز مشدوها.

ارتفعــت اصوات الرجال اكثر من ذي قبل. لا بد له من ان يتصرف. فخطا الى الامام حيث كان يمتد الممر صاعدا بين اشجار العليق. ولحسن حظه فعل ذلك، اذ مــا ان لاح لناظريه الجزء السفلي من ذلك الممر حتى شاهد وجهين ينظران الى الاعلى، فانعقدت دهشتهما. من الواضح ان وجهتهما كانت السير من حول الممر الــذي كــان يقف فيه تشارلز. فتح تشارلز فمه ليحييهما، غير ان الوجهين اختفيا بعجالة مثيرة للدهشة. وسمع صوتا يهمهم «اسرع يا جيم» وتلا ذلك صوت وقع خطــوات متسارعة. وبعد لحظات سمع صوت صفير منخفض مفاجئ وانين كلب هائج. ثم ران الصمت.

انتظــر دقيقة واحدة حتى تأكد من ذهابهما ثم سار من حول الاجمة. كانت تقف الى الجانب ازاء الاشواك الحادة وقد اشاحت وجهها جانبا.

- لقد ذهبا. شخصان متجاوزان حرمة اراضي غيرهما على ما اظن.

اومات له، غير انها استمرت في تجنب النظر الى عينيه. كانت الاجمة متفتحة، زهورها الصفر كثيفة على نحو اوشكت فيه ان تخفي اللون الاخضر اما الهواء فكان معبقا باريج مسكها اللذيذ.

قال:

- اظن ذلك ليس ضروريا.

- لا يمكن مشاهدة اي سيد مهذب تهمه سمعته الطيبة بصحبة امرأة بلدة لايم القرمزية[53].

---

(53) المــرأة القرمــزية: تعني العاهرة واثرنا ترجمتها حرفيا لأنها ذات صلة بجملة مقول القول التالية. (المترجم)

- كانـــت تلك مجرد خطوة. فقد كان صوتها تشوبه مرارة قاسية، فابتسم في وجهها الذي ما يزال يتفاداه.

- اعتقد ان الشيء القرمزي الوحيد الخاص بك هو وجنتيك.

الـــتمعت اذ ذاك عيـــناها في وجهـــه كأنه يعذب حيوانا ما وجها لوجه. ثم اشاحت بوجهها مرة اخرى.

قال تشارلز برقة:

- لا تخطئـــي فهمي فانا ارثي لوضعك التعيس، كما اقدر كثيرا رقتك فيما يخص سمعتي، التي لا تقدم ولا تؤخر عند السيدة بولتيني.

لم تتحـــرك مـــن مكانها. فاستمر في ابتسامته، مرتاح البال في كل تنقلاته، قراءاته، معرفته بعالم اوسع.

- لقد شهدت الكثير من هذه الحياة، واكره المتزمتين... بغض النظر عما يظهـــرونه مـــن ورع للعالم. هلا تفضلت الان بالخروج من مخبأك؟ ليس هناك مـــا يعيب في لقائك العابر هذا. كما ينبغي ان تتركيني الهي ما اوشكت على قوله.

خطـــا خطـــوة الى الجانب فتقدمت بدورها صوب العشب النامي، وشاهد رموشـــها مخضلة بالدمع فلم يضغط عليها بوجوده، بل تكلم من ورائها وهو على بعد بضع أمتار.

- ان الـــسيدة ترانتر تود مساعدتك، بل هي تواقة الى ذلك اذا ما رغبت في تغيير وضعك.

كان جوابها الوحيد هو الاكتفاء بهزة من رأسها.

- ليس هناك احد لا يمكن مساعدته او لا يثير العاطفة في نفوس الاخرين.

توقـــف هنـــيهة في حين عبثت الريح بخصلة من شعرها تطايرت الى امام، مما دفعها الى تعديلها على نحو عصبـــي.

- انني لا اعبر الا عما تود السيدة ترانتر قوله شخصيا.

لم يكـــن تـــشارلز مبالغا في كلامه. ففي اثناء طعام الغداء المرح الذي اعقب المـــصالحة، نـــوقش موضوع السيدة بولتيني وسارة ولم يكن تشارلز سوى ضحية ســـلطة الـــسيدة العجـــوز فترة وجيزة. لا بد انهما فكرتا فيها على انها الضحية

الدائمـــية. فوطد تشارلز العزم على ان يخبر سارة بما توصلنا اليه في ذلك اليوم بعد ان اندفع في الحديث الى نقطة لا يخشى ان تطاها... .

- ينبغي لك ان تغادري بلدة لايم... هذه المقاطعة. اعرف ان لديك مؤهلات ممتازة. وانا واثق ان وظيفة اكثر مدعاة للسعادة يمكن العثور عليها في مكان اخر.

لم تجب سارة بشيء.

- اعرف ان الانسة فريمان ووالدها ستكونان في منتهى السعادة لاجراء بعض الاستفسارات في لندن.

ابتعدت عنه اثر ذلك، واتجهت صوب حافة العشب الذي يكسو الجرف، ثم امعنت النظر طويلا في البحر لتلتفت بعد ذلك وتنظر اليه وهو ما يزال واقف قرب الاجمـــة: نظرة غريبة، مباشرة، متألقة، ابتسم لها: واحدة من تلك الابتسامات التي يعلم المبتسم انها ضعيفة، غير انها لا تنتهي.

خفضت عينيها.

- شكرا لك. غير انني لا استطيع الرحيل عن هذا المكان.

هز كتفيه قليلا وشعر بالحيرة، والاساءة على نحو غامض.

- اذا ينبغي لي ثانية ان اعتذر لتدخلي في خصوصياتك. ولن افعل ذلك ثانية.

انحنى واستدار كي يبتعد عنها. غير انه لم يخطُ سوى خطوتين واذا بها تقول:

- انني... انني اعرف ان السيدة ترانتر ترغب في ان تكون كريمة.

- اذا اسمحي لها ان تحقق رغبتها.

القت نظرة الى العشب الذي يفصل بينهما.

- ان الحـــديث ثانية كان... كأنني لست ما انا عليه... انني عظيمة الامتنان. غير ان مثل هذا العطف...

مثل هذا العطف؟

- ان مثل هذا العطف اقسى علي من...

لم تنهِ جملتها، بل استدارت صوب البحر. فانتابت تشارلز رغبة عارمة في ان يمـــد يديه ويمسك بها من كتفيها ويهزها. المأساة مجسدة على نحو متقن على خشبة المسرح الا انها لا يمكن ان تبدو اكثر من انحراف في الحياة العادية. وهذا هو ما قاله بعد ذلك بكلمات اقل خشونة.

- ان ما تسميه عنادي انا انما هو عوني.

- لأكـــن صريحا معك يا انسة وودراف. لقد سمعت انك... لست سليمة العقل تمامـــا. واظـــن ان هـــذا بعيد كل البعد عن الحقيقة. اعتقد انك حكمت على نفسك حكمـــا قاســـيا بـــسبب سلوكك في الماضي. والان، لماذا ترغمين نفسك على السير وحـــيدة بحق السماء؟ ألم تعاقبـــي نفسك بما فيه الكفاية؟ انت شابة، وفي وسعك ان تكسبـــي رزقك. واظن انه لا يوجد لديك صلات عائلية تربطك بمقاطعة دورسيت.

- لدي صلات.

- بهذا السيد الفرنسي؟

استدارت بعيدا كأن الموضوع محظور فيه.

-اسمحي لي ان اؤكد - ان هذه الامور تشبه الجراح. واذا لم يتجرأ المرء على الحديث فيها فإنها تصاب بالالتهاب. اذا لم يعد فهو ليس جديرا بك. واذا عاد، فلا استطيع ان أصدق انه سيتجنبك بمثل هذه السهولة ان لم يجدك في لايم ريجيس، بل سيسعى الى معرفة مكانك واللحاق بك. اليس هذا كلام واقعي؟

ران صمت طويل. تحرك من مكانه كي يستطيع ان يرى وجهها من الجانب علـــى الرغم من ان بضعة اقدام (سنتيمترات) ما تزال تفصله عنها. كانت ملامحها غريبة، هادئة تقريبا، كان الحديث الذي تفوه به قد رسخ بعض المعلومات الكامنة في اعماق قلبها.

ظلـــت تحدق الى البحر حيث شاهدت سفينة ذات شراع خمري اللون تتجه صـــوب جهـــة الغرب تحت رقعة من اشعة الشمس وعلى بعد خمسة اميال تقريبا. قالت بهدوء كأنها توجه كلامها للسفينة النائية:

- لن يعود ابدا.

- أتخافين من الا يعود ابدا؟

- اعرف انه لن يعود ابدا.

- لا افهم ما تقولين.

عـــندئذ استدارت، ونظرت الى وجه تشارلز الحائر، الجزع. وبدت لحظة من الـــزمن وهـــي تستمتع تقريبا بذهوله. وفجأة شرعت تسير، تعدو، فوق العشب وصوب الممر.

– آنسة وودراف!

تقـــدمت خطـــوة، خطـــوتين ثم استدارت. مرة اخرى صدته تلك العينان ومـــزقتاه. كـــان صوتها تكتنفه خشونة مكبوتة، الا انه كان صوتا متفجرا ضمنيا بقدر ما كان موجها الى تشارلز:

– انه متزوج.

– انسة وودراف!

الا انهـــا لم تعـــر له اي اهمية. تركته واقفا في مكانه. كان ذهوله طبيعيا. اما الـــشيء غير الطبيعي فكان متمثلا في احساسه الان بالذنب على نحو واضح تماما، لأنه اظهر افتقارا شديدا إلى العاطفة، في حين كان واثقا تمام الثقة بانه فعل كل ما يـــستطيع فعلـــه. أمعن النظر فيها لحظات بعد ان توارت عن الانظار. ثم استدار، والقـــى نظرة الى السفينة النائية، كأنها قد توفر له الاجابة عن هذا اللغز، لكن بلا طائل.

17

المراكب، الرمال، المتنزه،
الحشد الضاحك،
الخالي من الهموم،
تحيات مدوية من اناس ليسوا قليلي الموهبة:

الجروف المغمورة بنور شمس المغيب، الحديث،
التحيات والوقوف،
ملاحو البحر الأذكياء،
الفرقة الموسيقية، رقصة الفالس.

ومع هذا، عندما دخلت ليلا
تقدمت هي
حزينة، لكنها... ذات الفتاة...

هاردي: في بلدة على ساحل البحر في 1869

وجد تشارلز نفسه في ذلك المساء جالسا بين السيدة ترانتر وايرنستينا في قاعة الاجتماع. ولعل بلدة لايم لم تكن عظيمة، مقارنة بمثيلاتها في مدينتي باث وتشيلتنهام، غير انها كانت تبعث على السرور لسعتها ولنوافذها المطلة على البحر. انها كانت، ويا للاسف، ملتقى عاما، سارا، وممتازا اكثر مما ينبغي فحازت التضحية بها من اجل ذلك الحاكم البريطاني العظيم، الراحة؛ لهذا السبب هدمت من قبل مجلس بلدي مخلص في اهتمامه بالمتانة الجماعية، كي يفسح المجال لما يمكن ان يوصف بانه اقبح مرفق صحي في الجزر البريطانية.

على اي حال، لا ينبغي ان تظن ان فريق بولتيني في بلدة لايم اعترض فقط على المعمار التافه لقاعات الاجتماع، بل ان الذي اثار غضبه حقا هو ما كان يجري فيها. لقد كان المكان يشجع لعب الورق، وتدخين السادة للسيكار وحفلات الرقص والموسيقى. باختصار، كان يشجع المتعة. وكانت السيدة بولتيني

ومـــن تشبهها يعلمن جيدا ان المكان الوحيد الذي تسمح به بلدة محتشمة لسكانها ان يلـــتقوا فيه انما يتمثل في دار العبادة. وعندما هدمت قاعة الاجتماعات في بلدة لايم، فإن قلب المدينة تمزق. و لم ينجح احد حتى الان في اعادة بنائه.

كان تشارلز برفقة سيدتيه في المبنى المشؤوم لحضور حفل موسيقي. طبيعي انها لم تكـــن حفلة موسيقية دنيوية – اذ كانت الفترة فترة صوم. وكان المنهاج دينيا بكـــل ما في الكلمة من معنى، حتى ان السكان الضيقي الافق في بلدة لايم صدموا واعلـــنوا، علـــى الاقل امام الملأ، ان احترام الصوم يوازي احترام المسلمين لشهر رمـــضان. ولهذا ظلت بعض المقاعد شاغرة قبالة المنصة المزينة بنبات السرخس عند احد طرفي القاعة الرئيسة حيث كانت تقام الحفلات الموسيقية.

قـــدم الثلاثة المتنورون مبكرين، شأنهم في ذلك شأن بقية الحاضرين، اذ كان الـــناس يـــستمتعون بهذه الحفلات حقا – على طراز القرن الثامن عشر – بسبب الـــرفقة والموسيقى على حدٍّ سواء. فقد كانت تعطي السيدات فرصة رائعة لتقييم ملابـــس جيرانهن والتعليق عليها، ومن المؤكد، التباهي بملابسهن. بل ان ايرنستينا نفسها، وبكل ازدرائها للاقاليم، وقعت ضحية هذا الزهو. فكانت تعرف هنا على الاقـــل انهـــا لن تجد الا القليل ممن ينافسنها في الذوق والبذخ الخاصين بالملابس. وكانـــت النظـــرات المختلسة الى قبعتها الصغيرة (اذ لم تكن ترغب في القلنسوات القديمـــة) ذات الاشـــرطة الخـــضر والبـــيض، وثوبها الاخضر، ومعطفها الاسود والبنفسجي، وحذائها البالمورالي[54] كانت معوضا مقبولا للسأم الذي كانت تشعر به في اوقات اخرى.

كانـــت في حالة مفعمة بالحيوية والنشاط، مولعة بالازعاج في ذلك المساء في حـــين كان الناس يدخلون. اضطر تشارلز الى الاصغاء الى ملاحظات السيدة ترانتر – امـــاكن الاقامـــة، الاقارب، الاجداد – بأُذن واحدة، ولازعاج تينا الرقيق بالأُذن الثانية. وعلم من الخالة ان السيدة الشبيهة بجون بول[55] كانت «السيدة تومكنـــز، ارق نفـــس عجوز، تعاني من صعوبة في السمع، تعيش ما وراء بيت ألم، ابنها في

(54) بالمورالي: نسبة الى بلدة بالمورال الاسكتلدنية. (المترجم)

(55) جون بول: شخصية تجسد تجسيدا نموذجيا للشعب الانكليزي وردت الاشارة اليها في كتاب (تاريخ جون بول) عام 1712 لمؤلفه جون اربثنوت. (المترجم)

الهند»؛ في حين اعلمه صوت اخر على نحو موجز بانها «شخص ثالث غير مرغوب فيه». وفي رأي ايرنستينا فإن هناك اعدادا من هؤلاء الاشخاص الفظيعين اكثر مما هم بشر، تنتظر، بصبر، لأنها تتجاذب اطراف الحديث، في انتظار ان تبدأ الحفلة الموسيقية. ان كل عقد من الزمن يبتكر مثل هذا الاسم والصفة المفيدين. ففي ستينيات القرن التاسع عشر كان «الشخص غير المرغوب فيه» يعني «كل ما هو موحش، عتيق الطراز»؛ اما اليوم فمن شأن ايرنستينا ان تطلق على مرتادي الحفلات الموسيقية البارزين صفة **المربعين**... وهو مؤكد شكل السيدة تومكنز، على الاقل من الخلف.

في نهاية المطاف ظهرت للعيان صاحبة الصوت النسائي العالي، المشهورة من بريستول، بصحبة رفيقها، الاكثر شهرة، السنيور ريتورنيلو (او اسم اخر شبيه به، لأنه اذا كان عازف بيانو فلا بد ان يكون ايطاليا) وهكذا اصبح تشارلز حرا في مراجعة ضميره.

لقد اصبح مهووسا الى حدّ ما بسارة... او على اي حال، باللغز الذي كانت تمثله. لقد عزم - او هكذا ظن - عندما طلب منه مرافقة السيدات الى شارع برود، ومن ثم الى مبنى الاجتماعات، على ان يخبرهم بلقائه وسارة دون أن يتكلموا مع اي شخص عن تجوال سارة في منطقة وير كومونز. بيد ان اللحظة بدت غير مناسبة نوعا ما. فهناك اولا نزاع مادي تماما ينبغي التحكيم فيه - حماقة ايرنستينا في ارتداء ثوب من نسيج خفيف في حين ان الطقس ما يزال يتطلب ارتداء النسيج الصوفي طالما ان عبارة **لا ترتدي النسيج الخفيف الا بحلول شهر أيار/مايو** كانت واحدة من الوصايا البالغ عددها تسعمئة وتسعة وتسعين وصية ثبتها والدها فوق الوصايا العشر القانونية. قتل تشارلز القلق بالاطراء. واذا لم يأتِ على ذكر سارة فذلك يعود الى انه بدأ يشعر بانه سمح لنفسه ان يتجاذب واياها الحديث على نحو اعمق مما ينبغي - لا، بل فقد كل احساس بالحدود. كان في منتهى الطيش، اذ سمح لشهامة وضعها في غير موضعها الملائم ان تعمي بصيرته. والاسوأ من هذا كله بات من الصعب الى ابعد الحدود توضيح ذلك لسارة.

كان يدرك تمام الادراك ان السيدة الشابة تحضن في ذهنها طاقات جبارة من الغيرة، الا انها لا تزال خفية. وفي اسوأ الاحوال، من شأنها ان ترى سلوكه عصيا

علـــى الفهـــم، وستغـــضب منه. وفي افضل الاحوال من شأنها الا تعمل الا على مضايقته - غير ان احتمال الافضل الأحوال هذا ضعيف. فهو لم يرغب في ان يثار غـــضبه في هـــذا الموضـــوع. ربما كان في وسع تشارلز ان يبوح ببعض مخاوفه الى الـــسيدة ترانتر. اذ كان يعرف انها تشاطره مؤكدا اهتمامه المترفّق في الحكم على الـــناس اما النفاق فكان بعيدا كل البعد عنها. انه لا يستطيع ان يطلب منها عدم اخبار ايرنستينا؛ واذا ما علمت تينا عن اللقاء من خالتها، عندئذ سيكون في موضع بالغ الخطورة حقا.

امـــا فيما يخص مشاعره الاخرى، مزاجه ازاء ايرنستينا في ذلك المساء، فقلما امتلك الجرأة لامعان النظر فيها. ان روح الدعابة التي كانت تمتلكها لم تزعجه، الا انهـــا بـــدت ســـطحية على نحو غير مألوف وغير مقبول، كأنها شيء ارتدته مثل المعطـــف المزركش بالفراء او اعتمرته مثل القبعة الفرنسية، وهدفه ان يكون مناسبا لهما اكثر من المناسبة نفسها. وكان ذلك يتطلب استجابة منه... غمزة من عينيه، ابتسامة ثابتة، كان يضطر نفسه الى رسمها، وهي ابتسامة مصطنعة ايضا، بحيث بدا كل شيء مغلفا بمظهر مزدوج. ربما كانت هي كآبة الاستماع الى كثير من اعمال هانـــدل وبـــاخ او تردد النشاز بين السيدة ومساعدها، غير انه ضبط نفسه متلبسا بـــسرقة النظر الى الفتاة الجالسة الى جانبه - ينظر اليها كأنه يراها اول مرة، كأنها غـــريبة عنه تماما. كانت في منتهى الجمال، فاتنة... لكن الا يفتقر ذلك الوجه الى انعدام الشخصية قليلا؟ الا يثير السأم قليلا بما فيه من تناقض بين الرزانة والبساطة، لو انك نـــزعت هاتين الصفتين فما الذي يتبقى؟ انانية مبتذلة. غير ان تشارلز طرد هذه الفكرة التي سرعان ما خطرت بباله. كيف يمكن للطفلة الوحيدة لابوين ثريين ان تكـــون غير ذلك؟ الله اعلم - وهل هناك سبب اخر دفعه الى الهيام بها؟ - ان ايرنـــستينا ليـــست عديمة الشخصية ابدا في اطار الشابات الثريات الباحثات عن الازواج في مجـــتمع لندن. لكن اهذا هو الاطار الوحيد - السوق الوحيد للعرائس؟ من المواد الثابتة في عقيدة تشارلز انه لا يشبه الغالبية العظمى من انداده ومعاصريه. هـــذا هـــو الـــسبب الذي دفعه الى السفر كثيرا. اذ وجد المجتمع الانكليزي ضيق الـــتفكير، محافظـــا بعـــناد، اكثر مما ينبغي، والوقار الانكليزي مبالغا فيه والفكر الانكليـــزي ترمتيا اكثر مما ينبغي والديانة الانكليزية شديدة التعصب. ثم ماذا؟ الم

يكـــن تقلـــيديا تماما في هذه القضية الحيوية الخاصة بالمرأة التي اختارها ان تشاطره حـــياته؟ الم يقـــدم على فعل ابسط الامور بدلا من ان يفعل ما ينم عن ذكاء عظيم.

ما هو الشيء الذي ينم عن ذكاء عظيم اذا؟ ان ينتظر.

تحـــت وطأة هذه الموجة من الاسئلة الذاتية اللاسعة بدا يرثي لنفسه - رجل ذكي في فخ، بايرون مدجنا، وطاف ذهنه مرة اخرى صوب سارة، صوب الصور المرئية، محاولا استعادة ذلك الوجه، ذلك الفم، ذلك الفم الغني بالنكهة. مما لا ريب فيه انه اوقد فيه ذكرى، ربما كانت واهنة اكثر مما ينبغي، عمومية اكثر من اللازم، لا تمكـــنه من متابعة اي مصدر في ماضيه. غير ان ذلك الوجه اقلقه، أقض مضجعه اذ داعـــب اعماق نفسه الخفية التي قلما علم بوجودها. وقال لنفسه: انه لمن اكثر الامور بلاهة، غير ان الفتاة تجذبني. وبدا واضحا له ان سارة ليست هي نفسها التي كانـــت تجذبـــه - وكيف يسعها ذلك وهو الخاطب - بل بعض المشاعر، بعض الامكانـــيات التي كانت ترمز اليها. لقد جعلته يدرك وجود الحرمان. لقد تبدى له مـــستقبله دوما حافلا بالامكانيات الهائلة؛ اما الان فقد بات رحلة ثابتة مقررة الى مكان معلوم. لقد ذكرته بذلك.

ذكـــره مـــرفق ايرنـــستينا بالحاضر على نحو لطيف. كانت المغنية بحاجة الى التـــصفيق فمـــا كان من تشارلز الا ان يسهم بنصيبه في ذلك على نحو فاتر الهمة. وبعـــد ان وضعت ايرنستينا يديها ثانية في الفروة الاسطوانية الخاصة بتدفئة اليدين كشرت تكشيرة ظريفة جانبية قصدت بها شرود ذهنه وفظاعة الاداء. فابتسم لها. كانت شابة صغيرة اشبه بطفلة وليس في مستطاعه ان يغضب منها. على اي حال، انهـــا ليـــست سوى امرأة وهناك الكثير من الاشياء التي لا يتعين عليها ان تدركها ابـــدا: غـــنى حياة الذكر، الصعوبة الهائلة في ان تكون ملك انسان لا يكون العالم عنده اكثر من مجرد الملابس والبيت والاطفال.

سيكون كل شيء على ما يرام عندما تصبح ملكه حقا، في البيت وفي القلب ايضا.

امـــا سام فكان في ذلك الوقت يفكّر تفكيرا مغايرا تماما؛ كم من الاشياء التي تفهمها حواؤه؟ يصعب ان نتصور اليوم الفروق الهائلة التي كانت تفصل انذاك بين

شاب ولد في منطقة سيفن دايلز وابنة سائق عربة نقل من احدى قرى ايست ديفن النائـــية. لقـــد كان لقاؤهما محفوفا بكل العقبات تقريبا كأنما هو واحد من سكان الاسكيمو وهي من قبيلة الزولو. وقلما كانا يملكان لغة مشتركة لهذا غالبا ما كان يصعب على احدهما فهم ما قاله الاخر توا.

غير ان هذه المسافة، كل تلك الفجوات التي لم تردم ومن ثم ردمت بفضل الـــراديو والتلفزيون والسفر الرخيص وغير ذلك، لم تكن سيئة كلها. ربما كان الناس لا يعرفون بعضهم بعضا الا قليلا، الا انهم كانوا يشعرون بانهم احرار من الاخرين. وبالتالي اكثر احساسا بفرديتهم. والعالم كله لم يكن عندهم تحولا او انـــدفاعا وحسبُ. فالغرباء كانوا غريبين، وأحيانا في غربة مثيرة، جميلة. لعله الافـــضل للانسانية ان نواصل الاتصال اكثر فاكثر. الا انني هرطوقي، اذ اعتقد بأن عزلة اسلافنا كانت اشبه بالفضاء الارحب الذي استمتعوا به: لا يمكن الا الاحـــساس بالغيرة منه. والعالم اليوم معنا على نحو اكبر مما ينبغي بشكل حرفي تماما.

كـــان في وسع سام ان يعطي، بل اعطى فعلا، في حجرة خلفية من حجرات المـــشرب، المظهـــر بأنه يعرف كل ما ينبغي ان يعرفه عن حياة المدينة، وبعد ذلك القلـــيل مـــن تلـــك المعرفة. كان يزدري بعدوانية تامة كل شيء لا ينبع من حي الويـــست اند بلندن، ويفتقر الى حيويته. اما في اعماقه، فكانت هناك قصة اخرى. فهو شخص مخلوع الفؤاد، غير واثق – وعدم ثقته هذه ليست بسبب ما كان يريد ان يـــصبح (وهـــو امر بعيد كل البعد عما هو عليه)، بل بسبب ما اذا كان يملك القدرة على ان يكون كذلك.

امـــا مـــاري فكانـــت على النقيض منه في اعماقها. من المؤكد انها اصيبت بالذهـــول مـــن سام اولا: فهو مخلوق ارفع مستوى منها، كما ان مشاكستها اياه كانـــت مجـــرد دفاع عن النفس في مواجهة مثل هذا التفوق الحضاري البين: قدرة تلك المدينة اللامتناهية في ردم الهوة، العثور على طريق اقصر، هي التي عجلت من ســـرعة الخطوات. غير انها كانت تملك صفة ثبات الشخصية الاساسي، وهو نوع مـــن الثقة الطبيعية بالنفس، المعرفة بانها ستكون ذات يوم زوجة صالحة وأُما طيبة وتعـــرف كل شيء في طبائع الناس... الاختلاف في القيمة بين سيدها وابنة اخت

سيدها، على سبيل المثال. على اي حال، كانت فلاحة، والفلاحون يعيشون وهم متمسكون بالقيم الحقيقية اكثر مما يفعل عبيد المدن.

لقـــد احـــبها سام لأنها كانت يوما من ايام الصيف بعد المومسات والبغايا(*) اللواتي كن يشكلن تجربته الجنسية الماضية. لهذا فانه لم يكن يفتقر الى الثقة بالنفس على ذلك النحو؛ بل ان القليل من اهل لندن الفقراء يفتقرون الى ذلك. كان شعره اسود ناعما وعيناه زرقاوين وملامحه صافية. كان رشيقا، سريع الحركة، رشيقها، علـــى الرغم من الميل الى المبالغة الكبيرة أحيانا في تقليد تصرفات تشارلز وحركاته البدنـــية التي كان يعتقد انها تنم عن الذوق. وقلما كانت نظرات النساء تتركه بعد اول نظـــرة، لكن من خلال معرفته الوثيقة بفتيات لندن، فانه لم يذهب الى ما هو ابعـــد من السخرية. وكان الشيء الذي خلب لبه هو براءة ماري. اذ وجد نفسه مثل صبـــي يعكس مرآة – وفي يوم ما فعل ذلك في مواجهة شخص رقيق الحاشية لا يـــستحق ابـــدا مثل تلك المعاملة. وفجأة تمنى ان يكون ما هو عليه واياها، وان يكتشف ما هي عليه.

وقد حدث مثل هذا الوعي الحاد المفاجئ ببعضهما بعضا في ذلك الصباح عند زيـــارة الـــسيدة بولتيني اذ شرعا يناقشان مركزيهما، مزايا وعيوب السيد تشارلز والسيدة ترانتر. وظنت انه سعيد الحظ ليخدم مثل هذا السيد اللطيف. اما سام فقد اعترض على ذلك؛ وبعد ذلك، وجد لدهشته انه يخبر هذه العاملة في مصنع الالبان بشيء لم يقله سابقا الا لنفسه.

كـــان طمـــوحه في منتهى البساطة. كان يرغب في ان يصبح بائع السلع الـــرجالية. ولم يـــستطع ان يمر من امام اي متجر من هذه المتاجر الا ويتوقف ليمعن النظر في الواجهات الزجاجية، منتقدا اياها او معجبا بها، حسبما تتطلب الظـــروف. كان يعتقد انه يملك حسا في معرفة اخر الازياء. لقد سافر بصحبة

(*) يقـــصد اصلا بالمومسات الخادمات اللواتي كن يمارسن الزنى في اوقات الفراغ. اما البغايا فهـــن العاهـــرات، وهذه الاهمية تكمن في الصورة الكاريكاتيرية الشهيرة التي رسمها ليتش عام 1857 وظهرت فيها امرأتان، يلوح الحزن على وجهيهما، واقفتان تحت المطر على بعد اقل من مائة ميل من حي هايماركت وتخاطب احداهما الاخرى: اه، فاني! كم مضى عليك وانت بغي؟ (المؤلف)

تـــشارلز الى الخـــارج، واكتـــسب بعـــض الافكار الاجنبية في ميدان الملابس الرجالية...

لقـــد حصل على هذا كله (وكذلك اعجابه الشديد بالسيد فريمان) على نحو يفتقـــر الى التناسق والانسجام - والعقبات الكبيرة: لا مال، لا ثقافة. لقد اصغت مـــاري بتواضـــع، اكتـــشفت حدسا هذا السام الاخر، واكتشفت حدسا الها قد كـــرمت اذ اعطيت صورة سريعة له. وشعر سام انه يكثر من الحديث. الا انه في كـــل مرة ينظر فيها بقلق ويتطلع الى ملاحظة ساخرة، قهقهة، اقل علامة تشير الى الـــسخرية من ادعاءاته السخيفة، لم يجد في مواجهتها سوى عاطفة ساذجة، حذرة توســـل لأن يواصل حديثه. كانت الفتاة التي تصغي له تحس انه يحتاج اليها والفتاة التي تشعر ان هناك من هو بحاجة اليها تكون قد سارت في ربع الطريق المؤدي الى الحب.

وحـــان الوقت الذي تعين عليه فيه الانصراف. بدا له انه قد وصل قبل قليل. فوقـــف، وابتـــسمت له ابتسامة مشاكسة ثانية. كان يرغب في ان يقول لها انه لم يـــتحدث في السابق بمثل هذه الحرية - حسنا، بمثل هذا الجد - لاي شخص اخر عن نفسه. الا انه لم يستطع العثور على الكلمات.

- حسنا. اتقولين اننا سنلتقي صباح الغد؟

- ارجو ذلك.

- اليس لديك خطيب؟

- لا اهوى اي واحد.

- اراهن ان لديك واحدا. سمعت ان لديك خطيبا.

- انه مجرد كلام في هذا المكان القديم. نحن لا يسمح لنا النظر الى الرجال.

وضع اصبعه على قبعته.

- كأي مكان اخر.

صمت، نظر الى عينيها.

- الست سيئا؟

- ألم اقل انك كذلك.

صمت، كان يدير اصبعه من حول قبعته.

- اعرف الكثير من الفتيات. من كل الانواع. ليس هناك من واحدة تشبهك.
- ليس صعبا العثور على واحدة.
- لم افعل ذلك من قبل.
ران الصمت مرة اخرى. لم تنظر اليه، بل نظرت الى حافة صدريتها.
- ماذا عن لندن اذا؟ اتحبين مشاهدة لندن.
ابتسمت ابتسامة عريضة وأومأت؛ بحماس كبير.
- اتوقع ان تحبي مشاهدتها. عندما يتزوج الاثنان في الطابق العلوي. سأخذك في جولة لتشاهدينها.
- صحيح؟
عند ذاك غمز لها فما كان منها الا ان وضعت يدها فوق فمها وتألقت عيناها من فوق وجنتيها الورديتين.
- كل فتيات لندن انيقات الملبس. لا اعتقد انك ترغب في الخروج معي.
- اذا كنت تملكين الملابس فستكونين انيقة. ستكونين في منتهى الجمال.
- لا اصدقك.
- اقسم لك.
التقت عيناهما لحظة من الزمن. ثم انحنى لها، وغطى الجزء الايسر من صدره بقبعته.
- غدا يا انستي.
- ماذا؟
- غدا صباحا. وسيكون المخلص لك في الانتظار.
عندئذ استدارت، وهي لا تقوى على النظر اليه. خطا من ورائها بعجالة، وجذب يدها ورفعها نحو شفتيه. فما كان منها الا ان خطفتها بسرعة، ونظرت اليها كان شفتيه قد تركتا اثرا اسود. نظرة متألقة اخرى يتبادلانها، فتعض على شفتيها الجميلتين بينما يغمز لها، ثم انصرف.
لا اعرف ان كانا قد التقيا في صباح اليوم التالي ام لا على الرغم من حظر تشارلز الصريح. وعندما خرج تشارلز في وقت متأخر من ذلك اليوم من بيت السيدة ترانتر، شاهد سام ينتظر، بفعل مصادفة مخطط لها كما يبدو، في الجانب الاخر من الشارع. اشار تشارلز اشارة الرحمة الرومانية فما كان من سام الا ان

رفــع قبعته احتراما، ووضعها مرة اخرى فوق صدره؛ كان ذلك احتراما لنعش يمر من امامه لولا الابتسامة العريضة التي لاحت على وجهه.

هذا ما يوصلني الى هذه الامسية الخاصة بحفلة الموسيقى بعد اسبوع من ذلك، والـــسبب الذي توصل فيه سام الى مثل هذه الاستنتاجات المختلفة عن استنتاجات ســيده والخاصة بالجنس اللطيف. فقد عاد الى ذلك المطبخ ثانية. وللأسف كانت هــناك وصيفة مسنة حاضرة – طاهية السيدة ترانتر. الا ان الطاهية العجوز كانت تغط في نوم عميق في كرسيّها قبالة موقد طبخ. اما سام وماري فقد جلسا في اكثر زوايـــا المطبخ عتمة. لم يتبادلا اطراف الحديث، اذ لم يكونا بحاجة الى ذلك، طالما كانت ايديهما متشابكة. من جهة ماري كان الامر لا يعدو ان يكون سوى حماية ذاتـــية اذ وجدت ان تلك هي الطريقة الوحيدة للحيلولة دون امتداد اليد من حول خـــصرها. اما لماذا وجد سام ماري وقد فهمته كل هذا الفهم على الرغم من كل ذلـــك وعلـــى الرغم من الصمت المخيم عليهما، فهو لغز لا يحتاج اي عاشق الى تفسيره.

18

من يستطيع ان يستغرب بأن قوانين المجتمع يتناساها في بعض الاحيان اولئك الذين يغض المجتمع الطرف عنهم عادة، الذين غالبا ما يبدو قلب المجتمع وقد صرف النظر عنهم؟

دكتور جون سيمون: تقرير المدينة الطبي 1849

ذهبت، وركعت وضممت يدي
كأنني سأشرب، من الغدير،
ولاح شبح باهت واقفا
من فوقي، ينظر نظرة من الماضي.

هاردي: عشية منتصف الصيف

مر يومان ظلت فيهما مطارق تشارلز عاطلة عن العمل في حقيبته. وابعد عن ذهنه الافكـــار الخاصـــة بالقشور التي تنتظر منه ان يكتشفها والافكار الخاصة بنساء استسلمن للنوم فوق نتوءات جبلية تغمرها اشعة الشمس، وهي افكار ذات صلة بالقشور الان. الا ان ايرنـــستينا المت بها الشقيقة فوجد نفسه على نحو غير متوقع حرا عصر يوم اخر. تردد لحظـــة، غير ان الاحداث التي مرت من امام عينيه بينما كان يقف الى جوار نافذة غرفته الناتئة كانت قليلة جدا، مملة تماما. ورأى علامة الحانة – التي تمثل صورة اسد ابيض لـــه وجـــه يشبه وجه احد اهالي الصين الجائعين وقد سبق لتشارلز ان اوضح ذلك للـــسيدة بولتـــيني – وهي تحدق فيه على نحو كالح. كانت الريح خفيفة، واشعة الشمس واهنة... وثمة سحابة رمادية عالية، بل على نحو بالغ العلو لا تنذر بسقوط المطر. كان قد وطد العزم على كتابة الرسائل، غير انه وجد ان مزاجه ليس رائقا.

اذا اردنـــا قول الحقيقة، فإن مزاجه لم يكن رائقا لاي شيء. فقد انتابته لذة الـــسفر القديمـــة على نحو موجع، غريب حتى ظن انه قد ترعرع في هذه السنوات الاخـــيرة. وتمـــنى ان يكون في قادش[56]، نابولي، موريا[57] في ربيع البحر المتوسط

---

(56) قادش: مقاطعة في جنوب غرب اسبانيا. (المترجم)

(57) موريا: جزيرة تشكل القسم الجنوبي من اليونان. (المترجم)

اللاهـــب: لا من اجل ربيع المتوسط حسب، بل من اجل ان يكون حرا، ان تكون في انتظاره اسابيع لا تنتهي من السفر، يبحر صوب الجزر، الجبال، ظلال المجهول الحزينة.

بعـــد مـــضي نصف ساعة، كان يجتاز حقل مصنع الالبان ويدخل غابة وير كومونـــــز. اكـــان في وسعه ان يسير الى جهة اخرى؟ نعم. كان في وسعه ذلك حقا. الا انه حرم على نفسه تماما الذهاب الى اي مكان قريب من مروج الجرف. ولـــو انه صادف في طريقه الانسة وودراف فسيفعل على نحو مؤدب ولكن ثابت، ما كان يجب ان يفعله في اللقاء السابق – اي رفض الخوض واياها في اي حديث. علـــى اي حـــال، من الواضح انها تعود دوما الى نفس المنطقة. وشعر انه واثق من عدم رؤيتها لو انه ابتعد عن تلك المنطقة.

على هذا الاساس، فانه قبل ان يصل إلى ذلك المكان بمسافة طويلة استدار الى جهة الشمال، وارتقى المنحدر العام للارض، وتوغل داخل اجمة كثيفة من اشجار الـــدردار المكـــسوة باللبلاب. كانت تلك الاشجار ضخمة وهي من اكبر انواع الاشجار في انكلترا. وكان حجمها الضخم هو الذي دفع ذلك السيد المغتصب الى اقامة مشتله في الجزء السفلي من الجرف. شعر تشارلز انه قميء، وهو يسرع السير بينها في طريقه الى الوجوه الطباشيرية العمودية تقريبا التي كان في وسعه مشاهدتها في اعلـــى المـــنحدر، وشعر ان مزاجه اخذ يروق اكثر من ذي قبل وبخاصة عندما بـــرزت الطبقات الاولى من حجر الصوان من بين النباتات والاعشاب التي كانت تغطي الارض. وعلى الفور التقط قشرة قنفذية. كانت هذه القشرة بالية، ولم يبقَ سوى اثر ضئيل للصفوف الخمسة من الخطوط المثقبة التي تزين القشرة الكاملة. الا انها كانت افضل من لا شيء مما شجع تشارلز على الانحناء ومواصلة البحث.

رويـــدا رويدا ارتقى تشارلز الطريق المؤدي الى سفح الجرف حيث كانت تزداد كثافة الصوان المتساقط ويقل احتمال تآكل القشور. ظل في هذه المستوى من السفح، وشـــرع بالاتجـــاه صوب الغرب. في بعض المناطق كان اللبلاب كثيفا – مرتقيا سفح الجـــرف واغصان الاشجار القريبة بلا تمييز، ليتدلى على شكل ستائر عظيمة فوق رأس تـــشارلز. في احـــدى المناطق اضطر الى شق طريقه وسط ما يشبه النفق الذي صنعته النباتات؛ وفي الطرف القصي كانت ثمة فسحة من الارض تشير الى سقوط كميات من الصوان مؤخرا. يحتمل جدا ان يكون مثل هذا المكان مليئا بالقشور فانطلق تشارلز اليها

تحيط به من كل الجوانب اجمات السرخس الكثيفة. دأب تشارلز على ذلك المنوال قرابة عشر دقائق لا يتناهى الى سمعه سوى صوت خوار عجل من حقل بعيد يمتد من فوقه باتجاه اليابسة واصطفاق اجنحة حمام الغابة وهديلها واندفاع موج البحر الهادئ الذي قلما يمكن ادراكه خلال الاشجار الممتدة بعيدا من تحته. ثم سمع صوتا يشبه صوت سقوط حجر. رفع بصره الا انه لم يرَ شيئا، وظن ان حجارة صوان قد سقطت حقا من الوجه الطباشيري الممتد من فوقه. واصل بحثه مدة دقيقة او دقيقتين اخريين، ثم ادرك بدافع غريزي لا يمكن تفسيره، ربما كان بقايا ملكة ما نملكها من ماضينا الحجري القديم، انه ليس وحيدا. فما كان منه الا ان ألقى نظرة حادة من حوله.

كانت تقف فوقه حيث كان ينتهي نفق اللبلاب، على بعد اربعين ياردة (36 مترا). لم يعرف كم مضى عليها وهي في ذلك المكان؛ غير انه تذكر ذلك الصوت الذي سمعه قبل دقيقتين. انتابه الوجل اول وهلة تقريبا، اذ بدا امرا غريبا ان تظهر على هذا النحو من الهدوء. لم تكن ترتدي حذاء بمسامير، الا انها لا بد قد تحركت بحذر فائق. لاثارة دهشته. لهذا السبب تعمدت اللحاق به.

- انسة وودراف.

ثم رفع قبعته.

- كيف صادف وجودك هنا؟

- شاهدتك وانت تمر.

سار قليلا الى اعلى الحجارة صوبها. كانت قبعتها في يدها ثانية؛ ولاحظ ان شعرها كان سبطا كأنها كانت في مهب الريح، الا انه لم تكن هناك اي ريح. وكان ذلك يضفي عليها مسحة من الجموح زاد من قوتها ثبات نظراتها عليه. وتساءل عن السبب الذي دفعه الى الاعتقاد بانها ليست مجنونة الى حدّ ما.

ألديك شيئا تريدين قوله لي؟

مرة اخرى كانت تلك النظرة الثابتة عليه لا النظرة التي تخترقه. كانت سارة تملك واحدا من تلك الوجوه الانثوية الغريبة التي تختلف اختلاف بينا في جاذبيتها، حسب التركيب الكيميائي الدقيق للزاوية، الضوء والمزاج. كانت في تلك اللحظة تحظى بعون فعال من عمود مائل من نور الشمس الواهن الذي وجد طريقه من خلال شق صغير في السحب، وهو امر ليس قليل الحدوث في وقت متأخر من

اوقـــات ما بعد الظهر في انكلترا. وهكذا تألق وجهها وقوامها الشاخص من امام النـــباتات الخضراء المدفونة من ورائها. وظهر وجهها فجأة في منتهى الجمال، بالغ الجمال حقا، مهيبا على نحو فاتن، يضج باشراقة داخلية وخارجية. وتذكر تشارلز ان ذلك كان يشبه تماما ما زعمه احد الفلاحين قرب بلدة غافارني في البيرينـــز[58] مـــن انـــه شاهد... تقف فوق مرتفع بجانب طريقه... وذلك قبل اسابيع قليلة من مـــرور تشارلز في ذلك الطريق. لقد نقل الى ذلك المكان. لم يكن ذلك الامر بذي اهمية. لكن لو ان مثل هذه المرأة وقفت قبالته!!.

على اي حال، من الواضح ان هذه المرأة كانت لها مهمة عادية جدا. وضعت يـــديها في جيبـــي معطفها، واخرجت في كل واحدة منهما قشرتين رائعتين. فما كان منه الا ان صعد نحوها حتى اصبح قريبا بما فيه الكفاية لتمييز نوعيتها، ثم نظر مندهشا الى وجهها الجامد. وتذكر انه سبق ان تحدث باقتضاب عن علم الاحاثة، عـــن اهمـــية قنافذ البحر في بيت السيدة بولتيني في ذلك الصباح. وهنا شرع يمعن النظر ثانية في هذين الشيئين الصغيرين في يديها.

- ألن تأخذهما؟

لم تكـــن ترتدي اي قفازات، فتلامست اصابعهما. عاين القشرتين غير انه لم يفكر الا في لمسة تلك الاصابع الباردة.

- اشكرك شكرا جزيلا، انهما في حالة ممتازة.

- أهما بغيتك؟

- نعم، حقا.

هل كانت من الاصداف البحرية ذات يوم؟

تردد، ثم اشار الى معالم القشرة الافضل: الفم، الثقوب، الاست. وبينما كان يواصـــل حديثه وتستمع له باهتمام بالغ، زال استهجانه. كان مظهر الفتاة غريبا، غـــير ان عقلـــها لم يكن مشوشا ابدا - كما بدا ذلك من خلال سؤالين او ثلاثة اسئلة طرحتها عليه. وفي النهاية، وضع القشرتين بعناية في جيبه.

- انه لفضل كبير ان تفتشي عنها.

- لم يكن في وسعي عمل ما هو افضل من ذلك.

(58) البيرنز: سلسلة جبلية تمتد على طول الحدود للفرنسية الاسبانية. (المترجم)

- كنت على وشك العودة. هل لي بمساعدتك والعودة الى الممر؟

غير انها لم تتحرك من مكانها.

- كنت ارغب في ان اشكرك يا سيد سميثسون للمساعدة التي اقترحتها.

- طالما انك رفضتها فانني اظل شاكرا اكثر.

ساد صمت قصير، فتحرك صوبها وفتح جدار اللبلاب بعصاه كي تعود ادراجها. الا انها ظلت ساكنة، وهي في مواجهة رقعة الارض المنبسطة.

- ما كان ينبغي لي اللحاق بك.

كان يتمنى لو في استطاعته مشاهدة وجهها، الا انه لم يفلح.

- اعتقد بأن من الافضل ان انصرف.

لم تقل شيئا، فاستدار صوب اللبلاب، الا انه لم يستطع مقاومة نفسه والقاء نظرة اخيرة عليها. كانت تمعن النظر فيه من فوق كتفها كأن الجسد استهجن الوجه، وادار ظهره لمثل هذا العار. كانت نظراتها هذه المرة تنطوي على قدر من الحدة يفوق تماما الجاذبية، على الرغم من انها ما تزال توحي بشيء من التأنيب الشامل القديم. كانت عيناها معذبتين، تبعثان على ألم مبرح، ثمة حنق عظيم فيهما، ضعف منتهك على نحو كريه. لم تتهما تشارلز بالحنق، بل عدم مشاهدته ان ذلك قد حدث. لحظة طويلة من النظرات الثابتة، ثم قالت موجهة كلامها نحو الارض التي تفصل بينهما، وهي متوردة الخدين.

- ليس لدي من الجأ اليه.

- ظننت انني اوضحت بأن السيدة ترانتر...

- ذات قلب حنون. الا انني لا احتاج إلى الحنان.

ران الصمت فظل واقفا وهو يفرق اللبلاب.

- لقد علمت ان القس رجل عاقل تماما.

- انه هو الذي عرفني على السيدة بولتيني.

وقف تشارلز بجوار اللبلاب كأنه يقف الى جانب احد الابواب. تجنب عينيها وبحث عن طريق للخروج.

- لو كان في وسعي الحديث نيابة عنك الى السيدة ترانتر فسأكون بالغ السرور، الا انه سيكون غير مناسب لي...

- ان تهتم اكثر بظروفي؟

- نعم، ذلك ما اردت ان انقله اليك.

كـــان رد فعلها يتلخص في اشاحة النظر جانبا. لقد أنبها تأنيبا قاسيا، ورويدا رويدا ترك خيوط اللبلاب المتدلية تعود الى وضعها الاول.

- ألم تفكري في اقتراحي بضرورة الرحيل عن هذا المكان.

- لو ذهبت الى لندن فإنني اعرف ماذا سيكون مصيري.

تصلب في اعماقه.

- سأصـــبح في وضع مشابه للعديد من النساء اللواتي فقدن شرفهن في المدن الكبيرة.

وهنا التفتت اليه التفاتة كاملة، وازداد تغير سحنتها.

- سأصبح مثلما يسمونني هنا في بلدة لايم.

كان كلاما عنيفا، لا يليق ابدا. وهمس.

- يا عزيزتي الانسة وودراف...

وهنا احمرت وجنتاه.

- انا ضعيفة. كيف لم اعرف ذلك.

ثم اضافت بمرارة:

- لقد ارتكبت خطيئة.

هـــذا الاعتراف الجديد، لشخص غريب، وفي مثل هذه الظروف - قد ابعد عنه العنـــصر الطيب الذي خلقه اهتمامها بمحاضرته الصغيرة عن القنافذ البحرية المتحجرة. الا انه على الرغم من ذلك تحسس القشرتين في جيبيه. كانت قد استحوذت عليه على نحـــو مـــا. وشعر تشارلز الذي يريد ان يختبئ من نفسه بأنه قد اشبع غروره على نحو غامض، مثلما يفعل رجل الدين الذي تطلب منه المشورة في مشكلة روحية.

القى نظرة فاحصة الى الطوق المعدني حول عصاه.

- اهذا هو الخوف الذي يبقيك في لايم.

- الى حدّ ما.

- اهـــناك شـــخص اخر يعلم بتلك الحقيقة التي اخبرتني بها في ذلك اليوم لدى انصرافك؟

- لو كانوا يعلمون لما اغفلوا الفرصة في اخباري.

ران صـــمت طويل. لحظات مثل التغيرات التي تحدث في العلاقات الانسانية: فالشيء الذي كان حتى ذلك الوقت حالة موضوعية، حالة ربما يصفها العقل لنفسه بمصطلحات نصف ادبية، حالة يكفي مجرد تصنيفها ضمن عنوان عام (رجل يعاني مـــن مشكلات شرب المشروب المفضل، امرأة تعاني من ماضي تعس، وهلم جرا) تـــصبح حالة ذاتية، تصبح فريدة، تصبح بالتقمص العاطفي حالة يشارك فيها الغير بـــدلا مـــن ملاحظتها على الفور. لقد حدث مثل هذا التحول في ذهن تشارلز في حين كان يمعن النظر في الرأس المنحني للخاطئة الواقفة قبالته. وكما هو شأننا جميعا عـــندما نمر بمثل تلك اللحظات - من منا لم يعانقه سكير؟ - فقد سعى الى عودة سريعة، رغم انها دبلوماسية، الى الوضع الراهن.

- انـــني حـــزين بـــشأنك، لكن ينبغي لي ان اقر بأنني لا افهم السبب الذي يدفعك الى... اذا جاز التعبير.. الى الوثوق بـــي؟

وهنا بدأت تتكلم - كان السؤال متوقعا منه - على نحو سريع، مرددة خطابا تقريبا، ابتهالا حفظته عن ظهر قلب.

- لانـــك سافرت كثيرا. لانك مثقف. لانك انسان نبيل، لانك... لانك... لا ادري. انني اعيش بين ناس يقول لي العالم انهم يتصفون بالحنان والورع، الا انهم يبدون لي اكثر قسوة من اعتى الكفار، اشد غباء من اغبى الحيوانات. لا استطيع ان اصدق ان الحقيقة هي على هذا النحو. ان الحياة بلا تفاهم او عطف. انه لا توجد نفـــوس تتحلى بما يكفي من الكرم كي تدرك ما قد عانيته وسبب معاناتي... واني بصرف النظر عن الخطيئة التي ارتكبتها، ليس حقا ان اقاسي الى هذا الحدّ.

خيم الصمت عليهما. ولم يستطع تشارلز ان يقول شيئا، اذ لم يتوقع مثل هذا الـــشرح الواضح لمشاعرها، لهذا الدليل، الذي كان يرتاب فيه، غير انه لم يواجهه، الدليل الخاص بذكاء يفوق كل ما هو اعتيادي. وابتعدت قليلا عنه ثم استرسلت في حديثها بصوت اكثر هدوءا.

- سعادتي الوحيدة هي عندما آوي الى الفراش للنوم... وما ان استيقظ حتى يـــبدأ الكابوس. اشعر انني منفية فوق جزيرة صحراوية، سجينة، محكوم عليها، ولا ادري ما هي الجريمة التي اقترفتها.

نظر تشارلز الى ظهرها نظرة فزع، مثل رجل يوشك ان يبتلعه انهيار ارضي. كأنه يريد ان يهرب، لكن بلا فائدة، ان يتكلم، غير انه لا يستطيع.

وفجأة تسمرت عيناها على عينيه.

- لماذا ولدت على هذه الصورة؟ لماذا لم أولد مثل الانسة فريمان؟

غـير ان الاسـم ما ان انطلق من بين شفتيها حتى ابتعدت قليلا، مدركة انها تجرأت اكثر من اللازم.

- الافضل عدم اثارة مثل هذا السؤال.

- لم اقصد...

- الحسد ممكن غفرانه في...

- ليس الحسد، بل اللا فهم.

- لـست امـتلك القـدرات - قدرات الناس الاكثر حكمة مني بكثير - لاساعدك في هذا الصدد.

- لا... لن اصدق ذلك.

سـبق لتشارلز ان عرف الكثير من النساء - وعرف ايرنستينا اكثر - وهن يخالفـنّه على نحو هازل. غير ان ذلك في سياق مرح. فالمرأة لا تخالف رأي الرجل عندما يكون جادا الا اذا كان ذلك وفق نقاط محسوبة بعناية. اما سارة فبدت وهي تتظاهـر تقريبا بنوع من الفطنة المساوية له، وفي ظروف كان ينبغي ان تكون اكثر مـراعاة للاخرين اذا ما ارادت ان تحدق بنهايتها. شعر انه قد اهين... شعر... انه لـن يقول شيئا. كانت الخلاصة المنطقية لمشاعره تتمثل في ان يرفع قبعته، ويحسم الامـر علـى نحو بارد، ويسير مبتعدا بحذائه ذي المسامير الثقيلة. بيد انه وقف في مكانـه، كأنـه قد ترسّخ في ذلك المكان. لعله كان يمتلك فكرة راسخة اكثر مما ينبغـي عـن الصورة التي تظهر بها جنية البحر والظروف التي تظهر فيها - ضفائر طـويلة، عري مرمري عفيف، ذنب حورية، يصحبها اوديسيوس صاحب الوجه المرضـي في افضل النوادي. لم تكن هناك اي معابد دورية[59] في الجزء السفلي من الجرف. لكن كانت هناك حورية.

(59) دوريـة: اقـدم وابسط الطراز المعمارية الثلاثة الاغريقية، الدوري، الكورنثي، والايوني. (المترجم)

همست:

- لقد اسأت اليك الان.

- انت تثيرين حيرتي يا انسة وودراف. فأنا لا اعرف ما هو الشيء الذي تتوقعين مني و لم اعرضه عليك لمساعدتك. لكن ينبغي ان تدركي مؤكدا ان اي صداقة حميمة بيننا بغض النظر عن براءة مقاصدها، مستحيلة تماما في ظل ظروفي الراهنة.

ساد الصمت بينهما، بينما ضحك طائر في فجوة خضراء، ساخرا من صاحبي القدمين الاثنين الجامدين بعيدا من تحته.

- اكان في وسعي ان ارمي نفسي تحت رحمتك على هذا النحو لو لم اكن يائسة؟

- لا ارتاب في يأسك، لكن على الاقل اعترفي باستحالة طلبك.

ثم اردف:

- الذي لا زلت اجهل طبيعته تماما.

- ارغب في ان اقص عليك ما حدث قبل ثمانية عشر شهرا.

صمت. نظرت اليه لترى رد فعله. ومرة اخرى تصلب تشارلز في مكانه. سقطت القيود غير المرئية، وانتصر الجانب التقليدي فيه. انتصب في وقفته، مثل نصب في مواجهة صدمة مشكوك فيها، مستنكرا اياها. غير ان شيئا في عينيه ظل يبحث عن شيء ما في عينيها... عن تفسير، عن دافع. ظن انها ستتكلم اكثر، وكانت على وشك ان تسير عبر اللبلاب دون كلمة اخرى. غير انها فعلت الشيء الذي لا يمكن ان يتوقعه ابدا وعلى نحو مفاجئ تماما كأنها توقعت بما عزم عليه: جثت على ركبتيها.

اصيب تشارلز بالذعر. ودار في خلده الشيء نفسه الذي يدور في خلد من يكون منهمكا في مراقبتهما سرا. تراجع خطوة الى الوراء، كأنه يريد ان يتوارى عن الانظار. بدت هادئة على نحو غريب. لم يكن ركوعها ركوع من اصيب بهستيريا. كانت عيناها فقط اكثر حدة: عينان بلا شمس، تستحمان في ضوء القمر الابدي.

- انسة وودراف!

- اتوسل اليك. انني لست مجنونة بعد. غير انني سأجن ان لم اتلقّ العون.

- تمالكي نفسك. لو شاهدنا احد...

- انت ملاذي الاخير. انك لست قاسيا. وانا اعرف انك لست قاسيا.

تفـــرس فـــيها، واخـــتلس النظر من حوله، ثم تقدم الى الامام وساعدها في الوقـــوف علـــى قدمـــيها وسار بها، ويده المتصالبة من تحت مرفقها، تحت خيوط اللـــبلاب. وقفت قبالته ووجهها مدفون في راحتي يديها. وجاهد تشارلز من اجل الا يلمسها، جاهد بسرعة مروعة تشبه قلب الانسان عندما يهاجم العقل البشري.

- لا اريـــد ان ابدو غير مبالٍ بمتاعبك. لكن ينبغي ان تدركي انني.. انني لا املك الخيار.

فقالت بصوت خفيض متدفق:

- كـــل ما اطلبه منك هو ان نلتقي مرة اخرى وسوف أجيء الى هذا المكان بعد ظهر كل يوم ولن يشاهدنا احد.

حاول ان يعترض، الا انها لم تتوقف عن الكلام.

- انت حنون، انت تفهم ما لا يقدر على فهمه اي انسان في بلدة لايم. دعني انهي حديثي. قبل يومين اثنين اوشكت ان اصاب بمس من الجنون. وشعرت انني لا بـــد ان اراك، ان اتحدث اليك. انني اعرف محل اقامتك وكان من المقرر ان اذهب الى هناك للسؤال عنك لولا.. لولا بقية باقية من سلامة العقل اوقفتني قرب الباب.

- لكن هذا لا يغتفر. فانت الان تهددينني بالفضيحة، الا اذا كنت مخطئا.

هزت رأسها بالنفي.

- افضل ان اموت على ان تفكر فيّ على ذلك النحو. انه... لا ادري كيف اعـــبر لك عن ذلك، انني ابدو مدفوعة بدافع اليأس للتفكير في هذه الامور الرهيبة. انهـــا تمـــلأني بالرعب من نفسي. لا اعرف الى اين اتجه وماذا افعل، ليس لي احد يستطيع... الا يمكنك ان تفهم؟

كانـــت الفكرة الوحيدة التي تراود ذهن تشارلز الان هي الهروب من الورطة التي وقع فيها، من هاتين العينين المجردتين، الصادقتين على نحو موجع.

- لا بد لي من الانصراف. هناك من ينتظر في شارع برود.

-غير انك ستأتي مرة اخرى؟

- لا استطيع...

– انــــي أجيء الى هذا المكان كل يوم اثنين واربعاء وجمعة، عندما لا تكون لدي واجبات اخرى.

– ان ما توحين به هو... لا بد لي من ان اؤكد ان السيدة ترانتر...

– لم يكن في وسعي قول الحقيقة امام السيدة ترانتر.

– عندئذ ليس من المناسب تماما ان يسمع ذلك رجل غريب؛ ومن جنس غير جنسك.

– الغريب... والذي ينتمي الى الجنس الاخر... هو غالبا الحكم الاقل تحيزا.

– من المؤكد تماما انني ارغب في وضع تفسير مترفق لسلوكك. الا انه لا بد لي من القول مرة اخرى انني اجد نفسي في حيرة اذ انك...

غــــير انهـــا كانت ما تزال ترنو اليه بنظراتها، وانتهت كلماته بالصمت. ان تشارلز، كما لاحظت، يملك اكثر من مجموعة واحدة من المفردات اللغوية: فهو في حديــــثه الى ســــام في الصباح، والى ايرنستينا في اثناء الغداء البهيج، وهنا في دور الاحتـــشام المذعور... كان ثلاثة رجال مختلفين تقريبا. وسيكون هناك اخرون منه قـــبل ان ننتهـــي. وفي وسعنا ان نفسر ذلك تفسيرا احيائيا بعبارة **التلوين الخفي**، الـــبقاء على قيد الحياة بتعلم كيفية الامتزاج بالبيئة التي يعيش فيها الشخص — مع افتراضــــات المرء غير المفنَّدة بعمره أو طائفته الاجتماعية. او نستطيع ان نفسر هذا الهـــروب الى الشكلية تفسيرا سوسيولوجيا. فعندما يتزحلق المرء فوق طبقة رقيقة جدا من الجليد – ضغط اقتصادي شامل، استبداد الجنس، طوفان العلم الميكانيكي – فإن قدرته على اغماض عينيه عن تصلبه السخيف تصبح جوهرية. وهناك القليل جدا من الفكتوريين الذين اختاروا الارتياب في فضائل مثل هذا التلوين الخفي. الا ان مـــا كان يتألق في عيني سارة لم يكن كذلك. فعلى الرغم من ان نظراتها كانت صريحة، الا انها نظرة خائفة. ومع هذا، فمن ورائها يكمن تعبير حديث جدا: تعال خالـــيا مـــن الـــتلوث يا تشارلز. تعال خاليا. وقد اربكت تلك النظرة الشخص المقـــصود بها. لقد كانت ايرنستينا تتصرف هي وامثالها دوما كمن ينمو في قفص زجاجـــي: منتهـــى الرقة، حتى عندما يقذفن بكتب الشعر. كن يشحعن القناع، المسافة الامنة؛ اما هذه الفتاة، فقد حرمت ذلك من وراء المظهر المتواضع. وبدوره خفض من بصره.

– لا اطلب منك سوى ساعة واحدة من وقتك.

وراى سببا ثانيا وراء هدية القشرتين، اذ لم يكن العثور عليها في ساعة واحدة بالامر الممكن.

– اذا كان ذلك ممكنا على الرغم من ترددي الكبير...

تكهنت بفحوى كلامه وقاطعته بصوت خفيض:

– ستؤدي لي خدمة كبيرة وعندئذ سانفذ كل نصيحة ترغب في اعطائها لي.

– لا بد ان يكون مؤكدا اننا لن نواصل المجازفة في...

مـــرة ثانـــية تدخلت في اثناء توقفه القصير عندما اخذ يبحث عن الشكليات الصحيحة.

– افهم ذلك، وافهم ايضا ان لديك ارتباطات اكثر الحاحا.

تـــوارت اشعة الشمس عن الانظار بعد تألق قصير. وشرع النهار يقترب من نهايـــته الباردة. وبدا له ان الطريق الذي سلكه، الذي يتجاوز الحقل على ما يبدو، قـــد غدا شفير هاوية. عرف ذلك وهو يتفرس في رأسها المحني. انه لا يستطيع ان يقـــول مـــا هو الشيء الذي اغواه، ما هو الخلل في قراءته الخارطة. غير انه شعر بالضياع وانه في شرك. ومع ذلك، فقد التزم الان بارتكاب حماقة اخرى.

قالت:

– لا اســـتطيع ان اجد الكلمات التي اشكرك فيها. سأكون هنا في الايام التي ذكرتها لك.

ثم اضافت كأن مساحة الارض المقطوعة من الشجر هي حجرة استقبالها:

– لا ينبغي لي ان اؤخرك اكثر.

انحـــنى تشارلز لها، تردد، ثم القى اليها نظرة اخيرة متزنة واستدار. بعد مرور ثـــوانٍ قليلة، كان يقتحم ستارة اللبلاب الاخرى ويتعثر في طريق نـــزوله. وكان منظره يشبه ذكر الايل اكثر مما يشبه منظر سيد انكليزي خبير بالحياة والناس.

وصـــل الممر الرئيس في الجزء السفلي من الجرف وانطلق يحث خطاه صوب بلدة لايم. نعقت بومة مبكرة. الا ان عصر ذلك اليوم بدا لتشارلز على انه يخلو من الحكمـــة. كـــان ينبغي له ان يتخذ موقفا متصلبا اكثر، كان ينبغي له ان ينصرف مبكرا، كان ينبغي له ان يعيد القشرتين، كان ينبغي له ان يقترح – لا، بل يأمر –

بحلول اخرى ليأسها. شعر انها تفوقه حيلة ودهاء، ومال الى التوقف وانتظارها غير ان قدميه اسرعتا في السير اكثر فاكثر.

لقـــد ادرك انـــه يوشك ان يتورط في ما هو محظور او ان المحظور يوشك ان يـــتورط فـــيه. وكلمـــا ابتعد عنها اكثر، زمانا ومكانا، ادرك بوضوح اكبر حماقة تصرفه. لقد بدا كأنه اصيب بالعمى عندما كانت تقف قبالته: انه لم يرها كما هي علـــيه، امرأة خطرة كما تبدو على اوضح ما يكون تقريبا، ولا تبدو كذلك على نحو محسوس، بل رأها ضحية احباط عاطفي حاد، وازدراء اجتماعي لا شك فيه.

على الرغم من ذلك، فانه في هذا الوقت لم يفكر ابدا فيما اذا كان ينبغي ان يخـــبر ايرنـــستينا؛ كـــان يعلم انه لن يخبرها. وشعر بالخزي، كأنه سار بعيداً عن الكوب، وانطلق مبحرا الى الصين دون ان يحذرها.

19

كانـــت الضحية المتجهة الى الصين مضطرة في ذلك المساء حقا الى لعب دور المـــضيف في مفاجأة خططها هو وايرنستينا للخالة ترانتر. فقد كان من المقرر ان تـــأتي السيدتان للعشاء عنده في حجرة الجلوس في فندق وايت لاين. وقد اعد طبق من سرطان البحر الريان، وسلقت وجبة من السلمون الطازج، ونهبت اقبية الحانة، ودفـــع ذلـــك الطبيب الذي التقيناه لقاء عابرا في منـــزل السيدة بولتيني الى اقامة التوازن الصحيح بين الجنسين.

كان من اعظم الشخصيات في بلدة لايم، وكان يعد عموما صيدا ممتازا في نهر الـــزواج شأنه شأن سمك السلمون، الذي وضع امامه في تلك الليلة، في نهر اكس. وعمـــدت ايرنستينا الى مضايقة خالتها مضايقة قاسية به، متهمة تلك المرأة اللطيفة اساســـا بقسوة لا ترحم على ذلك الرجل المستوحد الذي يبني عليها الامال. لكن طالما تحمل هذا الشخص المأساوي تحملا ناجحا وحدته البائسة ستين سنة او اكثر فإن المرء قد يرتاب في هذا البناء بقدر ما يرتاب في القسوة التي لا ترحم.

كـــان الطبيب غروغان في حقيقة الامر عجوزا عازبا منذ زمن بعيد مثلما ان الخالة ترانتر عانس. ولما كان ايرلنديا، فقد كانت لديه تماما تلك القدرة الايرلندية الغريبة على مغازلة الجنس اللطيف والتملق اليه والانتقال من امرأة الى اخرى دون ان يـــسمح لقلبه بالتورط في اي منهن. كان صقرا صغيرا ساخرا، حادا، عنيفا الى حـــدّ ما في بعض المناسبات، الا انه يسهل عليه ان يتصرف تصرفا يخلو من التوتر عـــندما يكون رفاقه ملائمين لذوقه، وبهذا اضفى صراحة محببة لمجتمع لايم. فعندما يكون في صحبتك، فانك تشعر دوما انه يحوم من حولك، منتظرا الانقضاض على اي حماقة – ومع هذا، فانه اذا ما شعر بميل اليك، فذلك يكون مصحوبا دوما ايضا بفطـــنة حادة، وانسانية رجل عاش وتعلم على طريقته: ان يدع الاخرين يعيشون، واتـــصف ايضا بشيء غامض قليلا. فقد ولد كاثوليكيا: وهو في ضوء مصطلحات عصرنا لا يختلف عن شخص كان شيوعيا في ثلاثينيات القرن العشرين فهو مقبول الان، الا ان صـــفعة الـــشيطان ما تزال عليه. المؤكد انه بات الان مثل دزرائيلي،

عضوا محترما في كنيسة انكلترا والا ما كانت السيدة بولتيني لتسمح له ان يكون في حضرهما. لا بد انه كذلك لأنه بخلاف دزرائيلي كان يذهب للصلاة مختارا في كل يـــوم احد. فاحتمال ان يكون شخص ما لا مباليا – ان كان هذا هو مكان العبادة الرئيس – انما هو خداع يفوق مخيلة اهالي بلدة لايم. علاوة على ذلك، كان طبيبا جـــيدا جدا، يمتلك معرفة دقيقة باهم جوانب الطب، الا وهو مزاج مرضاه. فقد كـــان يشاكس الذين يرغبون سرا في المشاكسة، وبنفس القدر كان يبدو مزعجا، مدللا ولا مباليا حسب متطلبات الحال.

لم يحـــب احـــد في بلـــدة لايم الطعام والمشروب المفضل اللذيذين اكثر منه. ووجـــبة الطعام التي قدمها تشارلز ووايت لاين نالت استحسانه، فأخذ على عاتقه ضـــمنا القـــيام بـــدور المضيف من الرجل الاصغر سنا. لقد درس في هايدلبرغ[60] ومـــارس مهنته في لندن، وعرف العالم وما فيه من اشياء غير معقولة مثلما لا يعرفه الا الايـــرلندي الذكـــي. وهذا يعني انه حيثما خانته معرفته او ذاكرته، فإن مخيلته حاضرة دوما لملء الفراغ. لم يصدق احد ما قصصه جميعا، او لم يرغب في سماعها بدرجـــة اقل. ربما كانت الخالة ترانتر تعرفها مثلما يعرفها كل فرد في بلدة لايم، اذ كان الطبيب صديقا ودودا لها منذ زمن طويل. من المؤكد الها كانت تعلم ان كل مـــرة يرويها فيها لا تتطابق الا قليلا مع روايته لها اخر مرة. وعلى الرغم من ذلك كانـــت تـــضحك في معظم الاحيان وبشكل مبالغ فيه في بعض الاحيان حتى انني خشيت ان افكر بما قد يحدث لو ان عماد المجتمع في اعلى التل سمعها مصادفة.

كانـــت امسية من شأن تشارلز ان يستمتع فيها اعتياديا، ربما ليس على الاقل لأن الطبيب سمح لنفسه ان يكون حرا في استعمال اللغة والحقائق في بعض حكاياته وبخاصـــة عـــندما انتهـــى الامر بسمك السلمون الريان الى انقاض مهشمة وباشر الـــسادة بتناول المشروب المفضل البرتغالي، وهو امر لا ينم عن مراعاة للاصول في مجتمع ايرنستينا الذي تعلمت فيه كيف تتشرف بها. ولاحظ تشارلز ان الذعر انتابها مرة او مرتين بخلاف الخالة ترانتر. كما شعر بالحنين الى هذه الثقافة الاكثر انفتاحا لـــشبابيهما التي كان الضيفان الاكبر سنا يشعران بالسعادة عند الرجوع اليها. وفي

(60) هايدلبرغ: مدينة المانية تقع على نهر نيكار، جنوب شرق مدينة مانهايم. (المترجم)

حـــين كان يراقب عيني الطبيب العابثتين ومرح الخالة ترانتر انتابه غثيان طبيعي من زمانـــه: مـــن احتشامه الخانق، عبادته لا الالة وحدها في النقل والتصنيع، بل الالة الاشد هولا التي تنصب الان في التقاليد الاجتماعية.

قـــد تلوح هذه الموضوعية المثيرة للاعجاب ذات صلة واهية بسلوكه في وقت مبكـــر من ذلك اليوم. ان تشارلز لم يفهم المهام المطلوبة منه، بيد انه لم يكن يجهل كل الجهل تناقضه ايضا. وفكر وهو يغير وجهته صوب وجهة اخرى انه نظر نظرة جـــادة اكثر مما ينبغي الى الانسة وودراف - في تردده، اذ احاز التعبير - بدلا من العمـــل بـــلا تردد واصبح شديد التدقيق في التوافه الخاصة بايرنستينا، فهي لم تعد تـــتألم، بل تفتقر الى حيويتها الاعتيادية على الرغم من صعوبة القول فيما اذا كان ذلك بسبب الصداع النصفي او حديث الطبيب الايرلندي المتصل. على اي حال، ادرك رويدا رويدا ثانية، كما هو شأنه في اثناء الحفلة الموسيقية، انها تتصف بشيء من السطحية - ذكاؤها قائم اساسا، عقليا وتدريجيا، على لطافتها. الا يكمن وراء فطنتها المتزنة شيء من الالية، واحدة من الاليات البارعات في قصص هوفمان[61]؟

غـــير انه فكر بعد ذلك: انها طفلة بين ثلاثة بالغين - ثم ضغط على يدها من تحت المنضدة، وبدت فاتنة وهي تحمر خجلا.

اخـــيرا رافق السيدان، تشارلز الطويل القامة الشبيه الى حدّ ما بزوج الملكة[62] الـــراحل والطبيب النحيل، السيدتين الى بيتهما. كانت الساعة العاشرة والنصف، وهـــي الـــساعة التي تبدأ عندها توا الحياة الاجتماعية في لندن. اما في هذا المكان، فالبلدة غارقة في نوم عميق. وبعد ان اغلق الباب في وجهيهما الباسمين، وجدا انهما وحدهما في شارع برود.

وضع الطبيب احد اصابع يده فوق انفه.

---

(61) ارنـــست تـــيودور اماديـــوس هوفمان (1776-1822): كاتب وناقد ومؤلف موسيقي الماني اشـــتهر بقصـــصه ذات المضامين الفنتازية والظواهر الطبيعية الخارقة التي اقتبس البعض مـــنها للاوبـــرا والبالـــيه. ويذكر انه غير اسمه من ويلهلم الى اماديوس احتفاء بموزارت. (المترجم)

(62) المقصود الامير البرت (1819-1861) زوج الملكة فكتوريا ووالد الملك ادوارد السابع، وقد توفي اثر اصابته بحمى التيفوئيد. (المترجم)

– اما انت يا سيدي، فوصفتك الطبية هي شراب التودي المحلّي الذي ركبته بيدي الخبيرتين.

تظاهر تشارلز بنظرة مؤدبة تنم عن الاحتجاج.

– انهــا اوامر الطبيب، كما تعلم. فمما يبعث على السرور هو العبث، كما يقول الشاعر(63). جميل ان يرشف المرء في المكان المناسب.

ابتسم تشارلز.

– اذا وعدت ان الشراب افضل من اللاتينية عندئذ اكون بالغ السرور.

هكــذا وجــد تشارلز نفسه بعد عشر دقائق محتجبا في المكان الذي يسميه الطبيب غروغان **الكابينة**. وهو عبارة عن مكتب ذي واجهة مائلة في الطابق الثاني يطــل على الخليج الصغير الممتد بين بوابة كوب وسد الكوب نفسه؛ غرفة، على حــدّ زعــم الايــرلندي، تزداد جمالا في الصيف بخاصة عندما تفسح للناظر منها مشاهدة حوريات البحر اللواتي يأتين لاحتلال المياه. اي حالة الطف يمكن ان يجد الطبيب نفسه فيها من حالته وهو يطلب لمريضاته من الاناث ما يبعث على سروره ايضا؟ منظار غريغوري صغير من النحاس وضع فوق المنضدة في النافذة المائلة. كان لسان غروغان يتسلل على نحو شرير خارج فمه بينما يغمز بعينه.

– طبيعي انه للاستخدامات الفلكية لا اكثر.

اشرأب تشارلز بعنقه خارج النافذة، وتنشق الهواء المالح وشاهد فوق الشاطئ علــى بعد مسافة الى جهة اليمين الظلال السود المربعة لاكواخ السباحة التي تظهر مــنه حوريات البحر. غير ان الموسيقى الوحيدة القادمة من الاعماق في تلك الليلة كانت همهمة المد والجزر على الحصى، والى مسافة ابعد، كانت تتناهى الى السمع اصــوات النوارس الخشنة خافتة وهي تحط فوق الماء الساكن. وسمع من خلفه في الغرفة المنيرة بضوء المصباح الصدى الذي كان يرافق تحضير غروغان **لدوائه**. شعر انــه معلق بين عالمين اثنين، المدنية الرقيقة الدافئة من ورائه، الغموض البارد، المظلم في الخارج. كلنا يكتب الشعر، الا ان الشعراء، وحدهم الذين يكتبون بالكلمات.

---

(63) الــشاعر هــو (هــوراس 65 – 8 ق. م)، والعبارة مأخوذة من البيت الشعري «مما يبعث علــى الــسرور هو العبث في بعض الاحيان» الواردة في ديوانه (قصائد – الكتاب الرابع، الجزء 12 ص 28). (المترجم)

حـــين كان يراقب عيني الطبيب العابثتين ومرح الخالة ترانتر انتابه غثيان طبيعي من زمانـــه: مـــن احتشامه الخانق، عبادته لا الالة وحدها في النقل والتصنيع، بل الالة الاشد هولا التي تنصب الان في التقاليد الاجتماعية.

قـــد تلوح هذه الموضوعية المثيرة للاعجاب ذات صلة واهية بسلوكه في وقت مبكـــر من ذلك اليوم. ان تشارلز لم يفهم المهام المطلوبة منه، بيد انه لم يكن يجهل كل الجهل تناقضه ايضا. وفكر وهو يغير وجهته صوب وجهة اخرى انه نظر نظرة جـــادة اكثر مما ينبغي الى الانسة وودراف - في تردده، اذ اجاز التعبير - بدلا من العمـــل بـــلا تردد واصبح شديد التدقيق في التوافه الخاصة بايرنستينا، فهي لم تعد تـــتألم، بل تفتقر الى حيويتها الاعتيادية على الرغم من صعوبة القول فيما اذا كان ذلك بسبب الصداع النصفي او حديث الطبيب الايرلندي المتصل. على اي حال، ادرك رويدا رويدا ثانية، كما هو شأنه في اثناء الحفلة الموسيقية، انها تتصف بشيء من السطحية - ذكاؤها قائم اساسا، عقليا وتدريجيا، على لطافتها. الا يكمن وراء فطنتها المتزنة شيء من الالية، واحدة من الاليات البارعات في قصص هوفمان[61]؟

غـــير انه فكر بعد ذلك: انها طفلة بين ثلاثة بالغين - ثم ضغط على يدها من تحت المنضدة، وبدت فاتنة وهي تحمر خجلا.

اخـــيرا رافق السيدان، تشارلز الطويل القامة الشبيه الى حدّ ما بزوج الملكة[62] الـــراحل والطبيب النحيل، السيدتين الى بيتهما. كانت الساعة العاشرة والنصف، وهـــي الـــساعة التي تبدأ عندها توا الحياة الاجتماعية في لندن. اما في هذا المكان، فالبلدة غارقة في نوم عميق. وبعد ان اغلق الباب في وجهيهما الباسمين، وجدا انهما وحدهما في شارع برود.

وضع الطبيب احد اصابع يده فوق انفه.

---

(61) ارنـــست تـــيودور اماديـــوس هوفمان (1776-1822): كاتب وناقد ومؤلف موسيقي الماني اشـــتهر بقصـــصه ذات المضامين الفنتازية والظواهر الطبيعية الخارقة التي اقتبس البعض مـــنها للاوبـــرا والباليـــه. ويذكر انه غير اسمه من ويلهلم الى اماديوس احتفاء بموزارت. (المترجم)

(62) المقصود الامير البرت (1819-1861) زوج الملكة فكتوريا ووالد الملك ادوارد السابع، وقد توفي اثر اصابته بحمى التيفوئيد. (المترجم)

– اما انت يا سيدي، فوصفتك الطبية هي شراب التودي المحلّي الذي ركبته بيدي الخبيرتين.

تظاهر تشارلز بنظرة مؤدبة تنم عن الاحتجاج.

– انهـا اوامر الطبيب، كما تعلم. فمما يبعث على السرور هو العبث، كما يقول الشاعر[63]. جميل ان يرشف المرء في المكان المناسب.

ابتسم تشارلز.

– اذا وعدت ان الشراب افضل من اللاتينية عندئذ اكون بالغ السرور.

هكـذا وجـد تشارلز نفسه بعد عشر دقائق محتجبا في المكان الذي يسميه الطبيب غروغان **الكابينة**. وهو عبارة عن مكتب ذي واجهة مائلة في الطابق الثاني يطـل على الخليج الصغير الممتد بين بوابة كوب وسد الكوب نفسه؛ غرفة، على حـدّ زعـم الايـرلندي، تزداد جمالا في الصيف بخاصة عندما تفسح للناظر منها مشاهدة حوريات البحر اللواتي يأتين لاحتلال المياه. اي حالة الطف يمكن ان يجد الطبيب نفسه فيها من حالته وهو يطلب لمريضاته من الاناث ما يبعث على سروره ايضا؟ منظار غريغوري صغير من النحاس وضع فوق المنضدة في النافذة المائلة. كان لسان غروغان يتسلل على نحو شرير خارج فمه بينما يغمز بعينه.

– طبيعي انه للاستخدامات الفلكية لا اكثر.

اشرأب تشارلز بعنقه خارج النافذة، وتنشق الهواء المالح وشاهد فوق الشاطئ علـى بعد مسافة الى جهة اليمين الظلال السود المربعة لاكواخ السباحة التي تظهر مـنه حوريات البحر. غير ان الموسيقى الوحيدة القادمة من الاعماق في تلك الليلة كانت همهمة المد والجزر على الحصى، والى مسافة ابعد، كانت تتناهى الى السمع اصـوات النوارس الخشنة خافتة وهي تحط فوق الماء الساكن. وسمع من خلفه في الغرفة المنيرة بضوء المصباح الصدى الذي كان يرافق تحضير غروغان **لدوائه**. شعر انـه معلق بين عالمين اثنين، المدنية الرقيقة الدافئة من ورائه، الغموض البارد، المظلم في الخارج. كلنا يكتب الشعر، الا ان الشعراء، وحدهم الذين يكتبون بالكلمات.

---

(63) الـشاعر هـو (هـوراس 65 – 8 ق. م)، والعبارة مأخوذة من البيت الشعري «مما يبعث علـى الـسرور هو العبث في بعض الاحيان» الواردة في ديوانه (قصائد – الكتاب الرابع، الجزء 12 ص 28). (المترجم)

كـــان المشروب لذيذا، وسيكار الشيروت الذي رافقه مفاجأة سارة؛ وهذان الرجلان ما زالا يعيشان في عالم يشترك فيه الغرباء الاذكياء بمنظور عام من المعرفة، مجموعة متوافقة من المعلومات ومجموعة معروفة من الانظمة والمعاني المقترنة بها. اي طبيب يعرف اليوم الادب الكلاسيكي؟ اي هاوٍ يستطيع التحدث الى العلماء حديثا مفهـــوما؟ كان عالم هذين الرجلين عالما يخلو من طغيان التخصص، ولا اريد منك - ولا من الطبيب غروغان كما ستلاحظ - الخلط بين التقدم والسعادة.

لم يقـــل احدهما شيئا برهة من الزمن، وغرقا ثانية، شاكرين، في عالم الذكر الاكثر جدية، الذي اضطرتهما السيدتان والمناسبة الى مغادرته. ووجد تشارلز نفسه وقـــد تملكـــه حـــب الاســـتطلاع لمعرفة الافكار السياسية التي يؤمن بها الطبيب. وللخوض في صلب الموضوع، سأل عن التمثالين النصفيين الجاثمين ببراعة بين كتب مضيفه.

ابتـــسم الطبيب. واقتبس عبارة من فيرجيل تقول ما معناه اننا نصنع اقدارنا باختيارنا...

رد تشارلز الابتسامة.

- انني اميز بنثام[64]. اليس كذلك؟

- صحيح. اما قطعة الرخام الباروسية[65] الاخرى فهي تمثل فولتير.

- لهذا استنتج اننا ننتمي الى نفس الحزب.

سأله الطبيب:

- او يملك اي ايرلندي خيارا اخر؟

اشـــار تـــشارلز بالنفي بهزة من رأسه. ثم شرح السبب الخاص به لكونه من حزب الاحرار.

- يبدو لي ان السيد غلادستون يقر على الاقل وجود فساد جذري في اسس عصرنا الأخلاقي.

- وحق السماء، انا لست جالسا الى جوار اشتراكي. اليس كذلك؟

---

(64) جيريمـــي بنثام (1748 - 1831) فيلسوف انكليزي قال ان المتعة هي غاية الحياة الاساسية. (المترجم)

(65) الباروسية: نسبة الى جزيرة باروس اليونانية الشهيرة برخامها. (المترجم)

ضحك تشارلز.

- لست اشتراكيا حتى الان.

- لكـــن لا تنسَ ان في مستطاعي ان اغفر للانسان في عصر البخار والنفاق هذا كل شيء سوى التزمت الديني.

- اه، نعم حقا.

- كنت في شبابـــي من انصار بنثام واخرجني فولتير من روما، بينما اخرجني الثاني من معسكر طروادة. أمّا هذه الاكذوبة الجديدة - توسيع حق الانتخاب، فلا شـــأن لي بها. لا تهمني الولادة مطلقا. ان اي دوق، اي ملك، يمكن ان يكون غبيا مـــثل اي انسان اخر. شكرا لامنا الطبيعة فانا لن ابقى على قيد الحياة بعد خمسين ســـنة من الان. وعندما تبدأ الحكومة بالخوف من الغوغاء، فذلك يشبه القول انها تخاف من نفسها.

وهنا التمعت عيناه.

- اسمعـــت مـــا قاله زميلي رجل الريف لاحد الميثاقيين عند ذهابه الى دبلن للدعـــوة الى عقـــيدته؟ قال الميثاقي: «ايها الاخوة. اليس كل رجل طيبا مثل بقية الـــرجال؟» فصاح به بادي: «والله انت على حق ايها الخطيب بل افضل من ذلك قليلا».

ابتسم تشارلز، غير ان الطبيب رفع اصبعا حادة.

- انـــت تبتسم يا سميثسون، لكن اصغِ السمع - كان بادي على حق. فتلك العبارة: «بل افضل قليلا» ستكون حطام هذا البلد. تذكر ما اقوله لك الان.

- ولكن هل يتحمل هذان التمثالان اللوم؟ من الذي نادى بالسعادة للجميع؟

- لست اخالف الحكمة السائرة. بل بالطريقة التي تهتم بها. لقد دبرنا امورنا على احسن وجه بلا الممدن الحديدي، (يقصد به سكة الحديد)، عندما كنت شابا يافعـــا. انك لا تحقق السعادة للكثيرين عندما تجعلهم يركضون قبل ان يتمكنوا من المشي.

همـــس تشارلز بموافقته التي تنم عن الادب. لقد سبق له ان لمس تلك النقطة المـــوجعة نفـــسها في حديـــثه وعمـــه، وهو شخص له طبيعة سياسية مختلفة تمام الاخـــتلاف. فالكـــثيرون مـــن الذين ناضلوا من اجل لوائح الاصلاح الاولية في

ثلاثينات القرن التاسع عشر ناضلوا ضد تلك اللوائح بعد ثلاثة عقود. وشعروا ان الروح الانتهازية، الازدواجية، اصابت القرن بالبلاء، وتسببت في ظهور روح الغيرة والتمرد الخطرة. لعل الطبيب، وهو المولود في عام 1801، كان جزءا من الانسانية الاغسطسية[66]؛ اعتمد احساسه بالتقدم اعتمادا وثيقا اكثر مما ينبغي على مجتمع منظم – النظام هو السماح له بأن يكون تماما مثلما كان دوما عليه، وهو ما جعله اقرب الى بيرك[67] الليبرالي الخفي من بنثام الفاشي الخفي. غير ان جيله لم يكن مخطئا كله في شكوكه ببريطانيا الجديدة وساستها الذين ظهروا في فترة الازدهار الاقتصادي الذي استمر طويلا بعد العام 1850. ووافقهم الكثير من الشبان، المغمورين من مثل تشارلز والمشهورين من مثل ماثيو ارنولد[68]. ولم يكن غلادستون تحت ظل الخطابة النبيلة اعظم اساتذة العبارة الغامضة في التاريخ السياسي الحديث، حيث ارفع الاشياء يصعب فك مغاليقها، واسوأ الـ...؟ الا انه من الواضح ان الوقت قد حان لتغيير مجرى الحديث. وهنا سأل تشارلز الطبيب ان كان يهتم بموضوع علم الاحاثة.

– لا يا سيدي. الافضل لي ان اعترف. انا لم ارغب في افساد ذلك العشاء البهيج، غير انني، من المؤكد، من الباحثين المتخصصين في علم الوجود الحديث.

ابتسم لتشارلز وهو غارق في كرسيِّه المجنح.

– عندما نعرف اكثر عن الاحياء، يحين الوقت لملاحقة الموتى.

قبل تشارلز الاهانة، واغتنم الفرصة.

لقد قُدم لي منذ ايام نموذج من النبات المحلي يجعلني اميل قليلا الى الاتفاق معك.

توقف بدهاء.

– حالة في منتهى الغرابة، مما لا شك فيه انك تعرف عنها اكثر مما اعرف انا.

---

(66) الاغسطسية: نسبة الى اغسطس قيصر (اول امبراطور روماني) او بعصره او مميز لهما، دام حكمه من (27 ق. م –14 بعد الميلاد). (المترجم)

(67) ادموند بيرك (1729–1797): سياسي بريطاني عرف بعدائه للثورة الفرنسية. (المترجم)

(68) ماثيو ارنولد (1822–1888): شاعر وناقد انكليزي لم ينحصر نقده في الادب وحده بل تعداه الى اللاهوت والتاريخ والفن والعلوم والسياسة. اشهر كتبه مقالات في النقد والثقافة والفوضى. (المترجم)

ثم اضاف بعجالة عندما ادرك ان اسلوبه غير المباشر قد يوحي بشيء اكبر من الاهتمام الوقتي.

- اظن ان اسمها وودراف وهي تعمل عند السيدة بولتيني.

القى الطبيب نظرة الى الوعاء ذي المقبض الفضي الذي يحتوي على كأسه.

- اه، نعم. مأساة المسكينة.

- أأنا طائش؟ لعلها مريضة.

- حسنا. انني اداوي السيدة بولتيني، ولن اسمح بكلمة سوء تقال عنها.

اختلس تشارلز نظرة حذرة اليه، ولاحظ على نحو لا يقبل الجدل تألق عيني الطبيب من وراء نظاراته ذات الاطار المربع. وهنا اطرق الشاب مبتسما ابتسامة واهنة.

مد الطبيب غروغان يده لاذكاء جمرات النار.

- اننا نعرف عن المتحجرات الموجودة خارجا فوق الشاطئ اكثر مما نعرف عما يحدث في عقل تلك الفتاة. هنالك طبيب الماني ذكي قسّم مؤخرا مرض الاكتئاب الى العديد من الانواع. وقد اطلق على احد هذه الانواع الاكتئاب الطبيعي ويقصد به ان المرء يولد مكتئب المزاج. والنوع الثاني يسميه الاكتئاب المؤقت ويقصد به ان الاكتئاب يظهر نتيجة حدث ما. وهذا النمط، كما تعلم، نعاني منه جميعا في بعض الاحيان. اما الصنف الثالث فيطلق عليه الاكتئاب الغامض ويقصد به الرجل المسكين - انه لا يعرف ما هو سببه.

- لكن في حياتها حدث هام. اليس كذلك؟

- اوه، دعك من هذا التهويل. اهي اول امرأة يتخلى عنها حبيبها؟ في وسعي ان اخبرك بالعديد من امثالها هنا في بلدة لايم.

- في مثل هذا الظرف القاسي؟

- في ظرف اشد قساوة عند بعضهن، اما اليوم فتجدهن في منتهى البهجة.

- اذا انت تضع الانسة وودراف في صنف الاكتئاب الغامض؟

التزم الطبيب الصمت ثواني معدودة.

- لقد استدعيت - كل ما ساقوله امر بالغ السرية كما تفهم - لقد استدعيت لمعاينتها... قبل عشرة اشهر، استطيع ان افهم الان ما هو السبب على

الفـــور - بكـــاء دون توقف، رفض الكلام، نظرة فاحصة من حول العينين مرض الاكتئاب واضح وضوح الحصبة. عرفت قصتها. واعرف اسرة تالبوت، اذ كانت تعمل مربية لديهم عندئذ، واعتقد - حسنا ان السبب واضح، لأن ستة اسابيع، بل ســـتة ايـــام في بـــيت مارلـــبورو تكفي لأن تحول العاقل الى مجنون. فيما بيننا يا سميثسون، انا رجل وثني عجوز. واتمنى لو اشاهد ذلك القصر وقد آل الى حطام بما في ذلك صاحبه. ولتحل علي اللعنة اذا لم ارقص على أنقاضه.

- اظنني سأنضم اليك.

- لن نكون وحدنا.

كرع الطبيب محتويات كأسه من شراب التودي بقوة.

- ســـتخرج البلدة عن بكرة ابيها، لكن لن يكون هذا هنا ولا في اي مكان اخر. لقد فعلت ما في وسعي من اجل الفتاة، غير انني وجدت علاجا واحدا.

- ابعادها عن المكان.

اومأ الطبيب ايماءة متحمسة.

- بعـــد مـــضي اسبوعين، كان غروغان عائدا الى بيته عصر يوم ما، فشاهد الفـــتاة تسير صوب الكوب. فطلب منها الدخول، اتحدث اليها، انني رقيق ازاءها كأنهـــا ابـــنة اختي الاثيرة. غير ان الامر يشبه القفز فوق سور ارتفاعه عشرة اقدام (ثلاثـــة أمـــتار). ليست مستعدة يا سميثسون. ليست مستعدة. لم يكن الكلام هو الشيء الوحيد الذي جربته معها، اذ لدي صديق في اكستر يعيش وزوجته السعيدة واطفاله الاربعة الذين يشبهون الملائكة. وكان في ذلك الوقت يبحث له عن مربية وقد اخبرتها بأمره.

- الا انها لم تتحرك.

- ولا بوصـــة واحدة (سنتيمتران ونصف). هكذا هي القضية كما ترى. ان السيدة تالبوت حمامة وديعة، وتفضل ان تعود الفتاة اليها في بادئ الامر. غير انها لم تـــذهب، وآثـــرت الذهاب الى بيت تعلم انه بائس تماما، الى سيدة لم تعرف ابدا الفـــرق بين الخادم والعبد، الى مكان يشبه وسادة من الشوك. وها هي الان ترفض الرحيل. لن تصدق هذا يا سميثسون، لكن في وسعك ان تمنح الفتاة عرش انكلترا - والف جنيه الا انها ستهز رأسها.

– غير انني... احد هذا الامر عصيا على الفهم. ان الشيء الذي قلت لي الان انها رفضته هو الشيء نفسه الذي فكّرنا فيه. فوالدة ايرنستينا...

– ستضيع وقتها يا عزيزي مع عظيم احترامي للسيدة.

ابتـــسم ابتسامة كالحة لتشارلز، ثم توقف لملء كأسيهما من دورق المشروب الموضوع فوق الحاجز الحديدي في جانب الموقد.

– غـــير ان الدكتور هارتمان الطيب يصف حالات مماثلة الى حدّ ما. ويقول عن احـــدى هذه الحالات قولا مثيرا الان. انها قضية ارملة، اذا لم تخني الذاكرة، ارملة شابة في ويمـــار توفي زوجها الضابط في سلاح الخيالة في حادث مؤسف في اثناء التدريبات. هـــناك خطـــوط متوازية كما ترى. لبست المرأة ثوب الحداد، وحزنت حزنا شديدا. حـــسنا جدا. شيء متوقع. لكن حزنها استمر دون توقف يا سميثسون سنة بعد اخرى. ولم تـــسمح باجراء اي تغير في البيت. ملابس الرجل المتوفى لا تزال معلقة في الخزانة، وغيلونه فوق كرسيّه المفضل، حتى بعض الرسائل التي وصلت اليه بعد وفاته. هناك...

وهنا اشار الطبيب الى الظلال من وراء تشارلز.

– هناك فوق الطبق الفضي نفسه. لم يفتحها احد، اصفر لونها سنة بعد اخرى.

توقف هنيهة وابتسم لتشارلز.

– ان اصـــدافك المتحجـــرة لا تحتوي على اسرار كهذه. لكن هذا ما يقوله هارتمان.

وقف الى جانب تشارلز ووجه كلماته اليه واصبعه يشير اليه:

– بـــدا الامر كان المرأة اصبحت مدمنة على الاكتئاب مثلما يصبح امرؤ ما مدمنا على الافيون. اتفهم الان كيف هي؟ لقد اصبح حزنها سعادتها. وهي تريد ان تكـــون ضحية يُضحى بها يا سميثسون. وحيثما ارتد انا وانت الى الوراء تراها تقفز الى امام. إنها ممسوسة.

وهنا جلس مرة اخرى.

– انها غامضة حقا. في منتهى الغموض.

خيم الصمت على الرجلين، والقى تشارلز عقب سيكارة الشيروت في النار، فتوهجت في لحظة واحدة. واكتشف انه لا يملك الشجاعة للنظر الى الطبيب عندما سأله السؤال التالي.

- ألم تخبر احدا بحالتها العقلية؟

- مـــن المـــؤكد ان اقرب صديقاتها هي السيدة تالبوت. غير ان هذه السيدة تقـــول لي ان الفـــتاة تلتزم الصمت ازاءها ايضا. وانا اكذب على نفسي، بيد انني اخفقت مؤكدا.

- واذا مـــا.. لنقل انها سوف تحمل نفسها على البوح بمشاعرها التي تخفيها لشخص اخر حنون...

- عندئذ ستشفى. غير انها لا تريد الشفاء. المسألة بسيطة كأنها ترفض تناول الدواء.

- لكن لنفترض انك في مثل هذه الحالة...

- كيف ترغم النفس ايها الشاب؟ افي وسعك ان تخبرني؟

هز تشارلز كتفيه مشيرا الى عجزه.

- من المؤكد انك لا تستطيع. وسأخبرك بشيء ما. الافضل البقاء على هذه الحالة، لأن التفاهم لا ينشأ عن الانتهاك.

- اذا هي حالة ميؤوس منها؟

- بـــالمعنى الذي تقصده؟ نعم. اذ ليس في وسع الدواء فعل اي شيء. يجب علـــيك الا تظـــن انهـــا تشبهنا نحن الرجال، قادرة على التفكير بوضوح، تفحص دوافعهـــا، وتفهـــم لماذا تتصرف على النحو الذي تتصرف به. يجب على المرء ان يـــراها كأنهـــا في ضباب. وكل ما في وسعنا عمله هو الانتظار والامل في انقشاع الضباب. وعندئذ ربما...

وهنا سكت. غير انه اضاف بلا امل،

- ربما

في تلك اللحظة نفسها، كانت حجرة نوم سارة يلفها صمت اسود يخيم على بـــيت مارلـــبورو. كانت تغط في النوم، ملتفتة الى الجهة اليمنى، وشعرها الفاحم يغطـــي وجهها حتى يكاد يخفيه. مرة اخرى، في وسعك ان تلاحظ مدى سكون ملامحها وخلوها من العنصر المأساوي: فهي امرأة شابة، مفعمة بالصحة والعافية في الـــسادسة او السابعة والعشرين. تدلى ذراعها من فوق ملاءة السرير، اذ كان الليل هادئا والنوافذ مغلقة... اقول تدلى ذراعها واستراح فوق جسد اخر.

لــيس رجــلا. فتاة في التاسعة عشرة او ما يقرب من ذلك كانت نائمة هي الاخرى ومولية ظهرها سارة، بل هو قريب جدا منها، اذ كان السرير غير مخصص لشخصين اثنين على الرغم من اتساعه.

لا بــد ان فكــرة مــا مرت في ذهنك: غير انك تنسى اننا في العام 1867. لنفترض ان السيدة بولتيني وقفت فجأة قرب الباب وبيدها مصباح وشاهدت هذين الجسدين الرقيقين مضطجعين معا عن قرب. لعلك ستتخيل الها ستنتفخ، مثل بطة سوداء غاضبة، لتنفجر وتصب لعنالها الغاضبة. كما ترى، ان الفتاتين لا ترتديان الا قميصين يرثى لهما كأهما القي هما من بوابات حجر الصوان.

حسنا، ستكون على خطا تماما، اذ لما كانت السيدة بولتيني تتناول الافيون كــل ليلة كما نعلم، فانه غير مرجح ان توضع الحالة موضع الاختبار. لكن اذا وقفــت في ذلــك المكان على اي حال، فمن المؤكد ان تستدير وتتوارى عن الانظــار - الاكثــر من هذا، ربما ستعمد الى غلق الباب بمنتهى الهدوء حتى لا توقظ النائمتين.

غير مفهوم؟ ان بعض الرذائل كانت انذاك من الغرابة بحيث لم تكن موجودة اصلا. وانا اشك فيما اذا كانت السيدة بولتيني قد سمعت بكلمة **سحاقية**، ولو الها قــد سمعــتها، فإلها ستكون مبتدئة بحرف كبير وتشير الى احدى الجزر في اليونان. يــضاف الى ذلــك، ان الحقيقة الراسخة عندها رسوخ دوران العالم او حقيقة ان اســقف اكستر هو الدكتور فيلبوتس هي ان النساء لا يشعرن بالمتعة الجسدية. من المــؤكد الها كانت تعلم ان النوع الرخيص من النساء يستمتع على ما يبدو بنمط معــين مــن ملاطفــة الذكر مثل تلك القبلة الشاذة التي رأها تطبع ذات مرة على وجــنتي مــاري، غير ان مثل هذه الامور كانت تعدها نتاج زهو الانثى وضعف الانثى. اما البغايا فكن موجودات مثلما توجد اكثر اعمال السيدة كوتون الصالحة والمعــروفة. الا ان تفــسير ذلــك يتلخص في الهن مخلوقات بلغن درجة كبيرة من الحــرمان حتى تغلبن على نفور المرأة الموروث من الجسد في لذته سعيا وراء المال. وقــد كــان ذلك حقا افتراضها الاول فيما يخص ماري. فكما يبدو واضحا على الاغلب، فإن الفتاة كانت عبارة عن بغي في دور التكوين طالما الها قهقهت بعد ان الحق ها صبــي الاصطبل اذى جسديا.

لكـــن مـــا هي دوافع سارة؟ لقد كانت، شأنها شأن سيدتها، تجهل موضوع السحاق، الا انها لم تشارك السيدة بولتيني ذعرها من الجسد. فقد كانت تعلم، او تـــشك على الاقل، ان هناك متعة جسدية في الحب. وعلى الرغم من ذلك، فانني اعـــتقد انها بريئة. لقد بدأت نومها هذا وميلي حالا بعد انهيار الفتاة المسكينة قبالة الـــسيدة بولتـــيني. واوصى الطبيب غروغان بنقلها من مهجع الخادمات الى غرفة مـــضيئة اكثر. وصادف وجود حجرة طويلة غير مستخدمة للبس مجاورة لغرفة نوم ســـارة، فوضعت فيها ميلي. واخذت سارة على عاتقها الكثير من الرعاية الخاصة الـــتي كانت تحتاج اليها الفتاة المصابة بفقر الدم. كانت ابنة فلاح، الرابعة بين احد عشر طفلا عاشوا مع والديهم في فقر مدقع يصعب وصفه، وكان البيت عبارة عن كوخ رطب، ضعيف، بغرفتين، في واحد من تلك الوديان التي تبدأ غربا من منطقة ايغـــاردون الكئيبة. وهناك مهندس معماري شاب من لندن يملك المنطقة ويأتي الى هـــناك لقضاء عطلات نهاية الاسبوع، وهو يحب المنطقة حبا جما لأنها منطقة ريفية رائعـــة ولعل هذا يطرد الاهوال الفكتورية التي كان تحدث هناك. ارجو ذلك. ان تلك الرؤى الخاصة بالعامل الريفي السعيد وتاملاته التي ابدعها جورج مورلاند[69] وامـــثاله - كـــان بيركـــيت فوستر من أكبر المجرمين في عام 1867 - تمثل انفلاتا عاطفيا سخيفا مؤذيا، ولهذا السبب كانت عبارة عن طمس للحقيقة يشبه ما تفعله افـــلام هولـــيوود لحياتـــنا الحقيقية. ان نظرة واحدة الى ميلي واشقائها وشقيقاتها العشرة البائسين من شأنها ان تحرق اسطورة الفلاح السعيد وتحيلها الى رماد، الا ان القليلين جدا هم الذين القوا مثل تلك النظرة. فكل عصر، كل عصر مذنب، يشيد اســـوارا عالية من حول قصره. وانا شخصيا اكره هذه الاسوار اشد الكره عندما يشيدها الادب والفنّ.

ذات ليلة، سمعت سارة الفتاة وهي تبكي. فذهبت الى غرفتها وطمأنتها وهو امـــر لـــيس بالعسير لأن ميلي كانت طفلة في كل شيء باستثناء سنينها، فهي لا تعـــرف القراءة او الكتابة ولا تستطيع الحكم على غيرها من البشر المحيطين بها الا قلـــيلا. اذا ما لاطفتها، فهمت قصدك - اما اذا رفستها، فتلك هي الحياة. كانت

(69) جورج مورلاند (1763-1804): رسام انكليزي اشتهر برسم المناظر الطبيعية والحيوانات، تعرضت اعماله واسلوبه للتقليد اوائل القرن التاسع عشر. (المترجم)

ليلة باردة قاسية، و لم تفعل سارة شيئا سوى ان انسلت في الفراش واحتوت الفتاة بين ذراعيها وقبلتها وربَّت على كتفيها. لقد كانت ميلي في رأيها اشبه بحمل من تلك الحملان المريضة التي غالبا ما ربتها على يديها قبل ان تبعد طموحات والدها الاجتماعية مثل تلك الاجراءات الفلاحية عن طريقة عيشهم. ويعلم الله ان التشبيه ينطبق على ابنة الفلاح.

من ذلك الوقت فصاعدا، كان الحمل يأتي مرتين او ثلاث مرات في الاسبوع ويبدو فريسة الأسى والشقاء. وكانت تنام نوما سيئا، اسوأ من سارة التي كانت تأوي الى فراشها للنوم وحيدة أحيانا لتستيقظ فجرا لمرأى الفتاة الى جانبها – وكانت ميلي تنسل في مكانها على نحو خنوع، لطيف في ساعة منتصف الليل التي لا تحتمل. لقد كانت الفتاة المسكينة تخشى الظلام، ولولا سارة لكانت قد طلبت اعادتها الى المهجع في الطابق العلوي.

كانت هذه العلاقة الرقيقة صامتة. قلما تجاذبتا اطراف الحديث، واذا ما تحدثا فإن حديثهما يكون عن اتفه الامور المنزلية. وكانت الاثنتان تعلمان ان وجودهما المشترك، الدافئ والصامت في الظلام هو الاكثر اهمية. لا بد من شيء جنسي يشوب مشاعرهما؟ ربما. الا انهما لم تخرجا عن حدود اختين. مما لا ريب فيه ان هزة الجماع السحاقية موجودة في محيط اخر هنا وهناك، بين اكثر فقراء المدن وحشية، في اكثر الاوساط الارستقراطية تحررا. الا اننا نستطيع ان نعزو هذه المظاهر الفكتورية الشائعة جدا للنساء وهن يستسلمن للنوم معا الى الجهل البائس المدمر للرجل المعاصر اكثر مما يعزى الى دوافع اكثر اثارة للريبة. يضاف الى ذلك، اليس التقارب في مثل ينابيع الوحدة هذه تقاربا انسانيا اكثر مما هو انحراف؟

اذا، لنترك هاتين الفتاتين البريئتين نائمتين، ولنعد الى ذينك الرجلين الاكثر عقلانية، الاكثر ثقافة، الرجلين النبيلين السائرين قرب البحر.

عاد سيدا الابداع ثانية من موضوع الانسة وودراف والاستعارتين المزدوجتي الحافة في ما يخص الضباب الى موضوع علم الاحاثة الاقل اهاما.

قال تشارلز:

– يجب ان تعترف ان اكتشافات ليل تكتسب ما هو اكثر من الاهمية الحقيقية. واعتقد ان رجال الدين كانت لديهم معركة هائلة تحت اشرافهم.

ارجـــو ان تـــسمحوا لي بالتدخل هنا لأقول ان ليل كان الاب الروحي لعلم طبقات الارض الحديث. الا ان العالم الطبيعي الفرنسي العظيم نفسه لم يتجرأ على دفـــع اصـــل العالم الى زمن يزيد عن 75.000 سنة خلت. اما كتاب ليل الموسوم (مـــبادئ علـــم طـــبقات الارض) الصادر بين 1830-1833 واقترن اقترانا بارعا بالاصلاح في اماكن اخرى - فقد ارجع اصل العالم الى ملايين السنين. وقد نسي اسمـــه هذا الى حدّ بعيد، الا انه ظل اسما مهما، اذ وهب العصر والعديد من العلماء في مـــيادين اخـــرى المدة الزمنية ذات المغزى الاعظم. وهبت اكتشافاته مثل ريح عاتـــية، تـــبعث الـــبرودة الـــشديدة في اوصال الجبناء، والقوة والنشاط في نفوس الشجعان من خلال دهاليز القرن الميتافيزيقية البالية. لكن يجب ان تتذكر ان العصر الـــذي اكـــتب عنه لم يسمع فيه الا القليل من الناس عن رائعة ليل والقليل صدقوا نظرياته، واقل من ذلك قبلوا كل ما فيها من مضامين. كما ان الرحم الذي عمره ستة الاف سنة اشد دفئا من الرحم الذي يمتد الى الفي مليون سنة.

لهذا السبب كان تشارلز راغبا في معرفة ما اذا كان الطبيب غروغان سيؤكد عـــناياته المفرطة بعلماء اللاهوت او ينبذها. الا ان الطبيب كان غير ودود، اذ ظل يتفرس في النار وهمس:

- وهو كذلك.

خيم صمت قصير، قطعه تشارلز مصادفة كأنه يريد استمرار الحديث:

...

- انت محق تماما. اعتذر.

نظر اليه الطبيب القصير القامة شزرا.

- كـــان غـــوس في هذا المكان قبل بضع سنوات بصحبة واحدة من النساء المثقفات اللواتي

يلتقطن الحلازين البحرية. اقرأت كتابه النقطة المركزية.

ابتسم تشارلز.

- وجدته كتابا في منتهى السخف.

وهـــنا ابتسم غروغان بدوره ابتسامة كئيبة بعد ان وضعه في اختبار ايجابـــي وسلبـــي معا.

- اخبرته بما يفوق ذلك عند نهاية محاضرته هنا. هه! لم افعل ذلك حسب.

سمح الطبيب لمنخريه الايرلنديين ان يشما الهواء.

- اظـــن ذلك احد اكياس الريح المتمسكة بالدين التي تفكر مليا قبل ان تهب على هذا الجانب من سواحل دورسيت ثانية.

تفرس في تشارلز بحنان اكبر.

- دارويني؟

- تماما.

عـــند ذاك امسك غروغان يده وتشبث بها، كأنه كروسو في حين ان تشارلز هـــو الـــرجل جمعة. وربما مر بهما شيء لا يشبه تماما ما مر دون وعي بين الفتاتين النائمتين على بعد نصف ميل. كانا يعلمان انهما اشبه بحبتي خميرة في بحر من عجين كسول؛ حبتي ملح في وعاء كبير من حساء خالٍ من النكهة.

بـــدا الشخـــصان المـــتماثلان الان جولة جديدة من الشراب - او لم يرغب الـــصبـــي في اعمـــاق الرجل دوما الى اللعب في مجمعات سرية؟ اشعلت سيكارتا شيروت جديدتان، وتلا ذلك احتفال مطول... في وسع المرء ان يفكر انهما اصبحا متواضـــعين بفعـــل الحقائق الجديدة الكبيرة التي كانا يناقشانها. الا انني اخشى ان المـــزاج لدى كل واحد منهما - ولدى تشارلز بخاصة، عندما سار في النهاية عائدا الى البـــيت في الـــساعات الاولى من الصباح - كان يتمثل بالاحساس بالتفوق، بالسمو العقلي فوق بقية البشر.

كانـــت بلدة لايم المظلمة كتلة من البشر الاعتيادي، غارقة في نوم سحيق لا ريب فيه، في حين كان تشارلز المنتخب انتخابا طبيعيا (المفعول المطلق ينطوي على كـــلا المعنيين) شخصا متوقد الذكاء، يسير يقظا، حرا مثل احد الالهة، مع النجوم الساهرة، فاهما كل شيء.

كل شيء سوى سارة.

20

هل الله والطبيعة، اذا، في حالة صراع،
كي تسترسل الطبيعة بمثل هذه الاحلام الشريرة؟
حريصة على النوع تبدو،
مهملة لفردية الحياة...

تينيسون: احياء لذكرى... 1850

لشار الطبيب الخاص بجون كيندي وهو يجثو على ركبتيه الى تنورتها الفاضحة بيد مرتعشة وتساءل باستحياء: «ضماد اخر؟» فقالت هامسة همسا متقدا: «لا، دعهم يرون الهول».

وليم مانشستر: موت الرئيس كيندي

وقفت وقفة مائلة في الضلال قرب النهاية الثانية لنفق اللبلاب. لم تنظر من حولها، فقد شاهدته وهو يصعد نحوها من بين اشجار الدردار. كان النهار مشرقا، مشبع بالزرقة، والنسمة دافئة، جنوبية غربية. فخرجت اسراب فراشات الربيع، الفراش الكبريتي، الفراش البرتقالي، الفراش الابيض المعرّق بلون اخضر الذي وجدناه مؤخرا لا يتفق والارباح الزراعية الكبيرة مما اقتضى تسميمه حتى اوشك على الانقراض، خرجت كلها ترقص مع تشارلز على امتداد طريقه المار بحقل مصنع الالبان وفي خلال الغابة. وفي هذه اللحظة حلقت فراشة كبريتية اللون، متألقة، في فسحة الارض المضيئة وراء شبح سارة المعتم.

توقف تشارلز هنيهة قبل ان يتوغل في الظل الاخضر الغامق تحت اللبلاب، ونظر من حوله نظرة شريرة كي يتأكد من ان احدا لم يره غير ان اشجار الدردار العظيمة امتدت باغصانها التي لا تزال عارية من فوق الغابة المهجورة.

لم تلتفت حتى اقترب منها، وحتى في تلك اللحظة لم تنظر اليه، بل عبثت، عوضا عن ذلك، في محتويات جيب معطفها وناولته صامتة، مسبلة الجفنين، قشرة اخرى كأنها مقدمة على سبيل التكفير. فأخذها تشارلز غير ان حرجها كان معديا.

– يجب ان تسمحي لي ان ادفع لهذه القشور الثمن نفسه الذي يتعين عليّ دفعه في دكان الانسة انينغ.

واذ ذاك رفعت رأسها، والتقت عيونهما اخيرا. وشعر انه قد الحق بها اهانة. مرة اخرى، مر به ذلك الاحساس الذي يتعذر تفسيره، الاحساس انه طعن برمح، انه قصر عن بلوغ الهدف، انه قد خذلها. الا ان هذا الاحساس اعاده هذه المرة الى رشده، اي، الى الموقف الذي وطد العزم على اتخاذه. فهذا اللقاء جرى بعد يومين من احداث الفصول الاخيرة. فقد اثمرت ملاحظة الطبيب غروغان الصغيرة بشأن الاولوية النسبية التي تضفى على الموتى والاحياء. وشاهد تشارلز الان سببا علميا وانسانيا ايضا لمغامرته، اذ كان صريحا بما فيه الكفاية كي يقر امام نفسه ان هذه المغامرة تنطوي على عنصر المتعة رغم انها غير لائقة. اما الان فقد اكتشف عنصرا واضحا من عناصر الواجب. انه كان ينتمي بلا شك الى فئة الاصلح، الا ان الانسان الاصلح لا يملك مسؤولية محددة اقل ازاء الاقل صلاحا.

لقد فكّر ثانية في الكشف عما دار بينه وبين الانسة وودراف لايرنستينا؛ لكن، واأسفاه، لقد توقع توقعا حيا انها قد تطرح اسئلة انثوية سخيفة، اسئلة لا يستطيع الاجابة عنها اجابة صادقة دون التوغل في مياه خطرة. وسرعان ما قرر ان ايرنستينا لا تملك الجنس ولا التجربة كي تفهم عنصر حب الغيرة في دوافعه. وهكذا اهمل على نحو مريح ذلك المظهر الاقل جاذبية في واجبه.

لهذا تفادى نظرة سارة المنطوية على الاتهام.

– انني ثري مصادفة، وانت فقيرة مصادفة. لذا اعتقد ان علينا الا نسرف في اتباع قواعد السلوك المهذب الصارمة.

كانت هذه هي خطته في الواقع: ان يعطف على سارة وان يقيم بينه وبينها مسافة، ان يذكرها باختلاف موقعيهما تذكيرا قليلا وبمفارقة تخلو من الادعاء.

– هذا كل ما املك كي اهبه لك.

– لا يوجد اي سبب يدفعك الى اعطائي اي شيء.

– لقد اتيت.

وجد تواضعها مثيرا للقلق مثل كبريائها.

– لقد اتيت لانني اقنعت نفسي ان بك حاجة الى المساعدة. وعلى الرغم من انني ما زلت لا افهم لم يتعين عليك ان تضفي شرفا علي بحثّي على الاشتراك في...

هنا تلعثم، اذ اوشك ان يتفوه بكلمة **قضيتك** التي كان من شأنها ان تدل على انه يلعب دور الطبيب اضافة الى دور السيد المهذب.

– في مأزقــك، فقد اتيت وانا مستعد لأن اصغي للاشياء التي تتمنين مني... اليس كذلك؟ سماعها.

رفعت بصرها اليه ثانية، واحس ان ذلك يشبع كبرياءه. ثم اشارت بخوف الى ضوء الشمس.

اعرف مكانا منعزل على مقربة من هنا. افي وسعنا الذهاب الى هناك؟

ابــدى رغبته فتقدمت نحو المكان المشمس وتجاوزت فسحة الارض الصخرية الــتي كــان تشارلز يفتش فيها عندما صادفته اول مرة. سارت بخفة وثقة بعد ان رفعــت تــنورتها بضع بوصات (سنتيمترات) باحدى يديها بينما امسكت بيدها الاخــرى اشــرطة قبعــتها الــسوداء. لاحظ تشارلز وهو يسير من ورائها مخدر الاحاســيس الرتوق في كعبــي جوربيها السوداويين، مؤخر حذائها البالي والبريق الاحمــر في شعرها الداكن. وفكر انه شعر جميل عندما يكون سبطا، غزيرا ووفيرا. وعلــى الــرغم من انه مثبت باحكام داخل ياقة معطفها فقد تساءل فيما اذا كان الزهو هو الذي جعلها غالبا ما تحمل القبعة بيدها.

تقــدمت في الطــريق صوب نفق اخضر اخر، وعند نهايته وصلا الى منحدر اخــضر حــيث انهار منذ زمن سحيق وجه الجرف. وقد ساعدت كتل الاعشاب النامية على توفير موضع قدم، وسارت برفق وعلى نحو ملتوٍ صوب القمة. وشاهد وهــو يجهد في سيره من ورائها الجزء الاسفل ذا الحافة البيضاء من سروالها التحتي الذي كان يصل فوق كاحليها بمسافة قليلة.

انتظــرت ســارة في مكانها كي يلحق بها تشارلز. فسار من ورائها ثم على امــتداد قمــة الجرف. فظهرت الارض وهي تنحدر انحدارا شديدا الى جرف اخر مــسافة مــئة ياردو (91 مترا) من فوقهما. لقد كانت هذه هي **السلالم** العظيمة الغائــرة التي يمكن مشاهدتها من منطقة الكوب على بعد ميلين. وقد اوصلهما هذا الحاجــز الى كتف اشد انحدارا، وبدا لتشارلز انه ذو زاوية خطرة؛ زلة قدم وعندئذ

مـــا هي الا بضع خطوات قليلة حتى يجد المرء نفسه قد انـــزلق عاجزا فوق حافة الجـــرف مـــن تحـــته. لو كان وحده لتردد. غير ان سارة مرت فوق ذلك الكتف واجتازته كأنها لا تدرك الخطر. وفي الجهة البعيدة من الكتف بدت الارض مستوية بضع ياردات (أمتار)، وهناك كان يكمن مكانها المنعزل.

كـــان المكـــان وهدة صغيرة في مواجهة الجنوب، تحيط بها اجمات كثيفة من العليق والنباتات الاخرى، نوع من الارض المنبسطة الخضراء الدقيقة. وكانت بعض الاشـــواك المتوقفة عن النمو قد نمت صوب الجزء الخلفي من الساحة، اذا كان في وسع المرء ان يستعمل ذلك المصطلح المكاني الذي لا تتجاوز مساحته خمسة عشر قـــدما (4.5 متر) وحيث قام شخص ما - واضحٌ انه ليس سارة - ذات يوم برفع كـــتلة ضخمة ذات قمة مسطحة من الصوان ازاء جذع الشجرة، فاصبحت بذلك عرشا ريفيا يطل على مشهد رائع من قمم الاشجار الى الاسفل والبحر من ورائها. نظر تشارلز من حوله متقطع الانفاس قليلا وهو ببدلته ذات النسيج الصوفي الناعم وقـــد تـــصبب مـــنه القليل من العرق. كانت حافات الوهدة مغطاة بزهور الربيع والبنفـــسج والـــنجوم البيض للفراولة البرية. كان منظرها ساحرا، محمية من كل الجهات، وهي ترفرف في السماء، تغمرها شمس ما بعد الظهيرة.

- يجب عليّ ان اهنئك. انت نابغة في ايجاد الاوكار.

- في ايجاد العزلة.

منحته المقعد الحجري القائم تحت شجرة الشوك الصغيرة.

- انني واثق ان هذا هو مقعدك.

الا انهـــا استدارت، وجلست على نحو متعجل ورشيق على احد جنبيها فوق رابـــية تبعد مسافة بضعة اقدام (أمتار) قبالة الشجرة، وهكذا اصبحت في مواجهة البحـــر؛ وهكـــذا ايضا اصبح وجهها مخفيا نصفه عن انظار تشارلز الذي اكتشف ذلـــك عـــندما احتل المقعد الافضل، كان عليه بدافع من غنجها البارع ان يلاحظ شـــعرها. جلست منتصبة، غير ان رأسها ظل محنيا وانهمكت في تعديل قبعتها على نحـــو غير محتمل. راقبها تشارلز وهو يفكر في ابتسامة ما في ذهنه ان لم تكن على شـــفتيه. واستطاع ان يدرك انها كانت في حالة من الضياع، لا تعرف كيف تبدأ. الا ان الموقـــف كـــان على الرغم من ذلك في الهواء الطلق اكثر مما ينبغي، مفعما

بالشباب على نحو غير رسمي، كأنهما صبـــي واخته بسبب الشكلانية الخجول التي كانت تظهرها.

وضعت القبعة جانبا، وارخت معطفها، وجلست مطوية الذراعين. غير انها ما زالـــت ملتـــزمة الصمت. ثمة شيء يوحي بالرجولة في ياقة معطفها العالية وطريقة تفصيله وبخاصة من جهة الظهر – يمنحها مسحة حوذي فتاة، امرأة مجندة – مسحة لا اكثـــر وهـــي مسحة يناقضها الشعر بسهولة. ادرك تشارلز بشيء من الدهشة كيف ان الملابس المهلهلة لم تحط من قدرها، بل كانت تناسبها على نحو ما، اكثر مـــن الملابـــس الاكثر جمالا. لقد شهدت السنوات الخمس الاخيرة تحررا كبيرا في ازيـــاء النساء، على الاقل في لندن. فأول الاشياء الاصطناعية المساعدة في تضخيم شكل الصدر بدأت تسود على نحو شائع. وكانت الرموش والجفون تلون، والشفاه تـــدهن، والـــشعر يـــصبغ، عند اكثر النساء المتأنقات، لا عند النساء المشبوهات حـــسب. اما سارة، فلم يكن عندها شيء من هذا كله. بدت غير مهتمة بالازياء، وظلـــت على قيد الحياة على الرغم من كل ذلك مثلما نجت زهور الربيع البسيطة قرب قدمي تشارلز من كل من ينافسها من نباتات الظل الدخيلة.

وهكذا جلس تشارلز ساكنا، مهيبا الى حدّ ما، بوجود هذه المتضرعة القريبة قرب قدميه، لا يميل الى مساعدتها اكثر مما ينبغي بيد انها ظلت ملتزمة الصمت. ربما سبب ذلك تواضع مشوب بالخوف، غير انه اخذ يدرك ادراكا واضحا ان التحدي الذي فرضته عليه هو ان ينتزع السر من اعماقها، وفي نهاية المطاف استسلم.

– انـــي امقت الفسوق يا انسة وودراف. كما امقت على نحو اشد الاخلاق ان خلت من الرحمة. واني اقطع عهدا لك بألا اكون حكما مغاليا في قسوته.

حـــركت رأسها قليلا، الا انها ظلت مترددة. ثم انطلقت في اعترافها على نحو مفاجئ يشبه احد السابحين المترددين وهو يحوم من حول الحافة.

– كان اسمه فارغون، وقد أُحضر الى دار القبطان تالبوت بعد تحطم سفينته. وغرق الجميع باستثناء شخصين اثنين. لكنك تعرف ذلك؟

– الظرف لا اكثر. كما انني لا اعرف شيئا عنه.

– كان اول شيء اثار اعجابـــي فيه هو شجاعته. ولم اعرف في ذلك الوقت ان الرجال يمكن ان يكونوا في منتهى الشجاعة وفي منتهى الزيف معا.

أمعنت النظر في البحر كأنه هو الذي يصغي لها لا تشارلز الجالس من خلفها.

- كان جرحه مروعا، وجسده ممزقا من الحوض الى ركبته. ولو حصلت الغنغرينا لفقد ساقه. لقد تعذب عذابا شديدا في الايام الاولى، الا انه لم يبكِ ابدا. لم تصدر عنه اي اهة. وعندما وضع الطبيب الضماد على جرحه كان يتشبث بيدي بقوة هائلة حتى اوشكت على الاغماء ذات يوم.

- ألم يتكلم الانكليزية؟

- كلمات قليلة. لم تكن معرفة السيدة تالبوت بالفرنسية افضل من معرفته هو بالانكليزية. وقد استدعي القبطان تالبوت لمهمة ما خارجا بعد وصوله اولا. واخبرنا انه من مدينة بوردو وكان والده محاميا ثريا، تزوج مرة اخرى، واحتال على اطفال زوجته الاولى فيما يخص الميراث، فخرج فارغون الى البحر يعمل في تجارة المشروب المفضل، وعندما تحطمت سفينته كان برتبة ملازم اول، على حدّ قوله. الا ان كل ما قاله كان كذبا في كذب. فانا لا اعرف من هو حقا. كان يبدو سيدا نبيلا، هذا كل ما هناك.

تكلمت مثل شخص لم يألف التعبير البارع، اذ كانت تتوقف وقفات صغيرة غريبة اثر كل جملة سريعة، مترددة، لا تعرف هل تسمح لنفسها الاسترسال في الحديث او تترك له حرية مقاطعتها، وهذا امر لم يعرفه تشارلز.

همس:

- افهم ذلك.

- أحيانا اعتقد ان لا علاقة له بتحطم السفينة. كان شيطانا في صورة بحار.

القت نظرة الى يديها.

- كان رجلا وسيما جدا. لم يسبق لي ان قابلت شخصا اولاني اهتماما كاهتمامه؛ انني اتحدث عنه في فترة شفائه. لم يملك وقتا لقراءة الكتب، فكان اسوأ من طفل صغير. لا بد انه تحدث مع الناس من حوله وكان هؤلاء يصغون له. اخبرني باشياء سخيفة عن نفسي. مثلا انه لا يفهم لماذا انا غير متزوجة. اشياء كهذه. وقد صدقته.

- باختصار، هل شرع في مغازلتك؟

- يجب ان تفهم اننا تحدثنا دوما بالفرنسية. لعل ما كان يدور بيننا من حديث لم يبدُ حقيقيا تماما لي لهذا السبب. لم يسبق لي الذهاب الى فرنسا، ومعرفتي بلغة التخاطب ليست جيدة. في الكثير من الاحيان لم افهم كل الفهم ما كان يقوله. ليس الذنب ذنبه كله. لعلي سمعت ما لم يكن يقصده هو. كان يسخر مني، الا ان ذلك لم يكن لينطوي على اي اهانة.

ترددت لحظة.

- اني... استمتعت بذلك. كان يصفني بالقسوة عندما لا ادعه يقبل يدي. وقد جاء اليوم الذي اعتقدت فيه انني قاسية حقا.

- نعم.

حلق غراب قريبا من فوق رأسيهما. وكان ريشه الاسود يلمع متألقا منسحبا بتردد وسط النسمة قبل ان يتوارى عن الانظار في ذعر مفاجئ.

- افهم ذلك.

لم يقصد بعبارته هذه شيئا سوى تشجيعها على مواصلة الكلام، الا انها حملت عبارته محمل الجد.

- لا استطيع ذلك يا سيد سميثسون، لانك لست امرأة، لانك لست امرأة ولدت كي تكون زوجة فلاح غير انها درست كي تكون شيئا اخر... افضل. لقد عرض عليّ الزواج مرات كثيرة. عندما كنت في بلدة دورتشستر كان هناك احد رعاة الماشية الاثرياء... لكن هذا ليس بالموضوع. انت لم تولد امرأة تملك الاحترام الطبيعي وحب الذكاء والجمال والمعرفة.. لا اعرف كيف اعبر عن ذلك، ليس عندي الحق في الرغبة في هذه الاشياء، غير ان قلبي يتوق لها ولا يمكن ان اصدق ان كل ذلك زهو...

صمتت برهة.

- كما انك لست مربية يا سيد سميثسون، لست امرأة شابة بلا اطفال يدفع لها المال لرعاية الاطفال. وانت لا تعلم انه كلما ازدادت رقتهم صعب احتمال العذاب. يجب الا تظن انني اتحدث حديثا ينم عن الحسد. لقد احببت بول وفرجينيا الصغيرين، ولا اشعر ازاء السيدة تالبوت الا بالعرفان والحب، انني مستعدة للموت

مـــن اجلـــها او مـــن اجل طفليها. لكن ان تعيش كل يوم وسط مشاهد السعادة البيتية، اقرب مشاهد على الزواج السعيد، البيت، الاطفال المحبوبين...

توقفت هنيهة.

- السيدة تالبوت في مثل سني تماما.

توقفت ثانية.

- بـــدا يلـــوح لي كأنـــه سمح لي العيش في الفردوس، ولكنني حرمت من الاستمتاع بها.

- او ليس الحرمان الذي تصفينه نشترك فيه جميعا بطرق مختلفة؟

هـــزت رأسها بالنفي وبحماس يبعث على الدهشة، فادرك انه مس عواطف دفينة في اعماقها.

- لم اقـــصد ســـوى الايمـــان ان الامتـــياز الاجتماعي لا يحقق السعادة بالضرورة.

- ليس ثمة شبه بين حالة تكون فيها السعادة في الاقل ممكنة وحالة تكون...

مرة اخرى هزت راسها.

- الا انك لا تستطيعين الزعم مؤكدا ان كل المربيات غير سعيدات، او يبقين دون زواج.

- كلهن يشبهنني.

صمت قليلا، ثم قال:

- لقد قاطعت قصتك. فاغفري لي.

- وهل ستصدق انني لا اتحدث حديثا نابعا من الحسد؟

التفـــتت بعـــد ذلك وظهرت عيناها الحادتان في حين أوما هو. ثم استأنفت كلامهـــا بعـــد ان قطفت بعض النباتات الصغيرة من الحافة المجاورة لها، والزهور الزرقاء الشبيهة بأعضاء تناسلية دقيقة لاطفال صغار.

- تماثـــل فارغون للشفاء. وقد حدث هذا في خلال اسبوع واحد من الوقت المحدد لرحيله. وعندئذ كان قد اعلن ارتباطه بـــي.

- اطلب منك الزواج؟

وجدت صعوبة في الاجابة.

– كـــان هناك حديث يدور عن الزواج. واخبرني انه سيرقى الى رتبة قبطان سفينة... عندما يقفل راجعا الى فرنسا، وانه ينتظر استعادة الميراث الذي اضاعه هو واخوه.

ترددت، ثم افصحت قائلة.

– لقد تمنى ان اذهب معه الى فرنسا.

أكانت السيدة تالبوت مدركة هذا الامر؟

– انها امرأة بالغة الحنان، في منتهى البراءة. لو كان القبطان تالبوت موجودا هناك... الا انه لم يكن موجودا. كنت اخجل من اخبارها في اول الامر، وخائفة في النهاية.

ثم اضافت:

– خائفة من النصيحة التي كنت اعلم انها ستقدمها لي.

في هذه اللحظة، بدأت تنـــزع عن النبات اوراقه.

– بـــدا فارغـــون يلح. وجعلني اصدق ان كل سعادته تعتمد على مرافقتي له عند رحيله – والاكثر من هذا، ان سعادتي تعتمد على ذلك ايضا. لقد استطاع ان يعـــرف الشيء الكثير عني، كيف توفي ابـــي في مستشفى الامراض العقلية، كيف انني بلا موارد مالية، بلا اقرباء. كيف انني ظللت اشعر سنوات طويلة، وعلى نحو غامض، انني محكوم عليّ بالعزلة دون ان اعرف سببا الى ذلك.

وضعت النبتة الى جانبها، واطبقت اصابعها فوق حضنها.

– لقـــد تشبعت حياتي بالوحدة يا سيد سميثسون كأنما قدّر عليَّ الا اعقد اي صداقة مع ند، الا اسكن في بيت هو بيتي، الا ارى العالم باستثناء انه مبدأ عام وانا الاستثناء. قبل اربعة اعوام، اشهر افلاس والدي، وبيعت كل ممتلكاتنا. ومنذ ذلك الوقت وانا اعاني من الوهم بأن كل شيء – الكراسي، المناضد، المرايا – يتآمر كي يـــزيد من وطأة عزلتي. كانت تلك الاشياء تقول لي: لن يتسنى لك امتلاكنا، لن نكون ملكك، بل ملك شخص اخر دوما. اعلم ان هذا هو الجنون بعينه، اعلم ان الفقـــر والعـــزلة في المدن الصناعية موجودان، مقارنة بما اعيشه في جو من الراحة والـــرفاهية. الا انـــني عـــندما اقرأ عن اعمال الانتقام الوحشية التي قام بها اعضاء النقابات العمالية فإن جزءا مني يفهم، بل يغار منهم في الغالب لأنهم كانوا يعرفون اين وكيف يوجهون انتقامهم، اما انا فعاجزة.

وبدأ شيء ما ينتاب صوتها، قوة مشاعر انكرت عليها جزئيا جملتها الاخيرة، واضافت بهدوء اكبر:

– اخشى انني لا اعبر عن نفسي تعبيرا واضحا.

– لست واثقا ان في مستطاعي ان اتغاضى عن مشاعرك، الا انني افهمها تمام الفهم.

– سافر فارغون ليلحق بسفينة ويماوث، وظنت السيدة تالبوت انه حتما سيلحق بها حال وصوله هناك. غير انه اخبرني انه سينتظرني حتى انضم اليه. لم اقطع له اي وعد. بل على العكس من ذلك، اقسمت له ان... غير انني كنت غارقة في البكاء. واخيرا قال انه سينتظرني اسبوعا واحدا. اخبرته انني لن الحق به ابدا. لكن ما ان مر يوم وتلاه يوم ثانٍ، ولم يعد موجودا كي اتحدث معه، اجتاحني مرة اخرى ذلك الاحساس بالعزلة الذي تحدثت عنه توا. شعرت انني سأغرق فيه، بل اسوأ من ذلك بكثير، لقد تركت سارية تبتعد بعيدا عني في حين كان يمكن ان تنقذني. لقد قهرني اليأس، يأس ازدادت الامه بالام اخرى كان ينبغي لي ان اخفيها. وعند حلول اليوم الخامس، لم اعد استطيع تحمل ما هو اكثر من ذلك.

– غير انني اعتقد ان هذا لم يطرق سمع السيدة تالبوت. الم يثر ذلك شكوكك؟ قلما يكون هذا السلوك من صفات رجل ذي اغراض شريفة.

– اعلم يا سيد سميثسون ان حماقتي، جهلي بأخلاقه الحقيقية، لا بد ان تبدو لمن هو غريب عن طبيعتي وظروفي في ذلك الوقت عظيمة بحيث لا تكون إلا جريمة. انا لا استطيع اخفاء ذلك. ربما كنت اعرف ذلك دوما. من المؤكد ان خللا عميقا في روحي كان يريد من نفسي الاعظم ان تبقى جاهلة. وعند ذاك بدأنا بالخداع. ان مثل هذا الطريق يصعب ارتقاؤه ثانية بعد ان يتورط فيه المرء.

ربما كان ذلك تحذيرا لتشارلز، الا انه كان مستغرقا في التفكير في قصتها حتى نسي التفكير في نفسه.

– ذهبت الى ويماوث؟

– خدعت السيدة تالبوت بقصة صديقة من ايام المدرسة مرضت مرضا شديدا وصدقت انني ساذهب الى شيربورن. وتتطلب كلتا هاتين الرحلتين المرور بدورتشستر. وما ان وصلت هناك حتى سافرت الى ويماوث.

وهنا صمتت سارة، واحنت رأسها كأنها لم تعد تستطيع مواصلة حديثها.

- انت في غنى عن التفاصيل يا انسة وودراف. ففي ميسوري ان احمن...

هزت رأسها بالنفي.

- وصلت الى الحادثة التي لا بد من سردها، غير انني لا اعرف كيف ارويها.

اطـــرق تشارلز بدوره. في تلك الاثناء، كان هناك طائر غير مرئي في احدى اشـــجار الدردار العملاقة يغرد بصوت جميل تحت هدوء السماء الزرقاء. وفي نهاية المطاف استأنفت حكايتها.

- عثـــرت على نـــزل قرب الميناء. ثم قصدت الحانة التي ذكر انه سيقيم في احـــدى غرفها، فلم اعثر عليه. غير ان رسالة كانت في انتظاري وفيها يخبرني عن عـــنوان حانـــة اخـــرى. فذهبت الى هناك. لم يكن المكان... جديرا بالاحترام. واخـــبروني عن مكان غرفته وتوقعوا ان اذهب اليه، بيد اني الححت في طلبه، فما كـــان منه الا ان حضر. وبدا فرحا كثيرا لرؤيتي. وهو ما ينبغي ان يكون عليه اي عاشـــق. واعتذر عن تواضع المكان وقال انه ارخص من المكان الاول وان البحارة والـــتجار الفرنـــسيين غالـــبا ما يلجأون اليه. كنت مذعورة وكان هو في منتهى اللطف. لم اكن قد تناولت اي طعام في ذلك اليوم ووجدت ان لديه طعاما جاهزا.

ترددت ثم اضافت:

- كانـــت غـــرفة الاستراحة شديدة الضوضاء، لهذا قصدنا حجرة الجلوس. عـــرفت انه قد تغير لكنني لا استطيع ان اخبرك بكيفية ذلك. وعلى الرغم من انه كـــان مجـــاملا الى ابعد حد، يفيض بالابتسام والملاطفة، فإنني ادركت انني لو لم احضر اليه لما انتابته الدهشة او الحزن الطويل. وعرفت بعد ذلك انني كنت له مجرد تـــسلية في اثـــناء فترة نقاهته. وسقط القناع امام عيني. وعرفت انه غير مخلص... كذاب. وادركت ان الزواج به من شأنه ان يكون زواجا بمغامر تافه. ادركت كل هذه الامور في الدقائق الخمس الاول من ذلك اللقاء.

وهـــنا توقفت عن الكلام كأنها سمعت مرارة التأنيب الذاتي وهي تزحف الى صوتها ثانية. غير انها اردفت بصوت خفيض.

- ربمـــا تتساءل كيف انني لم ادرك ذلك من قبل. اعتقد انني ادركت ذلك. غـــير ان ادراك الـــشيء لا يشبه الاقرار بوجوده. اعتقد انه كان يشبه الى حدّ ما

الـــسحلية التي تغير من الوانها حسب مقتضيات بيئتها. فقد كان يبدو سيدا مهذبا تماما في بيت السيد المهذب. اما في تلك الحانة، فقد شاهدته على حقيقته، وعرفت ان لونه هناك طبيعي اكثر من بقية الالوان.

تفرست في البحر لحظة وخيل لتشارلز ان حمرة اشد غمرت وجنتيها، الا انها ادارت رأسها بعيدا.

- في مـــثل هــــذه الظروف، اعلم ان... ان سيدة محترمة كان من شأنها ان تنصرف على الفور. لقد نقبت في اعماق نفسي الف مرة منذ ذلك اللقاء. وكل ما عثرت عليه هو ان اي تفسير لسلوكي لا يكفي. في اول الامر، احسست كأنني قد تجمدت من الذعر عندما ادركت غلطتي - وعلى الرغم من فظاعة تلك الغلطة... إنـــني حاولـــت ان اعثر على الفضيلة فيه، القدرة على احترامه، الشرف. ثم انتابني نوع من الغضب الجامح لأنه خدعني. وقلت لنفسي لو انني لم اتعذب كثيرا بسبب الـــوحدة الـــتي يصعب احتمالها في الماضي لما اصبحت جاهلة الى ذلك الحد. لهذا الـــسبب القيت اللوم على الظروف بسبب حالتي. لم يسبق لي ان مررت بمثل هذه الحالـــة. لم يسبق لي ان دخلت مثل تلك الحانة، حيث اللياقة بدت مجهولة وعبادة الخطيـــئة امرا اعتياديا مثل عبادة الفضيلة في مكان اكثر نبلا. لا استطيع ان اشرح لــــك. كان عقلي مشوشا. اعتقدت انني مدينة لنفسي كي اظهر سيدة قدري. لقد هربت الى ذلك الانسان. لا بد ان يبدو التواضع المبالغ فيه غير معقول... زهوا.

توقفت هنيهة.

- مكـــثت وايـــاه. تناولت العشاء الذي قدمه لي وشربت المشروب المفضل الـــذي الح عليّ في شربه. لم اشعر بالنشوة. اعتقد انه جعلني ارى بوضوح اكبر... اهذا ممكن؟

التفـــتت على نحو لا يمكن ادراكه طمعا في الاجابة؛ كان من الجائز ان يكون قـــد اختفى وانها تريد ان تتاكد - رغم انها لم تستطع ان تنظر - انه لم يتوارَ عن الانظار في الهواء الرقيق.

- بلا ريب.

- بـــدا لي ان ذلـــك يمنحني القوة والشجاعة، علاوة على الفهم. انها ليست وسيلة الشيطان. وجاء الوقت الذي لم يعد يستطيع فيه فارغون اخفاء طبيعة اهدافه

الحقيقية نحوي، كما لم استطع انا ايضا التظاهر بالدهشة. كانت براءتي مزيفة منذ اللحظـــة الـــتي اختـــرت فيها البقاء واياه. انني لا ابغي الدفاع عن نفسي يا سيد سميثسون. اعرف تمام المعرفة انه كان في مستطاعي الرحيل حتى بعد ان اغلق الباب وراء الخادمة التي رفعت بقايا طعام العشاء. في وسعي ان اتظاهر امامك انه غلبني، خـــدرني... حسبما تشاء. الا ان الامر ليس كذلك. كان رجلا لا يعرف التردد، رجـــل النـــزوات، رجل الانانية المفرطة. غير انه ما كان ليقدم على انتهاك حرمة امرأة دون رغبة منها.

وهـــنا التفتت التفاتة كاملة لتنظر الى تشارلز في لحظة غير متوقعة ابدا. كانت محمـــرة الـــوجه، الا ان ذلـــك الاحمرار بدا له نتيجة شيء من الحماس، الغضب، الـــتحدي اكثـــر مما هو نتيجة الحرج؛ كأنها تقف عارية قبالته، الا انها مزهوة على الرغم من ذلك.

- استسلمت له.

واذ ذاك لم يستطع احتمال عينيها واطرق وهو يومئ ايماءة صغيرة.

- ادرك ذلك.

- وهكذا تجدني امرأة ملوثة السمعة مرتين: بالظروف والاختيار.

خيم الصمت عليهما مرة اخرى ثم نظرت الى البحر. همس:

- لم اطلب منك ان تقصي عليّ هذه الامور.

- ان الـــشيء الـــذي اطلب منك ان تفهمه يا سيد سميثسون ليس هو انني ارتكـــبت هـــذا العمل الشائن، بل لِمَ ارتكبته؟ لماذا ضحيت بأغلى ما تملكه المرأة مقابل امتنان زائل من رجل لم احبه؟

رفعت يديها صوب خديها.

- لقـــد فعلت ذلك كي لا اظل على ما انا عليه ابدا. فعلت ذلك كي يشير الناس الي، كي يقولوا ها هي امرأة الضابط الفرنسي - اوه، نعم. دع هذه الكلمة تقال على الافواه، كي يعلموا انني قد تعذبت، واتعذب مثلما يتعذب الاخرون في كـــل مدينة وقرية وعلى وجه الارض. لم يكن في وسعي ان اتزوج ذلك الرجل. لذلك تزوجت العار. لا اقصد انني كنت اعلم بما فعلت، لقد تركت فارغون يملي ارادتـــه عليّ عن عمد. ولاح لي الامر انذاك وكأنني ارمي بنفسي من فوق جرف

عـــالٍ او انني اغمد سكينا في فؤادي. انه نوع من الانتحار. عمل من اعمال اليأس يـــا سيد سميثسون. اعرف انه عمل شرير... كافر، الا انني لم اكن اعرف وسيلة اخـــرى تخــرجني من حالي. لو انني خرجت من الحجرة وعدت الى بيت السيدة تالبوت واستانفت حياتي السابقة لأصبحت ميتة الان حقا... وبيدي انا. ان الشيء الذي ابقاني على قيد الحياة هو عاري، معرفتي انني حقا لست مثل اي امرأة اخرى. فأنا لن يكون لي اطفال او زوج او سعادة بريئة كالتي تمتلكها الاخريات. كما لن يفهمن سبب جريمتي.

توقفت هنيهة كأنها ادركت ما قالته هي نفسها بوضوح اول مرة.

- أحيانا ارثي لهن. اعتقد انني املك حرية لا يفهمنها. لا تستطيع اي اهانة، اي تأنـــيب ان يؤذيني، لانني وضعت نفسي خارج نطاق الحظيرة. انا لا شيء، لم اعد انسانا. انا امرأة الضابط الفرنسي.

ادرك تـــشارلز ادراكـــا ناقصا تماما ما كانت تحاول قوله في خطبتها الطويلة الاخـــيرة. لقـــد شعر بعطف اكبر مما اظهره حقا ازاء سلوكها حتى لحظة قرارها الغـــريب في ويماوث. في وسعه ان يتصور العذاب البطيء الذي مرت به في حياتها وهي مربية والسهولة التي سقطت فيها في براثن وغد مقبول ظاهريا مثل فارغون. الا انـــه وجد هذا الحديث عن الحرية خارج النطاق المقبول والزواج من العارِ غير مفهـــوم. الا انه على الرغم من ذلك فهمه على نحو ما لأن سارة شرعت بالبكاء عندما اقتربت من نهاية تبرئتها. اخفت بكاءها او حاولت اخفاءه. اي انها لم تضع وجهها بين راحتي كفيها و لم تخرج منديلا ما، بل جلست واشاحت وجهها جانبا. و لم يتضح سبب صمتها الحقيقي لتشارلز اول الامر.

الا انه بدافع غريزي نهض واقفا على قدميه وسار خطوتين وهو صامت فوق الارض المكـــسوة بالاعـــشاب حتى يستطيع رؤية وجهها من الجانب. لاحظ ان وجنتـــيها مبللـــتان، وشعر انه متاثر تاثرا لا يحتمل، مضطرب، تحدق به من جميع الجوانب متاهة من تيارات متلاطمة وانه قد انجرف على نحو ميؤوس منه بعيدا عن مرفأ العاطفة الامين، الحكيم والحصيف. وشاهد المشهد الذي لم تفصله في حديثها: استـــسلامها. كان في الوقت ذاته فارغون الذي يستمتع بها، والرجل الذي قفز الى امـــام وطـــرحه ارضـــا، تماما مثلما كانت سارة بالنسبة إليه ضحية بريئة وامرأة

وحـــشية، مهجـــورة. في اعمـــاق نفسه الدفينة غفر لها افتقارها إلى العفة ولاحظ الظلال القائمة حيث كان من شأنه ان يستمتع بها.

ان هـــذا التحول المفاجئ في النغمة الجنسية مستحيل اليوم. فما ان يكون الرجل والمـــرأة هذه الايام في اي اتصال عابر حتى تجدهما يفكران في العلاقة الجسدية. ونعتبر مـــثل هـــذه الصراحة حول الدوافع الحقيقية للسلوك الانساني ظاهرة صحية، غير ان العقـــول الخاصـــة في زمن تشارلز لم تعترف بالرغبات التي يحرمها العقل العام. وعندما تقفز هذه النمور الكامنة على الوعي يكون غير مستعد لها على نحو مثير للسخرية.

ثم هـــناك تلك الخاصية المصرية الغريبة بين الفكتوريين: حب الاماكن المغلقة حـــبا شـــديدا، اذ نجده ممثلا تمثيلا واضحا في ثيابهم الموميائية الملفوفة، طراز بنائهم المتميز بضيق النوافذ وضيق الممرات، خوفهم من الكشف والعري. اخفِ الحقيقة، اغلـــق الباب من وراء الطبيعة. لقد كانت حركة الفنّ الثوري في عهد تشارلز هي حـــركة ما قبل الرافائيلية[72] مؤكدا. كان افرادها يبذلون على الاقل محاولة لادخال الطبيعة والجنس، الا ان علينا ان نقارن لا اكثر بين الجذور الرعوية لواحد من مثل ميلـــيه[73] او فـــورد مادوكس براون[74] بتلك الجذور الموجودة عند واحد من مثل كونـــستابل[75] او بالمر[76] كي نرى كيف ان المذكورين اولا كانا مثاليين، يمتلكان

---

(72) ما قبل الرافائيلية: حركة فنية تأسست في انكلترا عام 1848 على يد مجموعة فنانين بهدف بعث المبادئ والممارسات الفنية التي عدت مميزة للفن الايطالي مثل رافائيل (رافئيلوسانتي 1483 – 1520) وكانت اعمال هذه المجموعة ذات موضوعات حسية وتفاصيل معقدة يكثر فيها استعمال الالوان البراقة. (المترجم)

(73) سير جون ايفريت ميليه (1829–1896): رسام انكليزي وعضو مؤسس في جماعة الاخوة مـــا قـــبل الـــرافائيلية. ازدهر عطاؤه الفني في خمسينيات القرن التاسع عشر وانجز اعظم لوحاته الفتاة العمياء في 1856. (المترجم)

(74) فـــورد مادوكس براون (1821–1893): رسام انكليزي تنحو اعماله منحى الرسامين ما قبل الرافائيليين. (المترجم)

(75) جـــون كونـــستابل (1776– 1837): رسام انكليزي يعد هو والرسام تيرنر اشهر الرسامين الانكليز الذين برعوا في تجسيد المناظر الطبيعية والريفية في القرن التاسع عشر. تخطيطاته الزيتية افضل اعماله. (المترجم)

(76) صـــموئيل بالمر (1805–1881): رسام انكليزي شجعه الرسام والشاعر وليم بليك على ان ينحو منحى رؤيويا صوفيا في الرسم كما شجعه والده على الرسم ايضا. اهتم اهتماما كبيرا برسم اللوحات ذات الموضوعات الدينية والرؤيوية. (المترجم)

وعيا بالديكور في مقتربهما من الواقع الخارجي. وهكذا، فإن صراحة اعتراف سارة - الصريح بخصيصته وتحت نور الشمس - بدا كأنه يعطي صورة عن عالم مثالي اكثر ممـــا هو عرض واقع حاد. لم يكن غريبا لأنه اكثر واقعية، بل لأنه اقل واقعية؛ عالم اسطوري يكون فيه الجمال العاري المجرد اكثر اهمية من الحقيقة العارية.

تفـــرس تشارلز فيها لحظات قصيرة خلسة، ثم استدار وعاد الى مقعده، وقلبه يـــدق كأنه عاد توا من حافة الهاوية. برزت في البحر البعيد، فوق الافق الجنوبـــي كتل من سحب نائية. امتدت الابراج والمتاريس البيض والصفر والجليدية مثل قمم عظـــيمة في سلـــسلة جبلية تمتد على مرمى البصر. الا انها بعيدة - بعيدة بعد دير تيلـــيم[77]، بعـــد ارض بـــلا خاطئات، انشودة رعوية تصيب المرء بالحذر في وسع تشارلز وسارة وايرنستينا ان يتيهوا فيها...

لا اقـــصد ان افكـــار تشارلز كانت افكارا محددة، غير ان السحب البعيدة ذكـــرته باســـتيائه؛ كم تمنى لو استطاع الابحار ثانية في البحر التيراني[78] او ركوب جواد، والشذى المسفوع بالحرارة في منخريه، صوب اسوار ابلا[79] او الاقتراب من احـــد المعابد الاغريقية تحت اشعة الشمس الوهاجة في بحر ايجة. الا انه شاهد نفسه انذاك شبحا، ظلا قاتما، شقيقته الراحلة، تتحرك امامه، بخفة وغواية، فوق السلالم المشيدة من حجر مربع منحوت، وتتجه صوب لغز الاعمدة المحطمة.

(77) تيلـــيم: ديـــر تخـــيله الكاتب الفرنسي (فرانسوا رابليه 1483-1553) الذي جمع بين الطب والادب والتربية. (المترجم)

(78) البحـــر التيرانـــي: من متفرعات البحر الابيض المتوسط، تحده جزيرتا كورسيكا وسردينيا غربا وشبه الجزيرة الايطالية وصقلية في الشرق والجنوب الشرقي يتصل في الشمال بالبحر الليغوري. اهم جزره البا. (المترجم)

(79) ابـــلا: عاصـــمة مقاطعة ابلا (قشتالة القديمة) الاسبانية تشتهر بسورها وكاتدرائيتها القوطية التي بدا البناء فيها حوالي العام 1091 كما تشتهر الان بصناعة المشروبات الغازية وطحن الحبوب وللدباغة ومنتجات اللحوم. (المترجم)

21

سامحيني! سامحيني!
اه يا مرغريت، بسرور
ستمتد هاتان الذراعان لتمسكا ذراعيك: –
لكن انظري، بلا طائل.

في الفراغ الممتد صوبك
ذراعاي الملتويتان في جبيرة
لكن بحرا يجري بيننا –
ماضينا المختلف.

ماثيو ارنولد: فراق (1853)

دقـــيقة صـــمت. ثم اظهرت بحركة صغيرة من رأسها الها استعادت وعيها، والتفتت قليلا.

– اني وسعي ان الهي قصتي؟ هناك موضوع قصير اود ان اضيفه.

– ارجو الا تزعجي نفسك.

احنت رأسها ووعدته ثم استانفت حديثها.

– رحـــل في الـــيوم الـــتالي. كانت هناك سفينة. وكانت لديه مبررات. صعوبات تمر بها اسرته. وبقاؤه طويلا بعيدا عن الوطن. قال لي انه سيعود على الفـــور. كنت اعرف انه كاذب، الا انني لم اقل شيئا. ربما تعتقد انه كان يتعين عليّ الرجوع الى السيدة تالبوت والتظاهر انني كنت حقا في شيربورن. غير انني لم اســـتطع اخفاء مشاعري يا سيد سميثسون. كنت في صدمة من اليأس وكان يكفي المرء ان يلقي نظرة واحدة الى وجهي فيعرف ان حدثا يغير مجرى الحياة قـــد وقع في اثناء غيابـــي. ولم اتمكن من الكذب على السيدة تالبوت لانني لم ارغب في الكذب.

– اذا اخبرتها بما ذكرته الان لي؟

نظرت الى يديها.

– لا. اخـــبرتها انـــني التقيت فارغون، وانه سيعود ذات يوم كي يتزوجني. تكلمت واياها على ذلك النحو... لا بدافع الكبرياء. وكانت السيدة تالبوت امرأة حنون استطاعت ان تفهم الحقيقة – اقصد ان تغفر لي – الا انني لم استطع اخبارها ان سعادتها هي التي دفعتني الى حدّ ما.

– متى عرفت انه متزوج؟

– بعـــد شهر واحد. اوضح لي انه زوج لا يعرف السعادة. وعلى الرغم من ذلـــك كـــان يـــتحدث عن الحب، عن ترتيبات... لم تكن صدمة. لم اشعر بأي عـــذاب. بـــل اجبته دون ان اغضب. قلت له انني لم اعد املك اي عاطفة ازاءه، وانني تمنيت الا اراه ثانية.

– واخفيت ذلك كله عن الجميع باستثناء نفسي؟

انتظرت وقتا طويلا قبل ان ترد:

– نعم. للسبب الذي ذكرته لك.

– ان تعاقبـــي نفسك؟

– ان اكون ما يجب ان اكون. منبوذة.

تذكر تشارلز رد فعل الطبيب غروغان الطبيعي لقلقه ازاءها.

– لكـــن يا عزيزتي الانسة وودراف، لو ان كل امرأة خدعها شخص عديم الضمير من بني جنسي تصرفت مثلما تصرفت انت – فانني اخشى ان تمتلئ البلاد بالمنبوذات.

– انها مليئة.

– ذعك من هذا التهويل. غير معقول.

– ان المنبوذات يخشين ان يبدو عليهن ذلك.

القـــى نظرة فاحصة الى ظهرها، وتذكر شيئا اخر سبق للطبيب غروغان ان تفـــوه به – عن مريضات رفضن تناول الدواء. الا انه عزم على بذل محاولة واحدة اخرى. مال الى الامام شابكا يديه.

– استطيع ان افهم فهما جيدا جدا كيف ان بعض الظروف البائسة تبدو لـــشخص مـــثقف وذكـــي. لكـــن الا تكفي هاتان الخاصيتان لمساعدة المرء كي ينتصر...

وهنا نهضت واقفة فجأة، وسارت صوب حافة الجرف. اسرع تشارلز نحوها ووقف الى جنبها وهو على اتم الاستعداد للامساك بذراعها - اذ رأى ان كلماته الشخصية غير المؤثرة كان لها تأثير معاكس لذلك تماما. امعنت النظر في البحر، وأوحى له شيء ما في تركيبة وجهها انها شعرت بانها ارتكبت غلطة، انه تافه، انه مستحدث في مؤتمر. كان ثمة شيء ذكري يشوب مظهرها. وشعر تشارلز انه امرأة عجوز ولم يعجبه ذلك الشعور.

- سامحيني. ربما اطرح اسئلة كثيرة، غير ان قصدي سليم.

اطرقت، معترفة باعتذار ضمني، الا انها استأنفت نظراتها العميقة صوب البحر. لقد اصبح الاثنان مكشوفين الان، ويستطيع اي شخص قرب الأشجار في الأسفل رؤيتهما.

- كما ارجو ان تعودي قليلا الى الوراء. فالمكان غير آمن هنا.

التفتت ونظرت اليه. مرة اخرى كان هناك نوع من التغلغل في اعماق دوافعه الحقيقية التي كانت مكشوفة على نحو مربك. اننا نستطيع أحيانا ان نميز النظرات التي ترتسم على وجه معاصر وعمرها قرن من الزمن. غير ان ايا من مثل هذه النظرات ليس في وسعها ان تتحقق. مرت لحظة واحدة، ثم سارت من امامه، وعادت الى الشوك. اما هو فقد وقف في منتصف الساحة الصغيرة.

- ان ما ذكرته لي يؤكد مشاعري السابقة. لا بد لك من الرحيل عن بلدة لايم.

- لو رحلت عن هذا المكان لتركت عاري، واذ ذاك اجدني ضائعة.

مدت يدها، ولمست غصن زعرور بري. لم يكن متأكدا مما كانت تفعله، غير انها بدت وهي تضغط عمدا سبابتها فوق الشوك. وبعد ثانية واحدة كانت تحدق الى قطرة دم قرمزية. نظرت اليها برهة، ثم اخرجت منديلا من جيبها ومسحت بقعة الدم خفية.

ظل تشارلز صامتا فترة قصيرة ثم باغتها:

- لماذا رفضت مساعدة الطبيب غروغان في الصيف الماضي؟

ومضت عيناها وهي تنظر نظرة اتهام، الا انه كان مستعدا لرد الفعل ذاك.

- نعم لقد سألته عن رأيه. ليس في مستطاعتك ان تنكري ان لدي الحق في ذلك.

اشاحت وجهها ثانية.

- نعم. لديك الحق.

- اذا ينبغي لك ان تردي على سؤالي.

- لانني لم اشأ الذهاب اليه طلبا للمساعدة. لا اقصد ان لدي شيئا ضده. فانا اعرف انه كان يرغب في المساعدة.

- وهل لمْ تكن نصيحته مثل نصيحتي؟

- نعم.

- اذا، لا بد لي من ان اذكرك، مع شديد احترامي لك، بوعدك.

لم تـــرد عليه. وكان في ذلك الجواب. تقدم تشارلز بضع خطوات الى حيث كانت تقف محدقة الى اغصان الشوك.

- انسة وودراف؟

- انك تعرف الحقيقة الان - الا زلت تقدم تلك النصيحة؟

- بلا شك.

- وعندئذ تغفر لي خطيئتي؟

باغتت تشارلز بسؤالها هذا.

- انـــت تـــضعين قـــيمة كـــبيرة لغفراني. الشيء الاهم هو ان تغفري انت خطيئتك. ولن تستطيعي ابدا ان تفعلي ذلك هنا.

- انت لم ترد على سؤالي يا سيد سميثسون.

- حاشـــا لله ان اصدر قرارا في موضوع لا يستطيع ان يقرره الا خالقنا. الا انني مقتنع، كلنا مقتنعون، انك كفّرت بما فيه الكفاية عن خطيئتك. لقد غفر لك.

- امن الممكن نسيان ما حدث؟

حيرته الحقيقة المطلقة المتسمة بالسخرية في صوتها لحظة وجيزة. ثم ابتسم.

- اذا كـــنت تقـــصدين بهـــذا الكلام ان اصدقاءك الموجودين هنا لا ينوون مساعدتك مساعدة عملية...

- لم اقـــصد ذلـــك. فانا اعرف ان قصدهم ينبع من صميم قلوبهم. غير انني اشبه شجرة الشوك هذه يا سيد سميثسون. لا احد يؤنبها لأنها تنمو في هذا المكان الموحش. غير ان السير في شارع برود هو الذي يلحق الاهانة بالمجتمع.

زفر زفرة صغيرة تدل على الاحتجاج.

- لا يمكـــنك القول يا عزيزتي الانسة وودراف ان مهمتك هي الحاق الاهانة بالمجتمع.

ثم اردف.

- اذا كان هذا هو الشيء الذي استنتجته.

التفتت نصف التفاتة.

- لكن اليس ذلك المجتمع هو الذي يرغب في ترحيلي الى عزلة اخرى؟

- ان الشيء الذي ترتابين في صحته الان هو عدالة الوجود...

- اهذا محرم؟

- ليس محرما، بل غير مثمر.

هزت رأسها بالنفي.

- بل هو مثمر، على الرغم من ان ثماره مرة.

تفوهت بجملتها الاخيرة بلا تناقض، بمنتهى الحزن، كأنها تخاطب نفسها. كان تـــشارلز مقهورا، كان الذي هزمه هو انحسار موجة اعترافها، الاحساس بالخراب. وتـــصور ان صراحة نظرتها مصحوبة بصراحة التفكير واللغة - وهو امر صدمه في بعـــض الاحيان من قبل طالما ان التسليم بالمساواة العقلية (وبالتالي الاستياء المشبوه ضـــد الـــرجل) ليس مساواة بقدر ما هو قرب، قرب يشبه العري، حميمية الفكرة والشعور التي لم تستطع تصورها حتى الان في اطار العلاقة بالمراة.

لم يعتقد ان هذه المسألة ذاتية، بل موضوعية: اذ لو استطاع اي رجل متحرر يملـــك من الفطنة ما يساعده على رؤيتها فانه سيجد امامه امرأة رائعة. استثنائية. وليس الشعور هو حسد الرجل او غيرته، بل هو الشعور بالضياع الانساني. وفجأة مد يده ولمس كتفها علامة الطمأنينة. وبمثل تلك السرعة استدار، وساد الصمت.

فقالت كأنما ادركت مدى احباطه.

- اذا تعتقد بأن عليّ الرحيل؟

شعر على الفور انه متحرر، فالتفت صوبها بتوق.

- ارجـــو ان تفعلي ذلك. اجواء جديدة، وجوه جديدة... ولا تقلقي بشأن الاعتبارات العملية. اننا ننتظر قرارك لا اكثر لنتدخل لصالحك.

- افي وسعي ان افكر في الامر يوما او يومين؟

- اذا كنت ترين ذلك ضروريا.

انتهز فرصة وتشبث بالحالة السوية التي جعلتها حالة مميزة.

- واقتـــرح ان نـــضع المسألة تحت رعاية السيدة ترانتر. ولو سمحت فسوف اتيقن ان محفظتها جاهزة لتلبية كل احتياجاتك.

أحنت رأسها، وبدت على وشك ان تبكي ثانية. وهمست:

- انا لا استحق مثل هذه العطف. انا...

- لا تقـــولي مـــا هو اكثر. فانا لا اعتقد ان هناك وسيلة افضل تصرف بها النقود.

انـــتاب تـــشارلز شعور رقيق بالانتصار. لقد حدث كل شيء حسبما توقع غـــروغان. لقـــد قدّم الاعتراف العلاج؛ او على الاقل صورة واضحة منه واستدار كي يلتقط عصاه القريبة من كتلة الصوان.

- اينبغي لي الحضور الى السيدة ترانتر؟

- عظيم. المؤكد ليست هناك اي ضرورة للحديث عن لقاءاتنا.

- لن اقول شيئا.

شـــاهد المـــشهد الان؛ دهـــشته المهذبة كانت تخلو من الاهتمام المبالغ فيه، مـــشفوعة باصـــراره النـــزيه على ان تكون اي مساعدة مالية مرغوب فيها تحت مسؤوليته. في مستطاع ايرنستينا ان تشاكسه بخصوص ذلك - الا ان الامر سيريح ضميره. وابتسم لسارة.

- لقـــد وجدت من يشاطرك سرك. واعتقد انك ستجدين نفسك محررة من العبء بشتى الطرق الاخرى. انك تملكين مزايا طبيعية مهمة جدا، وليس لديك ما يجعلـــك تخـــشين شيئا من الحياة. سيأتي اليوم الذي تبدو فيه هذه السنين الاخيرة الحـــزينة لا اكثر من تلك السحابة التي تخيم على شيزل بانك. ستقفين تحت اشعة الشمس وتبتسمين لاحزانك الماضية.

شعر انه اكتشف وجود نوع من الوميض وراء الشك في عينيها. وظلت برهة وجيـــزة اشـــبه بطفلة، مترددة وراغبة في ان واحد في ان تتخلص من دموعها وان تستمع الى هذه الموعظة. واتسعت ابتسامته وهو يضيف بخفة:

- والان، اليس الافضل لنا ان نهبط؟

لاحت وكأنها ترغب في قول شيء ما، ان تؤكد عرفانها مرة ثانية بلا ريب. الا ان حالته التي كانت تنم عن الانتظار المشوب بالنشاط جعلتها تسير من امامه بعد ان القت نظرة اخيرة مترددة الى عينيه.

سارت من امامه على نحو رشيق وهي تهبط مثلما سارت من قبل بخفة وهي في طريق الصعود. شعر تشارلز بالندم وهو ينظر الى ظهرها... ان عدم رؤيتها هكذا ثانية يبعث على الندم والارتياح. شابة رائعة. لن ينساها ابدا. وبدا له ان ما يبعث السلوى في نفسه انه لن يترك له امر نسيانها. فالخالة ترانتر ستكون جاسوسته في المستقبل.

وصلا الى قاعدة الجرف الاسفل وتوغلا في نفق اللبلاب الاول، فوق الارض المنبسطة، ومن صوب الممر الاخضر الثاني... وبعد ذلك!

تناهى الى سمعها صوت ضحكة صادرة من مكان بعيد الى اسفل، من الممر الرئيس في الجزء السفلي من الجرف. كان تأثير تلك الضحكة غريبا - كان روح الغابة منهمكة في مراقبة لقائهما السري ولم يعد في وسعها الان كتم مشاعرها وفرحتها - فالضحكة كانت ضحكة انثى بلا جدال - من ثقتهما السخيفة بأن احدا لا يشاهدهما.

توقف تشارلز وسارة من تلقاء نفسيهما. وسرعان ما انقلب ارتياح تشارلز المتزايد الى ذعر اصابه بصدمة، بيد ان ستار اللبلاب كان شديد الكثافة. وكانت الضحكة صادرة من مكان يبعد عنهما مسافة تقدر ما بين مائتين الى ثلاثمئة ياردة (180 إلى 270 مترا). لم يكن في وسع احد رؤيتهما، الا اذا هبطا السفح. لحظة واحدة، ثم رفعت اصبعها سريعا صوب شفتيها، واشارت اليه الا يتحرك، ثم سارت خلسة صوب نهاية النفق. راقبها تشارلز وهي تشرئب الى الامام وتمعن النظر حذرة في الاسفل صوب الممر. وسرعان ما ادارت وجهها بعجالة صوبه. اومات له؛ عليه ان يذهب اليها، لكن في منتهى الهدوء. وفي نفس اللحظة انطلقت تلك الضحكة ثانية. كانت ضحكة اقل دويا هذه المرة، بيد انها كانت اشد قربا. ان من كان يسير في الممر بدا الان يرتقي الطريق الصاعد بين اشجار الدردار ويتجه صوبهما.

وطـأ تشارلز الارض بحذر صوب سارة بعد ان تأكد تماما من الموضع الذي ينبغـي له ان يضع فيه حذاءه الفاضح. شعر ان الدم اخذ يشيع في وجهه، وانه في حـرج بالغ. وللحظة فكر ان اي تفسير لا قيمة له. وبغض النظر عن الطريقة التي يشاهد فيها بصحبة سارة فلا بد ان تكون بالجرم المشهود.

وصـل الى حـيث كانت واقفة، والى حيث كانت كثافة اللبلاب على اشدها لحـسن الحـظ. كانت سارة قد اعرضت بوجهها عن المتطفلين، وانتصبت وظهرها مستند الى جذع شجرة، مطرقة الى الارض كأنها ارتكبت خطيئة صامتة في مجيئهما الى هذا المكان. القى تشارلز نظرة من خلال الاغصان صوب المنحدر الذي تغطيه اشجار الدردار فتجمد الدم في عروقه. كان سام وماري يصعدان الطريق المؤدي اليهما كأنهما ينـشدان الوكـر ذاته، وكان سام يطوق بذراعه كتف الفتاة ويحمل قبعته بينما حملت هـي قلنسوتها وكانت ترتدي الثوب الاخضر الذي اعطتها اياه ايرنستينا – في الحقيقة لقـد رأى تـشارلز هذا الثوب ذات مرة، عندما كانت ايرنستينا ترتديه – بينما كان رأسـها يـستند الى خد سام. هما بلا شك عاشقان شابان مثلما هي الدردار اشجار معمرة، ومثلما هي خضراء يانعة نباتات نيسان/أبريل التي كانا يدوسان عليها.

انـسحب تـشارلز الى الوراء قليلا، الا انه تركهما تحت انظاره. وفيما هو مـنهمك في المـراقبة، قرب سام وجه الفتاة منه وقبلها، فألقت ذراعيها من حوله وتعانقا. ثم وقف الاثنان متباعدين، متشابكي الايدي، خجلين. قاد سام الفتاة الى حـيث توجد كومة من الاعشاب بين الاشجار. جلست ماري واستلقت في ذلك المكـان، فمـال سـام جنبها وهو يلقي نظرة عليها، ثم لمس شعرها وابعده عن وجنتيها، وانحنى وقبلها قبلات رقيقة فوق عينيها.

شـعر تـشارلز ان الورطة نفذت الى قلبه. اختلس نظرة الى سارة ليرى ان كانـت تعرف المتطفلين. غير انها حدقت الى نبات السرخس قرب قدميها كأنهما يلتجأن الى ذلك الوكر خشية المطر. مرت دقيقتان، فثلاث دقائق. وتحولت الورطة الى نـوع من الارتياح؛ فمن الواضح ان الخادمين يهتمان باستطلاع احدهما الاخر بدلا من استطلاع المحيط من حولهما. نظر خلسة مرة اخرى الى سارة فوجدها وقد انهمكت هي الاخرى في مراقبتهما من حول جذع شجرتها. استدارت وهي تنظر الى الارض، الا انها رفعت بصرها نحوه دون تحذير.

لحظة.

ثم فعلت شيئا غريبا، مروعا، كأنها نــزعت عنها ثيابها.

ابتسمت.

كانـــت ابتسامة في منتهى التعقيد حتى ان تشارلز لم يستطع اول وهلة سوى التحديق بها على نحو غير مصدق، اذ كان توقيتها شديد الغرابة! وشعر انها كانت تنتظـــر مـــثل هذه اللحظة لتسدد اليه - هذا الكشف عن دعابتها، لتبين ان حزنها لـــيس حزنا شاملا. وفي هاتين العينين الواسعتين، المكتئبتين، الصريحتين والحزينتين تماما، انكشفت المفارقة، البعد الجديد في نفسها - وهو امر الفته فرجينيا وبول في الايام الخوالي، لكن بلدة لايم لم تألفه بعد.

لاحت عيناها وشفتاها المقوستان تقوسا رقيقا وهي تقول: اين هي ادعاءاتك الان؟ ايـــن هي ولادتك، علمك، اداب سلوكك، نظامك الاجتماعي؟ يضاف الى ذلـــك، لم تكن ابتسامة يستطيع المرء ان يقطب حاجبيه او يتصالب ازاءها، بل لا يمكن مبادلتها الا بابتسامة اخرى. لأنها ابتسامة غفرت لسام وماري وكل شخص. كمـــا انهـــا قوضت على نحو صعب على التحليل، كل ما مر حتى الان بينها وبين تشارلز اذ طالبت بحق في فهم اعمق، باعتراف بتلك المساواة المضطربة التي تتحول الى قرب اكبر مما اعترف به اعترافا واعيا حتى الان. في الحقيقة، لم يبتسم تشارلز ابتـــسامة واعـــية بدوره، بل وجد نفسه يبتسم، بعينيه لا اكثر، لكنه يبتسم، وجد نفـــسه منفعلا، على نحو اكثر غموضا وعمومية مما يمكن وصفه بالانفعال الجنسي، من اعماقه؛ مثل رجل وصل في النهاية سورا طويلا شاهقا ليجد الباب الذي طال بحثه عنه موصدا.

وقـــف الاثـــنان لحظات طويلة، المرأة التي هي الباب، والرجل بلا مفتاح، ثم خفـــضت من عينيها ثانية. وتلاشت الابتسامة، وخيم صمت طويل عليهما. لقد رأى تشارلز الحقيقة: كان يقف حقا على قدم واحدة فوق شفير الهاوية. وفي برهة من الزمن فكر في ان من شأنه بل يتعين عليه ان يقفز. وعرف انه لو بسط ذراعيه فلـــن يلقى اي مقاومة... بل تبادل مشاعر حميم. ازدادت وجنتاه حمرة وفي النهاية همس.

- لا يجب علينا ان نلتقي وحدنا ثانية ابدا.

لم تـــرفع رأســـها، بل اومأت ايماءة صغيرة جدا، ثم اعرضت بوجهها بحركة غاضـــبة قليلا كي لا يراه. نظر ثانية من خلال الاغصان. كان رأس سام وكتفاه مـــائلين فـــوق ماري التي تتعذر رؤيتها. مرت لحظات طويلة، الا ان تشارلز ظل يـــراقب المشهد وذهنه مشغول بتلك الهاوية، لا يعي الا قليلا انه يتحسس، ولكنه علـــى الرغم من ذلك كان متأثرا، عند مرور كل لحظة، بذلك السحر نفسه الذي حاول ان ينفر منه.

وانقذتـــه ماري. فعلى حين غرة، دفعت سام جانبا، وهرعت ضاحكة اسفل المـــنحدر واتجهت صوب الممر. وبعد ان توقفت هنيهة، تألق وجهها المشاكس في وجه سام قبل ان ترفع تنورتها وتسرع السير الى الاسفل. ركض سام وراءها حتى تلاشى شبحهما من وراء سيقان النباتات، تلاشيا، اختفيا، ومضة خضراء، ومضة زرقاء، ضحكة انتهت بصرخة صغيرة، ثم ران السكون.

مـــرت خمس دقائق لم يتكلم في اثنائها الشخصان المتواريان عن الانظار. ظل تشارلز يحدق بثبات الى اسفل التل، كأن المهم ان يواصل هذه الرقابة المركزة. من المؤكد ان كل ما كان يريده هو تجنب النظر الى سارة واخيرا قطع الصمت.

– الافضل ان تذهبـــي.

احنت رأسها.

– سأنتظر نصف ساعة.

احنت رأسها ثانية ثم مرت من امامه، ولم تلتقِ عيناهما.

لم تلـــتفت وتنظـــر اليه نظرة قصيرة الا بعد ان اصبحت بين اشجار الدردار ثانـــية. لم يكن في وسعها رؤية وجهه، بل لا بد انها ادركت انه كان يراقبها. مرة اخـــرى كـــان وجهها ينطق بتلك النظرة القديمة التي تخترق اعماقه. بعد هذا هبط المنحدر بخفة وهو يشق طريقه بين الاشجار.

22

انا ايضا شعرت بالعبء الذي انوء به
في تأرجح العاطفة البالغة العنفوان
انا ايضا تمنيت الا تكون هناك امرأة اخرى،
ان تنتهي هذه البداية وهذا القلب الشديد الانفعال

انا ايضا اشتقت الى قوة شديدة
وارادة مثل رمح قاطع،
واثنيت على المساق الواضح، المحدد،
الذي لا يعرف الشك، لا يشعر بالخوف.

الا انني في العالم الذي تعلمت، فالذي
ستبرهنين عليه دوما ما مؤكدا
ان تلك الارادة، تلك الطاقة، رغم ندرتهما
فهما اندر، اندر بكثير من الحب.

ماثيو ارنولد: وداع (1853)

كانـــت افكار تشارلز في طريق عودته الحافل بالاحداث الى بلدة لايم اشكالا مختلفة لذلك الموضوع الذكري المعروف منذ زمن سحيق: «انت تلعب بالنار ايها الـــصبي». الا ان ذلـــك الموضوع هو نفسه تماما الذي اقصد به ان فحوى افكاره انـــسجمت وفحوى العبارة الحرفي. كان في منتهى الطيش، غير ان طيشه لم يصبه بـــبلاء ما. لقد جازف بمجازفة غير معقولة، ونجا بجلده دون ان يصيبه اذى. وهكذا شعر الان بالنشوة بعد ان لاح لبصره من بعيد مخلب الكوب الحجري العظيم.

لمـــاذا كـــان ينبغي له ان يلوم لوما شديدا؟ لقد كانت دوافعه منذ البداية متسمة بالعفة؛ اذ عالجها من جنونها ومع ان شيئا لا يتسم بالعفة هدد في لحظة مـــا التغلغل في دفاعاته فإن ذلك لم يكن سوى وضع صلصة النعناع على فخذ مـــن لحم الغنم. من المؤكد ان من شأن اللوم ان يوجه اليه لو لم يسحب نفسه

مــن النار الان لصالحه، وهو امر سيهتم اهتماما كبيرا في تنفيذه لأنه قبل كل شيء ليس فراشة تثير نشوتها الشمعة. كان انسانا حاد الذكاء، من اكثر الناس قــدرة علــى التكيف، ويتمتع بارادة حرة شاملة. ولو لم يكن واثقا من تلك الوقاية الاخيرة فهل كان يفكر في المجازفة بنفسه في مثل تلك المياه الخطرة؟ انني اخلــط بــين الاستعارات؛ لكن ذلك هو الاسلوب الذي كان يعمل به ذهن تشارلز.

هكــذا، هبط التل في طريقه الى البلدة معتمدا على الارادة الحرة قدر اعتماده على عصاه. ومن شأنه ان يعمد من الان فصاعدا الى كبح كل مشاعر العطف ازاء الفتاة بكل قوة، بالارادة الحرة. وسيرفض رفضا باتا اي توقف للقاء سري بالارادة الحــرة. وينبغي احالة ادارة اهتماماته الى الخالة ترانتر بالارادة الحرة. لهذا السبب، كــان مــسموحا لــه، بل كان مضطرا اذا توخينا الدقة، الى الاستمرار في ابقاء ايرنستينا جاهلة كل شيء بنفس الارادة الحرة. ولما اقترب من وايت لاين كان قد حــرر نفسه بارادته الحرة وانتقل الى حالة التهنئة الذاتية... حالة يستطيع فيها ان ينظر الى سارة على انها شيء من ماضيه.

شــابة رائعة، شابة رائعة، ومحيرة. وقرر ان عنصر الجاذبية فيها يكمن في هذه الصفة: عدم قابلية التوقع بها. ولم يدرك انها تتمتع بخاصتين نموذجيتين عند الانكليز مــثل الخاصــتين اللتين يتمتع بهما وهما المفارقة والتمسك بالتقاليد. واقصد بذلك العاطفــة والخــيال. ولعــل تشارلز شرع يدرك الخاصية الاولى على نحو واهٍ. اما الخاصية الثانية فلم يدركها. وهو لم يستطع ذلك لأن خاصيتي سارة حرمتهما تلك الحقــبة، اذ كانــت الاولى تعــادل الانغماس في الشهوات الحسية والثانية تعادل الاوهام. لقد كان هذا التعادل المزدوج المنبوذ اكبر اخطاء تشارلز، ومن هنا، كان يعبر عن عصره تعبيرا صادقا.

كانت هناك خدعة مجسدة، او ايرنستينا يتعين مواجهتها. غير ان تشارلز وجد ان الاسرة هبت لمساعدته لدى وصوله إلى فندقه.

فقــد كانت هنالك برقية في انتظاره، مرسلة من عمه في وينــزيات، يطلب فــيها مــنه الحضور على جناح السرعة «لاسباب في منتهى الاهمية». اخشى ان تــشارلز ابتسم حالما قرأ محتوياتها، بل اوشك تماما ان يقبل الظرف البرتقالي. وقد

حرره ذلك من اي ازعاج اخر في الوقت الراهن، من الحاجة الى اكاذيب اللامبالاة بالـــواجب الاخـــرى. كانـــت البرقية مناسبة تماما. فما كان منه الا ان قام ببعض التحـــريات... ووجد ان قطارا يغادر بلدة اكستر في وقت مبكر من صباح اليوم الـــتالي. ولما كانت هذه البلدة هي اقرب محطة الى لايم، فقد كان لديه العذر الوافي للـــرحيل على الفور وقضاء الليلة هناك. واصدر اوامره بتدبير اسرع عربة في لايم. وقـــرر ان يقـــود العربة بنفسه وشعر انه يميل الى الذهاب بمثل هذه السرعة ويترك رســـالة الى الخالة ترانتر تفي بالغرض. غير ان من شأن ذلك ان يبدو عملا جبانا. لهذا سار في اتجاه الشارع والبرقية في بيده.

كانـــت الـــسيدة الطيبة في غاية الجزع لأن البرقيات كانت تعني لها الاخبار الـــسيئة. امـــا ايرنستينا الاقل ايمانا بالخرافات، فقد انـــزعجت كما هو واضح. وفكّـــرت ان العم روبرت يبدو سيئا تماما وهو يتصرف مثل رئيس وزراء على هذا الـــنحو. وكانـــت واثقة ان الامر ليس بذي شأن، نـــزوة هوى من اهواء الرجل العجوز، والاسوا من هذا الغيرة من حب الشباب.

مـــن المـــؤكد انها زارت في وقت سابق وينـــزيات بصحبة والديها؛ ولم يستهوها سير روبرت. وربما كان ذلك سببه شعورها انها تحت المراقبة، او لأن العـــم لديـــه ما يكفي من طبقة ملاك الاراضي من ورائه - وفق معايير الطبقة الوسطى في لندن - لأن يمتلك اخلاقا سيئة حقا، ربما لأنها عدت البيت حظيرة قديمـــة، عتيق الطراز على نحو فظيع بما في ذلك اثاثه وصوره وكل ما علق على جدرانـــه، لأن العـــم المذكـــور شديد الشغف بتشارلز، تشارلز ابن اخ كثير الاستفزاز مما حمل ايرنستينا على الاحساس بالغيرة، الا انها قبل كل شيء كانت وجلة.

اســـتدعيت جاراتها من النساء لرؤيتها. من المعلوم ان والدها في وسعه شراء كـــل ابائهن وازواجهن المحترمين برمّتهم. وشعرت انها محط ازدراء بمختلف الاوجه علـــى الـــرغم مـــن انها كانت ايضا موضع حسد. لم ترقها كثيرا فكرة العيش في وينـــــزيات في اخر الامر على الرغم من ان ذلك يساعدها على ان تحلم باسلوب واحـــد على الاقل ينبغي ان تقضي به جزءا صغيرا من زواجها الضخم على النحو الـــذي اصـــرت عليه تماما، بدلا من كل هذه المقاعد الخشبية المزخرفة والسخيفة

الشارلية البالغة النفاسة[80]. الخزانات الكثيبة التيودرية[81]، النسيج المزخرف الغوبليني[82]، واللوحات الباهتة بما فيها لوحتي لكوديس وواحدة لتينتوريتو[83] لم تلقَ استحسانها.

لم تستطع السبوح بامتعاضها من العم امام تشارلز. اما اعتراضاتها الاخرى فكانت توحي وتلمح لهما بروح الدعابة لا السخرية. ولا اظن ان اللوم يجب ان يلقى على عاتقها، فهي اسوة بالكثير من بنات الاغنياء، سواء في الماضي او الحاضر، اي، انها تعرف كيف تصرف مبالغ طائلة في محلات الملابس النسائية والقبعات النسائية والاثاث. فهذا هو عالمها. ولما كان ذلك هو عالمها الحقيقي الوحيد، فإنها لم ترغب في ان ترى من ينتهكه.

تحمل تشارلز المسرع استهجانها المكتوم وغضبها الجميل وطمأنها على ان يعود بأسرع ما يمكن. كانت لديه فكرة واهية عن السبب الذي يريده عمه بهذه السرعة، فقد جرى التطرق الى الموضوع مؤقتا لدى وجوده هناك بصحبة تينا ووالديها... مؤقتا لأن عمه رجل خجول. وكان ذلك يخص احتمال ان يشاركه تشارلز وعروسه وينزيات؛ اذ في مستطاعهما ان يحلا في الجناح الشرقي. وقد عرف تشارلز ان عمه لا يقصد بذلك مجيئهما والبقاء هناك عند الاقتضاء، بل ان على تشارلز ان يستقر ويبدأ تعلم كيفية ادارة المقاطعة. ولم ترقه هذه الفكرة مثلما لم تكن لترق ايرنستينا لو انه ادرك ذلك. فهو كان يعرف انها ترتيبات بائسة، لأن عمه سيكون بين حالتي الشغف والاستهجان وان ايرنستينا بحاجة الى التعلم في وينزيات وبزواج مبكر اقل تقييدا. غير ان عمه ألمح اليه سرا بخصوص شيء اكثر من هذا: ان وينزيات قصر اوسع مما يحتمله رجل عجوز وحيد، ولا يدري ان

(80) الشارلية: المنسوبة الى تشارلز الاول (1600–1649) ملك انكلترا واسكتلندا وايرلندا (1625–1649)، في عهده نشبت الحرب الاهلية (1642–1652). اعدم، والى تشارلز الثاني (1630–1685) ملك انكلترا واسكتلندا وايرلندا (1660–1685) ابن تشارلز الاول، شهد عهده توسعا استعماريا. (المترجم)

(81) التيودرية: نسبة الى اسرة تيودور التي حكمت انكلترا من 1485 الى 1603. (المترجم)

(82) الغوبليني: نسيج وسجاد ينتج في معامل غوبلين في باريس. (المترجم)

(83) تينتوريتو(1518 – 1594): رسام ايطالي تميزت اثاره بتغاير شديد بين الضوء والظل. (المترجم)

كـــان في وسعه العيش سعيدا في بيت اصغر. كانت البيوت الاصغر حجما متوفرة في المنطقة المحيطة به... بل ان بعضها تابع لقصر وينـــزيات وكان هناك واحد من هذه البيوت، وهو بيت اليزابيثي[84] ريفي في قرية وينـــزيات على مرأى من البيت الكبير.

خمـــن تـــشارلز الان ان الـــرجل العجـــوز احس بالانانية وانه استدعاه الى وينـــــزيات ليعرض عليه البيت الريفي او البيت الكبير. وكلاهما مقبول. ولم يكن يهمه كثيرا اي بيت ينبغي له السكن فيه شريطة ان يكون عمه بعيدا عنه... وشعر انـــه على ثقة بأن الاعزب الكبير يمكن ان يستدرجه لاعطائه اي من البيتين، وانه اشـــبه بفـــارس متوتـــر الاعـــصاب وصل حاجز عقبة لا بد من قفزها ويريد ان يتجاوزها.

وعلـــى هـــذا الاســـاس، وبعد اللقاء القصير الثلاثي في شارع برود، التمس تـــشارلز الحـــديث على انفراد مع ايرنستينا. وحالما انسحبت الخالة ترانتر، اخبرها بشكوكه.

- لكن لماذا لم يناقش الموضوع من قبل؟

- اخشى ان يكون هذا هو العم بوب بعينه يا عزيزتي. لكن اخبريني ما الذي يجب ان اقوله؟

- ماذا تفضل؟

- ايهمـــا تختارين انت. ولا واحد ان كانت هذه رغبتك، على الرغم من انه سوف يستاء...

صـــبت ايرنـــستينا لعنة مكتومة على الاعمام الاثرياء. غير ان صورتها مرت في ذهنها وقد اصبحت السيدة سميثسون في بيت وينـــزيات المؤثث حسب ذوقها، ولعل ذلـــك سببه انها كانت في جو بيت الخالة ترانتر الخلفي والصغير نسبيا. على اي حال، ان اللقـــب يحـــتاج الى اطـــار. ولو ان الرجل العجوز الفظيع موثوق منه تحت نفس السقف... وانه كبير السن، وتشارلز العزيز، ووالديها اللذين تدين لهما بـــ...

- اليس البيت الريفي هو نفس البيت الذي مررنا به ونحن في العربة؟

---

(84) اليزابيثي: نسبة الى اليزابيث الاولى (1533-1603) ملكة انكلترا وايرلندا (1558-1603). (المترجم)

– نعـــم. انـــت تتذكرين ذلك. انه يحتوي على كل تلك الجملونات العريقة الرائعة.

– رائعة عندما ينظر اليها من الخارج.

– من المؤكد انه يحتاج الى ترميمات.

– ماذا سميته؟

– القـــرويون يـــسمونه البيت الصغير، لكن هذه التسمية للمقارنة بغيره من البيوت لا غير. لقد مر زمن طويل منذ ان زرته اخر مرة، الا انني اظن انه اكبر مما يبدو حقا.

– اعرف هذه البيوت القديمة، عشرات الغرف الصغيرة البائسة. اظن السكان في العصر الاليزابيثي كانوا اقزاما كلهم.

ابتـــسم (على الرغم من انه كان الافضل لو صحح فكرتها الغريبة عن العمارة التيودورية)، ثم وضع ذراعه من حول كتفيها.

– اذا قصر وينـــزيات؟

نظرت اليه نظرة مباشرة صغيرة من تحت حاجبيها المقوسين.

– اترغب فيه؟

– انت تعرفين ما الذي يمثله لي.

– اني وسعي البدء بوضع طلاء جديد في غرفه؟

– في وسعك دكه من اساسه وبناء قصر بلوري ثان. لا يعنيني مطلقا.

– تشارلز! كن جادا.

تقـــدمت على منافسها، الا انه سرعان ما تلقى قبلة غفران، وسار في طريقه، نـــاعم الـــبال. اما ايرنستينا فقد ذهبت الى الطابق الثاني واخرجت مستودعا من مجلات نماذج الاثاث والبيوت.

23

جزء من شجرة الصنوبر هذه
رجل كان جدي يعرفه...

هاردي: تحولات

اجـــتازت العـــربة بوابة البيت، مكشوفة الغطاء لتسمح لتشارلز ان يستمتع بأشـــعة شمـــس الربيع. كان هوكنـــز الشاب يقف جوار البوابة المفتوحة في حين تألقـــت السيدة هوكنـــز العجوز على استحياء قرب باب المنـــزل. صاح تشارلز بالحـــوذي ان يتوقف لحظة، وكان هذا في انتظاره في تشيبنهام بينما هو الان يقود العربة والى جانبه سام. كانت ثمة علاقة خاصة تربط بين تشارلز والسيدة العجوز. فـــبعد ان حرم من امه وهو في العام الاول من عمره، اضطر ان يتحمل سلسلة من الـــبدائل كطفل صغير. وفي اثناء مكوثه في وينـــزيات تعلق بالسيدة هوكنـــز التي كانـــت انـــذاك فنيا رئيسة عاملات الغسل والكي، الا الها كانت بفضل خدمتها الطـــويلة وشعبيتها تأتي في المرتبة الثانية من بعد مديرة المنـــزل المهيبة. لعل مشاعر تشارلز للخالة ترانتر صدى لذكرياته الاولية عن هذه المرأة البسيطة التي عرجت في مشيها في الممر المؤدي الى بوابة الحديقة لترحب به.

كـــان مـــضطرا للاجابة عن كل استفساراتها التواقة عن الزواج القادم، وان يسألها بدوره عن اولادها. بدت مشتاقة اليه اكثر من المألوف واكتشف في عينيها ذلـــك الظـــل الـــذي يدعـــو للأسى الذي يحتفظ به أحيانا الفقراء الطيبو القلب للموســـرين الموهـــوبين. وإنه ظل هو يعرفه منذ زمن طويل تمنحه المرأة البريئة - الذكـــية للصبـــي اليتيم الام، المسكين، ذي الاب الشرير، اذ إن الشائعات القوية عـــن استمتاع والدي تشارلز الباقين على قيد الحياة بمباهج حياة لندن كانت تنفذ الى وينـــزيات. بدت تلك العاطفة في غير محلها الان، غريبة، غير ان تشارلز سمح بهـــا مسرورا. فقد كانت نابعة من حبها له، مثلما جاء كل شيء، حسب رأيه او حسب احساسه، نابعا من الحب المكرس له: حديقة البيت اللطيفة، المتنـــزه الممتد

الى مـــا ورائها، مجموعة الاشجار المعمرة، التي تحمل كل واحدة منها اسما محبوبا: هضبة اشجار الصنوبر العشر، اشجار الراميليه (التي زرعت احتفاء بمعركة راميليه)[85]، اشجار البلوط والدردار، اشجار عروسة الشعر، وعشرات اخرى غيرها مألوفة عند تـــشارلز شـــأنها في ذلـــك شأن اسماء اجزاء من جسده، وكذلك شارع الزيزفون العظيم والسور الحديدي. واخيرا ابتسم لعاملة الغسل العجوز.

- لا بد لي من الذهاب، فعمي في انتظاري.

بـــدت السيدة هوكنـــز لحظة قصيرة كأنها لن تسمح لنفسها ان يبتعد عنها بمـــثل هـــذه السهولة. غير ان الخادمة تغلبت على الام البديل، واقتنعت بلمس يده عندما وضعها فوق باب العربة.

- نعم يا سيد تشارلز. انه في انتظارك.

ضـــرب الحوذي كفل الحصان الامامي ضربة خفيفة بسوطه، فارتقت العربة منحنـــيا صغيرا، وسارت في ظل تتخلله الفتحات من اشجار الزيزفون العارية من الاوراق. ثم اســـتوت الارض ومس السوط مسا متراخيا فخذ الحيوان الكستنائي، فـــشرع الفرســـان يخبان خببا رشيقا وهما يتذكران ان سيدهما على مقربة منهما. واثـــارت جلـــبة العجلات الجديدة السريعة المرحة، ومحور العجلات الذي ينقصه التزييت الكافي، والعاطفة القديمة التي اثارتها السيدة هوكنـــز، وثقته انه عما قريب ســـيمتلك كـــل هـــذه المناظر الجميلة، اثارت في نفسه ذلك الشعور الذي يفوق الوصـــف والقـــدر السعيد والنظام الصحيح الذي اقلقه على نحو باهت وجوده في بلدة لايم. كان هذا الجزء من انكلترا لينتمي اليه، مثلما ينتمي هو اليه. ومسؤولياته من مسؤولياته كذلك امتيازاته ونظامه الذي يمتد قرونا طويلة.

مـــروا بمجمـــوعة من العاملين لدى عمه: ايبينـــزر الحداد الى جانب كانون متنقل وهو يطرق احد الأسيجة الحديدية الملتوية. ومن ورائه، حارسان من حراس البيت وهما يمضيان وقتهما. اما الرابع فهو رجل مسن لا يزال يرتدي ثوب الشباب

---

(85) معـــركة راميليه (23 مايس 1706): معركة دارت رحاها في قرية راميليه الواقعة الان في بلجـــيكا بـــين قوات التحالف الانكليزي الهولندي بقيادة دوق مارلبورو ضد الجيش الفرنسي الذي هزم هزيمة ساحقة فيها؛ الا ان انتصار التحالف لم يحقق السلام مع لويس الرابع عشر ملك فرنسا. (المترجم)

الفضفاض الواقي من الاوساخ وقبعة مستديرة قديمة... انه بن العجوز، والد الحداد وهـو واحـد من عشرة معمرين تقاعدوا عن العمل في المقاطعة وسمح لهم بالعيش فيها. وكان حرا في ذهابه ومجيئه مثل سيده تماما. وهو اشبه بملف حي، يستشار في اغلب الاحوال، فيما يخص السنوات الثمانين الاخيرة، او ما يزيد عنها، من تاريخ وينـزيات.

استدار هؤلاء الاربعة عند مرور العربة، ورفعوا ايديهم والقبعات، فرد تشارلز بتحـية السادة الاقطاعيين. وكان يعرف كل حيواتهم مثلما يعرفون حياته. وكان يعـرف حـتى سـبب الـتواء السياج... اذ هاجم ثور العم المفضل عربة السيدة تومكنـز. وقد ذكر العم في رسالته ان الغلطة غلطتها لأنها صبغت فمها باللون القرمزي. ابتسم تشارلز متذكرا الاستفسار الجاف في اجابته عن السبب الذي يدفع مثل هذه الارملة الجذابة الى زيارة وينـزيات دون وصيفة...

غـير ان الهدوء الريفي الثابت العظيم كان مبعث لذة فائقة تحتم العودة اليه. اميال من المروج الربيعية، الجزء الخلفي من اراضي ويلتشاير المنخفضة، البيت البعيد الذي اصبح الان على مرأى من النظر، بلونيه الابيض والرمادي، بما فيه من اشجار الارز العملاقة، واشجار الزان النحاسية الشهيرة (كل اشجار الزان الشهيرة) القريبة مـن الجناح الشرقي، والاصطبل الذي يوشك ان يتوارى عن الانظار من ورائها، بـبرجه الخـشبـي الـصغير وساعته، الذي يشبه علامة تعجب بيضاء اللون بين الاغـصان المتـشابكة. كانت تلك الساعة رمزا. وعلى الرغم من عدم وجود اي شيء عاجل في وينـزيات - باستثناء البرقيات - فإن الايام المفعمة بالحياة تنساب الى غد مفعم بالحياة ايضا، والساعات الحقيقية حقا هي الساعات الشمسية، وعلى الـرغم من كثرة الايادي العاملة وقلة العمل المطلوب انجازه - باستثناء ايام صناعة الـتبن والحصاد فإن الاحساس بالنظام اتسم بالالية تقريبا لما فيه من عمق في نفس المـرء حـتى اصـبح يصعب اقلاقه، وانه سيظل على هذا المنوال: كريما ومقدسا. الـسماء تعلم وكذلك ميلي ان هناك ظلما وبؤسا في الريف يستويان في ضعتهما مـثل الظلم والبؤس المنتشرين في شفيلد ومانشستر. وكانت هذه تنأى بنفسها عن مـنطقة البـيوت الكبيرة في انكلترا، ربما دون سبب، الا لأن الملاك كانوا يحبون الفلاحين المطيعين قدر حبهم الحقول والمواشي والانعام التي يعتنى بها. ولعل رقتهم

النـــسبية ازاء العدد الضخم من العاملين لديهم ليس اكثر من نتاج فرعي لسعيهم وراء مـــستقبل افضل. غير ان التابعين كانوا يكسبون بتلك الوسيلة. وربما لم تكن دوافـــع الادارة الحديثة الذكية محبة للاخرين اكثر من هذه. فعندما يفكر المستغلون الرقيقون بالمستقبل السعيد، فإن الاخرين ينشدون الانتاجية العالية.

في حـــين ظهـــرت العربة من نهاية شارع الزيزفون، حيث اخذ المرعى المحاط بالـــسور يفـــسح المجال امام اعشاب وجنبات كثيفة، وامتد الطريق امتدادا منحنيا طـــويلا صوب واجهة البيت – الذي هو عبارة عن مبنى واقٍ لم يطوره او يضيف عليه ويات الاصغر سنا – اذ ذاك شعر تشارلز انه يتملك حقاً ميراثه. وبدا ذلك له وهـــو يقـــدم التفسير لكل تسكعه السابق في الحياة، كل اهتمامه بالدين، العالم، والـــسفر. كـــان ينتظـــر هذه اللحظة... دعوته الى العرش، اذا جاز التعبير. لقد اصبحت مغامرته السخيفة في الجزء السفلي من الجرف نسبيا منسيا. وكانت المهام الكثيرة، الاحتفاظ بهذا الهدوء والنظام، تنتظره، مثلما انتظرت الكثيرين من شباب اسرته في الماضي. الواجب هو زوجته الحقيقية، هو ايرنستينا وهو سارة. ثم قفز من العربة ليحيها تحية مرحة مثل صبـــي في نصف عمره الحقيقي.

علـــى اي حـــال، كانت ترحب به في المقابل قاعة خاوية. لقد اقتحم غرفة الاســـتقبال متوقعا ان يشاهد عمه مبتسما وهو واقف على قدميه محييا اياه. غير ان تلك الغرفة كانت خاوية هي الاخرى. هناك امر غريب فيها، يثير حيرة تشارلز. ثم ابتـــسم. هـــناك ستائر جديدة – والسجاد، نعم، كان هو الاخر جديدا. ليس من شـــأن ايرنستينا ان تشعر بالسعادة عندما تدرك ان الخيار سحب من بين يديها – لكن اي دليل اوضح من هذا على عزم الاعزب العجوز على تسليم المشعل تسليما لبقا؟

علـــى الـــرغم من ذلك، شيء ما قيد تغير. مرت بضع لحظات قبل ان يدرك تـــشارلز ما هو. لقد اختفى طائر الحبارى الخالد، وحلت محل صندوقه الزجاجي خزانة انية من الخزف الصيني.

الا انه ظل لا يعرف ما هو.

كمـــا انه لم يستطع ان يخمن ما حدث لسارة – وكيف يستطيع ان يخمن في هـــذه الحالـــة – عندما تركته عصر اليوم السابق. لقد سارت سيرا حثيثا في طريق

عودهما داخل الغابة حتى وصلت الى المكان الذي تنطلق منه في صعودها الممر الذي يحجب عنها اي فرصة يمكن ان يشاهدها فيها احد من حقل مصنع الالبان. ومن شأن اي مراقب يراقبها ان يلحظ ترددها ولو كان يملك سمعا رهيفا مثل سارة نفسها لادرك السبب: هناك اصوات تنبعث من كوخ المزرعة على بعد مائة ياردة (91 مترا) من الاشجار. تقدمت سارة في طريقها صامتة، بطيئة الخطوات، حتى وصلت إلى دغل من نبات شائك كانت تستطيع ان تمعن النظر من خلال اوراقه الكثيفة في مؤخر الكوخ. ظلت واقفة بعض الوقت، لا يتصف وجهها بأي شيء مما يدور في ذهنها. ثم حدث تطورها في المشهد التحتاني، خارج الكوخ، دفعها الى الحركة... لا الى الملجأ في الغابة، بل الى السير بشجاعة من وراء الدغل وعلى امتداد الممر الذي يرتبط بطريق العربات من فوق الكوخ. وهكذا ظهرت للعيان امام امرأتين قرب باب الكوخ، كانت احداهما تحمل سلة وعلى وشك ان تنطلق عائدة الى البيت.

ظهر شبح سارة الداكن. ولم تنظر في اتجاه الكوخ، في اتجاه هاتين المرأتين الذاهلتين بل سارت سريعا حتى تجاوزت سياج احد الحقول الذي يمتد اعلى المزرعة.

كانت احدى المرأتين هي زوجة صاحب حقل مصنع الالبان. اما الثانية فهي السيدة فيرلي.

24

ذات يوم سمعت مقترحا يفيد ان القول الفكتوري
المأثور كان: «عليك ان تتذكر انه عمك...»

جي. ام. يونغ: مقالات فكتورية

- شيء رهيب. رهيب. لا يمكن ان اصدق انه لم يفقد عقله.
- لقد فقد احساسه بالتناسب. غير ان هذا ليس الشيء نفسه تماما.
- لكن عند هذه النقطة!
- يا عزيزتي تينا. ان كيوبيد معروف بعدم احترامه راحة الاخرين.
- انت تعرف معرفة جيدة ان كيوبيد لا دخل له في الموضوع.
- بل اخشى ان له صلة بذلك. ان القلوب الكبيرة اكثر القلوب حساسية.
- انها غلطتي. وانا اعرف انه يرفضني.
- هوني عليك. هذا كلام فارغ.
- ليس كلاما فارغا، فانا اعلم انني لست بالنسبة إليه سوى ابنة تاجر البسة.
- تمالكي نفسك يا طفلتي العزيزة.
- انني غاضبة بسببك.
- حسنا جدا. اذا دعيني اغضب نيابة عن نفسي.

خيم الصمت بعد ذلك وبهذا يسمح لي ان اقول إن الحديث اعلاه دار في البهو الخلفي لمنزل الخالة ترانتر. وكان تشارلز يقف قرب النافذة وظهره في مواجهة ايرنستينا، التي بكت منذ فترة قصيرة، وجلست الان وهي تعبث بمنديل مخرم على نحو انتقامي.

- اعرف كم انت تحب وينزيات.

اما جواب تشارلز على هذه العبارة فلا يمكن سوى تخمينه، اذ فتح الباب في تلك اللحظة وبانت الخالة ترانتر، وقد علت وجهها ابتسامة ترحيب لطيفة.

- لقد عدت سريعا.

كانت الساعة هي التاسعة والنصف من اليوم نفسه الذي شاهدنا فيه تشارلز يتجه فيه صوب منـــزل وينـــزيات.

ابتسم تشارلز ابتسامة رقيقة.

- فرغنا... من مهمتنا على الفور.

- حدث شيء فظيع وشائن.

نظرت الخالة ترانتر نظرة يشوبها الذعر الى وجه ابنة اختها الحانق التي تفوهت بالجملة السابقة، ثم استرسلت:

- لقد حرم تشارلز من الارث.

حرم من الارث!

- ان ايرنـــستينا تبالغ. كل ما في الامر ان عمي قد قرر الزواج. واذا ما كان محظوظا ورزق بولد ووريث...

- محظوظا...!

- نظرت ايرنستينا نظرة حارقة قصيرة الى تشارلز في حين حولت الخالة ترانتر انظارها من وجه الى اخر وهي مذعورة.

- لكن... من هي... السيدة؟

- اسمها السيدة تومكنـــز يا سيدة ترانتر، وهي ارملة.

وفيها من الشباب ما يجعلها قادرة على انجاب عشرة اولاد.

ابتسم تشارلز.

- ليس ذلك، بل فيها من الشباب ما يجعلها قادرة على انجاب الاولاد.

- اتعرفها؟

فردت ايرنستينا قبل ان يتمكن تشارلز من الجواب:

- هذا هو المعيب في الموضوع. فقبل شهرين لا اكثر، سخر العم من المرأة في رسالة موجهة الى تشارلز. اما الان فتجده يتذلل تحت قدميها.

- يا عزيزتي ايرنستينا!

- لن يهدأ لي بال. انه امر لا يطاق. فبعد كل هذه السنين...

اخذ تشارلز نفسا عميقا، والتفتت الى الخالة ترانتر.

– اعرف ان لديها صلات ممتازة. فقد كان زوجها عقيدا في سلاح الفرسان، وترك لها ثروة ضخمة. لا ريب ان القضية فيها بحثٌ عن المال.

افصحت النظرة الحارقة التي رمقت بها ايرنستينا تشارلز عن ان ذهنها يمتلئ بالشكوك.

– وقيل لي انها امرأة في منتهى الجاذبية.

– لا شك انها تمارس ركوب الخيل لصيد الثعالب.

ابتسم ابتسامة كئيبة في وجه ايرنستينا التي كانت تشير الى علامة سوداء حصلت عليها في كتاب العم الفظيع.

– لا شك في ذلك. لكن هذه ليست جريمة.

تمالكت الخالة ترانتر فوق احد المقاعد، وحولت انظارها بين الوجهين الشابين، باحثة، كما هو شأنها في مثل هذه الحالات، عن بصيص امل.

– ولكن اليس هو اكبر سنا من ان ينجب اولادا؟

استطاع تشارلز ان يبتسم ابتسامة لطيفة لبراعتها.

– انه في السابعة والستين يا سيدة ترانتر. فهو ليس كبيرا جدا.

– حتى لو كانت هي شابة في مثل عمر حفيدته.

– يا عزيزتي تينا. ان كل ما يملكه المرء في مثل هذه الظروف هو الكرامة. لا بد لي من ان اتوسل اليك الا تكوني قاسية لاجلي انا. علينا ان نتقبل الحدث عن طيب خاطر.

نظرت اليه، ووجدت مدى صلابته. لا بد لها من ان تلعب دورا اخر. فهرعت اليه، وامسكت بيده، ورفعتها صوب شفتيها. فما كان منه الا ان جذبها نحوه وقبل قمة رأسها، الا انه لم ينخدع. فالفأرة والزّبابة قد تبدوان متشابهتين، الا انهما ليستا كذلك. وعلى الرغم من انه لم يستطع العثور على كلمة يصف بها استقبال ايرنستينا لاخباره غير السارة والرهيبة فإن ذلك الاستقبال لم يكن ليفتقر الى اللياقة. فقد قفز من الفخ مباشرة وعاد ادراجه من اكستر الى منزل الخالة ترانتر، وتوقع ان يحظى بعاطفة رقيقة لا ثورة عنيفة بغض النظر عن مدى الزيف الذي كان يكتنفها كي توازي مشاعره. ربما كان ذلك من طبيعتها؛ انها لم تكن تتصور ان سيدا مهذبا لا يستطيع ابدا الكشف عن الغضب الذي تعزوه اليه.

غــير انه لاحظ فيها شيئا ذكره بابنة تاجر الملبوسات في اثناء الدقائق الاولى، بــشخص استخدم في صفقة تجارية وهو يفتقر الى رباطة الجاش التقليدية، الى ذلك الاعتراض الارستقراطي على السماح لنكسات الحياة ان تكدر اسلوبه.

اعــاد ايرنــستينا ثانــية الى الاريكة التي قفزت منها، وشعر الان ان السبب الجوهــري لــزيارته، القــرار الذي اتخذه في طريق عودته الطويل ينبغي ان يترك موضــوع مناقشته حتى الغد، وبحث عن طريق ما يعرض فيه الاتجاه الصحيح، ولم يجد افضل من تغيير دفة الموضوع تغييرا طفيفا.

– ما هي الاحداث المهمة التي وقعت في بلدة لايم اليوم؟

التفت ايرنستينا الى خالتها كأنما تذكرت شيئا.

– اوصلتك اخبار عنها؟

ثم رفعت بصرها الى تشارلز قبل ان تتمكن الخالة ترانتر من الاجابة.

– لقد وقع حادث. اذ طردت السيدة بولتيني الانسة وودراف.

شــعر تــشارلز ان قلبه توقف عن النبض لحظة. غير ان اي صدمة يمكن ان يوحي بها وجهه، مرت دون ملاحظة في غمرة توق الخالة ترانتر الى سرد اخبارها: ذلك هو سبب غيابها عند وصول تشارلز. الواضح ان الطرد حدث في مساء اليوم السابق، وسمح للخاطئة ان تقضي ليلة واحدة اخيرة تحت سقف منــزل مارلبورو. وفي وقــت مبكر من صباح اليوم التالي حضر حمال لنقل حاجياتها، وصدرت اليه التعلمــيات بأخذها الى وايت لاين. وهنا شحب وجه تشارلز تماما، الا ان الخالة ترانتر هوّنت من مخاوفه بجملتها التالية.

– اي مرأب الحافلات كما تعلم.

كانــت الحافلات المتجهة من دورتشستر الى اكستر لا تسلك التل المنحدر صــوب بلدة لايم، بل كان ينبغي انتظارها عند تقاطع الطرق على بعد اربعة اميال من الطريق الرئيس الى جهة الغرب.

– الا ان السيدة هانيكوت تكلمت الى الرجل. وكان الرجل في منتهى الثقة ان الانــسة وودراف ليست هناك. وقالت الخادمة انها رحلت في وقت مبكر من الفجر ولم تعطِ تعليمات سوى التي تخص حاجياتها.

– منذ ذلك الوقت؟

- لم يعد لها اثر.

- هل التقيت القس؟

- لا. غير ان الانسة تريمبل تؤكد لي انه ذهب الى منـــزل مارلبورو قبل ظهر الـــيوم، واخبروه ان السيدة بولتيني ليست على ما يرام. فتحدث الى السيدة فيرلي وكانـــت معلـــوماتها لا تزيد عن ان موضوعا شائنا طرق سمع السيدة بولتيني وقد صدمت صدمة عنيفة وانـــزعجت...

وهـــنا تـــدخلت السيدة ترانتر الطيبة وهي حزينة على ما يبدو لجهلها الامر ولاختفاء سارة والتمست عيون ايرنستينا وتشارلز.

- ما هو؟ ما هو؟

- مـــا كان يجدر ان تعمل في منـــزل مارلبورو. فذلك يشبه تقديم حمل الى احد الذئاب.

نظـــرت ايرنـــستينا الى تشارلز وهي تنشد توكيدا لرأيها. غير انه التفت الى السيدة ترانتر وهو اقل هدوءا بكثير مما كان يبدو عليه.

- ليس هناك خطر من...

- هـــذا ما نخشاه جميعا. لقد ارسل القس رجالا بحثا عنها على طول الطريق الممتد الى تشارماوث لأنها تسير هناك فوق الجرف؟

- ولم...

- ولم يجدوا شيئا.

- ألم تذكري انها اشتغلت يوما ما عند...

- لقد ارسلوا من يبحث عنها هناك، لكن بلا طائل.

- لم يستدع غروغان الى بيت مارلبورو؟

اســـتخدم هـــذه الطـــريقة في تقـــديم الاسم استخداما ذكيا والتفت الى ايرنستينا.

- لقـــد اتـــى على ذكرها في تلك الامسية عندما احتسينا المشروبات، انني اعرف انه مهتم بوضعها.

- شاهدته الانسة تريمبل يتحدث الى القس في الساعة السابعة. وقالت انه بدا في منتهى القلق. الغضب. تلك هي كلمتها.

كانت الانسة تريمبل تدير محلا لبيع الحلي النسائية الصغيرة في الجزء الادنى من شـــارع برود، لهذا كان موقعها يمثل مركز المعلومات العام في المدينة. حاول وجه الخالة ترانتر اللطيف ان يحقق المستحيل، الا انه ظهر قاسيا تماما.

- لن اذهب لزيارة السيدة بولتيني مهما كانت شدة مرضها.

غطت ايرنستينا وجهها بكلتا يديها.

- اوه، يا له من يوم قاسٍ!

حدق تشارلز بالسيدتين.

- ربما يتعين عليّ زيارة غروغان.

- اوه يـــا تـــشارلز - ماذا في وسعك ان تفعل؟ هناك ما يكفي من الرجال للبحث.

لم يكـــن ذلـــك الشيء في ذهن تشارلز مؤكدا. وخمن ان طرد سارة لم يكن عديم الصلة بتجوالها في الجرف، من الطبيعي ان رعبه تمثل في احتمال ان يكون قد شاهدها شخص ما هناك بصحبته. وقف في مكانه وهو يعاني من تردده. لا بد ان يكتـــشف الى اي مـــدى اصبح سبب طردها معروفا. وفجأة وجد ان جو حجرة الجلـــوس الصغيرة لا يطاق. ينبغي له ان يكون وحيدا. لا بد له من التفكير في ما ســـيفعله. فـــاذا كانت سارة ما تزال على قيد الحياة - من يدري اي قرار متهور اتخذتـــه في ليلة يأسها في حين كان ينعم بنوم هادئ في فندقه باكستر؟ - لكن اذا كانت ما تزال على قيد الحياة فانه يعرف اين هي. وقد عذبه شعوره انه الشخص الوحـــيد في لايم الـــذي يعـــرف ذلك، الا انه على الرغم من ذلك لا يملك الجرأة للكشف عن معلوماته.

بعـــد مـــرور بضع دقائق، كان يخطو خطوات واسعة اسفل التل المؤدي الى وايـــت لايـــن. وكان الهواء عليلا، غير ان السماء ملبدة بالغيوم. ومسحت اصابع الهواء الرطب وجنتيه. ثمة رعد في عرض البحر، وفي قلبه ايضا.

25

لوه ايها اللورد الحبيب، اي حسرات هذه،
من اجل امرأة لن تكون لك ابدا؟

تينيسون: مود 1855

كان هدفه العاجل في ارسال سام حاملا رسالة الى الطبيب الايرلندي. وصاغ عباراتها وهو يسير – «السيدة ترانتر في غاية القلق» «اذا تطلب تشكيل فريق بحث اي نفقـــات...» او على وجه افضل، «اذا كان في وسعي تقديم اي عون، مالي او غـــير مالي» – طافت في ذهنه مثل هذه العبارات. وصاح بسائس الخيل غير الاصم وهو يدخل الفندق ان يأتي بسام من المشرب ويرسله اليه في الطابق العلوي. الا انه ما ان دخل حجرة المعيشة حتى تلقى صدمته الثالثة في ذلك اليوم الحافل بالاحداث.

كانت ثمة رسالة فوق المنضدة الدائرية، مختومة بشمع اسود. اما الخط فهو غير مألوف لديه: «السيد – سميثسون في وايت واين» فتح الرسالة، فوجد انها تخلو من العنوان ومن التوقيع.

«اتوســـل اليك ان تلقاني للمرة الاخيرة. سأنتظر بعد ظهر هذا اليوم وصباح الغد. واذا لم تأتِ فلن ازعجك ثانية ابدا».

قـــرأ تشارلز الرسالة مرتين، ثلاث مرات، ثم أمعن النظر في الجو المظلم. شعر بالغـــضب لأنهـــا تعرض على هذا النحو الطائش سمعته للخطر، غير انه ارتاح لهذا الدلـــيل على انها ما تزال على قيد الحياة. ثم غضب ثانية للتهديد الضمني في العبارة الاخيرة. دخل سام الغرفة وهو يمسح فمه بمنديله، وهي اشارة غير ذكية على انه لم يكمـــل طعام عشائه. ولما كان غذاؤه يتكون من زجاجة شراب وثلاث قطع من البـــسكويت فانـــه يمكن ان يغفر له. الا انه شاهد بلمحة نظر ان سيده لم يكن في حالة اسوأ من هذه الحالة منذ مغادرته وينـــزيات.

– اذهب واعرف من الذي ترك هذه الرسالة.

– نعم يا سيد تشارلز.

انصرف سام الا انه لم يسر سوى ست خطوات حتى كان تشارلز يقف قرب الباب.

- واطلب من الشخص الذي استلمها ان يصعد الي.

- نعم يا سيد تشارلز.

عاد السيد الى حجرته...

التفت عندما دخل سام بصحبة سائس الخيل الذي تكلم تشارلز معه قبل قليل. لقد اتى صبي بالرسالة في الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم، والسائس يعرف الصبي من وجهه، غير انه لا يعرف اسمه. لا، لم يقل من الذي ارسله. وسرعان ما طرده تشارلز وهو نافد الصبر، ثم سأل سام بنفاد صبر عن الشيء الذي يحدق اليه.

- لا احدق الى اي شيء يا سيد تشارلز.

- حسنا جدا. قل لهم ان يرسلوا عشائي الى الطابق العلوي. اي شيء، اي شيء.

- نعم يا سيد تشارلز.

- ولا اريد اي ازعاج ثانية. في وسعك ان تضع حاجياتي الان.

قصد سام حجرة النوم المجاورة لحجرة الجلوس في حين وقف تشارلز بجانب النافذة. وبينما كان ينظر الى الاسفل شاهد في الضوء المنبعث من نوافذ الحانة صبيا صغيرا يعدو صوب الجهة الاخرى من الشارع، ومن ثم يعبره من تحت نافذته، ويتوارى عن الانظار. واوشك ان يرمي حزامه، ثم صرخ اذ حدس ان هذا هو حامل الرسالة ثانية. وقف في حمى من الحرج، كان هناك توقف طويل يكفيه لكي يبدأ بالتصديق انه كان على خطأ. خرج سام من حجرة النوم، وسار صوب الباب. وفي تلك اللحظة سمع صوت طرق. ففتح سام الباب.

كان الطارق هو سائس الخيل، وقد ارتسمت ابتسامة غبية على وجهه وكان يحمل رسالة في يده.

- انه نفس الصبي يا سيدي. وقد سألته فأجاب انها المرأة نفسها كما في السابق يا سيدي، الا انه لا يعرف اسمها. اننا ندعوها...

- نعم، نعم. ناولني الرسالة.

اخـــذ سام الرسالة وناولها لتشارلز. وكانت ثمة عجرفة صامتة، معرفة تتسم بالـــسخرية، من تحت قناع خدمته. اشار باهامه الى السائس، وغمز له غمزة سرية فانـــسحب. واوشك سام ان يلحق به، غير ان تشارلز ناداه. وتوقف وهو يبحث عن عبارة دقيقة، مقبولة بما فيه الكفاية.

- لقـــد ورطـــت نفـــسي يـــا سام في قضية امرأة سيئة الحظ هنا. لقد تمنـــيت... اقـــصد، لا أزال اتمنى ان يكون الموضوع بعيدا عن السيدة ترانتر. فهمت؟

- تماما يا سيد تشارلز.

- ارجـــو ان اتمكن من تحديد الشخص الذي يكون في موضع مناسب اكثر لقدرها. بعد ذلك سأخبر السيدة ترانتر. انها مفاجأة صغيرة. مكافأة صغيرة لحسن ضيافة السيدة ترانتر. انها مهتمة بها.

تظاهـــر سام بسلوك وصفه تشارلز لنفسه بسام الخادم الطاعة العمياء لاوامر ســـيده. وكـــان ذلـــك بعيدا جدا عن سلوك سام الحقيقي حتى ان تشارلز اغري بالاستمرار في تعثره وتخبطه.

- اذا لـــن تـــتحدث عن هذا الموضوع لاي شخص على الرغم من انه عديم الاهمية.

- لا يا سيد تشارلز.

بدا سام كأنه تعرض لصدمة تشبه صدمة اتهام راعي الابرشية بالمقامرة.

الـــتفت تـــشارلز صوب النافذة، وتلقى دون وعي نظرة من سام، استمدت تأثيرها الاكبر من زم شفتيه على نحو غريب وايماءة من رأسه، ثم فتح الرسالة الثانية بينما اغلق الباب من وراء الخادم.

«انتظرتك طيلة النهار. ارجوك، انا امرأة تتوسل اليك متذللة ان تساعدها في يأســـها، وساقـــضي اللـــيل ابتهل من اجل حضورك. وسأكون منذ الفجر عند مـــستودع البـــيت الصغير قرب البحر، والذي يوصل اليه باول ممر الى اليسار بعد الحقل».

كانت الرسالة مفتوحة بسبب الافتقار الى الشمع من غير ريب وهذا ما يفسر كتابـــتها بلغة فرنسية مميزة لمربية. كانت مكتوبة بالقلم الرصاص، على نحو عاجل

قـــرب باب احد الاكواخ او في الجرف - اذ كان تشارلز يعرف انها التجأت الى ذلـــك المكان. ولا بد ان الصبـــي هو ابن احد الصيادين الفقراء من منطقة الكوب - فهناك طريق يهبط من الجرف الى الكوب، يتحاشى ضرورة المرور بالمدينة نفسها، لكن يا للتهور الذي ينطوي عليه هذا الاجراء، يا للمغامرة!

الفرنسيون! فارغون!

دعـــك تشارلز الورقة في قبضته في حين اعلن وميض البرق النائي عن اقتراب العاصـــفة، وفي حين كان ينظر من وراء النافذة، تطايرت اول قطرات المطر الثقيلة والبطيـــئة علـــى زجاج النافذة، وتساءل: اين هي؟ فلاحت له صورتها وهي تعدو مـــبللة تحت البرق والمطر وجذبته بعيدا عن قلقه الحاد الموجه الى ذاته. كان هذا لا يحتمل! بعد يوم كهذا!

انـــني ابالغ في استعمال علامات التعجب، لكن بينما كان تشارلز يخطو جيئة وذهابـــا، تدفقت الافكار وردود الافعال ازاء ردود الافعال تدفقا غاضبا في رأسه. توقف قرب النافذة الناتئة وحدّق الى شارع رود. وفجأة تذكر ما قالته عن اشجار الـــشوك الـــتي تسير فيه. استدار وانشب اظافره في صدغيه، ثم دخل حجرة النوم ونظر الى وجهه في المرآة.

الا انـــه عرف جيدا انه كان يقظا. وظل يقول مخاطبا نفسه: لا بد من عمل شيء ما، لا بد ان اتصرف. وانتابه نوع من الغضب لضعفه - اصرار هائل على ان يـــبدي مـــا يـــشير الى انه اكثر من مجرد صدفة متحجرة يتقاذفها التيار، وان في مستطاعه ان يوجه ضربته ضد السحب السود التي تغلفه. لا بد له من الحديث الى شخص ما، لا بد ان يكتشف عن روحه.

عاد ثانية الى حجرة الجلوس وجذب السلسلة الصغيرة المتدلية من ثريا الغاز، فـــتحول الـــوهج الاخضر الشاحب الى وهج ابيض كما جذب بقوة حبل الجرس القريب من الباب. ولما حضر النادل العجوز ارسله تشارلز لجلب مزيج من شراب عصير التفاح والبراندي الذي كان من شأنه ان يترك العديد من الفكتوريين فاقدي الوعي.

لم تمـــضِ اكثـــر من خمس دقائق، حتى توقف سام مندهشا وهو يحمل صينية العشاء في منتصف السلالم لمراى سيده وقد احمرت وجنتاه وهو يهبط للقائه مرتديا

ثـــوبه الخارجي المصنوع في بلدة انفرنس[86]. توقف تشارلز على بعد درجتين منه، ورفع الغطاء الذي يغطي المرق البني، لحم الضأن والبطاطا المسلوقة ثم واصل هبوطه السلالم دون ان ينبس ببنت شفة.

- سيد تشارلز؟

- تناول العشاء انت.

وذهـــب السيد - بخلاف سام الذي ظل واقفا في مكانه ولسانه يلمس وجنته اليسرى وعيناه ثابتتان فوق حاجز السلالم الى جانبه.

---

(86) انفـــرنس: بلدة اسكتلندية تحيط بها التلال من ثلاثة جوانب وتعد نقطة التقاء الطرق الممتدة بين منطقة الهايلاندز والمنطقتين الجنوبية والشرقية من اسكتلندا. (المترجم)

26

دعوني اخبركم يا اصدقائي ان الشيء كله يعتمد
على حق اقليمي موغل في القدم

لويس كارول: بحثا عن سنارك 1876

كـــان اثر ماري في ذهن الشاب اللندني اثرا متصلا. لقد احب ماري لذاتها، شأنه في ذلك شأن اي شاب اعتيادي يمتلك مثل احاسيسه النابضة بالحياة. غير انه احـــبها ايـــضا للدور الذي ادته في احلامه – وهو ليس ابدا ذلك النوع من الاداء الذي تؤديه الفتيات في احلام الشبان في عصرنا الذي لم يعد فيه خيال او محرمات. ففي معظم الاحيان، كان يشاهدها وراء النضد في محل احد الرجال. وكان الزبائن الـــبارزون مـــن الذكـــور في جمـــيع انحاء لندن يأوون الى ذلك الوجه الشهواني كالمـــسحورين. وكانت الشوارع في الخارج معتمة بسبب قبعاتهم المرتفعة، اصابهم الصمم بفعل عجلات عرباتهم.

كان يدرك تمام الادراك ان المسألة لا تعدو اكثر من حلم. غير ان ماري، اذا جـــاز التعـــبير، كانت تؤشر هذه الحقيقة. والاكثر من هذا، كانت تزيد من حدة ملامح الشيطان المخيفة الواقف في طريق تحقيقه. اسمه؟

ربمـــا كان عدو الجنس البشري هذا الموجود في كل مكان هو الذي ظل سام يحـــدق بـــه في حجرة جلوس سيده، حيث استرخى على راحته – بعد ان شاهد تـــشارلز اولا وهو يتوارى عن الانظار بأمان في ادنى شارع برود، وقد زم شفتيه ثانـــية على نحو غامض – وهو يتلهى بعشائه الثاني: ملعقة مليئة او ملعقتان بالمرق قطـــع مختارة من لحم الضأن، اذ كان سام يملك كل غرائز الشخص الرفيع المنـــزلة علـــى الرغم من عدم امتلاكه ثرواته. غير انه يحدق الان ثانية في الفضاء من وراء قطعـــة مـــن اللحم مغمسة بمرق براعم الكَبَر الخضراء المخللة ولا يزال يمسك بها بشوكته على الرغم من عدم احساسه بسحرها.

ان كلمـــة مـــال Mal – اذا كان في وسعي ان اضيف شيئا الى ذخيرتك من المعلومات غير المفيدة – هي كلمة انكليزية قديمة مأخوذة عن اللغة النرويجية القديمة

وجــاءت اليــنا عن طريق الفايكنغ. وكانت تعني في الاساس **كلام**، ولكن بما ان الــوقت الوحيد الذي ذهب فيه الفايكنغ الى النشاط النسوي كان يتمثل في طلب شــيء بقوة الفأس، فقد اصبح معناها ضريبة او دفع الجزية، وقد ذهب رهط من الفايكنغ الى الجنوب، وانشأوا المافيا في صقلية، الا ان رهطا اخر - وكانت كلمة **مال** تلفظ انذاك ميل - انهمك في القصف والعربدة على الحدود الاسكتلندية. واذا مــا اراد شــخص حماية محصوله او عذرية ابنته، فانه يدفع الميل لرؤوساء القبائل المجــاورة. واخذ الضحايا يطلقون على ذلك وبمرور الزمن كلمة **الضريبة السوداء** black mail **اي الابتزاز**.

من المؤكد ان سام كان يفكر في معنى الكلمة ان لم يكن مستغرقا في تأملات بأصــل الكلمة وتاريخها. فقد خمن على الفور من هي **المرأة السيئة الحظ**. فحادثة مــن مثل طرد امرأة الضابط الفرنسي تعد مادة ممتعة لا يمكن لها الا ان تدور على ألسنة الجميع في بلدة لايم في ذلك اليوم. وقد سمع سام قبل الان مصادفة محادثة في المــشرب عندما جلس ليتناول عشاءه الاول الذي لم يكمله. وكان يعرف من هي ســارة لأن مــاري اتــت على ذكرها امامه ذات يوم. وكان يعرف ايضا سيده وتــصرفاته؛ لم يكن على طبيعته، بل كان قد عزم على امر ما، وهو في طريقه الى مكان ما وليس الى بيت السيدة ترانتر. وضع سام الشوكة جانبا وفيها لقمته، وبدأ يــضرب جانب انفه ضربا خفيفا. وهي علامة لم تكن غير مألوفة في المراهنات في نــيوماركت عــندما يــشم رجل مقوس الساقين رائحة جرذ مقنع بقناع حصان الــسباق. غير انني اخشى ان الجرذ هنا هو سام وان الشيء الذي اخذ يشم رائحته هو سفينة غارقة.

كــان الناس في الطابق السفلي في وينــزيات يعرفون جيدا ماذا يحدث. فقد خــرج العــم لمضايقة ابن اخيه. واحتقروا تشارلز لعدم زيارته كثيرا سير روبرت وتملقه له كلما سنحت الفرصة، وكان دافعهم في ذلك هو الاحترام الفطري الذي تــشعر بــه الطبقة العاملة الريفية ازاء الرعاية الزوجية. لقد كان ينظر الى الخدم في تلك الايام على انهم افضل بقليل من الاناث وغالبا ما نسي اسيادهم ان لديهم أذانا وعقــولا. فالحــديث الساخن بين الرجل العجوز ووريثه لم يمضِ دون ملاحظة او مناقــشة. وعلى الرغم من وجود ميل بين النساء الشابات للاحساس بالشفقة على

تشارلز الوسيم، فإن القسم الاكثر حكمة تبنى موقفا يشبه موقف النحلة من الجرادة الكسول. لقد اشتغلوا طيلة حياتهم من اجل كسب قوتهم، وكانوا سعداء لرؤية تشارلز يتلقى العقاب بسبب كسله.

يضاف الى ذلك ان السيدة تومكنز التي كانت مغامرة من الطبقة الوسطى العليا بالغت مبالغة ذكية من اجل الفوز بالحظوة عند مدبرة المنزل وكبير الخدم وهو امر ارتابت فيه كثيرا ايرنستينا. وقد وضع هذان البارزان علامة الموافقة - او الموافقة على الزواج - على الارملة المكتنزة المسرفة في التعبير عن عواطفها التي اوضحت لمدبرة المنزل عند مشاهدتها طقم الاثاث والمفروشات غير المستعملة في الجناح الشرقي الذي سبق ذكره، ان غرف هذا الجناح من شأنها ان تغدو مناسبة تماما للاطفال. صحيح ان السيدة تومكنز لديها ولد واحد وابنتان من زواجها الاول، الا انها كانت - برأي مدبرة المنزل الذي نقلته لكبير الخدم السيد بنسون - تصلح تماما للانجاب ثانية.

- قد تكون بنات يا سيدة تروتر.

- انها مجربة يا سيد بنسون، تذكر ما اقوله لك الان. انها مجربة.

رشف كبير الخدم شايه، واضاف.

- وتمنح اكرامية جيدة وهو ما لم يفعله تشارلز وهو احد افراد الاسرة.

تناهى الى سمع سام هذا الموضوع في حين كان ينتظر عودة تشارلز في غرفة الخدم. لم يكن الموضوع ممتعا بخصيصته او ممتعا بالقدر الذي كان يتعين فيه على سام، بوصفه خادم الجرادة، ان يسهم في جزء من الحكم العام الصادر بحقه. و لم يكن هذا كله عديم الصلة بما يشبه الخيط الثاني الذي احتفظ به سام دوما لقوسه: انه حلم لا بديل له رأى فيه نفسه في الموقع الرفيع نفسه في وينزيات الذي يشغله السيد بنسون الان. بل انه زرع هذه البذرة مصادفة في ذهن ماري وهو يدرك تماما انها ستنمو لو شاء ذلك، اذ ليس من المستحب ان يشاهد بذرة شخص ما رقيقة وقد اقتلعت اقتلاعا وحشيا حتى لو لم تكن البذرة الاثيرة.

لم يقل تشارلز كلمة واحدة لسام عندما غادرا وينزيات. لهذا فإن سام لا يعرف رسميا اي شيء عن اماله القائمة. غير ان وجه سيده القاتم كان عمليا يتّسم بالمعرفة والدراية.

والان هذا.

اخـــيرا اكــــل ســـام قطعة الضأن المتحجرة ومضغها وابتلعها. وكانت عيناه تنظران طيلة الوقت الى المستقبل.

لم تكن مقابلة تشارلز عمه مقابلة عاصفة لانهما شعرا بالذنب - العم، بسبب مـــا كان يفعله، وابن الاخ، بسبب ما اخفق في تحقيقه في الماضي. وكان رد فعل تـــشارلز للخـــبر الذي نقل اليه على نحو قاطع ولكن دون ان تلتقي فيه النظرات، مؤدبا تماما بعد الصدمة الباردة الاولى.

- لا استطيع الا ان اهنئك يا سيدي، واتمنى لك كل السعادة.

امـــا عمه الذي جاء اليه في حجرة الاستقبال، فقد اعرض بوجهه صوب الـــنافذة كأنمـــا ليستمد الشجاعة من فدادينه الخضراء. وشرح شرحا مختصرا عواطفه. لقد رفض اول الامر: وقد حدث ذلك قبل ثلاثة اسابيع، الا انه ليس بالـــرجل الـــذي يولي الادبار لدى اول رفض. فقد شعر بوجود تردد محدد في صـــوت السيدة. وقبل اسبوع واحد من سفره بالقطار الى لندن والعودة ثانية كانـــت العقـــبة قد ازيلت بنجاح. «قالت لا، ثانية يا تشارلز، الا انها كانت تبكي. وعرفت انني انتهيت». من الواضح ان التفوه بكلمة **نعم** على نحو قاطع استغرق يومين او ثلاثة ايام اخرى.

- واذ ذاك يـــا ولدي العزيز، ادركت ضرورة مواجهتك. فانت اول شخص اخبره بالموضوع.

غير ان تشارلز تذكر انذاك تلك النظرة المشفقة من السيدة هوكنـــز العجوز؛ لا بـــد ان الخبر وصل الى الجميع الان في وينـــزيات. وقد منح اسلوب سرد العم المختـــنق الى حـــدّ ما لملحمة حبه الوقت لتشارلز كي يستوعب الصدمة. شعر انه كمـــن جلـــد واهين. الا انه لم يملك سوى دفاع واحد: ان يتقبل الامر بهدوء، ان يظهر الرجل الرزين ويخفي الصبـــي الثائر.

- انني اقدر دقتك يا عمي.

- لـــديك كل الحق في ان تسميني الاحمق العجوز الخرف. ولسيفعل هذا كل الجيران.

- الاختيارات الاخيرة هي الافضل دوما.

– انها امرأة لطيفة يا تشارلز، لا تشبه واحدة من آنساتك الرقيقات المعاصرات الملعونات.

فكر تشارلز في لحظة قاسية ان عبارته استخفاف بايرنستينا غير انها غير مقصودة. واسترسل عمه دون وعي.

– انها امرأة صريحة. يظن بعض الناس اليوم ان هذه الميزة تشير الى ان المرأة مهاجمة. الا انها ليست كذلك.

وهنا استعان بصورة من حديقته:

– مستقيمة مثل شجرة دردار.

– لم افترض لحظة واحدة انها يمكن ان تكون خلاف ذلك.

واذ ذاك نظر اليه العم نظرة ذكية، ومثلما لعب سام دور الخادم المطيع امام تشارلز، فإن تشارلز لعب أحيانا دور ابن الاخ الذي يحترم الرجل العجوز.

– فكرت انك قد تكون غاضبا على ان تكون...

كان على وشك ان يقول مثل سمكة باردة، الا انه سار ووضع ذراعه فوق كتف تشارلز، اذ حاول ان يبرر قراره باثارة الغضب ضد تشارلز – وقد كان رجلا رياضيا جيدا جدا لا يمكنه ان يغفل ان ذلك سوى تبرير وضيع.

– اللعنة الان يا تشارلز. لا بد من ان اقول ان هذا الامر يحدث تغييرا في مستقبلك. ففي سني، الله يعلم...

اراد ان يقول **ان العصفور المغرد** غير انه رفض ذلك.

– لو حدث ذلك يا تشارلز، فانني احب ان تعلم انك لن تبقى دون ثروة بغض النظر عن نتائج الزواج. انا لا استطيع ان امنحك البيت الصغير، الا انني اؤكد ان في وسعك اخذه واعتباره ملكك طالما بقيت انت على قيد الحياة. واحب ان يكون هذا البيت هدية الزفاف لك ولايرنستينا اضافة الى تكاليف الترميمات الضرورية.

– هذا كرم لطيف منك. غير انني اعتقد اننا قررنا بشكل او بآخر ان ننتقل الى بيت بيلغرافيا عندما ينتهي عقد الايجار.

– نعم، نعم، لكن لا بد لك من بيت في الريف. لن ادع هذا الموضوع يقف بيني وبينك يا تشارلز، ولسوف اهبه غدا لو ان...

تمكن تشارلز من انتزاع ابتسامة.

- لا تكن ساذجا. كان في مستطاعك ان تتزوج منذ سنين طويلة.

- هذا جائز. غير ان الحقيقة هي انني لم اتزوج.

سار بعصبية صوب الجدار، وعدل من وضع احدى الصور. ظل تشارلز صامتا، ربما شعر باستياء اقل لصدمة الخبر من التفكير بحلمه المتهور في التملك عندما كان يتجه الى وينزيات. كان على الشيطان العجوز ان يكتب وصيته. غير ان ذلك من شأنه ان يكون جبنا عند الشيطان العجوز. وعاد من مكانه قرب اللوحة.

- انت شاب يا تشارلز، وقد قضيت نصف حياتك في السفر. ولا تعرف الى اي حدّ اشعر بالسأم بسبب الوحدة، الا انني اقضي نصف الوقت مفكرا انني اشبه بالميت.

همس تشارلز.

- ليس لدي فكرة...

- لا، لا، لا اقصد اتهامك، فأنت تعيش حياتك.

الا انه ظل يلوم تشارلز سرا، شأنه شأن العديد من الرجال الذين ليس لديهم اولاد، لتقصيره فيما كان يتوقع ان يفعله كل ابن: ان يكون مطيعا ومحبا. من شأن ابوة حقيقية قصيرة الامد ان تجعله يدرك انها حلم وموغل في عاطفيته.

- على اي حال، هناك اشياء لا تستطيع الا المرأة ان تقوم بها. كل الاشياء القديمة المعلقة على الجدران في هذه الغرفة الان. الاحظتها؟ لقد وصفتها السيدة تومكنز ذات يوم بانها كئيبة. اللعنة. انني اعمى. لقد كانت حقا كئيبة. هذا ما تفعله المرأة. انها تجعلك ترى ما موجود امامك تماما.

شعر تشارلز انه يريد تحت تأثير الاغراء ان يقترح ان النظارات تؤدي نفس الغرض وعلى نحو ارخص. بيد انه احنى رأسه علامة الادراك، في حين لوح سير روبرت متملقا.

- ما رأيك بهذه الاشياء الجديدة؟

اضطر تشارلز عندئذ الى ان يبتسم ابتسامة عريضة. لقد كانت احكام عمه الجمالية محددة منذ زمن طويل بقضايا من مثل عمق الجزء العلوي من كاهل الفرس

وتفـــوق جو مانتون على كل صناع البنادق المعروفين على امتداد التاريخ. وكان سؤاله يشبه سؤالا يطرحه احد القتلة، ويطلب رأيه في اغاني الاطفال.

- تطور كبير.

- صحيح تماما. هذا ما يقوله الجميع.

عض تشارلز شفته.

- متى سألتقي السيدة؟

- في الحقيقة، انا اوشك ان اتطرق الى هذا الامر. انها تواقة الى التعرف اليك. هناك مسألة في منتهى الدقة يا تشارلز... حسنا... كيف اعبر لك عنها؟

- تحديد امكانياتي المادية؟

- صـــحيح تماما. لقد اعترفت في الاسبوع الماضي انها رفضتني اول الامر لهذا السبب.

ادرك تشارلز ان هذا الامر يفترض فيه ان يكون اطراء، وابدى دهشة لطيفة.

- غير اني اكدت لها انك اخترت رفيقة ممتازة، وان من شأنك ان تدرك وان توافق على خياري لشريكتي... للبقية الباقية من عمري.

- لم تجب عن سؤالي بعد يا عمي.

ظهر السير روبرت خجلا الى حدّ ما.

- انها تزور اسرتها في مقاطعة يوركشاير، فهي، كما تعلم، من عائلة داوبينيز.

- حقا!

- سألتحق بها يوم غد.

- اه.

- وفكّرت ان افضل طريقة لانهاء الموضوع هي الصراحة التامة. الا انها تواقة جدا للقائك.

تردد عمه، ثم مد يده إلى جيبه، خجلا على نحو ساذج، واخرج علبة صغيرة.

- اعطتني هذه العلبة لك الأسبوع الماضي.

حـــدّق تشارلز بالعلبة المعدنية النفيسة ذات الاطار الذهبـــي والى اصابع عمه الضخمة، كانت العلبة تحتوي على تذكار رسم السيدة تومكنـــز، وقد بدت امرأة شـــابة، مكتنـــــزة الشفتين، وذات عينين حازمتين - لا تفتقران الى الجاذبية حتى

لــشخص مــثل تشارلز. ومما يثير الغرابة، كان ثمة شبه قليل بوجه سارة، وهكذا اضــيف بعد جديد اخر لاحساس تشارلز بالذل والحرمان. لقد كانت سارة امرأة تفتقــر الى الخبرة العميقة، اما هذه المرأة فهي تعرف العالم كله. الا ان كل واحدة منهما وباسلوبها المختلف تقف على النقيض من قطيع النساء الرقيقات عامة، وهو امر كان عمه محقا فيه. ففي لحظة شعر انه اشبه بقائد جيش ضعيف يدرس ترتيبات العدو القوية. وتوقع بوضوح شديد بنتيجة المواجهة بين ايرنستينا وسيدة سميثسون مستقبلا، فوجد انها هزيمة منكرة.

- ادرك ان لدي سببا اخر لتهنئتك.

- انها امرأة رائعة، امرأة ممتازة. جديرة ان ينتظرها المرء يا تشارلز.

- لكزه عمه في عظام صدره.

- ستكون غيورا. انتظر وسترى.

حدق ثانية بالعلبة المعدنية الصغيرة، واغلقها على نحو مهيب، ومن ثم وضعها في جيبه. وبجدة جعل تشارلز يرافقه الى الاصطبلات - كأنه يريد بذلك ان يعادل تملقــه - لمــشاهدة فرسه الاخيرة الاستيلادية التي اشتراها بمبلغ يقل مئة جنيه عما تــستحقه وقــد بدت هذه الفرس غير واعية تماما، الا انها واضحة توزاي في ذهنه مكتسباته الاخرى.

كانــا سيدين مهذبين وحرصا على تفادي الخوض في مناقشة الموضوع الذي شــغل الحيز الاكبر من اهتمامهما مناقشة مستفيضة ان لم يكن تفادي الاشارة اليه تماما (اذ كان السير روبرت محظوظا دوما لا يترك فرصة الا وتحدث فيها). غير ان تــشارلز اصر على وجوب الرجوع الى بلدة لايم وخطيبته في ذلك المساء. اما عمه فلم يعترض اعتراضا يذكر الان بعد ان كان في الايام الخوالي يصاب بالوجوم عند تــركه علــى هــذه الحال. ووعده تشارلز ان يناقش موضوع البيت الصغير مع ايرنــستينا وان يحضرها معه للتعرف الى عروسة المستقبل حالما يتمكن من ترتيب الامــور تــرتيبا ملائمــا. غير ان دفء عمه في الدقيقة الاخيرة ومصافحته اياه لم يستطيعا اخفاء الحقيقة بأن الرجل العجوز قد استراح لرؤيته وهو ينصرف.

استطاعت الكبرياء ان تثبت تشارلز، وتدعمه في غضون الساعات الثلاث او الاربــع مــن الزيارة، غير ان عودته كانت مسألة حزينة. اذ بدا العشب والمراعي

والاســـيحة والبساتين الخلابة تنساب من بين اصابعه مثلما كانت تناسب من امام ناظريه انسيابا بطيئا. وشعر انه لا يرغب في رؤية وينـــزيات ثانية. كما غدت سماء الـــصباح الزرقاء ملبدة بستار عالٍ من الغيوم، منذرة بزوابع رعدية سمعناها توا في بلدة لايم وسرعان ما اخذ ذهنه يغور عميقا في مناخ مشابه من الاستبطان الكئيب.

كـــان هذا الاستيطان موجها الى حدّ كبير ضد ايرنستينا. فقد كان يعلم ان عمــــه لم ترقه تصرفاتها التافهة، الصعبة الارضاء، وافتقارها التام تقريبا الى الاهتمام بالحـــياة الريفية. ولا بد انها ظهرت لرجل وهب الكثير من حياته لتربية الحيوانات مـــدخلا جديدا بائسا لماشية رفيعة من مثل اسرة سميثسون. ثم ان أحد الروابط التي كانـــت تـــربط دوما بين العم وابن اخيه تمثلت في العزوبية – ربما فتحت سعادة تـــشارلز عــــيني السير روبرت قليلا. واذا ما تزوج هو فلم لا اتزوج انا؟ ثم هناك الـــشيء الوحيد الذي استحسنه العم في ايرنستينا استحسانا كاملا: مهر زواجها الهائـــل. الا ان ذلــــك هـــو السبب نفسه الذي سمح له بتجريد تشارلز من الملكية بضمير مرتاح.

غـــير ان تـــشارلز قـــبل كل شيء، شعر انه في وضع غير مريح من الدونية بخصوص ايرنستينا. لقد كان دخله من املاك والده يكفي احتياجاته دوما، بيد انه لم يـــزد الـــرأسمال. وبوصفه سيد وينـــزيات مستقبلا، ففي مستطاعه ان ينظر الى نفـــسه علــــى انه يساوي العروس في ثروتها... وبما انه صاحب الدخل، فلا بد ان يغـــدو عالة مالية عليها. فكره هذا الشيء، واصبح اصعب على الارضاء من معظم شـــبان طبقـــته وسنه. لقد كان البحث عن المهر عندهم (في ذلك الوقت، اصبح الـــدولار مقـــبولا مثل الجنيه الاسترليني) مسعى شريفا شأن صيد الثعالب او لعب القمـــار. ربمـــا كان ذلك هو السبب: شعر بالاسف على نفسه الا انه عرف ان القليلين من شأنهم ان يشاطروه مشاعره. بل ان ذلك زاد من استيائه بأن الظروف لم تجعـــل ظلـــم عمه اكبر من ذلك: ولو انه صرف وقتا اطول في وينـــزيات، او لنفترض انه لم يلتقِ ايرنستينا في المقام الاول...

غير ان ايرنستينا، وضرورة اظهار الصبر على الشدائد، كانا اول شيء يخرجه من بؤسه في ذلك النهار.

27

كم جلست متأملا

شبابي الغريب المشوه،

باحثا بلا جدوى في كل خزائني،

عن شعور واحد يعتمد على الصدق...

ثابت مثل ثبات فؤادي،

متذبذب كما ينبغي ان يكون،

فانه حسن للاخرين ولي

جاف مثل غبار الصيف.

الانفعالات تأتي، والفعل والكلام

ينسابان انسيابا حرا الى الامام: - لكن لا،

لا هي ولا اي شيء اخر بوسعها ان تصل إلى

العالم المدفون في الاعماق

اي. اج. كلف: قصيدة 1840

فتحت مدبرة البيت الباب. فقد كان الطبيب في غرفة المعاينة، على ما يبدو؛ لكن اذا رغب تشارلز في الانتظار في الطابق العلوي... وهكذا، سرعان ما وجد نفسه بعد ان نزع قبعته ورداءه الخارجي الفضفاض في تلك الغرفة نفسها التي احتسى فيها المشروبات المفضلة واعلن انه من انصار... كانت النار تضطرم في الموقد وكان الدليل على عشاء الطبيب المتروك موضوعا فوق منضدة دائرية، والذي اسرعت المدبرة في نقله، قرب النافذة المطلة على البحر. وسمع تشارلز على الفور صوت اقدام على السلالم. تقدم بعدها غروغان موحيا بالدفء الى داخل الغرفة. مادا يده.

- تسرني رؤيتك يا سميثسون. تلك المرأة الغبية الان - ألم تعطك شيئا لمقاومة المطر؟

- شكرا لك.

كان يوشك ان يرفض الشراب المفضل، الا انه غير من رأيه. لما اصبح الكأس في يده، افصح عن هدفه.

- لدي موضوع سري وشخصي اريد مناقشته. انني احتاج الى نصيحتك.

وهـــنا ظهر بريق خافت في عيني الطبيب. لقد سبق ان قدم اليه شبان كثيرون مهذبون قبل زواجهم بوقت قصير. بعض الحالات كانت السيلان، حالات اقل من الـــسفلس؛ أحيانا لم يكن هناك سوى الخوف، الخوف من الاستمناء. وكانت ثمة نظرية شائعة في ذلك الوقت تزعم ان الاستمناء يؤدي الى العنة، غير ان ذلك ليس ســـوى جهل. فقبل عام واحد لا اكثر حضر زوج شاب بائس، بلا اولاد، لرؤية الطبيب غروغان الذي اضطر ان يفسر له ان الحياة الجديدة لا تحدث ولا تولد من خلال السرة.

- اتعلـــم؟ حـــسنا، لست متأكدا من وجود بقية من النصائح الطبية لدي - لقـــد اعطـــيت كمـــية كبيرة منها اليوم. اساسا فيما يخص ما ينبغي عمله بشأن تلـــك المتعـــصبة العجـــوز اللعينة في منـــزل مارلبورو. اسمعت ما الذي اقدمَتْ عليه؟

- هذا هو حقا الموضوع الذي ارغب في التحدث عنه واياك.

اخذ الطبيب شهيقا ينم عن الارتياح، وقفز ثانية الى الاستنتاج الخاطئ.

- آه، من المؤكد ان السيدة ترانتر قلقة. ابلغها نيابة عني اننا سنفعل كل ما في وســـعنا. هناك مجموعة من الناس تبحث عنها. وقد عرضت مبلغ خمسة باوندات للرجل الذي يأتي بها.

ازدادت المرارة في صوته.

-... او يعثر على جثة المخلوقة البائسة.

- انها على قيد الحياة. لقد تلقيت رسالة منها قبل قليل.

اطـــرق تشارلز امام نظرة الطبيب التي تنم عن الدهشة. ثم وجه كلامه اول الامر الى كأسه، ومن ثم شرع يقول الحقيقة عن لقاءاته بسارة - اي، كل الحقيقة تقريبا، لأنه ترك مشاعره الخاصة و لم يأتِ على ذكرها. وتمكن، او حاول، ان يلقي جزءا من اللوم على الطبيب غروغان وحديثهما السابق، معطيا لنفسه نوعا من المكانة العلمية لم يفشل الـــرجل القصير القامة والذكي من ملاحظتها. ان الاطباء الكبار في السن والقساوسة الكـــبار في الـــسن يشتركون في شيء واحد: فهم يقدرون على اكتشاف الكذب او الغش، سواء كان ظاهرا او يمارس، كما هو في حالة تشارلز، بدافع الحرج. وبينما هو

مسترسل في اعترافه، بدا طرف انف الطبيب غروغان ينتفض على نحو مجازي. وقد اشر هذا الانتفاض اللامرئي شيئا يشبه تماما اسلوب سام في زم شفتيه. لم يظهر الطبيب اي اشـــارة تدل على شكوكه. وبين الفينة والفينة طرح بعض الاسئلة، الا انه ترك تشارلز عموما يتحدث حديثا متعثرا على نحو متزايد حتى نهاية قصته. ثم نهض واقفا.

– حـــسنا. لنفعل الاهم قبل المهم. لا بد لنا من استدعاء المساكين. الباحثين عنها اولا.

كان الرعد الان اقرب بكثير من السابق وعلى الرغم من ان الستائر كانت مسدلة، فقد اهتز وميض البرق الابيض في انسجتها من وراء ظهر تشارلز.

– لقد اتيت بأسرع ما استطيع.

– نعم. لست موضع لوم في ذلك. الان دعني افكر.

جلس الطبيب من وراء مكتب صغير في مؤخر الغرفة. مرت لحظات لم يسمع فـــيها اي صوت سوى صوت قلمه الحبر وهو يكتب به كتابة سريعة. ثم قرأ بعد ذلك ما كتبه امام تشارلز.

«عزيزي فورسايث. وصلني خبر في هذه اللحظة يفيد ان الانسة وودراف في امـــان. وهي لا ترغب في الافصاح عن مكان وجودها، وفي وسعك ان تهدأ بالا. ارجو ان تصلني اخبار اخرى عنها يوم غد. ارجو اعطاء هذه المرفقات الى مجموعة الباحثين لدى عودتهم».

ثم قال لتشارلز:

– ايكفي هذا؟

– ممتاز. سوى ان المرفقات يجب ان تكون من عندي.

ثم اخـــرج محفظة صغيرة مزركشة من صنع ايرنستينا، ووضع ثلاثة جنيهات اســـترلينية ذهبية فوق المكتب ذي الغطاء الاخضر الى جانب غروغان. فدفع هذا اثنين منها جانبا، ثم رفع بصره، ورمق تشارلز بنظرة وابتسم.

– الـــسيد فورسايث يحاول الغاء المشروب المفضل الجهنمي. اعتقد ان قطعة واحدة من الذهب تكفي.

ثم وضـــع الرســـالة وقطعـــة النقد في داخل الظرف وختمه، وذهب لاتخاذ الترتيبات لارسال الرسالة على نحو عاجل.

وعاد وهو يتحدث.

- والان، الفـــتاة مـــا الذي ينبغي عمله بشأنها؟ اليست لديك اي فكرة عن مكان وجودها في هذه اللحظة؟

- لا، ابدا على الرغم من انني متأكد انها ستكون صباح الغد في المكان الذي اشارت اليه.

- لكـــنك حتما لن تستطيع الذهاب الى هناك، فانت لا تستطيع في وضعك هذا المجازفة بأي فضيحة اخرى.

نظر تشارلز اليه، ثم خفض بصره، ونظر الى السجادة.

- انا تحت تصرفك.

نظـــر الطبـــيب نظرة الى تشارلز. لقد اعد الان اختبارا صغيرا يفحص به عقـــل ضـــيفه. وقـــد كـــشف ذلك الاختبار عما كان يتوقعه. استدار واتجه صـــوب رفـــوف الكـــتب القـــريبة من مكتبه، ثم عاد وهو يحمل المجلد نفسه الـــذي ســـبق ان اطلـــع تـــشارلز عليه. وجلس قبالته والمقعد يفصل بينهما. ابتـــسم ابتـــسامة صغيرة، ونظر الى تشارلز من فوق نظارته، ووضع يده فوق الكتاب.

- لن يخرج الى ما وراء جدران هذه الحجرة كل ما قيل فيها او كل ما تبقى من قول.

ثم وضع الكتاب جانبا.

- لم يكن هذا ضروريا يا عزيزي الطبيب.

- الثقة بالطبيب هي نصف العلاج.

ابتسم تشارلز ابتسامة باهتة.

- والنصف الاخر؟

- الثقة في المريض.

الا انه انتصب واقفا قبل ان يتمكن تشارلز من الكلام.

- حسنا الان. لقد اتيت اليّ طالبا النصيحة. اليس كذلك؟

نظـــر الى تشارلز كأنه عازم تقريبا على الملاكمة، لم يعد الايرلندي المازح بل المقاتل. ثم بدا يذرع الغرفة جيئة وذهابا ويداه مثبتتان من تحت سترته.

– انـــني امرأة شابة فائقة الذكاء، حظيت بقسط من التعليم. اعتقد ان العالم ظلمني ولا استطيع السيطرة تماما على عواطفي. اتصرف تصرفات طائشة، من مثل رمـــي نفسي امام نذل وسيم يصادفني في طريقي، والاسوأ من هذا، انني وقعت في هـــوى ان اكـــون ضحية القدر. واستخدم طريقة محترفة جدا للظهور بمظهر المرأة المكتئبة. لدي عينان مأساويتان. ابكي دون سبب. الخ. الخ. والان...

اشار الطبيب القصير القامة بيده صوب الباب كأنه يستحضر السحر.

– يـــدخل شـــاب. ذكي. وسيم. نموذج مثالي للطبقة التي علمتني ثقافتي ان اعجـــب بها. الاحظ انه مهتم بـــي. كلما ظهرت حزينة اكثر، زاد اهتمامه بـــي علـــى ما يبدو. اركع امامه، فيرفعني لاقف على قدمي يعاملني كأنني سيدة. لا، بل اكثر من ذلك. ويعرض عليّ بروح الاخوة المساعدة كي اهرب من قدري البائس.

حاول تشارلز مقاطعة الطبيب الا ان هذا اسكته.

– انـــني في منتهى العجز، لا استطيع ان استخدم أيّا من اساليب الخداع التي تستخدمها بنات جنسي الاوفر حظا في اغواء الرجال نحوهن.

رفع سبابته.

– الا انني املك سلاحا واحدا لا غير. الشفقة التي اثيرها في نفس هذا الرجل الطـــيب القلـــب. ان هـــذه الشفقة تحتاج الى الكثير من التغذية. وقد غذّيت هذا الانسان الطيب بماضيّ فالتهمه. اذا ماذا في وسعي ان افعل؟ لا بد من جعله يشعر بالـــشفقة علـــى حاضري. وذات يوم وبينما اسير في المكان الذي حرم عليّ السير فـــيه، انتهز فرصتي. اظهر امام شخص اعرف تماما انه سينقل جريمتي الى الشخص الوحـــيد الذي لن يغفرها. واذ ذاك اطرد من وظيفتي. فأتوارى عن الانظار في ظل افتراض قوي سببه انني سأرمي نفسي من فوق اقرب قمة جرف. وبعد هذا، وبينما انـــا في النـــزاع الاخير، اصرخ من الاعماق، او على نحو ادق من الاعالي، منادية منقذي ان يهرع الى نجدتي.

توقف وقفة طويلة والتقت عينا تشارلز بعينيه التقاء بطيئا. فابتسم الطبيب.

– من المؤكد اني اقدم فرضية جزئية.

– لكن الهامك المحدد – انها دعت...

جلس الطبيب، وبعث الحياة في الموقد.

– لقـــد اســتُدعيت مبكرا صباح اليوم الى بيت مارلبورو، لم اعرف ما هو الـــسبب – كل ما هناك ان السيدة بــي. كانت متوعكة. وقد اخبرتني السيدة فيرلي – مدبرة المنــزل، كما تعلم – بملخص ما كان قد حدث.

توقف وركز نظره في عيني تشارلز الحزينتين.

– كانت السيدة فيرلي قد ذهبت يوم امس الى حقل مصنع الالبان في وير كليفـــز، وقد سارت الفتاة من امامها بعد ان خرجت من الغابة. ان تلك المرأة تشبه سيدها تمام الشبه وانا واثق انها انجزت مهمتها التالية بكل الرغبة الوضيعة الـــتي تمـــتلكها مثـــيلاتها. غير انني مقتنع يا عزيزي سميثسون انها فعلت ذلك عمدا.

– تقصد...

وهـــنا اومأ الطبيب، بينما القى عليه تشارلز نظرة شنيعة، ومن ثم ثارت ثائرته.

– لا استطيع ان اصدق ذلك، ليس محتملا انها...

لم يفرغ من جملته، اذ همس الطبيب.

– بل محتمل، وااسفاه.

– لكن فقط الشخص الذي يملك...

كـــاد ان يقول **عقـلا منحرفا**، الا انه نهض فجأة، واتجه صوب النافذة، وفتح الـــستارة، وامعـــن النظر الى الليل المدلهم لحظة من الزمن. واضاءت ومضة شاحبة مزرقة من البرق الكوب والشاطئ والبحر الساكن. استدار.

– لقد ارغمت على ذلك، اذا توخينا الدقة.

– نعم. اعتقد انك ارغمت. لكن هذا الارغام يتطلب شخصا كريما. ولا بد لـــك من ان تتذكر ان العقل المشوش ليس عقلا اجراميا. وفي هذه الحالة، يجب ان تـــؤمن ان الـــيأس مـــرض، لا اكثـــر ولا اقل. ان تلك الفتاة مصابة بالكوليرا يا سميثـــسون، بتيفوئيد الملكات العقلية. يجب عليك ان تفكر بها على هذا النحو، لا على اساس انها مدبرة خبيثة.

عاد تشارلز الى الغرفة.

ما هو برأيك غرضها النهائي؟

- اشـــك في ان تعرف هي غرضها النهائي. فهي تعيش يوما بيوم، ولا بد لها من ذلك. فلا يمكن لانسان يمتلك قدرا من بعد النظر ان يتصرف على النحو الذي تصرفت به.

- لكن لا يمكن لها ان تفترض افتراضا جادا ان شخصا في مثل مكانتي...

- بوصفك رجلا قد خطبت فتاة؟

ابتسم الطبيب ابتسامة ضارية.

- لقـــد عرفت مومسات كثيرات. ولا بد لي من الاسراع في القول إن ذلك سببه مواصلة ومتابعة وظيفتي، لا وظيفتهن. واتمنى لو انني كنت املك جنيها واحدا اعطيه لكل واحدة سمعتها تتشفى من ان الغالبية من ضحاياهن الازواج والاباء.

حدق الى الموقد، الى ماضيه.

- انني منبوذة، الا انني سأنتقم.

- انت تجعلها تبدو وكأنها عدو - وهو امر غير صحيح.

تحدث بحماس، والتفت على نحو عاجل.

- لا يمكن ان اصدق هذا عنها.

- لانك تحبها الى حدّ ما، هذا اذا سمحت لرجل عجوز في مثل مقام ابيك ان يقول شيئا كهذا.

استدار تشارلز، وحدق الى وجه الطبيب اللطيف.

- لا اسمح لك ان تقول هذا الكلام.

احنى غروغان رأسه. فاضاف تشارلز في خضم الصمت.

- هذه اهانة كبيرة للانسة فريمان.

- حقا. لكن من هو الذي يوجه الاهانة؟

بلع تشارلز ريقه. لم يكن في وسعه احتمال تلك العينين المغيظتين ونظر نظرة ملية الى الغرفة الطويلة كأنه يريد الانصراف. الا انه قبل ان يتمكن من الوصول الى الباب، امسك به غروغان من ذراعه وجعله يلتفت، ثم امسك بالذراع الثانية. كان قاسيا، كلبا من كلاب الصيد النشطة ازاء مهابة تشارلز.

- الا نـــؤمن كلانا بالعلم ايها الرجل؟ الا نؤمن معا ان الحقيقة هي المبدأ العظيم الاول؟ لماذا قضى سقراط نحبه؟ للاحتفاظ بالوجاهة الاجتماعية؟ اكراما للذوق؟ اتعتقد

انـــني في اثـــناء سنوات عملي الاربعين طبيبا لم اتعلم متى يكون الانسان في شدة؟ ولا يخفي الحقيقة عن نفسه؟ اعرف نفسك يا سميثسون. اعرف نفسك.

لفـــح مزيج النار الايرلندية والاغريقية القديمة في روح غروغان وجه تشارلز. وقـــف وهـــو ينظر مليا الى الطبيب، ثم اعرض بوجهه، وعاد الى الموقد وظهره الى معلمه. ران صمت طويل، وراقبه غروغان على نحو مركز.

اخيرا تكلم تشارلز.

- لم اخلق للزواج. مصيبتي انني ادركت هذا بعد فوات الاوان.

- اقرأت مؤلفات مالثوس[87]؟

هز تشارلز رأسه علامة النفي.

- لقد كان يؤمن ان مأساة الجنس البشري هي ان اقل الناس قدرة على البقاء علـــى قـــيد الحياة يتوالدون اكثر من غيرهم. لهذا، لا تقل انك لم تخلق للزواج يا ولدي. ولا تلم نفسك لانك اغرمت بتلك الفتاة. اعتقد انني اعرف سبب هروب ذلك البحار الفرنسي. لقد كان يعلم ان لها عينين يمكن ان يغرق فيهما اي انسان.

استدار تشارلز وهو يتعذب.

- اقـــسم بـــشرفي المقدس ان شيئا غير لائق لم يحدث بيني وبينها. يجب ان تصدق هذا الكلام.

- اصـــدقك. لكـــن دعني اضعك في اختبار الاستجواب القديم. اترغب في سماعها؟ اترغب في رؤيتها؟ اترغب في لمسها؟

اعرض تشارلز بوجهه ثانية، وتهالك فوق احد المقاعد واضعا وجهه بين يديه. لم يقل شيئا، غير ان ذلك افصح بكل شيء. وبعد لحظة واحدة، رفع رأسه وحملق في الموقد.

- اوه يـــا عزيـــزي غـــروغان، لو كنت تعرف فوضى الحياة التي عشتها، ضـــياعها... لا فائـــدتها. لـــيس لي اي هدف اخلاقي، ولا اي احساس حقيقي بالواجب تجاه اي شيء. قبل اشهر قليلة كنت املك وانا في الحادية والعشرين امالا عظيمة... لكن خاب ظني. والان تجدني اتورط في هذه القضية البائسة...

---

(87) تـــوماس مالثوس (1766-1834): عالم اقتصاد انكليزي، دعا الى كبح التزايد المتعاظم في عدد سكان العالم عن طريق ضبط النسل. (المترجم)

تقدم غروغان صوبه، وامسك بكتفه.

- انت لست اول رجل يرتاب في خياره عروسته.

- انها لا تعلم الا القليل مما انا عليه حقا.

- انهـــا... مـــاذا؟ عشر سنوات اصغر منك؟ و لم تعرفك الا منذ ستة اشهر. كيف تستطيع فهمك اذا الان؟ لقد تخرجت من المدرسة توا.

هـــز تـــشارلز رأســـه مكتئبا. اذ لم يستطع اخبار الطبيب برأيه الحقيقي في ايرنستينا: انها لن تفهمه ابدا. وشعر انه جرد تماما من ذكائه، وانه خذل في اختياره شريكة حياته. اذ كان تشارلز، شأنه شأن الكثير من الفكتوريين، وربما من هم في عصر احدث، يعيش كل حياته تحت تأثير المثالي. هناك بعض الرجال الذين يجدون العـــزاء في فكرة ان هناك نساء اقل جاذبية من زوجاتهم. واخرون تستحوذ عليهم المعـــرفة ان هـــناك من هن اكثر جاذبية. وقد ادرك تشارلز الان بوضوح اكبر مما ينبغي لاي فئة ينتمي هو شخصيا.

قال بصوت خفيض.

- ليست غلطتها. لا يمكن ذلك.

- يجب ان اؤمن بأنها ليست غلطتها. فتاة شابة بريئة كهذه.

- سأوفي بوعدي لها.

- مؤكد.

صمت.

- قل لي ماذا افعل؟

- اولا اخبرني بحقيقة مشاعرك تجاه الفتاة الاخرى.

رفـــع تشارلز بصره يائسا. ثم خفض بصره، ونظر الى الموقد، وحاول في نهاية المطاف ان يقول الحقيقة.

- لا اســـتطيع ان اقول يا غروغان. انني اجد نفسي لغزا ازاء كل ما يخصها. انني لا احبها. وكيف يمكن ذلك؟ امرأة معرضة للشبهات الى هذا الحد، امرأة تعاني مـــن مـــرض عقلي كما تقول لي انت. لكن... انه اشبه... انني اشعر كأنني رجل تـــسلطت عليه فكرة جنونية على الرغم من ارادته - على الرغم من كل الاشياء الحـــسنة في شخصيته. وحتى في هذه اللحظة ارى وجهها يبرز امامي منكرا كل ما

تقول. هناك شيء ما فيها. معرفة، خوف من اشياء انبل من ان تكون متطابقة مع الشر او الجنون، تحت الزيف... لا استطيع ان افسر اي شيء.

- لم انسب الشر اليها. بل الياس.

لا صـــوت ســـوى فرقعة واحد او اثنين من الواح ارضية الغرفة في اثناء سير الطبيب. اخيرا تكلم تشارلز ثانية.

- بماذا تنصحني؟

- ان تترك كل شيء تحت تصرفي.

-اتذهب لرؤيتها؟

- سأنتعل حذائي، واخبرها انك استدعيت على نحو غير متوقع. ولا بد لك من الذهاب يا سميثسون.

- يصادف كثيرا ان تكون لدي مشاغل عاجلة في لندن.

- هـــذا افـــضل. واقتـــرح ان تطرح الموضوع برمته امام الانسة فريمان قبل سفرك.

- قررت قبل الان ان افعل ذلك.

نهض تشارلز على قدميه. الا ان ذلك الوجه ظل ماثلا امامه.

- وهي - ماذا ستفعل انت؟

- الـــشيء الكثير يعتمد على حالتها العقلية. ربما كان الشيء الذي يبقيها في حالة عقلية سليمة حتى الان هو اعتقادها انك تعطف عليها - ربما اعذب من ذلك - واخشى ان تؤدي الصدمة الناجمة عن عدم حضورك الى كآبة اشد. لا بد لنا من توقع ذلك.

خفض تشارلز بصره.

- لن تلوم نفسك من جراء هذا. ولو لم تكن انت، فقد يكون شخص اخر. ان مثل هذه القضية تجعل الامور اكثر سهولة على نحو ما. سأعرف اي سبيل اتخذ.

حملق تشارلز في السجادة.

- مستشفى الامراض العقلية.

- ذلـــك الزميل الذي حدثتك عنه - انه يشاطرني الرأي في معالجة مثل هذه الحالات. سنفعل ما في وسعنا. وستكون مستعدا لدفع جزء من النفقات.

- كل شيء من اجل التخلص منها؛ دون الحاق اي اذى بها.

- اعـــرف مصحة امراض عقلية خاصة في اكستر. وفيها يرقد بعض المرضى الذين يعالجهم صديقي سبنسر. وتتم هذه المعالجة باسلوب ذكي ومتنور.

ولا احب ان اوصي بمصحة حكومية في هذه المرحلة.

- لا سمح الله. لقد تناهى الى سمعي الكثير من التقارير الرهيبة عنها.

- اطمئن. هذه المكان نموذجي تماما.

- اننا لا نتحدث عن ايداعها في مستشفى الامراض العقلية؟

مـــر في ذهـــن تشارلز الان شبح الخيانة: ان الحديث عنها مثل هذا الحديث الطبـــي، والتفكير بها وهي سجينة غرفة صغيرة...

- لا، ابـــدا. انـــنا نتحدث عن مكان يمكن ان تشفى فيه جراحها النفسية، وحـــيث ســـتلقى العناية الرقيقة وتبقى مشغولة - وستحظى بفوائد خبرة سبنسر ورعايته الفائقتين. لقد عالج مثل هذه الحالات وهو يعرف عمله جيدا.

تـــردد تـــشارلز، ثم وقف ومد يده. كان في حالته الراهنة يحتاج الى الاوامر والوصفات الطبية. وما ان حصل عليها حتى تحسنت حاله.

- اشعر انك انقذت حياتي.

- كلام فارغ يا صديقي العزيز.

- لا. ليس كلاما فارغا. سأكون مدينا لك طيلة حياتي.

- اذا دعني اكتب اسم عروستك في لائحة الدائنين.

- سأوفي الدين.

- وامنح المخلوقة الفاتنة بعض الوقت. فافضل انواع المشروب المفضل تتطلب اطول وقت كي تنضج. اليس كذلك؟

- في مثل حالتي، اخشى ان نفس الشيء ينطبق على نوع رديء جدا.

- اه. هراء.

ربت الطبيب على كتفه.

- خطر على بالي انك تقرأ باللغة الفرنسية؟

ابـــدى تشارلز موافقة تشوبها الدهشة. ففتش غروغان بين رفوفه، وعثر على كتاب ثم أشّر احدى الفقرات فيه بقلم الرصاص قبل ان يقدمه لضيفه.

– لــن تحــتاج الى قــراءة المحاكمة كلها. الا انني احب ان تقرأ هذا الدليل الطبــي الذي قدمه محامي الدفاع.

– حملق تشارلز في المجلد.

– تطهير؟

ابتسم الطبيب القصير القامة ابتسامة قزم خرافي.

– شيء مشابه لذلك.

28

افتراضات، سريعة، فجة، لا جدوى فيها،
غالبا ما يتنازل العلم ويستعملها؛
الفلينات التي يستعملها المبتدئون اليوم
سرعان ما سيرمي بها السابحون جانبا.

اي. جي. كلف: قصيدة 1840

ثانية اقفز لاوضح اختياري؛
ثانية بلهجة غاضبة
اسمع صوت اله مدويا –
اسمع النصيحة وانسحب!

ماثيو ارنولد: البحيرة 1853

تعـــد محاكمة الملازم اميل دي لارونسييه في عام 1835 من اكثر القضايا اثارة للاهـــتمام مـــن ناحية الطب النفسي في بواكير القرن التاسع عشر. كان اميل ابن الضابط الصارم الكونت دي لارونسييه، عابثا على ما يبدو – اتخذ له خليلة وغرق في الديـــون – غير انه لم يكن شابا غريبا في اطار وظيفته، زمانه، وبلاده. في عام 1834 التحق بمدرسة الخيالة الشهيرة في سامور في وادي اللوار. وكان آمره البارون دي مـــوريل الـــذي كانت له ابنة متوترة الاعصاب في السادسة عشرة من عمرها تدعـــى ماري. وفي ذاك الزمن، كانت بيوت الضباط القادة في الثكنات تصلح لأن تكـــون مائـــدة مـــشتركة مع من هم ادنى رتبة. وفي احدى الامسيات، استدعى الـــبارون الملازم وهو عنيد، متكبر، مثل والد اميل لكن اشد تأثيرا، وذلك في اثناء حضور اخوته الضباط والعديد من السيدات وامره غاضبا ان يترك البيت. وفي اليوم الـــتالي عرضـــت على لارونسييه مجموعة سيئة من رسائل محررة بروح من الخبث والحقـــد تهـــدد اسرة موريل. وقد اظهرت كل تلك الرسائل معرفة خارقة بادق التفاصـــيل الخاصة بحياة الاسرة، وموقعة بالاحرف الاولى من اسم الملازم؛ وكانت تلك شائبة غير معقولة في قضية الدعوى.

وحــدث ما هو اسوأ من ذلك. ففي ليلة الرابع والعشرين من ايلول/سبتمبر 1834، ايقظت الفتاة البالغة ستة عشر عاما مربيتها الانكليزية الانسة الين، واخبرتها والدمــوع تنهمر من مقلتيها كيف ان لارونسييه اقتحم بزيه الكامل حجرة نومها المجاورة من خلال النافذة، واحكم اغلاق الباب بالرتاج، وتوعدها بشكل فاحش، وضــربها فوق صدرها وعلى يدها ثم ارغمها على رفع قميص نومها وجرحها في اعلى الفخذ، وبعد ذلك هرب من نفس الطريق الذي اتى منه.

في صــبيحة الــيوم الــتالي، تلقى ملازم اخر تحابيه ماري دي موريل رسالة تــنطوي على اهانة بالغة من لارونسييه على ما يبدو. فجرى النــزال بينهما وفاز لارونسييه، غير ان الخصم الذي اصيب اصابة بليغة رفض هو ومساعده الاعتراف بزيف التهمة المسمومة. وتوعدا لارونسييه انهما سيخبران والده ان لم يوقع اعترافا بالــذنب؛ وما ان يتحقق ذلك، فإن القضية ستصبح في طي النسيان. وبعد ليلة من التردد المؤلم، وافق لارونسييه على التوقيع.

بعــد ذلــك طلــب اجازة وسافر الى باريس معتقدا ان من شأن المسألة ان تطمس. غير ان الرسائل الموقعة استمرت في الظهور في بيت موريل وادعت بعضها ان ماري حامل، في حين ذكرت اخرى ان والديها سيلقيان مصرعهما وهلم جرا. وبات الامر فوق طاقة احتمال البارون، فاعتقل لارونسييه.

لقــد كــان عدد الظروف المؤاتية للمتهم كبير جدا حتى اننا لا نكاد نصدق الــيوم انــه كان ينبغي تقديمه للمحاكمة، ناهيك عن ادانته. اولا، كان معروفا في سامور ان ماري استاءت من اعجاب لارونسييه الواضح بأمها الجذابة، التي كانت الابــنة تغــار مــنها كل الغيرة. وكان قصر موريل محاطا بالحراس في ليلة محاولة الاغتــصاب. ولم يلحــظ اي شخص شيئا مريبا، وعلى الرغم من ان حجرة النوم المقصودة كانت في الطابق العلوي، ولا يمكن الوصول اليها الا عن طريق سلم، فإن الامــر كان يحتاج الى ثلاثة اشخاص على الاقل لنقله ونصبه – لهذا السبب، فانه سيكون سلما من شأنه ان يترك الاثار في التربة الناعمة تحت النافذة... فقرر محامي الدفاع عدم وجود شيء كهذا. يضاف الى ذلك، اشار مركب الزجاج الذي جيء بــه لاصــلاح الزجاج المكسور بفعل المتطفل ان كل الزجاج المكسور قد سقط خارج البيت وانه كان يستحيل في اي حالة الوصول الى مقبض النافذة من خلال

الفتحة الصغيرة. ثم سأل الدفاع عن السبب الذي جعل ماري لا تصرخ ابدا طالبة النجدة في اثناء الاعتداء، والسبب الذي لم تستيقظ فيه الانسة الين من نومها الخفيف على صوت الشجار، ولماذا اوت الاثنتان الى فراشهما للنوم ثانية دون ان توقظا السيدة دي موريل التي كانت تنام طيلة الحادثة في الطابق التحتاني، لماذا لم يفحص جرح الفخذ الا بعد شهور من الحادثة (وتبين اذ ذاك انه خدش بسيط وشفي الان تماما)، لماذا ذهبت ماري الى حفلة بعد امسيتين اثنتين لا اكثر واستأنفت حياتها الاعتيادية تماما حتى وقت حدوث الاعتقال - عندما اصيبت فجأة بانهيار عصبي (مرة اخرى اظهر الدفاع انه انهيار بعيد عن ان يكون الاول في حياتها الفتية)، كيف يمكن للرسائل ان تستمر في الظهور حتى عندما اصبح لارونسييه المفلس نزيل السجن، ينتظر المحاكمة، لماذا لم يعمد اي كاتب رسائل محررة بدافع من الخبث ويملك قواه العقلية لا الى التنكر في الكتابة (التي يمكن تقليدها بسهولة) وحسب، بل الى ان يوقع اسمه ايضا، لماذا اظهرت الرسائل دقة في الهجاء والنحو (ولسوف يشعر طلاب الفرنسية بالسرور عندما يعلمون ان لارونسييه نسي دوما ان يجعل اسماء المفاعيل متطابقة) افتقرت اليها افتقارا واضحا مراسلات حقيقية قدمت للمقارنة، لماذا اخفق مرتين في تهجئة اسمه صحيحا، ولماذا ظهرت الرسائل التي تهتم بالجريمة مكتوبة على ورق يماثل مجموعة اوراق وجدت في مكتب ماري؟ باختصار، لماذا، لماذا، لماذا؟ واوضح الدفاع في اخر شكوكه ان مجموعة مماثلة من هذه الرسائل وجدت مسبقا في بيت موريل بباريس وفي وقت كان فيه لارونسييه في الجانب الاخر من العالم، يؤدي الخدمة العسكرية في مدينة كايين[88].

غير ان الظلم النهائي الذي حدث في المحاكمة (التي حضرها هوغو، بلزاك وجورج صاند ضمن العديد من الشخصيات المشهورة) تمثل في رفض المحكمة السماح باستجواب شاهد الدعوى الاساسي: ماري دي موريل. فقد قدمت شهادتها بأسلوب هادئ، رابطة الجاش، الا ان رئيس المحكمة قرر ان **تواضعها وحالتها العصبية الضعيفة** تحول دون اي استجواب اضافي، وذلك بعد ان اثرت فيه نظرات البارون المحدقة كفوهة مدفع ومجموعة مهيبة من الاقارب البارزين.

(88) كايين: ميناء في غيانا الفرنسية في الجزء الشمالي من اميركا الجنوبية. (المترجم)

ثبـــتت ادانـــه لارونسيه وصدر الحكم عليه بالسجن عشر سنوات وعارض الحكم كل محام بارز في اوروبا، لكن بلا فائدة. وفي وسعنا ان نفهم لماذا ادين، او علـــى وجه الدقة، بأي شيء ادين: بالمكانة الاجتماعية، باسطورة العذراء الصافية الـــذهن، بالجهل النفساني، بمجتمع وهو ينم عن رد فعل افكار الحرية الضارة التي اشاعتها الثورة الفرنسية.

دعـــوني الان اترجم الصفحات التي اشرها الطبيب. انها مأخوذة عن كتاب ملاحظات طبية نفسانية للدكتور كارل ماتاي، وهو طبيب الماني مشهور في زمانه، وقـــد الفـــه تأييدا لاستئناف ضد الحكم الصادر بحق لارونسيه. وكان ماتاي من الـــذكاء لأن يـــدون التواريخ التي وقعت فيها الرسائل الداعرة التي انتهت بمحاولة الاغتصاب. فوجد انها تقع ضمن نموذج شهري - او طمثي - واضح. وبعد تحليل الدلـــيل المقدم الى المحكمة، يتقدم السيد الطبيب ليوضح بلهجة اخلاقية الى حدّ ما المـــرض العقلي الذي نطلق عليه اليوم اسم الهستيريا - اي نظرية اعراض مرض او عجـــز لنيل عطف الاخرين او لفت انظارهم: وهو اضطراب عصبـــي وظيفي او اضطراب عقلي سببه الثابت تقريبا - كما نعرف الان - هو الكبت الجنسي.

«لـــو انـــي تأملت سير حياتي العملية بوصفي طبيبا، فانني اتذكر العديد من الحـــالات التي كانت فيها الفتيات هن البطلات، على الرغم من ان اشتراكهن بدا مستحيلا منذ مدة طويلة».

«فقـــبل اربعين سنة، كان من بين مرضاي اسرة فريق في الخيالة. وكان يملك عقـــارا صـــغيرا علـــى بعـــد ستة اميال من المدينة التي كانت توجد فيها حاميته العـــسكرية، وعاش هناك ممتطيا ظهر الحصان في طريقه الى البلدة كلما كان لديه واجـــب. وكانـــت لديـــه ابنة على قدر خارق من الجمال في السادسة عشرة من عمـــرها، تـــرغب رغبة جياشة في ان يعيش والدها في البلدة. ولم تعرف الاسباب الدقيقة لذلك، لكن مما لا ريب فيه انها رغبت في ان تكون بمعية الضباط وتستمتع بمـــباهج المجتمع هناك. ولتحقيق غايتها اختارت اسلوبا في منتهى الاجرام: اضرمت النار في البيت الريفي لاحراقه. وذات يوم احترق ثانية احد اجزاء البيت. وبعد ذلـــك حـــدثت ما لا تقل عن ثلاثين محاولة حرق متعمد، ولم تكتشف هوية الفاعـــل ابدا، وقد اعتقل العديد من الاشخاص وجرى استجوابهم. والشخص

الوحيد الذي لم يثر الشكوك هو تلك الابنة الشابة الجميلة البريئة. مرت سنوات كـــثيرة، واخـــيرا قبض عليها بالجرم المشهود وحكم عليها بالسجن المؤبد في احدى الاصلاحيات.

«في مدينة المانية كبيرة، وجدت احدى الشابات من احدى الأسر العريقة سعادتها في ارسال رسائل تخلو من التوقيع هدفها تحطيم احدى الزيجات السعيدة مؤخـــرا. كما اشاعت الفضائح المشينة بصدد سيدة شابة اخرى اثارت اعجابا شـــديدا لمـــا تمـــتلكه مـــن مـــواهب وبهذا اصبحت موضع حسد. استمرت هذه الرسائل طيلة سنوات. و لم يقع اي ظل من الشك على المؤلفة، على الرغم مـــن ان الكـــثير مـــن الـــناس اتهموا. وفي نهاية المطاف، كشفت عن نفسها ووجـــه الـــيها الاتهـــام فاعتـــرفت بجريمتها... وقضت فترة طويلة في السجن لشرورها».

«مـــرة اخرى، في الوقت نفسه وفي هذا المكان نفسه الذي اكتب فيه الان(*) تقوم الشرطة بالتحقيق في قضية مشابهة...».

«ربمـــا يقـــوم اعتراض على ان ماري دي موريل ما كانت لتلحق الاذى بنفسها طمعا في الوصول الى غايتها. غير ان عذابها كان في منتهى البساطة مقارنة بغـــيره في قضايا اخرى من حوليات الطب. وفيما يلي بعض الامثلة التي تسترعي الانتباه».

«عرف الاستاذ هيرهولدت من كوبنهاغن شابة جذابة ذات ثقافة رفيعة ومن اســـرة ثرية. وقد خدع بها خداعا كاملا شأنه في ذلك شأن الكثيرين من زملائه. واستخدمت كل ما لديها من حيلة ودأب لتنفيذ خدعها وعلى مدى سنين عديدة. بل انها عمدت الى تعذيب نفسها بأقسى ما يمكن من وحشية. فغرزت بضع مئات مـــن الدبابـــيس في اجـــزاء مختلفة من جسدها. ولما حدثت فيها بعض الالتهابات والتقـــيحات عمدت الى شقّ تلك الاجزاء بآلة حادة. ولما رفضت ان تتبول، اخذ البول يستخرج منها صباح كل يوم عن طريق القسطرة. وعمدت الى ادخال الهواء الى مثانـــتها، فكان يهرب عند ادخال الآلة. وظلت سنة ونصف السنة وهي راقدة

(*) هانوفر 1836. (المؤلف)

دون حـــركة، لا تـــتكلم، ترفض الطعام، تتظاهر بالتشنج، تصيبها نوبات الاغماء وغـــير ذلـــك. وقبل ان تكتشف حيلها، فحصها عدد من الاطباء المشهورين، اتى بعـــضهم مـــن خارج البلاد، وهالهم ان يشاهدوا مثل ذلك العذاب. وقد نشرت قـــصتها الحزينة في كل الصحف، ولم يراود احد الشك في صحة حالتها. واخيرا، في 1826، اكتـــشفت الحقيقة. وكانت الدوافع الوحيدة لهذا النصب والاحتيال البالغـــي الـــذكاء، أن تصبح موضع اعجاب الرجال ودهشتهم اذ سخرت من اكثـــرهم ثقافة وشهرة وادراكا. ان تاريخ هذه القضية المهمة من وجهة النظر النفسانية يمكن العثور عليها في مؤلف هيرهولدت: ملاحظات عن مرض ريشل هيرتز بين 1807-1826.

«وفي مدينة لونبرغ عثرت ام وابنتها على خطة هدفها استدرار الكثير من العطـــف علـــى نفسيهما - وهي خطة سعت الاثنتان وراءها حتى النهاية بعزم فظـــيع. فقـــد شـــكت الابنة من الم لا يطاق في احد ثديها، وندبت وبكت، وناشـــدت اهـــل الاختصاص، وجربت كل انواع العلاج، غير ان الالم استمر علـــى حاله. وثارت الشكوك حول السرطان. فقررت دون تردد ان يستأصل الـــنهد، لكن تبين انه سليم تماما. وبعد مرور بضع سنوات، لعبت نفس الدور القـــديم بعـــد ان خفت حدة العاطفة تجاهها. فاستؤصل الثدي الثاني. ووجد انـــه ثـــدي سليم تماما مثل الثدي الاول. ولما خفت حدة العطف ثانية اخذت تشكو من الم في يدها. فأرادت ان تستأصل يدها. غير ان الشكوك حامت من حـــولها. فأرسلت الى المستشفى، واتهمت بادعاءات باطلة ومن ثم القي بها في السجن.

«ويخـــبرنا لينـــتين في كتابه ملحق المعرفة العملية للطب، هانوفر 1798، بهذه القصة التي كان شاهدا فيها. استخرج من فتاة ليست كبيرة جدا ما لا يقل عن مئة واربـــع حصوات في عشرة اشهر بوساطة الملقط بعد عملية استئصال سابقة للمثانة وعـــنقها، وقـــد عمـــدت الفتاة الى ادخال الحصى الى مثانتها على الرغم من ان العمليات اللاحقة سببت لها خسارة كبيرة في الدم وألما عظيما. وقبل هذه، كانت تتقيأ وتصاب بالتشنج اضافة الى اعراض عنيفة مختلفة الاشكال. وقد اظهرت براعة نادرة في اساليب تضليلها.

«بعـــد مثل هذه الامثلة، التي يمكن التوسع فيها على نحو سهل، من ذا الذي يقول انه يستحيل على فتاة ان تعمد الى الحاق الاذى بنفسها من اجل الوصول الى غايتها المنشودة(*)؟».

كانـــت الـــصفحات الاخيرة تلك هي اول الصفحات التي قرأها تشارلز وجـــاءت بمثابة صدمة قاسية له، اذ لم تكن لديه اي فكرة عن وجود مثل هذه الانحـــرافات لدى الجنس اللطيف. كما لم يستطع ان يدرك حقا المرض العقلي مـــن النمط الهستيري وماهيته: سعي يرثى له من اجل الحب والامان. وعاد الى بدايـــة تقرير المحاكمة ووجد نفسه مدفوعا اليه، وعلى نحو مميت. وقلما احتاج الى القـــول انـــه شبه نفسه على الفور باميل در لارونسييه البائس. وعند نهاية المحاكمة وصل الى تاريخ جعل فرائصه ترتعد. ففي اليوم الذي ادين فيه الملازم الفرنسي الاخر كان هو نفس اليوم الذي ولد فيه تشارلز. وفي لحظة من الزمن، وفي ذلـــك اللـــيل الصامت في دورسيت، تحلل العقل والعلم، كانت الحياة آلة مظلمـــة، علم تنجيم سيئ الطالع، حكم عند الولادة، بلا استئناف، صفر فوق كل شيء.

لم يشعر ابدا انه اقل حرية.

ولم يـــشعر ابدا انه اقل حاجة للنوم من الان. نظر الى ساعته فوجدها الرابعة الا عشر دقائق. كل شيء هادئ الان في الخارج. لقد مرت العاصفة. فتح تشارلز احـــدى النوافذ وتنفس هواء الربيع البارد والنقي. تألقت النجوم بوهن من فوقه،

(*) لا استطيع ان اترك قصة لارونسييه – التي نقلتها عن مصدر عام 1835 الذي ناوله الطبيب غروغان لتشارلز – دون ان اضيف انه في العام 1848 وبعد مرور بضع سنين على انهاء الملازم فترة حكمه، ارتاب احد محامي الدفاع الحقيقيين بانه ساعد في ارتكاب الظلم. وكان انـــذاك فـــي موقع يستطيع منه اعادة فتح ملف القضية، فبرئ لارونسييه واعيد له اعتباره واســـتانف حـــياته العسكرية وربما عثر عليه في الساعة التي كان يقرأ فيها تشارلز ذروة حـــياته المظلمـــة وهو يحيا حياة راضية حاكما عسكريا في (تاهيتي). غير ان قصته انتهت نهايـــة غـــريبة. ففـــي وقت متأخر اكتشف انه كان يستحق جزئيا انتقام الانسة دي موريل الهـــستيري مـــنه. اذ لاجـــل الحقـــيقة النهائـــية اللامعقولة والشنيعة لاحداث تلك الليلة من ايلـــول/سبتمبر 1834– وهي ليلة لا تلعب فيها ممثلة انكلترا الغادرة المربية الانسة الين اي دور مـــشرف – لا بـــد لي من ارسالكم الى رينيه فلوريوت وكتابه اخطاء القضاء باريس، 1968. (المؤلف)

علـــى نحـــو بريء، متخلية عن اي تأثير، سواء كان تأثيرا سيئا او حسنا. اين هي الان؟ يقظة ايضا، على بعد ميل او ميلين في ظلمة غابة شديدة الرطوبة.

انتهـــى مفعـــول الـــشراب المفضل تاركا تشارلز في صحبة احساس عميق بالـــذنب. فكر انه تذكر الخبث في عيني الطبيب الايرلندي، مستودع متاعب هذا السيد اللندني السخيف التي ستنتقل همسا وتوزع بالجملة في لايم، او ليس سيئا ان جنسه لا يحفظ سرا؟

كـــم كان تصرفه تصرفا غير مشرف، صبيانيا! فهو لم يفقد في اليوم الماضي وينـــزيات حسب، بل فقد ايضا احترامه ذاته. وكانت العبارة الاخيرة اطنابا. لقد فقـــد بكـــل بساطة الاحترام لكل ما كان يعرفه. كانت الحياة حفرة في مستشفى المجاذيب. ومن وراء الوجوه الاكثر براءة، كانت تتوارى الخطايا الاكثر قذارة. لقد كان هو السير غالاهاد[89] الذي عرضت عليه جنيفر على انها عاهرة.

ولكـــي يـــتوقف تشارلز عن التأمل الذي لا طائل من ورائه – اه لو استطاع ان يتـــصرف! – تـــناول الكتاب المصيري وقرأ ثانية بعض الفقرات من بحث ماتاي حول الهستيريا. فشاهد شبها مماثلا اقل الان لسلوك سارة. وبدأت خطيئته تلتصق بموضوعها الملائـــم. حاول ان يتذكر وجهها، اشياء تفوهت بها، التعبير الذي كان تنطق به عيناها وهـــي تتفوه بها، غير انه لم يستطع ان يفهمها. ولكن على الرغم من ذلك شعر انه ربما يعرفها معرفة افضل من اي شخص اخر. وكانت تلك الرواية التي سردها امام غروغان عن لقاءاتهما.,. في وسعه ان يتذكرها، كلمة كلمة. او لم يخدع غروغان في غمرة قلقه لاخفاء مشاعره الحقيقية؟ بالغ في غرابة اطوارها و لم ينقل ما قالته حقا نقلا امينا؟

اوَ لَمْ يعدها مجرمة ليتفادى تجريم نفسه؟

ســـار في ارجـــاء الغرفة دون ان يتوقف، باحثا عن روحه وكبريائه الجريح. لنفترض انها كانت حقيقة على النحو الذي قدمت نفسها به – خاطئة، مؤكدا، الا انهـــا ايـــضا امرأة فائقة الشجاعة، ترفض ان تولي ظهرها خطيئتها، واصيبت الان بالوهن في معركتها الضارية ضد ماضيها، مستغيثة، طالبة النجدة؟

---

(89) ســـيرغالاهاد: الفـــارس العفيف في اسطورة ارثر الشهيرة وهو ابن لانسيلو دولاك وايلين. وكـــان غالاهـــاد قد جعل ابن لانسيلو لمقارنة الحب الدينوي لذا كانت جنيفر ملهمة لانسيلو بالحب السماوي فإن الحماس الروحي كان ملهم غالاهاد. (المترجم)

لماذا سمح لغروغان ان يحكم عليها عوضا عنه؟

لانـــه كـــان يهتم بانقاذ المظاهر اكثر من انقاذ روحه، لأنه لم تعد لديه ارادة حرة اكثر

مـــن ارادة الصدفة المتحجرة، لأنه كان مثل بيلاطس البنطي[90]، اسوأ منه، لا يتغاضى عن الصلب، بل يشجعه، لا بل انه تسبب في كل الاحداث التي ادت الان الى تنفـــيذه او لم يـــتطور كل شيء اثر اللقاء الثاني لما ارادت الانصراف، بيد انه اضطرها الى مناقشة وضعها؟

فـــتح النافذة ثانية. مرت ساعتان منذ ان فعل ذلك. انتشر الان ضوء خافت من جهة الشرق. فحدق الى النجوم الباهتة.

القدر.

تلك العينان.

استدار فجاة.

لو التقى غروغان، لاصطدم به. لا بد ان يوضح ضميره سبب عصيانه، ذهب الى حجـــرة نـــومه. وهناك شرع يبدل ملابسه، وقد بان عليه وقار خارجي مرير يعكس الاصرار الداخلي، الرهيب، الذي يصعب فك مغالقه والذي توصل اليه.

(90) بـــيلاطس البنطي: -الحاكم الروماني من مقاطعة يهوذا ايام السيد المسيح وهو الذي صلبه في العقيدة المسيحية - تلبية لرغبة الشعب وان كان مقتنعا ببراءته (متى 27 يوحنا 18: 28-19: 42)، مشهور بكلمة (ما هي الحقيقة؟) وبغسلة يديه بعد الحكم على المسيح، مدعيا انه غير مسؤول عن موته. يضرب به المثل للانتهازي الذي يخشى ان يقوم بواجبه. (المترجم)

29

لان نسمة الصباح تنشط
وكوب الحب في الاعالي...

تينسيون: مود 1855

انه لجزء من حصافة خاصة الا تفعل اي شيء لانك
تميل الى لن تفعله، بل لأنه واجبك، او لأنه معقول.

ماثيو ارنولد: دفاتر ملاحظات 1868

كانـــت الشمس الحمراء توشك ان تغيب عن الموجات الوهمية الرمادية بلون الحمام للتلال الواقعة وراء شيزل بانك عندما خرج تشارلز من ابواب فندق وايت لاين وهو لم يلبس ملابس الدفان حسب بل بانت عليه كل ملامح صمته وبكمه. كانـــت السماء خالية من السحب، صافية اثر عاصفة الليلة السابقة، زرقاء لطيفة علـــى نحـــو لذيذ، وكان الهواء حادا مثل عصير الليمون، الا انه نقي، مطهر. ولو اســـتيقظت في ســـاعة كهـــذه في بلدة لايم اليوم، فستستمتع بها. لم يكن تشارلز محظـــوظا تماما في ذلك العصر الذي كان ينهض فيه الناس مبكرين، الا الناس الذين كانـــوا محظـــوظين تقـــريبا، افتقروا الى ذلك المظهر الاجتماعي، الى انعدام النظام الطبقي لسكان الفجر: الناس البسطاء المنطلقون الى عملهم اليومي. حيا شخص او شخـــصان تـــشارلز تحية بهيجة وحصلوا مقابل ذلك على ايماءات قاطعة واشارات مقتـــضبة من عصاه. فقد كان يفضل رؤية بعض الجثث الرمزية ملقاة في الشوارع على رؤية تلك الوجوه النضرة. وشعر بالسعادة وهو يترك البلدة من ورائه ويدخل الطريق المؤدي الى الجرف.

الا ان وجـــومه لم يكـــن مناسبا في ذلك اليوم (وكذلك الشك الذاتي الذي اخفيته بأن قراره كان يستند حقا الى حكمة سارق الاغنام، الى يأس خطير، اكثر مما يستند الى دوافع انبل في ضميره). سرى تيار من الدفـء في داخله بسبب سيره المستعجل، دفـء داخلـــي زاد من حدته الدفـء الخارجي الذي كانت تبعثه اشعة

الـــشمس. لقـــد بدت شمس الفجر النقية بارزة، واضحة المعالم على نحو غريب. وكانـــت تنبعث منها رائحة، تشبه رائحة صخرة دافئة، غبار الفوتون الحاد المنبعث مـــن الفـــضاء. وكانت كل ورقة عشب مرصعة بالضباب. وعلى سفوح المنحدر المطلة على طريقه، اقامت جذوع اشجار الدردار والجميز، التي كانت بلون الذهب العسلي في نور الشمس المائل، قناطر خضراء ندية من اوراق غضة. ثمة شيء ورع فيها. ورع قبل الورع نفسه، بلسم شاف عذوبة خضراء فوق كل شيء... خضرة لا متناهية، بعضها يميل الى السواد في اوراق النباتات المنعزلة، من الاشجار الزمردية الى الاشجار المثمرة الاقل اخضرارا. عبر احد الثعالب الطريق من امامه وحملق برهة وجيـــزة علـــى نحو غريب كان تشارلز احد المتطفلين. وبعد وقت قصير، وبشبه اســـتثنائي وبنفس افتراض التملك المقدس، نظر ايل من مرعاه وحملق بجلال قبل ان يديـــر ذنبه بهدوء وينسل صوب الاحراش. ثمة لوحة للرسام بيسانيلو[91] في المتحف الـــوطني تصطاد مثل هذه اللحظة: القديس هوبرت في غابة تمثل بواكير فن النهضة محاطـــا بالطـــيور والوحوش. ويصاب القديس بصدمة كأنه ضحية دعابة حقيقية، تزول كل غطرسته بجرعة مفاجئة من اعمق اسرار الطبيعة: تكافؤ الوجود الشامل.

لم يكـــن هـــذان الحيوانان وحدهما ينطويان على الاهمية، اذ كانت الاشجار مليـــئة بالعصافير المغردة – طيور الخوري، أبيض الحنجرة، الدج، الشحارير، هديل حمـــام الغاب، كلها تملأ ذلك الفجر الساكن بهدوء المساء، الا انها تخلو من حزنه، من خاصيته الكئيبة. شعر تشارلز انه يسير بين صفحات سفر رمزي عن الحيوانات وعاداتهـــا، ســـفر له مثل هذا الجمال، هذا الوضوح الدقيق، حتى ان كل ورقة من اوراقـــه، كـــل طير صغير، كل انشودة يغرد بها، انما كانت تأتي من عالم كامل. توقف لحظة، اذ ادهشه هذا الاحساس بكون خاص دقيق، كل شيء فيه محدد، كل شـــيء فريد. حط طائر صغير مغرد في اعلى شجرة من اشجار العليق لا تبعد عنه

---

(91) انطونـــيو بيـــسانيلو (1395–1455): رســـام ايطالـــي تعكس اعماله التحول في ايطاليا من الاســـلوب القوطي الى بواكير لسلوب عصر النهضة. رسومه محفوظة في اللوفر بباريس وهـــي ذات قـــيمة كبيـــرة لدراسة الاسلوب الفني في تلك الحقبة، كما تعكس سعة اهتمامه وحـــساسية بصره. علاوة على ذلك، فإن بيسانيلو عرف مصمما للانواط التي كانت نتيجة مباشرة لدراسته البورتريهات الاغريقية والرومانية القديمة. (المترجم)

اكثـــر مـــن عـــشرة اقدام (ثلاثة أمتار). وبدأ يغرد اغنيته القاسية. وشاهد عينيه الـــسوداوين المتألقتين، حنجرته الحمراء والصفراء التي كانت تنفرج بفعل شدوه - كـــرة صغيرة من ريش تمكن من ان يجعل من نفسه الملاك المعلن عن التطور: انا ما انـــا عليه الان ولن تتجاوز كياني الان. وقف مثل وقفة قديس بيسانيلو وقد اعترته الدهـــشة من وجود هذا العالم على مقربة شديدة منه، في متناول كل تلك التفاهة الخانقة للحياة الاعتيادية. في اللحظات القليلة من تلك الاغنية المتحدية، بدت كل ســـاعة او مكان اعتيادي - وبهذه اللانهائية الواسعة لكل ساعات تشارلز وامكنته الـــسابقة - مبتذلة، رديئة، مزخرفة على نحو يعوزه الذوق. ان السأم المروع للواقع الانساني يكمن في تصدع غائر حتى المركز، في حين ينبض قلب الحياة كلها هناك في حنجرة الطائر المغرد المنتصرة.

بدا ذلك كله وهو يعلن عن واقع اعمق واشد غرابة من الواقع المماثل للواقع اللينـــياني الذي سبق لتشارلز ان احس به وهو عند الشاطئ في ذلك الصباح الباكر - ربمـــا لم يكـــن هناك شيء اكثر اصالة من اسبقية الوجود على الموت، الفرد على الانواع، البيئة على التصنيف. اننا نسلم بهذه الاولويات اليوم، ولا يمكن ان نتصور المضامين العدوانية التي كانت تعلنها على تشارلز رسالة الطائر الصغير المبهمة اذ بدا انـــه يـــرى واقعا اقل عمقا من الفوضى الشاملة، يخيم من فوق البناء الهش للنظام البشري.

كانـــت ثمة مرارة اكثر قربا في هذه القربان المقدس الطبيعي، طالما ان تشارلز شعر انه شخص محروم من الكنيسة بكل الطرق. لقد طرد وضاعت الجنة كلها. انه اشـــبه بسارة - في وسعه ان يقف هنا في جنة عدن، ولكنه لا يستطيع ان يستمتع بها، بل يحسد الطائر المغرد على نشوته.

سار في الطريق الذي سبق ان سلكته سارة وهو طريق يجعله بعيدا عن مرأى حقـــل مصنع الالبان. حسنا ما فعل، اذ ان صوت دلو حذره ان صاحب الحقل او زوجته، منهمك في العمل. لهذا دخل الغابة، واستأنف سيره على نحو جدي لائق. وجعلـــه تحـــول الذنب الجنوني يشعر ان الاشجار والازهار، حتى الاشياء الجامدة المحـــيطة به تراقبه. واصبحت الازهار عيونا، والحجارة لها اذان، وجذوع الاشجار المؤنبة جوقة اغريقية لا عدَّ لها.

وصل الى حيث يتشعب الممر، وهنا سار في الفرع الايسر الذي كان ينحدر صـــوب الشجيرات النامية تحت الاشجار الكبيرة وفوق منطقة متكسرة اذ كانت الارض فـــيها موشكة على التآكل والانجراف. كان البحر على مقربة منه، ازرق وديعـــا، هادئا الى ما لا نهاية. غير ان الارض كانت ترتفع قليلا فوقه حيث تحولت قطعة من البرية الى سلسلة من مروج صغيرة، وشاهد تشارلز سقف مخزن على بعد مائـــة ياردة (91 مترا) او ما يقرب من ذلك الى القرب من اخر هذه المروج. وهو يقـــبع في اخـــدود يمتد هابطا في النهاية الى حافة الجرف. وكان السقف مهجورا ونمت عليه الطحالب مما زاد من كآبة المظهر الموحش للمبنى الحجري الصغير الذي هـــو اقرب الى الكوخ مما يوحي به اسمه. وكان هذا في اول الامر المأوى الصيفي لاحد رعاة الماشية واصبح صاحب الحقل يستخدمه الان مخزنا للتبن مما جعله يفقد اي اثـــر. لقـــد ساءت اوضاع هذه القطعة من الارض كثيرا في غضون المائة سنة الماضية.

وقـــف تـــشارلز، وشـــرع يحدق به. لقد توقع ان يشاهد شبح امرأة هناك. وازدادت عـــصبيته لأن المكان بدا موحشا اكثر مما ينبغي. فسار متجها صوبه كأنه رجل يقتحم دغلا مشهورا بنموره. وتوقع ان يثب عليه احدها، ولم يكن واثقا تمام الثقة من مهارته في استعمال البندقية.

كـــان ثمة باب قديم مغلق. دار تشارلز من حول المبنى الصغير، وشاهد نافذة صـــغيرة مـــربعة الى جهـــة الشرق. فحدق بها وأمعن النظر في الظلال في داخلها فتسللت الى منخريه الرائحة العفنة المنبعثة من التبن القديم. كان في وسعه ان يشاهد ركاما صغيرا منه عند نهاية المبنى قبالة الباب. فسار من حول الجدران الاخرى، الا انه لم يشاهدها هناك. القى نظرة وراءه صوب الطريق الذي جاء منه معتقدا انه لا بـــد قد سبقها، غير ان الارض الخشنة كانت ساكنة في هدوء ذلك الصباح المبكر. تـــردد، اخرج ساعته، وانتظر دقيقتين او ثلاث دقائق، لا يدري ماذا يفعل واخيرا دفع باب المبنى وفتحه.

استطاع ان يميز ارضية حجرية صلبة، ومربطا او ثلاثة مكسورة مليئة بتبن من المـــؤمل استخدامه مستقبلا، وذلك في طرف قصي من المبنى الا انه يصعب عليه ان يـــشاهد بسهولة اقسام المبنى البعيدة، اذا ان اشعة الشمس كانت تخترق المكان من

النافذة الصغيرة. تقدم تشارلز صوب عمود الضوء الساقط ثم توقف وقد انتابه ذعر مفاجـــئ. فقد تمكن من ان يميز وراء الضوء شيئا متدليا من مسمار في احد اعمدة المـــربط القديمـــة: قبعة سوداء. لعل قراءته في الليلة الفائتة هي السبب الذي جعله يـــتوقع ان يشاهد شيئا ما من وراء الالواح التي اتى عليها الدود والمثبتة وراء القبعة التي كانت متدلية بمثل مصاص دماء ينذر بالشؤوم فوق الشيء الذي لا يتمكن من مـــشاهدته. انـــا لا اعرف ما الذي كان يتوقعه. تنكيل مروع، جثة... اوشك ان يلـــتفت ويعـــدو خارجا من المبنى ويعود الى بلدة لايم الا ان شبح صوت ما دفعه للسير الى الامام. ومدّ عنقه مذعورا من فوق اللوح الخشبـــي.

30

لكـــن كلما ازداد اظهار هذه الاوهام الواعية للطبقات الحاكمة على انها مـــزيفة وانها اقل ارضاء للفطرة السليمة، كلما ازداد توكيدها على نحو دوغمائـــي وكلما اصبحت لغة المجتمع القائم اكثر خداعا، واكثر وعظية وروحانية.

ماركس: الايديولوجية الالمانية 1845–1846

طبيعـــي ان سارة وصلت البيت قبل السيدة فيرلي، على الرغم من ان البيت مفارقة في هذه الظروف، وادت دورها المعهود في صلوات السيدة بولتيني المسائية، ثم ذهبت الى غرفتها لقضاء بضع دقائق. وهنا انتهزت السيدة فيرلي الفرصة وكانت الدقائق القليلة هي كل ما تحتاج اليه. ثم جاءت بنفسها، وطرقت باب حجرة نوم سارة. فتحت سارة الباب وكان يعلو وجهها قناع الحزن المألوف، غير ان السيدة فيرلي كانت مترعة بالنصر.

– السيدة في انتظارك. على الفور من فضلك.

– اطـــرقت سارة، ثم اومأت بوهن. سددت السيدة فيرلي نظرة تهكمية مرة مثل مرارة عصارة الحصرم صوب ذلك الرأس الخنوع، ثم انصرفت على نحو حقود. وعلـــى اي حـــال، فإنها لم تذهب الى الطابق السفلي، بل انتظرت وراء ركن ما، حـــتى سمعـــت صـــوت باب حجرة استقبال السيدة بولتيني يفتح ويغلق من وراء السكرتيرة – الرفيقة. ثم تسللت بهدوء واخذت تصغي من وراء الباب.

لم تكـــن الـــسيدة بولتيني قد جلست فوق عرشها هذه المرة بل وقفت قرب النافذة، واضعة كل فصاحتها في ظهرها.

– اترغبين في التحدث معي؟

لم تكـــن الـــسيدة بولتيني راغبة بذلك على ما يبدو لأنها لم تتحرك ولم تتفوه بأي كلمة. لعل حذف لقب **سيدة** من السؤال هو الذي ابقاها صامتة، ثمة شيء في لهجة سارة جعل الحذف يبدو متعمدا. نقلت سارة بصرها من ظهر السيدة الاسود الى منـــضدة وقتية قائمة بينهما. وكان فوقها ظرف بلا ريب. اما ردّ فعلها الوحيد

ازاء هذا التكبر الجامد فقد تمثل في زم شفتيها على نحو دقيق ليتحول الى اصرار او اشمئزاز، وهو ما يصعب تحديده، ولو عرفت هذه السيدة الحقيقة، فإنها ستكون في ضياع قليلا لأن افضل طريقة هي سحق هذه الافعى التي اخذتها في احضانها نادمة. واختارت السيدة بولتيني في النهاية ضربة فأس واحدة.

- مرتب شهر واحد في هذا الظرف وستأخذينه بدلا من الاشعار، وسترحلين عن هذا البيت صباح الغد.

اصبح لدى سارة الان من الوقاحة ما يجعلها تستخدم سلاح السيدة بولتيني بالمقابل. لم تتحرك ولم تجب بشيء، حتى ثارت ثائرة السيدة وتنازلت، واستدارت لتكشف عن وجه شاحب احترقت فوقه بقعتان ورديتان من العواطف المكبوتة.

- اسمعتني يا انسة!

- الن اخبر بالسبب؟

- اتملكين الجرأة على الوقاحة؟

- امتلك الجراة لاسأل عن سبب طردي.

- ساكتب الى السيد فورسايث. وسأتيقن من سحنك. انت فضيحة علنية.

احدثت هذه الثورة العاصفة بعض الاثر. فقد بدأت بقعتان تتوردان في وجنتي سارة. ران الصمت، ولاح انتفاخ صدر السيدة بولتيني المنتفخ في الاساس.

- انني امرك بمغادرة هذه الغرفة على الفور.

- حسنا جدا. طالما كل ما مارسته فيها ليس سوى النفاق. فانني سأنصرف ببالغ السرور.

استدارت سارة لتتصرف بعد ان اطلقت هذا السهم الاخير، غير ان السيدة بولتيني كانت واحدة من الممثلات اللواتي لا يستطعن الا ان يكون لهن الحضور الاخير في المشهد، او ربما انني اظلمها، وكانت تحاول ان تقوم باحسان، بغض النظر عن مدى عدم ملاءمة ذلك للهجتها.

- خذي مرتبك.

التفت سارة اليها، وهزت رأسها بالنفي.

– في وسعك الاحتفاظ به. واذ كان في الامكان، فانني اقترح ان تشتري بهذا المبلغ البسيط آلة تعذيب. فانا واثقة ان السيدة فيرلي ستكون مسرورة لمد يد العون لك واستخدامها ضد كل البائسين الذين يقعون تحت سطوتك.

– بدت السيدة بولتيني مثل سام في لحظة واحدة، اي، الها وقفت فاغرة فاها الكئيب.

– ستدفعين... ثمن ذلك...

– امام الله؟ انت متأكدة انه سيصغي اليك في اليوم الاخر؟

ابتسمت سارة للسيدة بولتيني اول مرة في تاريخ علاقاهما... ابتسامة صغيرة جـدا الا الها ابتسامة ذات مغزى. مرت لحظات قصيرة ظلت فيها السيدة تحملق فيها على نحو غير مصدق – بل على نحو يرثى له كانت سارة هي الشيطان بعينه. ثم وجـدت طريقها كالسرطان صوب كرسيّها والهارت فوقه كأنها مغشي عليها. امعـنت سارة النظر لبرهة وجيزة، ثم سارت ثلاث او اربع خطوات سريعة صوب البـاب وفتحـته. كانـت مدبرة المنـزل قد اسرعت بالانتصاب مذعورة كأنها اعـتقدت بأن سارة ستثب عليها. الا ان سارة تنحت جانبا، واشارت الى السيدة بولتيني المتقطعة الانفاس، مما فسح المجال امام السيدة فيرلي الذهاب لنجدهما.

– ايتها الوقحة الشريرة! لقد قتلتها!

– لم تجـب سـارة بـشيء. وظلت تراقب برهة وجيزة السيدة فيرلي وهي تـستخدم غاز النشادر لاعادة السيدة فيرلي الى رشدها. ثم استدارت، وذهبت الى غـرفتها. اتجهت صوب مرآها الا الها لم تنظر الى نفسها. بل غطت وجهها بكلتا يديها على نحو بطيء ومن ثم رفعت عينيها ببطء شديد من فوق الاصابع. لم يكن في وسـعها ان تحتمل ما شاهدته. وبعد لحظتين اثنتين، كانت تركع قرب سريرها، وتبكي صامتة فوق الغطاء البالي.

اكان الافضل لها ان تصلي؟ كانت تؤمن بالها كانت تصلي.

31

عندما تملأ الحسرات اللاهثة الصدر،
وتهز يدان اتحدتا مصادفة،
بالم لذيذ وعلى الفور،
نبضات واعصاب اثنين،
عندما تتحاشى بخجل عينان
كانتا بيسر من قبل تلتقيان،
الاتحاد الوعي اللذيذ،
فالبدايات المؤكدة، اتقول، هي،
تمهيد لعذاب الحب
الذي تغنيه الملائكة في السماء من فوق؟

ام هل هي النغمة السوقية
التي يتعلمها - بمثل هذه الدقة
كل من يتنفس تحت القمر وبشكل سريع؟

اي. إتش. كلف: قصيدة 1844

والان كانت نائمة.

ذلكـــم هو المشهد الفاضح الذي ابصرته عينا تشارلز عندما لمّ اطراف شجاعته وتأهـــب للنظـــر من فوق الحاجز. استلقت متكورة مثل فتاة صغيرة تحت معطفها القـــديم، وجـــذبت قدميها بفعل برودة الليل، ورأسها الى الجهة المقابلة له، مرتكز فـــوق وشاح مزركش اخضر اللون، كأنه بذلك يحمي جوهرها الوحيدة العظيمة، شعرها المسترسل، من القش من تحتها. وفي ذلك السكون، كانت انفاسها الرقيقة، المنتظمة، مسموعة ومرئية وبدت للحظة الها في نومها الاضطراري على ذلك النحو الهادئ، انما هو جريمة شريرة مثل اي جريمة اخرى كان يتوقعها تشارلز.

الا انه على الرغم من ذلك انتابته رغبة لا يمكن اطفاؤها بحمايتها. وقد مرت به تلك الرغبة على نحو حاد حتى انه اعرض بوجهه واصابه الذعر لهذا الدليل الذي

انطوى عليه اهام الطبيب، اذ ادرك ان مشاعره الغريزية تتمثل في ان يجثو الى جانبها ويطمئـــنها.. بل اسوأ من ذلك، فقد اوحت له خصوصية المخزن المظلمة ووضع الفـــتاة انه في غرفة نوم، وهو ايحاء لا سبيل الى مقاومته. وشعر ان قلبه يدق كأنه قطـــع ميلا عدوا. لقد كان النمر في داخله لا في داخلها. مرت برهة من الزمن ثم عـــاد ادراجــــه بهـــدوء ولكن بعجالة الى الباب. نظر من ورائه وهو يوشك على الذهاب، غير انه سمع صوته هو وهو ينادى اسمها. لم يكن عازما على التفوه به. الا انه خرج من بين شفتيه.

- انسة وودراف!

لا جواب.

ردد اسمهـــا ثانـــية بصوت اعلى هذه المرة، كأنه موجه الى نفسه هو بعد ان جاشت الاعماق المظلمة بعيدا بأمان.

كانت هناك حركة صغيرة، حفيف ضعيف، ثم برز رأسها على نحو مضحك الى حـــدّ ما، في حين انتصبت واقفة بعجالة، واطلت من فوق الحاجز. كان لديه انطباع باهت من بين ذرات الغبار بالصدمة والذعر.

- اوه. سامحيني. سامحيني..

تـــوارى الـــرأس عن الانظار في حين انسحب هو الى ضوء الشمس خارجا. وحلق نورسان من فوقهما وهما يصيحان صيحات خشنة. ابتعد تشارلز عن مرأى الحقول القريبة من حقل مصنع الالبان. لم يكن يخشى غروغان، او يتوقع رؤيته، الا ان المكان كان مكشوفا اكثر مما ينبغي فقد يأتي صاحب الحقل لاخذ بعض التبن... على الرغم من انه لا يوجد اي سبب يدعوه الى ذلك اذ ان الحقول خضراء عامرة بالعشب الربيعي وهو امر لم يفكر فيه تشارلز بسبب عصبيته البالغة.

- سيد سميثسون؟

عـــاد مرة اخرى الى الباب في الوقت المحدد دون مناداها باسمه ثانية على نحو اكثر تـــوقا هذه المرة. وقف الاثنان تفصل بينهما عشرة اقدام (ثلاثة أمتار) تقريبا، سارة عند الـــباب وتـــشارلز قـــرب ركـــن المبنى. اسرعت بتعديل هندامها، وارتدت معطفها، وامـــسكت وشاحها بيدها كأها استخدمته بمثابة فرشاة. كانت عيناها قلقتين، غير ان ملامحها لا تزال رقيقة بفعل النوم على الرغم من احمرارها بسبب ايقاظها على نحو فظ.

كـــان مظهرها يوحي بالوحشية. ليست وحشية الجنون او الهستيريا بل تلك الوحـــشية نفسها التي شعر بها تشارلز عند الطائر الصغير المغرد... وحشية البراءة، التي تصل إلى حدّ التوق. ومثلما قهر ذلك الانحدار الحاد في تجواله في الفجر حزنه الجاد وعقده فإن ذلك الوجه الشديد القرب قهر وعقّد كل الرعب الذي غذاه في عقل تشارلز الطبيبان الكفوءان ماتاي وغروغان. ان الفكتوريين لم يكونوا ليفكروا تفكـــيرا جدلـــيا علـــى الرغم من هيغل. وهم لم يفكروا بالاضداد، بالايجابيات والـــسلبيات بوصـــفها مظاهـــر الكل نفسه. وكانت المتناقضات تقلقهم اكثر مما تفـــرحهم. فهـــم ليـــسوا افراد اللحظات الوجودية، بل سلسلة السبب والنتيجة، النظريات الايجابية الواضحة التي تدرس بعناية وتطبق بجد واجتهاد. وانهمكوا بالبناء مؤكدا، وانهمكنا نحن بالهدم منذ مدة طويلة حتى لاح البناء نشاطا وقتيا زائلا مثل الفقاعـــات. لهـــذا كان تشارلز صعب التعليل امام نفسه. واخيرا تمكن من انتزاع ابتسامة لا توحي بالاقناع ابدا.

– الن نشاهد في هذا المكان؟

تابعت نظرته صوب حقل مصنع الالبان المتواري عن الانظار.

– انه سوق اكسمنستر وما ان يفرغ من الحلب حتى يذهب.

غير انها عادت داخل المخزن فلحق بها ووقفا متباعدين وكانت سارة قد ولته ظهرها.

– قضيت الليلة هنا؟

اومات. وخيم الصمت.

– الست جائعة؟

هزت سارة رأسها بالنفي وران الصمت من جديد. الا انها انهته بنفسها هذه المرة.

– تعرف؟

– كنت خارجا طيلة يوم امس، لم اتمكن من المجيء.

صمت.

– اشفيت السيدة بولتيني؟

– اعتقد ذلك.

- كانت في منتهى الغضب معي.

- رب ضارة نافعة. لم يكن بيتها المكان المناسب.

- واين هو المكان المناسب لي؟

تذكر ان عليه انتقاء كلماته بعناية.

- هوني عليك. لا ينبغي ان ترثي لحالك.

تقدم خطوة او خطوتين منها.

- لقد ساد القلق العظيم — وخرج فريق بحث للتفتيش عنك طيلة ليلة امس، في اثناء العاصفة.

التفتت اليه كأنه ربما يخدعها. وادركت ان الامر ليس كذلك. وشاهد بدوره من خلال دهشتها انها لم تكن تخدعه عندما قالت.

- لم اقصد اثارة مثل هذا الاضطراب.

- حسنا. لا بأس. في وسعي القول ان الجميع استمتع بالاثارة. الا ان الواضح الان هو وجوب رحيلك عن لايم.

احـــنت رأســـها. كان صوته عنيدا اكثر مما ينبغي. تردد، ثم تقدم الى الامام ووضع يده فوق كتفها مطمئنا.

- لا تخشي شيئا. جئت لاساعدك في تنفيذ ذلك.

- ظـــن تشارلز انه بهذه الاشارة الصغيرة والتوكيد سيتخذ الخطوة الاولى في اطفـــاء النار التي قال له الطبيب انه قد اضرمها، لكن عندما يكون المرء نفسه هو الوقود، فإن مكافحة النيران مهمة يائسة. كانت سارة شعلة متوهجة تماما، عيناها متوهجـــتان وهي تسدد نظرة متقدة صوب تشارلز. جذب يده، الا انها امسكت بها، وقبل ان يتمكن من وقفها، رفعتها صوب شفتيها. فخطفها مذعورا وكأن رد فعلها يشبه تلقيها صفعة على وجهها.

- ارجـــو ان تـــسيطري علـــى نفـــسك يا عزيزتي الانسة وودراف... انني...

- لا استطيع.

قلمـــا تـــناهت كلماتها الى السمع، الا انها اسكتت تشارلز، وحاول ان يقنع نفسه انها قصدت انها لا تستطيع ان تسيطر على مدى امتنانها لاحسانه... حاول،

حاول، الا ان ذكرى عابرة لكاتولوس[92] مرت به «كلما شاهدتك، يخنقني الصوت، يتلعثم لساني، وتتسلل النار البطيئة في اطرافي، ويلف اذني وعيني وهدير باطني، ظلام» كان كاتولوس يترجم سافو في هذا الصدد، ويبقى شعر سافو افضل وصف طبي للحب في الطب الاوروبي.

وقف تشارلز وسارة في مكانيهما ضحية الاعراض نفسها، ان كانا يدركانها، راغبين من جهة وممتنعين من جهة اخرى، على الرغم من ان الذي امتنع وجد نفسه عاجزا عن الانصراف. مرت اربع او خمس ثوانٍ من العواطف المكبوتة كبتا شديدا، بعدها لم تستطع سارة احتمال ما هو اكثر من ذلك. فخرت جاثية على ركبتيها عند قدميه، واندفعت منها الكلمات.

– لقد كذبت عليك، لقد تأكدت بأن السيدة فيرلي رأتني، اذ كنت اعرف ان من شأنها ان تخبر السيدة بولتيني.

بدا تشارلز يفقد ضبط النفس الذي شعر انه يتحكم فيه. حدق في ذهول الى الوجه الذي كان يرنو اليه. من الواضح انه كان يطلب منه الصفح، الا انه هو نفسه كان يطلب المشورة طالما ان الاطباء خذلوه ثانية. فقد انتظرت السيدات الشابات المرموقات اللواتي عمدن الى حرق البيوت وكتابة الرسائل المجهولة حتى يقبض عليهن قبل ان يقدمن على الاعتراف بذنبهن، مع مراعاة لطيفة للاحكام الأخلاقية الواضحة.

وثبت الدموع من مقلتيها. ثروة هبطت عليه، عالم ذهبي؛ وازاء ذلك، مع نزيز بسيط من الغدد المسيلة للدموع، قطرة او قطرتان مرتعشتان من ماء، في منتهى الصغر، في منتهى الزوال، في منتهى الاختصار. الا انه على الرغم من ذلك وقف مثل رجل تحت سد ينهار، بدلا من رجل من فوق امرأة تبكي.

– لكن لماذا؟

---

(92) غايوس فاليريوس كاتولوس (84؟-54 ق. م) شاعر غنائي روماني، تعد مفرداته عن الحب والكراهية من اعذب الشعر الغنائي في روما القديمة عبر في 25 قصيدة من قصائده البالغة 113 عن عنفوان حبه الذي لا طائل من ورائه لامرأة سماها ليزبيا، وهي امرأة مجهولة الهوية. اما قصائده الاخرى فتعبر عن ازدرائه يوليوس قيصر، وغيره من الشخصيات الادنى مرتبة. (المترجم)

رفعت بصرها اليه ثانية بمنتهى الجد والتضرع، باعلان لا يرقى اليه الشك حتى باتت الكلمات غير ضرورية، بوضوح جعل اي مراوغة - اي عبارة من مثل: «يا عزيزتي الانسة وودراف - مستحيلة».

مـــد يـــده ببطء وساعدها على النهوض. وظلت عيناهما مشدودتين صوب احـــدهما الاخر، كأنهما تحت تأثير التنويم المغناطيسي. ولاحت له - او لاحت له تلك العينان الواسعتان المدمرتان - اجمل شيء شاهده في حياته. لا يهم ماذا يكمن من ورائهما فقد تغلبت اللحظة على الحياة.

اخذها بين ذراعيه، وشاهد عينيها عن قرب وهي تتمايل في احضانه. ثم اغلق عينـــيه وعثر على شفتيها. لم يشعر بطراوتهما حسب، بل شعر بكل ثورة جسدها القريبة منه، ضالتها، هشاشتها، ضعفها، رقتها...

دفعها دفعة قوية بعيدا عنه.

نظـــرة ملؤها العذاب، كأنه احقر مجرم ضبط متلبسا بارتكاب ابشع جرائمه. ثم اســـتدار واندفع صوب الباب - ليدخل في رعب اخر. وهو ليس رعب الطبيب غروغان.

32

وهي بثوبها الموسليني الابيض تنتظر هناك
في الشرفة بقلب شديد الترقب
في حين لا يزال الهواء الرقيق
يتغلغل في الداخل.

هاردي: صندوق الموسيقى

لم تـــتمكن ايرنـــستينا من النوم في تلك الليلة السابقة. اذ كانت تعرف تماما نـــوافذ غرفة تشارلز في وايت لاين. ولم تخفق في ملاحظة ان ضوء الغرفة ما زال مـــنيرا بعد ان اخذ شخير خالتها يزحف في ارجاء البيت الذي يلفه الصمت. فقد شـــعرت بـــادئ ذي بدء انها جريحة الكبرياء، كما شعرت بالذنب ايضا وبنفس القدر. لكن عندما انسلت من فراشها للمرة السادسة عشرة لتتأكد من ان النور لا يـــزال مضاء، وشاهدته مضاء حقا، بدا ذنبها يتصاعد. مما لا ريب فيه ان تشارلز كان مستاء منها بحق.

والان، وبعـــد ان انصرف تشارلز، خاطبت ايرنستينا نفسها – ومن ثم الخالة ترانتر – بانها لا تهتم مطلقا بوينـــزيات، فقد تعتقد ان الحصرم من شأنه ان يكون اســـتعارة بـــستانية ملائمة اكثر. المؤكد انها حاولت اقناع نفسها بقبول دور امر القلعـــة بعـــد ان توجه تشارلز الى بيت عمه، بل انها شرعت حقا في وضع قائمة **بالمواد التي ينبغي اعدادها**... الا انه موت ذلك الحلم المفاجئ جاء اشبه بارتياح مـــؤكد. فالنـــساء اللواتي يقمن بادارة البيوت الكبيرة بحاجة الى مسحة القائد من حولهن. اما ايرنستينا فلم تكن تملك اي تطلعات عسكرية. كانت تهوى البذخ، ان تمثل بين يديها، ان لم يكن بين قدميها، الاخرون. وكانت تملك احساسا برجوازيا بالتناســـب. فوجود ثلاثين غرفة بينما لا تكفيها سوى خمس عشرة غرفة ليس الا حماقة. ربما ورثت هذا الاقتصاد النسبـــي في النفقات عن ابيها الذي امن سرا بأن **الارستقراطية** رديـــف **المفخرة الزائفة** على الرغم من ان هذا لم يمنعه من اعتماد جـــزء ليس باليسير من تجارته على ذلك الخطأ او ادارة بيت في لندن من شأن عدد

كبير من النبلاء ان يكونوا سعداء لـــ - او ينقضوا على - اول فرصة لقب يعرض على ابنتهم العزيزة المحبوبة. ولكي لا ننكر محاسنه، فهو قد يرفض لقب الفايكونت على انه متجاوز الحد، اما لقب البارون فهو ملائم كل الملاءمة.

انـــي لا اوفي حق ايرنستينا التي كانت قبل كل شيء ضحية الظروف، البيئة الـــضيقة الافـــاق. من المؤكد ان نظرتها المزدوجة اساسا الى المجتمع هي التي تجعل الطـــبقة الوسطى هذا المزيج الفريد من الخميرة والعجين. اننا نميل اليوم الى ان ننسى ان تلـــك الطـــبقة كانـــت دومـــا الطبقة الثورية العظيمة. ونرى اكثر المظهر الشاحب، الـــبرجوازية بوصفها معقل الرجعية، الاهانة الكبرى، انانية وملتزمة بالعادات والتقاليد دومـــا. ان هذه الخاصية المزدوجة الشبيهة بيانوس[93] مستمدة من فضيلة الطبقة الوحيدة وهـــي: ان هذه الطبقة هي الوحيدة بين الطبقات الثلاث الكبرى في المجتمع التي تحتقر نفـــسها بكل اخلاص وعلى نحو مألوف. من المؤكد ان ايرنستينا لم تكن استثناء هنا. فلم يكن تشارلز وحده الذي سمع سخرية غير سارة في صوتها، بل سمعت هي ذلك ايـــضا. الا ان مأســـاتها (المأســـاة الوحيدة التي تظل قائمة) هي انها كانت تسئ اســـتخدام موهـــبة ازدراء الذات هذه وبهذا تجعل من نفسها ضحية افتقار طبقتها الـــدائم الى الايمان بنفسها. وعوضا عن ان ترى اخفاقاتها سببا في رفض مجمل نظام الطبقة، فإنها رأتها سببا في البحث عن الاسمى. اننا حقا لا نستطيع ان نلومها. فقد تعلمـــت تماما ان تنظر الى المجتمع على انه مجموعة كبيرة من الدرجات في سلم ما، وبهذا تقلل من شأن مكانتها على انها خطوة نحو شيء يفترض فيه ان يكون افضل.

وهكذا («انني خجلة، لقد تصرفت مثلما تتصرف ابنة تاجر ملبوسات») فإن ايرنـــستينا تخلت في الهزيع الاخير من الليل عن محاولة النوم، ونهضت وارتدت ثوبها الفـــضاض وفـــتحت مفكرتها. لعل تشارلز سيرى ان نافذتها كانت هي الاخرى مـــضيئة على نحو تكفيري في الظلام الدامس الذي اعقب عاصفة الرعد. وفي هذه الاثناء شرعت بالكتابة.

«لا اســـتطيع الـــنوم. تشارلز الاعز مستاء مني - لقد انـــزعجت انـــزعاجا شـــديدا بـــسبب الاخبار الفظيعة من وينـــزيات. اردت البكاء، كنت في منتهى

(93) يانـــوس: اله الابواب والبوابات والبدايات عند الرومان. ويصور عادة بوجهين ينظران الى اتجاهين متباينين. (المترجم)

الضيق، الا انني تفوهت على نحو طائش باشياء كثيرة غاضبة تنطوي على الحقد - وانا اسأل الله ان يغفر لي اذ انني تفوهت بها بسبب حبـــي لتشارلز الاعز لا بسبب الخبث. لقد بكيت مر البكاء عندما خرج. ليكن هذا درسا لي بأن احمل الكلمات الجمسيلة لمراسيم الزواج في ضميري وان اشرّف تشارلز الاعز واطيعه حتى عندما تـــدفعني مشاعري الى الاختلاف واياه. دعني أتعلم بجد وتواضع كيف احني ارادتي البغيـــضة والفظيعة امام حكمته الاعظم شأنا، لاصن حكمه واربط نفسي بفؤاده لأن «عذوبة الندم الصادق هي بوابة النعيم المقدس».

ربما لاحظت افتقار ايرنستينا المحدد الى الجفاف المألوف في هذه الفقرة المؤثرة. الا ان تـــشارلز ليس الوحيد الذي له العديد من الاصوات. وكما تأملت بأن يرى الـــضوء في وقت متأخر في حجرتها، فإنها واجهت نهارا قد يقنعها فيه بمشاركة هذا الـــسجل الحميم عن روحها قبل ان تتزوج. كتبت جزئيا من اجل عينيه - وجزئيا مـــن أجـل عينـيه شأنها في ذلك شأن اي امرأة فكتورية. اوت الى فراشها مستريحة البال، عروسا طاهرة في روحها تماما وعلى نحو ملائم، مما لا يترك امامي اي خيار سوى الاستنتاج بانها لا بد ان تفوز في نهاية المطاف بتشارلز بعد خيانته.

كانت مستغرقة في نوم عميق عندما وقعت حادثة صغيرة دونها بأربعة طوابق. لم ينهض سام من النوم مبكرا مثل سيده في ذلك الصباح وعندما ذهب الى مطبخ الفـــندق لتناول الشاي والجبن بالخبز المحمص - شيء واحد واظب عدد قليل من الخـــدم في العـــصر الفكتوري على القيام به هو تناول طعام اقل من سادتهم بغض النظـــر عن حاجة معدهم - أدرك من رؤية حذاء تشارلز ان سيده قد خرج، وان على سام ان يعد العدة ويتهيأ للرحيل في الظهيرة. اخفى سام صدمته. فاعداد العدة ليس سوى عمل لا يستغرق اكثر من نصف ساعة، وهو لديه امور اكثر الحاحا.

ذهـــب على الفور الى بيت الخالة ترانتر. ولسنا في حاجة إلى الاستفسار عما قاله سوى ان ذلك الشيء كانت تشوبه المأساة طالما ان الخالة ترانتر (التي حافظت علـــى ساعات ريفية لا تنم عن اللياقة) وجدت لدى هبوطها الى المطبخ بعد دقيقة واحـــدة ماري وهي منهارة تبكي عند منضدة المطبخ. طرحت الاسئلة على ماري وســـرعان مـــا انتزعت الخالة ترانتر المعلومات بأسلوبها الرقيق عن مصدر المأساة، واســـتعملت علاجـــا اكثر رقة من علاج تشارلز. في الامكان صرف الخادمة حتى

يحـــين مـــوعد تلبية حاجات ايرنستينا؛ كانت ستائر الانسة ايرنستينا الموشاة تبقى مسدلة كما هو مألوف حتى الساعة العاشرة، وهذا يعني مهلة قدرها ثلاث ساعات تقـــريبا. وكوفئت الخالة ترانتر باكبر ابتسامة عرفان بالجميل شهدها العالم في ذلك الـــنهار. وبعـــد خمس دقائق، شوهد سام منبطحا في وسط شارع برود. لا ينبغي للمرء ان يجري باقصى سرعة فوق الحصى، حتى لو كان ذلك من اجل ماري.

33

دعني احب حبيبي لنفسي حسب،
واعرف معرفتي غير المعروفة للاخرين
لن ادعو شاهدا لرؤياي:
ارى الكل ولا يراني الجميع...

اي. إتش. كلف: قصيدة 1852

يـــصعب تحديد من الذي صدم اكثر من الاخر - السيد الجامد على بعد ستة اقـــدام (1.8 متر) من الباب او الخادمان اللذان لم يكونا اقل جمودا على بعد ثلاثين يـــاردة (27 متـــرا). وبلغ ذهول الاخرين حدا جعل سام لا يحرك حتى ذراعه من حول خصر ماري. قطع المشهد ظهور الشخص الرابع: سارة على نحو جامح، عند مدخل الباب. وتراجعت بسرعة كبيرة حتى ان المشهد قلما كان اكثر من ان يدرك او يحـــس به. غير ان ذلك كان كافيا. اذ فغر سام فاه، وسقطت ذراعه من حول ماري.

- ما الذي تفعله هنا؟
- اتنـــزه يا سيد تشارلز.
- اظنني تركت تعليمات لـــ...
- لقد نفذتها يا سيدي. كل شيء جاهز.

علـــم تشارلز انه يكذب. ابتعدت ماري برقة تناسبها. تردد تشارلز ثم تقدم صوب سام الذي ومضت في ذهنه صور الطرد والهجوم.

- لم نعرف يا سيد تشارلز. صدقني لم نعرف.

تألقت عينا ماري بنظرة خجل سددتها نحو تشارلز: ثمة صدمة فيها. وخوف، لكن تشوبها مسحة خفيفة من اعجاب سري. فخاطبها.

- اتركينا وحدنا لحظة من فضلك.

احـــنت الفتاة رأسها، وسارت بعيدا عن مدى السمع. تفرس تشارلز في سام الذي عاد الى وضع الخادم الذليل، وأمعن النظر في حذاء سيده.

- لقد جئت الى هذا المكان في مهمة ذكرتها.
- نعم يا سيدي.
خفض تشارلز من صوته.
- بناء على طلب الطبيب الذي يعالجها. وهو يدرك ادراكا تاما الظروف.
- نعم يا سيدي.
- التي لا ينبغي البوح بها تحت اي ذريعة.
- افهم ذلك يا سيد تشارلز.
- وهل تفهم هي؟
رفع سام نظره.
- لن تقول ماري شيئا يا سيدي. اقسم بحياتي.
اطرق تشارلز وهو يدرك ان وجنتيه محمرتان تماما.
- حسنا جدا، انني. انني اشكرك. وسأنظر في الامر... هنا ثم تحسس محفظة نقوده.
- اوه، لا يا سيد تشارلز.
تراجع سام خطوة الى الوراء على نحو درامي مبالغ فيه ليقنع المراقب الخالي من الاهواء.
- ابدا.
هنا توقفت يد تشارلز. تبادل السيد والخادم نظرة. لعلهما ادركا ان تضحية ذكية قد قدمت.
- حسنا جدا. سأترك الامر لك. لكن بلا كلمة واحدة.
- اقسم بذلك يا سيد تشارلز.
استدار سام بعد ان افرط في المغالاة في القسم، وخرج وراء ماري التي كانت في انتظاره مستديرة الظهر على نحو متحفظ وعلى بعد حوالى مائة ياردة (واحد وتسعين مترا) بين السرخس والاشجار الشائكة.
ليس في وسع المرء الا ان يخمن السبب الذي جعل مخزن الغلال وجهتيهما. ربما انتابتك الحيرة لأن فتاة عاقلة مثل ماري تنفجر باكية لفكرة الغياب بضعة ايام. لكن لنترك سام وماري في حين يدخلان الغابة ثانية ويسيران بصمت مذهولين

ومن ثم ينظر احدهما الى الاخر خلسة - وينتهي بهما الامر الى ضحكة صامتة، ولنعد الى تشارلز صاحب الوجه القرمزي.

راقبهما وهما يتواريان عن الانظار، ثم ألقى نظرة الى مخزن الغلال الذي لا يوحي بالحقيقة. لقد شق تصرفه اعماق كيانه، غير ان الهواء الطلق اتاح له فرصة التأمل برهة وجيزة. وكما في اغلب الاحوال، فقد جاء الواجب لنجدته. لقد زاد من لهيب المحرقة اشتعالا على نحو صارخ. وربما كانت الضحية الاخرى تحتضر الان تحت لهيبها، ملقيا بذلك حبل المشنقة من فوق العارضة الخشبية... تردد، ثم رجع الى مخزن الغلال وسارة.

كانت تقف بجانب حافة النافذة، بحيث لا يمكن مشاهدتها من الخارج كأنها حاولت ان تسمع ما كان يدور من حديث بين تشارلز وسام. ووقف هو قرب الباب.

- لا بد لك ان تغفري لي لانتهازي فرصة لا يمكن الصفح عنها من موقفك البائس.

توقف هنيهة ثم استأنف كلامه.

- لا في هذا الصباح وحده.

اطرقت وارتاح هو عندما رأى انها بدت مرتبكة، ولم تعد غاضبة.

- لقد كان اخر شيء اتمناه هو مداعبة عواطفك. لقد تصرفت تصرفا طائشا. بل في منتهى الطيش. واللوم يقع علي وحدي انا.

تفرست في الارضية الحجرية الصلبة الممتدة بينهما، سجينة تنتظر قرار الحكم.

- لقد وقع الضرر الان، وااسفاه. ولا بد لي من ان اسألك مساعدتي في اصلاحه.

مكثت رافضة دعوته للكلام.

- لدي اعمال تتطلب وجودي في لندن، ولا ادري كم سيطول غيابي.

وهنا نظرت اليه نظرة لم تدم سوى لحظة واحدة. فتلعثم وهو يستأنف حديثه.

- اعتقد انه ينبغي لك الذهاب الى اكستر. وارجو ان تأخذي النقود الموجودة في هذه المحفظة... بمثابة قرض ان شئت. حتى تتمكني من العثور على مكان لائق... واذا ما احتجت الى اي مساعدة مالية اضافية.

ضعف صوته حتى تلاشى، وبات شكليا اكثر مما مضى. لقد عرف انه لا بد ان يظهر امامها شخصا جديرا بالازدراء، اذ ولته ظهرها.

- لن اراك ثانية.

- لا تتوقعي مني ان انكر ذلك.

- على الرغم من ان رؤيتك هي كل ما اعيش من اجله.

ظل التهديد الفظيع معلقا في الصمت الذي ران بعد ذلك. لم يملك الجرأة ليدفع به علانية. شعر كأنه رجل مكبل بالاغلال. وجاء خلاصه على نحو غير متوقع مثلما يأتي الى سجين صدر الحكم بادانته... نظرت من حولها وقرأت افكاره بوضوح.

- لو اردت قتل نفسي لكانت لدى اسباب كافية قبل الان.

نظرت الى خارج النافذة.

- انني اقبل قرضك... بامتنان.

اغمض عينيه في لحظة شكر صامت. ووضع محفظة النقود - وهي غير المحفظة التي سبق ان صنعتها له ايرنستينا - فوق حافة بارزة قرب الباب...

- ستذهبين الى اكستر؟

- ان كانت تلك هي نصيحتك.

- انها كذلك مؤكدا.

احنت رأسها.

- لا بد لي من ان اقول لك شيئا اخر. ثمة حديث في البلدة عن ارسالك الى مستشفى الامراض العقلية.

ومضت عيناها من حولها.

- قد جاءت الفكرة من منزل مارلبورو بلا ريب. ولا ضرورة لأن تنظري للمسألة نظرة جادة. فعلى الرغم من كل ذلك، في وسعك ان تجنبي نفسك الحرج اذا لم ترجعي الى لايم.

تردد ثم قال.

- اعرف ان فريقا سيأتي عما قريب للبحث عنك ثانية. لهذا السبب اتيت مبكرا.

- ان صندوق ملابسي...

- سأهتم بذلك. وسأعمل على ارساله الى المراب في اكستر. وقد فكرت لو انك كنت تملكين القوة، فإن الافضل السير الى اكسماوث كروس. فهذا من شأنه ان يجنب... كل واحد منا الفضيحة. الا انه ادرك ماذا كان يطلب منها. فبلدة اكسماوث تقع على بعد سبعة اميال. اما كروس، التي تمر فيها العربات، فهي ابعد من ذلك بميلين اثنين.

وافقت.

- ولستخبرين السيدة ترانتر حالما تعثرين لك على مكان؟

- ليس لي اي معارف.

- في وسعك اعطاء اسم السيدة تالبوت واسم السيدة ترانتر. وسأتحدث اليها بهذا الشأن. وارجو الا تكوني مترفعة اكثر مما ينبغي وان تطلبي مبلغا اخر من المال اذا دعتك الضرورة. وسأتدبر ذلك ايضا قبل ذهابي.

- لن يكون ذلك ضروريا.

كان صوتها ضعيفا لا يكاد يسمع.

- غير انني اشكرك.

- اعتقد انني انا الذي يجب ان اشكرك.

نظرت الى عينيه. كان السهم لا يزال فيهما، شاهدته كله.

- انت امرأة رائعة يا انسة وودراف. واشعر بالخجل الشديد لأنني لم ادرك ذلك من قبل.

فقالت.

- نعم. انا امرأة رائعة.

غير انها تفوهت بعبارتها دون كبرياء، دون سخرية، بل بما لا يزيد عن البساطة المرة. وران الصمت من جديد. فتحمله بقدر ما يستطيع ثم اخرج ساعة جيبه ذات الغطاء المعدني وهي اشارة غير ذكية على انه يريد الانصراف. وشعر بارتباكه، صلابته، وكرامتها التي تفوق كرامته، ربما لا يزال يستعذب طعم شفتيها.

الن تصحبني حتى نصل الممر؟

لم يرغب في ان تراه خجلا في لحظة الفراق الاخير هذا. ولو ظهر غروغان فلن يهم الان. غير ان غروغان لم يظهر. سارت سارة من امامه بين السرخس

الميت والاعشاب الحية في ضوء الشمس الباكر، متألقة الشعر، صامتة لا تلتفت البتة. ادرك تشارلز تماما ان سام وماري ربما كانا يراقبانهما، الا ان الافضل الان ان يشاهدانه علنا واياها. كان الطريق يرتفع من امامهما بين الاشجار حتى وصل الى نهاية المطاف الى الممر الرئيس. استدارت، فتقدم الى جانبها ومد يده.

ترددت لحظة، ثم مدت يدها. فامسك بها بقوة محرما بذلك اي حماقة اخرى.

وغمغم.

- لن انساك ابدا.

رفعت وجهها اليه بحركة غير محسوسة بل ثاقبة من عينيها، كان هناك شيئا لا بد له من ان يراه، و لم يفت الاوان على ذلك بعد: حقيقة تتجاوز كل الحقائق، عاطفة تتجاوز كل العواطف، تاريخ يتجاوز كل تصوراته عن التاريخ. كان في وسعها ان تعبر عن عوالم، لكنه على الرغم من ذلك، علم انه اذا لم يستطع فهم تلك العوالم دون ان تعبر هي عنها...

ظلت نظراتهما متشابكة مدة طويلة، ثم خفض من ناظريه، وترك يدها.

بعد دقيقة واحدة نظر من ورائه. فشاهدها واقفة حيث تركها وهي تراقبه. فرفع قبعته بينما لم تبدِ اي شارة.

بعد مرور عشر دقائق توقف عند بوابة في الطريق المواجه للبحر المؤدي الى حقل مصنع الالبان، وكانت تطل على مشهد يمتد الى ما وراء الحقول حتى الكوب. وفي مكان بعيد الى الاسفل، شوهد شخص قصير القامة يرتقي ممر الحقل صوب البوابة التي يقف عندها تشارلز. تراجع قليلا الى الوراء، تردد لحظة... ثم استأنف سيره على امتداد الطريق المؤدي الى الممر ومن ثم الى البلدة.

34

وانتزعت الوردة المتعفنة من الجدار.

هاردي: في اثناء الريح والمطر

- كانت تتنـــزه.

وهكذا اثبت تغييره ثيابه مرة ثانية مظهرا لا جدوى منه.

- اردت ان اجعل ذهني صافيا. لقد نمت نوما سيئا.

- وانا كذلك.

ثم اضافت:

- قلت انك مرهق الى حدّ لا يصدق.

- حقا.

- الا انك بقيت ساهرا حتى بعد الساعة الواحدة.

التفت تشارلز بغتة صوب النافذة.

- كانت لدي اشياء كثيرة انظر فيها.

يـــشير دور ايرنستينا في هذا الحديث المتصالب الى فشل محدد في الاحتفاظ في ضـــوء الـــنهار بنـــبرة التوسل الذاتي الليلية. غير انها عرفت من سام والخالة ترانتر المـــرتبكة ان تـــشارلز خطط للرحيل عن بلدة لايم في ذلك اليوم اضافة الى قيامه بنـــزهته. لقد وطدت العزم على الا تطالب بأي تفسير لهذا التغير المفاجئ في رأيه. لتترك سيادته يوضح ذلك في وقته المناسب.

لما جاء اخيرا، قبل الساعة الحادية عشرة، وفي حين جلست وهي تزم شفتيها على نحو متكلف، منتظرة اياه في غرفة الجلوس الخلفية، كان هو من القسوة بحيث تحـــدث حديثا مطولا في الردهة مع الخالة ترانتر، وعلى نحو غير مسموع، هو اسوأ ما في الامر. وهكذا ظلت تغلي من اعماقها.

لعل اقل ما شعرت به من استياء انها صرفت وقتا طويلا في العناية بهندامها في ذلـــك الـــصباح و لم يـــسمعها اي كلمة اطراء لذلك. كانت ترتدي ثوبا ورديا

خصيـــصا لتـــناول الفطـــور ضيقا قرب الابط ثم ينثني على نحو ضخم عند منطقة الرسغ. وكان بذلك يكشف هشاشتها بصورة جميلة جدا. ولعبت الاشرطة البيض في شـــعرها الـــناعم وعطـــر ماء الورد المنبعث منها على نحو رقيق دورها. كانت افـــروديت مـــن ســـكر، نهضت من فراش ذي ملاء أبيض على الرغم من عينيها المتورمـــتين قلـــيلا. ربما وجد تشارلز انه سهل عليه ان يكون قاسيا. الا انه انتزع ابتسامة وامسك باحدى يديها وشرع يربت فوقها وهو جالس الى جوارها.

- يا اعز الناس. لا بد لي من طلب الغفران. انا لست على حقيقتي. واخشى انني قررت وجوب الذهاب الى لندن.

- اوه يا تشارلز.

- اتمـــنى لو ان الامور ليست كذلك. غير ان هذا التطور الجديد في الاحداث قد حتم عليّ رؤية مونتاغ على الفور.

كان مونتاغ هو المحامي - في تلك الايام التي سبقت وجود المحاسبين - الذي كان يعتني بشؤون تشارلز.

- الا تستطيع الانتظار حتى عودتي؟ انها عشرة ايام اخرى لا اكثر.

- سأعود لاخذك.

- اليس في وسع السيد مونتاغ الحضور الى هنا؟

- لا، مع الاسف. هناك العديد من الوثائق. يضاف الى ذلك، ليس ذلك هو هدفي الوحيد. لا بد لي من اخبار والدك بما قد حدث.

خلصت يدها من بين ذراعه.

- ولكن ما هو الشيء الذي يتعلق به؟

- ان كـــل شيء يتعلق به يا طفلتي العزيزة. لقد عهد الي برعايتك ومثل هذا التحول الخطير في مستقبلي...

- لكن لا يزال لديك دخلك الخاص!

- حـــسنا... نعـــم، مؤكدا، سأظل دوما ميسور الحال، الا ان هناك بعض القضايا الاخرى. اللقب...

- كـــنت قـــد نسيت ذلك. حقا. يستحيل ان اتزوج رجلا من عامة الناس.

القت نظرة خاطفة اليه بثبات ساخر ملائم.

- اصبري يا حبيبتي. لا بد من قول هذه الاشياء - انت ستأتين بمبلغ كبير من المال. من المؤكد ان عواطفنا الخاصة ذات اهمية قصوى. وعلى اي حال، هناك... حسنا، جانب قانوني وتعاقدي في موضوع الزواج وهو.

- هراء!

- يا اعز الناس يا تينا...

- انت تعلم جيدا انهم سيسمحون لي بالزواج من اي شخص لو اردت ذلك.

- ربما يكون الامر كذلك. لكن حتى اكثر الاباء ولها يفضلون ان يكونوا على علم...

- كم غرفة في بيت بيلغرافيا؟

- ليست لدى اي فكرة.

تردد، ثم اردف.

- يحتمل عشرون غرفة.

- وذكرت في يوم ما ان دخلك في السنة الواحدة يصل الى الفين وخمسمئة، وسيكون مهري...

- سواء كانت الظروف المتغيرة لا تزال كافية لتحقيق الراحة ام لا، فذلك ليس موضوع البحث او النقاش.

- حسنا جدا. لنفترض ان والدي اخبرك انك لن تستطيع الزواج بي فما الذي سيحدث؟

- لقد اسأت فهمي. انني اعرف واجبي. ولا يمكن للمرء ان يكون كثير الوساوس في مثل هذه النقطة.

جرى هذا الحديث دون ان يجرؤ احدهما على النظر في وجه الثاني.

خفضت رأسها معترضة على نحو واضح، متمرد، بينما نهض ووقف من ورائها.

- ليس الامر اكثر من شكليات. الا ان مثل هذه الشكليات ذات اهمية.

اطرقت بعناد.

- لقد سئمت من بلدة لايم، واراك هنا اقل مما في المدينة.

ابتسم.

- غير معقول.

- يبدو ذلك اقل.

ارتـــسم خط صغير من الوجوم على فمها. ما من شأن غضبها ان يستكين. سار صوب الموقد ووقف قبالته، واضعا ذراعه فوق حافته وهو يبتسم لها. غير انها كانت ابتسامة تخلو من الفكاهة، قناعا. لم تكن لتعجبه عندما تكون صعبة المراس. فـــذلك يخالـــف مخالفـــة شديدة ثيابها الانيقة التي صممت لتظهر الافتقار التام الى التناســـب خارج اطار البيت. لقد قدمت الخطوة الاولى في الثياب المعقولة التي من شأنها ان تكون ذات نتائج خطيرة السيدة بلومر الشائنة قبل عقد ونصف من الزمن الذي اكتب عنه. الا ان تلك المحاولة المبكرة في ارتداء البدلة والسروال هزمت على يـــد التـــنورة المنـــتفخة ذات الاسلاك - حقيقة بسيطة ذات اهمية كبيرة في فهمنا الفكـــتوريين. لقد وهب لهم العقل، فاختاروا حماقة طولها ستة اقدام (1.8 متر) لا توازيها حماقة في اكثر الفنون الثانوية المحكومة بالحماقات.

علـــى اي حـــال، لم يفكر تشارلز، في اثناء الصمت الذي اعقب ذلك، في سخافة الازياء الرفيعة، بل في كيفية الرحيل بلا ضجة اخرى. ولحسن حظه، كانت تيـــنا في الوقت نفسه تفكر في وضعها: فاثارة مثل هذا اللغط بسبب غياب قصير الامـــد انمـــا هو تصرف الخادمات (فقد اوضحت الخالة ترانتر السبب الذي جعل مـــاري تعجز عن الاستجابة لجرس الاستيقاظ) علاوة على ذلك، فإن زهو الذكر يكمـــن في اطاعـــته، امـــا الانثى، فإنها تلجأ الى الطاعة كي تحقق النصر النهائي. ولـــسيحين الوقت الذي يضطر فيه تشارلز الى دفع ثمن قسوته. وكانت ابتسامتها الصغيرة وهي ترفع بصرها اليه ابتسامة الندم والتكفير.

- ستكتب الرسائل يوميا؟

مد يده، ولمس وجنتها.

- اعدك.

- وان تعود بأسرع ما تستطيع؟

- حالما اتمكن من تنفيذ القضايا مع مونتاغ.

- سأكتب الى بابا مع اوامر صارمة باعادتك مباشرة الى هنا.

انتهز تشارلز فرصته.

– وساحمل الرسالة اذا كتبتها على الفور. فسأغادر في بحر ساعة من الزمن.

وقفـــت ومـــدت يديها. كانت تتمنى ان يقبلها، الا انه لم يستطع حمل نفسه علـــى تقبـــيلها على فمها. فامسك بكتفيها وضغط قليلا على صدغيها. ثم استعد للانـــصراف. الا انه توقف لسبب غريب. نظرت ايرنستينا مليا، بخنوع واستحياء امامها الى ربطة عنقه الداكنة الزرقة والدبوس اللؤلؤي المثبت فيها. ان السبب الذي جعل تشارلز لا يستطيع الذهاب لم يكن واضحا توا. في الواقع، هناك يدان اثنتان عالقـــتان في جيبـــي صدريته السفليين. وادرك ثمن اطلاق سراحه ودفعه. لم تنهار اي عوالم، لا صرخة داخلية، لا ظلمة تغلف العينين والاذنين في حين وقف يضغط شـــفتيه فـــوق شفتيها بعض الوقت. كانت ايرنستينا ترتدي ثيابا في غاية الجمال. وتـــوغلت في ذهـــن تشارلز صورة، ربما انطباع ملموس اكثر، بجسد ابيض صغير ورقيق. ادارت رأسها فوق كتفه، واستكانت بين ذراعيه. وبينما كان يربت ويمسد ويهمـــس بيـــضع كلمات سخيفة وجد نفسه في تمام الحرج بغتة. شعر انها اثارت رجولـــته. كـــان هناك دوما مزاج ايرنستينا، استياؤها الغريب البسيط واهواؤها العاطفـــية، وعد بتمرد جامح مدفون... رغبة في تعلم المشاكسة والعناد، ان تقضم ذات يـــوم علـــى استحياء ولكن بلذة، فاكهة محرمة. لعل ما شعر به تشارلز دون وعي منه ليس اكثر من الجاذبية التي لا تذوي عند النساء السطحيات: اي في وسع المرء ان يصنع منهن ما يريد. اما الشيء الذي شعر به شعورا واعيا فهو الاحساس بالـــتلوث: ان يـــشعر بـــرغبة جنسية الان بينما لمس شفتي امرأة اخرى في ذلك الصباح.

قـــبل ايرنستينا قبلة سريعة فوق قمة رأسها، وتحرر برقة من بين اصابعها التي قبلها، وانصرف بعد ذلك.

كانت لا تزال امامه محنة قاسية طالما ان ماري كانت تقف قرب الباب حاملة قبعته وقفازه. كانت تسدد نظراتها صوب الارض الا ان وجنتيها محمرتان. اختلس نظرة سريعة الى الباب المغلق للغرفة التي خرج منها بينما انهمك في ارتداء قفازيه.

– قد شرح لك سام ظروف هذا الصباح؟

– نعم يا سيدي.

- فهمت؟

- نعم يا سيدي.

نـزع احد قفازيه ثانية، وتحسس جيب صدريته. لم تتراجع ماري خطوة الى الوراء على الرغم من انها خفضت رأسها اكثر مما مضى.

- اوه يا سيدي. لا اريد ذلك.

الا انها تلقتها على الفور. وبعد لحظة واحدة، اغلقت الباب من وراء تشارلز. وعلى نحو بطيء جدا فتحت يدها الصغيرة - اخشى انها الحمراء قليلا - وحدّقت الى قطعة النقد الذهبية الصغيرة في راحتها. ثم وضعتها بين اسنانها البيض وعضتها، وهـو امر الفت مشاهدة والدها يفعله، كي تتأكد من انه ليست من النحاس. ولم تكـن لـتقدر علـى تمييز الذهب عن النحاس بالعض، بل ان العض اثبت انها من الذهب، تماما مثلما اثبت ان وجود المرء في منطقة الجرف السفلي انما هو خطيئة.

ماذا في وسع عذراء ريفية بريئة ان تعرف عن الخطيئة؟ السؤال يتطلب اجابة. في هذه الاثناء، يستطيع تشارلز الذهاب الى لندن بمفرده.

35

فيك تكمن قوتي الوحيدة لديمومتي العذبة من هذا المكان

هاردي: خلودها

ادخل المستشفى العديد من الحوامل وهن في سن الرابعة عشرة بل حتى فتيات بين الثالثة عشرة والسابعة عشرة من عمرهن واعترفت الفتيات ان الحمل حدث... في اثناء ذهابهن الى العمل الزراعي او في رجوعهن منه. فالفتيات والفتيان يذهبون في هذه السن مسافة خمسة او ستة او سبعة اميال ليصلوا الى مكان عملهم، سائرين في مجموعات على امتداد الطـرقات والـشوارع الفـرعية. وقد رأيت بأم عيني سلوكا يفتقر الى الاحتـشام الـتام بين الفتيان والفتيات في سن الرابعة عشرة الى سن الـسادسة عشرة. وشاهدت ذات مرة فتاة شابة تتعرض الى الاغتصاب علـى ايـادي خمـسة او ستة شبان على قارعة الطريق. وكان هناك اشخاص اكبر سنا على بعد عشرين او ثلاثين ياردة (18 أو 27 مترا)، الا انهـم لم يحركوا ساكنا. كانت الفتاة تصرخ، مما دفعني الى التوقف. شـاهدت ايضا فتيانا يسبحون في الجداول في حين كانت تتفرج عليهم من فوق الضفة فتيات في الثالثة عشرة والتاسعة عشرة من عمرهن.

تقرير لجنة تشغيل الاطفال 1867

مـا الـذي نواجهه في القرن التاسع عشر؟ عصر حيث كانت المرأة مقدسة، حـيث تستطيع ان تشتري صبية في الثالثة عشرة من العمر لقاء باوندات جنيهات إنكليزية قليلة – شلنات قليلة ان كنت ترغب فيها ساعة او ساعتين. حيث شيدت كنائس اكثر مما شيدت على مدى تاريخ البلاد الماضي. حيث كان بيت واحد من كـل سـتين بيـتا مبغى (النسبة المعاصرة هي بيت واحد من بين ستة الاف بيت تقـريبا)، حيث ينادي بقدسية الزواج (والعفة قبل الزواج) من فوق كل منبر، وفي كـل مقـال افتتاحي في الصحف والخطب العامة، وحيث لم يعش مثل هذا العدد الكـبير من الشخصيات البارزة – بدءا بملك المستقبل فنازلا – حياة خاصة مليئة بالفضائح، حيث كان القانون الجزائي تشوبه مسحة انسانية، والجلد بالسوط شائعا

على نحو دفع احد الفرنسيين الى ان يثبت جادا ان المركيز دي ساد لا بد ان يكون اجداده من الانكليز، حيث لم يكن جسد الانثى مخفيا على هذا النحو عن الانظار، وحيث كان كل نحات يقيم وفق قدرته في نحت النساء العاريات، حيث لم تذهب اي روايـــة، مسرحية او قصيدة ذات سمة ادبية بارزة الى ما هو اكثر من الاحساس بالقبلة، حيث عد الدكتور باودلر[94] - الذي يذكرنا تاريخ وفاته في العام 1825 ان الطـــباع المميزة عند الفكتوريين قائمة منذ زمن طويل يسبق ابواب العصر الصارمة - محسنا عاما، حيث انتاج الادب المكشوف لم يزد عنه اي انتاج فيما بعد، حيث لم يـــشر ابـــدا الى الوظائـــف البرازية، وحيث بقيت المرافق الصحية بدائية. فالمرافق الـــصحية ذات السيفون جاءت في وقت متأخر من ذلك العصر وبقيت ترفا حتى حلول العام 1900 - فكانت هناك قلة من البيوت وقلة من الشوارع لا يذكر المرء بهـــا دوما. حيث ساد الاعتقاد عموما ان النساء ليست عندهن هزة الجماع، وعلى الـــرغم من هذا، فإن كل مومس كانت تلقن كيفية التظاهر بها. حيث كان هناك تقدم هائل وتحرر في كل ميادين النشاط الانساني الاخرى، ولا شيء سوى الطغيان في اكثر الامور الشخصية والجوهرية.

مـــن النظـــرة الاولى يـــبدو الجواب سهلا - انها مسألة التسامي. فقد صب الفكـــتوريون نـــشاطاتهم الحيوية في ميادين اخرى. كان جني الارتقاء قال لنفسه والاحـــساس بالكـــسل يـــراوده: اننا بحاجة الى بعض التقدم، فلنحصر هذه القناة الوحيدة والعظيمة ونحولها ونرى ما الذي سيحدث.

في حين اعترف بصحة نظرية التسامي الى حدّ ما، فانني أحيانا اتساءل ان لم يقـــدنا هذا الى خطأ الافتراض بأن الفكتوريين لم يكونوا في الحقيقة من اصحاب الـــشهوة الجنسية الطاغية؟ غير انهم كانوا يستوون في شهوتهم الجنسية وابناء قرننا وكانـــوا اكثـــر انشغالا بالجنس منا على الرغم من ان الجنس يحيط بنا ليلا ونهارا

---

(94) تـوماس بادولـــر (1754-1825): طبـــيب ومحسن واديب انكليزي اشتهر بكتابه (شكسبير العائلـــة) الـــصادر فـــي 1818 وهو كتاب يهدف الى تقديم مسرحيات (شكسبير) على نحو محتـــشم وتـــصلح للقراءة بصوت عال داخل البيوت بعد ان حذف منها كل ما يخدش حياء الـــصبيان والصبيات دون المساس بجمال الصورة الشعرية. وعلى الرغم من الانتقاد الذي وجـــه اليه بتشويه نصوص (شكسبير) الا انه يستحق الثناء اذ ذاعت شهرة المسرحيات هذه من اوساط اكبر عدد من الناس والقراء. (المترجم)

(مـــثلما كان الدين يحيط بالفكتوريين). المؤكد انهم كانوا منهمكين بالحب، وانهم وهـــبوا لـــه من فنونهم اكثر مما نهب نحن. كما لا يستطيع مالثوس ولا الافتقار الى وســـائل تحديد النسل(*) من توضيح حقيقة انهم تكاثروا كالارانب وقدسوا التوالد اكثر منا. كما ان قرننا الحالي غير متلكئ في قضايا التقدم والتحرر وعلى الرغم من ذلـــك فانـــنا قلمـــا نستطيع الادعاء بأن ذلك يرجع الى اننا نملك طاقة كبيرة من التسامي نستطيع ان نوفرها. لقد شهدت فترة التسعينيات الفاضحة وهي تقدم على انهـــا رد فعل للعديد من عقود الزهد والتقشف. اظن ان السبب هو نشر ما كان حتى الان يعد سرا، واشك في اننا في الواقع نتعامل مع ثابت انساني: الاختلاف هو اختلاف في المصطلحات، درجة من درجات الاستعارة.

(*) عـــرض للبـــيع اول قـــراب ذكر مصنوع من المصارين (لمنع الحمل) اواخر القرن الثامن عشر. ومن بين الناس جميعا، دان مالثوس اساليب تحديد النسل بوصفها «غير ملائمة»، الا ان القلق من استعمالها بدا في عشرينيات القرن التاسع عشر. وكان اول مدخل لدليل الجنس الحـــديث يتمثل في كتاب ← الدكتور (جورج درايزديل) ذي العنوان غير المباشر (مبادئ العلـــوم الاجتماعـــية، او الجسدي، الجنسي والدين الطبيعي. شرح السبب الحقيقي والعلاج الوحـــيد للشرور الاساسية الثلاثية: الفقر، البغاء والعزوبية). وقد صدر في 1854 وانتشرت قـــراءته وتـــرجمته انتشارا واسعا. وفيما يلي نصيحة درايزديل العملية بما في ذلك الجملة الاعتراضية النهائية الواضحة: «يمكن تجنب حدوث الحمل اما بسحب العضو الذكري قبل حـــدوث القـــذف مباشـــرة (وهـــي ممارســـة يلجأ اليها كثير من الرجال المتزوجين وغير المتزوجين)، او باستخدام قراب الذكر (وهو شائع الاستعمال ايضا في القارة الاوروبية اكثر مـــنه في هذه البلاد)، او باستخدام قطعة اسفنجية توضع في الرحم... او بحقن ماء فاتر في الرحم بعد الجماع مباشرة».

ويـــنطوي اول هـــذه الاساليب على اذى جسدي ومن شأنه ان يتسبب في حدوث اضطراب عـــصبي ووهـــن واحتقان جنسيين... اما الطريقة الثانية، استعمال قراب الذكر، فهي تفسد المـــتعة، وتتـــسبب في عجز الرجل في الغالب والنفور في كلا الطرفين. وبهذا فهي ضارة ايضا.

اعـــتقد ان هذه الاعتراضات لا تنطبق على الاسلوب الثالث، اي استخدام قطعة اسفنجية او اي مادة اخرى لحماية مدخل الرحم. وفي وسع المرأة ان تستخدم هذه الطريقة بسهولة وقلما تؤثـــر، حسب اعتقادي، في اللذة الجنسية. كما لا يوجد فيها اي اثر ضار في صحة اي من الطـــرفين. (واذا ما اريد لاي وسائل منع الحمل ان تكون مرضية، لا بد من استخدامها من المرأة. واذا ما اضطر الرجل الى التفكير فيها، فإنها تفسد العاطفة ودوافع الفعل التناسلي). (المؤلف)

لقد اختار الفكتوريين ان يكونوا جادين في موضوع نتعامل معه على نحو خفيف. وكان الاسلوب الذي يعبرون به عن جديتهم لا يكمن في الحديث صراحة عن الجنس، مثلما ان جزءا من اسلوبنا هو العكس تماما، بل ان هذه الاساليب التي تنحو منحى الجد ما هي الا اعراف مألوفة. وتبقى الحقيقة من ورائها ثابتة.

اعتقد ان هناك خطأ شائعا اخر: معادلة درجة عالية من الجهل في الجنس بدرجة منخفضة من المتعة الجنسية. انني لا ارتاب في ان اللحظة التي التقت فيها شفاه تشارلز وسارة، لم تظهر سوى براعة صغيرة جدا في العشق من كلا الجانبين. الا انني لا استنتج وجود اي نقص او افتقار الى النشوة الجنسية من ذلك. وعلى كل الاحوال، فإن نسبة اكثر اثارة للاهتمام تكمن بين الرغبة والقدرة على تحقيقها. وفي هذا الصدد، ربما نؤمن اننا نفلح افضل من اسلافنا. الا ان الرغبة تتكيف وفق الحالات التي تثيرها: فعالمنا يصرف وقتا هائلا طالبا منا ممارسة الجماع في حين ان واقعنا منهمك في اثارة احباطنا. النساء محبطات مثل الفكتوريين؟ ربما. لكن اذا كنت تستطيع الاستمتاع بتفاحة واحدة في اليوم فإن هناك اشياء كثيرة ينبغي قولها ضد العيش في بستان من اشجار التفاح؛ بل ربما ستجد التفاح الذ طعما لو انك اعطيت واحدة في الاسبوع.

لذا يبدو بعيدا عن الواقع عدم ممارسة الفكتوريين لذة جنسية اكثر حدة منا لأنها اقل. ولم يكونوا ليدركوا ذلك على نحو واهن فاختاروا اسلوب الكبت، والقمع والصمت للاحتفاظ بحدة اللذة. وعلى نحو ما، فإن قرننا هو القرن الاكثر فكتورية عندما ننقل الى خيال عامة الناس الاشياء التي تركوها سرا، لاننا بتحطيمنا الكثير من الاسرار والصعوبات وهالة المحرمات نكون قد حطمنا الكثير من اللذة. من المؤكد اننا لا نستطيع ان نقيس درجات نسبية من اللذة. ولكن قد يكون اكثر مدعاة لسعادتنا لا لسعادة الفكتوريين عجزنا عن ذلك. يضاف الى ذلك، فإن وسيلتهم اعطتهم طاقة اضافية. فتلك الدرجة من السرية، تلك الهوة بين الجنسين التي كثيرا ما اثارت اضطراب تشارلز عندما حاولت سارة ان تتغلب عليها، هي التي احدثت مؤكدا قوة عظمى وصراحة اعظم في الغالب في كل الميادين الاخرى.

يبدو هذا كله وقد جذبنا بعيدا عن ماري على الرغم من انني اتذكر الان انها كانت شديدة الهيام بالتفاح. اما الصفة التي لم تكن لتنطبق عليها فهي صفة العذراء الـــريفية الـــبريئة، لسبب في منتهى البساطة هو ان الصفتين الريفية والبريئة ليستا متطابقتين في زمانها. ولا يصعب العثور على الاسباب.

تنتمـــي الغالبية العظمى من الشهود والمخبرين الصحفيين في كل عصر الى الطـــبقة المـــثقفة. وقد نجم عن هذا، وعلى امتداد التاريخ، نمط من التشويه او الواقـــع الخـــاص بالاقلية. والتزمت المفرط الذي نعزوه الى الفكتوريين ونطبقه تطبـــيقا متوانيا على مجمل طبقات المجتمع الفكتوري ليس سوى رأي من اراء الطـــبقة الوسطى في طبائع هذه الطبقة وعاداتها. فشخصيات الطبقة العاملة التي صورها ديكنـــز شخصيات هزلية كلها او تثير العواطف والمشاعر وسلسلة لا تقـــارن من الغرائب. الا اننا نحتاج الى الذهاب الى مكان اخر من اجل الحقيقة القاســـية – الى مايهيو[95]، الى تقارير الوكالة وغير ذلك، لا الى اي شيء اخر ســـوى المظهـــر الجنسي في حياتهم التي هذبها ديكنـــز – الذي كان يفتقر الى المـــصداقية في حياته – وانداده تهذيبا شديدا. ان الحقيقة الراسخة (التي اود ان ادعوها ناعمة، لكن لا بأس) عن انكلترا الفكتورية الريفية هي ان ما اسماه عصر ابسط بعبارة اختبر قبل الشراء... (اي الاتصال الجنسي السابق للزواج حسب مصطلحاتنا الراهنة) كان هو القاعدة، لا الاستثناء. اصغِ الى هذه الشهادة من ســـيدة لا تـــزال علـــى قيد الحياة، ولدت في العام 1883 وكان والدها طبيب الروائي توماس هاردي.

ان حـــياة عامل المزرعة كانت تختلف اختلاف بينا في القرن التاسع عشر عما هـــي علـــيه الان. فعلى سبيل المثال، كان الحمل قبل الزواج امرا اعتياديا تماما بين الفلاحين في دورسيت ولم يكن الزواج ليتم الا بعد ان يظهر الحمل للعيان. وكان

---

(95) هنري مايهيو (1812–1887): صحفي انكليزي ومؤسس مجلة بنش الشهيرة عام 1841، من ابـــرز اعمالـــه (عمال لندن وفقراء لندن) بأربعة اجزاء (1850–1862) وقد تأثر به تاثيرا واضحا تشارلز ديكنز ويعتمد هذا المؤلف الضخم على رسائل كتبها هو شخصيا الى جريدة (لـــندن مورنيـــنغ كـــرونيكل) (1849–1850)، استجابة لرغبة الجريدة في الحصول على معلومات يوثق بها عن المشكلات الاجتماعية الكبرى انذاك... (المترجم)

السبب يرجع الى قلة الاجور التي تقاضاها العمال والحاجة الى تأمين ايد اضافية في الاسرة لكسب القوت(*).

يـــضعني ذكر هاردي تحت ظل الروائي الذي يعلو فوق هذا الجزء من انكلترا الـــذي اكتب عنه. عندما نتذكر ان هاردي كان اول من حاول كسر ختم الطبقة الوســطى الفكــتورية من علبة بندورا[96] الجنسية، فإن اقل الاشياء اثارة للاهتمام (المــؤكد اكثــرها تناقضا) هي حمايته المتزمتة لختم حياته الجنسية وحياة ابيه عنه. طبيعـــي ان ذلك كان وسيبقى حقه الذي لا يمكن التصرف فيه. غير ان القليل من الاســـرار الادبـــية ظلت خفية تماما، اذ لم يكشف عن هذا السر الا في خمسينيات القـــرن العـــشرين. ويرد هذا، اسوة بواقع انكلترا الريفي الفكتوري الذي حاولت الالمـــاح الـــيه في هذا الفصل على تأنيب ادمون غوس الشهير: كان من شأنه ان

(*) وهـــناك سبب اقتصادي اضافي يتمثل في النظام الشيطاني الخاص بدفع نصف الاجرة التي يتقاضـــاها الرجال المتزوجون للرجال غير المتزوجين. على الرغم من انهم كانوا ينجزون عمـــل رجـــل في كل الاحوال. ولم تنته هذه الطريقة المذهلة من تأمين القوة العاملة بالكلفة المذكورة الا باستخدام الالة الزراعية استخداما واسعا. ومن الممكن ان نضيف ان دورسيت عرفت بانها اكثر المناطق الريفية استغلالا على نحو شنيع في انكلترا.

ويكتب جيمس فريزر في نفس عام 1867: «لا بد ان يكون التواضع فضيلة مجهولة والعفة شيئا لا يمكن تخيله في غرفة صغيرة يلتم فيها على نحو جماعي اكبر عدد من الاسرة التي يمكن حشرها: الاب، الام، الشباب، الصبيان، الفتيات الصغيرات والبالغات يمثلون جيلين او ثلاثـــة اجـــيال أحـــيانا وحيث يمارسن كل فعل من افعال الطبيعة، ارتداء الثياب، نزعها، الـــولادات، المـــوت - امام مرأى ومسمع الجميع - حيث يكون الجو كله حسيا، والطبيعة البشرية تتضاءل الى مستوى اقل من مستوى للخنازير... حالات الزنا بالمحارم مألوفة. اننا نشكو من انعدام عفة نسائنا قبل الزواج، من الحديث والسلوك السائبين عند للفتيات العاملات في الحقول، من الاسلوب الواهي الذي تتخلى به الخادمات عن شرفهن. ومن انه ان يندر ان يغلـــي دم احـــد الابـــوين او الاخ نتيجة العار - هنا في هذا المكان، شرح وافي لكل شيء».

ووراء هـــذا كله تخيم اشباح اكثر كابة، مألوفة في كل منذ فجر التاريخ: سل الغدد اللمفاوية والكوليرا، التيفوئيد الوبائي والسل. (المؤلف)

(96) بـــندورا: لمـــرأة ارسلها زيوس عقابا للجنس البشري بعد سرقة بروميثيوس النار واعطاها علبة ما ان فتحها بدافع الفضول حتى انطلقت منها جميع الشرور والرزايا فعمت البشر ولم يبقَ فيها سوى الامل. (المترجم)

يستفسر على نحو معقول ايضا عن السبب الذي دفع اتباع اتريوس[97] الى هز قبضاقم البرونزية صوب السماء في وجه مسيني.

ليس هذا المكان الذي تتوغل فيه داخل الظلال قرب ايغدون هيث. الا ان الشيء المعروف تماما هو ان هاردي عاد في عام 1867 وله من العمر سبعة وعشرون عاما الى دورسيت بعد ان كان يدرس العمارة في لندن ليقع في هوى قريبته ترايفينا البالغة من العمر ستة عشر عاما. وتمت خطوبتهما، ولكنها فسخت بعد مرور خمس سنوات على نحو لا يمكن فهمه. وعلى الرغم من عدم توفر اي دليل قطعي، فانه يبدو الان واضحا ان الخطبة فسخت بعد ان تبين لهاردي وجود مثلبة مخجلة تحاول الاسرة كتمانها: ترايفينا ليست قريبته، بل هي ابنة غير شرعية لاخته غير الشقيقة وغير الشرعية ايضا. وتشير قصائد لا تحصى لهاردي الى ذلك: «عند بويب البوابة»، «لم ترجع»، «خلودها»(*) واخرى كثيرة غيرها؛ وان هناك العديد من الحالات غير الشرعية من جانب الأم في اسرته ثبت صحتها. وقد ولد هاردي نفسه قبل زواج امه وابيه بخمسة شهور وزعم المتدينون أحيانا انه فسخ خطوبته لاسباب طبقية – فقد بدا شابا واعدا لا يستطيع احتمال فتاة بسيطة من دورسيت. صحيح انه تزوج من فتاة اعلى منه مكانة في 1874– وهي لافينيا غيفورد المتبلدة الشعور على نحو مأساوي. اما ترايفينا فكانت شابة رائعة،

---

(97) اتريوس: الاساطير الاغريقية، اتريوس هو ابن بيلوبس ووالد اغا ممنون ومينيلاوس. تعد قصة اسرة اتريوس من اقدم القصص واشدها تعقيدا، واكثرها فسادا. وقد سعى اتريوس الى الانتقام من اخيه ثيستس الذي اغوى زوجته وخطط لقتله واغتصاب عرشه على مسيني بأن قتل اولاد اخيه هذا وقدمهم له في مأدبة عشاء وقد هرب تيتس مذعورا بعد ان اكتشف الحقيقة ومارس السفاح مع اخته بيلوبيا كي تنجب له ولدا وينتقم بعد ذلك من اخيه. ثم تزوج اتريوس بيلوبيا التي حملت بعد ذلك اجيستوس، ابن ثيستس، غير ان اتريوس اعتقد انه ولده، وعثر اغا ممنون ومينيلاوس على ولد اتريوس وايروب واودعاه السجن في مسيني ثم ارسل اجيستوس لقتل ثيستس الا ان كلا منهما عرف الاخر من خلال السيف الذي اخذته بيلوبيا من ابيها واعطته لابنها فما كان من الاب والابن الا ان قتلا اتريوس واستوليا على العرش وطردا اغا ممنون ومينيلاوس خارج البلاد. (المترجم)

(*) هذه القصيدة من اكثر قصائده كشفا للسر وان لم تكن اعظمها في هذا السياق. ولعل اول نسخة منها ترجع الى عام 1897. اما سؤال غيس الاساس فقد طُرح في سياق عرضه لرواية (جود الغامض) في كانون الثاني/يناير 1896. (المؤلف)

واصبحت مديرة في احدى مدارس بلايموث وهي في العشرين من العمر بعد ان تبوأت المركز الخامس عند تخرجها من دار المعلمين في لندن. ويصعب عدم القبول بأن سرا رهيبا من اسرار العائلة هو الذي ارغمهما حقا على الانفصال. المؤكد انه سر سعيد على نحو ما طالما ان اي عبقري انكليزي لم يهب كل كيانه لمصدر واحد من مصادر الالهام مثلما فعل هاردي. لقد منحنا ذلك المصدر اعظم مراثيه في الحب، ومنحنا سو برايدهيد وتيس اللتين تعدان صورة نقية عن ترايفينا، بل ان **جود الغامض** مهداة اليها على نحو خفي في مقدمة هاردي نفسه للرواية - «وضع اساس المشروع في 1890... وقد اشار الى بعض الظروف موت امرأة...» وكانت ترايفينا المتزوجة من رجل اخر انذاك قد توفيت في ذلك العام.

ان هذا التوتر بين الشهوة والتنازل، الذكريات التي لا تموت والكبت الذي لا يموت، الاستسلام الفنائي والواجب المأساوي، بين الحقائق الكريهة ووظيفتها النبيلة، تعزز واحدا من اعظم كتاب العصر وتوضحه، ومن ورائه، تشيّد مجمل العصر نفسه. لقد ذهبت هذا المذهب كي اذكرك.

اذا لنعد ونهبط الى الحائرين. انك ستخمن الان السبب الذي دفع سام وماري الى الذهاب صوب مخزن الغلال. وبما انها ليست المرة الاولى التي يذهبان فيها الى هناك، فانك ستفهم ربما على نحو افضل دموع ماري... ولماذا كانت تعرف عن الخطيئة اكثر قليلا مما يتوقعه المرء لدى اول نظرة الى وجهها ذي التسعة عشر عاما. او ربما كان سيرتاب المرء لو انه مر في انحاء دورشستر في وقت متأخر من ذلك العام من خلال وجه فتاة افضل ثقافة ولكن اصغر بثلاث سنوات في العالم الحقيقي، الواقفة على نحو مُستغلِق الان والى الابد قرب هاردي، المهندس الشاب الشاحب الذي عاد توا من سنواته الخمس الكئيبة في العاصمة والذي يوشك (حتى تلتهم النيران نهديها، وفمها وشعرها) ان يصبح الرمز المثالي لاعظم لغز في عصره.

36

الا ان على جبين المعرفة تستقر نارٌ:
تيمم وجهها الى الامام
وتثب صوب فرصة المستقبل
وقد اخضعت كل شيء للرغبة.

تينيسون: احياء لذكرى 1850

كانـــت مدينة اكستر قبل مئة عام ابعد بكثير مما هي عليه اليوم عن العاصمة؛ ولهـــذا ظلـــت توفر لنفسها بعض وسائل الترفيه التي نجد بريطانيا اليوم كلها وهي تهرع الى لندن للاستمتاع بها. اننا نبالغ لو قلنا ان المدينة كانت تضم حيًا للعاهرات في ســـنة 1867، ولهذا كانت فيها منطقة تثير الشبهات على نحو واضح بعيدا عن مركـــز المديـــنة وعن وجود الكاتدرائية المؤثر. كانت هذه المنطقة تقع في جزء من المدينة ينحدر صوب النهر الذي كان يوما ما يمثل قلب حياة اكستر عندما كانت ميـــناء مهما قبل سنة 1867. وكانت تتألف من مجموعة من الازقة الضيقة لا تزال فيها اعداد كثيرة من بيوت على الطراز التيودوري، سيئة الاضاءة وكريهة الرائحة وتغـــص بالـــسكان. وفيها بيوت دعارة وقاعات رقص وحانات مبهرجة. الا انه كانـــت هناك اعداد كثيرة من الفتيات والنساء المحطمات – امهات غير متزوجات وعـــشيقات ومجموعة من السكان نـــزحت عن قرى ديفن ومدنها الصغيرة المغلقة. باختـــصار، كانت منطقة تدفع المرء ان يشيح بوجهه خجلا، تحتشد ببيوت تؤجر غرفا مفروشة رخيصة وحانات كالتي اتت سارة على وصفها في ويماوث، ملاجئ امنة وبمنأى عن التيار الاخلاقي المتزمت الذي اكتسح اماكن اخرى في حياة البلاد. ولم تكن اكستر في هذا كله استثناء، فقد كانت كل مدن الاقاليم الكبيرة مضطرة في ذلـــك الـــزمن الى ايجاد مكان لهذا الجيش البائس من الاناث اللواتي جرحن في المعركة من اجل النقاء الذكري الشامل.

كانـــت هـــناك مجموعة من بيوت على الطراز الجيورجي في احد الشوارع الـــواقعة على هامش هذا الحي. ومما لا شك فيه ان هذه البيوت كانت تحظى لدى

بـسنائها بمنظر جميل يطل على النهر. غير ان المخازن المرتفعة حجبت ذلك المشهد. وفقـسدت البـسيوت، على ابرز ما يكون، الثقة الذاتية في بريقها الطبيعي. فكانت اخـسشاها تفتقر الى الطلاء، وسطوحها الى القرميد وكانت الواح الابواب منفصلة. وكـسان واحد او اثنان من هذه البيوت من الدور الخاصة. غير ان احدى العمارات المكـسونة من خمسة بيوت كانت منسجمة بفعل الطلاء البني الكامد الذي صبغ به القـسرميد الاصلي، وكانت هذه البيوت تعلن عن نفسها بلوحة خشبية طويلة فوق مدخلها الموحد على الها فندق – فندق اسرة انديكوت، اذا توخينا الدقة. وكانت تملكه وتديره كما تشير اللوحة الخشبية لعابري السبيل السيدة مارثا انديكوت التي يمكـسن القول إن ابرز خصائصها الافتقار التام الى حب الفضول فيما يخص شؤون زبائـسنها. كانـست امرأة تحمل كل صفات ديفن، اي الها لم تكن لترى ضيوفا لهم نـسياقم واغراضـسهم، بل المال الذي سيأتي من وراء اقامتهم. وعلى هذا الاساس كانـست تـسصنف اولئك الاشخاص الذين يقفون في مكتبها الصغير قرب الردهة: اصـسحاب العـسشرة شلنات، اصحاب الاثني عشر شلنا، وهلم جرا. وكانت هذه الاسعار تمثل الاجرة الاسبوعية. والذين آلفوا ان يكونوا من اصحاب الخمسة عشر شـسلنا فأقل، لا ينبغي ان يظنوا في كل مرة يقرعوا فيها جرسا في فندق حديث ان فندقها رخيص. اذ كان الايجار المألوف لاحد البيوت في تلك الايام يكلف شلنا في الاسـسبوع، وشلنين على الاغلب. ويمكن ايجار البيوت الصغيرة الجميلة في اكستر لقـسـاء ستة او سبعة شلنات. وكان مبلغ العشرة شلنات اسبوعيا لارخص غرفة، قد جعل اسرة انديكوت في الجانب الممتاز على الرغم من عدم وجود اي مسوغ فيما خلا جشع مالكة الفندق.

كـسان مـسساء رمادي اللون اخذ يتحول الى ليل. وكان المصباحان الغازيان المـسواجهان للفـسندق فوق الرصيف قد اشعلهما عامل البلدية الذي يطوف لايقاد المصابيح بوساطة عموده الطويل فشع النور فوق قرميد جدران المخزن. هناك بعض الانـسوار الموقدة في غرف الفندق؛ وكان الضوء في الطابق السفلي اشد بريقا وفي الطابـسق الاعلـسي خافـسـتا اذ كانت انابيب الغاز تعد، كما هو الحال في الكثير من البيوت الفكتورية اغلى ثمنا من ان توضع في الطوابق العليا. فكانت المصابيح الزيتية تستخدم فيها. ومن خلال احدى نوافذ الطابق الارضي القريبة من الباب الرئيس،

كـــان ممكنا مشاهدة السيدة انديكوت نفسها جالسة وراء منضدة قرب مستوقد فحمـــي صغير ومنكبَّة من فوق سجل حساباتها؛ ولو مررنا مرورا قطريا من تلك الـــنافذة واتجهنا الى نافذة اخرى في اقصى يمين البيت، وهي نافذة مظلمة في الطابق العلـــوي لا تزال ستائرها مسدلة، ففي وسعنا ان نرى مثالا جيدا لاثني عشر قدما (3.6م) وستة اقدام (1.8م)، اقصد حجم الغرفة لا الضيف.

وهمـــا غرفتان في الحقيقة، غرفة جلوس صغيرة وحجرة نوم اصغر منها، وقد صـــممتا من غرفة واحدة مناسبة الحجم على الطراز الجيورجي. وكانت الجدران مكـــسوة بـــورق تزينه نماذج دقيقة من الورود. ووضع فيها سجاد قديم ومنضدة دائرية ثلاثية القوائم مغطاة بغطاء سميك له لون اخضر غامق كان في زواياه ما يشير الى ان شخـــصا مـــا حاول - اول مرة كما يبدو - تعلم التطريز، وهناك مقعدان يعوزهما الذوق ومضرب غولف خشبـــي مزدان بمخمل أحمر داكن وصوان ثياب من الخشب البني الداكن، وعلى الجدار علقت صورة تشارلز ويزلي[98] وصورة مائية في منتهـــى الرداءة تمثل كاتدرائية اكستر - استلمت بمثابة دفع جزئي على مضض قبل سنوات من احدى السيدات اللواتي عصفت بهن الظروف.

يـــضاف الى القـــرقعة الصغيرة من تحت المستوقد الصغير، قطعة ياقوت نائمة الان، هـــناك قائمة جرد محتويات الغرفة. وهي قائمة لم ينقذها سوى تفصيل صغير واحـــد: المرمر الابيض المحيط بالمستوقد وهو مرمر جيورجي، يكشف من فوق عن حوريات رشيقات تزينهن الورود. ربما كانت تشوب وجوههن الكلاسيكية دوما مـــسحة مـــن الدهشة، من المؤكد انهن يتصفن بها الان، عند مشاهدة اي تغييرات مدهـــشة يمكن ان تفعلها مائة سنة في ثقافة أمة. لقد ولدن في غرفة مكسوة بخشب الصنوبر الجميل اما الان فيجدن انفسهن في زنـــزانة قابضة للصدر.

مـــن المـــؤكد انه كان في وسعهن ان يتنفسن الصعداء، لو استطعن الى ذلك ســـبيلا، عند فتح الباب ووقوف النـــزيل الغائب الان قرب المدخل. ذلك المعطف الغـــريب الطراز، تلك القبعة السوداء، ذلك الثوب النيلي بياقته الصغيرة البيضاء... الا ان سارة دخلت الغرفة على نحو تواق تقريبا.

---

(98) تشارلز ويزلي (1707-1788): واعظ ديني انكليزي مؤلف تراتيل دينية. (المترجم)

لم يكن هذا هو وصولها الى فندق اسرة انديكوت. اما كيف وصلت هذا المكان قبل بضعة ايام فهو امر بسيط. فقد كان اسم الفندق اشبه بدعابة في الاكاديمية التي درست فيها وهي فتاة في اكستر. وقد استخدمت الصفة بمثابة اسم وكان من المفترض ان اسرة انديكوت كانت كثيرة العدد مما تطلب فندقا بأكمله كي يسكنوا فيه انفسهم.

لقد وجدت سارة نفسها تقف قرب شيب، وهو المكان الذي ينتهي فيه خط رحلة حافلات دورشستر. كان صندوق امتعتها في انتظارها اذ وصل في اليوم السابق لوصولها. وكان احد الحمالين قد سألها عن المكان الذي ستقصده، فانتابها ذعر قصير الامد و لم يمر بخاطرها اي اسم جاهز باستثناء تلك الدعابة التي تتذكرها على نحو واهٍ. وعندما سمع الحمّال اسم المكان الذي ستقصده بان على وجهه ما يوحي انها لم تختر ابرز مكان للاقامة في اكستر. الا انه حمل صندوقها دون جدال، وسارت من ورائه في البلدة صوب الحي الذي سبق لي ان اتيت على ذكره. لم تُدهش لمظهر المكان – ففي ذاكرتها (غير انها لم تشاهده سوى مرة واحدة) كان جوه اكثر الفة، اكثر كرامة، اكثر صراحة... على اي حال، المتسولون لا يملكون حق الاختيار. وارتاحت على نحو ما لأن حالة عزلتها لم تثر اي تعليق... فدفعت ايجار غرفة مقدما مدة اسبوع، وهي تزكية كافية كما يبدو. كانت عازمة على ان تسكن في ارخص غرفة، الا انها عندما وجدت ان غرفة واحدة ايجارها عشرة شلنات وان غرفة ونصف لقاء نصف كراون إضافي، فإنها غيّرت من رأيها.

دخلت الغرفة مسرعة واغلقت الباب. اشعلت عود ثقاب، واضاءت به فتيلة المصباح الذي طرد نوره برفق ظلمة الليل. ثم نزعت قبعتها، وهزّت شعرها هزتها المعروفة فتهدل فوق كتفيها، وحملت الحقيبة التي كانت تمسك بها ووضعتها فوق المنضدة وكانت تواقة لفتحها اكثر من توقها الى خلع معطفها. واخذت ترفع ببطء وعناية صفوف محتوياتها المغلفة وتضعها فوق غطاء المنضدة الاخضر. ثم وضعت السلة فوق ارضية الغرفة، وشرعت تنزع اغلفة مشترياتها.

بدأت اولا بابريق الشاي المصنوع في ستافوردشاير ويحمل رسما مطبوعا جميلا يمثل بيتا قرب جدول ماء وعاشقين (امعنت في النظر الى العاشقين) وقدح

تـــوبي[99] لا يشبه الصناعات الفكتورية البشعة ذات الالوان المبهرجة، بل عبارة عن مـــادة صـــغيرة رقيقة بلون بنفسجي فاتح واصفر، وقد ظهرت فيه ملامح الرجل الطـــروب يتخللها على نحو جميل بريق ازرق ناعم (ربما يتمكن خبراء الخزف من تمييز صورة رالف وود). وقد كلف سارة هذا تسعة بنسات في احد متاجر الخزف القديمة. لقد تصدع القدح، وتصدع ثانية على مرّ الزمن. وفي وسعي ان اؤكد هذا لانسني اشتريته بنفسي قبل سنة او سنتين بمبلغ يزيد كثيرا عن البنسات الثلاثة التي انفقتها عليه سارة. الا انني بخلافها، احببت صورة رالف وود. اما هي فقد احبت الابتسامة.

كانـــت سارة تتمتع بحس جمالي على الرغم من اننا لم نشاهدها وهي تظهر ذلـــك الحـــس حقا. ربما هو احساس عاطفي - رد فعل مضاد للجو الفظيع الذي وجدت نفسها فيه. لم تكن لديها اي فكرة عن عمر قدحها الصغير. الا انها كانت تملـــك شـــعورا خافيا بانه استخدم استخداما كثيرا وتناقلته الكثير من الايادي... واصـــبح الان في حـــوزتها. اصـــبح الان في حوزتها - فوضعته فوق رف الموقد وحـــدقت اليه، وهي لا تزال مرتدية معطفها، بوله طفولي كأنها لا تريد ان تضيع ذرة واحدة من طعم التملك الاول.

تقطعـــت احـــلام يقظتها لدى سماعها صوت وقع خطوات في الممر خارج الغرفة. القت نظرة قصيرة غير انها حادة الى الباب. مرت الخطوات. وهنا نـــزعت سارة معطفها، وحرّكت جمرات النار، ووضعت ابريقا مسودا فوق الحامل المجاور للمـــوقد. عادت ثانية الى مشترياتها: كيس يحتوي على الشاي، واخر يحتوي على الـــسكر، وعلبة معدنية صغيرة تحتوي على الحليب وضعتها قرب ابريق الشاي. ثم حملت الرزم المغلفة الثلاث الباقية من المشتريات واتجهت صوب حجرة النوم: سرير ومغسلة من المرمر ومرآة صغيرة وسجادة داكنة، وهذا كل شيء.

الا ان النظـــر كان يستهويها الى رزمها الثلاث. وكانت الرزمة الاولى تحتوي علـــى قميص نوم. ولم تحاول ان تجرب وضعه على جسدها من الخارج، بل وضعه فـــوق السرير، ثم فتحت الرزمة التالية وكانت تحتوي على لفاع اخضر داكن ذي

(99) قـــدح توبـــي: قدح صغير بهيئة رجل بدين يرتدي قبعة ذات ثلاث زوايا. وتوبي هي كنية توبياس. (المترجم)

نسيج صوفي ناعم وحاشية من حرير اخضر بلون الزمرد. حملت اللفاع بوله غريب - بــلا ريــب بسبب ارتفاع ثمنه، اذ انه كلفها مبلغا يزيد على مبلغ كل مشترياتها الاخــرى. واخيرا رفعته وهي مستغرقة في التفكير ولمست به وجنتها، ملقية نظرة ملية الى قميص النوم. وفي اول تلميح انثوي صادق اسمح لها به، دفعت خصلة من شــعرها الكــستنائي الى امام لتستلقي فوق القماش الاخضر، وبعد لحظة واحدة نفضت اللفاع فبدا واسعا، يزيد طوله عن الياردة (90 سم) وضغطته فوق كتفيها، وحــدّقت اكثر الى المرآة هذه المرة، ثم عادت الى السرير، ورتبت اللفاع من حول كتفي قميص النوم المفروش فوقه.

فــتحت الــرزمة الثالثة وهي اصغر الرزم، وكانت عبارة عن لفافة اسطوانية الشكل، شرعت بحملها مرة ثانية الى الغرفة الاخرى، بعد ان تفرّست لحظة قصيرة في الشكل الابيض والاخضر فوق السرير، ووضعتها في درج الصوان الخشبــي في نفس الوقت الذي بدا فيه غطاء الابريق يقرقع.

كانــت محفظــة تــشارلز تحتوي على عشرة جنيهات انكليزية من الذهب، وكانت هذه الجنيهات وحدها - بغض النظر عن المحتويات الاخرى - تكفي لأن تحــول ســارة الى العالم الخارجي. ومنذ الليلة الاولى التي عدّت فيها هذه النقود الذهبــية، كانت تواصل عدّها في كل ليلة. و لم يكن ذلك ليشبه ما يفعله البخيل، بل يشبه ما يفعله المرء من مشاهدة احد الافلام مرات ومرات، بسبب المتعة التي لا تقاوم في الموضوع، وفي صور محددة...

مــنذ ان وصلت اكستر لم تصرف من النقود الا النــزر اليسير من مدخراتها الخاصــة لتسد بها رمقها. الا انها كانت تحملق في المتاجر: في الثياب، في الكراسي، المناضــد، البقالين، المشروب المفضل، في مئات الاشياء التي بدت معادية لها، معبّرة وســاخرة من الكثير من سكان بلدة لايم المنافقين، الذين تجنبوا النظر الى عينيها في اثناء مرورها امامهم وكشروا عن اسنانهم بعد ان تجاوزتهم. وهذا هو السبب الذي حدا بها الى شراء ابريق شاي بعد وقت طويل جدا. ففي وسعك ان تكتفي بابريق المــاء. وقــد عوّدها فقرها على احتمال صعوبة عدم امتلاكه، وابعدت عن نفسها شــهوة شرائه تماما كأنها بحّار اعتاد ان يقضي اسابيع طويلة على نصف قطعة من البسكويت يوميا، اذ لم يكن في وسعها ان تأكل الطعام الذي تملكه الان. وهذا لا

يعني انها كانت غير سعيدة. بل ابعد من ذلك. كانت تستمتع باول عطلة في حياتها كامرأة بالغة.

اعــدَّت الــشاي، وتــوهجت شعلة ذهبية صغيرة وانعكست فوق الابريق. وظهــرت وهــي تنتظر في الضوء الخافت، الظلال التي كانت تلقي بها النار. ربما ستظن انها لا بد ان تكون، بعد ان تغيرت على هذا النحو، قد رضيت بقدرها وانها سمعت اخبارا من تشارلز او عنه. لكن هذا غير صحيح. لا ابغي من الان اكتشاف مــا يدور في ذهنها وهي تحملق في النار اكثر مما حاولت ان افعله في تلك المناسبة الاخــرى عــندما اغــرورقت عيناها بالدموع في تلك الليلة الصامتة في منــزل مارلبورو. وبعد برهة وجيزة نهضت من مكانها، وتناولت من الدرج الاعلى ملعقة شاي وفنجانا بلا صحن. وبعد ان صبت لنفسها الشاي قرب المنضدة، فتحت اخر رزمها. كانت عبارة عن فطيرة محشوة باللحم. ثم بدأت تأكلها دون رقة تماما.

37

تجبــر الـــبورجوازية الامـــمْ كلها، مهددة اياها بالفناء، على تبني نمط الانتاج البورجوازي، وتجبرها على تقديم ما تسميه المدنية في وسطها. اي ان تـــصبح بورجوازية هي الاخرى. باختصار، انها تنتج عالما على صورتها هي.

ماركس: البيان الشيوعي 1848

كان لقاء تشارلز الرسمي الثاني بوالد ايرنستينا اقل بهجة من اللقاء الاول بكثير علــى الـــرغم من ان الخطأ ليس خطأ السيد فريمان. فقد كان السيد فريمان رجلا متعاليا وبخاصة في مظاهر حياته الخارجية على الرغم من مشاعره الدفينة عن الطبقة الارســـتقراطية بانها تبعث على الملل. وكان شغله الشاغل يتمثل في ان يبدو انسانا مهـــذبا نبـــيلا وهو ما اهتم به مثل اهتمامه بأعماله الاخرى. لقد كان يؤمن ايمانا واعـــيا بانـــه انسان نبيل كل النبل. ولعلنا لا نستطيع تلمس اي شك باطني كان يساوره الا من خلال عزمه الراسخ على ان يبدو كذلك.

كـــان اولئك المجندون الجدد في الطبقة الوسطى العليا في مكانة قلقة. فلو شعروا بأنفـــسهم مجـــندين اجتماعـــيا، لادركوا ادراكا تاما انهم سادة اقوياء في عالم التجارة الخـــاص بهـــم. فاختار البعض الاخر صورة اخرى من الالوان المبهمة. واهتم اهتماما كـــبيرا مـــثل الـــسيد جورروكس بالهوايات واخلاق وصفات سادة الريف الحقيقيين. وحاول اخرون – مثل السيد فريمان اعادة تحديد المصطلح. كان السيد فريمان يملك بيتا حـــديث البنـــيان في غابـــة الصنوبر بمقاطعة سَرْي (Surrey)، وكانت زوجته وابنته تقـــضيان هـــناك وقـــتا اكثر مما يقضيه هو نفسه. وفي اسلوب حياته كان يمثل طليعة الاثـــرياء المعاصرين الذين يسافرون يوميا الى مقار اعمالهم، فما خلا انه كان لا يمضي الا عطـــلات نهايـــة الاسبوع هناك وفي فصل الصيف لا اكثر. وفي حين يهتم انداده المعاصرون بلعبة الغولف او الورود او البغاء فإن السيد فريمان كان يهتم بالامور الجادة.

في الحقـــيقة، كـــان الربح والجد **وفق ذلك النظام**، هما شعاره. اذ ازدهرت حـــياته في ظـــل التحولات الاجتماعية والاقتصادية الكبرى التي حدثت بين عامي

1850-1870 - تحـــول التركيـــز مـــن المـــصنع الى المتجر، من المنتج الى المستهلك. وانـــسجمت المـــوجة الاولى العظيمة من موجات الاستهلاك اللافت للنظر وحساباته انـــسجاما لطـــيفا تماما. وعلى نحو تعويضي - وفي محاولة تقليد جيل اسبق من التجار الاستغلاليين الذين فضلوا مطاردة الخطيئة على مطاردة الثعالب - فقد اصبح في منتهى الجـــد والورع في حياته الخاصة. ومثلما يهتم بعض كبار الاثرياء اليوم بجمع اللوحات الفنـــية، ضامنين بذلك استثمارا ماليا ممتازا مع بريق الاحسان الجميل، فقد اسهم السيد فـــريمان اســـهاما كبيرا في جمعية نشر الفكر المسيحي وغيرها من المؤسسات المتطرفة المماثلة. وفي ظل معاييرنا، فإن تلاميذه وصناعه وغيرهم كانوا مُستَغَلين، يعيشون عيشة فظـــيعة. غير انه في ظل معايير عام 1867 فإن مؤسسة فريمان كانت متقدمة على نحو اســـتثنائي، وكانـــت نموذجا فريدا من نوعها. واذا ما صعدت روحه الى السماء، فانه سيجد من ورائه قوة عاملة سعيدة وسيكون لورثته الربح الوفير من هناك.

كـــان رجـــلا وقورا يشبه مديري المدارس، له عينان رماديتان حادتان يميل دهاؤهمـــا الى جعل كل من يقع تحت نظرهما كأنه سلعة بائسة من سلع مانشستر. وعلـــى اي حـــال، فقد اصغى لاخبار تشارلز دون ان يبدو عليه اي انفعال على الرغم من انه اومأ ايماءة تنم عن الجد عندما اختتم تشارلز شرحه. ران الصمت بعد ذلـــك. لقد جرى اللقاء في مكتب السيد فريمان ببيته في منطقة هايد بارك. لم يكن ذلـــك المكـــتب ليوحي البتة بما يشير الى مهنته، اذ كانت الجدران مرصوفة بكتب رصـــينة المظهـــر، تمـــثال نصفي يمثل ماركوس اوريليوس[101] - او ربما هو اللورد بالمرســـتون[102] في حمامـــه؟ - صورة او صورتان كبيرتان غير واضحتي المعالم من

---

(101) ماركوس اوريليوس (121 - 180 م): امبراطور روماني مشهور بكتابه (التأملات) الذي يـــبحث فـــي الفلسفة الرواقية. افلح في رد غزو الالمان شمالي ايطاليا واعاد الهدوء الى الاقاليم الشرقية. (المترجم)

(102) اللـــورد بالمرســـتون (1784 - 1865): سياســـي ورجل دولة بريطاني استعماري. تقلد المناصب الحكومية مدة نصف قرن تقريبا وعمل على اقامة كيانات دولية تخدم المصالح البـــريطانية. اشـــرف على سياسة بريطانيا المعادية لدولة محمد علي الكبير وابنه ابراهيم باشـــا اذ رأى في قيام دولة عصرية موحدة تضم وادي النيل والجزيرة العربية والمشرق العربـــي ما يهدد مستقبل المصالح البريطانية. شغل منصب رئيس الوزراء (1855 -1858) و(1859 - 1865). (المترجم)

الحفـــر المنقوش يصعب التكهن بما اذا كانتا تمثلان احتفالات او معارك على الرغم من انهما افلحتا في اعطاء الانطباع عن انسانية مبتسرة بعيدة كل البعد عن الاحواء الراهنة.

تنحـــنح السيد فريمان وحملق في الجلد الاحمر البرّاق الذي يغلف مكتبه. ظهر وهو يوشك على الكلام، الا انه غيَّر من رأيه.

- امر مدهش تماما. مدهش تماما.

خيَّم صمت اطول شعر في اثنائه تشارلز انه نصف منـــزعج ونصف مرتاح. ورأى انـــه في سبيله الى اخذ جرعة من الأب الوقور. لكن طالما انه دُعي الى ذلك، فـــلا يستطيع الا المعاناة في الصمت الذي تلا ذلك وابتلع رد الفعل غير المريح. في الحقـــيقة، ان رد فعل السيد فريمان الشخصي كان رد فعل تاجر اكثر منه رد فعل سيد مهذب، لأن الفكرة التي التمعت في ذهنه على الفور تمثلت في ان تشارلز جاء يطلب زيادة في مهر الزواج، وهذا امر يسهل عليه تنفيذه، غير ان احتمالا رهيبا مرّ في خاطـــره في نفـــس الـــوقت - هو ان تشارلز كان يعلم كل العلم زواج عمه المحـــتمل. والشيء الوحيد الذي اثار اشمئزازه هو ان يُقهر في صفقة تجارية مهمة - وكانت هذه الصفقة تخص قبل كل شيء الشخص الذي يرعاه بكل حنان.

اخيرا قطع تشارلز الصمت.

- لست محتاجا لأن اضيف ان قرار عمي هذا قد اثار دهشتي الشديدة ايضا.

- مؤكدا، مؤكدا.

- الا انـــي شـــعرت ان واجبـــي يدفعني الى احاطتك به علما على الفور - وشخصيا.

- انت محق في هذا كل الحق. اتعرف ايرنستينا؟

- كانـــت اول انسان اخبره بالامر. وهي متأثرة تأثرا طبيعيا بالعواطف التي اغدقتها عليَّ.

تردد تشارلز ثم تحسس جيبه.

- لدي رسالة اليك منها.

وقـــف ووضـــعها فـــوق المكتب فحملق فيها السيد فريمان بعينيه الرماديتين الماكرتين وبدا مشغولا بافكار اخرى.

– لا يزال لديك دخل خاص معقول. اليس كذلك؟

– لا استطيع التظاهر بأنني اصبحت فقيرا.

– والى هذا يجب ان نضيف احتمال ان عملك ليس بالثراء الذي يمكّنه من ان يجعل له وريثا في النهاية.

– صحيح.

– وكذلك اليقين بأن ايرنستينا لن تأتي اليك دون مورد مالي مناسب؟

– انت في غاية الكرم.

– وانني في يوم ما سأخلد الى الراحة الابدية.

– يا سيدي العزيز، انني...

انتصر السيد المهذب. نهض السيد فريمان واقفا.

– يجب ان نقول هذه الاشياء فيما بيننا. سأكون في منتهى الصراحة معك يا عزيزي تشارلز. ان الاعتبار الاساسي لدي هو سعادة ابنتي. الا انني لست مضطرا الى ان اخبرك عن الجائزة التي تمثلها بالمصطلحات المالية. عندما تقدمت لخطبتها مني، لم تكن ادنى تزكية عنك في نظري هي ثقتي بأن الارتباط سيكون قائما على الاحترام المتبادل والكفاءة المتبادلة. فقد اكدّت لي ان ظروفك المتبدلة قد حدثت على نحو مفاجئ تماما. ولا يمكن لاي غريب عن استقامة اخلاقك ان يعزو اليك اي دافع غير نبيل. هذا هو هاجسي الوحيد.

– وهو هاجسي ايضا يا سيدي.

خيم الصمت من جديد، لقد ادرك الاثنان كل الاشياء التي قيلت حقا: لا بد ان الاقاويل الخبيثة ستحيط بالزواج الان. ولسوف يتم الاعلان عن ان تشارلز فقد اعتباره قبل خطوبته، وان ايرنستينا ستكون موضع سخرية لأنها خسرت اللقب الذي كانت تستطيع شراؤه في اي مكان اخر.

– الافضل ان اقرأ الرسالة. ارجو ان تسمح لي بذلك.

رفع سكّينه الذهبية القوية التي يستخدمها في فتح الرسائل، وشقَّ بها المغلف. توجه تشارلز صوب النافذة وحملق في اشجار هايد بارك. وشاهد وراء مجموعة العربات الواقفة في طريق بايزووتر فتاة – فتاة متجر او خادمة كما يبدو من مظهرها – تنتظر فوق مصطبة امام السياج. وفي حين كان يراقبها، وصل جندي

يرتدي سترة حمراء، وحيّاها، فالتفتت نحوه. كانت الفتاة بعيدة تصعب رؤية وجهها، غير ان لهفة التفاقا اوضحت بالهما عاشقان. رفع الجندي يد الفتاة وضغطها على الفور فوق قلبه. شيء ما قيل. ثم وضعت يدها تحت ذراعه وشرعا يسيران ببطء صوب شارع اوكسفورد. تاه تشارلز في خضم مشهده الصغير. وذعر عندما تقدم منه السيد فريمان حاملا الرسالة وهو يبتسم.

- ربما يتعين عليّ ان اقرأ ما تقوله في ملاحظة ختامية.

- عدّل من وضع نظارته ذات الاطار الفضي.

- لو اصغيت الى كلام تشارلز الفارغ لحظة واحدة فانني سأجعله يتزوجني ونهرب معا الى باريس.

رفع بصره ونظر الى تشارلز نظرة جافة.

- يبدو اننا لا نملك اي خيار.

ابتسم تشارلز ابتسامة واهنة.

- لكن اذا شئت وقتا اضافيا تفكر فيه...

وضع السيد فريمان يده فوق كتف الانسان الكثير الوساوس.

- سأخبرها انني رأيتها شديدة العزم، بل اكثر مثارا للاعجاب في اوقات الشدة عنها في اوقات اليسر. واظن ان الافضل ان تسرع في العودة الى بلدة لايم.

- هذا لطف عظيم منك.

- بل هو لطف اعظم منك اذْ تجعل ابنتي في منتهى السعادة. ورسالتها ليست مكتوبة بلهجة متقلّبة.

امسك بذراع تشارلز، وقاده ثانية الى الحجرة.

- والان يا عزيزي تشارلز.

كانت هذه العبارة تمنح السيد فريمان متعة معنية.

- لا اعتقد بضرورة تنظيم نفقات المرء البتة عندما يكون الزواج شيئا رديئا. لكن لو ان الظروف... انت تفهم ما اقصد.

- بكل تأكيد..

- لنتوقف عن الكلام اذا.

اخرج السيد فريمان سلسلة مفاتيحه، وفتح دُرْجا في مكتبه، ووضع فيه رسالة ابنـــته كأنها وثيقة نفيسة من وثائق الدولة، او ربما يعرف عن الخدم اكثر مما يعرفه جمـــيع اصـــحاب الاعمال الفكتوريين. بعد ان اعاد اقفال المكتب رفع بصره الى تشارلز الذي تولّد لديه الانطباع غير المريح الان انه قد اصبح احد المستخدمين – احد المستخدمين المفضلين مؤكدا، ولكن في هذا التنظيم التجاري العملاق. وسيأتي ما هو اسوأ من ذلك. فربما لم يكن السيد المهذب قبل كل شيء هو الوحيد الذي قرر لطف السيد فريمان وعطفه.

– طالمـــا ان اللحظـــة مؤاتية الان، اني وسعي ان افتح لك فؤادي فيما يخص مسألة اخرى ذات صلة بك انت وايرنستينا؟

انحنى تشارلز انحناءة مؤدبة تنم عن القبول، غير ان السيد فريمان بدا لحظة وهو لا يجـــد الكلمات المناسبة. وبدلا من ذلك، وضع سكين الرسائل في مكانها المحدد واتجه صوب النافذة التي تركاها قبل قليل، ثم التفت.

– انني اعد نفسي يا عزيزي تشارلز رجلا محظوظا من كل النواحي، باستثناء ناحية واحدة.

ثم اضاف كأنه يوجه كلامه الى السجادة.

– ليس لدي ولد.

توقف ثانية، ثم نظر نظرة مليّة الى صهره.

– ادركُ ان التجارة قد تبدو لك شيئا مُنفرا، فهي ليست مهنة الرجل النبيل.

– هذا كلام فارغ يا سيدي. وانت نفسك مثال حي على انها كذلك.

– اتقصد ذلك حقا؟ ام تراك توجه إليّ نوعا من المداهنة؟

فجأة باتت العينان الرماديتان بلون الحديد مصوبتين نحوه.

فذهل تشارلز برهة وجيزة لا يدري ما يفعل، ثم فتح كلتا يديه.

– انني ارى كل ما يراه اي رجل ذكي – الفائدة العظمى من وراء التجارة، مكانتها الجوهرية في...

– آه، نعـــم. هذا ما يقوله كل سياسي. وهم مضطرون الى ذلك لأن رفاهية بلدنا تعتمد عليها. لكن اترغب في ان يُقال عنك انك... في التجارة؟

– لم يرد هذا الاحتمال مطلقا.

- لكن قل ان هذا الاحتمال سيرد؟

- اتقصد... انني.

اخيرا ادرك ما كان يرمي اليه عمه (الحمو). ولما رأى العم صدمته اسرع بالتوجه صوب السيد النبيل.

- انني لا اقصد بكل تأكيد انه ينبغي لك ان تزعج نفسك بالشؤون اليومية لمشروعي. فتلك هي مهمة المشرفين، الكتاب وما الى ذلك. الا ان تجارتي مزدهرة يا تشارلز. وفي العام المقبل سنعمل على فتح متجر كبير في كل من بريستول وبرمنغهام. وهما ليسا سوى البداية. انني لا استطيع ان اعطيك امبراطورية سياسية او جغرافية، الا انني مقتنع ان امبراطورية من شتى الاشياء ستحصل عليها ذات يوم انت وايرنستينا.

بدا السيد فريمان يذرع الحجرة ذهابا وجيئة.

- عندما اتّضح ان مهامك المستقبلية تكمن في ادارة املاك عمك، فانني لم اقل شيئا. لكن لديك الطاقة والثقافة والقدرة الفائقة...

- غير ان جهلي في الامور التي تقترحها هو... حسنا، جهل مطبق تقريبا.

اهمل السيد فريمان اعتراضه.

- ان امورا من مثل النزاهة والاستقامة والقدرة على فرض الاحترام والحكم على الرجال حكما واضحا انما هي ذات اهمية قصوى ولا اظنك تفتقر الى مثل هذه الخصال.

- لست واثقا بانني اعرف تماما ما توحي به.

- لا اوحي بشيء. انني على اي حال، في السنة او السنتين القادمتين عليك ان تفكر في امور زواجك. ولن ترغب في هموم ومشاغل خارجية في مثل ذلك الوقت. لكن اذا ما حلّ اليوم الذي من شأنه ان تتسلى في معرفة ما هو اكثر عن التجارة التي سوف ترثها عن طريق ايرنستينا، فإن لا شيء سيحقق لي او لزوجتي... اذا جاز التعبير... متعة اعظم من تعزيز ذلك الاهتمام.

- ان الشيء الاخير الذي اتمناه هو الظهور بمظهر ناكر الجميل، لكن... اي... ذلك يبدو غير منطبق على ميولي الطبيعية، لأن المواهب القليلة التي املكها...

- انني لا اقترح اكثر من مشاركة. من الناحية الواقعية، لا شيء اكثر في البداية من مسؤولية زيارة مكتب الادارة بين وقت واخر، واشراف عام على ما

يـــدور. اعتقد انك ستدهش لنمط الرجل الذي اوظفه الان في المراكز ذات المسؤولية الاكبر. وليس هناك حاجة لأن يشعر المرء بالخجل منها.

- اذكر لك ان ترددي لا يتأتى بأي حال من الاحوال من اعتبارات اجتماعية.

- عـــندئذ لا يمكن ان يكون الدافع سوى تواضعك. وفي هذا الصدد، فانك تسيئ الحكم على نفسك ايها الشاب العزيز. لا بد ان يأتي ذلك اليوم الذي اشرت اليه - ولن اكون على قيد الحياة انذاك. لا ينكر انك قد تتخلص مما قضيت عمري في بنائه. قد تجد مديرين اكفاء ينوبون عنك في الاهتمام بتصريف الشؤون. الا انني اعرف عمّا اتحدث. ان المشروع الناجح بحاجة الى مالك نشيط مثلما يحتاج الجيش الحـــسن الى قائـــد. ولن يفيد وجود كل الجنود الاشاوس من العالم ما لم يكن هو موجودا لادارة المعركة.

شـــعر تشارلز وهو تحت تأثير هذه المقارنة الجذابة انه لا يزال امامه الكثير من الايام التي يقضيها في البراري لجعل الاقتراح مغويا اكثر. غير انه سيد نبيل وليس في وســـع السيد النبيل ان يفكر في التجارة. بحث عن وسيلة ليعبر فيها عن مثل هذه الـــرأي، غير انه اخفق. ففي مناقشة الامور التجارية، يكون التردد علامة الضعف. وهنا استغل السيد فريمان فرصته.

- انـــك لا تـــستطيع ان تجعلني اوافق على اننا انحدرنا جميعا من القرود. انني اجد هذه الفكرة الحادية. غير انني فكّرت اكثر في بعض المسائل التي ذكرتها في اثناء اختلافنا الصغير.

- لكي يبقى الانسان على قيد الحياة، لا بد ان يكيِّف نفسه وفق التغيرات في محيطه.

- تماما. الان استطيع ان افهم ذلك. انني اكبر منك بعشرين سنة. علاوة على ذلك، لقد قضيت حياتي في مكان اذا ما اخفق المرء في تغيير نفسه - تغييرا ذكيا - ليلبـــــي متطلـــبات عـــصره، فانه لن يبقى على قيد الحياة. ان يصاب بالافلاس. الازمـــنة تتغير، كما تعلم. وهذا عصر كبير من عصور التقدم. والتقدم يشبه جوادا مفعمـــا بالحيوية. حاشا الله ان اوحي ان صفة السيد النبيل هي حرفة غير كافية في الحـــياة. لا يمكـــن هذا ابدا. غير ان هذا العصر هو عصر الفعل، الفعل العظيم يا تشارلز. ربما تقول ان هذه الاشياء لا تهمك، انها دونك، ولكن اسأل نفسك فيما

اذا كـــان خلـــيقا بها ان تهمك. هذا كل ما اقترحته عليك، لا بد ان تفكر في هذا الامر. ليست هناك ضرورة لاتخاذ قرار الان. لا ضرورة مطلقا.

توقف هنيهة.

الا انك لن ترفض الفكرة رفضا باتا وقاطعا؟

شـــعر تـــشارلز في هذا الوقت انه اشبه بنموذج غطاء منضدة رُتقَ على نحو رديء، انه بكل الاحوال ضحية التطور. فقد استيقظت ثانية وعلى نحو سهل تماما تلـــك الشكوك القديمة التي كانت تراوده بخصوص لا جدوى وجوده. وادرك الان وجهة نظر السيد فريمان الحقيقية فيه: انه كسول. وادرك ما اقترحه عليه: ان يوفر مهـــر زوجته. كان يفضل ان يكون هادئا حذرا، الا ان ثمة دفءا في صوت السيد فـــريمان مـــن وراء الحماسة، افتراض علاقة. وبدا الامر لتشارلز كأنه قضى حياته مسافرا بين المرتفعات البهيجة ووصل الان الى سهل شاسع من الضجر والسأم.

افلح في النظر الى تلك العينين النفاذتين التجاريتين التواقتين.

– اعترف بأن هذه الاشياء عصفت بـــي الى حدّ ما.

– لا اطلب منك ما هو اكثر من التفكير في الموضوع مليا.

– بكل تأكيد. امر طبيعي. سأفكر تفكيرا جادا.

تقدم السيد فريمان وفتح الباب. وابتسم.

– اخشى ان امامك محنة واحدة اخرى. السيدة فريمان تنتظرنا وهي متأججة بحب الاستطلاع عن اخر ما يدور من احاديث في بلدة لايم.

بعد مرور بضع لحظات كان الرجلان يسيران في ممر عريض يؤدي الى فضاء واســـع يطل على قاعة البيت الكبرى. ولم يكن فيها شيء يذكر لا يناسب افضل مظاهر الذوق العصري. ولكن في حين كانا يهبطان السلالم صوب الخادم الواقف في الانتظار، شعر تشارلز ان كرامته امتُهنت على نحو غامض، انه اشبه بأسد وضع داخـــل قفـــص. واحس بهوى جارف غير متوقع يشدّه الى وينـــزيات، الى اثاثه ولوحاته القديمة البائسة، الى عصره، امانه، لباقته الاجتماعية. كانت فكرة الارتقاء المجـــردة تـــثير نـــشوته غير ان ممارستها بدت محفوفة بفظاظة ظاهرة مثل الاعمدة الكورنثية المطلية بالذهب حديثا التي تؤطر الباب الذي توقف عند عتبته هنيهة هو ومعذبه قبل ان يدخلا «السيد تشارلز سميثسون يا سيدتي».

38

عاجلا او اجلا، سأخذ انا ايضا بشكل سلبي طابع
العصر الذهبي – لم لا؟ لا املك املا ولا ثقة،
واجعل قلبي مثل حجر الرَّحى، ووجهي مثل الصوان،
اخدع وأُخدع واموت: من يدري؟ نحن رماد وغبار.

تينيسون: مود 1855

لّمــا وجد تشارلز نفسه اخيرا فوق السلالم العريضة لبيت السيد فريمان، كان الغــسق قـــد ارخى سدوله، واضيئت مصابيح الغاز وبات الجو منعشا. ثمة ضباب خفيف يمتزج بشذى نضارة الربيع من المتنــزه في الجهة الاخرى من الشارع اضافة الى السخام المعهود. تنشق تشارلز الهواء اللندني اللاذع، وقرر ان يتمشى. اما العربة التي استدعيت لاجله فقد مضت في سبيلها.

ســـار دون ان يكـــون لديه هدف واضح تماما صوب ناديه في سانت جيمز. في الــبداية، ســـار الى جانـــب اسوار متنـــزه هايد بارك، تلك الاسوار الثقيلة التي كان انهـــيارها امـــام الدهماء (وتحت انظار محاوره الذي حاوره منذ عهد قريب) بعد ثلاثة اســـابيع لا اكثر قد عجل من اقرار لائحة الاصلاح العظمى. استدار بعد ذلك صوب بـــارك لين. الا ان ضغط حركة المرور كان مقيتا. اذْ كان تعطل حركة المرور بسبب ازدحام العربات في اواسط العهد الفكتوري سيئا كما هو في العصر الحديث، بل اكثر ضوضـــاء لأن كل عجلة كانت ذات اطار حديدي يحزُّ بلاط الشارع الحجري. لهذا، لمـــا ســـار في طريق متخيلا انه يختصر المسافة، وجد نفسه في قلب حي مايفير. ازداد الضباب كثافة، الا انه لم يحل دون رؤية الطريق امامه، بل اضفى مسحة من الحلم على الاشـــياء الـــتي كان يمر بها، كان اشبه بزائر من عالم اخر، اشبه بكانديد[103] الذي لا

---

(103) كانديـــد (1759): مقطوعة هجائية فلسفية كتبها فولتير في اعقاب مغامرات الشاب الساذج كانديـــد وحبيبـــته الاميـــرة ومعلمه، وهي مغامرات يصادف الثلاثة في اثنائها العديد من الكوارث مثل زلزال لشبونة ومحاكم التفتيش والاغتصاب والحرب. وتسخر المقطوعة من تفاؤل الفلسفة العقلانية المعاصرة بخاصة فلسفة ليبنتز. (المترجم)

يـــستطيع ان يفهـــم اي شـــيء سوى الشروح الواضحة، اشبه برجل حُرِمَ فجأة من احساسه بالمفارقة.

ان تجـــرده من مثل هذا المظهر الجوهري في نفسه يعني ان يكون عاريا تقريبا. لعـــل هذا يصف ادق وصف ما شعر به تشارلز. انه لا يدري الان ما الذي دفعه حقـــا الى والد ايرنستينا. كان يمكن معالجة القضية برمتها بارسال رسالة. لو بدت وساوسه الان غير معقولة، فالامر ينطبق ايضا على كل هذا الحديث عن الفقر، عن ضرورة تنظيم المرء مورده المالي. في تلك الايام، وبخاصة في الامسيات التي يهددها الـــضباب، كان الاثرياء يتنقلون بالعربات، ولا بد للمشاة ان يكونوا فقراء. لهذا، فـــإن معظم الذين صادفهم تشارلز في طريقه كانوا من الطبقات الفقيرة. خدم في البيوت الضخمة في حي مايفير، كتّاب، متبضعون، شحاذون، كناسون (وهي مهنة شـــاعت كـــثيرا عـــندما ساد الجواد كل شيء)، باعة متجولون، اولاد الشوارع، مومس او مومستان. كان يعلم ان مائة جنيه إنكليزي في السنة من شأنها ان تكون ثـــروة لكل هؤلاء. وقد لقي المواساة الوجدانية توا لأنه لا يملك الا ان يسد رمقه بمبلغ يزيد عن هذا بخمسة وعشرين ضعفا.

لم يكـــن تـــشارلز واحـــدا من طلائع الاشتراكيين. وهو لم يشعر بالفظاعة الاخلاقـــية لمكانته الاقتصادية المتميزة، لاحساسه انه بعيد كل البعد عن اصحاب الامتـــيازات بطرق اخرى. والدليل يحيط به من كل جانب. فعلى وجه العموم، لم يكن يبدو على المارين به انهم غير سعداء بمصيرهم، سوى الشحاذين الذين كانون مـــضطرين الى الظهـــور بمظهر بائس كي ينجحوا. الا أنه كان غير سعيد، غريبا، حزينا. وشعر ان المنـــزلة الضخمة التي تتطلب من السيد النبيل ان يقيمها من حوله تـــشبه الـــدرع الـــضخم الذي كان يمثل الاذن بالموت للعديد من رتبة العظائيات القديمـــة. تـــباطأت خطواته لصورة الوحش المنقرض هذه. في الحقيقة، انه توقف، متحجـــرة حيَّة مسكينة، في حين تدافعت امامه اشكال الحياة الاقوى والاشد، مثل أميبا البرك من تحت المجهر، توقف امام صف صغير من محلات صادفها في طريقه.

تـــنافس عازفـــا ارغـــن، وتـــنافس واياهما عازف آلة البانجو. بائعو البطاطا المهروســـة، بائعـــو الكـــوارع (الكارع ببنس واحد، ولن تجد اشد سخونة منه)، الكـــستناء الحـــارة. امـــرأة عجـــوز تبيع علب ثقاب، واخرى بمعيتها سلة ورد،

مــــراكبيون، عمـــــال انابيب المياه، كناسون بقبعاتهم المطوية من الخلف، مصلحو مكــــائن بقبعاتهم المربعة، مجموعة من الصعاليك الصغار يجلسون فوق عتبات ابواب البـــيوت، على حافات الارصفة، يتكئون على اعمدة العربات مثل نسور صغيرة. قاطع احد هؤلاء الصبيان سيره - وكان هذا حافي القدمين شأنه في ذلك شأن بقية الاولاد - واطلـــق صفيرا محذرا صوب صبـــي الصور الذي هرع ملوحا بمجموعة مـــن صـــور ملونة في وجه تشارلز الذي وقف في جناحي هذا المسرح من الرسوم المتحركة.

اســـتدار تشارلز مسرعا، وبحث عن شارع اشد ظلمة. فلاحقه صوت اجش صغير وهو ينشد ابياتا من احدى الاغنيات الشعبية التي راجت في ذلك العام.

لِمَ لا تأتي الى البيت يا لورد مارماديوك،
لتناول وجبة عشاء ساخنة واياي؟
وبعد ان نفرغ من تناول المشروب المفضل،
فسنشرع في اللعب
سنشرع في اللعب

ذكّرت هذه الاغنية تشارلز وهو يبتعد عن الصوت وصيحات الاستهزاء التي رافقته بعنصر اخر من عناصر الجو اللندني - وهو ليس عنصرا ماديا، بل عنصرا لا يمكـــن الارتـــياب فـــيه مثل السخام - الا وهي رائحة الخطيئة. فما يشاهده من عاهرات بائسات هنا وهناك، ونساء يراقبنه دون استدراجه لارتكاب الفحشاء (اذ كانـــت تبدو عليه مسحة النبلاء المهذبين في حين كن يبحثن عن طريدة اقل شانا) يقـــل كـــثيرا عن رؤيته ضياع هوية المدينة الكبيرة، الاحساس بأن كل شيء يمكن اخفاؤه هنا، كل شيء يمضي دون ملاحظة.

كانـــت لايم بلدة ذات عينين حادتين. اما هذه المدينة فهي مدينة العميان. لم يلـــتفت احد ما وينظر اليه. كان انسانا لا مرئيا، غير موجود، مما منحه الاحساس بالحـــرية، غـــير انـــه احـــساس فظيع، لأنه في الواقع فقده - انه باختصار اشبه بوينـــزيات. كل شيء في حياته ضاع، وكل شيء يذكره بذلك الضياع.

تحـــدث رجل وامرأة اسرعا بالسير من امامه باللغة الفرنسية؛ كانا فرنسيين. وهـــنا تمـــنى تـــشارلز لو انه في باريس - ومن هناك... سيأخذ طريقه للسفر الى

الخـــارج. ثانية! لو كان في وسعي الهرب. لو كان في وسعي الهرب... غمغم بهذه الكلمـــات عـــشرات المـــرات، ونفض عن نفسه نفضا مجازيا حقيقة انه يفتقر الى الواقعية، انه موغل في الرومانسية، وانه بلا واجبات.

مَرَّ بمجموعة اصطبلات في زقاق خلفي، ولم تكن هيئة صف من شقق انيقة، بل تمثل وظيفتها الاصلية: جياد يُمشط شعرها وتنظف، عندما تسحب من اماكنها، الحوافـــر تقـــرقع وهي توضع بين عريش العربة، حوذي يصفر صفيرا مزعجا وهو يغـــسل جـــوانب عـــربته استعدادا للشغل في المساء. خطرت ببال تشارلز نظرية مدهـــشة: الطـــبقات الدنيا في المجتمع اسعد سرا من الطبقات العليا. وهي ليست، كمـــا يريد المتطرفون من الاخرين ان يصدقوا، الطبقة التحتية المعذبة الرازحة تحت حماقـــات الاثرياء الكثيرة، بل هي اشبه بطفيليات سعيدة. وتُذكر انه صادف قبل بضعة اشهر قنفذا في حدائق وينـــزيات وضربه بعصاه وجعله ينقلب. وشاهد بين اشـــواكه المنتـــصبة ســـربا من القمل المضطرب. لقد كان هو عالم الاحياء الذي يندهش اكثر مما ينفر من هذه العلاقة الداخلية في العوالم، وقد اصبح الان مكتئبا بما فيه الكفاية كي يرى من هو القنفذ: حيوان وسائل دفاعه الوحيدة هي ان يستلقي كالميت، وينصب اشواكه، عواطفه الارستقراطية.

بعـــد وقـــت قـــصير وصل الى محل بائع الادوات المعدنية المنـــزلية، ووقف في الخـــارج، وهـــو يتفرس من خلال الواجهة في النضد، في بائع الادوات، وقد ارتدى صـــدريته القطنية واعتمر قبعته، وانهمك في عد الشموع لطفلة في العاشرة من عمرها، رفعت بصرها محملقة فيه واصابعها الحمر ترفع عاليا البنس الذي سيتقاضاه البائع.

تجـــارة. التجـــار. وانتـــشى وهو يتذكر العرض الذي قُدِّم اليه. ادرك الان ان العـــرض لـــيس سوى اهانة، احتقار لطبقته، وهو الذي عجَّل بالمقترح. يجب ان يعـــرف فريمان انه لا يستطيع ان يهتم بالتجارة، او ان يلعب دور صاحب المتجر. كـــان ينبغـــي له ان يرفض العرض رفضا باتا حالما اتى على ذكره. لكن كيف في وســـعه ذلك في حين ان كل ثروته ستأتي من ذلك المصدر؟ وهنا نصل الى الجذر الاســـاس لنقمة تشارلز: الاحساس انه الان الزوج الذي سيتم شراؤه. لا تنسَ ان مثل هذه الزيجات امر مألوف بين افراد طبقته، وقد نشأ هذا العرف عن عصر كان فـــيه الزواج الراقي وثيقة عمل مقبولة علنا لم يكن يتوقع فيها من الزوج او الزوجة

الوفاء بما هو اكثر من البنود الواردة فيها: المال من اجل المكانة. غير ان الزواج الان رباط مقدس، طاهر، لا مصلحة خالصة. وحتى لو كان يملك من الاستخفاف ما يمكّنه من محاولة تجريبه، فانه كان يعلم ان ايرنستينا ما من شأنها ان تسمح لمثل هذا الحب ان يصبح مبدأ ثانويا في زواجهما. وسيكون اختبارها الدائم هو حبه لها وحدها. من هنا تأتي ضرورات اخرى: عرفانه بمالها، الذي يبتز ابتزازا اخلاقيا ليتحول الى مشاركة...

وصل الى ناحية بما يشبه السحر القدري. كانت ثمة واجهة مبنى مضيئة شاهقة تملأ نهاية احد الشوارع الجانبية المظلمة. فكّر انه الان لا بد ان يكون قريبا من ساحة البيكاديلي. غير ان هذا القصر الذهبي عند نهاية هاوية بنية اللون كان يقع الى شماله، وادرك انه فقد احساسه بمعرفة اتجاه الطريق، ووصل الى شارع اوكسفورد... نعم، مصادفة قدرية، وصل إلى ذلك الجزء الممتد من شارع اوكسفورد الذي يحتله متجر السيد فريمان الضخم. وسار منجذبا في احد الشوارع الجانبية المؤدية اليه، ووصل شارع اوكسفورد بحيث يستطيع رؤية امتداد العملاق الكامل بطبقته الصفراء (اذ استبدلت واجهته مؤخرا بزجاج جديد)، صفوفه المزدحمة من القطنيات، اشرطة الزينة، الفساتين النسائية، لفات الاقمشة. وبدت بعض الاشكال الاسطوانية والملتفة من الاصباغ الكيميائية الجديدة توشك ان تلوث الجو من حولها، اذ كانت حادة، تنم عن الثراء الحديث. وفوق كل مادة ثبتت بطاقة بيضاء كتب عليها السعر. كان المتجر لا يزال مفتوحا، والناس تمر من بين ابوابه. حاول تشارلز ان يتصور نفسه وهو يمر ايضا من خلالها الا انه اخفق اخفاقا تاما. وفضّل ان يكون الشحاذ الجالس القرفصاء عند الباب قربه.

المسألة ليست ان المتجر لم يعد يبدو له ما كان يمثله في السابق – دعابة ساخرة، منجم ذهب في استراليا، مكان لا وجود له في الحقيقة. بدا له الان بكامل قوته، آلة ضخمة، فرس بحر يتربص لالتهام كل من يقترب منه ويطحنه بين اسنانه. وحتى في ذلك الوقت كان العديد من الناس يرى ان الوقوف ومعرفة ان المبنى الضخم، ومباني اخرى شبيهة به، بما فيه من ذهب وقوة تكمن في قبضته بسهولة، لا بد ان يعني الجنة على الارض. وعلى الرغم من ذلك، وقف تشارلز على الرصيف المقابل، واغمض عينيه كأنه تمنى لو استطاع ان يزيله من الوجود تماما.

مـــن المؤكد ان هناك شيئا زائفا في رفضه - الترفع المحض، السماح لنفسه ان يحكـــم علـــيه جمهـــور من الاسلاف ويتحاذبه. ثمة شيء كسول فيه. الخوف من العمل، من الرتابة، من التركيز في التفاصيل. ثمة شيء يوحي بالجبن فيه ايضا - لأن تـــشارلز، كما سبق ان لاحظت على الارجح، كان يخاف غيره من البشر لا سيما اولـــئك الـــذين هم دون طبقته. كان يشعر بالغثيان عندما يفكر في الصلات بكل تلـــك الظـــلال الواهية التي شاهدها تندفع من امام الواجهة وتدخل من الابواب القائمة في الجهة الاخرى من الشارع وتخرج منها. كان شيئا مستحيلا.

غـــير ان رفضه كان ينطوي على عنصر نبيل: الاحساس ان السعي وراء المال انما هو هدف غير كافٍ في الحياة. وما من شأنه ان يصبح مثل ديكنـــز او فنانا عظيما او عالمـــا، بـــل في اســـوأ الاحوال، شخصا ذا اهتمامات سطحية، طفيليًا، إنسانا يترك الاخـــرين يـــشتغلون ولا يفعل هو شيئا. بيد انه اكتسب نوعا غريبا من احترام الذات المؤقت في عدميته، الاحساس ان اختيار الا يكون اي شيء - الا يكون لديه اي شيء ســـوى الاشـــواك - انمـــا هو النعمة الاخيرة الباقية للسيد النبيل؛ ربما حريته الاخيرة. اتضحت لديه الفكرة تماما: لو انني وضعت قدميَّ في ذلك المكان لانتهيت.

ربمـــا تـــبدو لك هذه المعضلة موغلة في القدم، ولا اؤيد شخصيا هذا السيد النبـــيل بخاصـــة. ففي العام 1969 هناك انواع تنقرض اكثر مما توقعته مخيلة تشارلز المتـــشائمة في ذلـــك المـــساء من شهر نيسان/أبريل البعيد. الموت ليس في طبيعة الاشـــياء، بل هو طبيعة الاشياء، الا ان الذي يموت هو الشكل. اما المادة فخالدة. وفي هـــذا التعاقب من الاشكال المنحلة التي نطلق عليها اسم الوجود ثمة شيء فيه يشبه الحياة الاخرة. فنحن نستطيع ان نقتفي افضل سجايا السيد الفكتوري النبيل حتى نصل الى فرسان العصور الوسطى، ونقتفي اثرها عائدين حتى نصل إلى السيد النبـــيل الحديث، تلك السلالة التي نسميها العلماء، طالما ان ذلك هو المكان الذي ســـار فـــيه بلا ريب النهر. واذا توخينا الدقة، فإن كل ثقافة، وبغض النظر عن لا ديمقراطيتها، او بغض النظر عن مدى ايمانها بالمساواة بين بني البشر، تحتاج الى نمط مـــن انماط الشك الذاتي، النخبة الاخلاق، محددة بقواعد سلوكية معينة، الجائز ان يكـــون بعضها لا اخلاقيا تماما، وبهذا تفسر لون الشكل الحتمي على الرغم من ان هدفها الخفي هو الخير: ان تعمل مثل بناء من اجل افضل تأثير لوظيفتها في التاريخ.

لعلــك ترى صلة واهية جدا بين تشارلز عام 1267 بكل ما يحمله من افكار فرنسية عصرية عن العفة والسعي وراء الكأس المقدسة وتشارلز عام 1867 بما يملكه من نفور من التجارة وتشارلز المعاصر ليومنا هذا، عالم الحاسوب الذي يصم اذانه دون صــرخات الانــسانيين الاكثــر رقــة منه الذين اخذوا يدركون لا جدوى وجــودهم. لكن هناك صلة: لقد رفضوا جميعا او يرفضون فكرة التملك باعتبارها هــدف الحياة، سواء كان ذلك يعني امتلاك جسد امرأة او ربح هائل بكل ثمن او حق املاء سرعة التطور. ان العالِم ليس سوى شكل اخر، وسيأتي اليوم الذي يحل محله غيره من الاشكال الاخرى.

كل هذا له صلة وثيقة باسطورة العهد الجديد الخاصة بالاغواء في البرّيّة، وان كــل الــذين يمتلكون بصيرة وثقافة يمتلكون بالتالي بريّتهم وعند نقطة محددة من حياتهم، سيجدون الاغواء. وقد يكون رفضهم طائشا، الا انه ليس الشر بعينه. فقد اهملت توا عرضا مغريا في العلوم التطبيقية التجارية كي تواصل تدريسك الجامعي؟ كمــا ان معرضك الاخير لم تحظَ معروضاته على اقبال واسع في الشراء كالمعرض الــسابق، غير انك عازم على الاحتفاظ باسلوبك الجديد؟ لقد اتخذت مؤخرا قرارا مــا لا يسمح بالتدخل في فوائدك الشخصية، في فرصتك من اجل التملك؟ اذا لا تصرف النظر عن حالة تشارلز العقلية على انها تكييف محض لحالة الترفع اللامجدي. انظر اليه على حقيقته: رجل يكافح من اجل التغلب على التاريخ. وهو على الرغم من ذلك لا يدرك الامر.

لقــد ضــغطت على تشارلز اكثر مما تضغط على الانسان الاعتيادي غريزة الاحــتفاظ بالهوية الذاتية، فهناك وراءه كل سنوات الفكر والتأمل والمعرفة الذاتية؛ وبــدا ماضــيه كلــه، افضل ما في نفسه الماضية، هو الثمن المطلوب منه دفعه؛ لم يستطع ان يصدق ان كل ما اراد الحصول عليه كان عديم القيمة، بغض النظر عن مــدى فشله في التوفيق بين الواقع والحلم. لقد سعى وراء معنى الحياة، بل اكثر من ذلك، كان يؤمن – وهو المهرج المسكين – بانه ادرك شيئا منه في بعض الاوقات. اهــي غلطته اذا كان يفتقر الى الموهبة في نقل هذا الادراك الى الاخرين؟ وانه يبدو للمــراقب الخارجي شخصا ذا اهتمامات سطحية، هاويا لا فائدة منه؟ على الاقل، حصل على المعرفة بأن معنى الحياة لا يمكن ان يوجد في متجر فريمان.

الا ان الـــشيء الـــذي يـــنطوي على هذا كله، على الاقل عند تشارلز، هو مذهب البقاء للاصلح وبالاخص احد مظاهره التي سبق له ان تحدث عنها – وهي مناقـــشة يشوبها التفاؤل – الى غروغان في تلك الليلة في بلدة لايم: ان الانسان لا يـــستطيع الا ان يرى قوته في التحليل الذاتي على انها احتياز خاص تماما في الكفاح من اجل التكيف. لقد رأى كلا الرجلين الدليل هناك على ان ارادة الانسان الحرة ليـــست في خطر. واذا ما اضطر المرء الى التبدل كي يبقى على قيد الحياة – مثلما اعترف فريمان – فإن المرء على الاقل منح خيارا في الوسائل. الى هنا ينتهي الحديث عن النظرية – اما التطبيق الذي اخذ يتدفق الان على تشارلز فهو شيء اخر.

لقد سقط في الفخ. انه لا يستطيع ان يكون لأنه كان.

وقـــف لحظـــة ازاء الضغوط الهائلة التي يفرضها عصره، ثم احسَّ بالبرد، جمد الدم في عروقه بفعل ثورة عارمة ضد السيد فريمان ومذهبه.

رفع عصاه ملوحا لعربة مارة. وتهالك في داخلها فوق مقودها الجلدي النتن، واغمـــض عينـــيه. لاحـــت في ذهنه صورة تنطوي على السلوان. امل؟ شجاعة؟ اصرار؟ اظن ان الامر ليس كذلك.

39

مـــاذا لـــو كـــنتُ الان بغيا؟ ما شأن المجتمع كي يلحق بي الاهانة؟ هل حـــصلتُ على عطف من المجتمع؟ لو انني سرطان خبيث في المجتمع، افـــلا ينبغـــي الـــبحث عن جذور المرض في عفونة الجثة؟ الستُ ابنته الشرعية، لست نغلة يا سيدي؟

من رسالة منشورة في صحيفة التايمز 24 شباط/فبراير 1858(*)

قـــد لا يـــبدو الشراب المصنوع من مزيج المشروب المفضل والسكر خلاصة فلسفية في منتهى العمق لمثل هذا النمط من تحليل الذات. بيد ان هذا المزيج وُصف دومـــا في (كيمـــبرج) باعتباره حلا لكل المشكلات المعروفة. وعلى الرغم من ان تشارلز كان قد تعلم الكثير عن المشكلات منذ تخرجه من الجامعة، الا انه لم يُطور الحل. لحسن الحظ ان ناديه، اسوة بالكثير من نوادي النبلاء الانكليز، تأسس على افتـــراض مربح ويتمثل في منتهى البساطة بأن ايام تلمذة المرء انما هي افضل الايام. ويحـــتوي علـــى كل ما يتوفر في اي كلية غنية دون اي مشكلات سطحية (مثل الالقـــاب والعمـــداء والامتحانات). باختصار، كان يخضع لرغبات المراهقة عند الرجل. كما انه يقدم مزيج المشروب المفضل والحليب والسكر الممتاز.

صادف ان اول عضوين زميلين تقع عليهما انظار تشارلز لدى دخوله حجرة الـــتدخين هما من زملاء التلمذة؛ كان احدهما الابن الاصغر لاحد الاساقفة وكان يمـــثل لطخة عار شهيرة لابيه. اما الشخص الثاني فهو رجل توقع تشارلز قبل وقت قصير ان يكون مثله: بارونيت (لقب إنكليزي). لقد اثبت السير توماس بيرغ الذي ولد وفي جيبه اجزاء كبيرة من مقاطعة نورثمبرلاند، انه صخرة ثابتة لا سبيل للتاريخ الى زحـــزحتها. كانـــت هوايات اجداده من غابر العصور الصيد والرماية وتناول المشروبات. وظل هو يمارسها بحس متوارث ملائم. في الحقيقة، كان زعيم المجموعة

(*) يمكـــن قـــراءة هذه الرسالة الشهيرة والساخرة في (وثائق انسانية عن العصر الفكتوري) وهي رسالة تنسب الى مومس ناجحة، الا ان المرجح ان يكون كاتبها شخص مثل هنري مايهيو. (المؤلف)

السريعة التي انخرط واياها تشارلز في تلك الايام في كيمبرج. وكان طيش شبابه سيئ السمعة على غرار ميتون وكازانوفا. وبُذلت محاولات شتى لطرده من النادي ولكن بما انه كان يجهزه بالفحم من احد مناجمه وبثمن يجعله اشبه بهدية له، فإن المشاورات الحكيمة كانت تسود دائما. يضاف الى ذلك، ثمة شيء نزيه في اسلوب حياته. كان يرتكب الخطيئة بلا خجل، بل بلا نفاق. كان اريحيا فيما يخص الخطأ. وكان نصف اعضاء النادي من الشبان مدينين له بين وقت واخر - وكانت قروضه قروض سيد نبيل، قابلة للتمديد الى ما لا نهاية وبلا فائدة. وكان اول من يراهن على شيء ما اذا كانت هناك مراهنة. وعلى نحو ما، كان يذكّر الجميع باستثناء الاعضاء الصاحين الذين لا امل في خلاصهم بايام صحوهم القصيرة. كان قصير القامة، بدينا، متورد الوجنتين دوما بفعل الطقس والشراب. وكانت تلوح في عينيه تلك البراءة الرائعة، تلك الصراحة الشفافة التي تعرف عن الساقطين. لقد تجعدت تلك العينان لرؤية تشارلز وهو يدخل.

- تشارلز ما الذي تفعله خارج سجن الزواج؟

ابتسم تشارلز ابتسامة لا تخلو من احساس معين بالطيش الواهي.

- مساء الخير يا توم ويا ناثانيال. كيف حالكما؟

رفع ابن الاسقف السيئ الحظ يدا متراخية والسيكار الابدي في فمه في حين التفت تشارلز الى البارونيت.

- مطلق السراح قبل نهاية المدة كما تعلم. ان الفتاة العزيزة في دورسيت تستعد للخوض في حياتها الجديدة.

غمز توم.

- في حين تتزود انت بالشراب. ايه؟ الا انني اسمع انها وردة الموسم. هذا ما يقوله نات وهو شاب غرّ كما تعلم. افضل فتاة وافضل زواج. ليست شقراء. اليس كذلك يا نات؟

كان ابن الاسقف معروفا دوما بحاجته الماسة الى المال، وخمّن تشارلز ان مظهر ايرنستينا ليس هو موضع الحسد. عند هذه النقطة كان يفضل غالبا الانتقال الى الصحف او ينضم الى بعض المعارف الاقل بشاعة. الا انه ظل اليوم حيث هو. هل سيتحدثون عن الشراب والحليب والسكر؟ نعم. وهكذا جلس بينهما.

كيف حال العم المحترم يا تشارلز؟

غمز سير توم ثانية، لكن على نحو مرضٍ متأصل فيه لا يمكن عدّه بمثابة اهانة. غمغم تشارلز انه في احسن حال.

- كـيف يسعى وراء كلاب الصيد؟ اسأله ان كان يحتاج الى زوج منها من افـضل ما موجود في نورثمبرلاند... تورنادو - اتتذكر تورنادو، انها احفاده. كان تورنادو قد قضى وقتا سرا في جناح سير توم ذات صيف في كيمبرج.

- اتذكره ويتذكره كاحلي.

ابتسم السير توم ابتسامة عريضة.

- نعـم، كـان يستلطفك وكان دوما يلدغ من يحب. يا عزيزي تورنادو. ليتغمدك الله برحمته.

ثم كـرع محتويات شرابه بحزن جعل صاحبيه يضحكان وهو امر صعب طالما ان الحزن حقيقي تماما.

بمـثل هذا الحديث انقضت ساعتان - وافرغت قنينتان من الشراب وكوب اخر من مزيج الشراب والحليب والسكر، وقطع اخرى من الكلى (اذ انتقل السادة الثلاثة الى غرفة الطعام) تطلبت كمية كبيرة من الماء لتسهيل هضم الاكلة.

كـان الـسير تـوم وابن الاسقف محترفين في الشرب فشربا اكثر مما شرب تـشارلز. بـدا الاثنان ظاهريا عند انتهاء الدورق الثاني مترنحين اكثر منه. غير ان مظهره في الواقع كان يوحي باليقظة بينما يشير مظهرهما بالترنُّح وهو عكس الواقع تماما اذ اتضح ذلك عندما غادر الثلاثة غرفة الطعام للقيام بما اسماه السير توم **جولة صغيرة حول البلدة**. كـان تشارلز يجد صعوبة في الوقوف على قدميه. ولم يسر مـسافة حـتى ادرك انـه في وضع حرج، وشاهد على نحو ما عيني السيد فريمان الـرماديتين الخبيرتين تنظران اليه، على الرغم من ان اي شخص له مثل هذه الصلة الوثيقة بالتجارة كالسيد فريمان لا يسمح له بدخول ذلك النادي.

سـاعدوه في وضـع ردائه الخارجي، وتسلم قبعته وقفازيه وعصاه. ثم وجد نفـسه في الهواء الطلق الحاد - الضباب الموعود لم يظهر للعيان على الرغم من ان شيئا من الضباب الخفيف ظل يغلف الاجواء - وتفرس في تركيز شديد في الشعار المثبت على باب عربة السير توم. مرة ثانية شعر بوينـزيات وهي تسدد طعنة اليه،

الا ان الشعار تأرجح ناحيته. وشعر بأن هناك من يتلقف ذراعيه وبعد لحظة واحدة وجـــد نفسه جالسا الى جانب السير توم وقبالة ابن الاسقف. لم يكن قد بلغ مبلغا يجعله عاجزا عن ملاحظة الغمز المتبادل بين صديقيه، الا انه كان قد بلغ من الترنُّح ما جعله يعجز عن الاستفسار عن معنى ذلك. وقال لنفسه —: ان الامر لا يهمه. كـــان ســـعيدا لأنه ثمل على هذه الحال، لأن كل شيء كان يسبح قليلا، لأن كل شـــيء مرّ وسيمر من امامه لا قيمة له تماما. كانت لديه رغبة عارمة في ان يخبرهما عن السيدة (بيلا تومكنـــز) ووينـــزيات، الا ان الامر لم يكن قد بلغ حد التحدث عن ذلك ايضا.

فالسيد المهذب يبقى مهذبا، حتى في مثل هذه الحالة. والتفت الى توم.

– توم... توم، يا صديقي العزيز، انت انسان محظوظ تماما.

– وانت كذلك يا غلامي تشارلي. كلنا محظوظون.

– الى اين نذهب؟

– الى حيث يذهب المحظوظون في ليلة لطيفة. ايه؟ اليس كذلك يا نات؟

خيم الصمت بعد ذلك، وحاول تشارلز ان يتبين بوهن الاتجاه الذي يسيرون فـــيه. وفي هـــذه المـــرة لم يشاهد الغمز المتبادل للمرة الثانية. لقد سجلت ببطء الكلمات الاساسية في جملة (سير توم) الاخيرة. والتفت التفاتة رزينة.

ليلة لطيفة؟

اننا في طريقنا الى ماما تيربسيشور القديم يا تشارلز. الى معبد الشعر. الا تدري؟

حملق تشارلز في وجه ابن الاسقف الباسم.

– معبد؟

– اذا جاز التعبير يا تشارلز.

قاطعهما ابن الاسقف.

– كناية.

تفرس تشارلز فيهما ثم ابتسم فجأة.

– فكرة رائعة.

ثم استأنف نظرته الجادة خارج النافذة. وشعر ان الاجدر به ان يوقف العربة ويودعهما. وتذكر، في ومضة قصيرة من ومضات من يزن الامور بميزانها الصحيح،

ماهية سمعتهما. ثم ظهر له وجه سارة من العدم، ذلك الوجه ذو العينين المغمضتين وهـو يميل اليه، القبلة... ضجة كبيرة دون سبب. وادرك سبب كل متاعبه: كان يحـتاج الى امـرأة. كان يحتاج الى فترة مجون اخيرة، مثلما كان يحتاج أحيانا الى مُطهِّـر. نظر من حوله الى السير توم وابن الاسقف. كان الاول يتكئ في ركنه في حـين مـدّ الـثاني ساقيه فوق المقعد، بينما ارتفعت قبعتا الرجلين بزاوية تنم عن الاستهتار. في هذه المرة تبادل الثلاثة الغمز فيما بينهم.

سـرعان مـا اضـحوا في خضم العربات المتجهة الى تلك المنطقة من لندن الفكـتورية التي اسقطناها من صورتنا عن العصر طالما الها كانت مركزية في اكثر مـن جهـة: الهـا مـنطقة كازينوهات (اماكن للقاء لا للعب القمار)، مقاهي الجمعـيات، حجرات لتدخين السيكار في الاقسام العامة منها (منطقة هايماركت وشـارع ريجـنت) ومبغى يتوارى عن الانظار في كل الشوارع الخلفية المجاورة. اجـتازوا دكـان المحـار المشهور في هايماركت - سرطانات البحر، المحار، سمك السلمون المخلل والمدخَّن - وكذلك بطاطا رويال البرت التي لا تقل شهرة بادارة خـان، وهو حقا خان باعة البطاطا المحمرة في لندن، من وراء حامل ضخم قرمزي وبرونـزي يـشرف ويهيمن على المكان. وهنا اخرج ابن الاسقف منظاره من علبته الجلدية الخشنة في حين اجتازوا حشد الفتيات الطائشات الشهيرات وهن في عـرباقمن، والاقل شهرة في حشود عند ارصفة الشارع... فتيات بعضهن بوجوه صـغيرة شـاحبة متـزنة واخريات مشاكسات، سليطات، بوجنات محمّرة. سيل جارف من الالوان - من الازياء، فقد كانت الاشياء التي لا يمكن تخيلها مسموحا بها هنا. وارتدت النسوة ملابسَ البحارة الفرنسيين، والقبعات المستديرة ذات اللون الاسـود والـسراويل. وظهرن مثل بحارة، مثل سنيورات، مثل فلاحات صقلية؛ كانـت كـل ممثلات الملاهي الرخيصة المجاورة التي لا تعد ولا تحصى اندفعت الى الشارع. والاكثر كآبة من هؤلاء هم الزبائن - الجنس الخشن الذي يساويهن عددا وهـو يحدق الى عباقرة المساء، العصا في اليد والسيكارة في الفم. اما تشارلز الذي تمـنى لـو انه لم يشرب الى ذلك الحد فاضطر بذلك الى رؤية الاشياء مرتين، فقد وجد المشهد لذيذا ومرحا وحيا، وقبل كل شيء، بعيدا كل البعد عن كل ما يمت بصلة لمذهب فريمان.

اشــك في ان تيربسيشور قلما تشمل برعايتها الجمهور الذي يتشكل منه اصـحابنا الثلاثة في خلال الدقائق العشر. فأصدقاؤنا لم يكونوا وحدهم. فقد كان هناك ستة او سبعة شبان واثنان مسنان اخران عرف تشارلز احدهما، وهو ركــن من اركان مجلس اللوردات، وقد جلسوا كلهم في القاعة الكبيرة المعدة وفــق الــذوق الباريسي الرفيع ويمكن الوصول اليها عن طريق زقاق ضيق، كثير الــضوضاء، يتفرع عن احد الشوارع القريبة من اعلى شارع هايماركت. وفي احد طرفي الحجرة المزدانة بالثريات، كان ثمة مسرح صغير تخفيه عن الانظار ستائر ذات لــون احمر داكن، نقش عليها بخيوط مذهبة زوجان من الحوريات وصورتا سيدي الغابــات وكــان سيد واحد يبدو وهو على وشك امتلاك راعيته. اما الثاني فيبدو وقد اكمل اتصاله. وكتب بحروف سوداء فوق شكل مستطيل مذهب يعلو الستائر **بريابوس 44**.

ربما لم تتغير مثل تلك المشاهد على مر التاريخ بخلاف اي تغييرات اخرى في اي نــشاط اخــر. فالذي جرى امام تشارلز في تلك الليلة جرى على النحو نفسه امام هليوغابالوس[105] – وبلا ريب امام اغاممنون[106] ايضا. ويجري اليوم في حانات ســوهو الــسيئة السمعة التي لا تعد ولا تحصى. ان الشيء الذي يثير متعتي بشأن خاصية عدم التغير في هذا الشكل الموغل في القدم من اشكال المتعة والمتمتع بقدسية القدم هو انه يسمح لي بالاقتباس من مخيلة الاخرين. اذ كنت ابحث عما قريب عن افــضل نموذج من نماذج الكتب الاكثر مبيعا القديمة – نموذج مهمل. وكان يجلس بهــدوء تحــت عبارة **الطب** بين (مقدمة في علم وظائف الكبد) و(امراض الجهاز التنفــسي) عنوان اشد كآبة هو (تاريخ قلب الانسان). في الحقيقة، انه تاريخ بعيد كــل البعد عن الكآبة يعالج موضوع العضو الذكري. وقد نشر اول مرة في العام 1749 وهو نفس عام صدور رائعة كليلاند في نفس الموضوع (فاني هيل). ويفتقر المؤلف الى تجربته الا انه يفي بالغرض.

---

(105) هلــيوغابالوس (204 -222 م): امبــراطور رومانــي (218-222). عــرف بالاستهتار والخلاعة. (المترجم)

(106) اغاممــنون: (فــي الميثولوجــيا اليونانية، القائد الاعلى للحملة الاغريقية ضد طروادة). (المترجم)

ادْخلــوا حجـــرة كبيرة، وقدِّم الشراب، وطلب من النادل الانصراف. وبعد شرب الانخاب، طلب من السيدات الاستعداد. وعلى الفور صعدن فوق المنضدة. دُهـــش كاميلو تماما لهذه الوسيلة و لم يدهش اقل من ذلك في معرفة الهدف الذي سعت من ورائه الفتيات عندما ارتقين ذلك المكان البارز. كانت اطرافهن ملساء، ملامحهن نضرة وبشرتهن بيضاء كالثلج المندفع وقد ازدادت شدة البياض هذا بفعل لــون شعرهن الاسود الفاحم. وكانت وجوههن مليحة جدا. اما الحمرة الطبيعية التي تألقت على وجناتهن فقد انتقلت الى ذهن كاميلو بوصفهن حسناوات الى حدّ الكمال وعلى استعداد لمنافسة فينوس نفسها. وبعد ان شاهد وجوههن، القى نظرة خجلـــى الى مذبح الحب الذي لم يسبق له ان شاهده بمثل هذا الوضوح الذي يراه به في الوقت الراهن...

... علـــى اي حال، على الرغم من ان المشهد اثار ضحك الرفاق كلهم فقد تحمـــل حفلة السمر هذه بكثير من الصبر اذ سبق ان قيل له انه ضروري ان يقدم كـــل الاعضاء الجدد على هذا النحو الى اسرار مجتمعهن. وبدا كاميلو الان يمتعض مـــن وقاحة النساء الاستثنائية. ووجد نفسه خاليا من تلك العاطفة القلقة التي شعر بهـــا لدى بدء العرض ورغب في ان يطردهن الرفاق. الا ان رفاقه ما من شأنهم ان يفتـــرقوا عنهن حتى نهاية تمرينهن. لم تطلب الحوريات اللائي جمعن التبرعات عند كـــل اكتـــشاف جديـــد لابـــتكاراتهن الوقحة، اي استعطاف لاسترضاء الشبان الفاســـقين، بل واصلن دون اي احساس بالخجل عرض مدى الدناءة التي يمكن ان توصل الطبيعة البشرية نفسها اليه.

علـــى اي حـــال، لم يكن تشارلز هناك ليقدم عرضه. فقد استمتع بالمشاهد الاولـــية استمتاعا تاما. وظهر بمظهر الرجل الذي سبق له ان تنقل كثيرا، اذ شاهد عروضـــا افضل في باريس – او هذا ما همس به للسير توم – ولعب دور من سئم الملذات وعرف كل شيء. بعد ذلك القى نظرة خاطفة الى الافواه الفاغرة على نحو داعـــر للرجال الجالسين الى جواره وقد ظللتهم الظلال وسمع السير توم وهو يشير الى ابـــن الاســـقف موضـــحا اختياره. تعانقت الاجساد البيض، تلوَّت، اتسمت بالتقلـــيد والمحاكـــاة. غـــير ان تـــشارلز ادرك وجود شيء من اليأس يكمن وراء ابتـــسامات الممـــثلات الثابتة والموحية. كانت احدى هؤلاء طفلة بلغت توا سن

البلوغ. وبدا في تظاهرها بمظهر البراءة المتردد وجود شيء يتسم بالعذرية الحقيقية، شيء من العذاب الذي لم تحجِّره مهنتها.

على الرغم من انه اشمأز فانه استثير، وتقزز من الجو العام لهذا العرض. غير انه كـــان على درجة من الحيوانية تكفي لأن يقلق ويستثار سرا. قبل وقت قصير من نهايـــة العـــرض، نهـــض وغادر الحجرة كأنما ليريح نفسه. وفي حجرة الاستراحة، جلـــست راقصة الباليه الصغيرة التي قدمت الشراب من وراء منضدة قرب معاطف السادة وعصيِّهم. وتجعَّد وجهها المكسو بالاصباغ اثر ابتسامة مصطنعة وهي تنهض واقفـــة. تفرَّس تشارلز برهة وجيزة في خصلات شعرها غير المنتظمة، في ذراعيها العـــاريين وصـــدرها العاري تقريبا. وبدا موشكا على الحديث، بيد انه غيَّر رأيه، واشار على نحو جاف الى حاجياته. ثم رمى نصف جنيه فوق المنضدة قرب الفتاة، وانصرف متخبطا في سيره.

في الـــشارع، قـــرب نهايـــة الممرات، وجد العديد من العربات في الانتظار. فاستقل اول عربة وصاح عاليا (لان تلك هي التقاليد الفكتورية الحذرة) باسم احد شوارع كنـــزنغتون القريبة من المكان الذي يسكن فيه، ورمى نفسه داخل العربة. لم يشعر باللياقة النبيلة، بل شعر كأنه ابتلع الاهانة او احجم عن مبارزة. لقد عاش والده حياة كانت فيها مثل هذه الامسيات امرا مألوفا، وبما انه لم يستطع هضمها، فـــذلك يعني انه شاذ. اين هو الان رجل الرحلات حول العالم؟ لقد تضاءل حتى اســـتحال الى جـــبان بائس. ماذا عن ايرنستينا؟ التزامه بالخطوبة؟ ان تذكره هذه الامـــور جعله اشبه بسجين يستيقظ من حلم وجد نفسه فيه حرا ويحاول الوقوف علـــى قدمـــيه، الا انه ينطرح ارضا بفعل الاغلال التي تقيده فيعود ثانية الى واقع زنـــزانته المرير.

ســـارت العـــربة سيرا وئيدا اسفل شارع ضيق، محتشد بعربات اخرى لأن المنطقة لا تزال هي منطقة الخطيئة. اذ وقفت المومسات تحت كل ضوء وعند عتبة كـــل باب. وراقبهن تشارلز من مكانه المعتم. وشعر بالدم يغلي في عروقه، وانه لا يطـــاق. وتذكر سارة قبالة شجرة الاشواك، وشعر لو ان امامه شوكة حادة لغرس يده فيها، اذ كانت رغبته جامحة في تعذيب نفسه، في معاقبتها، في القيام بعمل من شأنه ان يشق صفراءه.

شارع اكثر هدوءا. ومرّت العربة من امام مصباح غازي وقفت تحته فتاة وحيدة. لاحت له يائسة، قليلة التجربة لا تقوى على الاقتراب اكثر، لعل ذلك سببه كثرة النساء الواضحة في الشارع الذي مرّت به. الا ان مهنتها على الرغم مـــن ذلك لا تقبل الجدل. كانت ترتدي ثوبا قطنيا ورديا متسخا تزينه ورود اصطناعية فوق الصدر وتلف كتفيها بلفاع ابيض، في حين تربعت قبعة سوداء وفق زي حديث، صغيرة ورجولية من فوق ضفيرة كبيرة من الشعر الكستنائي. تفرســـت في العـــربة المارة من امامها. ووجد تشارلز نفسه يشرأب الى الامام ويواصـــل النظـــر اليها من خلال فتحة النافذة البيضوية الجانبية مدفوعا بذلك بظلال الشعر والعينين اليقظتين اللتين تظللهما ظلال سوداء والوقفة التي تشوبها اللهفة والحزن. مرت به لحظة لا تحتمل ثم امسك عصاه، ونقر سقف العربة من فوقه بقوة. فتوقف السائق على الفور، وتناهى الى السمع صوت وقع خطوات مـــسرعة، ثم بـــرز الوجه للعيان، ادنى منه قليلا، على مقربة من واجهة العربة المفتوحة.

في الحقـــيقة، لم تكـــن تشبه سارة. ولاحظ ان الشعر بالغ الاحمرار بحيث لا يمكـــن ان يكون لونه هذا طبيعيا. كما ان مظهرها مألوف تماما، جرأة مصطنعة في العينين الثابتتين وابتسامة فوق الشفتين الحمراوين، البالغتي الاحمرار مثل الدم. الا ان هناك شائبة خفيفة – شيئا ما في الحاجبين الثابتين، او في الفم.

– ألديك غرفة؟

– نعم يا سيدي.

– اخبريه بالمكان.

تـــوارت عـــن انظـــاره لحظة واحدة، وذكرت شيئا ما للسائق من خلفه. ثم ارتقـــت العـــربة التي تأرجحت بفعل ثقلها، وجلست الى جانبه، فامتلات المسافة الضيقة بالعطر الرخيص. وشعر بملمس احد كميها وتنورتها وهي الى جانبه، الا ان ذلـــك لم يدم طويلا فاستأنفت العربة سيرها، وخيم الصمت مسافة مئة ياردة (91 مترا) او اكثر.

– هل سأقضي الليلة كلها يا سيدي؟

– نعم.

– انني اسأل لانني اضيف ثمن اجرة العودة في حالة عدم المبيت. اومأ ثم تفرس في الظــلام من امامه. اجتازت العربة مئة ياردة (91 مترا) اخرى في صمت. وشعر الها قد استراحت قليلا، كما شعر بضغط قليل على ذراعه.

– الجو شديد البرودة لا يناسب هذا الوقت من العام.

– نعم.

ثم رمقها بنظرة سريعة.

– لا بد انك تلاحظين مثل هذه الاشياء.

– انا لا اشتغل عند سقوط الثلج. بعض الفتيات يشتغلن. اما انا فلا اشتغل.

صمتٌ اخر. وفي هذه المرة تكلم تشارلز.

– مضى عليك زمن طويل وانت...؟

– منذ ان كنت في الثامنة عشرة من العمر يا سيدي. وسأكمل السنتين بحلول أيار/مايو.

– اه.

اختلس نظرة اخرى اليها في الصمت الذي اعقب ذلك الحوار، وبدأ حساب رهــيب يــنهش عقل تشارلز. ثلاثمئة وخمسة وستون يوما، لنقل ثلاثمئة يوم **عمل** مضروبا في اثنين... وهذا يعني بنسبة ستمئة الى واحد الها غير مصابة بمرض. اهناك وســيلة رقيقة يستطيع بها ان يوجه السؤال؟ لا توجد. اختلس نظرة اخرى اليها في لحظــة مؤاتــيه انصب فيها الضوء الخارجي من فوقهما. بدت ملامحها لا تشوها شــائبة، الا انــه مغفل. ففيما يخص مرض السفلس، كان يعرف ان من شأنه ان يكون في وضع اكثر امانا بعشر مرات في مكان مريح كالذي غادره. ان التقاط اي مومس لندنية... الا ان قدره تقرر نهائيا. وقد رغب هو بذلك. كانت العربة تتجه صوب الشمال، صوب شارع توتنهام كورت.

– اترغبين في ان ادفع اجرتك الان؟

– لا على وجه الخصوص يا سيدي. كما تهوى.

– حسنا جدا. كم الاجرة؟

ترددت. ثم قالت.

– بالوضع الاعتيادي يا سيدي؟

رمقها بنظرة، ثم اومأ.

- اجرتي المعتادة لليلة كاملة...

وبدا ترددها القليل لا يوحي بالنـــزاهة:

- جنيه واحد.

تحسس جيب سترته الطويلة وسلمها قطعة النقد.

- شكرا لك يا سيدي.

ثم دســـتها في حقيـــبة يدها الصغيرة، واجابت اجابة غير مباشرة على خوفه السري.

- انا لا اخرج الا في صحبة النبلاء يا سيدي. فلا ضرورة لأن تقلق على هذا النحو.

وقال بدوره.

- شكرا لك.

40

على شفاه الاخرين، والسفي،
كم ضغطت هاتان الشفتان،
وعانق ذلك الصدر، قبلي،
صدور الاخرين.

ماثيو ارنولد– فراق 1853

توقفت العربة امام بيت في احد الشوارع الفرعية الضيقة شرقي شارع توتنهام كورت. وبعد ان ترجلت الفتاة مسرعة من العربة ارتقت مباشرة درجا يؤدي الى بـــاب، ودلفـــت منه. كان سائق العربة رجلا عجوز، اعتاد منذ زمن طويل على ارتـــداء معطف السياقة وقبعة الرأس ذات الشريط الغامق حتى بات يصعب تصور عـــدم كبرها على جسده. ووضع السوط في مكانه ليتسلم النقود. في هذه الاثناء، حملـــق مباشرة امامه صوب نهاية الشارع المعتم كأنه لا يستطيع النظر الى تشارلز ثانية. كان تشارلز سعيدا لأنه لم يكن لينظر اليه، وبدا فاقدا القدرة على النطق تماما مثلما بدا سائق العربة العجوز هذا وطيد العزم في اثارة مشاعره. انتابته لحظة شك وكان في وسعه ان يقفز ثانية داخل العربة. لأن الفتاة توارت عن الانظار... غير ان عنادا شريرا جعله ينقد السائق اجرته.

وجـــد تـــشارلز المومس تنتظره في رواق خافت الانارة وقد اولته ظهرها. لم تلـــتفت، بـــل ارتقـــت السلالم حالما سمعته يغلق الباب. كانت هناك رائحة طبخ واصوات مبهمة تنبعث من مؤخر البيت.

ارتقيا مجموعتين مرهقتين من السلالم، ثم فتحت احد الابواب، وامسكت به حتى يجتازه. ولما مرّ اغلقته، واتجهت الى الداخل، ورفعت فتيل المصباح فوق الموقد، واذكـــت النار مضيفة بعض الفحم. نظر تشارلز من حوله. كانت محتويات الغرفة رثة باستثناء السرير. غير ان النظافة كانت سائدة. كان السرير مصنوعا من الحديد والـــنحاس وقد صقل النحاس صقلا جيدا حتى ظهر كالذهب. وفي الركن المواجه للـــسرير ثمـــة حاجز استطاع ان يرى من ورائه وجود مغسلة. وهناك بعض الزينة

والصور الرخيصة المثبتة فوق الجدران. اما الستائر البالية المصنوعة من المورين فكانت مسدلة. ولم يكن في الغرفة ما يوحي بالغرض المترف الذي تستخدم من اجله.

– معذرة يا سيدي. تفضل بالجلوس ولن اتأخر دقيقة.

ثم اجتازت بابا اخر يؤدي الى حجرة اخرى في مؤخر البيت. كانت الحجرة مظلمة ولاحظ انها اغلقت الباب من ورائها بمنتهى الرقة. تقدم ووقف، وولى ظهره الموقد. وسمع من خلال الباب المغلق غمغمة واهية لطفل يستيقظ من نومه، محاولة لاسكاته وبضع كلمات مهموسة. فُتح الباب ثانية، وظهرت المومس ثانية، وقد خلعت لفاعها وقبعتها، وابتسمت ابتسامة عصبية له.

– انها طفلتي الصغيرة يا سيدي. لن تتسبب في اي ضوضاء. وهي كالذهب في جودتها.

ولما شعرت بامتعاضه اسرعت قائلة:

– ان كنت جائعا يا سيدي فهناك مطعم على بعد خطوة واحدة لا اكثر.

لم يكن تشارلز جائعا، كما انه لم يشعر الان بالجوع الجنسي ايضا. ووجد صعوبة في النظر اليها.

– اطلبي ما تشائين لك، اما انا فلا اريد سوى شيء من الشراب المفضل اذا امكن.

– شكرا لك يا سيدي. سارسل الصبي لاحضاره.

ثم توارت عن الانظار ثانية. وسمعها وهي تنادي بصوت حاد، صوت يفتقر الى الرقة، في اتجاه الرواق.

– هاري!

همس اصوات، وانغلاق الباب الامامي بقوة. ولما عادت سألها ان كان ينبغي له ان يدفع لها بعض النقود. لكن بدا ان هذه الخدمة من ضمن الاجور.

ألن تتفضل بالجلوس يا سيدي؟

ثم بسطت يديها لتأخذ قبعته وعصاه اللتين ما زالتا في يده. فسلمهما اليها ودفع مؤخر سترته الطويلة وجلس قرب الموقد. ظهر ان الفحم الذي وضعته في الموقد بطيئ الاشتعال. جثت على ركبتيها قبالته وقبالة الموقد، وانهمكت في اذكاء النار ثانية.

– ان الفحم من افضل نوعية، فلا يجدر ان يحترق ببطء. انه القبو. فهو رطب مثل البيوت العتيقة.

راقب وجهها من الجانب وقد انعكس عليه وهج الضوء الاحمر المنبعث من الموقد. لم يكن وجهها جميلا، بل ثابتا، رائعا، غير دال على تفكير. وكانت عامرة الثديين، رقيقة الرسغين واليدين على نحو يبعث على الدهشة، كثيفة الشعر، مما جعل رغبته تتقد حالا. واوشك على مد يده للمسها، غير انه غيّر من رأيه، ولسوف يشعر بالتحسن عندما يشرب المزيد من الشراب المفضل. بقيا على تلك الحال دقيقة او اكثر. وفي النهاية نظرت اليه فابتسم لها.

للمرة الاولى في ذلك اليوم شعر بالهدوء.

حولت من انظارها صوب الموقد ثانية وهمست:

– لن يتأخر كثيرا. فالمكان على بعد خطوتين لا اكثر.

وهكذا لبث الاثنان في صمت مرة اخرى. غير ان مثل هذه اللحظات كانت في منتهى الغرابة للرجل الفكتوري. فالالفة التي تربط حتى بين الزوج والزوجة محكومة الى حدّ بعيد بقوانين التقاليد الصارمة. ولكن على الرغم من ذلك، كان تشارلز يجلس قرب موقد هذه المرأة التي لم يعرف بوجودها قبل ساعة واحدة، مثل...

– والد طفلتك الصغيرة...؟

– جندي يا سيدي.

– جندي؟

حملقت في الموقد: ذكريات.

– انه في الهند الان.

– أليس من شأنه ان يتزوجك؟

ابتسمت لبراءته، ثم هزّت رأسها بالنفي.

– لقد اعطاني النقود عندما استلقيت في الفراش.

وكانت بهذا توحي انه فعل كل ما يمكن ان يتوقعه المرء على نحو نبيل.

– الم تتمكني من العثور على وسيلة اخرى للعيش؟

– هناك العمل. الا انه عمل طيلة ساعات النهار. ثم عندما ادفع المال للعناية بامر طفلتي ماري...

هزت كتفيها.

- لا يمكن اصلاح ذلك. لهذا عليك ان تكتشف افضل ما تستطيع عمله.

- وهل تعتقدين ان هذه افضل وسيلة؟

- لا اعرف وسيلة اخرى يا سيدي بعد الان.

الا انها تكلمت دون ما يشير الى الخجل او الندم. لقد تقرر مصيرها. وكانت تفتقر الى الخيال لادراك ذلك.

سمع صوت وقع اقدام على السلالم. نهضت واتجهت صوب الباب وفتحته قبل ان يطرق. لمح تشارلز صبيا في الثالثة عشرة او ما يقرب من ذلك واقفا خارج الحجرة، كان من الواضح انه تعلم الا يتفرس في اي شيء، اذ ظلت عيناه خفيضتين في حين حملت هي الصينية واتجهت بها صوب منضدة قريبة من النافذة، وعادت الى الباب وهي تحمل محفظة نقودها. سمع صوت النقود المعدنية الصغيرة، ومن ثم اغلق الباب بهدوء. سكبت له كاسا من الشراب المفضل واحضرته له، ووضعت الزجاجة فوق ركيزة معدنية بثلاث قوائم في المكان المحيط بالموقد قربه. جلست وازاحت قطعة القماش التي كانت تغطي الطبق الموضوع في الصينية. ولمح تشارلز بطرف عينيه قطعة صغيرة من الفطائر، وشيئا من البطاطا وكأسا من الشراب المفضل والماء على ما يتضح، اذ قلما تكون قد طلبت احضار الماء وحده. كان طعم الشراب المفضل حامضا، الا انه شربه على أمل ان تتبلد حواسه.

كان هناك صوت فرقعة صغيرة منبعثة من الموقد المتأجج الان، وهسيس شعلة الغاز، ورنين ادوات الطعام: لم يدرك كيف ينبغي لهما الانتقال الى هدف وجوده الحقيقي. شرب كأسا اخرى من الشراب المفضل ذي الطعم الشبيه بالخل.

سرعان ما فرغت من وجبتها، ونُقلت الصينية خارجا. ثم عادت الى الحجرة المظلمة حيث ترقد الطفلة الصغيرة. مرت دقيقة، ثم عادت الى الظهور من جديد وهي ترتدي هذه المرة رداء فضفاضا، ابيض اللون امسكت به كي لا ينفتح من الامام. كما ارخت شعرها الذي انساب فوق ظهرها. كانت يداها تمسكان حافات الرداء على نحو محكم لتظهر انها عارية من تحته تماما.

نهض تشارلز.

- لا داعي للعجالة يا سيدي. افرغ من تناول شرابك.

حملق في الزجاجة القريبة منه كأنه لم يلحظها من قبل، ثم اومأ، وجلس ثانية، وصبّ لنفسه كأسا اخرى. تحركت من امامه، ومدَّت يدها لتقلل من حدة اشتعال الموقد في حين ما زالت يدها الاخرى تمسك بالرداء. غمرها ضوء الموقد ولطّف من ملامحهــا الغـــضة، ثم جثت ثانية قرب قدميه في مواجهة الموقد. وبعد لحظة مدت يـــديها الى المـــوقد، فانفـــتح الـــرداء قليلا ورأى نهدا ابيض، تغمره الظلال، غير مكشوف تماما.

تكلمت وهي لا تزال متجهة صوب الموقد:

- اتفضل ان اجلس على ركبتيك يا سيدي.

- نعم... من فضلك.

عـــبَّ مـــا في الكأس في حين نهضت وهي تمسك رداءها باحكام وجلست مسترخية فوق ساقيه المضمومتين، ووضعت ذراعها اليمنى من حول كتفيه. وضع ذراعـــه اليسرى حول خصرها بينما ظلت ذراعه اليمنى ممتدة على نحو طبيعي غير معقول فوق ذراع الكرسي. ظلت يدها اليسرى لحظة تمسك بردائها غير انها مدتها بعـــد ذلك، وداعبت وجنتيه. مرت لحظة. قبلت وجنته الاخرى. التقت عيناهما. القت نظرة الى فمه، كأنها خجلة، بيد انها استأنفت عملها دون استحياء.

- انت سيد في منتهى الجاذبية.

- انتِ فتاة جميلة.

- اتحبنا نحن الفتيات الشريرات؟

لاحـــظ انهـــا اغفلـــت ذكر كلمة سيدي. احكم ذراعه اليسرى من حول خصرها.

- اانا ثقيلة عليك؟

- لا... انه...

- انه سرير لطيف. ناعم.

وقفت بعيدا عنه، واتجهت صوب السرير، وطوت اغطيته ثم التفت لتنظر اليه. تـــركت الـــرداء يسقط عن كتفيها. كانت ذات جسد حسن التقاطيع، ومؤخرة متناســـقة. مـــرت لحظـــة، ثم جلست، وادخلت ساقيها تحت الاغطية، واستلقت مغمـــضة العينين معتقدة على نحو واضح ان ذلك هو الوضع المحتشم. بدأت احدى

قطع الفحم تتوهج بعنف، ملقية ظلالا قوية الا انها مرتعشة. وتراقص القفص، طرفا السرير على الجدار من ورائها. نهض تشارلز واقفا وهو يحارب ضد المعركة الناشبة في معدته. كان الشراب المفضل هو السبب. كان مجنونا عندما شربه. شاهد عينيها مفتوحـــتين تنظران اليه. ترددت، ثم مدت ذراعيها الرقيقتين البيضاوين، فاشار الى سترته الطويلة.

بعـــد بضع لحظات شعر بقليل من التحسن، وشرع ينـــزع ثيابه حقا، على نحـــو مـــرّتب، مرّتب اكثر من اي وقت مضى فعله في غرفته الخاصة، فوق ظهر الكرســـي. كان مضطرا الى الجلوس كي يفك شريط حذائه. حدّق الى الموقد وهو يخلـــع ســـرواله وثيابه التحتانية التي كانت تصل الى ما دون ركبتيه، حسب الزي الـــسائد في تلـــك الايام. الا انه لم يتمكن من خلع قميصه. لقد هاجمه الغثيان من جديد. امسك بحافة الموقد المزركشة، واغمض عينيه وهو يكافح من اجل السيطرة على نفسه.

ظـــنت في هـــذه المرة ان سبب تأخره يكمن في خجله. فما كان منها الا ان طـــوحت باغطية السرير كأنها تريد النهوض لتأتي به الى السرير. ارغم نفسه على السير صوبها. فاستلقت ثانية، الا انها لم تغطِ جسدها. وقف قرب السرير، وتفرس فـــيها. مدت ذراعيها، فظل واقفا يحدق بها لا يعي سوى الدوار في رأسه، ورائحة الشراب المفضل...

– لا اعرف اسمكِ.

ابتسمت وهي ترفع بصرها اليه، ثم مدت يديها صوب يديه وجذبته ناحيتها.

– سارة يا سيدي!

اضناه التشنج الداخلي الذي لا يطاق. وبعد ان مال الى الجانب بدا يتقيأ فوق الوسادة قرب رأسها الذي ابعدته الى الوراء وهي مذعورة.

41

انهض وتخلص
من سيد الحقول المترنح ومن حفل الملاذ
تسامى متخلصا من الحيوان فيك،
ودع القرد والنمر يموتان

تينيسون: احياء لذكرى 1850

للمـــرة التاسعة والعشرين في ذلك الصباح اصطدمت عينا سام بعيني الطاهية فحّـــول انظـــاره الى صف من الاجراس فوق باب المطبخ، ومن ثم مررها صوب الـــسقف. كان الوقت ظهرا، وربما جاز للمرء ان يعتقد بأن سام سعيد باجازته في ذلـــك الـــصباح، الا ان الاجازات الصباحية الوحيدة التي كان يتطلع اليها انما هي تلك التي يقضيها بمعية انثى اكثر جاذبية من السيدة روجرز البدينة.

– انه ليس في حالته السويَّة.

قالـــت الارملة للمرة التاسعة والعشرين ايضا. على اي حال، لو انها شعرت بالانـــــزعاج فذلك بسبب سام، لا بسبب السيد الشاب في الطابق العلوي. ومنذ عودته من بلدة لايم قبل يومين، استطاع الخادم ان يلمِّح الى احداث ووقائع خفيَّة. صحيح انه نقل نقلا لطيفا الخبر الخاص بوينـــزيات، الا انه اضاف طبق الاصول: «لكـــن هـــذه ليـــست نصف الاستعدادات الجارية». لقد رفض ان يستدرج في الحـــديث. «ثمة ثقة معينة، ولا يجوز الحديث عن ذلك يا سيدة آر. الا ان الاشياء التي حدثت قلما تصدق عيناي انها وقعت فعلا».

مـــن المؤكد ان لسام احد المواضيع العاجلة التي تبعث على المرارة. لقد اغفل تـــشارلز صرخة في ذلك المساء عندما ذهب للقاء السيد فريمان. وهكذا ظل سام منتظـــرا حتى ما بعد حلول منتصف الليل ليتلقى بعد ذلك تحية من نظرة متجهمة تعلو وجها شاحبا بعد ان سمع الباب الامامي وهو يفتح.

– لماذا لم تأوِ الى فراشك بحق الشيطان؟

– لانك لم تخبرني انك ستتناول طعامك خارج البيت يا سيد تشارلز.

- كنت في النادي الخاص بـــي.

- نعم يا سيدي.

- غيِّر هذه النظرة الوقحة من على وجهك اللعين.

- نعم يا سيدي.

مدّ سام يديه وتناول - او امسك - الحاجيات المختلفة، بدءا بالاشياء المتفرقة الـــتي تلبس عند الخروج وانتهاء بالنظرة الجهنمية القاسية التي رمقه تشارلز بها. ثم تقدم السيد بجلال صوب الطابق العلوي. كان عقله صاحيا تماما، الا ان جسده ما زال مترنحا قليلا وهي حقيقة لم تعكسها بوضوح بالغ الا ابتسامة سام المريرة وغير المرئية معا.

- انـــتِ علـــى حق يا سيدة آر. انه ليس في حالته السويَّة. كان مترنحا تماما الليلة الماضية.

- ما كنت لاصدق احتمال ذلك.

- هـــناك اشياء كثيرة ما من شأنك ان تصدقي احتمالها يا سيدة آر. وبما ان ذلك قد حدث، فالامر سيَّان.

- انه لا يريد الاعتذار.

- الخسائر الكبيرة لا تفارق شفتيَ يا سيدة آر.

اخـــذت الطاهـــية نفسا عميقا في حين دقت الساعة القريبة من فرن الطبخ. فابتسم سام لها.

- غير انك حادة يا سيدة آر. في منتهى الحدَّة.

من الواضح ان مشاعر سام الخاصة بالامتعاض ستحقق ما عجزت عن تحقيقه الجـــياد الثائرة. الا ان سام انقذ والسيدة روجرز احبطت عندما دق الجرس. تقدم ســـام ورفع صفيحة معدنية فيها غالونان من الماء الحار كانت تنتظر طيلة الصباح بصبر وراء فرن المطبخ. ثم غمز لرفيقته وتوارى عن الانظار.

هـــناك نوعان من الآثار التي يخلفها في المرء اسرافه في الشراب المفضل. في النوع الاول تـــشعر بالغثـــيان والعجز، وفي النوع الثاني تشعر بالغثيان والشفافية. في الحقيقة، كـــان تـــشارلز يقظا، بل خارج السرير قبل وقت قليل من قرع الجرس. وكان لديه النوع الثاني من تلك الآثار. وتذكر على نحو واضح تماما وقائع الليلة الفائتة.

كـــان تقيؤه قد انتزع العنصر الجنسي المشكوك فيه في تلك الغرفة من انظاره وعقله تماما. اما الفتاة ذات الاسم الذي لا يبعث على السرور فقد نهضت بعجالة، وجـــذبت رداءهـــا واثبتت انها ممرضة هادئة مثلما عزمت على ان تكون مومسا. ســـاعدت تـــشارلز علـــى الجلوس فوق الكرسي القريب من الموقد وهناك شاهد زجاجـــة الشراب المفضل فشعر بالغثيان ثانية. الا انها في هذه المرة كانت قد هيأت حوضا اتت به من قرب المغسلة. كرر تشارلز اعتذاره بين محاولاته للتقيؤ.

– آسف جدا. شيء يؤسف له... شيء ما لم يناسب...

– لا بأس يا سيدي. لا بأس. اترك نفسك تتقيأ.

اضطر الى ترك نفسه كي يتقيا. ثم ذهبت، واتت بلفاعها، ورمت به من حول كتفـــيه. جلس بعض الوقت على نحو يثير الضحك كأنه جدَّة عجوز، منحنيا فوق الحـــوض، جاثمـــا على ركبتيه. وبعد برهة شعر بقليل من التحسن. ايفضل النوم؟ نعـــم، لكـــن في سريره الخاص به. ذهبت والقت نظرة صوب الشارع، ثم تركت الحجـــرة في حين ارتدى ثيابه مرتجفا. ولما عادت، كانت قد ارتدت هي الاخرى ثيابها. نظر اليها مشدوها.

– انتِ متأكدة...

– استدعي لك عربة يا سيدي. لو انتظرت...

– اه، نعم... شكرا لك.

ثم جلس ثانية في حين هبطت السلالم، وخرجت من البيت. وعلى الرغم من انـــه لم يكن متأكدا بأن غثيانه قد انتهى، فقد احس نفسيا بارتياح عميق. اذ بغض النظر عن ماهية قصده، فانه لم يرتكب عملا قاتلا. تفرس في النار المضطرمة قبالته، وابتسم ابتسامة شاحبة وهو امر يدعو الى الاستغراب.

تناهـــى الى سمعه بكاء ضعيف من الحجرة المجاورة. ثم خيم الصمت، غير ان الـــصوت عـــاد من جديد على نحو اعلى هذه المرة واقوى. من الواضح ان الطفلة الـــصغيرة قـــد استيقظت. واصبح بكاؤها – صمتها، عويلها، اختناقها، صمتها، عـــويلها – صـــعب الاحتمال. اتجه تشارلز صوب النافذة، وازاح الستائر، غير ان الضباب حال دون رؤيته الى مسافة بعيدة. لم يستطع مشاهدة اي شخص. وادرك انحـــسار صوت وقع حوافر الخيل وظن ان الفتاة لا بد ذاهبة الى مكان ما لاحضار

العربة. وفي حين كان يقف مترددا، احس بضربة مكتومة على الجدار من البيت المجاور. وصرخ صوت رجالي حقود غاضبا. تردد تشارلز ثم وضع قبعته وعصاه فوق المنضدة وفتح الباب المؤدي الى الحجرة الاخرى. واستطاع ان يميز من خلال الضوء المنعكس خزانة ملابس وصندوقا قديما. كانت الحجرة صغيرة جدا. وفي ركن قصي، ثمة سرير خفيض مدولب قرب خزانة صغيرة مغلقة. وعاد بكاء الطفلة فجاة، مخترقا الحجرة الصغيرة. وقف تشارلز عند عتبة الباب المضيئة، وقفة مرتكبة، عملاق أسود مثير للهلع.

– صه. صه ستأتي امك عمّا قريب.

زاد الصوت الغريب من تفاقم الامور، وشعر تشارلز ان الجيران كلهم لا بد قد استيقظوا، اذ كان الصراخ حادا الى ابعد الحدود. ضرب رأسه يائسا، ثم تقدم الى امام صوب الظلال قرب الطفلة. ولما رأى صغر سنها ادرك لا جدوى الكلمات. انحنى من فوقها، وربّت على رأسها برفق. فامسكت اصابع دافئة صغيرة باصابعه، غير ان البكاء لم يتوقف. وعبّر الوجه الصغير المتجعد عن كل ما يخزنه من خوف بقوة مثيرة للدهشة. لا بد من العثور على وسيلة ما. وعثر عليها تشارلز. تلمس طريقه صوب ساعته، وحرّر سلسلتها من صدريته وادلاها فوق الطفلة، فكان الاثر سريعا. وتحولت صرخات البكاء الى انين ثم امتدت الذراعان الصغيرتان الى اعلى للقبض على اللعبة الفضية اللذيذة. فسمح لهما بذلك، حتى فقدتها بين اغطية السرير، وحاولت الجلوس الا انها اخفقت. فعاد الصراخ من جديد.

مد تشارلز يديه لمساعدة الطفلة في الاتكاء قليلا على الوسادة. واعترته رغبة، فرفع الطفلة من السرير وهي ترتدي قميص النوم الطويل، واستدار وجلس على الخزانة الصغيرة. وامسك بالطفلة الصغيرة وهي فوق ركبتيه، وادلى الساعة قبالة الذراعين الصغيرتين التواقتين الان. كانت طفلة فكتورية، سمينة الوجه، سوداء العينين والشعر. انبعث السرور في نفس تشارلز عندما شاهد تغير مزاجها وقهقهتها الفرحة عندما امسكت اخيرا بالساعة المفضلة. وشرعت تلهو في حين غمغم تشارلز مجيبا... «نعم، نعم، ايتها الطفلة الجميلة الطيبة، ايتها الجميلة». ومرت في ذهنه صورة السير توم وابن الاسقف في تلك اللحظة... نهاية فجوره الكبير. متاهات حياته الغريبة المظلمة؛ لغز اللقاء.

ابتـــسم. فقـــد استحضرت تلك الطفلة رقة عاطفية اكثر من بعث احساس بالمفارقـــة الذي كان بدوره موازيا لنوع من الايمان في نفسه. وفي وقت مبكر من ذلـــك المـــساء، وعندما كان في مركبة السير توم، راوده احساس زائف بالحياة في الحاضر. وكان رفضه انذاك ماضيه ومستقبله ليس سوى اندفاع متهور الى النسيان اللامـــسؤول. والان يراوده احساس اكثر عمقا واصالة عن الوهم الانساني الكبير الخاص بالزمن ومفاده ان واقعيته تشبه واقعية الطريق - الذي يستطيع المرء دوما ان يعرف اين هو واين سيكون - بدلا من الصدق: ان الوقت عبارة عن غرفة، قريبة جدا منا الان حتى اننا نفشل في رؤيتها بانتظام.

كـــان تشارلز على النقيض تماما من التجربة السارترية. فالاثاث البسيط المحـــيط به والضوء الدافئ المنبعث من الحجرة المجاورة والظلال القاهرة، وفوق كل شيء ذلك الكائن الصغير الذي يمسك به فوق ركبتيه، المتناهي في الضعف بعد امه (الا انه لم يفكر قط فيها)، لم تكن احساما عدوانية تنتهكه، بل ودودة وشرعية. اما الجحيم النهائي فهو الفراغ اللامتناهي، وقد حاولت هذه الاشياء ان تبقـــي ذلك على مسافة منها. وشعر فجأة انه قادر على مواجهة مستقبله، الذي لم يكن سوى شكل من اشكال ذلك الفراغ الرهيب. وبغض النظر عما حدث له، فإن مثل هذه اللحظات تتكرر؛ لا بد من العثور عليها، ومن الممكن العثور عليها.

فُـــتح احد الابواب. وقفت المومس تحت الضياء. لم يتبين تشارلز وجهها، الا انه خمن انها ذعرت قليلا، ثم هدأت.

اوه يا سيدي. هل بكتْ؟

- نعم. قليلا. اظنها عادت الى النوم الان.

- اضطررت الى الذهاب اسفل شارع وارين حيث تقف العربات.

- انتِ في منتهى الرقة.

ســـلّمها طفلـــتها، وراقبها وهي تضعها ثانية في فراشها، ثم استدارت فجأة، وغـــادرت. تحـــسس جيـــبه وعدّ خمسة جنيهات ذهبية ووضعها فوق المنضدة. اســـتيقظت الطفلـــة مـــن جديـــد. فعادت الام الى تهدئتها مرة اخرى. تردد، ثم غادر بصمت.

كـــان قـــد جلـــس في العربة التي كانت تنتظره عندما هرعت الفتاة وهي تهبط الـــسلالم وتتجه صوب الباب. ورمقته بنظرة مشدوهة، نظرة مرتبكة، جريحة الى حدّ ما.

- اوه يا سيدي... شكرا لك. شكرا لك.

ادرك ان الدمـــوع ترقرقت في مقلتيها. لا شيء يصدم الفقراء مثل النقود غير المكسوبة بالجهد.

- انت فتاة شجاعة، رقيقة.

مـــدّ يـــده ولمس يدها التي كانت تمسك بحافة الباب المغطى بالمشمّع. ثم نقر بعصاه.

42

الـتاريخ ليس مثل فرد، يستخدم البشر لتحقيق اغراضه. التاريخ ليس سوى افعال البشر الساعين وراء غاياتهم.

ماركس: العائلة المقدسة 1845

لم يعــد تشارلز، كما عرفنا، الى كنــزنغتون رائق المزاج بعد ان غادر اخيرا منــزل المومس. شعر بالغثيان مرة ثانية في الرحلة التي امتدت ساعة وكان لديه من الــوقت لاثــارة الكثير من مشاعر النفور الذاتي ايضا. غير انه استيقظ بذهن اكثر صفاء. وكما هو شأن الرجال، فقد اعطى الاثار الناجمة عن اسرافه في الشراب حق قــدرها، وحملق مذعورا في وجهه المنهك، وأمعن النظر الى فمه الظامئ اللاذع، ثم قرر انه قادر عموما على مواجهة العالم.

مــن المؤكد انه واجه سام لما دخل حاملا الماء الساخن، واعتذر لمزاجه السيئ في الليلة الفائتة.

– لم الحظ اي شيء يا سيد تشارلز.

– كانــت امسيتي مرهقة بعض الشيء يا سام. والان، كن طيبا، واحضر لي ابريقا كبيرا من الشاي، فانا في منتهى الظمأ.

انــصرف سام مخفيا رأيه الخاص بأن سيده ظامئ الى شيء اخر ايضا. اغتسل تشارلز، وحلق ذقنه، وفكر في نفسه. من الواضح انه ليس مهيئا لأن يكون خليعا. كمــا انه لا يملك خبرة كافية في التشاؤم الباعث على الندم. ألم يقل السيد فريمان نفــسه ان سنتين قد تنقضيان قبل ان يتخذ اي قرار بشأن احتياجاته في المستقبل؟ الكــثير مــن الوقائع قد تحدث في سنتين. في الحقيقة، لم يقل تشارلز لنفسه: «ربما يــتوفى عمي»، الا ان الفكرة حامت في حدود عقله. ثم ذكّره المظهر الشهواني في تجــربة الليلة الماضية ان اللذات المشروعة في ذلك الاتجاه سرعان ما ستصبح ملكه ويــستمتع بهـــا. اما في الوقت الراهن فعليه ان يمتنع. وتلك الطفلة – الى اي مدى ينبغي على الاطفال ان يعوضوا عن عيوب الحياة!

رجــع سام حاملا الشاي – ورسالتين. اصبحت الحياة طريقا ثانية. وسرعان مــا شــاهد ان المغلــف العلوي خُتم مرتين بالختم البريدي، ارسل من اكستر الى كنــزنغتون بعد ان كان قد صدر من وايت لاين في بلدة لايم ريجيس. اما المغلف الثاني فهو مرسل من لايم مباشرة. تردد، ثم تناول مدية فتح الرسائل، كأنما ليخفف شــكوكه، واتجه صوب النافذة. فتح الرسالة المرسلة من غروغان اولا، الا اننا قبل ان نبدأ في قراءتها، يتعين علينا ان نقرأ الملاحظة التي ارسلها تشارلز في طريق عودته الى لايم في ذلــك الصباح الذي سار فيه فجرا الى مخزن غلال كارسليك. وكانت محتوياتها كالاتي:

«عزيزي الدكتور غروغان،

اكــتب اليك على جناح السرعة لاشكرك على النصيحة القيِّمة والمساعدة في الليلة الماضية، ولاؤكد ثانية انني سأكون في منتهى السعادة لأن ادفع نفقات الرعاية والاهــتمام التي تراها انت وزملاؤك ضرورية. ارجو منك وفي ضوء ادراكي التام بــأنني قــد شهدت حماقة مصلحتي المضللة، ان تخبرني بما استجد فيما يخص اللقاء الذي من شأنه ان يكون قد تم لدى قراءتك هذه الرسالة.

مما يؤسف له انني لم استطع التطرق الى الموضوع في شارع برود هذه الصباح فقــد كــان رحيلي المفاجئ تقريبا وظروف شتى لا اريد ان ازعجك بها الان قد جعلــت من اللحظة غير مؤاتية كما يبدو. وستتم معالجة القضية حال عودتي. ولا بد لي من ان اطلب منك ان تبقي الامر سرا في هذه الاثناء.

اني راحل على الفور. وعنواني في لندن مثبت ادناه. مع عميق شكري.

(ت. س)»

لم تكــن رسالة نــزيهة. الا ان كتابتها كانت ضرورية. والان فضَّ تشارلز متوترا جواب الرسالة لقراءته.

«عزيزي سميثسون،

تأخــرت في الكتابة اليك على أمل الحصول على بعض التنوير بخصوص لغز دورســيت الصغير. ويؤسفني القول ان الانثى الوحيدة التي قابلتها في صباح حملتي كانــت الام الطبــيعة – وهــي سيدة وجدت ان حديثها بعد ثلاث ساعات من الانــتظار ممــلا تافها. باختصار، لم يظهر الشخص للعيان. ولدى عودتي الى بلدة

لايم. ارسلت فتى حاد الذهن ليقوم بالمهمة بدلا عني. غير انه هو الاخر جلس في عزلة بهسيجة. انني اكتب هذه الكلمات بلا مبالاة، غير انني اعترف انني بدأت اخشى ما هو اسوأ لما عاد الفتى وقت هبوط الليل.

على اي حال، طرق سمعي في صباح اليوم التالي ان تعليمات تركت في وايت لايــن تقضي بنقل صندوق حاجيات الفتاة الى اكستر. ليس في وسعي معرفة صاحب تلك التعليمات. مما لا ريب فيه انها هي التي ارسلت تلك الرسالة. اعتقد ان علينا ان نقر بانها رحلت.

ان خوفي الوحيد يا عزيزي سميثسون يتمثل في لحاقها بك الى لندن ومحاولة صب ويلاتها عليك. واتوسل اليك الا تهمل هذه الحادثة الطارئة بابتسامة. لو كان لدي الوقت الكافي لذكرت لك حالات اخرى تحت هذا المنحى. ارفق طيا عنوانا لرجل ممتاز اراسله منذ مدة طويلة وانصحك كل النصح ان تضع الامور بين يديه اذا ما طرا اي طارئ يدق بابك.

كن مطمئنا الى ان اي كلمة لن تخرج من بين شفتي ولن اكرر نصيحتي فيما يخص المخلوق البارع - الذي سعدت بمصادفته في الشارع توا، فالشيء بالشيء يذكر؛ الا انني اوصي بضرورة الاعتراف في اقرب فرصة ولا اظن الغفور سيتطلب عقابا طويلا او قاسيا اكثر مما ينبغي»

المخلص: مايكل غروغان

تنفس تشارلز الصعداء وهو يشعر بالذنب قبل ان يفرغ من قراءة الرسالة بوقت طويل. لم يُكشف امره اذا. القى نظرة طويلة خارج نافذة حجرة النوم، ثم فضّ الرسالة الثانية.

توقع ان يجد صفحات، الا انه لم يجد سوى صفحة واحدة.

توقع سيلا من الكلمات، الا انه لم يجد سوى ثلاث.

عنوان.

جعّد الورقة في يده، ثم عاد الى الموقد الذي اشعلته خادمة الطابق العلوي في حين كان يشخر في الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم ورمى بها في اللهب. وفي غضون خمس ثوانٍ تحولت الى رماد. تناول كوب الشاي الذي كان سام ينتظر واقفا ليناوله اياه. فشربه تشارلز جرعة واحدة، وناوله الكوب والصحن طالبا كوبا اخر.

لقد انجزت واجبي يا سام. وسنعود الى بلدة لايم غدا، بقطار الساعة العاشرة. عليك ان تدبر امر التذاكر، واذهب بهاتين الرسالتين الموجودتين فوق مكتبي الى دائرة البرق. وعندئذ تستطيع ان تتمتع باجازة طيلة فترة ما بعد الظهيرة كي تتمكن من اختيار الاشرطة لماري الجميلة - هذا اذا لم تبع قلبك في مكان اخر منذ عودتنا.

كان سام ينتظر تلك الاشارة لبدء الحديث. القى نظرة خاطفة الى ظهر سيده في حين انهمك في ملء كوب الفطور الذهبي، وقال وهو يمد الكوب من فوق صينية فضية صغيرة الى اصابع تشارلز الممتدة اليه.

- سأتقدم لخطوبتها يا سيد تشارلز.

- احقا؟

- نعم يا سيد تشارلز. لو لم تكن لدي مثل هذه الفرصة الرائعة للعمل في خدمتك.

رشف تشارلز شايه.

- تفوه بما عندك يا سام. توقف عن الحديث بالالغاز.

- لو تزوجت فانني سأعيش في مكان اخر يا سيدي.

اظهرت نظرة تشارلز الحادة المعبِّرة عن اعتراض غريزي الى اي حدّ لم يعطِ المسألة اي اهتمام. استدار، وجلس قرب الموقد.

- والان يا سام، لا سمح الله ان اكون عقبة في سبيل زواجك؛ الا انك لن تتخلى عني قبل ان اتزوج.

- لقد اخطأت في ادراك غايتي يا سيد تشارلز. انني افكر في الفترة التي ستعقب الزواج.

- ستكون في مؤسسة اكبر بكثير واني لعلى ثقة بأن زوجتي ستكون سعيدة اذ تكون ماري معها هناك... ما هي المشكلة اذا؟

- اخذ سام نفسا عميقا.

- انني افكر في العمل في التجارة يا سيد تشارلز، اي عندما يستقر بك المقام يا سيد تشارلز. ارجو ان تعرف انني لن اتخلى عنك في ساعة الضيق.

- تجارة! اي تجارة؟

- لقد تملكتني الرغبة في الحصول على متجر صغير يا سيد تشارلز.

وضع تشارلز الكوب فوق الصينية بسرعة.

- لكن الا... اقصد، انت تعلم، بعض النقود؟

لقد وفرت بعض المال يا سيد تشارلز وكذلك ماري.

- نعـــم، نعـــم. لكن هناك ايجار يستوجب الدفع، وفوق هذا كله، بضائع تستوجب الشراء ايها الرجل... اي نمط من التجارة؟

- تجارة الملبوسات والسلع الرجالية يا سيد تشارلز.

حملق تشارلز في سام، كان اللندني وطد العزم على ان يتحول الى بوذي. غير انـــه تذكر واقعة او واقعتين صغيرتين حدثتا في الماضي، ذلك الميل الى تقليد الطبقة الراقية في تصرفاتها؛ واحد مظاهر مهنته الحالية التي لم يتذمر منها سام عنايته بثيابه. في الحقيقة، ان تشارلز سخر منه اكثر من مرَّة (حوالى عشرة الاف مرة اذا توخينا الدقة) بسبب زهوه الشخصي في هذا المنحى.

- ولديك ما يكفي...

- لا، واسفاه يا سيد تشارلز. علينا ان نقتصد تماما.

خـــيم صمت له مغزى خاصا. كان سام منهمكا في اعداد الحليب والسكر. امـــا تشارلز فقد فرك جانب انفه على نحو يشبه ما يفعله سام. فطن للامر ثم تناول الكوب الثالث من الشاي.

- كم؟

- اعـــرف متجرا على النحو الذي اريد يا سيد تشارلز. وصاحبه يريد مائة وخمسين جنيه إنكليزي لاسم المحل التجاري ومئة للبضاعة. ولا بد من ايجاد ثلاثين لدفعها ايجارا.

قدر صفات تشارلز وخصائصه واردف يقول.

- القـــضية ليست هي انني غير سعيد معك يا سيد تشارلز، بل ان المتجر هو الشيء الوحيد الذي رغبت فيه دوما.

- وكم ادخرت؟

تردد سام

- ثلاثون جنيه إنكليزي يا سيدي.

لم يبتسم تشارلز بل ذهب ووقف قرب نافذة حجرة نومه.

- كم من الوقت استغرقت في توفير المبلغ؟

- ثلاث سنوات يا سيدي.

قد لا تبدو عشرة جنيهات إنكليزية في السنة مبلغا كبيرا. الا انها كانت ثلث اجـــور ثلاثة اعوام كما حسب تشارلز بعجالة، واظهر نسبيا انه يفوقه في الاقتصاد في الـــنفقات. اختلس نظرة الى سام الذي وقف ينتظر بخنوع - لكن ما هو الشيء الذي كان ينتظره؟ - قرب المنضدة الجانبية التي وضعت فوقها ادوات الشاي. وفي الـــصمت الذي اعقب ذلك، ارتكب تشارلز غلطته المميتة الاولى المتمثلة في اعطاء ســـام رأيه المخلص بالمشروع. ربما كان على نحو ما خدعة، او احد المظاهر التي لا يرقـــى اليها الشك لقاء الخدمات التي قدمها سام. الا ان ذلك بعيد كل البعد عن التـــسليم بالمسؤولية العريقة - التي لا تترادف والمكابرة السامية - للسيد الذي لا يخطئ على تابعه الذي يخطئ.

- انـــي احذرك يا سام. اذا ما فكرت في أمور تفوق مكانتك فانك لن تجد سوى الحزن. ستكون بائسا بلا متجر. وبائسا اكثر اذا كان لك متجر.

غاص رأس سام قليلا الى اسفل.

- علاوة على ذلك، فانني الفت وجودك يا سام،.. مولع بك يا سام. ولتحلّ عليّ اللعنة لو اردت خسارتك؟

- اعرف ذلك يا سيد تشارلز. وانا اقدّر مشاعرك كل التقدير يا سيدي.

- حـــسنا اذا. كـــل واحـــد منا سعيد بوجود الاخر اذا. فلنستمر على هذا النحو.

احـــنى سام رأسه، والتفت ليأخذ ادوات الشاي. كانت خيبته واضحة. كان الامـــل المهمـــل. الحـــياة وقد اختصرت، فضيلة لم تُكافأ، وعشرات من التماثيل المكتئبة.

- والان يا سام لو انك تزوجت هذه الفتاة فعندئذ ستحصل على أجر رجل متـــزوج، اضـــافة الى مبلغ اخر تبدأ به حياتك. كن مطمئنا الى انني سأجزل لك العطاء.

- هذا لطف منك يا سيد تشارلز.

الا ان الصوت كان مرائيا، فتلك التماثيل لم تهدم. وشاهد تشارلز نفسه فترة وجيـــزة من خلال عيني سام. لقد شوهد وهو ينفق الاموال الكثيرة في الاعوام التي قـــضياها معـــا. لا بـــد ان سام يعرف ان اموالا اخرى كثيرة سيحصل عليها عند الـــزواج. لهـــذا فانه ليس عجبا - اي بدافع بريء - ان يعتقد بأن مائتي او ثلاثمئة جنيه إنكليزي ليست بالمبلغ الكبير عندما يطلب.

- لا بد انك تظن انني لست كريما يا سام. في الحقيقة، حسنا ان السبب وراء ذهابـــي الى وينـــزيات هو... حسنا، سيتزوج السير روبرت.

- لا يا سيدي. السير روبرت! ابدا.

تجعـــل دهشة سام المرء يرتاب في ان طموحه الحقيقي كان ينبغي ان يتجه الى المسرح. فقد فعل كل شيء سوى القاء الصينية التي كان يحملها. غير ان هذا سابق لطريقة ستانسلافسكي[108]. واجه تشارلز النافذة وواصل حديثه.

- وهذا يعني يا سام انني في حين تزداد نفقاتي لا اجد الكثير لاوفره.

- ليـــست لدي فكرة يا سيد تشارلز. لماذا... قلما استطيع ان اصدق - في هذا العصر.

اوقف تشارلز بعجالة الرثاء المتوقع.

- علينـــا ان نـــتمنى للسير روبرت كل سعادة. فقد انتهى كل شيء. وعما قريب سيعرف الجميع النبأ. على اي حال، لن تقول شيئا عن هذا الامر يا سام.

- اوه يا سيد تشارلز... انت تعرف كيف احافظ على السر.

نظـــر تشارلز نظرة ثاقبة الى سام، غير ان عيني خادمه كانتا تنظران الى اسفل بتواضـــع. وتمنى تشارلز مخلصا لو ان في استطاعته ان يراهما. الا انهما ظلتا بعيدتين عـــن تلك النظرة المحدقة ودفعتاه الى ارتكاب غلطته المميتة الثانية - اذ لم يكن يأس سام نابعا من رفض سيده فكرته بقدر ما كان نابعا من الارتياب في ان سيده ليس لديه سر يشوبه الاثم يمكن ان يجد مكانه من فوقه.

- انـــي يا سام... اقصد، عندما اتزوج، ستكون الظروف اسهل... وانا لا اريد ان ابدد امالك تماما؛ دعني افكر في الموضوع.

---

(108) ستانسلافـــسكي: (1865 - 1938): احـــد اهم منظري مسرح القرن العشرين يؤكد اهمية الاسلوب وملائمة الاسلوب للدور. (المترجم)

وانـــبعث في قلـــب ســـام وهـــج صغير الى الحياة. لقد افلح. والمكانة باتت موجودة.

– اتمنى يا سيد تشارلز لو انني لم اتكلم في الموضوع. ليست لي اي فكرة.

– لا، لا. انني سعيد لانك اثرت هذا الموضوع. وربما ساطلب نصيحة السيد فريمان اذا ما توفرت لي الفرصة. مما لا ريب فيه انه يعرف ما يمكن قوله فيما يخص هذا المشروع.

– ذهـــب خالص يا سيد تشارلز، ذهب خالص – هكذا اصف اي نصيحة تصدر عن فم ذلك السيد النبيل.

انصرف سام اثر هذه المبالغة. حدّق تشارلز الى الباب المغلق، وشرع يفكر في مـــا اذا كان شيء ما سينفجر على سطح شخصية سام، ازدواجية معينة. لقد قلّد دومـــا السيد النبيل في ثيابه وتصرفاته والان ثمة شيء اخر غامض فيما يخص السيد النبـــيل المزيف الذي يقلده. هكذا كان العصر، عصر تحولات، وهكذا اخذ الكثير من الانظمة يذوب ويتحلل.

ظـــل فترة وجيزة وهو مطرق؛ ولكن رباه. ما صلة التعبير عن الامنيات لسام بأمـــوال ايرنـــستينا في المصرف؟ التفت الى مكتبه، وجذب احد الادراج، واخرج دفتـــر جـــيب، ودوّن فيه ملاحظة: مما لا شك فيه انها تَذْكِرة للتحدث الى السيد فريمان.

في هـــذه الاثناء، كان سام يقرأ في الطابق السفلي محتويات البرقيتين. كانت احداهما موجهة الى وايت لاين تُعلم صاحب الفندق بعودتهما. اما الثانية فتقول:

«الانسة فريمان، منـــزل السيدة ترانتر، شارع

برود، لايم ريجيس. امرت بالعودة وسيلبـــي ذلك في

منتهى السرور المخلص لك تشارلز سميثسون».

في تلك الايام، لم يلجأ الى لغة البرقيات المقتضبة سوى اليانكي الاخرق.

لم تكـــن تلـــك الرسالة الشخصية الاولى التي وقعت تحت عيني سام في ذلك الصباح. فقد كان ظرف الرسالة الثانية التي احضرها الى تشارلز ملصقة بالصمغ الا انها مختومة. والقليل من البخار يصنع الاعاجيب، وكان الصباح كله تحت تصرف سام حيث وجد نفسه وحده دقيقة واحدة في ذلك المطبخ.

لعلك بدأت توافق تشارلز رأيه في سام. فهو لا يكشف عن نفسه على انه اشرف انسان. هذا ما يجب قوله، غير ان فكرة الزواج تفعل اشياء غريبة. فهو يجعل الشريكين المرتقبين يرتابان في وجود عدم المساواة بين الاشياء. ويجعلهما يتمنيان ان يملكا ما هو اكثر ليقدماه لكل واحد منهما. وهو يقتل لامبالاة الشباب. كما ان مسؤولياته تحدث العزلة وتضعف مظاهر العقد الاجتماعي الاكثر غيرية. باختصار، يسهل ان تكون كاذبا امام الاثنين بدلا من امام واحد منهما. لم يفكر سام في هذا الاجراء على انه اجراء كاذب، غير شريف، بل اسماه «لعب الاوراق لعبا صحيحا». بكلمات بسيطة كان يعني ذلك الان ان الزواج بايرنستينا لا بد من ان يمضي قدما. ولا يستطيع الا من مهرها ان يأمل بالحصول على المائتين وخمسين جنيها إنكليزيا. واذا ما حدث غزل اخر بين السيد والمرأة الشريرة في لايم، فيجب ان يحدث ذلك تحت سمع لاعب الورق وبصره – وربما ليس ذلك بالامر السيئ كله، طالما انه كلما زادت خطايا تشارلز، اصبح هو على تماس اكبر. لكن لو تطورت الامور اكثر مما ينبغي... وهنا مصّ سام شفته السفلى، وقطب حاجبيه. مما لا يثير العجب انه بدا يشعر انه اعلى مرتبة من مكانته، وهذا شأن صانعي الزّيجات.

43

لكنني حسبت انني رأيتها واقفة،
ظلا هناك قرب قدمي،
عالية فوق الارض المغمورة بالظلال

تينيسون: مود 1855

ربمــا يستطيع المرء ان يعثر على الوان لاسطورة السلوك الانساني العقلاني في عــصر حديدي كالعصر الفكتوري اكثر من اي عصر اخر. من المؤكد ان تشارلز قــرر بعد ليلة تمرده تلك ان يذهب قدما في موضوع زواجه بايرنستينا. و لم يخطر بــباله على نحو جاد انه لن يفعل ذلك. فالام تيربسيشور والمومس لم تكونا سوى توكــيدات لذلك العزم – على الرغم مما يبدو من عدم الارجحية في ذلك – اخر الــشكوك من حول امر وصل نهايته، اخر الاستفسارات عمّا لا يمكن الاستفسار عنه. وقد فكر كثيرا على هذا النحو وهو في طريق عودته المضطرب الى البيت، مما يفسر المعاملة القاسية التي لقيها سام. اما فيما يخص سارة... سارة الاخرى كانت بديلة عنها، نهايتها الحزينة القذرة، وكانت يقظته.

علــى الــرغم من ذلك، كان في مستطاعه ان يتمنى لو ان رسالتها اظهرت خطيئة اكثر وضوحا – لو انها طلبت مالا (الا انها نادرا ما تصرف عشرة جنيهات إنكليــزيات في مثل هذا الزمن القصير)، لو انها افصحت بمشاعرها المحرَّمة نحوه. الا انه يصعب تمييز العاطفة عن اليأس في الكلمات الثلاث 'فندق اسرة انديكوت'؛ لا يــوجد حــتى تاريخ، ولا حتى الحروف الاولية من الاسم! من المؤكد انه فعل من افعال التمرد، اهمال من لدن الخالة ترانتر. لكن يصعب اتهامها بالطرق على بابه.

يسهل عليه ان يقرر وجوب اهمال الدعوة الضمنية: يجب الا يراها ثانية. لكن ربما ذكّرت سارة المومس تشارلز بروعة سارة المنبوذة: فغياب الشعور المرهف غيابا تامــا في احــداهما لم يؤكد الا وجود هذا الشعور على نحو مدهش في الثانية. كم كانــت ذكــية وحــساسة، بطريقتها الخاصة الغريبة... كانت بعض الاشياء التي ذكرتها اثر اعترافها تستحوذ على عقل المرء.

فكّـــر طويلا - هذا ان كانت الذكرى فكرة - في سارة وهي تشق طريقها الطـــويل صـــوب الغـــرب. و لم يتمكن الا من الاحساس بأن ايداعها في مصحة الامـــراض العقلية من شأنه ان يكون خيانة مهما كانت تلك المصحة متنورة. انني اســـتعمل ضـــمير الغائبة هنا الا انه واحد من افظع الاقنعة التي ابتكرها الانسان: فالـــذي استحضره تشارلز لم يكن ضميرا، بل عينين، نظرات، شعرة متدلية فوق الـــصدغ، خطوة رشيقة، وجه نائم. لم يكن هذا كله من احلام اليقظة، بل تفكير جـــاد في مشكلة اخلاقية سببها توق خالص على نحو مهيب لصالح مستقبل المرأة التعيس.

وصـــل القطار بلدة اكستر، وظهر سام قرب نافذة المقصورة في اثناء الوقفة الاخيرة من صفير التوقف النهائي. كانت رحلته بالدرجة الثالثة.

- هل سنمكث الليلة هنا يا سيد تشارلز؟

- لا. عربة. عربة بأربع عجلات. يبدو ان الأمطار ستَهْطِل قريبا.

راهـــن سام بينه وبين نفسه على الف جنيه إنكليزي بانهما سيمكثان في بلدة اكـــستر، الا انه اطاع سيده دون تردد، شأنه في ذلك شأن سيده عندما قرر لدى رؤيته وجه سام - في حين ظل في اعماقه قرار ينبغي اتخاذه - بلا تردد ما سيفعله. في الحقـــيقة ان سام هو الذي قرر ذلك: لم يعد في وسع تشارلز مواجهة اي تملص من الاجابة عن الاسئلة.

ولما اخذا يتقدمان في ارجاء ضواحي المدينة الشرقية انتاب تشارلز احساس بالحزن والضياع، فقد سبق السيف العذل. ولاح له ان مما يثير الدهشة ان يُحدد قرار بسيط واحد، اجابة واحدة عن سؤال تافه، كل هذه الاشياء. وحتى تلك اللحظـــة، كان كل شيء احتمالا، اما الان فقد اصبح ثابتا على نحو لا يرحم. لقـــد فعل الشيء الصحيح، المقبول، الاخلاقي. غير ان ذلك بدا كأنه يظلل في اعماقـــه بعـــض الـــضعف الموروث، بعض الرغبة في قبول قدره الذي يعلم - باحدى تلك الهواجس المؤكدة مثل الحقائق - انه سيقوده الى عالم التجارة، الى ارضـــاء ايرنـــستينا لأنها كانت ترغب في ارضاء والدها الذي يدين له بالشيء الكثير... حملق في الريف الذي توغلا فيه الان، وشعر انه يغور فيه تدريجيا كأنه داخل انبوب فظيع.

تـــرنحت العربة، ثمة نابض مرتخٍ يبعث صريرا عند كل رجّة، على نحو حزين كأنهـــا عربة نقل السجناء المحكومين الى المقصلة. كانت سماء المساء ملبدة بالغيوم، واخذت تمطر مطرا خفيفا. في مثل هذه الظروف، وعند سفره وحده، كان تشارلز يطلـــب من سام المجيء للجلوس الى جواره. الا انه لم يستطع مواجهة سام - على الـــرغم من ان سام هذا الذي لم يشاهد سوى الذهب مفروشا فوق الطريق المبلل المؤدي الى بلدة لايم، ما كان ليعترض على نبذه من ظهر انيهم - ظهر كان ما من شـــأنه ان يحظى بالعزلة ثانية. لا بد له من ان يستمتع بالشيء القليل الذي بقي له. فكّـــر ثانية في المرأة التي تركها في المدينة من ورائهما. من المؤكد انه لم يفكر فيها على انها بديلة عن ايرنستينا، ولا بوصفها امرأة يستطيع ان يتزوجها، لو شاء ذلك بـــدلا عـــنها، ذلك غير ممكن. في الحقيقة، قلما فكر في سارة الان - فهي ليست ســـوى الرمـــز الذي تكاثرت من حوله كل احتمالاته الضائعة، حرياته المنقرضة، رحلاته التي لن يقوم بها. لا بد له من ان يودع شيئا ما، لقد كانت قريبة وبعيدة في ان واحد.

لـــيس هـــناك شـــك. كان واحدا من ضحايا الحياة، صدفة متحجرة اخرى امـــسك بها في حركات التاريخ الهائلة، بانت شاردة الان والى الابد، طاقة كامنة تحولت الى احدى المتحجرات.

بعد برهة وجيزة استسلم لنقطة الضعف الاخيرة: استسلم للنوم.

44

الواجب - يعني الالتزام
بكل ما يمكن توقعه هنا...
بشكل مطابق تماما للاخرين
ودون تفكير بما يعنيه حقا..
انه القمع العنيد العاجل،
مثل خطيئة مهلكة واضحة،
كل بحث وتكهن
لروح الروح في الاعماق:
انه الاذعان الجبان
لامر من القدر...

اي. إتش. كلف: واجب 1841

وصلا وايت لاين قبل الساعة العاشرة تماما من تلك الليلة. كانت الاضواء لا تـزال مـتوهجة في بيت الخالة ترانتر، وتحركت احدى الستائر في اثناء مرورهما. اسـرع تـشارلز الى تجميل نفسه تاركا سام يخرج الامتعة من الحقائب، وارتقى الهـضبة على نحو رجولي. سعدت ماري كل السعادة بلقياه، اما الخالة ترانتر التي كانـت وراءها، فقد تورَّد وجهها وهي تبتسم له محيية. كانت لديها اوامر صارمة تقتـضي الانصراف حالما تفرغ من الترحيب بالمسافر: لن يكون هناك هراء امرأة مسنة في ذلك المساء. اما ايرنستينا فقد ظلت في حجرة الجلوس الخلفية بسبب من احساسها المألوف بكرامتها.

لم تـنهض لـدى دخول تشارلز، بل نظرت اليه نظرة طويلة مؤنبة من تحت رموشها، فابتسم.

- نسيت ان اشتري الورد في اكستر.

- هذا ما الاحظه يا سيدي.

- كنت في عجالة اريد الوصول الى هنا قبل ان تأوين الى الفراش.

خفّـضت بصرها، وراقبت يديها المنهمكتين في اشغال الابرة. اقترب تشارلز اكثـر، فتوقفت اليدان على نحو مفاجئ عن العمل، واصبحتا فوق القطعة الصغيرة التي كانتا تشتغلان بها.

- ارى ان لدي منافسا.

- تستحق ان يكون لديك الكثير.

جثا الى جوارها ورفع احدى يديها برفق وقبّلها. فنظرت نظرة قصيرة اليه.

- لم انم دقيقة واحدة منذ رحيلك.

- استطيع رؤية ذلك من وجنتيك الشاحبتين وعينيك المتورمتين.

لم تبتسم.

- اراك الان تسخرُ مني.

- اذا كان هذا ما يفعله الارق بك فسأرتب نصب جرس منبه كي يدق دوما في حجرة نومنا.

احمرت خجلا. نهض تشارلز وجلس الى جوارها، وجذب رأسها وقبّل فمها وعينيها المغمضتين اللتين فتحتهما بعد ان لمسهما على هذا النحو، وحملقت فيه بعد ان تلاشت منهما كل ذرة دمع.

ابتسم.

- والان دعيني اشاهد ما توشّين لمعجبك السري.

رفعـت القطعة الى اعلى وهي عبارة عن جيب ساعة من المخمل الازرق - محفظـة صـغيرة يعلقهـا السادة الفكتوريون قرب منضدة زينتهم ويضعون فيها سـاعاتهم في الليـل. ونقش على الغطاء المتدلي قلب ابيض وعلى كل جانب منه الحـرفان الاوليان من اسميهما. ونقشت على واجهة الجيب مطلع ثنائي من ابيات شعرية بخيط ذهبـي. فقرأ تشارلز بصوت عالٍ:

- «في كل مرة تملأ الساعة...» وما هي نهاية المطلع؟

- لا بد ان تخمن.

-«فان زوجتك ستصرُّ بأسنانها».

وهنا ابعدته عن نظره.

- لن اخبرك الان. لستَ افضل من المحصل في حافلة نقل الركاب.

كان المحصل في تلك الايام مشهورا بذلاقة اللسان.

- الذي لن يطلب الاجرة من واحدة بمثل هذا الجمال.

- النفاق كاذب والتوريات الضعيفة غير مقبولة.

- وانتِ رائعة عندما تغضبين يا عزيزتي.

- عندئذ سأغفر لك... لكي اكون فظيعة.

التفتت عنه قليلا على الرغم من ان ذراعه بقيت تطوق خصرها، وعاد ضغط يديه على يديها من جديد. بقيا صامتين بضع لحظات، ثم قبَّل يدها ثانية.

- اني وسعي التنزه سيرا واياكِ صباح الغد؟ وسنظهر للعالم اي عاشقين عصريين انا وانت، وسنبدو ضجرين واننا تزوجنا زواج مصلحة لا ريب؟

ابتسمت ثم كشفت عن جيب الساعة.

- في كل مرة تملأُ الساعة، فانني اذكرك بالحب.

- يا حبيبتي.

حملق في عينيها مدة طويلة، ثم تحسس جيبه ووضع فوق حضنها علبة صغيرة ذات جلد احمر داكن.

- زهور من نمط ما.

ضغطت بحياء على ابزيم صغير وفتحت العلبة؛ على مخمل قرمزي رقد مشبك صدر سويسري انيق يستخدم للزينة: قطعة فسيفساء بيضوية من مجموعة زهور تحيط بها اللالئ وقطع المرجان المذهبة. التفتت ومالت وطبعت قبلة بريئة رقيقة على شفتيه، ثم وضعت رأسها فوق كتفيه، ونظرت ثانية الى المشبك وقبلته.

تذكر تشارلز ابيات تلك الاغنية البريبابوسية وهمس في اذنها:

- اتمنى لو ان الغد يوم زواجنا.

المسألة بسيطة: الاول يعيش بالمفارقة والعاطفة والاخر يحترم التقاليد. والشيء الممكن هو موضوع اخر للملاحظة المجردة الساخرة؛ بكلمات ادق؛ احدهما استسلم، والاخر تعلم ان يكون كما هو دوما.

ضغط تشارلز ذراع الفتاة.

- لدي اعتراف صغير يا عزيزي اريد البوح به. وهو يخص تلك الانثى البائسة في منزل مارلبورو.

اعتدلت قليلا، مندهشة تماما، ومسرورة.

– اهي مأساة المسكينة؟

ابتسم.

– اظن ان تكون الكنية الاكثر ابتذالا مناسبةِ على نحو افضل.

ضغط على يدها.

– انه عمل غبـــي وتافه. ان ما حدث هو الاتي. ففي احدى جولاتي للبحث عن القنفذيات المراوغة...

هكذا تنتهي القصة. اما ما حدث لسارة فهو امر لا اعرفه – بغض النظر عن ماهيته، فإنها لم تزعج تشارلز ثانية بذاتها، وبغض النظر عن طول المدة التي يمكن ان تكـــون قد علقت في ذاكرته. هذا ما يحدث في اغلب الاحوال. الناس يتوارون عن الانظار، فيغرقون في ظلال الاشياء الاكثر قربا.

لم يعـــش تـــشارلز وايرنستينا حياة سعيدة من ذلك الحين فصاعدا، غير انهما عاشا معا، على الرغم من ان تشارلز عاش بعدها عشر سنوات (وحزن لاجلها كل الحـــزن طيلة ذلك الوقت). وانجبا – كم سيكون العدد – لنقل سبعة اطفال. وزاد الـــسير روبـــرت الطين بلة عندما انجب هو الاخر وريثين لا وريثا واحدا في اثناء الـــشهور العـــشرة من ارتباطه بالسيدة بيلا تومكنـــز. وهكذا دفع هذان التوأمان تشارلز الى التجارة اخيرا. كان السأم يستبد به في اول الامر، غير انه اعتاد العمل. لم يكـــن لابـــنائه اي خيار اخر، ولا يزال الابناء يديرون اليوم المتجر الكبير بكل فروعه.

ســـام وماري؛ لكن من ذا الذي تهمه سيرة الخدم؟ تزوجا وانجبا وتوفيا على النحو الرتيب الذي يلائمهما.

مـــن الـــذي بقـــي الان؟ الطبـــيب غروغان؟ لقد توفي وهو في سن الحادية والتـــسعين. ولما عاشت الخالة ترانتر حتى التسعينات من عمرها، فإن لدينا الدليل الواضح على لطف هواء لايم النقي.

على الرغم من ذلك، لا يمكن للتأثير ان يكون شاملا، طالما ان السيدة بولتيني توفـــيت بعد شهرين من عودة تشارلز الاخيرة الى لايم. وهنا اجدني مسرورا كي اقـــول ان في استطاعتي ان استحضر اهتماما كافيا لتأمل المستقبل – اي، حياتها ما

بعـــد الموت. فقد وصلت مرتدية الملابس السود، على ظهر مركبتها الى البوابات الـــسماوية وهبط خادمها – اذ طبيعي ان يموت معها كل خدمها على غرار مصر القديمة – وفَتَحَ باب المركبة بوقار. ثم جذبت الجرس فظهر رئيس الخدم اخيرا.

– سيدتي؟

– انا السيدة بولتيني. جئت لاقيم هنا. فأخبر سيدك بالامر رجاء.

– لقد علم جلالته بموتك يا سيدتي وقد انشدت الملائكة ابتهاجا بالمناسبة.

– حسن.

اخـــذت الـــسيدة الوجيهة المنتفخة الاوداج طريقها داخل القاعة البيضاء التي شاهدتها من وراء رأس رئيس الخدم. الا ان الرجل لم يتحرك جانبا، بل هزّ عوضا عن ذلك بعض المفاتيح التي صادف وجودها في يده.

– افسح الطريق ايها الرجل. انا هي. السيدة بولتيني من بلدة لايم ريجيس.

– سابقا من لايم ريجيس يا سيدتي. اما الان فمن مكان مداري.

اغلق الخادم الباب في وجهها. فكان رد فعل السيدة بولتيني الفوري متمثلا في النظـــر من حواليها خشية ان يكون خدمها قد تنصتوا على ما دار في هذا المشهد. بـــيد ان مركبتها التي ظنت انها سمعتها وهي تبتعد صوب احياء الخدم، قد توارت عـــن الانظار على نحو غامض. في الحقيقة، توارى كل شيء عن الانظار، الطريق والمنظر الطبيعي (الشبيه لسبب ما بطريق غريت درايف المؤدي الى قلعة وندسور)[109] كـــل شـــيء، كل شيء اختفى. لم يعد هناك سوى الفضاء – والاشد هولا، فضاء مفترس. واخذت السلالم التي ارتقتها السيدة بولتيني واحدة واحدة تختفي هي الاخـــرى. ولم تبقَ سوى ثلاث ثم اثنتين، ثم واحدة. ولم تعد السيدة بولتيني تقف على اي شيء. وسمعت وهي تقول بوضوح: «ان السيدة كوتون وراء هذا كله». ثم هـــوت، مـــندفعة، ومنـــستفخة، مثل غراب اصيب باطلاقة، حيث كان ينتظرها سيدها الحقيقي.

---

(109) قلعة وندسور: مقر اقامة الاسرة الملكية الانكليزية منذ عهد وليم الفاتح (1027 - 1087). (المترجم)

45

الا ينهضُ فيّ انسانٌ جديد
وينتهي بذلك الانسان الذي هو انا!

تينسيون: مود 1855

الان، وبعد ان انهيت هذه الرواية نهاية تقليدية تماما، اجد الافضل ان اوضح انه على الرغم من حدوث كل ما اتيتُ على وصفه في الفصلين الاخيرين، فإن ذلك لم يحدث على النحو الذي ربما دفعتكَ الى تصديقه.

ذكرتُ في وقت سابق اننا كلنا شعراء، على الرغم من ان الكثيرين منا لا يكتبون الشعر؛ كذلك فاننا كلنا روائيون، اي، لدينا عادة كتابة مستقبل متخيل لحياتنا، على الرغم من اننا ربما نميل اليوم اكثر الى تجسيد حياتنا في احد الافلام السينمائية. فنستعرض في اذهاننا افتراضات عمّا يمكن ان يكون عليه سلوكنا، عمّا يمكن ان يحدث لنا، وغالبا ما يكون لهذه الافتراضات الروائية او السينمائية تأثير في كيفية تصرفنا في الوقع، عندما يصبح المستقبل الحقيقي حاضرا، اكبر مما نسمح به عادة.

لم يكن تشارلز ليشكل اي استثناء؛ والصفحات الاخيرة القليلة التي قرأتها ليست هي ما حدث، بل كانت هي الاشياء التي قضى الساعات بين لندن واكستر يتخيل امكانية حدوثها. من المؤكد انه لم يفكر تماما في الاسلوب السردي المفصّل، المتماسك الذي وظّفته، كما انني لا اقسم بانه تابع حياة السيدة بولتيني بعد مماتها بمثل هذه الدقة المثيرة للانتباه. غير انه، من المؤكد، تمنى ان تكون من نصيب الشيطان، وهذا تحقق نفس الشيء تقريبا.

قبل هذا كله، شعر انه وصل إلى نهاية المطاف في القصة، الى نهاية لم ترقه. ولو انك لاحظت في ذينك الفصلين الاخيرين مفاجأة، افتقارا الى المطابقة، خيانة لامكانيات تشارلز الدفينة، ومسألة بسيطة متمثلة في انه مُنح حياة تقارب القرن وربع القرن، ولو انك شعرت بالارتياب، وهو ارتياب ليس غير مألوف في الادب، ان نفس الكاتب قد انتهى وانه انهى السباق نهاية اعتباطية في حين لا يزال يخامره

الاحساس بأنه رابح، فلا تلقِ باللائمة عليَّ، لأن كل هذه الاحاسيس، او انعكاساتها، كانت حاضرة في ذهن تشارلز. فسِفْرُ وجوده، كما بدا له، اوشك ان يصل الى خاتمة رثة كما يتضح.

والانا، ضمير المتكلم، ذلك الكيان الذي وَجَدَ مثل هذه الاسباب المعقولة ظاهريا غير انها باطلة لدفع سارة الى ظلال النسيان، لم يكن انا، بل هو تجسيد لا مبالاة هائلة محددة في الاشياء التي وضعت الخمول الخبيث في جانب ايرنستينا من الميزان؛ لقد تبدَّى ذلك اتجاها الى امام لا يُقاوم، ثابتا مثل القطار الذي جر تشارلز معه.

لم يكن مخادعا عندما قلت ان تشارلز قرَّر ان يَمضي قُدُما في زواجه في اثناء وجوده في لندن في ذلك اليوم الذي اعقب نزقه، كان ذلك هو قراره الرسمي، تماما مثلما كان قراره الرسمي ذات يوم قد يكون رد فعله هو التعبير الادق ان ينخرط في الكهنوت. اما النقطة التي عمدت فيها الى التضليل فتتمثل في تحليل الاثر الذي ظلت تحدثه فيه تلك الرسالة المؤلفة من ثلاث كلمات. فقد عذَّبته، استبدَّت به، واثارت اضطرابه. وكلما فكَّر فيها، عادت سارة الى الظهور امامه ثانية وهي التي يرتاب في انها هي التي ارسلتها. فقد كانت متطابقة وكل تصرفاتها الاخرى، ولا يمكن وصفها الا بالارداف الخُلْفيّ (تناقض ظاهري بين عبارتين لإثارة الإعجاب)، الابتعاد المغري، البساطة الذكية، التوسل المتكبر، الاتهام المدافع. لقد كان العصر الفكتوري مولعا بالاسهاب؛ لم يألف التباس المعنى.

الا انه قبل كل شيء تبدى امام تشارلز واضعا امامه خيارا؛ وفي حين كَرِهَ جزءٌ واحدٌ منه اضطراره للخيار، فاننا نقترب من سر حالته في تلك الرحلة الى جهة الغرب لما نعلم ان جزءا اخر منه شعر بانفعال لا يحتمل يراوده لدى اقتراب لحظة الخيار. لم يكن ليعرف المصطلحات الوجودية. غير ان الاحساس الذي انتابه كان في الحقيقة قضية في منتهى الوضوح، الا وهي قضية قلق الحرية - اي، الادراك ان المرء حر والادراك ان كون المرء حرا ليست سوى حالة رعب.

اذا لنطرح سام بعيدا عن مستقبله المفترض ونعود الى حاضره في اكستر. فنراه يذهب الى مقصورة سيده لدى توقف القطار.

- هل سنمكث الليلة هنا يا سيدي؟

يتفرس تشارلز فيه برهة وجيزة، ثمة قرار لا بد من اتخاذه، ويرفع بصره لينظر الى السماء الملبَّدة بالغيوم من وفق رأسه.

- اظنها ستمطر. سنأوي الى فندق السفينة.

وهكـــذا وقف سام، الاكثر غنى بالالف جنيه إنكليزي التي لم يمتلكها، بضع دقائـــق وســـيده خارج المحطة، يراقب وضع امتعة تشارلز فوق سطح عربة مهلهلة يجرها حصان واحد. اظهر تشارلز قلقا واضحا، واخيرا ربطت حقيبة السفر الكبيرة ومُثِلَ كل شيء بين يديه.

- اظـنني ســأرتاح قلـــيلا يا سام بعد رحلة القطار اللعينة. هل ستهتم بامر الامتعة؟

غار قلب سام.

- بكل احترام يا سيد تشارلز لن افعل ذلك. فالغيوم توشك ان تتفجر.

- لن يؤذيني قليل من المطر.

بلع سام ريقه، وانحنى.

- نعم يا سيد تشارلز. اني وسعي اصدار الامر باعداد الطعام؟

- نعـــم... اي... ســـأرى ذلـــك عندما اصل. ربما احضر صلاة المساء في الكاتدرائية.

انطلـــق تشارلز يرتقي التل في اتجاه المدينة. راقبه سام مكتئبا برهة وجيزة، ثم التفت الى الحوذي.

- ايه؟ اسمعت بفندق اسرة انديكوت؟

- نعم.

- اتعرف اين هو؟

- نعم.

- حـــسنا. خـــذني الى فندق الـسفينة، فربما يطرق سمعك شيء يفيدك ايها الرجل.

ركـــب سام العربة باعتداد مناسب بالنفس وسرعان ما تجاوزت هذه تشارلز الـــذي كـــان يسير سيرا وئيدا كأنه يتمشى لاستنشاق الهواء الطلق. غير انه حث خطاه حالما توارت العربة عن الانظار.

كـــان ســـام يملـــك الكثير من الخبرة في التعامل مع الحانات الريفية الهادئة. انــــــزلت الامتعة، واختيرت افضل الغرف، واشعل الموقد، ووضعت ملابس النوم في مكانها اسوة ببقية الحاجيات؛ كل ذلك في سبع دقائق. ثم خرج يخطو خطوات واســـعة صـــوب الشارع حيث كان الحوذي في الانتظار. وحدثت رحلة اخرى قصيرة. نظر سام وهو في داخل العربة نظرة حذرة من حوله ثم ترجل ونقد الحوذي اجرته.

– اول منعطف الى اليسار يا سيدي.

– شكرا لك يا رجل. هذه اكراميتك.

ومنح الحوذي اكرامية تافهة حتى في مفهوم اكستر لضآلتها ثم نكس قبعته من فـــوق عينـــيه وغاب في الظلمة. وفي منتصف الشارع الذي سار فيه وفي مواجهة الـــشارع الذي اشار اليه الحوذي، شاهد الكنيسة الميثودية منتصبة بأعمدتها المهيبة. وتـــسلل المخبر السري وراء احد هذه الاعمدة. كان الوقت بداية الليل الذي هبط مبكرا من تحت السماء السوداء الرمادية.

لم يضطر سام الى الانتظار طويلا. فقد وثب فؤاده لمرأى شخص طويل القامة يـــبدو للعيان. خاطب الشخص صبيا صغيرا وهو حائر على ما يظهر. وسرعان ما قاد الصبـــي الشخص الى الركن القريب من سام، واشار الى المكان اشارة اكسبته اكثر من بنسين، افصحت عنها ابتسامته العريضة.

توارى ظهر تشارلز عن الانظار، ثم توقف ورفع بصره الى الاعلى؛ سار بضع خطـــوات الى الوراء صوب سام. ثم استدار كأنه نافذ الصبر، ودخل احد البيوت. تـــسلل سام من وراء عموده، وهبط السلالم، وعبر الشارع الذي يوجد فيه فندق اسرة انديكوت. انتظر برهة قرب الناصية، غير ان تشارلز لم يظهر ثانية. ازداد سام شجاعة، وسار على امتداد جدار المستودع المواجه لصف من البيوت. ووصل الى نقطـــة يستطيع منها مشاهدة رواق الفندق. كان الرواق خاليا كما كان عدد من الغرف مضيئا. مرت خمس عشرة دقيقة وعندئذ انهمرت الامطار.

عـــضَّ سام اظافره برهة وجيزة وقد انتابته الافكار الجامحة. ثم بدا يحث خطاه مبتعدا.

46

اه، رغم ذلك، عندما يكون كل شيء قد تم التفكير فيه وقيلَ،
لا يزال القلب يهيمن على الرأس،
ولا يزال ما نأمله واجبَ التصديق،
وما نُعطى اياه واجبَ الاخذ،

لا يزال يتحتم علينا التصديق، لاننا لا نزال نأمل
بأن في عالم اكثر اتساعا،
ما بُدئ هنا باخلاص
سيكمل دون تعطيل.

لا بد لنا يا طفلتي من التفكير، اذ عندما
نرى معا تلك الحياة الاوسع،
ستظهر نتائج صحيحة
لما نحن عليه، معا، هنا.

اي. إتش. كلف قصيدة 1849

تـــردد تـــشارلز في الرواق الرث، ثم طرق باب احدى الغرف وكان مفتوحا قليلا ينبعث منه الضوء. طلب اليه الدخول فوجد نفسه في مواجهة صاحبة الفندق. قبل ان يتمكن من تقديرها بلمحة نظر، اسرعت هي بتقديره: لا ريب انه نـــزيل يبحث عن غرفة اجرتها خمسة عشر شلنا. لهذا ابتسمت ابتسامة عرفان.

– غرفة يا سيدي؟

– لا. انني... انني ارغب في الحديث الى احدى... الى انسة تدعى وودراف.

سرعان ما انقلبت ابتسامة السيدة انديكوت الى عبوس. فانخلع قلب تشارلز.

– انها ليست...

– اه، الـــسيدة الشابة المسكينة. لقد هبطت الى الطابق السفلي يوم اول امس صباحا، ثم زلت قدمها يا سيدي. لقد لوت كاحلها على نحو رهيب. وتورم حتى بـــات كـــالعظم الكبير. اردت استدعاء الطبيب يا سيدي، الا انها رفضت ذلك.

صحيح ان الكاحل الملتوي يعود الى حالته الطبيعية دون علاج. كما ان اجرة الاطباء باهظة.

نظر تشارلز الى طرف عصاه.

- اذا لا يمكنني ان اراها.

- اوه. يا الله؟ في وسعك ان تصعد الى الطابق العلوي يا سيدي. وسيرفع ذلك من معنوياتها. اني وسعي القول انك احد اقربائها؟

- انني مضطر الى رؤيتها في مسألة عمل.

ازداد احترام السيدة انديكوت.

- اه... محام؟

تردد تشارلز، ثم قال:

- نعم.

- عليك ان تصعد اذا يا سيدي.

- اظن... هلا اخبرتها ان كان الافضل تأجيل زيارتي حتى تشفى؟

شعر بارتباك تام. وتذكر فارغون. الخطيئة تقع في السر. لقد جاء للاستفسار لا اكثر، وكان يأمل في لقائها في حجرة في الطابق السفلي - في مكان ما، اليف وعام. ترددت المرأة العجوز، والقت نظرة سريعة على صندوق مفتوح قرب الجزء العلوي الاسطواني من المكتب، وقررت على ما يبدو ان المحامين انفسهم ربما كانوا لصوصا؛ وهو احتمال من شأنه الا يكون موضع خلاف عند الذين يضطرون الى الحصول على اجرهم. وصاحت دون ان تتحرك من مكانها وبصوت قوي منادية فتاة تدعى بيتي ان.

ظهرت بيتي ان للعيان، وارسلت وهي تحمل بطاقة زيارة. اختفت بعض الوقت تعيّن في خلالها على تشارلز ان يبعد عددا من المحاولات الاستفزازية لمعرفة مهمته. واخيرا عادت بيتي ان، وطلبت منه الصعود الى الطابق العلوي. سار من وراء الخادمة البدينة صوب الطابق العلوي، ودلّته على مكان الحادثة. كانت السلالم شديدة الانحدار بلا ريب. وفي تلك الايام، كانت النسوة يتعرضن الى السقوط دوما حيث لم يكن في استطاعتهن حتى رؤية موضع اقدامهن.

وصلا الى احد الابواب في نهاية ممر كئيب. واعلن عن وصول تشارلز على نحو جاف في حين شرع قلبه يدق اسرع مما تطلبته السلالم الشديدة الانحدار.

- السيد يا انسة.

خطا داخل الغرفة. كانت سارة تجلس قرب الموقد وفوق كرسي قبالة الباب، واضعة قدميها فوق كرسي بلا مساند وغطتهما وغطت ساقيها كذلك ببطانية ويلزية حمراء اللون. كان اللفاع الاخضر يحيط كتفيها، غير انه لم يُخفِ حقيقة انها كانت ترتدي قميص نوم بكمين طويلين. كان شعرها منسابا فوق كتفيها الخضراوين. تبدّت له اكثر ضآلة؛ خجلة على نحو مدمَّر. لم تبتسم. بل اطرقت ونظرت الى يديها، بعد ان القت نظرة خاطفة عند دخوله اول مرة كأنها تائبة خائفة، واثقة من غضبه، قبل ان تحني رأسها ثانية. وقف وهو يحمل قبعته بيد، وعصاه وقفازه بيده الاخرى.

- كنت مارا ببلدة اكستر.

احنت رأسها على نحو اشد من السابق بمزيج من الفهم والخجل.

- اليس الافضل لي الذهاب واستدعاء طبيب؟

قالت وهي تنظر الى حضنها:

- لا، ارجوك. فمن شأنه ان ينصحني بعمل ما عملته توا.

لم يتمكن من تحويل بصره عنها - بعد ان شاهدها مقصوصة الجناحين، مريضة على هذا النحو (على الرغم من ان وجنتيها كانتا شديدتي الاحمرار)، يائسة، وبعد ذلك الرداء النيلي الخالد - اللفاع الاخضر، ذلك الشعر الغزير الذي لم يكشف على هذا النحو من قبل. وتسللت الى منخري تشارلز رائحة مرهم باهتة.

- الا تتألمين؟

هزت رأسها نافية.

- ان اقدامي متعودة على ارتكاب مثل هذا العمل... لا ادري كيف تعين عليّ ان اكون غبية هكذا.

- على اي حال، اشكري الله ان ذلك لم يحدث عند الجرف.

- نعم.

لاحت مرتبكة تماما بسبب وجوده، فاختلس نظرة الى ارجاء الغرفة الصغيرة. كانت النار تنبعث من الموقد وكانت هناك بعض سيقان زهور النرجس في قدح

توبـــي فـــوق حافة الموقد. غير ان حقارة الاثاث كانت واضحة على نحو مؤلم وكانـــت المـــا مضافا. وكان السقف ملطخا ببقع من دخان منبعث من المصباح الـــزيتي، شأنه في ذلك شأن الكثير من البقايا الشبحية للكثير من شاغلي الغرفة في الماضي.

- ربما ينبغي لي...

- لا، ارجوك. تفضل بالجلوس. سامحني. فانا... انا... لم اتوقع...

وضـــع حاجياته فوق صوان الثياب، وجلس على الكرسي الخشبـــي الوحيد الاخـــر قـــرب المنضدة في الجهة الاخرى من الغرفة. كيف يتعين عليها ان تتوقع الشيء الذي استبعده تماما على الرغم من رسالتها؟ حاول ان يجد عذرا ما.

- لقد ارسلتِ عنوانك الى السيدة ترانتر؟

هزّت رأسها نافية. صمت، حملق تشارلز في السجادة.

- ارسلته اليّ فقط؟

احـــنت رأســـها ثانـــية. فأومأ بدوره كأنه فطن لذلك. ثم خيّم الصمت من جديد، في حين ضربت زخة مطر غاضبة الواح النافذة من ورائها.

قال تشارلز.

- هذا ما اتيت للحديث عنه.

انتظـــرت، الا انه لم يواصل كلامه. مرة اخرى تُثبّت عيناه على عينيها. كان قمـــيص النوم مزررا حتى الرقبة وعند الرسغين. واكتسى لونه الابيض بلون وردي تحـــت ضوء الموقد اذ لم يكن ضوء المصباح فوق المنضدة القريبة منه ساطعا جدا. وكـــان شعرها الذي يعززه اللفاع الاخضر مفعما بالحيوية في الاماكن التي يسقط علـــيها ضـــوء الموقد، كان غموضها كله، هذه الذات الحميمة جدا، قد تكشفت قبالـــته: متكبرة ومستسلمة، مقيّدة وطليقة، عبدة ونديدة. كان يعرف سبب مجيئه: لرؤيتها ثانية. كانت رؤيته اياها ضرورة، مثل ظمأ لا يحتمل لا بد من اروائه.

ارغـــم نفسه على ان يشيح بوجهه. غير ان عينيه ابصرتا الحوريتين العاريتين المـــصنوعتين من الرخام والموضوعتين فوق حافة الموقد. واكتست الحوريتان ايضا بلون وردي بفعل الضوء الدافئ المنبعث من البطانية الحمراء. لم يقدما له اي عون، وتحركت سارة قليلا مما دفعه الى النظر اليها ثانية.

كانت قد رفعت يدها بسرعة الى رأسها المحني، ومسحت اصابعها شيئا ما عن وجنتها، ثم استقرت فوق حنجرتها.

- ارجوك لا تبكي يا عزيزتي الانسة وودراف... ما كان ينبغي لي المجيء... لم اقصد...

غير الها هزّت رأسها بحماسة مفاجئة. منحها بعض الوقت لتستعيد وضعها. وفي حين كانت تمسح بمنديلها استبدّت به رغبة جنسية عارمة، شهوة اكبر الف مرة من اي شيء راوده في حجرة المومس. لعل بكاءها الضعيف هو الاختراق الذي ولدت منه المعرفة؛ الا انه ادرك فجأة سبب استحواذ وجهها عليه، وسبب شعوره بهذه الضرورة الهائلة لرؤيتها ثانية: كان يريد امتلاكها، ان ينصهر فيها، ان يحترق، ويحترق ويحترق حتى يتحول الى رماد في ذلك الجسد وفي تلك العينين. من الممكن تأجيل مثل هذه الرغبة اسبوعا، شهرا سنة، بل حتى بضع سنوات، اما الى الابد فهو ما لا يُطاق.

قلما تناهت الى السمع كلماتها التالية التي ارادت بها تفسير دموعها.

- ظننت انني لن اراك ثانية.

لم يستطع ان يخبرها الى اي مدى اقتربت من حقيقته. رفعت بصرها اليه وسرعان ما خفضته. وعصفت به تلك الاعراض الغامضة الخاصة بالغثيان التي مرت به في مخزن الغلال. تسارع نبض قلبه، وارتعشت يده. وعلم انه لو نظر الى تلك العينين لضاع. فاغمض عينيه كأنه يريد حظرهما.

كان الصمت الذي اعقب ذلك رهيبا، متوترا مثل جسر يوشك ان ينشطر، برج يوشك ان يهوي، لا يحتمل لما فيه من عواطف، حقيقته تتفجر كأنها تريد الكلام. وفجأة تساقط بعض الفحم من الموقد. وقد سقط في معظمه فوق الحافة الواقية المنخفضة، غير ان قطعة او قطعتين وثبتا فوق حافة البطانية التي كانت تغطي ساقي سارة. وسرعان ما هزت قدميها في حين جثا تشارلز سريعا وامسك المجرفة الصغيرة الموجودة في الدلو النحاسي. واعيد الفحم المتساقط فوق السجادة الى مكانه على جناح السرعة. الا ان البطانية احترقت ببطء، فامسك بها، وطرحها بعيدا فوق الارض، واطفأ الشرر. امتلات الغرفة برائحة الصوف المحترق حرقا خفيفا. كانت احدى ساقي سارة فوق الكرسي الصغير، اما الساق الاخرى فوضعتها على الارض.

كانــت قــدماها عاريتين. نظر الى اسفل صوب البطانية، واطمأن الى عدم وجود اي جمــرات بأن ضربها بيده ضربة او ضربتين، ثم التفت، ووضعها ثانية فوق ساقي سارة. كـــان منحنيا على مقربة منها وهو ينظر الى الترتيب. وهنا امتدت يدها على استحياء، واستراحت فوق يده بحركة غريزية لم تستطع ان تحسبها. كان يعرف الها تنظر اليه. لم يتمكن من تحريك يده. وفجأة لم يستطع ان يبعد عينيه عن عينيها.

ثمــة عــرفان فيهما، وكل الحزن القديم، وقلق غريب، كأنها كانت تعلم انها تــؤذيه. الا انها قبل كل شيء، كانت تنتظر. خجلة الى ما لا نهاية، لكنها منتظرة. لــو بانت على شفتيها ابتسامة واهنة، لتذكر ربما نظرية الطبيب غروغان. غير ان هــذا الــوجه لاح مندهشا تمام الدهشة، ضائعا مثلما هو ضائع. لم يعرف الى اي مــدى ظل كل واحد منهما ينظر في عيني الاخر. دهرا كاملا على ما يبدو، على الرغم من انها ليست سوى ثلاث او اربع ثوانٍ في الحقيقة. انهمكت ايديهما اولا، فتــشابكت الاصابع على نحو غامض، ثم خر تشارلز على احدى ركبتيه، وضمها بوله الى صدره. التقى الفمان بعنفوان جامح صدم كل واحد منهما، وجعلها تبعد شــفتيها. غمر وجنتيها، عينيها بالقبلات. واخيرا لمست يده ذلك الشعر، وداعبته، تحسست الرأس الصغير من خلال نعومته مثلما كان يتحسس جسدها ذي الملابس الخفيفة تحت ذراعه وصدره. وفجأة دفن وجهه في رقبتها.

- يجب الا... يجب الا.. هذا جنون.

غــير ان ذراعيها احاطتا به، وضغطت على رأسه اكثر. لم يتحرك. شعر انه محمــول علــى اجنحة من نار، مندفعا، لكن في مثل هذا الهواء الرقيق، اشبه بطفل تحرر اخيرا من المدرسة، سجين في حقل اخضر، صقر محلق. رفع رأسه ونظر اليها: ثمــة عــنفوان وحــشي. ثم تبادلا القبلات ثانية. الا انه ضغط عليها بقوة جعلت الكرســي يندفع قليلا الى الوراء. شعر بها وهي تجفل من الالم عندما هوت قدمها المــربوطة بالــضماد من فوق الكرسي. نظر الى قدمها، ثم الى وجهها، الى عينيها المغمضتين. اشاحت بوجهها بعيدا صوب مؤخرة الكرسي، كأنه اثار نفورها، بيد ان صدرها ظهر وهو يتقوس على نحو يتعذر ادراكه باتجاهه في حين تشبثت يداها بيديه على نحو مصحوب بالتشنج. القى نظرة سريعة الى الباب من ورائها، ثم وقف وخطا خطوتين حتى بات الى جانبه.

لم يكن ليضيء حجرة النوم سوى ضوء الغسق ومصابيح الشارع الضعيفة في الجهة المقابلة. بيد انه شاهد سرير النوم الرمادي والمغسلة. وقفت سارة مرتبكة عند الكرسي، واسندت نفسها الى ظهرها، ورفعت القدم المصابة عن الارض في حين هوى احد طرفي اللفاع عن كتفها. كان كل واحد منهما يعكس العنفوان المستبد في عيني الثاني، يعكس الطوفان، الانجراف امامه. وبدت وهي تخطو نصف خطوة وتوشك ان تسقط وهي تسير نحوه. قفز من مكانه الى الامام وطوقها بذراعيه. سقط اللفاع فوق الارض. لم يبقَ بينه وبين جسدها العاري سوى غلالة رقيقة. ضمَّ ذلك الجسد بقوة الى صدره، ضاغطا فمه فوق فمها بكل ما لديه من جوع سببه الاحباط الطويل - ليس جوعا جنسيا فقط، بل جوع سببه تيار لا يمكن السيطرة عليه من اشياء محظورة، من الرومانسية، المغامرة، الخطيئة، الجنون، الحيوانية، كل هذه الاشياء تدفقت تدفقا وحشيا في اعماقه.

هوى رأسها الى الوراء بين ذراعيه كأنها قد اغمي عليها عندما رفع اخيرا شفتيه عن فمها. رفعها قليلا الى اعلى ثم حملها الى حجرة النوم. فاستلقت حيث وضعها فوق السرير، مغميا عليها تقريبا واحدى ذراعيها الى الوراء. امسك يدها الاخرى وقبلها بحرارة بالغة. فداعبت وجهه. جذب نفسه وهرول الى الحجرة الاخرى. شرع يخلع ملابسه على نحو اهوج، سريع، كأن شخصا ما يغرق وهو واقف عند الضفة. انخلع احد ازرار سترته، وتدحرج صوب احد اركان الغرفة، الا انه لم ينظر حتى ليعرف المكان الذي وصل اليه. خلع صدريته، حذاءه، جوربيه، سرواله ولباسه الداخلي... مشبك رباطه اللؤلؤي ورباطه. اختلس نظرة الى الباب الخارجي، ثم ذهب ليقفل الباب بالمفتاح، وتقدم عاري الساقين لا يرتدي سوى قميصه الطويل داخل عرفة النوم.

كانت قد تحركت قليلا، اذ كان رأسها فوق الوسادة الان، على الرغم من انه في الجزء الاعلى من السرير ووجهها الى احد الجانبين لا يتمكن من رؤيته بسبب خصلة داكنة من شعرها. وقف يراقبها لحظة وهو متأجج العاطفة...

- اوه، يا عزيزتي. اوه يا عزيزتي، يا ملاكي الحبيب... سارة... سارة... اوه يا سارة.

استلقى ساكنا بضع لحظات. مرت تسعون ثانية تماما منذ ان تركها ليتفحص غرفة النوم.

47

ابتعد عنا، كما ابعدت ديدو[110] بإشارة صارمة
صديقها الخادع في حادس[111]
اطردنا بعيدا، واحتفظ لنفسك بالانعزال!

ماثيو ارنولد: الغجري التلميذ 1853

صمت

اســـتلقيا كأنهما مشلولان بسبب فعلتيهما. متجمدين في الخطيئة، متجمدين بالنشوة. كان تشارلز اشبه بمدينة ضربت من اعلى السماء الهادئة بقنبلة ذرية؛ اذْ لم يشعر بحزن رقيق ينتابه اثر الجماع، بل شعر برعب شامل على الفور. لقد دُمِّر كل شـــيء تدميرا تاما، كل المبادئ، كل المستقبل، كل الايمان، كل العزم الشريف. الا انه على الرغم من ذلك ظل على قيد الحياة، فهو يستلقي في احضان حياته العذبة، انـــه الـــرجل الاخـــير الذي بقي حيا، المعزول الى ما لا نهاية... غير ان الاشعاع الـــراديوي بالذنب سرعان ما بدا يزحف، يزحف في اعصابه وعروقه. وفي الظلال النائـــية، كانـــت ايرنـــستينا تقف محملقة بحزن اليه. اما السيد فريمان فضربه على وجهه... الى اي حدّ تجمدا في مكانيهما، متصالبين بحق، ينتظران دون حراك.

تحـــرك قليلا ليخلص سارة من ثقله، ثم ولاها ظهره كي تستطيع ان تضطجع مستندة اليه ورأسها يتكئ على كتفه. حملق في السقف. يالها من فوضى، يالها من فوضى يصعب التعبير عنها!

قَـــرَّبها اليه اكثر، فمدت يدها على استحياء وطوقته، توقف المطر. وقع اقدام ثقـــيلة، بطيـــئة، محسوبة، مرت في مكان ما من تحت النافذة. ربما ضابط شرطة. القانون.

---

(110) ديـــدو: ملكـــة قرطاجة في انياذة فرجيل التي تُضيف اينيس بطل الانياذة وتقع في غرامه لكنه يخدعها ويرحل عنها فتنتحر لدى رحيله. (المترجم)

(111) حادس: العالم السفلي اي مثوى الاموات في الميثولوجيا الاغريقية. (المترجم)

قال تشارلز.

– انا اسوأ من فارغون.

كـــان جوابها الوحيد الضغط على يده كأنها تنكر ذلك وتريد اسكاته الا انه رجل.

– ما الذي سيحدث لنا؟

– لا استطيع التفكير في ما وراء الساعة هذه.

ضـــغط على كتفيها ثانية، وقبل جبينها، ثم حملق ثانية في السقف. كانت في ريعان الصبا الان، في غمرة النشوة.

– لا بد لي من فسخ خطوبتي.

– لا اطلب منك اي شيء. فانا لا استطيع ذلك واللوم يقع عليَّ.

– لقد حذرتني. لقد حذرتني. انا الذي اتحمل اللوم كله. كنت اعلم لما اتيت الى هنا... اخترت ان اكون اعمى. وضعت كل التزاماتي ورائي.

غمغمت.

– لقد رغبت في ذلك.

قالتها بحزن ثانية.

– لقد رغبت في ذلك.

مسَّد شعرها برهة وجيزة، فسقط على كتفها، وجهها، ساترا اياها.

– سارة... انه اجمل الاسماء.

لم تجـــب. مرت دقيقة ويده تصقل شعرها، كأنها طفلة. غير ان ذهنه كان في مكان اخر. فقالت اخيرا كأنها احست بما يدور فيه.

– اعلم انك لا تستطيع ان تتزوجني.

– لا بد من ذلك. فانا ارغب في الزواج. ولن استطيع النظر الى وجهي ثانية اذا لم افعل ذلك.

– كنتُ شريرة. طالما تخيلت طويلا يوما كهذا. انا لا اصلح زوجة لك.

– يا عزيزتي...

– ان مكانـــتك في العالم، اصدقاءك، و... وهي؛ اعرف انها لا بد ان تكون هائمة بك. كيف تسنى لي الا اعرف مشاعرها؟

– الا انني لم اعد احبها بعد الان!

تركت حماسته تتلاشى في الصمت.

– انها جديرة بك. اما انا فلست كذلك.

اخـــيرا شرع يدرك ما تقول. تركها تلتفت ثم نظرا من خلال الضوء الخافت في الخـــارج الى عيني بعضهما بعضا الظليلتين. كانت عيناه تمتلئان رعبا، اما عيناها فكانتا هادئتين تبتسمان ابتسامة شاحبة.

– لا يمكنكِ ان تعني ان عليَّ الانصراف، كأن لا شيء قد حدث بيننا.

لم تقل شيئا. الا انه قرأ في عينيها ما كانت تعنيه. رفع نفسه قليلا واتكأ على مرفقه.

– لا يمكنكِ ان تغفري لي الى هذا الحد، او تطلبـــي مثل هذا الطلب اليسير.

دفنت رأسها في الوسادة، عيناها تنظران الى مستقبل مظلم.

لم لا ان كنت احبك؟

ضمَّها الى صدره. وترقرقت الدموع في عينيه لفكرة مثل هذه التضحية. يا له مـــن ظلم الحقه بها هو نفسه وغروغان. انها انسان انبل من كليهما. اجتاح تشارلز احتقار جارف لبني جنسه: لتفاهتهم، لسذاجتهم، لانانيتهم. الا انه ينتمي الى ذلك الجـــنس. وقد حلّ به شيء من جبنهم المراوغ الموغل في القدم: الا يمكن ان تكون هـــذه لذته الاخيرة؟ الانغماس الاخير في لهو الشباب وعبثه؟ غير انه ما ان فكّر في ذلك حتى شعر انه اشبه بقاتل اخلي سبيله لخطأ فني في قضية الدعوى. في الامكان ان يقف طليقا خارج قاعة المحكمة، الا انه مذنب الى الابد في اعماقه.

– اشعر انني غريب عن نفسي تماما.

– شـــعرت بـــنفس الشعور. وهذا سببه اننا ارتكبنا الخطيئة. ولا نستطيع ان نصدق اننا اخطأنا.

تكلمت كأنها تحدق الى ليل لا نهاية له.

– كـــل مـــا اتمناه لك هو السعادة. اعرف الان انك يوما ما احببتني حقا. استطيع ان اسمع... ان اسمع اي فكرة... سوى انك مُتَّ.

رفع نفسه قليلا ثانية، والقى نظرة اليها. كانت ثمة ابتسامة شاحبة في عينيها، معـــرفة عميقة؛ اجابة روحية او نفسية لمعرفته الجسدية اياها. لم يشعر يوما ما انه

قريب هكذا، وعلى وفاق مع امرأة. انحنى وقبلها قبلة نابعة من حب بريء اكثر من ذلـــك الحـــب الذي بدأ يعلن عن نفسه ثانية، عند الاتصال العاطفي بشفتيها، وفي اعماقـــه. كان تشارلز يشبه الكثير من الرجال الفكتوريين. فهو لم يستطع حقا ان يـــصدق ان اي امـــرأة نبيلة في عواطفها تستطيع ان تستمتع بكونها وعاء لشهوة الذكـــر. لقـــد عـــابَ توا حبها له على نحو لا يرحم؛ يجب الا يحدث ذلك ثانية. والوقت – لم يعد يقوى على البقاء مدة اطول! فجلس منتصبا.

– المرأة في الطابق السفلي... وهناك خادمي ينتظرني في الفندق. اتوسل اليك ان تمنحيني مهلة يوم او يومين، فانا لا استطيع التفكير بما سأفعله الان.

اغمضت عينيها. وقالت.

– لست جديرة بك.

تفرس فيها برهة وجيزة، ثم غادر السرير، واتجه صوب الحجرة الاخرى.

هناك ضربته صاعقة!

ففـــي حين كان ينظر الى اسفل وهو يرتدي ثيابه لاحظ وجود لطخة حمراء في اسفل الطرف الامامي من قميصه. وفكر برهة ان لا بد قد جرح نفسه الا انه لم يـــشعر بأي الم. تفحص نفسه سريعا، ثم امسك بالجزء العلوي من الكرسي وهو يحملق في باب حجرة النوم – لقد ادرك فجأة ما من شأن عاشق اكثر خبرة او اقل عنفوانا ان يدركه حالا.

لقد فض بكارة عذراء.

كانت هناك حركة في الغرفة من ورائه. كان في دوامة، مذهولا، الا انه على الرغم من ذلك، ارتدى ثيابه بعجالة مفرطة. وتناهى الى سمعه صوت ماء يُفَرَّغ في حوض ورنّة الخزف الصيني عند انـــزلاق الصابونة. انها لم تستسلم لفارغون. لقد كذبت. كان سلوكها كله، ودوافعها كلها في بلدة لايم ريجيس قائمة على كذبة. لكن ما هو الهدف؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

ابتزاز!

لوضعه تحت سيطرتها تماما.

كـــل الـــشيطانات المسيطرات على استحلام الذكور، مخاوفهم من المؤامرة الانـــثوية الكـــبرى لامتصاص الرجولية من عروقهم، لافتراس مثاليتهم، صهرتهم

وحولـــتهم الى شمـــع وقولبتهم حسب اهوائهن الشريرة... هذه الافكار، وافكار العـــودة الى معقولية الدليل المخيف المقدم في دعوى لارونسييه ملأت ذهن تشارلز برعب لا يوصف.

توقـــف صوت الغسيل المكتوم، وسمعت اصوات اخرى خفيضة؛ افترض انها عـــادت الى الـــسرير. وقـــف يحملق في النار وهو بكامل ملابسه. كانت مجنونة، شريرة، طوقته باغرب شبكة... لكن لماذا؟

ثمـــة صوت، التفت، وكانت افكاره مرتسمة في منتهى الوضوح على وجهه. كانت واقفة قرب عتبة الباب مرتدية ثوبها النيلي القديم وشعرها لا يزال مسترسلا، الا ان شـــيئا من ذلك التحدي القديم ظل يشوبها: تذكر لحظة ذلك الوقت الذي صادفها فيه اول مرة وهي واقفة فوق تلك البقعة المطلة على البحر وحملقت فيه. لا بـــد انها عرفت انه قد اكتشف الحقيقة؛ مرة اخرى توقعت بالتهمة التي تراود ذهنه فقضت عليها.

كررت نفس كلماتها السابقة.

- لست جديرة بك.

فصدقها الان. وهمس:

فارغون؟

- لمـــا ذهـــبت الى المكان الذي سبق ان اخبرتك به في ويماوث، كنت بعيدة قليلا عن الباب... وقد شاهدته يخرج بصحبة امرأة. امرأة من النوع الذي لا يمكن ان يخطئ به اي انسان.

تجنبت النظر الى عينيه الثاقبتين.

- تواريت قليلا، ولما انصرفا، غادرت المكان.

- لكن لماذا قلتِ...

انتقلت فجأة صوب النافذة. فسكت. لم تكن تعرج. لم يكن هناك اي كاحل ملتوٍ. اختلست نظرة الى نظرته المنطوية على اتهام جديد، ثم ولّته ظهرها.

- نعم. لقد خدعتك. الا انني لن ازعجك ثانية.

- لكن ماذا... لماذا تعين عليك ان...

مجموعة من الالغاز.

نظرت اليه وجها لوجه، في حين بدأت الامطار الغزيرة خارجا. كانت عيناها ثابتتين، وعاد اليها تحديها السابق، الا انها ظلت محتفظة بشيء رقيق، شيء يذكره، انه قد امتلكها توا. انها نفس المسافة البعيدة، لكنها مسافة اكثر رقة.

– لقد منحتني سلوى الاعتقاد بانني قد اكون زوجة لك في عالم اخر، في عصر اخر، في حياة اخرى، لقد منحتني القوة لأواصل الحياة... في هذا الزمان وهذا المكان.

اقل من عشرة اقدام (ثلاثة أمتار) تفصل بينهما، الا انها تبدت مثل عشرة اميال.

– هناك شيء واحد لم اخدعك فيه. لقد احببتك... منذ اللحظة الاولى التي رأيتك فيها، كما اعتقد. لم اخدعك في هذا الامر قط. الشيء الذي خدعكَ هو عزلتي. الازدراء، الحسد، لا اعرف. لا اعرف.

ثم التفتت ثانية الى النافذة والى المطر.

– لا تطلب مني ان اوضح ما فعلت، فأنا لا استطيع ان افسر ذلك. انه امر غير قابل للتفسير.

حدّق تشارلز الى ظهرها في اثناء الصمت المشحون. ومثلما شعر قبل قليل بانجراف صوبها، شعر الان بانجراف بعيد عنها؛ وفي كلتا الحالتين، تتحمل هي اللوم.

– لا اقبل هذا الكلام. لا بد من تفسير.

الا انها هزّت رأسها بالنفي.

– ارجوك اذهب الان. انني اصلي من اجل سعادتك، ولن اقلقها ثانية قط.

لم يتحرك. بعد لحظة او لحظتين التفتت اليه، وقرأت على ما يتضح فكرته الغامضة مثلما كانت قد فعلت في السابق. كانت ملامحها هادئة، قدرية.

– الامر كما اخبرتك من قبل. انني اقوى مما قد يتصور اي رجل. وستنتهي حياتي عندما تقرر الطبيعة ذلك.

تحمل رؤيتها بضع ثوانٍ اخرى، ثم التفت صوب عصاه وقبعته.

– هذه مكافأتي، لقاء مساعدتي، لقاء المغامرة بالشيء الكثير لكي... والان اعلم انني لست سوى مغفل من صنع خيالك.

- الـــيوم فكرت في سعادتي الشخصية، ولو قدِّر لنا ان نلتقي ثانية، فانني لا اســـتطيع الا الـــتفكير في ســـعادتك. لن تكون سعيدا معي. فانت لا تستطيع ان تتزوجني يا سيد سميثسون.

كانـــت العودة الى النبرة الرسمية موجودة جدا. نظر اليها نظرة قاتلة، الا انها كانت قد ولته ظهرها كأنما توقعت ذلك. فتقدم خطوة صوبها.

- كيف تستطيعين مخاطبتي على هذا النحو؟

لم تقل شيئا.

- كل ما اطلبه منكِ هو ان تسمحي لي بأن افهم...

اتوسل اليك. انصرفْ.

التفـــتت الـــيه. ظهر الاثنان لحظة واحدة مثل مجنونين. اوشك تشارلز على الكـــلام، علـــى ان يقفز الى امام، على ان ينفجر، الا انه دون تحذير، استدار على عقبيه، وغادر الغرفة.

48

اعتقد بها حقيقة مع من غنّاها
على انغام قيثارة واضحة متنوعة النغمات
بأن البشر سينهضون من اجداثهم الميتة
لاشياء بالغة السمو.

تينيسون: احياء لذكرى 1850

تظاهـــر بمظهـــر رسمـــي وهـــو يهبط السلالم الى الرواق. كانت السيدة انديكـــوت واقفـــة قـــرب باب مكتبها، فاغرة فاها، توشك ان تتكلم. الا ان تشارلز مرّ من امامها وهو يقول على نحو مؤدب «شكرا لك يا سيدتي». ليلفه الظـــلام بعد ذلك قبل ان تتمكن من السؤال او ملاحظة افتقار سترته إلى احد الازرار.

ســـار مبـــتعدا على نحو اعمى وسط زخة جديدة من المطر. ولم يلحظ تلك الـــزخة مـــثلما لم يلحظ المكان الذي يقصده. كانت رغبته العظمى هي الظلام، الاخـــتفاء، النسيان الذي يستعيد فيه الهدوء. الا انه توغل دون دراية في ذلك الحي السيئ السمعة في اكستر الذي سبق لي وصفه. وكما هو شأن معظم الاحياء السيئة الـــسمعة، فقـــد كـــان هذا الحي يضج بالنور والحياة: بالمحلات والحانات، بالناس اللائـــذين من المطر الى عتبات الابواب. سلك شارعا ينحدر انحدارا مفاجئا صوب نهـــر اكس وشاهد صفوفا من درجات ملطخة بالقاذورات على جانبـــي الساقية الوســـطية المختنقة بالمياه. الا ان المكان هادئ. لاحت له عند نهاية الشارع كنيسة صغيرة مشيدة بالحجارة الحمراء عند المنعطف. وعلى حين غرة شعر تشارلز بحاجته الى ملاذ. فدفع بابا صغيرا منخفضاً على نحو اضطره الى الانحناء قليلا كي يدخل. ثمـــة درجات ترتفع الى مستوى ارضية الكنيسة التي تعلو مستوى مدخل الشارع. وكـــان راعـــي الكنيسة الشاب يقف فوق قمة هذه الدرجات مخفضا وهج اخر مصباح ومندهشا لهذه الزيارة المتأخرة.

– اوشكت ان اقفل الباب يا سيدي.

- أفي وسعي طلب السماح بالصلاة بضع دقائق؟

زاد الراعـــي من وهج المصباح، وامعن طويلا في النظر الى هذا الزائر المتأخر. انه سيد نبيل.

- بيتي في الجهة الاخرى من الطريق. وهناك من ينتظرني ارجو ان تتكرم بقفل الباب نيابة عني واحضار المفتاح.

انحنى تشارلز في حين هبط راعي الكنيسة السلالم ووقف الى جانبه.

- الـــسبب هـــو الاسقف. في رأيي ان بيوت الله يجب ان تظل مفتوحة دومـــا. الا ان ادوات المائـــدة لدينا قيمة جدا. زمن عصيب هذا الذي نعيش فيه.

هكـــذا وجـــد تشارلز نفسه وحيدا في الكنيسة. وسمع صوت وقع خطوات راعـــي الكنيسة في الجهة الاخرى من الشارع، ثم اقفل الباب العتيق من الداخل، وارتقى الدرج صوب الكنيسة. انبعثت رائحة طلاء حديث في حين اضاء المصباح الغـــازي الوحيد على نحو واهن التذهيب الجديد. الا ان الاقواس القوطية العظيمة ذات اللـــون الاحمـــر المعتم اظهرت ان الكنيسة موغلة في القدم. جلس تشارلز في منتـــصف الممـــر الرئيس وحدق فوق المذبح: جثا على ركبتيه وتمتم بالصلاة. ثم تشبثت يداه بحاجز الصلاة قبالته.

تفجر الصمت القاتم والفراغ حالما تفوه بكلمات الصلاة. وبدأ يؤلف دعاء خاصـــا يليق بظروفه: «اغفر لي يا الله بسبب انانيتي. اغفر لي عصياني اوامرك. اغفر لي اغتصابـــي الفتاة. اغفر لي افتقاري الى العفة. اغفر لي عدم رضاي عن نفسي. اغفر لي افتقاري الى الايمان بحكمتك واحسانك. اغفر لي واهدني يا الله في محنتي».

بفعل احدى التوريات البائسة الناجمة عن عقله الباطن المشوش برز وجه سارة امامـــه، مـــبللا بالدمـــوع، معـــذبا...، وشـــاهدها في مدن كولمار، وكوبلنـــز وكولـــون... واخـــرى لا يتذكرها. شرد ذهنه ثوانيَ معدودة بحثا عن اسم المدينة المنـــسية التي تبدأ بالحرف (سي). نهض وجلس ثانية فوق المصطبة. يالها من كنيسة خاويـــة، صامتة! حملق، وحاول ان يستأنف دعاءه، لكن بلا فائدة. عرف انه غير مسموع، فأجهش بالبكاء فجأة.

ثمة احساس عميق بالعزلة، بجائزة محجوبة، ينتاب كل الناس سوى بعض الملحدين واللاأدْريين الفكتوريين (يقود تلك النخبة المتطرفة برادلاف)[113] ربما كانوا بين اصدقاء مـــن هـــم علـــى شاكلتهم يسخرون من حماقات الكنيسة، نعراتها الطائفية، اساقفتها المسرفهين، كهنـــتها المخادعين، قساوستها المتغيبين(*) ورعاتها القليلي المرتبات ولاهوتها المـــوغل في القدم وما اشبه... فبين قسوة عصرنا وخطيئتنا اقمنا صرحا هائلا من العون والـــرعاية بـــادارة حكومية، ونظّمت اعمال البر والاحسان. الا ان الفكتوريين عاشوا اكثـــر قربا من تلك القسوة؛ وشعر الاذكياء والحساسون انهم شخصيا اكثر مسؤولية من غيرهم؛ وهكذا بات يصعب، في الازمة العصبية، رفض رمز الرحمة الشامل.

لم يكـــن تشارلز في اعماقه يرغب في ان يكون لاأدْريا. ولما لم تكن به حاجة البتة الى اي ايمان فقد تعلم ان يستغني عنه وهو سعيد تماما. اما عقله...، فقد اعلمه انـــه على حق في الاستغناء عن العقيدة. لكن ها هو الان على الرغم من ذلك، لا يبكـــي من اجل سارة بل من اجل عجزه عن مخاطبة الله. كان يدرك ان الاسلاك مقطعة في تلك الكنيسة المظلمة وان اي اتصال غير ممكن.

انـــبعث صوت عالٍ وسط الصمت. التفت ومسح عينيه باحد كميه. الا ان اي شـــخص حـــاول الدخول عرف فيما يبدو ان الكنيسة مغلقة الان؛ كان الجزء الـــرافض من تشارلز هو الذي خرج. وقف على قدميه، وشرع يذرع الممر الكائن بـــين المـــصاطب جيـــئة وذهابـــا واضعا يديه وراء ظهره. شعر ان اسماء وتواريخ منقرضـــة، البقية الباقية من حياتنا المتحجرة، تحدق به على نحو مستغلق من شواهد

---

(113) تـــشارلز برادلاف (1833 - 1891): مفكر بريطاني راديكالي متطرف وملحد نهج منهج فولتيـــر وتـــوماس بـــين وعـــرف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدعوته الى الحـــريات الفـــردية. فـــي الفترة الاخيرة من حياته عارض الاشتراكية وتحول الى الفكر المحافظ. (المترجم)

(*) مـــن الـــذي في وسعه ان يوجه اللوم لهم في حين يقدم رؤوساؤهم مثل هذا النموذج؟ لقد اشـــار راعـــي الكنيسة قبل قليل الى الاسقف وهو الدكتور فيلبوتس اسقف اكست - الذي اصـــبحت فيما بعد كل ديفن وكورنوول تحت رعايته - الذي يعد نموذجا لهذه الحالة. فقد قضى السنوات العشر الاخيرة من حياته في مسكن مريح في توركواي وقيل انه اساء ذات مـــرة لكاتدرائيتـــه فـــي اثناء ذلك العقد الاخير من الزمن. وكان اميرا مدهشا من امراء الكنيسة الانكليزية – كل جزء منه يوحي بالرجعية المولعة بالخصام والمشاكسة، ولم يمت الا بعد عامين من السنة التي نحن فيها الان. (المؤلف)

القبور المطمورة في الارض. لعل سيره جيئة وذهابا وسط هذه الشواهد، الاحساس الـــضئيل بالالحاد وهو يفعل ذلك، لعل لحظات يأسه الماضيه اعادت اليه في النهاية الهـــدوء والصفاء. وبدأ حوار يدور بين نفسه الخيّرة ونفسه الشريرة - او ربما بينه وبين ذلك الشخص المفروش الجناحين في الظلال في نهاية الكنيسة.

- من اين أبدأ؟
- ابدأ بما فعلت يا صديقي. وتوقف عن التمني بانك لم تفعله.
- لم افعل ذلك. لقد دفعت الى فعله.
- ما الذي دفعك الى فعله؟
- لقد خُدعتُ.
- ما هو القصد من وراء الخديعة؟
- لا ادري.
- غير انك يجب ان تقرر.
- لو كانت تحبني حبا صادقا لما تركتني اذهب.
- لو كانت تحبك حبا صادقا، اكان في وسعها مواصلة خداعك؟
- لم تترك لي اي خيار. لقد قالت شخصيا ان زواجنا مستحيل.
- ما المسوغ الذي قدمته؟
- اختلافنا في المركز الاجتماعي.
- سبب نبيل.
- ثم هناك ايرنستينا. لقد وعدتها وعدا صادقا.
- لقد نكثته توا.
- سأصلح ذلك.
- بالحب؟ ام بالخطيئة؟
- لا يهم بايهما. الوعد مقدس.
- اذا كان لا يهم ايهما، فلا يمكن للوعد ان يكون مقدسا.
- واجبـــي واضح.
- تـــشارلز، تـــشارلز، قرأت افكارك في العينين القاسيتين. الواجب ليس سوى دعاء، وهو يحتوي على اي شيء تضعه فيه، بدءا بالشر المستطير وانتهاء بالخير العظيم.

– لقد تمنت ان ارحل. كان في وسعي رؤية ذلك في عينيها – انه الاحتقار.

– اني وسعي اخبارك ما الذي يفعله الاحتقار في هذه اللحظة؟ ان بكاءها يقطع نياط القلب.

– لا استطيع العودة اليها.

– اتظن ان الماء قادر على غسل ذلك الدم من احشائك؟

– لا استطيع العودة اليها.

– اكنت مضطرا الى لقائها في الجرف ثانية؟ اكنتَ مضطرا الى التوقف هذه الليلة في اكستر؟ اكنتَ مضطرا الى الذهاب الى غرفتها؟ الى ترك يدها تستريح فوق يديك؟ اكنتَ...

– اقر واعترف بهذه الاشياء! لقد اخطاتُ. الا انني وقعت في مصيدتها.

– لِمَ انتَ متحرر منها الان اذا؟

لم يجب تشارلز بشيء. جلس ثانية فوق مصطبة، وشابك اصابعه بعنفوان مستقد، كأنه يريد ان يحطم عظام اصابعه، محدقا، محدقا الى الظلمة. الا ان الصوت الاخر ما كان ليسمح له بذلك.

– ربما هناك شيء واحد تحبه اكثر منك يا صديقي. والشيء الذي لا تفهمه هو انها يجب ان تعطيك الشيء الذي تحبه اكثر لأنها تحبك حبا صادقا. سأخبرك عن سبب بكائها: لأنك تفتقر الى الشجاعة في اعادة هديتها اليها.

– اي حق تملكه في تعذيبي عذابا شديدا؟

– اي حق تملكه في ان تولد؟ في ان تتنفس؟ في ان تكون ثريا؟

– ساعطي قيصر[114] ما لـ...

– او السيد فريمان؟

– تلك تهمة دنيئة.

– او اليّ. اهذا هو وفاؤك؟ هذه المسامير التي تدقها في راحتيّ؟

– مع شديد احترامي؛ ايرنستينا ايضا لها راحتان.

– اذا لنمسك واحدة ونقرأها. لا اجد اي سعادة. انها تعلم انك لا تحبها حبا صادقا. انها مخدوعة. ليس مرة واحدة، بل مرات ومرات، في كل يوم من ايام الزواج.

---

(114) اشارة الى نصيحة يسوع للناس ان يعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله. (المترجم)

وضـــع تـسشارلز يده فوق الحاجز قبالته، ودفن رأسه فيه. شعر انه في معضلة متمـــثلة في تيار من التردد: الواضح تقريبا، ليس السلبـــي بل الفعَّال، الذي يدفعه الى الامام، صوب مستقبل يختاره التردد لا هو.

– فتش عن قلبك يا تشارلز المسكين. عندما اتيتَ الى هذه المدينة ظننت – او لـــيس كذلك؟ – انك ستثبت لنفسك انك لست بعد في سجن مستقبلك. الا ان الهـــرب ليس هو الفعل الوحيد يا صديقي. في كل دقيقة ينتظر المسمار من سيدقّه. وانت تعلم ما هو خيارك. ابقَ في السجن، في المكان الذي يدعوه عصرك الواجب، الـــشرف، احتـــرام الـــذات وعـــندئذ تكون مطمئن البال. او كن حرا. رفاقك الوحيدون هم الحجارة، الاشواك، الظهور المدْبِرة، صمت المدن وحقدها.

– انا ضعيف.

– بل خجلٌ من ضعفك.

– ما الفائدة التي ستحققها قوتي للعالم؟

لا جـــواب. غـــير ان شـــيئا ما جعل تشارلز ينهض عن المصطبة. وينظر من احـــدى النوافذ الخشبية الى... فوق المذبح، وبعد تردد تقدم داخل الباب الوسطي واجتاز مقاعد الجوقة ومن ثم الى الدرج المؤدي الى منضدة المذبح... .

ظهـــر وهـــو واقـــف في مكانه كأنه يشاهد مجمل عصره، بما فيه من حياة مضطربة، حقائق ثابتة، اعراف صارمة، عواطف مكبوتة وفكاهة ظريفة، علم حذر ودين غير حذر، سياسات فاسدة وطبقات غير قابلة للتغيير، مثل العدو الهائل الخفي لكـــل لوعـــته الدفينة. ذلكم هو الشيء الذي خدعه، وهو بلا حب ولا حرية... تلكم هي الحلقة المفرغة التي استبدَّت به، ذلكم هو الاخفاق، الضعف، السرطان، المـــثلب الاساس الذي اوصله الى ما كان عليه: ترددٌ اكثر منه واقعٌ، حلم اكثر منه انسان، صمتٌ اكثر منه كلمةٌ، عظمٌ اكثر منه فعلٌ. ومتحجرات!

اصبح مثل ميت في حين لا يزال على قيد الحياة.

انه اشبه ما يكون قد وصل الى هوة لا قرار لها.

شـــيء ما اخر: ثمة احساس غريب ينتابه منذ ان دخل تلك الكنيسة – وهو ليس احساسا خاصا بتلك الكنيسة بل حسّا داخليّا ينتابه كلما دخل الكنائس الخالية – بانه ليس وحيدا. ثمة حشد من المصلين يقف من ورائه. التفت ونظر الى صحن الكنيسة.

صمت. مقاعد شاغرة.

فكـــر تـــشارلز: لو كانوا حقا موتى، لو لم تكن هناك حياة بعد الموت، لماذا ينبغـــي لي ان اهتم بوجهة نظرهم فيَّ؟ ليس في وسعهم ان يعرفوا، ليس في وسعهم ان يقرروا.

ثم وثـــب وثبته الكبرى: انهم لا يعرفون، فليس في وسعهم ان يقرروا. ان ما كـــان يرمي به جانبا كان قد استبد عصره وألحق به ضررا بليغا. وقد اوضح ذلك كل الايضاح تينيسون في المقطع الخمسين من قصيدة (احياء لذكرى[115] ارثر هنري هالم) اصغِ له:

اتمنى حقا ان يكون الموتى
على مقربة منا، الى جانبنا؟
اليست ثمة خسة ينبغي لنا اخفاؤها؟
ولا رذيلة داخلية نخشاها؟

هل الذي اسعى من اجل استحسانه،
والذي يجلتُ كل التبجيل تأنيبه،
يرى بعين واضحة بعض العار الخفي
واحظى انا بحبه؟

انني اظلم القبر بمخاوف غير صحيحة:
أيلام الحب لافتقاره الى الايمان؟
لا بد من حكمة بالموت العظيم
سيتفحّصني الموتى مرارا عن كثب.

(115) (احـــياء لذكرى ارثر هنري هالم): رائعة الفرد لورد تينيسون (1809 - 1892) التي كتبها حزنا على موت صديقه المفاجئ ارثر هالم وهو في الثانية والعشرين من عمره وكـــان مـــوته سببا دفع الشاعر الى الشك في معنى الحياة ودور الانسان في الكون. (المترجم)

كن قريبا منّا عندما نسمو او نهوي
انت تراقب، كالاله، الساعات المنصرمة
بعينين اخريين اكبر من عيوننا
وتغفر ما نقترفه جميعا من هفوات.

«لا بـد من حكمة بالموت العظيم، سيتفحّصني الموتى مرارا عن كثب». ثار كـيان تـشارلز كلـه ضد هذين الافتراضين، ضد هذه الرغبة المخيفة للعودة الى المستقبل، بعينين مثبتتين على اسلاف المرء المتوفين بدلا من ابناء المرء غير المولودين بعد. كان هذا الايمان السابق بحضور الماضي حضورا شبحيا قد دانه - دون معرفة منه البتة - وحكم عليه بقضاء حياته في القبر.

علـى الرغم من ان هذه الافكار تبدو مثل قفزة صوب الالحاد... إلا أنها خلصته... خلاصا جزئيا ان لم يكن كليا. سار تشارلز ببطء ثانية صوب صحن الكنيـسة موليا ظهره النقوش الخشبية اللامبالية. شرع ثانية يخطو المكان جيئة وذهابـا، مثبتا عينيه في البلاط. وكان الشيء الذي رأه الان يشبه لمحة من عالم اخـر: واقعا جديدا، علة جديدة، خلقا جديدا. وانهمر شلال من صور ثابتة - فـصل اخر من سيرته الذاتية المفترضة ان شئت - في ذهنه. وفي لحظة تسامي مماثلـة، في وسـعك ان تستحضر السيدة بولتيني، وقد هبطت، وتخلصت من عبوديـتها الـتامة للسيدة كوتون بعد ثلاث دقات من ساعة حجرة الاستقبال الرخامية والمذهّبة. سأكون قد اخفيتُ الحقيقة اذا ما احجمتُ عن الايضاح بأن تشارلز فكّر في هذه اللحظة في عمه. وهو لن يلقي باللائمة على السير روبرت بـسبب زواج فاشل ورباط غير جدير بالاسرة. الا ان من شأن عمه ان ينحو باللائمة على نفسه. وهنا وثبت صورة اخرى الى ذهنه: السيدة بيلا في مواجهة سـارة، ورأى ايهمـا قد تخرج اكثر كرامة، لأن ايرنستينا ستحارب باسلحة الـسيدة بـيلا، امـا سارة... فبتلك العينين اللتين ستبلعان الشتائم والترفع: تستقبلها بصمت! تجعلها تتلاشى لتصبح لا شيء سوى ذرات هباب في السماء اللازوردية!

كذلك اكساء سارة! اخذها الى باريس، الى فلورنسا، الى روما.

... توقــف تشالرز - وقد ولىّ للاسف، ظهره المذبح ثانية - وبدا نوع من الاشــراق في وجهــه. لعل ذلك سببه ضوء المصباح الغازي فوق السلالم؛ انه لم يترجم الاسباب النبيلة بل المجردة التي مرّت في ذهنه على نحو جذاب. الا انني اؤمل انــك ستصدق بأن سارة كانت تقف قريبة منه، بغض النظر عن ابتذالها، من اجل الجوهر الحقيقي للحرية القاسية والضرورية في آن واحد؛ اذا ما شئنا البقاء على قيد الحياة، نعم، حتى اليوم.

استدار، وعاد الى مصطبته، وفعل شيئا غير عقلاني تماما، فقد جثا على ركبتيه وصلى صلاة قصيرة. ثم سار حتى نهاية الممر، وجذب السلك الى الاسفل حتى بات المصباح الغازي شاحبا، وغادر الكنيسة.

49

لا احتفظ سوى برجل وخادمة، على استعداد للافتراء والسرقة...

تينيسون: مود 1855

عثر تشارلز على بيت راعي الكنيسة فقرع الجرس. فتحت الباب خادمة، غير ان الشاب تراءى من ورائها بشاربيه وهو يسير في الرواق. تراجعت الخادمة في حين تقدم سيدها الى امام ليتسلم المفتاح الثقيل القديم.

- شكرا لك يا سيدي. انني احتفل بالعشاء الرباني في الساعة الثامنة من صباح كل يوم. استمكث طويلا في اكستر؟

- لا، انا في رحلة وقد مررت بها.

- كنت اتمنى لو اراك ثانية. اليس في وسعي تقديم اي مساعدة اخرى؟

ثم اشار القزم الشاب المسكين صوب باب يقع مكتبه وراءه بلا ريب. لقد سبق ان لاحظ تشارلز شيئا من التباهي في اثاث الكنيسة ومفروشاتها. وعرف انه مدعو الى الاعتراف.. فقد كان راعي الكنيسة هذا واحدا من الشبان الذين ولدوا بعد انقضاء الانشقاق الديني[116] واخذوا الان يضيعون وقتهم على نحو عابث - ولكن مأمون - (طالما ان الدكتور فيلبوتس هو الكنيسة العليا المؤكدة على الطقوس والعناصر التقليدية) بالطقوس الدينية والجبب، وهو مظهر شائع من مظاهر الافراط في الهندام الديني. اختبره تشارلز برهة وجيزة ولم اطراف شجاعته وازداد ثقة بنفسه: لن يكون الامر اكثر حماقة من هذا. لهذا انحنى ورفض ثم سار في طريقه. لقد أُحِلّ من الدين القائم بقية حياته.

ربما تظن ان طريقه ذلك لا بد ان يقوده مباشرة الى فندق اسرة انديكوت. مما لا ريب فيه ان الرجل المعاصر سيعود مباشرة الى هناك. الا ان احساس تشارلز الملعون بالواجب واللياقة انتصب مثل اسوار قلعة ضده. كان اول

(116) يقصد به الانشقاق الديني الناجم عن نظام مبادئ الكنيسة الذي وضع في مجموعة كراسات دينية في اوكسفورد (1833 - 1841) وعرف باسم حركة اوكسفورد. (المترجم)

واجباته تطهير نفسه من التزاماته السابقة، واذ ذاك فقط يستطيع ان يقدم نفسه ليعرض المساعدة.

شـــرع يدرك سر خداع سارة. كانت تعلم انه يحبها، وكانت تعلم انه اعمى لا يعــرف عمـــق ذلـــك الحب. وكانت روايتها المفبركة عن اغواء فارغون لها، ووســـائلها الاخـــرى المضللة، ليست سوى مكائد لتبصيره. وكل ما قالته بعد ان جعلـــته يصل مرحلة الادراك ليس سوى اختبار رؤيته الجديدة. لقد اخفق اخفاقا بائـــسا. ثم استخدمت نفس المكائد دليلا على حقارتها. من اي نبل تنبع مثل هذه التـــضحية الذاتية؟ كم تمنى لو كان في وسعه ان يقفز الى الامام ويضمها الى صدره ثانية، ويخبرها انها ملكه على نحو لا جدال فيه.

كـــان في وسعه ان يضيف الا انه لم يضف، لو لم يكن هناك ذلك الانقسام القـــدري الى قـــسمين بـــين الفكتوريين (لعله النتيجة الاكثر رعبا هي هوسهم في التـــصنيف الى درجـــات) الذي دفعهم الى رؤية **الروح** على انها اكثر حقيقة من الجسد، وانها هي نفسها الحقيقية الوحيدة. التي قلما ترتبط بالجسد، بل تطفو عاليا فـــوق البهـــيمة، وهي على الرغم من ذلك، وبفعل خطأ يتعذر تفسيره في طبيعة الاشياء، تُسحب على مضض في اعقاب حركة البهيمة، مثل بالون اسير ابيض من وراء طفل عاق شائن.

ان حقـــيقة امـــتلاك كل فكتوري عقلين اثنين واحدة من الادوات التي يجب علينا دوما ان نصحبها معنا في رحلتنا الى القرن التاسع عشر. انها فصام الشخصية الـــتي نـــراها علـــى اوضح ما يكون، واسوأ ما يكون، في الشعراء الذين غالبا ما استـــشهدت باقتباســـاتهم - عند تينيسون وكلف وارنولد وهاردي، الا انها اقل وضوحا في الاتجاهات السياسية الغريبة من اليمين الى اليسار وعند رجال من امثال مـــيل وغلادستون في شبابيهما، في الامراض العصابية والجسدية النفسية الواضحة عـــند المثقفين الذين يختلفون اختلاف تشارلز كنغزلي عن داروِن، في الشتائم التي انهالـــت اولا على ما قبل الرافائيليين الذين حاولوا - او بدوا وهم يحاولون - ان يكونـــوا متحدي الرأي في الفنّ والحياة، في لعبة جر الحبل التي لا تنتهي بين الحرية والانضباط، الغلو والاعتدال، صحة الرأي والايمان، بين صرخة الانسان المبدئي من اجـــل ثقافة شاملة وذعره من حق التصويت الشامل، والشفافية في الهوس من اجل

التحريـــر والتنقـــيح حتى اننا اذا اردنا معرفة ميل الحقيقي او هاردي الحقيقي فاننا نستطيع ان نتعلم من عمليات الحذف والتبديل في سيرهم الذاتية اكثر مما نتعلم من الطبعات المنشورة... نتعلم اكثر من الرسائل التي سلمت من الحرق، من المذكرات الخاصة، من نثار عمليات الاخفاء. ان السجل لم يكن يمثل هذه الدرجة الكاملة من التشوش، ولم تمر واجهة على هذا النحو من النجاح مثل الحقيقة الخاصة بجيل سهل الانخـــداع يصدق كل ما يُقال له؛ وفي رأيي، يشكل هذا افضل دليل الى عصر هو من المحتمل تماما عصر (دكتور جيكل والسيد هايد)[117]. فمن وراء المظهر القوطي المتأخر تكمن حقيقة عميقة تكشف النقاب عن مرحلة من مراحل الزمن.

لكـــل فكتوري عقلان. وهذا ينطبق على تشارلز على الاقل. فقد شرع وهو يـــسير في شـــارع فـــور صوب فندق **السفينة** يردد الكلمات التي من شأن بالونه الابيض ان يرددها عندما شاهد الطفل الشرير سارة ثانية، الحوار العاطفي والمشرّف الذي من شأنه ان يجعلها تبكي بامتنان والاعتراف بأن ليس في وسعها العيش دونه. رأى ذلـــك كلـــه رؤية واضحة اجد نفسي مدفوعا الى تسجيلها هنا. الا ان واقعا يتبدى بصورة سام واقفا عند باب الحانة القديمة، قد برز امامه:

- الصلاة مقبولة يا سيد تشارلز؟

- لقد... لقد اضعت طريقي. وتبللت حتى النخاع.

لم تكن تلك العبارة لتلائم ما تشاهده عينا سام.

- املأ لي حوض الاستحمام ايها الانسان الطيب، وسأتعشى في غرفتي.

- نعم يا سيد تشارلز.

بعـــد خمس عشرة دقيقة، في وسعك ان تشاهد تشارلز عاريا كما ولدته امه منهمكا في عمل غير مألوف، الا وهو الغسيل. فقد ضغط ثيابه الملطخة بالدم على حافـــة حوض الاستحمام الكبير المنخفض الجوانب الذي ملأه سام بالماء، وانهمك بفركها بقطعة من الصابون. شعر انه احمق وانه لم يُحسن عمله. ولّما حضر سام بعد مضي مدة من الوقت حاملا صينية العشاء، كانت الثياب مرمية باهمال، نصفها في حـــوض الاستحمام ونصفها الاخر خارجه. فما كان من سام الا ان جمعها دون

---

(117) دكـــتور جيكل والسيد هايد: رواية الكاتب الاسكتلندي المعروف روبرت لويس ستيفنسون (1850 - 1894) الذي يعد احد اعلام ادب المغامرات. (المترجم)

ابـــداء اي ملاحظة، وفي هذه المرة لا غير، كان تشارلز ممتنا له لاهماله المعروف في مثل هذه الامور.

وبعد ان فرغ من عشائه، فتح محفظة الكتابة الخاصة به.

«يا اعز الناس،

نـــصفي سعيد على نحو لا يوصف وانا اخاطبكِ على هذا النحو في حين ان نـــصفي الاخـــر يتساءل كيف يمكن له ان يتحدث عن مخلوقة لم يفهمها الا فهما قليلا؟ شيء ما فيك يا ليتني اعرفه معرفة حقة، وشيء ما، اخر، اجهله منذ اول يوم رأيـــتك فيه. اقول هذا القول لا لاعتذر عن سلوكي هذا المساء، بل لأفسِّره. انا لا اســـتطيع ان اعذره الا انني يجب ان اعتقد بانه كان هناك اسلوب واحد يمكن ان يوصف به على انه محظوظ لأنه عجل في البحث في ضميري الذي تأخر عن ميعاده طـــويلا. لـــن اخوض في كل التفاصيل والظروف. الا انني عازم كل العزم، ايتها الحبيـــبة الغامضة سارة، على ان يكون الرباط الذي يربطنا الان رباطا ابديا. لست ادرك ادراكا تاما سوى انني لا املك الحق في رؤيتك ثانية، ناهيكِ عن الطلب كي اعرفك معرفة كاملة في ظل ظروفي الراهنة. لهذا فإن اول مقتضياتي فسخ خطوبتي.

ثمة هاجس غامض يلازمني منذ وقت طويل بأن من الحماقة الدخول في تلك الترتيبات، حتى قبل ان تدخلي حياتي. لهذا، اتضرع اليك الا تشعري بالذنب ازاء هـــذا الامـــر. ان الـــشيء الذي يستحق اللوم هو الجهل في اعماقي بكل ما يخفي طبيعتي الحقيقية. لو كنت اصغر سنا بعشر سنوات، لو لم اشاهد الكثير وانا في هذا الـــسن وهذا المجتمع الذي لا اتعاطف واياه، فمما لا ريب فيه انني سأكون سعيدا والانـــسة فريمان. كانت غلطتي متمثلة في انني نسيت انني في الثانية والثلاثين لا في الثانية والعشرين.

لهذا سأقوم في وقت مبكر من يوم غد برحلة عذاب الى بلدة لايم. وستقدِّرين ان تحقـــيق غرضـــها هـــو الفكرة المستحوذة على ذهني في هذه اللحظة. غير ان واجبـــي في ذلك الصدد قد انتهى، وستكون جلّ افكاري متجهة اليك، لا بل الى مستقبلنا. انا لا اعرف اي قدر غريب هذا الذي رماني اليك. لكن، بمشيئة الله، لن يأخذك شيء مني الا اذا كنتِ انتِ ترغبينَ في ذلك. لا تدعيني اقول شيئا الان، يا لغـــزي الحبيب، اكثر من انكَ مضطرة الى تقديم ادلة وحجج اقوى بكثير مما قدمته

حتى الان. انا لا استطيع ان اصدق انك ستحاولين ذلك. فقلبك يعرف انني ملكك وسأدعوك ملكي.

اهـــناك ضـــرورة، يا عزيزتي، يا عزيزتي سارة، لاطمئنك الى ان اغراضي من الان فـــصاعدا انمـــا هي اغراض شريفة؟ هناك الف شيء اود ان اسألك عنه، الف اهـــتمام اوجهه اليك، الف متعة امنحك اياها، لكن مع الاخذ بعين الاعتبار دوما اي اصول تقتضيها رقتك.

انا الذي لن يعرف السكينة ولا السعادة حتى يطوقك بذراعيه ثانية»

«ش. س»

«ملاحظة: لدى اعادة قراءة ما كتبت وجدت نوعا من المخاطبة الرسمية التي لا يقـــصدها فؤادي. اغفري لي. انت قريبة جدا وغريبة رغم ذلك، انني لا اعرف كيف اعبر عما احس به حقا».

«المولع بك: ش»

لم يـــتم الوصـــول الى هـــذه الرســـالة المتصاعدة الى الذروة الا بعد العديد من المـــسودات. واذ ذاك بات الوقت متأخرا فغيَّر تشارلز من رأيه بخصوص ارسالها على الفـــور. لا بـــد انها الان قد بكت بكاء مرا حتى رقدت. سيجعلها تتعذب ليلة مظلمة اخرى، غير انها ستستيقظ فرحة. اعاد قراءة الرسالة مرات ومرات. كانت تشوبها نغمة ســـبق لهـــا ان اســـتخدمها قبل يوم واحد او يومين في الرسائل المرسلة من لندن الى ايرنـــستينا، غـــير ان كتابة هذه الرسائل كانت هي العذاب بعينه، الاستسلام للتقاليد، وهـــذا مـــا يفسر سبب كتابته تلك الملاحظة. كان لا يزال يشعر انه غريب عن نفسه مثلما اخبر سارة تماما. الا ان هذا الشعور يمتزج الان بمتعة مخيفة دفعت به الى ان يحدق الى وجهـــه في المرآة. شعر بشجاعة فائقة في نفسه، حاليا ومستقبلا، وتفردا، وانه انجز عمـــلا لا مثيل له. ثم هناك رغبته: فهو منطلق في رحلة ثانية، رحلة تضاعفت لذتها بالـــرفيقة الموعـــودة. حـــاول ان يتخيل صورا غير معروفة عن سارة؛ سارة وهي تـــضحك، ســـارة وهي تغني، سارة وهي ترقص. يصعب تصور ذلك، لكنه ليس مـــستحيلا... تذكر تلك الابتسامة التي اوشك عندها ان يكشفهما سام وماري. كانـــت ابتسامة عرَّافة، التوقع بالمستقبل. وفي ذلك الوقت، جعلها تنهض من على ركبتيها - يالها من متعة طويلة، لا تنتهي، سيفعل ذلك الان في حياتهما معا!

اذا كانت هذه هي الاشواك والحجارة التي تهدده، فانه يستطيع تحملها. وعلى الرغم من ذلك، فقد فكر في شوكة واحدة صغيرة: سام. الا ان سام يمكن الاستغناء عنه مثل كل الخدم.

كما يمكن استدعاؤه. لقد استدعي في ساعة مبكرة تدعو الى الدهشة. ووجد تشارلز مرتديا مَبْذَله وفي يديه رسالة مغلقة ورزمة صغيرة.

– ارجو ان تأخذ هذه الاشياء الى العنوان المثبت فوق الظرف يا سام. عليك الانتظار عشر دقائق لتطمئن الى وجود رد. اذا لم يكن هناك اي رد – وانا لا اتوقع اي رد، لكن انتظر لعل وعسى – اذا لم يكن هناك اي رد، عليك الحضور الى هنا مباشرة، لاستئجار عربة سريعة اذ سنذهب الى بلدة لايم.

ثم اضاف.

– لكن بلا حقائب، اذ سنعود الليلة الى هنا!

– الليلة يا سيد تشارلز! انني ظننت...

– لا يهم ما ظننت! نفذ ما قلته لك!

تظاهر سام بمظهر الخادم وانصرف. وفي حين كان يهبط السلالم الى الطابق السفلي اتضح عنده ان مركزه لا يُطاق. كيف يستطيع خوض معركة بلا معلومات؟ بمثل هذه الشائعات الكثيرة المتناقضة المتوفرة عند العدو؟ حدّق الى الظرف في يده. كان العنوان صارخا: الانسة وودراف، فندق اسرة انديكوت. ثم يوما واحدا في بلدة لايم؟ في حين تنتظر حقائب السفر هنا؟ قلب الرزمة الصغيرة في يده، وضغط على الظرف. بدت سميكة. ثلاث صفحات اخيرا. اختلس نظرة من حواليه، ثم فحص الختم. لعن سام الانسان الذي اخترع الشمع.

الان يقف ثانية قبالة تشارلز الذي ارتدى ثيابه.

– حسنا؟

– لا رد يا سيد تشارلز.

لم يستطع تشارلز السيطرة على ملامحه، فاشاح وجهه جانبا.

– والعربة؟

– على استعداد وفي الانتظار يا سيدي.

– حسنا جدا. سأنزل قريبا.

انـــصرف ســـام. ومـــا ان اغلق الباب حتى رفع تشارلز يديه الى رأسه، ثم بـــسطهما الى الجانـــبين كأنـــه يخاطـــب جمهورا، كأنه ممثل يتلقى التصفيق، وقد ارتـــسمت ابتسامة العرفان والتقدير على شفتيه. فلدى اعادة قراءة رسالته في الليلة السابقة للمرة التاسعة والتسعين، اضاف ملاحظة ثانية، وكانت تخص المشبك الذي شاهدناه في يدي ايرنستينا. تضرع الى سارة ان تقبله، وعلى نحو ما، فإن قبولها به كان يعني قبولها اعتذاره عن سلوكه. وقد انتهت الملاحظة الثانية على هذا النحو.

«ســـينتظر حامل الرسالة حتى تفرغي من القراءة. واذا ما يتعين عليه ان يعيد الرزمة... غير انني اعرف انك لست بهذه القسوة».

على الرغم من ذلك، فقد كان المسكين يتعذب في غياب سام.

هـــا هـــو سام ثانية، يثرثر بصوت خفيض، ويلقي بنظرات معذبة متواصلة. المـــشهد في ظلال احراش الليلك النامية خارج باب المطبخ في حديقة الخالة ترانتر، موفـــرة بذلك حاجزا ضمن الحديقة خسب. تميل شمس العصر من خلال الاغصان والـــبراعم البيض. المستمع هو ماري، وقد توردت وجنتاها، في حين غطت يدها فمها باستمرار.

– ليس ممكنا. ليس ممكنا.

– انه عمه. لقد دفعه الى الجنون.

– لكن السيدة الشابة... اه ما الذي ستفعله الان يا سام؟

رفـــع الاثنان بصرهما الى اعلى بذعر، صوب النوافذ التي تعلو فوق الاغصان، كأنهما اعتقدا انهما سيسمعان صرخة او يشاهدان جسدا يهوي.

–نحن يا ماري. ما الذي سنفعله؟

– اوه. يا سام. ليس من الانصاف...

– احبكِ يا ماري.

– اوه يا سام.

– ليس الامر سيئا. انني سأموت حالما افقدك.

– اوه، ماذا سنفعل؟

– لا تبكي يا حبيبتي، لا تبكي. لدي ما يكفي في الطابق العلوي. انهما ليسا بافضل منّا.

امسك بها من ذراعيها.

- اذا كان عليّ ان اختار بينك وبينه، فانني اختارك انتِ.

تصالب مثل جندي يوشك ان يطلق النار.

- سأتخلى عن خدمته.

- سام!

- سأتخلى، وسأعمل في نقل الفحم، في اي شيء.

- وماذا بشأن نقودك؟ الن يعطيك اياها بعد الان؟

- انه لا يملك النقود كي يعطيها.

نظر نظرة مريرة الى ذعرها، غير انه ابتسم وبسط يديه.

- هل لي في ان اخبرك من نحن؟ لو احسنّا انا وانتِ لعب اوراقنا؟

50

وصلا بلدة لايم قبل الساعة الثانية تماما. وبعد دقائق معدودة، كان تشارلز قد وضع يده على الغرفة التي حجزها. ثم شرع يذرع الغرفة جيئة وذهابا، معذبا عذابا فكـــريا هذه المرة، وململما اطراف شجاعته ومتأهبا لمواجهة المقابلة المنتظرة. استبدَّ بـــه الــرعب الوجودي ثانية، لعله كان يعرف به ولهذا فانه قطع على نفسه سبيل الـــرّجعة بارساله تلك الرسالة الى سارة. كرر ثانية العبارات الالف التي صاغها في رحلته من اكستر، الا انها طارت من ذهنه مثل اوراق الخريف. اخذ نفسا عميقا، ثم حمل قبعته وخرج.

فتحت ماري الباب وهي تبتسم ابتسامة عريضة حال رؤيته فما كان منه الا ان مارس وقاره عليها.

– مساء الخير، هل الانسة ايرنستينا موجودة في البيت؟

قـــبل ان تتمكن من الاجابة ظهرت ايرنستينا في اقصى الردهة، وهي تبتسم ابتسامة صغيرة.

– لا. خرجت سيدتي لتناول الغداء، لكن في وسعك الدخول.

توارت عن الانظار في حجرة الجلوس، وناول تشارلز قبعته الى ماري، وعدَّل ياقـــة سترته، وتمنى لو انه ميت، ثم اجتاز الردهة صوب محنته. التفتت ايرنستينا اليه وهي تحت نور الشمس قرب النافذة المطلة على الحديقة.

– تلقيت رسالة من بابا هذا... تشارلز! تشارلز! ما الخطب؟

تقـــدمت صـــوبه في حين لم يتمكن من النظر اليها بل حدّق الى السجادة. توقفت والتقت عيناها المذعورتان بعينيه القلقتين المرتبكتين.

– تشارلز؟

– اتوسل اليكِ ان تجلسي.

– ماذا حدث؟

– هذا ما اتيت لاجله.

– لِمَ تنظر اليَّ هذه النظرة؟

- لانني لا اعرف كيف ابدا الكلام الذي يتعين عليَّ قوله.

مــدَّت يــدها مــن ورائها وهي تنظر اليه، وجلست فوق كرسي قريب من النافذة. لا يزال لائذا بالصمت. لمست رسالة موجودة فوق المنضدة المجاورة لها.

- ان بابا...

الا ان نظرته السريعة جعلتها تتوقف عن اكمال عبارتها.

- كان هو العطف بعينه... الا انني لم اخبره بالحقيقة.

- الحقيقة؟... اي حقيقة؟

- حقيقة انني توصلت بعد ساعات كثيرة من التأمل العميق والمؤلم الى نتيجة مفادها انني لستُ جديرا بك.

شــحب لون وجهها، وظن انها ستقع مغشيا عليها، فتقدم الى الامام ليمسك بها، الا انها مدت يدها ببطء الى ذراعها الايسر كأنما لتشعر انها لا تزال يقظة.

- انت تمزح يا تشارلز.

- انا لا امزح البتة.

- انتَ لست جديرا بــي؟

- لستُ جديرا تماما.

- وانكَ... اوه. هذا كابوس.

رفعت بصرها اليه، ونظرت غير مصدقة، ثم ابتسمت مذعورة.

- لقد نسيتُ برقيتك. انت تمزح.

- انت لا تعرفين الا القليل عني اذا ما ظننتِ ان في وسعي المزاح في مثل هذه المسألة.

- لكن... لكن... برقيتك!

- ارسلتها قبل اتخاذ قراري.

في حين خفض عينيه بدأت اذْ ذاك تقبل الحقيقة، لقد عرف مسبقا انها لا بد ان تكون اللحظة الحاسمة، لو اغمي عليها، او اصابتها الهستيريا... الا انه لم يعرف، لكنه نفر من الالم ولن يفوت الاوان قبل ان يعترف، ان يقول كل شيء، ان يرمي نفسه طالبا رحمتها. لكن على الرغم من ان عيني ايرنستينا ظلتا مغلقتين لحظة طويلة

فإنها لم تغبْ عن الوعي. فهي ابنة ابيها وربما تمنت لو انها فقدت الوعي؛ الا ان مثل هذا الخداع الكبير لـــ...

– اذا ارجوك فسِّر لي ماذا تعني.

انتابته لحظة ارتياح. لقد اصيبت بجرح، لكنه ليس جرحا قاتلا.

– هذا ما لا استطيع قوله بجملة واحدة.

حدقت الى يديها على نحو مرير.

– اذا استخدم جملا كثيرة ولن اقاطعك.

– كـــنت ولا ازال اكنُّ لك احتراما وعاطفة شديدين. و لم اشك لحظة انك ســتكونين زوجـــة مثيرة للاعجاب لاي رجل يكون محظوظا بما فيه الكفاية لنيل حـــبك. الا انني كنت ايضا ادرك دوما وخجلا ان جزءا من تقديري لك يفتقر الى النبل. انني اشير الى الثروة التي ستأتين بها والحقيقة بانك طفلة وحيدة. لقد شعرت دوما في اعماقي يا ايرنستينا ان حياتي بلا هدف، بلا انجاز، لا. ارجوك استمعي اليّ حـــتى الـــنهاية، لما ادركت في الشتاء الفائت انكِ قد ترحبين بعرض الزواج، فإن الـــشيطان اغـــواني. ووجدت بالزواج هذا فرصة لاعادة الايمان الى نفسي. اتوسل الـــيك الا تظـــني انني اسير قدما وفي ذهني حسابات جاهزة. لقد طبتِ لي كثيرا، واعتقدت اعتقادا مخلصا ان هذا سيتحول الى حب.

ارتفع رأسها ببطء، وتفرست فيه غير انها ظهرت غير قادرة على رؤيته.

– لا اســـتطيع ان اصدق ان الذي اسمعه هو انت. انه دجال، قاس، بلا قلب هذا...

– اعرف ان هذا سيكون بمثابة صدمة بالغة.

– صدمة!

بان الاهتياج على ملامحها.

– عندما تقف بمثل هذا الهدوء ورباطة الجاش – لتقول لي انك لم تحبني!

رفعـــت صـــوتها في حـــين اتجه هو صوب احدى النوافذ المفتوحة فاغلقها. وتحدث برفق على مقربة من رأسها المحني، دون ان يضل طريقه.

– انـــا لا ابحـــث عن اي عذر. كل ما اريده هو ان اوضح لك ان جريمتي لم تكـــن جـــريمة محسوبة. ولو كانت كذلك، كيف كان في وسعي ان افعل ما افعله

الان. ان رغبتي الوحيدة تتمثل في جعلك تدركين انني لم اخدع احدا سوى نفسي. سمّني ما شئت: جبان، اناني... اي شيء تريدين سوى غليظ القلب.

اخذت نفسا صغيرا مرتعشا.

- ما الذي دفعك الى هذا الاكتشاف العظيم؟

- ادراكي الذي لا اتنصل من شناعته بأنني اصبت بخيبة امل عندما لم يفسخ والدكِ خطبتنا.

نظرت اليه نظرة فظيعة.

- احـــاول ان اكون نـــزيها. وهو لم يكن في غاية الكرم في موضوع ظروفي المتغيرّة، بل اقترح ان عليّ يوما ما ان اصبح شريكه في العمل.

تألق وجهها ثانية.

- عـــرفت ذلك. عرفت ذلك. السبب هو انك ستتزوج زواج تجارة. الست على حق؟

التفت الى النافذة.

- لقـــد قبلت ذلك تماما. على اي حال - ان الاحساس بالعار من والدك من شأنه ان يكون تعاليا قبيحا.

- ان الحديث عن الاشياء لا يجعل المرء اقل ذنبا.

- لو اعتقدتِ بانني راجعت هذا العرض الجديد، فانت على حق تماما. الا ان الـــرعب كان بسبب عدم استحقاقي ما كان يخططه لي - لا المقترح نفسه. الان دعيني افرغ من ايضاحي.

- ذلك يحطم فؤادي.

التفت صوب النافذة.

- لـــنحاول ان نتمـــسك بذلك الاحترام الذي كان دائما يشدنا الى بعضنا الـــبعض. عليك الا تظني انني فكرت في نفسي فقط في هذا كله. ان الذي يستبد بـــــي هو الظلم الذي سالحقه بك - وبابيك - عندما اتزوجك بلا الحب الذي تـــستحقين. لـــو كنتُ انا وانتِ شخصين مختلفين - الا اننا لسنا كذلك، فنحن نعرف بنظرة، بكلمة، فيما اذا كانَ حبنا متبادلا...

تمتمت.

– ظننت اننا كنا نعرف.

– يا عزيزتي ايرنستينا، الامر يشبه الايمان. في وسع المرء ان يتظاهر بانه يملكه، الا ان التظاهـــر سينتهي وينكشف امره. انني معتقد كل الاعتقاد بانكِ لو بحثت في قلبك لوجدت ان تلك الشكوك الواهية قد انتابته. مما لا ريب فيه انكِ كتمت هذه الشكوك وقلت انه...

غطّت اذنيها، ثم مررت اصابعها فوق وجهها، ثمة صمت. ثم قالت:

– افي وسعي الكلام الان؟

– مؤكدا.

– اعرف انني لم اكن لك سوى قطعة صغيرة جميلة من اثاث غرفة الاستقبال. اعرف انني بريئة. اعرف انني مدللة. اعرف انني لست استثنائية. لست هيلين بطلة طروادة او كليوباترة. اعرف انني اتفوه أحيانا باشياء تزعج سمعك، انني اثير سأمك فيما يخص الترتيبات المنـــزلية، انني احرج مشاعرك عندما اسخر من متحجراتك. ربمـــا لـــست ســـوى طفلـــة. الا انني اعتقدت انني سأصبح افضل في ظل حبك وحمايـــتك... وثقافـــتك... لا بد لي ان اتعلم كي اسعدك، لا بد لي ان اتعلم كي اجعلـــك تحبني لما آلت اليه نفسي. ربما لا تعرف ذلك، لا تستطيع ان تعرف ذلك، لكـــن هذا هو السبب الذي جذبني اول مرة اليك. انت تعرف ان مائة رجل غيرك قـــد حـــام من حولي؛ لم يكونوا كلهم من الباحثين عن الثروة او التافهين. انا لم اختـــرك لانني كنت من البراءة بحيث اعجز عن عقد اي مقارنة، بل لانك ظهرت اكثـــر كـــرما وحكمة واكثر خبرة. اتذكر انني كتبت بعد خطوبتنا انك لا تؤمن بنفـــسك الا قليلا – وساحضر يومياتي ان كنت لا تصدقني. لقد احسست بذلك. انـــت تعتقد انك انسان فاشل، تعتقد انك محتقر، انا لا اعرف... هذا ما اردت ان يكون هدية زواجي الحقيقية لك: الايمان بنفسك.

ران صمت طويل، في حين ظلت مطرقة.

تكلم بصوت خفيض.

– انـــت تذكّـــرينني بفداحة خسارتي. واسفاه، انني اعرف نفسي اكثر مما ينبغي. ولا يستطيع المرء ان يبعث الى الحياة شيئا غير موجود.

– اهذا ما يعنيه كلامي كله لك؟

- انه يعني الشيء الكثير، الشيء الكثير جدا لي.

التزم الصمت، على الرغم من الها توقعت ان يقول ما هو اكثر من ذلك، و لم يـــتوقع هو منها مثل هذا الضبط للنفس. لقد تأثر، وشعر بالخزي، لما تفوّهت به، ولم يـــستطع هـــو ان يظهر اي احساس، لهذا التزم الصمت. كان صوتها ناعما، ومنخفضا.

- في ضـــوء الكلام الذي قلته لك، اليس في وسعك على الاقل... غير الها لم تعثر على الكلمات.

- ان اعيد النظر في قراري؟

لا بـــد الهـــا سمعت شيئا ما في صوته لم يقصد هو ان يكون موجودا فيه، اذ نظـــرت الـــيه فجـــأة نظرة استغاثة متقدة. كانت عيناها مبللتين بدموع مكتومة، ووجهـــا شاحبا يدعو الى الرثاء ويسعى جاهدا الى الظهور بمظهر الهدوء المتوازن. شعر انه اشبه بسكين: الى اي حدّ جرحها!

- اتوســـل اليك يا تشارلز ان تنتظر قليلا. صحيح انا جاهلة، لا اعرف ماذا تـــريد مني... اذا اردت ان تخبرني عن الشيء الذي اخفقت فيه... او عن الصورة التي تريد ان اظهر بها... فانني سأفعل كل شيء، كل شيء، لانني سأتخلى عن كل شيء كي اجعلك سعيدا.

- يجب الا تتكلمي مثل هذا الكلام.

- بـــل يجب - فانا لا احتمل ذلك - بالامس فقط كانت تلك البرقية، لقد بكـــيت، قبلتها مئة مرة. يجب الا تظن بانني افتقر الى المشاعر العميقة لانني اناكد. من شأني...

بـــيد ان صـــوتها تلاشى كأن حَدَسا لاذعا غمرها. نظرت اليه نظرة قاسية قصيرة.

- انك تكذب. شيئا ما حدث مذ ارسلتها.

تحـــرك صـــوب الموقد، ووقف موليا ظهره اياها. بدأت بالبكاء. فوجد ذلك شيئا لا يطاق. اخيرا التفت ونظر اليها، متوقعا ان يراها محنية الرأس، الا الها كانت تبكـــي علـــى نحو واضح وعيناها تنظران اليه. ولّما رأته وهو ينظر اليها، أحدثت حـــركة كأنها شخصٌ في حالة هلع، طفل ضائع، واشارت بيديها، نصف واقفة،

وتقدمت خطوة، ثم خرَّت على ركبتيها. وانتاب تشارلز احساس حاد بالنفور ليس منها بل من الموقف: من الحقائق المبتورة، من اخفائه الامر الجوهري. لعل اقرب تشبيه يتمثل في الشعور الذي ينتاب جراحا أحيانا امام ضحية معركة رهيبة او حادثة مؤسفة، اصرار هائل على المضي قدما في انجاز العملية - والا ماذا يمكن عمل غير ذلك؟ - ان يقول الحقيقة. انتظر حتى جاءت اللحظة التي توقفت فيها عن النشيج.

- اردتُ ان اجنبكِ ذلك. نعم - شيء ما قد حدث.

نهضت على قدميها ببطء، ورفعت يديها الى وجنتيها دون ان تشيح عنه نظراتها.

- من؟

- انتِ لا تعرفينها، واسمها غير مهم.

- وهي... انت...

اشاح بوجهه عنها.

- لقد عرفتها منذ سنوات طويلة، وظننت ان الصلة قد انقطعت، الا انني اكتشفت في لندن ان الامر ليس كذلك.

- اتحبها؟

- احبها؟ لا ادري... مهما كان الامر، فإنه يجعل تقديم المرء قلبه بحرية الى الاخر شيئا مستحيلا.

- لِمَ احجمت عن اخباري بهذا الموضوع في البداية؟

خَيَّم صمت طويل. فلم يستطع احتمال عينيها اللتين كانتا تتوغلان في كل كذبة يتفوه بها.

وتمتم.

- كنت ارجو ان اجنبك العذاب من وراء ذلك.

- او تجنب نفسك الشعور بالخزي. انك... انك وحش.

تهالكت على كرسيِّها وهي تتفرس فيه بعينيها الواسعتين. ثم وضعت وجهها بين كفيها، فتركها تبكي، وحدق على نحو صارم الى خروف من الخزف الصيني فوق رف الموقد. ولم يشاهد ثانية حتى موته خروفا من الخزف الصيني الا وشعر بالتقزز من نفسه. ولما تكلمت اخيرا، كان كلامها قويا على نحو جعله يخجل.

– اذا لم اقتل نفسي فإن العار سيقتلها.

– انا لا استحق لحظة ندم واحدة، وستصادفين رجالا اخرين... لم تحطمهم الحياة، رجالا نـــزيهين سوف...

توقف قليلا ثم انفجر قائلا.

– اقسمي بكل المقدسات التي تؤمنين بها على الا تقولي ذلك ثانية.

نظرت نظرة عنيفة اليه.

– اتظن انني سأغفر لك؟

هز رأسه بالنفي.

– والـــداي، اصدقائي، ماذا سأقول لهم؟ ان السيد تشارلز سميثسون قرر رغم كل شيء ان خليلته اهم من شرفه، وعده، و...

تناهـــى الى سمعه صوت ورقة تتمزق. وادرك دون ان يلتفت انها صبت جام غضبها على رسالة ابيها.

– اعتقدتُ انها خرجت نهائيا من حياتي. ثمة ظروف غامضة...

صـــمت: كأنها فيما اذا كانت ستنهال بالنقد عليه. وفجأة لاح صوتها هادئا، حقودا.

– لقد نكثت بوعدك. وهناك علاج لبنات جنسي.

– لكِ الحق كله في اتخاذ مثل هذه الاجراء. ولا يسعني الا الاعتراف بذنبـــي.

– سيعرف العالم حقيقتك. هذا كل ما يهمني.

– سيعرف العالم، رغم كل ما يحدث.

مـــرت في ذهنها ثانية جسامة غلطته، وظلت تهز رأسها، فما كان منه الا ان اخـــذ كرسيا وجلس قبالتها، ابعد من ان يستطيع لمسها، ولكن على مقربة تكفي كي يخاطب نفسها الطيبة.

– اني وســـعك الافتراض لحظة واحدة انني لم اعاقب؟ ان هذا لم يكن افظع قـــرار في حياتي؟ وهذه الساعة ابشع ساعة؟ الساعة التي سأتذكّرها بأعمق مشاعر الـــندم حتى مماتي. ربما اكون... حسنا... اكون مخادعا. الا انك تعرفين انني لست بلا قلب. لو كنت كذلك لما رأيتني هنا الان. كان في وسعي ان اكتب رسالة، ان اهرب الى خارج البلاد...

- اتمنى لو انك فعلت ذلك.

نظـر الى قمـة رأسها نظرة مطولة، ثم نهض واقفا. لمح نفسه في مرآة. وبدا الانـسان في المرآة. تشارلز في عالم اخر، هو النفس الحقيقية. اما الانسان في الغرفة فهـو دجال، كما وصفته، لقد كان دوما دجالا في علاقته بايرنستينا، انسان اخر مُراقب. واخيرا بدا احدى خطبه المعدَّة مسبقا:

- لا استطيع توقع اي شعور منك سوى الغضب والاشمئزاز. كل ما اطلبه منك هو ان تتذكري عند تلاشي هذه المشاعر ان اي ادانة لتصرفي يمكن ان تُساوي قسوتها قسوة اداني... وان عذري الوحيد هو عدم قدرتي طويلا على خداع الانسان الذي تعلمت ان احترمه واعجب به.

بـدا كلامـه مزيفا. بل كان مزيفا. وادرك تشارلز على نحو لا يبعث على الارتياح احتقارها اياه.

- احاول ان اتصورها. اعتقد انها ذات لقب... لو انني اصغيت لوالدي العزيز المسكين!

- ماذا يعني ذلك؟

- انه يعرف الشهامة. وله عبارة معروفة في ذلك - اخلاق رفيعة وقوائم غير مدفوعة.

- الست شهما؟

- انـت مثل عمك، تتصرف كأن مقامك يسوِّغ كل الاهتمام بما نعتقد بـه نحـن ابناء هذا العالم العاديين. وينطبق الامر عليها ايضا. اي امرأة يمكنها ان تكـون بمـثل هذه الوضاعة فتدفع رجلا الى النكث بعهده؟ في وسعي ان احمن.

وتفوهت بتخمينها.

- انها امرأة متزوجة.

- لن اناقش هذا الموضوع.

- اين هي الان؟ في لندن؟

حـدق الى ايرنستينا لحظة واحدة، ثم استدار على عقبيه وسار صوب الباب، فنهضت واقفة.

- سيلطخ والدي اسمك بالعار، اسمك واسمها، بالوحل وسيحتقرك ويزدريك كل الذين يعرفونك. وسيتعقبونك حتى تخرج من انكلترا، وسوف...

توقــف قــرب الباب، وفتحه، فدفعها ذلك الى التوقف، او دفعها استحالة الـتفكير في عار يكفيه. كان وجهها يضطرب، كأنها ارادت ان تقول ما هو اكثر من ذلك، الا انها لم تستطع. تمايلت، ثم نطقت ذاتها النقيضة باسمه، كأن الامر بمثابة كابوس، وتمنت الان لو قيل لها انها قد استيقظت منه.

لم يتحــرك مــن مكانـــه. ترنّحت ومن ثم انهارت فجأة على الارض قرب كرسيِّها. كانت حركته الغريزية الاولى هي ان يذهب اليها. الا ان شيئا ما اوقفه، شــيئا ما يخص الطريقة التي سقطت بها على الارض والعناية الشديدة التي تكورت بها وانــزلاق جسدها الى الجانب فوق السجادة.

حدق لحظة الى الجسد المنهار، وادرك انها اصيبت بالاغماء. وقال:

- ساكتب رسالة الى والدك على الفور.

لم يــصدر عــنها اي اشارة، بل ظلت مستلقية، مغمضة العينين، باسطة احدى يــديها علــى نحو يثير الشفقة فوق السجادة. تقدم صوب حبل الجرس المجاور للموقد وجذبـه بقوة، ثم سار صوب الباب المفتوح، وغادر الغرفة حالما سمع صوت وقع اقدام ماري. هرولت الخادمة وهي ترتقي السلالم فأشار تشارلز الى حجرة الجلوس.

- لقــد اصــيبت بصدمة. يجب الا تغيبــي عنها لاي سبب كان. ساذهب لاحضار الطبيب غروغان.

لاحت ماري لبرهة وجيزة كأنها توشك ان تفقد وعيها، فوضعت يدها فوق حاجز السلالم، وحملقت في تشارلز بعينين ذاهلتين.

- فهمتِ؟ لا تتركيها لاي سبب كان.

أومات، واحنت رأسها، الا انها لم تحرك ساكنا.

- لقد اغمي عليها لا اكثر. خففي من ثيابها.

دلفت الخادمة الى الحجرة بعد ان نظرت اليه نظرة رهيبة اخرى. انتظر تشارلز بضع ثوانٍ، فسمع انينا خافتا، ثم سمع صوت ماري.

- اوه، يا انسة، يا انسة. انا ماري. سيأتي الطبيب يا انسة. لا بأس يا انسة. لن اتركك.

هـــنا رجع تشارلز الى الغرفة فشاهد ماري جاثية على ركبتيها، وقد رفعت ايرنـــستينا قلـــيلا الى اعلى. كان وجه الانسة يواجه صدر الخادمة. رفعت ماري بصرها الى تشارلز: هاتان العينان المفعمتان بالحيوية تمنعاه من المراقبة او البقاء، فقبل حكمهما الصريح.

51

كما ذكرتُ، فقد استمرت العادات الاقطاعية المتأصلة الخاصة بالاخضاع والاذعــان زمــنا طويلا في احداث اثرها البالغ في الطبقة العاملة. امّا الان، فقــد عملــت الــروح الحديثة على اذابة هذه العادات ذوبانا تاما تقريبا... وعلى نحو مطرد، اخذ هذا الرجل وذاك، هذه المجموعة وتلك من الرجال، يعمل وفي جميع ارجاء البلاد على تأكيد وتطبيق حق الرجل الانكليــزي فــي فعل ما يشاء: حقه في السير حيث يشاء، يلتقي حيث يشاء، يدخل حيث يشاء، يطلق البوق كما يشاء، يهدد كما يشاء، يحطم كما يشاء. ان هذا كله يقود الى الفوضى.

ماثيو ارنولد: الثقافة والفوضى 1869

مــن دواعي الرحمة ان الطبيب غروغان لم يكن في واحدة من جولاته المهنية لزيارة المرضى. وقد رفض تشارلز دعوة مدبرة البيت للدخول، واثر الانتظار على عتبة الباب حتى جاء الطبيب القصير القامة مُسرعا للقائه؛ وباشارة من تشارلز خطا خارج الباب كي لا يسمع احد حديثهما.

– لقــد فــسخت توا خطوبتي، وهي في حالة قلق شديد. اتضرع اليك الا تسألني عن اي تفسير – وارجو ان تذهب الى شارع برود دون تأخير.

القــى غــروغان نظرة ذاهلة الى تشارلز من فوق نظارته، ثم عاد الى داخل المنــــزل دون ان يــنطق كلمة واحدة، وبعد ثوانٍ معدودة، ظهر من جديد ومعه قبعته وحقيبته الطبية، وعلى الفور بدأ الاثنان سيرهما.

– ليست...؟

اومــأ تــشارلز، وعلى الفور لاح الطبيب القصير القامة مذهولا على نحو لا يقوى معه على الكلام. سارا مسافة عشرين او ثلاثين خطوة.

– انها ليست كما تظن يا غروغان، انا متأكد من ذلك.

– ليس عندي اي كلام يا سميثسون.

– لا ابحث عن عذر.

– اهي تعرف؟

– ان هناك امرأة اخرى. لا اكثر.

استدار عند الناصية، وشرعا يصعدان شارع برود.

– لا بد لي ان اسألك عدم الافصاح عن اسمها.

نظر اليه الطبيب نظرة جانبية قاسية.

– من اجل الانسة وودراف، لا من اجلي.

توقف الطبيب فجأة.

– في ذلك الصباح – افهم ان...؟

– ارجوك اذهب الان. سأنتظر في الحانة.

الا ان غـــروغان ظل يحدق اليه كأنه هو الاخر لا يستطيع ان يصدق انه ليس واقعـــا تحـــت وطـــأة كابـــوس. تحمَّل تشارلز النظرة لحظة، ثم اشار الى الطبيب بالاستمرار في طريقه بينما عبر هو الشارع واتجه صوب فندق وايت لاين.

– عجبا يا سميثسون...

اســـتدار تـــشارلز لحظة، وتحمل نظرة الايرلندي الغاضبة، ثم واصل السير في طـــريقه دون كلمة. كذلك فعل الطبيب على الرغم من انه لم يترك تشارلز يغيب عن عينيه حتى توارى عن الانظار تحت مظلة الامطار.

عـــاد تشارلز الى غرفته، في الوقت المحدد ليرى الطبيب، وقد دخل بيت الخالة ترانتـــر. فـــدخل واياه روحيا. شعر انه مثل يهوذا، مثل كل خائن غدّار منذ بدء الزمان. الا انه تخلص من عذاب الذات لما سمع طرقة على الباب. وظهر سام.

– ماذا تريد؟ فانا لم اقرع الجرس.

فـــتح سام فاه الا ان اي كلمة لم تصدر عنه. فلم يستطع تشارلز تحمل تلك النظرة.

– بما انك قد حضرت فأتني بكأس من الشراب المفضل.

لم يكـــن ذلك سوى اللعب بالوقت. اذْ حضر الشراب، ورشفه تشارلز. مرة اخرى اضطر الى مواجهة نظرة خادمه.

– ليس صحيحا يا سيد تشارلز؟

– اذهبت الى البيت

- نعم يا سيد تشارلز.

اتجه تشارلز صوب النافذة الناتئة المطلة على شارع برود.

- نعم، صحيح. لن نتزوج انا والانسة فريمان. اغرب عني الان، ولا تتكلم.

- لكن... يا سيد تشارلز... انا وماري؟

- فيما بعد، فيما بعد. لا استطيع التفكير في مثل هذه الامور الان.

كرع ما تبقى في الكأس من شراب، ثم اتجه صوب منضدة الكتابة، واخرج ورقة. مرت بضع ثوانٍ، فلم يتحرك سام، او ان قدميه لم تتحركا. وشوهد حلقه متورما.

- اسمعتَ ما قلت؟

كانت نظرة سام حادة غريبة.

- نعم يا سيدي. لا بد لي من التفكير في حالي، مع شديد احترامي.

استدار تشارلز من مكانه.

- ما الذي يعنيه هذا؟

- هل ستقيم في لندن من الان فصاعدا.

امسك تشارلز القلم.

- من المحتمل جدا ان اسافر الى خارج البلاد.

- واذْ ذاك اتوسل اليك يا سيدي بالا ارافقك.

وثب تشارلز من مكانه.

- كيف تجرؤ على مخاطبتي على هذا النحو السفيه، اللعين! اخرج!

وهنا اصبح سام هو الدجاجة الثائرة.

- لن اخرج قبل ان تسمعني. لن اذهب ثانية الى اكستر وسأتخلى عن خدمتك.

- (سام)!!!

كانت صرخة غضب.

- وهو ما كان ينبغي لي ان افعله...

- اغرب!

انتـــصب ســـام، وكان على استعداد لأن يضرب سيده (كما قال فيما بعد لماري) بيد انه سيطر على غضبه اللندني، وتذكر ان السيد يستخدم اسلحة مهذبة. لهذا اتجه صوب الباب وفتحه، ومن ثم نظر نظرة متعالية الى تشارلز.

- انا لا احب اي مكان يا سيدي التقي فيه بصديق مثلك.

ثم اغلـــق الـــباب على نحو لا يخلو من الافتقار الى الرقة البالغة. اتجه تشارلز صوبه، وفتحه بقوة ورأى سام وهو يسير اسفل الممر.

- كيف تجرؤ على هذا الكلام؟ تعال الى هنا!

استدار سام بهدوء.

- اذا اردت مـــن يهتم بأمورك فما عليك سوى ان تقرع الجرس ليأتيك احد الخدم.

توارى سام عن الانظار من حول منعطف يؤدي الى الطابق السفلي بعد تلك الاطلاقـــة الـــتي فرقتهما، وتركت تشارلز عاجزا عن الكلام. ولم تستمر تكشيرته طويلا لمّا سمع صوت الباب يغلق بعنف ثانية من فوق. لقد انصرف بعد ان فعلها. في الحقيقة، شعر انه مثل بحار انقطعت به السبل بعد ان شاهد سفينته تبحر بعيدا، الاســـوأ مـــن ذلك، كان يعرف سرا انه يستحق عقابه. اخشى ان الثورة لم تكن جريمته الوحيدة.

صبّ تشارلز جام غضبه على قدح الشراب الفارغ الذي طوح به في الموقد. لقـــد تـــذوق بهذا اول مرة طعم العلاج الحقيقي المر، ولم يعجبه. وكاد في لحظة هائجـــة ان يـــندفع خـــارج وايت -لاين - من شأنه ان يرمي نفسه تحت قدمي ايرنـــستينا، ان يعتـــرف بالجنون، بالعذاب الداخلي، باختبار حبها... ظل يضرب قبـــضته في راحـــة يده. ما الذي فعله؟ ماذا سيفعل؟ اذا كان حتى خدمه يحتقرونه ويرفضونه؟

وقـــف ممسكا رأسه بيديه ثم نظر الى ساعته. لا يزال ينبغي له ان يرى سارة الليلة. ويكفيه منه وجهها الرقيق الهادئ، دموع الفرح الناعمة وهو يمسك بها. عاد ثانـــية الى منضدة الكتابة وشرع يكتب مسودة رسالة الى والد ايرنستينا. كان لا يزال منهمكا في كتابتها لما اعلن عن وصول الطبيب غروغان.

52

اوه، اصنعوا تابوتا لحبيبتي
من ذهب يشع بلون اصفر
وستدفن
على ضفاف الصفصاف الاخضر

اغنية شعبية من مقاطعة سمرست:
«على ضفاف الصفصاف الاخضر»

الـــشخص الحزين في هذا كله هو الخالة ترانتر. فقد عادت من تناول غدائها متوقعة ان تلتقي تشارلز، وعوضا عن ذلك رأت بيتها وقد حلت به كارثة شاملة. ففي البداية حيَّتها ماري في الردهة، شاحبة، مرتكبة.

– ما الذي حدث ايتها الطفلة؟

لم تستطع ماري سوى هز رأسها متألمة. فُتح باب في الطابق العلوي فما كان من السيدة الطيبة الا ان رفعت تنورها، وشرعت ترتقي السلالم مثل امرأة في نصف عمرها. وعلى فسحة الدرج، التقت الطبيب غروغان الذي سرعان ما رفع اصبعه الى شـــفتيه. ولم يخبرها بحقيقة ما حدث الا بعد ان وصلا حجرة الجلوس وشاهد السيدة ترانتر وهي تجلس.

– لا يمكن ذلك، لا يمكن ذلك.

– سيدتي العزيزة. واسفاه للمرة الالف... لكن هذا ممكن.

– لكن تشارلز... الرقيق، العطوف... لماذا؟ بالامس فقد كانت البرقية...

ولاحت كأنها لم تعد تعرف غرفتها، او وجه الطبيب الهادئ المطْرق.

– سلوكه بشع ولا استطيع فهمه.

– لكن ما هي الاسباب التي قدّمها؟

– لم تتكلم. لا تقلقي. انها تحتاج الى النوم، وقد اعطيتها ما يؤكد ذلك. غدا يتضح كل شيء.

– ليس كل شيء في العالم...

بدات تبكي.

- اه يا سيدتي العزيزة. ابكِ فلا شيء يحرر المشاعر افضل من ذلك.

- عزيزتي المسكينة. ستموت كسيرة الفؤاد.

- لا اعتقد ذلك. لم اقرر بعد ان ذلك يسبب للموت.

- انتَ لا تعرفها كما اعرفها انا... اه... ماذا ستقول اميلي؟ ستكون غلطتي انا.

كانت اميلي شقيقة السيدة فريمان.

- اعـــتقد انه ضروري ارسال برقية لها على الفور. ارجو ان تتركي لي ذلك الامر لاتدبره شخصيا.

- اوه، يا للسماء - واين ستنام؟

ابتـــسم الطبـــيب، الا ان ابتسامته كانت لطيفة لهذا الاستنتاج غير المتفق مع المقـــدمات. لقـــد اضطر فيما مضى الى معالجة مثل هذه الحالات، وكان يعلم ان افضل وصفة هي ضجة انثى لا تنتهي.

- الان، ارجـــو ان تصغي اليّ يا عزيزي السيدة ترانتر. يجب ان تتأكدي في الايام القليلة القادمة ان هناك رقابة على ابنة اختك ليل نهار. ولو ارادت ان تعامل معاملـــة المرضى، فما عليك الا ان تعامليها كذلك. ولو رغبتْ يوم غد ان تنهض وتـــرحل عن بلدة لاتم فما عليك الا ان تلبـــي طلبها. حاولي ان تجاري اهواءها. افهمـــتِ؟ انهـــا شابة، وفي صحة ممتازة. وانا اضمن ان تصبح مرحة مثل عصفور مغرد بعد ستة اشهر.

- كـــيف يمكنك ان تكون بمثل هذه القسوة! انها لن تتمكن من التغلب على ذلك. ذلك الشرير... لكن كيف...

مرت فكرة في ذهنها فمدّت يدها، ولمست كم الطبيب.

- هناك امرأة اخرى.

ضغط الطبيب غروغان انفه.

- هذا ما لا استطيع قوله.

- انه وحش.

- لـــيس وحـــشا، حتى انه لم يعلن عن ذلك. كما انه خسر رفيقة من شأن الكثير من الوحوش الطيبين ان يلتهموها بنهم.

- نعم. نعم. هذا امر يستوجب الشكر.
الا ان ذهنها تضاربت فيه المتناقضات.
- لن اغفر له البتة.
ثم خطرت لها فكرة اخرى.
- الا يزال في البلدة؟ سأذهب واخبره برأيي.
امسك بها من ذراعها.
- هذا ما يجب ان امنعه. لقد طلب بنفسه ان احضر الى هنا. وهو ينتظر كي يعرف ان الفتاة لم تعد في خطر. سأراه. اطمئني الى انني سأقول كل شيء بصراحة. وسأجلده بسبب ذلك.
- لا بـــد من جلده بالسوط ووضعه في الة التعذيب. هكذا كانوا يفعلون بنا عندما كنا صغارا. لا بد من عمل ذلك. يا للملاك المسكين.
ثم وقفت على قدميها.
- لا بد لي من الذهاب اليها.
- ولا بد لي من رؤيته.
- عليك ان تخبره نيابة عني انه دمر سعادة ارق واعذب...
- نعم، نعم، نعم،... هدإي من روعك الان. وحاولي ان تعرفي السبب الذي يدفع الخادمة الشابة الى مثل هذا الحزن. ان من يراها يظن ان قلبها انفطر.
ودَّعـــت الـــسيدة ترانتر الطبيب حتى خرج، ثم كفكفت دموعها، وارتقت السلالم، واتجهت صوب غرفة ايرنستينا. كانت الستائر مسدلة، الا ان ضوء النهار كان ينساب من خلال الحواشي، في حين جلست ماري قرب الضحية، ونهضت لما رأت سيدتها تدخل. كانت ايرنستينا نائمة نوما عميقا، وقد استقلت على ظهرها، الا ان رأســـها كان يميل الى احد الجانبين. كان وجهها هادئا، متماسكا على نحو غـــريب، وانفاسها هادئة هي الاخرى، بل كان هناك ما يشير الى ابتسامة شاحبة فوق تلك الشفتين. صدمت مفارقة ذلك الهدوء السيدة ترانتر ثانية، الطفلة العزيزة المسكينة، عندما استيقظت... وثبت الدموع من مقلتيها. نهضت قليلا، وكفكفت دمعها، ونظرت الى ماري اول مرة. في الحقيقة، ان ماري بدت الان مثل نفس في قعـــر المأساة، بدت على النحو الذي كان ينبغي ان تظهر فيه تينا، الا انها لم تظهر.

وتذكــرت الــسيدة ترانتــر كلمات الطبيب المتسمة بالشكوى الى حدّ ما لدى انــصرافه. أومات الى الخادمة ان تلحق بها، وخرجت الاثنتان الى فسحة السلالم، وتحدثتا همسا والباب نصف مغلق.

- الان قولي لي ماذا حدث ايتها الطفلة.

- هبط السيد تشارلز السلالم في حين كانت الانسة تينا مستلقية، وقد فقدت وعيها، وهرع الى الطبيب. فتحت الانسة تينا عينيها الا انها لم تقل شيئا فساعدتها في الــنهوض. لم اعــرف ماذا افعل. كنت في غاية الرعب يا سيدتي. كانت تبدو وهــي تضحك وتولول دون توقف. ثم قدم الطبيب غروغان وهدأ من روعها، اوه يا سيدتي.

- كفى بكاء يا ماري. كنتِ فتاة طيبة. الم تقل شيئا؟

- لا شيء سوى عندما صعدت السلالم يا سيدتي وسألتني اين السيد تشارلز يا سيدتي فقلت لها انه ذهب ليستدعي الطبيب. هكذا كانت البداية يا سيدتي.

- صه، صه.

كــان صوت ماري قد بدا يرتفع، وكانت هناك اعراض قوية تدل على انها مصابة بالهستيريا. على اي حال، كان لدى السيدة ترانتر دافع قوي للمواساة، لهذا طوقت ماري بين ذراعيها، وشرعت تربتُ على رأسها. على الرغم من انها بعملها هــذا قد خرقت كل القوانين المناسبة فيما يخص العلاقة بين السيدة والخادمة. كان جسد الفتاة قد اضناه البكاء الحبيس الذي حاولت ان تسيطر عليه من اجل المعذّبة الاخرى. واخيرا هدأت.

- الان ما الخطب؟

- انه سام يا سيدتي. انه في الطابق السفلي. لقد تكلم كلاما فظيعا مع السيد تشارلز يا سيدتي، وتخلى عن خدمته.

كظمت بكاء متأخرا.

- نحن لا ندري ما الذي سيحل بنا.

- كلمات فظة؟ متى حدث هذا ايتها الطفلة؟

- قبل مجيئك يا سيدتي، حسب تفسير الانسة تينا يا سيدتي.

- كيف حدث ذلك؟

- كان سام يعلم ان ذلك سيحدث، ان السيد تشارلز رجل شرير يا سيدتي. اوه يا سيدتي. كنا نريد ان نخبرك يا سيدتي. الا اننا ما كنا لنجرؤ.

تناهى الى السمع صوت واهن من الغرفة. فاسرعت السيدة ترانتر وألقت نظرة، الا ان الوجه ظل هادئا ينعم بنوم عميق. فخرجت ثانية الى الفتاة ذات الرأس المحني.

- سأبدا المراقبة الان يا ماري، ولنتحدث فيما بعد.

احنت الفتاة رأسها اكثر مما مضى.

- اتحبين سام هذا؟

- نعم يا سيدتي.

- ايحبك هو؟

- هذا هو السبب الذي جعله لا يرغب في الذهاب بمعية سيده يا سيدتي.

- قولي له ان ينتظر. لا بد لي من الحديث معه. وسنعثر له على عمل. اذ ذاك رفعت ماري وجهها الممتلئ بالدموع.

- انا لا اريد ان اتركك يا سيدتي.

- لن تتركيني البتة ايتها الطفلة حتى يوم زفافك.

انحنت السيدة ترانتر الى الامام، وقبلت جبينها، ثم ذهبت وجلست قرب ايرنستينا في حين ذهبت ماري الى الطابق السفلي. ما ان وصلت الى المطبخ حتى هرعت الى الخارج - تحت انظار الطاهية وازدرائها - واتجهت صوب ظلال الليلك وذراعي سام القلقتين، التواقتين في آن واحد.

53

اذ اننا نرى الى اين اوصلنا ذلك... الاصرار على الكمال في جزء واحد من طبيعتنا لا في كلها، انتقاء الجانب الاخلاقي، جانب الطاعة والفعل، لمثل هـذا الاعتبار الحازم، تقييد الضمير الاخلاقي هو لحد الان الشيء الاساس، وتأجـيل الاهتمام بموضوع الكمال في كل الامور منذ الان والى عالم اخر، تطور انسانيتنا تطورا كاملا ومتناسقا.

ماثيو ارنولد: الثقافة والفوضى 1869

- استعادت وعيها؟

-جعلتها تنام.

سـار الطبـيب صوب الجهة الاخرى من الغرفة، ثم وقف واضعا يديه وراء ظهره، محدقا الى ما وراء شارع برود حيث البحر.

- قالت... قالت شيئا ما؟

هزّ الطبيب رأسه بالنفي دون ان يلتفت، ظل صامتا برهة وجيزة ثم انفجر في وجه تشارلز:

- انني انتظر تفسيرك يا سيدي.

قـدّم تشارلز تفسيره على نحو رديء دونما مبرر ذاتي جزئي. لم يتحدث عن سـارة الا قليلا، وكانت محاولته الوحيدة في تقديم العذر متمثلة في خداعه غروغان نفسه. صبّ اللوم في ذلك على اعتقاده بأن ايداع سارة اي مصحة عقلية من شأنه ان يكون ظلما كبيرا. اصغى الطبيب بصمت رهيب، مركزّ. ولما فرغ تشارلز من كلامه، التفت الى النافذة.

- اتمـنى لو كان في وسعي ان اتذكر ما هو العقاب الذي وصفه دانتي للذين يناقضون القوانين والمبادئ، واذ ذاك يصبح في مستطاعي ان اصفه لك.

- اظنني ساتلقى ما يكفي من العقاب.

- هذا غير ممكن. ليس من خلال سجلي الخاص.

توقف تشارلز هنيهة.

- لم ارفض نصيحتك دون ان افتش كثيرا في فؤادي.

- السـيد النبيل يبقى سيدا نبيلا يا سميثسون عندما يرفض النصيحة. وهو لا يفعل ذلك لمّا يكذب.

- ظننتها ضرورية.

- مثلما اعتقدت ان اشباع شهوتك ضروري.

- لا اقبل بتلك الكلمة.

- الافضل لك ان تتعلم قبولها. فهي الكلمة التي سيلصقها العالم بسلوكك.

تقدم تشارلز صوب المنضدة الوسطية، ووقف واضعا احدى يديه فوقها.

- اتـريد مـني يا غروغان ان اعيش حياة تعتمد على المظاهر؟ الا يكفي ان عـصرنا كمـا هـو مليء بنفاق معسول اللسان، بالتزلف لكل ما هو زائف في طبائعنا؟ اكنت تريد ان اضيف الى كل ذلك النفاق؟

- كـنت اريـد ان تفكر مليّا قبل ان تورط تلك الفتاة البريئة في بحثك عن معرفة الذات.

- اني وسعنا الهرب من سلطة تلك المعرفة لما تمنح لنا، بغض النظر عن المقت الذي تنم عنه تلك العواقب.

اشاح الطبيب بوجهه الذي بانت عليه تكشيرة صغيرة صلبة. رأى تشارلز انه غاضـب، متوتر، وفي حالة من الارتباك بعد الوعيد الاول، لا يدري كيف يتعامل مـع هذا التحدي الرهيب للتقاليد الريفية. في الحقيقة، كان هناك صراع ناشئ بين غـروغان الذي قضى ربع قرن من حياته حتى الان في بلدة لايم، وغروغان الذي طاف العالم. هناك اشياء اخرى: استلطافه تشارلز، رأيه الخاص - الذي لا يختلف كثيرا عن رأي السير روبرت، بأن ايرنستينا كانت شيئا جميلا صغيرا، الا انها شيء تافـه صغير ايضا. وهناك ايضا حادثة مدفونة منذ زمن طويل في ماضيه لا ضرورة لكـشف طبيعـتها الخاصـة الا بقـدر ما، جعلت اشارته الى الشهوة مسألة اقل موضـوعية ممـا اراد بدرجـة كبيرة. وظلت لهجته مؤنبة؟ بيد انه تجنب السؤال الاخلاقي الذي طُرح عليه.

- انا طبيب يا سميثسون. ولا اعرف سوى قانون واحد مهيمن. المعاناة كلها شر. ربما كانت ضرورية. الا ان ذلك لا يغير من طبيعتها الاساسية.

– لا ارى من اين هو منبع الخير، ان لم يكن من الشر. كيف يستطيع المرء ان يشيد ذاتا افضل ما لم يكن ذلك على انقاض الذات القديمة؟

– وانقاض تلك المخلوقة الشابة المسكينة المرمية على قارعة الطريق؟

– الافضل ان تعاني مرة واحدة، ان تتحرر مني، لا...

وهنا التزم الصمت.

– اه. انت متأكد من ذلك، اليس كذلك؟

لم يقل تشارلز شيئا، فحدق الطبيب بالشارع.

– لقد ارتكبت جريمة، وعقوبتك هي ان تتذكرها طيلة حياتك. فلا تمنح نفسك الغفران. فالموت وحده هو الذي سيحلك من تلك التبعة.

خلع نظارته، ومسحها بمنديل حريري اخضر اللون. ران صمت طويل، طويل جدا؛ وفي النهاية جاء صوته اخف حدة، الا انه ظل مؤنبا.

– هل ستتزوج الفتاة الاخرى؟

زفر تشارلز زفرة ارتياح مجازي. فما ان دخل غروغان تلك الغرفة حتى ادرك ان توكيداته الذاتية السابقة – بانه لا يهتم لرأي طبيب مدينة للسباحة كانت فارغة. ثمة شعور انساني في اعماق الايرلندي احترمها تشارلز كل الاحترام. لقد كان غروغان يمثل على نحو ما، كل الاشياء التي يحترمها. كان يعرف انه لا يستطيع ان يتوقع غفرانا كاملا للخطايا، الا انه يكفي له ان يشعر ان الحرمان من حقوق عضوية الكنيسة لن يكون قدره.

– تلك هي نيتي الخالصة.

– اتعرف هي ذلك؟ اخبرتها؟

– نعم.

– من المؤكد انها وافقت على عرضك؟

– لدي كل الاسباب التي تحملني على الاعتقاد بهذا الشيء.

وهنا شرح ظروف رحلة سام في ذلك الصباح.

استدار الطبيب كي يواجهه.

– اعرف انك لست شريرا يا سميثسون. واعرف انك ما كنت لتتصرف على ذلك النحو ما لم تصدق بتفسير الفتاة نفسها لسلوكها الغريب. الا انني احذرك

بـــأن شـــكا مـــا، يظل قائما. ومثل هذا الشك لا بد ان يلقي ظله على اي حماية تفرضها عليها في المستقبل.

- اخذت ذلك بعين الاعتبار.

غامر تشارلز بالابتسام ابتسامة رقيقة.

- مثلما اخذت بعين الاعتبار غمامة الرياء المشوش في حديث بني جنسنا عن النـــساء. فهـــم يتخذون اماكنهم، اليس كذلك؟ مثل الكثير من محتويات محل ما يتركوننا ندخل ونقلبها ونشير الى هذا او ذاك؛ فاعجب بواحدة. ولو وافقوا على ذلك لقلنا انه امر حسن، محترم متواضع. لكن اذا ما امتلكت احدى هذه المحتويات الجرأة لقول كلمة والتعبير عن نفسها... اعتقد انها فعلت ما هو اكثر من ذلك.

سخر تشارلز من الاهانة.

- لقد فعلت ما هو شائع تقريبا في المجتمع الراقي. لا اعرف لماذا تُمنح البراءة العديـــد مـــن الزوجات اللواتي يلطخن سمعة أزواجهن في ذلك الوسط في حين... يـــضاف الى ذلـــك، انا الذي يجب ان اتحمل اللوم كله. فهي لم تفعل شيئا سوى ارسال عنوانها، وكنت حرا تماما في تجنب عواقب الذهاب الى ذلك العنوان.

اخـــتلس الطبيب نظرة صغيرة صامتة اليه. لا بد له من الاعتراف الان بالنـــزاهة. استأنف النظر طويلا الى الشارع وبعد بضع لحظات تكلم بنفس اسلوبه وصوته المعتاد.

- ربمـــا تقدمت في السن. اعرف ان انتهاكات الثقة المماثلة لانتهاكاتك قد اضـــحت شائعة على نحو يجعل اي امرئ، محافظا عتيق الطراز اذا ما صدمته. انني اشاطرك ازدراءك الرياء، سواء كان دينيا او قانونيا. لقد تبدى لي القانون دوما مثل حمـــار. انني لا انتقدك على هذه الاسس ولن انتقدك على اي اسس، بل سأوضح لـــك وجهة نظري وهي: انت تعتقد بانك تنتمي الى نخبة علمية وعقلانية. لا، لا. اعـــرف ما ستقول. فانت لست مزهوا بهذا. ليكن كذلك. على الرغم من ذلك، انـــت تـــتمنى ان تنتمي الى تلك النخبة. لا الومك في هذا. اذ انني تمنيت ذلك انا شخـــصيا طيلة حياتي. الا انني اتوسل اليك ان تتذكر شيئا واحدا يا سميثسون. فقد قامـــت النخبة وعلى مدى التاريخ البشري بتعزيز قضيتها من اجل الصفوة. الا ان الزمن لا يسمح الا بالتماس واحد.

وضع الطبيب نظارته فوق عينيه ثانية، والتفت الى تشارلز.

– إنه هذا: ان هذه الصفوة قد قدمت مُثلا اخلاقية رفيعة الى هذا العالم المظلم بغض النظر عن الحجج الخاصة التي تطرحها في قضيتها. واذا ما فشلت الصفوة في ذلـــك الاختبار، فإنها لا تغدو اكثر من مجموعة مستبدة، سلاطين، مجرد اشخاص يبحثون عن متعتهم وسلطتهم. خلاصة القول، مجرد ضحايا لرغباتهم الدنيئة. اظنك تفهـــم مـــا اريـــد الوصول اليه، ومدى انطباقه على نفسك من هذا اليوم البائس فـــصاعدا. لو اصبحت انسانا افضل واكرم، فربما يغفر لك. لكن اذا ما اضحيت اكثر انانية... فإن لغتك ستكون مزدوجة.

اطرق تشارلز كي يتجنب النظر الى تلك العينين القاسيتين.

– لقـــد افصح ضميري توا عن الشيء الكثير على الرغم من ان هذا الافصاح اقل اقناعا.

– امين اذا. سبق السيف العذل.

تـــناول قبعـــته وحقيبته من فوق المنضدة واتجه صوب الباب. الا انه تردد في مكانه، ثم مد يده.

– اتمنى التوفيق في اجتيازك الروبيكون[118].

امسك تشارلز اليد الممدودة اليه، كأنه غريق. حاول ان يقول شيئا ما، لكنه اختفـــق. مـــرت لحظة ازداد فيها ضغط اصابع غروغان على يده، ثم التفت وفتح الباب. نظر من ورائه وعيناه تومضان.

– اذا لم تـــرحل من هنا في خلال ساعة، فسأعود ومعيتي اكبر سوط استطيع العثور عليه.

تبســّم تـــشارلز لتلك العبارة، غيران الوميض ظل باقيا، وبلع ابتسامة مؤلمة، واحنى رأسه موافقا، واغلق الباب.

لقد تُرك وحيدا بصحبة دوائه.

---

(118) الروبيكون: نُهير في شمالي ايطاليا كان يشكل جزءا من الحدود بين الجمهورية الرومانية والـــولايات التابعة لها، وقد اجتازه يوليوس قيصر عام 49 ق. م مشعلا بذلك نار الحرب الاهلية التي جعلته سيد روما. والمراد بالتعبير الوارد اعلاه، كما هو واضح، اتخاذ قرار خطير لا سبيل الى الرجوع عنه. (المترجم)

54

انقلبت ريحي الى ريح شمالية عاتية
بعد ان كانت تهب خفيضة من الجنوب.

اي. إتش. كلف: قصيدة 1841

ايضاحا لــ تشارلز، لا بد ان نقول انه ارسل من يبحث عن سام قبل مغادرته فندق وايت لاين، الا ان الخادم لم يكن في حجرة بيع المشروب المفضل في الفندق ولا في الاصــطبلات. والحق ان تشارلز ضمَّن مكانه، غير انه لم يستطع ان يرسل الــيه شخــصا الى ذلك المكان، وهكذا غادر بلدة لايم دون ان يراه ثانية بعد ان ركــب عربته في الفناء واسرع في اسدال الستائر. اجتاز ميلين كأنه في عربة نقل الموتــى قبل ان يرفع الستائر ثانية تاركا شمس المغيب المائلة – اذ بلغت الساعة الان الخامسة – تنير طلاء العربة المعتم وتنجيدها.

غــير ان اشــعة الشمس لم تنر معنويات تشارلز، الا انه على الرغم من ذلك شــعر رويدا رويدا وهو يواصل ابتعاده عن لايم ان عبئا ثقيلا قد انــزاح من على كتفــيه. لقد تعذب بسبب الهزيمة، لكنه نجا منها. لقد قبل بتحذير غروغان الصارم المتمــثل بــأن يعيش البقية الباقية من حياته دليلا على عدالة ما فعله. غير انه وجد وســط المروج الخضر الصارخة والسياجات المصنوعة من شجيرات شهر أيار/مايو في ريــف ديفن، انه يصعب عليه عدم رؤية المستقبل على نحو خصب – ثمة حياة جديدة امامه، تحديات عظيمة، غير انه سيثبت انه اهل لمواجهتها. ولاحت خطيئته ذات فائدة: فقد منح تكفيره اياها حياته هدفها الذي تفتقر اليه الان.

وكانــت في ذهــنه صورة من مصر القديمة – تمثال في المتحف البريطاني يمثل فــرعونا يقــف الى جانب زوجته التي وضعت ذراعها من حول خصره في حين وضعت الذراع الثانية فوق ساعده. بدا ذلك لتشارلز رمزا تاما للانسجام الزوجي لــيس في الاقل لأن الشخصين منحوتان من نفس الكتلة من الصخر. انه لم يُنحت وسارة بعد في مثل ذلك الانسجام، الا انهما من نفس الصخرة.

ثم اطلـــق العنان لافكاره عن المستقبل، عن الترتيبات الواقعية. لا بد من ايجاد المكـــان اللائق لسارة في لندن. وينبغي لهما السفر خارج البلاد حالما امكن تسوية قـــضاياه، واستطاع التخلص من البيت في كنـــزنغتون ووضع حاجياته في المخزن. ربمـــا يـــسافران الى المانيا اولا ومن ثم الى الجنوب في فصل الشتاء، الى فلورنسا او رومـــا (اذا سمحـــت الظروف الاهلية بذلك) او ربما الى اسبانيا. غرناطة! الحمراء! ضوء القمر، الصوت البعيد للمغنين الغجر. هاتان العينان الرقيقتان اللتان تنمان عن العرفان والتقدير... وفي غرفة معطرة باريج الياسمين سيستلقيان ويبقيان يقظين بين ذراعـــي بعضهما بعضا، وحيدين الى ما لا نهاية، منفيين الا انهما يتحدان في تلك العزلة، لا يمكن فصلهما في ذلك المنفى.

هبط الليل. اشرأب تشارلز وشاهد اضواء اكستر البعيدة. نادى على السائق طالـــبا منه ان يقله اولا الى فندق اسرة انديكوت ثم مال الى الوراء واستلذ بالمشهد القادم. ان اي شهوة لن تلوثه حتما. انه على الاقل مدين لايرنستينا مثلما هو مدين لسارة، غير انه رأى ثانية لوحة رائعة من الصمت الرقيق، رأى يديها في يديه...

وصلا. دخل تشارلز الفندق وقرع باب غرفة السيدة انديكوت بعد ان طلب من الرجل ان ينتظره.

- اوه، انت يا سيدي.

- الانسة وودراف في انتظاري. ساذهب بمفردي.

كان اذ ذاك قد استدار مبتعدا صوب السلالم.

- لقد رحلت السيدة الشابة يا سيدي.

- رحلت؟ تقصدين خرجت؟

- لا يا سيدي. اقصد رحلت.

حملق بوهن فيها.

- لقد استقلت قطار لندن هذا الصباح يا سيدي.

- لكنني... االنت متاكدة؟

- مـــتاكدة مثلما انا واقفة هنا يا سيدي. وقد سمعتها تخبر السائق بوضوح ان يقلـــها الى محطة القطار يا سيدي. ولما سالها عن اي قطار قالت له على نحو واضح مثلما اتحدث انا اليك الان: قطار لندن.

تقدمت السيدة العجوز المكتنـــزة الى امام.

- حسنا، انا مندهشة شخصيا يا سيدي. لا تزال اجرة غرفتها مدفوعة للايام الثلاثة القادمة.

- الم تترك اي عنوان؟

- ولا سطر يا سيدي. لم تقل كلمة واحدة لي عن وجهتها.

الغـــت تلك العلامة السوداء على نحو واضح تماما العلامة الجيدة بفضل عدم طلب اعادة مبلغ الايام الثلاثة.

- الم تترك رسالة لي؟

- ظننت انها ذاهبة معك يا سيدي. هذا ما فكرت به.

كان الوقوف مدة اطول هناك ضربا من المستحيل.

- هذه بطاقتي. لو سمعت اي اخبار عنها. ارجو اعلامي بها. مؤكدا. تفضلي. شيء ما لقاء الخدمة والبريد.

ابتسمت السيدة انديكوت ابتسامة تزلف.

- اوه، شكرا لك يا سيدي. مؤكدا.

- ثم خرج، الا انه عاد بنفس السرعة.

- الم يـــاتِ احـــد الخدم هذا الصباح حاملا رسالة ورزمة صغيرة الى الانسة وودراف؟

بدت السيدة (انديكوت) كأنها لا تفهم شيئا.

- بعد الساعة الثامنة مباشرة؟

ظلـــت صـــاحبة الفندق خالية الذهن لا تفهم شيئا. ثم نادت بيتسي ان التي حضرت واستجوبتها سيدتها استجوابا دقيقا... حتى انصرف تشارلز.

تهالك في مقعده في العربة واغمض عينيه. وشعر دون ارادته انه عديم الارادة. لـــو لم يكـــن مدققا في التفاصيل على ذلك النحو، لو انه جاء بعد سام مباشرة... سام! لص! جاسوس! هل اغوي واصبح جاسوسا عند السيد فريمان، او هل يمكن تفسير جريمته بوصفها استياء من الثلاثمئة جنيه إنكليزي البائسة؟ الى اي حدّ واضح يـــدرك تشارلز الان المشهد في لايم - لا بد ان سام ادرك ان امره سيكتشف حال رجـــوعهما الى اكستر ولهذا لا بد انه قرا رسالته... فاحمر وجه تشارلز خجلا في

العتمة. لو راه ثانية فلسوف يدق عنقه، بل انه فكر في لحظة ما في الذهاب الى احد مراكز الشرطة ويتهمه بـــ... حسنا بالسرقة على اي حال. الا انه سرعان ما ادرك عبث ذلك. ثم ما هي الفائدة التي سيحققها ذلك في الاساس: اكتشاف سارة؟

شاهد ضوءا واحدا في الظلمة الحالكة التي لفّته. لقد رحلت الى لندن، كانت تعـــرف انـــه عـــاش في لندن. لكن لو كان دافعها هو المجيء، كما اوحى بذلك غروغان ذات مرة، ودق بابه، او ليس من الاجدر ان يدفعها ذلك الدافع الى العودة الى لايم حيث تفترض انه سيكون فيها؟ او لم يقرر أن كل نيّاتها كانت شريفة؟ او لا يـــتعين الا يـــبدو امامها انسانا مرفوضا، ضائعا الى الابد؟ لمع الضوء الوحيد ثم انطفأ.

في تلـــك الليلة فعل شيئا لم يفعله منذ سنوات كثيرة. جثا على ركبتيه قرب الـــسرير وصـــلى. وكانـــت فحـــوى صلاته ان يجدها؛ لو فتش عنها بقية حياته فسيجدها.

55

صاح تويدلدي متعجبا وهو يصفق يديه منتصرا:

– لماذا؟ عنك! واذا ما توقف عن الحلم فيك، فأين ستكونين في رأيك؟

قالت أليس:

– حيث انا الان مؤكدا.

قال تويدلدي بازدراء:

لستِ انتِ. لن تكوني في اي مكان. لماذا؟ لأنك لستِ سوى شيء ما في حلمه!

اضاف تويدلدام:

– اذا ما استيقظ ذلك الملك، فستنطفئين مثل شمعة.

هتفت أليس ساخطة:

– لن انطفئ

لويس كارول: عبر المرآة 1872

وصـــل تشارلز المحطة في الوقت المحدد صباح اليوم التالي. وبعد ان تدبَّر على نحـــو لا يليق بسيد نبيل انـــزال حقائبه ووضعها في عربة الامتعة واختيار مقصورة فارغـــة مـــن الدرجة الاولى، جلس نافد الصبر، منتظرا انطلاق القطار. بين الفينة والفيـــنة، كـــان بعض المسافرين يلقي نظرة الى داخل المقصورة فتزجرهم تحديقة غـــروغان – فهـــذه المقـــصورة محجوزة لغير المصابين بالجذام – التي يسهل على الانكليـــز الـــسيطرة بها. انطلقت الصفارة وظن تشارلز انه كسب العزلة التي كان يـــتوق الـــيها. الا ان وجهـــا ملتحيا ضخما ظهر في اللحظة الاخيرة امام النافذة وواجهـــت التحديقة الباردة تحديقة اشد برودا من رجل في عجالة من امره يسعى الى ايجاد مكان له.

تمـــتم القـــادم المتأخـــر بعبارة «عفوا يا سيدي» ووجد سبيله صوب الجهة القـــصوى من المقصورة. جلس الرجل البالغ من العمر اربعين عاما او ما يقرب من ذلك بقبعته ذات القمة المربعة، واضعا يديه على ركبتيه، مستعيدا انفاسه. في محياه ثمة شيء يوقع الأمن في النفس. لعله ليس سيدا نبيلا تماما، ربما رئيس خدم طموحا

(الا ان الخدم لا يسافرون بالدرجة الاولى)، او واعظا بروتستانتيا ناجحا – من نمط سبيرجيون[119] صاحب المعبد المستأسد الذي يهدي الناس الى مذهب جديد بحرقهم بـــبلاغة رخيـــصة عـــن اللعنة الابدية. وفكر تشارلز ان هذا الرجل لا يبعث على الارتياح البتة ولهذا فانه من الامور النموذجية في العصر لا بد من التعالي عليه اذا ما حاول ان يتجاذب اطراف الحديث.

وكمـــا يحدث أحيانا عندما يحدق خلسة شخص ما الى الناس ويمعن في النظر اليهم، فإن تشارلز ضبط متلبسا وهو يحدق على ذلك النحو فاستنكر عمله ذلك اذ كـــان ثمـــة ايضاح واضح جدا في النظرة الحادة المصوبة الى احد الجانبين بأن على تشارلز ان يكتفي بالنظر الى نفسه. وسرعان ما حول تحديقته خارج النافذة وعزى نفسه ان الشخص رفض الالفة مثلما رفضها هو نفسه.

وســـرعان ما جعلت الحركة المتوازنة تشارلز يستكين الى حلم اليقظة. كانت لـــندن مدينة كبيرة، لكن لا بد لها من البحث عن عمل على الفور. لديه الوقت، المـــوارد المالية، الارادة، ربما يمر اسبوع، اسبوعان، الا انها بعد ذلك ستقف قبالته. ربمـــا سيهبط عليه عنوان اخر من فتحة الرسائل. عجلات القطار هي التي كانت تقول ذلك: لا – يمكن – لها – ان – تكون – بهذه القسوة، لا يمكن– لها – ان – تكـــون – بهـــذه – القسوة، لا يمكن لها – ان تكون – بهذه – القسوة،... احتاز القطـــار الـــوديان الخـــضر والحمر واتجه صوب بلدة كولومتون. وشاهد تشارلز كنيـــستها دون ان يعرف موقع المكان، ثم اغمض عينيه بعد ذلك. فهو لم ينم نوما هنيئا في الليلة الماضية.

لم ينتـــبه رفيق السفر لتشارلز النائم بعض الوقت. لكن ما ان غار ذقنه اكثر فاكثـــر – كان تشارلز قد احتاط للامر بأن خلع قبعته – حتى بدأ الرجل الملتحي يتفرس فيه وهو مطمئن الى ان فضوله لن تضايقه الدهشة.

كانت نظرته غريبة: مكسوة بمادة غروية، متأملة، مستهجنة كأنه يعرف اي نمط من الرجال هو هذا (مثلما اعتقد تشارلز اعتقادا تماما اي نمط من الرجال هو)،

---

(119) تـــشارلز هـــارون سبيرجيون (1834 - 1892): قس بروتستانتي معمداني متطرف وواعظ مـــشهور، مـــواعظه الاســـبوعية المنشورة تملأ اكثر من خمسين مجلدا في الطبعة الكاملة لاعماله. اعلن عن ارتيابه في المدخل العلمي الذي نهجه النقد الانجيلي الحديث. (المترجم)

ولم يعجب بتلك المعرفة ولا النوع. صحيح انه لاح، دون ان يلحظه احد، شخصا اقـل برودا، دكتاتوريا، بيد ان ملامحه ظلت توحي بهالة غير مريحة من الثقة بالنفس – واذا لم تكن الثقة بالنفس تماما، فإنها على الاقل في حكمه على الاخرين، في المقدار الذي سيجنيه منهم، وما يتوقعه منهم، وما يفرضه عليهم.

ان تحديقـة امدها دقيقة او ما يقرب من ذلك يمكن ان تكون قابلة للتفسير. فالسفر بالقطار مثير للسأم؛ ومن الممتع التجسس على الاخرين، وهلم جرا. الا ان هـذه النظـرة المحدِّقـة التي اصبحت وحشية في شدتها، استمرت اكثر من دقيقة واحدة. استمرت حتى تجاوز القطار بلدة تونتون على الرغم من انها قوطعت هناك عندما جعل الصوت المنبعث من رصيف المحطة تشارلز يستيقظ بضع لحظات. غير انه لما عاد الى نومه ثانية، انشدَّت العينان اليه ثانية على نفس النحو الطفيلي.

ربما تقع تحت النظرة المحدقة نفسها ذات يوم. وربما تكون واعيا بها – في اطار اقل تحفظا من اطار قرننا – فالمراقب العنيد لن ينتظر حتى تنام. ومما لا ريب فيه ان ذلـك سـيوحي بشيء، غير سار، مدخل جنسي منحرف الى حدّ ما... رغبة في التعـرف اليك على نحو لا تريد ان يعرفك به شخص غريب. وفي تجربتي الحياتية هناك مهنة واحدة لا غير تجد فيها تلك النظرة بما فيها من مزيج غريب من الفضول والهيبة، من التهكم والغواية.

الان هل استطيع استخدامك؟

الان ماذا في وسعي ان افعل لك؟

انها تماما، وكما بدا لي دوما، النظرة التي يجب ان يظهر بها الاله. هي ليست نظرة مقدسـة، كما نظن؟ بل هي نظرة تثير الريبة (كما اوضح منظرو الرواية الجديدة). انني ارى هـذا رؤيـة واضحة على الوجه، نظرة مألوفة لي اكثر مما نبغي، هي نظرة ذلك الرجل الملتحي المحدقة الى تشارلز. هذا، وسأتوقف عن التظاهر والادعاء.

فالسؤال الذي اطرحه وانا اتفرس في وجه تشارلز ليس شبيها تماما بالسؤالين الواردين انفا فهو: ما الذي سأفعله بك بحق الله؟ لقد فكّرت قبل قليل ان انهي حياة تـشارلز الان وعند هذه النقطة، ان اتركه الى ما لا نهاية وهو في طريقه الى لندن. غير ان تقاليد الرواية الفكتورية تسمح بالنهاية التي تفتقر الى الخاتمة الا انها لم تسمح بالـنهاية المفـتوحة، ولقـد ذكرت في مكان سابق ان عليَّ وجوب اعطاء الحرية

للشخـــصيات. ان مشكلتي بسيطة – ما يريده تشارلز واضح؟ نعم، في الحقيقة. الا ان ما يريده البطل ليس واضحا تماما. وانا لست متأكدا من مكان وجود البطلة في هـــذه اللحظة. مؤكدا، لو ان هذين الشخصين يمثلان شريحتين من الحياة الحقيقية، بدلا من ان يكونا شريحتين من خيالي، فإن المنفذ من هذه المعضلة واضح: المتطلب الاول يكـــافح المتطلب الثاني فيخفق او ينجح حسبما هو الواقع. وتتظاهر الرواية عـــادة بالتوافق مع الواقع: فيضع المؤلف المتطلبات المتناحرة في الحلبة ومن ثم يصف القتال – الا انه في الحقيقة يُرتب القتال، تاركا الجانب الذي يميل اليه يفوز. ونحن نحكم على كتاب الرواية من مهارتهم في ترتيب القتال (بكلمات ادق، في اقناعنا ان القـــتال غـــير مرتَّب) ومن نوع المقاتل الذي يحددون ميلهم اليه: المقاتل الطيب، المأساوي، الشرير، المضحك، وهلم جرا.

غـــير ان الحجة الاساسية في ترتيب القتال تتمثل في اظهار الكاتب لقرائه ما يعـــتقده عـــن العالم المحيط به – فيما اذا كان متشائما، متفائلا، حسبما تريد. لقد تظاهـــرت بالرجوع الى عام 1867، من المؤكد ان تلك السنة هي في الواقع ماضٍ عمره قرن من الزمن. ومن العبث اللامجدي اظهار التفاؤل او التشاؤم او اي شيء اخر فيما يخص ذلك العام، لاننا نعلم ما الذي حدث منذ ذلك الوقت.

لهـــذا فانني اواظب على التحديق الى تشارلز ولا اجد سببا هذه المرة لترتيب القتال الذي يوشك ان يشترك فيه. وهذا يترك امامي خيارين اثنين: ان اترك القتال يـــستمر ولا العـــب فيه سوى دور المسجل له، او ان اخذ كلا الجانبين فيه. انني اتفـــرَّس في الـــوجه المنهوك على نحو غامض والعابث تماما. وفي حين نقترب من لـــندن، اعتقد بأنني اجد حلا؛ اي، انني ارى بأن المعضلة زائفة. والاسلوب الوحيد الذي لا استطيع ان اؤدي فيه دورا في المعركة هو ان اظهر وصفين اثنين لها. وهذا يُبقي لدي مشكلة واحدة: هي انني لا استطيع ان اقدم الوصفين على الفور. وعلى الـــرغم مـــن هذا، فأيّا كان ثاني الوصفين، فانه سيبدو الوصف النهائي، الوصف الحقيقي لأن طغيان الفصل الاخير على درجة بالغة من القوة.

اتناول محفظة نقودي من جيبـــي واخرج منها قطعة نقد من ذوات الشلنين، اضـــعها فوق ظفر ابهامي الايمن واطوح بها في الهواء لترتفع مسافة قدمين اثنين (60 سم) ومن ثم امسك بها بيدي اليسرى.

فلـــيكن كذلك. وفجأة ادرك ان تشارلز فتح عينيه واخذ ينظر اليّ. ثمة ما هو اكثـــر من الاستهجان يلوح في عينيه الان؛ انه يدرك انني إمّا مغامرٌ أو مخبولٌ. فأرد على استهجانه واعيد قطعة النقد الى محفظة نقودي. يتناول قبعته ويمسح ذرة غبار غير مرئية (بديلا عن نفسي) من مخملها ويعتمرها.

نمـــر مــــن تحت الاعمدة الحديدية العملاقة التي تسند سقف محطة بادنغتون. نـــصل، فيهبط الى الرصيف ويومئ الى حمال، ويلتفت بعد بضع ثوانٍ، اثر اعطائه التعليمات. كان الرجل الملتحي قد توارى عن الانظار بين الحشود.

56

ما هي واين هي الان!

تينيسون: مود 1855

مكـتب تحريات خاص تشرف عليه الارستقراطية وتحت توجيه مباشر مـن الـسيد بولاكـي نفـسه. علاقات مع الشرطة السرية البريطانية والاجنبـية. تحريات دقيقة وسرية تجري في انكلترا والقارة الاوروبية والمستعمرات. ادلة تجمع لقضايا في محكمة الطلاق، الخ.

اعلان من اواسط العهد الفكتوري

قد ينقضي اسبوع، اسبوعان، الا انها بعد ذلك ستقف قبالته... يبدأ الاسبوع الثالث ولم تقف قبالته. لا يمكن لتشارلز ان يتصدّع، فقد كان هنا، هناك، في كل مكان.

وقد حقق هذا الوجود في كل مكان باستئجار اربعة مخبرين سريين – اما اذا كانـــوا تحت اشراف السيد بولاكي التام، فهذا ما لست واثقا منه، الا انهم عملوا بجـــد، اذ كان ينبغي لهم ذلك لأن مهنتهم كانت مهنة حديثة تماما عمرها احدى عـــشرة ســـنة لا اكثر وكانت مثار احتقار عام. فالسيد النبيل الذي يطعن شخصا حـــتى المـــوت في عام 1866 كان عمله يعد عملا مناسبا. وقد حذرت مجلة بَنْش قائلة: «لو سار الناس مرتعبين مثل من يقدم على الخنق فعليهم تحمل العواقب».

بـــذل رجـــال تـــشارلز جهودهم اول مرة في مكاتب المربيات، دون طائل. وحاولـــوا البحث في المجالس التعليمية لكل الملل التي تدير مدارس الكنيسة. بل ان تـــشارلز نفـــسه اســـتأجر عربة وامضى ساعات عقيمة في البحث، كانت عيناه العنـــيدتان في اثـــنائها تنظران مليا الى وجه كل انثى شابة يمر به، في مناطق لندن الفقـــيرة – الارستقراطية. لا بد ان سارة تسكن في واحدة منها: في – بكهام، في بنتونفـــيل، في بـــوتني؛ بحث في عشرات المناطق المتشابهة ذات الشوارع الحديثة، الانـــيقة، وفي البيوت التي تعمل فيها خادمة واحدة. كما ساعد رجاله في التحري

عن مكاتب النساء الجديدة الآخذة بالانتشار. فكان يتضح فيه عداء عام لادم طالما ان هذه المكاتب تحملت كل المسؤولية عن الانحياز الذكري كما انها بانت من اهم الامـــاكن لنشوء حركة التحرير. اظن ان هذه التجارب العقيمة في المسألة الوحيدة التي كان يهتم بها لم تكن مضيعة عنده. اذ شرع يدرك رويدا رويدا مظهرا واحدا مـــن مظاهر سارة على نحو افضل: شعورها بالاستياء، بالظلم، الناجمين عن التحيز الذي يتعذر علاجه في المجتمع.

اســـتيقظ صـــباح يوم ليجد نفسه في منتهى القنوط. فقد بات يقينا في نظره الاحتمال الرهيب في امتهانها البغاء، وهو القدر الذي المحت اليه ذات مرة. في ذلك المـــساء خرج في حالة من الذعر الى نفس منطقة هايماركت التي زارها من قبل. اما الـــشيء الذي تخيله سائق العربة فهذا ما لا استطيع افتراضه، الا انه لا بد قد اعتقد ان الـــراكب من اشد الذين عرفهم وسوسة. فقد سارت العربة بين هذه الشوارع ساعتين، و لم يتوقفا الا مرة واحدة، فقد شاهد السائق مومسا ذات شعر احمر تحت مصباح غازي. الا ان نقرتين اوعزتا اليه بالمضي قدما.

لم تنتظر عواقب خياره الحرية كي تفرض عليه ضريبتها. فالرسالة الاخيرة التي بعـــث بهـــا الى السيد فريمان ظلت بلا رد عشرة ايام. الا انه اضطر ان يوقع على استلام رسالة وصلته باليد وكانت منذرة بالنحس، ارسلها محامو السيد فريمان.

سيدي،

فيما يخص الانسة ايرنستينا فريمان

«اخبرنا السيد ايرنست فريمان، والد المذكورة اعلاه الانسة ايرنستينا فريمان، راجـــيا حضوركم الى هذا المكتب في الساعة الثالثة من يوم الجمعة القادم. ان عدم حضوركم سينظر اليه على انه اعتراف في حق موكلنا في اقامة الدعوى».

اوبري وباغوت

اخذ تشارلز الرسالة الى محاميه الذين كانوا يعالجون قضايا اسرة سميثسون منذ القـــرن الـــثامن عشر. وكان مونتاغ الحالي شابا اكبر قليلا من تشارلز نفسه الذي جلـــس يـــراوده الاحساس بالعار وهو الاثم المعترف قبالة مكتبه. كان الاثنان في ونشســـتر معا؛ لم يكونا صديقين ودودين، الا انهما كانا يستلطفان بعضهما بعضا بما فيه الكفاية.

– حسنا، ماذا يعني هذا يا هاري؟

– يعني يا فتاي العزيز انك تملك حظ الشيطان، وهم جبناء.

– لماذا يرغبون في رؤيتي اذا؟

– لـــن يتركوك كليا يا تشارلز. هذا الامر يتطلب اشياء كثيرة، وتخميني هو انهم سيطلبون منك اعترافا خطيا.

– اعترافا بالذنب.

– تمامـــا. اخـــشى انك ستواجه حتما ادلة شرسة، الا انني لا استطيع الا ان انصحك بالتوقيع عليها، اذ ليست لديك اي حجة.

في عـــصر تلـــك الجمعة، اقتيد تشارلز ومونتاغ الى غرفة انتظار كئيبة في واحـــد مـــن مباني الهيئات القانونية الاربع في لندن[120]. شعر تشارلز ان الامر يـــشبه مـــا يكون بالمبارزة، وان مونتاغ مساعده. وتُركا ينتظران طويلا حتى الـــساعة الثالـــثة والربع. ولما كان مونتاغ قد توقع مثل هذا العقاب الاولي، فقد تحمله الاثنان بمتعة عصبية.

واخيرا طلب اليهما المثول. نهض، رجل مسن قصير القامة، سريع الغضب من وراء مكتب كبير، ووقف من ورائه السيد فريمان الذي كان يتفرس في تشارلز. في الحقـــيقة، كانت عيناه هادئتين، اختفت منهما كل بهجة. انحنى تشارلز له الا انه لم يـــتلقَّ اي رد. صـــافح المحاميان احدهما الاخر بجفاف. وكان هناك رجل خامس: رجل طويل القامة، نحيف، اصلع الرأس، ذو عينين داكنتين، نفاذتين، جفل مونتاغ لمرآه على نحو غير محسوس.

– اتعرف السيد المحامي ميرفي؟

– من سمعته لا اكثر.

كان المحامي من الطراز الاول يعني في العهد الفكتوري مستشارا قانونيا عالي الرتبة. وكان المحامي ميرفي قاتلا، اكثر الناس اثارة للرعب في زمانه.

اشـــار الـــسيد اوبري على نحو قطعي الى مقعدين يجلس عليهما الزائران، ثم جلس ثانية. اما السيد فريمان فقد ظل واقفا وقفة عنيدة. قلب السيد اوبري بمجموعة

---

(120) هـــذه المبانـــي تابعة لاربع جمعيات او هيئات لطلاب الحقوق والمحامين وهذه الجمعيات الاربع من حقها وحدها منح الاجازة لممارسة مهنة الحقوق في بريطانيا. (المترجم)

اوراق مما منح تشارلز بعض الوقت الذي لم يكن يرغب فيه ليستوعب الجو الارهابي المألوف في مثل هذه الاماكن: مجلدات المثقفين، سجلات رسمية مجلدة ومربوطة بشريط اخضر، اضابير كئيبة لقضايا منتهية وضعت في اماكن عالية من حول الغرفة كأنها قوارير ابراج حمام مزدحمة.

رفع المحامي العجوز بصره الى الاعلى على نحو قاسٍ.

- اعتقد، يا سيد مونتاغ، ان حقائق الانتهاك المريع لهذه الخطوبة غير قابلة للنقاش. انني لا اعرف اي تفسير قدّمه لك موكلك لسلوكه. غير انه قدم الدليل الوافي لذنبه في هذه الرسالة الموجهة للسيد فريمان، على الرغم من انني اوضح بأنه اراد بمثل هذه الصفاقة ان...

- ان مثل هذه التعابير في ظروف كهذه يا سيد اوبري...

تدخل المحامي ميرفي.

- اتفضل ان تسمع اللغة التي استخدمها انا شخصيا يا سيد مونتاغ - وفي محكمة علنية؟

- اخذ مونتاغ نفسا ثم اطرق. فنظر اليه اوبري العجوز نظرة مليَّة تنم عن استهجان لا حدود له.

- كنت اعرف المرحوم جدك يا مونتاغ معرفة جيدة، واعتقد انه لو كان حيا لفكر مليا قبل ان يتبنى قضية موكل مثل موكلك. لكن لنترك هذا الامر في الوقت الحاضر فقط. انني اعد هذه الرسالة...

وهنا رفع الرسالة عاليا كأنه يحملها بملقط.

- اعدّ هذه الرسالة المشينة بمثابة زيادة الطين بلة، بمحاولتها المخزية لتبرئة الذات والغياب التام لاي اشارة للعلاقة الاجرامية الدنيئة التي يعلم كاتبها جيدا انها اكثر مظاهر جريمته قتامة.

رمق تشارلز بنظرة غاضبة.

- لعلك ظننت يا سيدي ان السيد فريمان لم يكن مطلعا اطلاعا كافيا على علاقتك الغرامية. أنت مخطئ. اننا نعرف اسم الانثى التي تورطت وأيّاها في مثل هذا الاتصال الجنسي الوضيع، ولدينا شاهد على الظروف التي لا اقوى على وصفها بأي صفة لما تثيره فيَّ من تقزز واشمئزاز.

احمــر وجه تشارلز خجلا، في حين نفذت عينا السيد فريمان اليه. و لم يستطع فعل اي شيء سوى ان يخفض رأسه، وان يلعن سام. قال مونتاغ:

- لم يأتِ موكلي الى هنا دفاعا عن سلوكه.

- واذ ذاك لن تدافع عن اي اجراءات؟

- ان شخصـا له مثل صيتك في مهنتنا لا بد ان يعلم انني لا استطيع الاجابة عن ذلك السؤال.

تدخل المحامي ميرفي ثانية.

- ألن تدافع عن اي اجراء اذا ما اتخذ؟

- مـع احترامي يا سيدي، انني لا بد ان اتحفظ على القرار فيما يخص تلك القضية.

شوّهت ابتسامة ماكرة شفتي المحامي ميرفي.

- ليس القرار موضع نقاش يا سيد مونتاغ.

- افي وسعنا الاستمرار يا سيد اوبري؟

اختلس السيد اوبري النظر الى المحامي ميرفي الذي اومأ ايماءة متجهمة.

- ليست هذه فرصة ينبغي لي ان اقدم النصح فيها يا سيد مونتاغ بضرورة التوقف وقفة طويلة اكثر مما ينبغي عند مرافعة محامي الدفاع.

قلّب الاوراق ثانية.

- سأختصر المسألة. ان نصيحتي للسيد فريمان كانت واضحة. ففي تجربتي الطويلة، تجربتي الطويلة جدا، اقول ان هذا اقذر مثال لاسوأ سلوك يقع تحت نظري. فموكلك لم يستحق العقاب الصارم الذي سيحل به حسب. فانا اعتقد اعتقادا راسخا ان مثل هذا التصرف الشائن ينبغي ان يعرض على الملأ ليكون عبرة للاخرين.

صمت صمتا طويلا كي تُستوعب كلماته استيعابا عميقا. تمنى تشارلز لو كان في وسعه ان يسيطر على الدم المتدفق الى وجنتيه. اخيرا اطرق السيد فريمان، غير ان المحامي ميرفي كان يعرف جيدا كيف يستغل الشاهد الخجول. فوضع ما يسميه المحامي الحديث السن المعجب اسئلته المهلكة التي تبرز فيها على نحو لطيف السخرية والسادية.

استأنف السيد اوبري حديثه بلهجة جديدة هادئة.

– على اي حال، ولاسباب لن اخوض في تفاصيلها، فإن السيد فريمان اختار ان يظهـــر الـــرأفة في قضية لا تستوجبها. وهو لا يريد في الوقت الحاضر ان يرفع القضية الى المحاكم، لكن بشرط.

بلع تشارلز ريقه، ونظر الى مونتاغ.

– انني واثق بأن موكلي ممتن لموكلك.

– بناء على نصيحة سديدة، فقد...

مال السيد اوبري صوب المحامي ميرفي الذي احنى رأسه احتراما دون ان يحول من انظاره الثابتة على تشارلز البائس.

–... هـــيأتُ اعترافا بالذنب. لا بد لي ان اعلمك ان قرار السيد فريمان عدم اقامة الدعوى في المحاكم على الفور يعتمد اعتمادا كليا على توقيع موكلك الوثيقة في الوقت الراهن وفي اثناء وجودنا، وبشهادتنا جميعا.

وهنا سلم الوثيقة مونتاغ الذي القى نظرة اليها ثم رفع بصره.

– هل لي بطلب الحديث الى موكلي على انفراد خمس دقائق؟

– انني مندهش تماما اذ ترى الحديث ضروريا.

انتفخ قليلا غير ان مونتاغ ثبت على موقفه.

– حسنا جدا، حسنا جدا. اذا كان ذلك ضروريا.

وهكذا وجد هاري مونتاغ وتشارلز نفسيهما ثانية في غرفة الانتظار الكئيبة. قرأ مونتاغ الوثيقة ثم ناولها بجفاف الى تشارلز.

– حسنا. هذا هو علاجك. لا بد لك من تناوله يا فتاي العزيز.

وفي حـــين حـــدق مونـــتاغ الى مـــا وراء النافذة، قرأ تشارلز الاعتراف بالذنب.

انـــني تشارلز الجرنون هنري سميثسون اقر اقرارا كاملا وبكل حرية وبلا اي اعتبار سوى رغبتي في اعلان الحقيقة بـــ.

1. انني تعهدت بالزواج بالانسة ايرنستينا فيرمان.
2. لم يُقدم لي اي سبب كان من الطرف البريء الانسة ايرنستينا فريمان المذكورة اعلاه لفسخ عقدي واياها،

3. لقـــد احطت علما تماما بمكانتها في المجتمع، شخصيتها، مهر زواجها، وافاق المـــستقبل قبل ان اخطبها وان اي شيء لم اعرفه فيما بعد عن الانسة ايرنستينا فريمان المذكورة انفا ليناقض او ينكر ما ذكرته،
4. لقـــد فـــسخت ذلـــك العهد دون سبب عادل وبلا اي مسوغ سوى انانيتي وخيانتي الاجرامية،
5. انـــني ارتبط ارتباطا سريا بعلاقة مع فتاة تدعى سارة اميلي وودراف المقيمة في لايم ريجيس واكستر وقد حاولت ان اخفي هذه العلاقة،
6. ان ســـلوكي في هذه القضية كان سلوكا شائنا، ولهذا السبب فقد فقدت الحق في ان اعد سيدا نبيلا الى الابد.

علاوة على ذلك، فانني اقر واعترف بحق الطرف المتضرر في اقامة الدعوى في المحاكم ضدي الى اجل غير مسمى وبلا اي شروط.

علاوة على ذلك، فانني اقر واعترف ان الطرف المتضرر في وسعه ان يستخدم هذه الوثيقة في اي شأن وحسب رغبتها.

عـــلاوة على ذلك، ان توقيعي في ادناه قد اعطى بارادتي الحرة وفي ضوء فهم تـــام للظروف الواردة، وفي ضوء الاعتراف الصريح بسلوكي ودون اي ضغط او تهديـــد، ودون اي اعتـــبار لاحق ودون الحق في التعويض، النقض، الاعتراض، او الانكار بأي خصوص، الان ومستقبلا، وتحت كل الظروف المشار اليها في اعلاه.

- اليست لديك ملاحظة عنها؟

- لا بـــد مـــن وجود خلاف بشأن الصياغة. فما من شأن اي محامٍ ان يضع الـــنقطة السادسة وهو سعيد. ولو انتقلت القضية الى المحاكم، فإن في وسع المرء ان يجـــادل بـــأن ما من شأن اي نبيل ان يعترف مثل هذا الاعتراف الا اذا كان تحت وطـــأة الـــتهديد. في وسع المحامي ان يتبين الكثير من هذا. وهي في صالحنا. وانني لمـــندهش تمام الاندهاش كيف سمح اوبري وميرفي بذلك. اعتقد ان هذه العبارة من وضع الاب. انه يريد ان يُذل نفسه.

- عمل قذر.

بان كأنه يريد ان يمزقها اربا اربا. فأخذها منه مونتاغ برفق.

- القانون لا يهتم بالحقائق يا تشارلز. ينبغي ان تعرف هذا الشيء الان.

– وهـــذه العــبارة: «يستخدم هذه الوثيقة في اي شأن وحسب رغبتها» ما الذي تعنيه بحق السماء؟

– قد تعني ان الوثيقة مدرجة في صحيفة التايمز. يبدو انني اتذكر شيئا مشابها حـــدث قبل بضع سنوات الا ان لدي الاحساس بأن فريمان العجوز يريد ان يبقي القضية سرية. كان في وسعه ان يستدعيك للمثول امام المحكمة لو اراد ان يعاقبك.

– اذا ينبغي لي ان اوقع.

– اذا اردت فانني استطيع الذهاب والمناقشة في بعض المصطلحات الواردة – الـــتي تستطيع من خلال بعضها ان تلتمس ظروفا مخففة اذا ما رفعت الى المحاكمة. الا انـــني انـــصح بخـــلاف ذلك. فالقسوة الشديدة الموضحة كما هي ستكون في صـــالحك اكثـــر. وهي تفيدنا في ان يدفعوا الثمن. واذا ما اقتضت الضرورة، ففي وسعنا ان نحاجج بأن الوثيقة كانت مشهدا لعينا قاسيا.

اومأ تشارلز ثم نهضا واقفين.

– هـــناك شيء واحد يا هاري. اتمنى ان اعرف كيف حال ايرنستينا. انني لا استطيع الاستفسار منه.

– ســـأتأكد ان كان في وسعي ان اتحدث الى اوبري العجوز فيما بعد. وهو ليس سيئا الى هذا الحد، وقد اضطر الى المبالغة في تصوير الصعوبات امام الاب.

هكذا رجعا ووُقعت الوثيقة، اذ وقعها تشارلز اول مرة ثم وقعها الاخرون كل بدوره. ظل الجميع واقفين وساد صمت قصير، محير. ثم تحدث اخيرا السيد فريمان.

– والان لا تلطخ حياتي ثانية ايها السافل. تمنيت لو انني اصغر سنا لكنت...

– عزيزي السيد فريمان!!

اســـكت صـــوت اوبـــري العجوز الحاد موكله. تردد تشارلز ثم انحنى لكلا المحامين وغادر المكان يتبعه مونتاغ.

غير ان مونتاغ قال له خارجا.

– انتظرني في العربة.

بعد دقيقة او دقيقتين استقل هو الاخر العربة الى جانب تشارلز.

– انهـــا علـــى ما يرام، كما يتوقع. تلك هي عبارته. وقد افهمني ما سيفعله فـــريمان لـــو حاولت الزواج ثانية. انه سيكشف الوثيقة التي وقعتها يا تشارلز امام

انظـــار مـــن سيصبح حموك في المستقبل. وهو يرمي بذلك الى ابقائك اعزب طيلة حياتك.

- خمّنت مثل هذا الشيء.

كمـــا اخبرني السيد اوبري العجوز عن الشخص الذي انت مدين له باطلاق سراحك لحسن سلوكك.

- مدين لها؟ هذا ما خمّنته ايضا.

- كان يسعى الى الانتقام، الا ان السيدة الشابة استبعدت ذلك كما يتضح.

ترنحت العربة مئة ياردة (91 مترا) قبل ان يتكلم تشارلز.

- لقد لُوثت سمعتي الى الابد.

- اذا اردت ان تكون مؤمنا في عالم من المتزمتين فلا يمكنك ان تتوقع علاجا اخـــر. انني متيمٌ مثل الرجل الذي يجلس الى جواري بأي فتاة جميلة. ولا الومك في هذا. لكن لا تقل لي ان الثمن لم يكن عادلا.

مالـــت العـــربة في سيرها، في حين حدَّق تشارلز منقبض النفس الى الشارع المغمور بنور الشمس.

- اتمنى لو كنت ميتا.

- اذا لنذهب الى مطعم فيري ونلتهم سرطانا او سرطانين من سراطين البحر، وستخبرني عن الانسة وودراف الغامضة قبل ان تموت.

اثـــارت المقابلة المهينة الاحباط في نفس تشارلز بضعة ايام. وانتابه توق شديد الى الـــسفر خـــارج الـــبلاد، والى الا يرى انكلترا ثانية. ناديه، معارفه، ليس في مـــستطاعه رؤيتهم ثانية. واعطى تعليماته بانه ليس في البيت. واندفع للبحث عن ســـارة انـــدفاعا نشطا. وفي يوم من الايام عثر مكتب التحريات على فتاة تدعى الانـــسة وودبـــري، بـــدأت عملها حديثا في احدى كليات البنات في ستوك نيو ونيغـــتون، وهـــي ذات شعر كستنائي تنطبق عليها الاوصاف التي قدمها. وقضى ساعة مؤلمة عصر احد الايام خارج الكلية. ولما خرجت الانسة وودبري في مقدمة كوكبة من الفتيات الشابات وجد انها لا تحمل سوى القليل من الشبه بسارة.

حـــل شـــهر حزيران/يونيو، وكان شهرا رائقا على نحو مدهش. وبقي حال تـــشارلز كما هو عليه، غير انه توقف عن البحث مع اقتراب الشهر من نهايته. اما

مكـــتب التحريات فقد ظل متفائلا، الا انه لا بد من الاخذ بنظر الاعتبار الاجور التي يتعين عليه دفعها له. فقد تم البحث في اكستر اضافة الى لندن، بل ارسل احد الرجال للتحقيق سرا في لايم وتشارماوث، بلا طائل. وفي مساء احد الايام، طلب تشارلز من مونتاغ ان يتناول الافطار معه في منـــزله في كنـــزنغتون ووضع نفسه تحـــت تصرفه على نحو صريح وبائس. ما الذي ينبغي له فعله؟ لم يتردد مونتاغ في اخباره. يجب ان يسافر الى خارج البلاد.

- ما هو هدفها اذا؟ ان تسلم نفسها اليّ - ومن ثم ترميني كأنني لا شيء.

- اغفـــر لي اذا قلـــت ان الافتـــراض الاخير هو الصحيح. او لم يكن ذلك الطبـــيب علـــى حـــق؟ االنت واثق بأن دافعها لم يكن التدمير الشرس؟ ان تحطم مستقبلك؟ ان تضعفك وتحولك الى ما أنت عليه يا تشارلز؟

- لا استطيع ان اصدق ذلك.

- عليك ان تصدق ان الادلة كافية حتى يتوفر ما يناقضها.

- ثمة صراحة... نـــزاهة وراء كل قصصها وخداعها. لعلها توفيت، فهي لا تملك، وليس لها اسرة.

- اذا دعني ارسل كاتبا ليلقي نظرة على سجل الوفيات.

نظـــر تـــشارلز الى هذه النصيحة المعقولة كأنها اهانة. الا انه قبل بها في اليوم التالي، لكن لم يكن هناك ما يشير الى وفاة سارة وودراف.

اضاع وقته اسبوعا اخر، وفجأة قرر ذات مساء ان يرحل خارج البلاد.

57

كلٌ لنفسه، لا تزال هي القاعدة
نتعلمها عندما نذهب الى المدرسة -
وليأخذ الشيطان من يبقى في الاخير، اوه!

اي. إتش. كلف: قصيدة 1849

دعـــوني الان انـــتقل عـــشرين شهرا الى امام، الى يوم منعش في اوائل شهر شباط/فبراير عام 1869، وصل اخيرا في اثناء ذلك غلادستون الى رئاسة الوزارة في 10 داوننغ ستريت، وتم اخر اعدام علني في انكلترا. وكان كتاب **خضوع النساء** لمـــيل وكلـــية غيرتـــون علـــى وشك الظهور. اما نهر التايمز فكان بلونه المألوف الرصاصـــي - الطـــيني السيئ الصيت. الا ان السماء العالية كانت زرقاء على نحو ساحر. واذا ما نظر المرء الى اعلى فقد يظن انه في فلورنسا.

عـــند النظر الى الاسفل، على امتداد السدة الجديدة في منطقة تشيلسي ثمة ما يشير الى الثلج فوق الارض. وعلى الرغم من ذلك، ثمة ما يشير على نمط باهت الى بدايـــة الـــربيع ايضا، تحت نور الشمس، ليس الا. انني واثق بأن المرأة الشابة، التي رغبت في ان اظهرها وهي تدفع عربة صغيرة (لكنني لم استطع اظهارها على ذلك النحو لأن تلك العربات لم يبدأ استعمالها الا بعد مضي عقد من الزمن)، لم تسمع البـــتة بكاتالوس، وما كانت لتفكر كثيرا بما يدور عن الحب الحزين حتى لو سمعت بـــه. الا انها كانت تعرف الافكار الخاصة بالربيع. على اي حال، لقد تركت توا ثمرة ربيع سابق في البيت (على بعد ميل الى جهة الغرب) متدثرة وملتفة كأنها بصلة تحت الارض. ويبدو واضحا انها تفضل ان ينمو بصلها جملة، شأنها شأن اي بستاني صـــالح، علـــى الـــرغم من انها تحتال لترتيب ثوبها. ثمة شيء في ذلك المشي الوئيد المتـــسكع الـــذي تتميز به الامهات الحوامل، اقل غطرسة عدوانية في العالم، على الرغم من انها تظل غطرسة.

تمـــيل هذه المرأة الشابة المتكبرة، الذكية والمتلكئة من فوق حاجز وتحدق الى حـــركة الجَـــزْر الرمادية. وجنتان متوردتان وعينان رائعتان برموش حنطية، عينان

تمـــنحان القليل من زرقتيهما الى السماء الممتدة من فوقها، لكنهما لا تمنحان شيئا مـــن بريقهما. ما كان في وسع لندن ان تحقق شيئا على هذا النحو من الصفاء. الا انهـــا لما التفتت واجالت الطرف في صف انيق من بيوت مشيدة بالقرميد، بعضها قـــديم وبعضها الاخر جديد، وتواجه النهر الممتد وراء الجهة الاخرى من الطريق، فالواضح تماما انها لا تحمل اي ضغينة تجاه لندن، كما انه وجه يخلو من الحسد وهو يـــستوعب البـــيوت الغنية، الا انه مليء بسعادة ساذجة لوجود مثل هذه الاشياء الجميلة.

تقترب عربة من جهة وسط لندن، فتراقبها العينان الزرقاوان – الرماديتان – على نحو يوحي ان المراقب لا يزال يجد مثل هذه العناصر المبتذلة في المشهد اللندني آســـرة وغريبة. تتوقف العربة خارج بيت كبير في الطرف المقابل، وتبرز منه امرأة، وتهبط فوق الرصيف وتتناول قطعة نقد من محفظة نقودها.

تفغر الفتاة الواقفة على السدة فاها من فرط دهشتها. ويهاجم الامتقاع تورد الوجنـــتين قلـــيلا ثم تحمـــر خجلا. يلمس سائق العربة حافة قبعته باصبعين. تسير الراكبة مسرعة صوب الباب الرئيس للبيت من ورائها. تتحرك الفتاة صوب حافة الرصيف، متخفية الى حدّ ما وراء جذع شجرة. تفتح المرأة الباب الرئيس وتتوارى عن الانظار في الداخل.

– انها هي يا سام. شاهدت بوضوح مثلما –

– لا يمكنني ان اصدق ذلك.

الا انـــه يمكنه ان يصدق. فقد توقعت حاسة سادسة او سابعة في داخله ذلك تقـــريبا. لقـــد فتش عن الطاهية العجوز السيدة روجرز في طريق عودته الى لندن وتلقـــى منها شرحا مستفيضا عن اسابيع تشارلز الاخيرة الحالكة في كنـــزنغتون. حدث ذلك منذ وقت طويل. وقد شاركها ظاهريا استهجانها سيدها السابق. الا انـــه في اعماقه شعر بشيء ما يغلي. فإن تكون صانع زيجات شيئا وان تكون محطم زيجات شيئا اخر.

كـــان سام وماري يحدقان الى بعضهما بعضا – تساؤل قاتم في عينيها يوازي شـــكا قاتمـــا في عينيه – في ردهة امامية صغيرة جدا، الا انها على الرغم من ذلك ليـــست رديئة التأثيث. ثمة نار متوهجة تستعر في الموقد. وفي حين كان يطرح كل

منهما السؤال على صاحبه، فتح الباب، ودخلت خادمة صغيرة غير جذابة في الرابعة عشرة من عمرها، حاملة الان الرضيع المكشوف جزئيا - الذي اعتقد انه اخر محصول جيد يأتي من مخزن غلال كارزليك. اخذ سام الرضيع على الفور بين ذراعيه وأخذ يرقصه مما دفعه الى الصراخ. وكان هذا اجراء قلما يتغير يمارسه لدى عودته من الشغل. تناولت ماري بعجالة العبء الثمين، وكشرت امام الاب الاحمق في حين ابتسمت الشاردة الصغيرة الواقفة قرب الباب ابتسامة صغيرة متعاطفة مع كليهما. وفي وسعنا الان ان نلاحظ بوضوح ان ماري حامل بطفل اخر.

- حسنا يا حبيبتي. سأذهب الان لتناول المرطبات اما انتِ فحضري العشاء. حسنا؟

- نعم يا سيدي، سيكون العشاء جاهزا في غضون نصف ساعة.

- يا لك من فتاة طيبة. يا حبيبتي.

ثم قبَّل وجنة ماري كأن شيئا غير عالق في ذهنه وداعب صدر الطفل.

لم يبدُ عليه انه رجل سعيد الى هذا الحد بعد خمس دقائق عندما جلس في ركن مفروش بنشارة الخشب في احدى الحانات ومن امامه شراب مفضل وماء حار. من المؤكد ان لديه كل الاسباب الظاهرية ليكون سعيدا. صحيح انه لا يملك محلا، غير ان لديه شيئا لا يقل عن ذلك. كان الطفل الاول فتاة، غير ان تلك لم تكن سوى خيبة امل صغيرة شعر تماما انها سرعان ما ستعوض.

لقد لعب سام اوراقه لعبا عادلا جدا في لايم. فالخالة ترانتر كانت رقيقة منذ البداية وقد رمى بنفسه تحت رحمتها بمساعدة ماري. ألم يضيع مستقبله كله بتسليمه الشجاع الاشعار؟ ألم تكن حقيقة لا ريب فيها عندما وعده تشارلز بقرض مقداره اربعمئة جنيه إنكليزي (اطلب دوما ثمنا اعلى مما تجرؤ عليه) ليبدأ عمله في التجارة؟ اي تجارة؟

- مثل تجارة السيد فريمان يا سيدتي الا انها على نحو اكثر تواضعا.

كما لعب ورقة سارة لعبا جيدا جدا. ففي الايام القليلة الاولى، ما كان هناك شيء ليجعله يفشي اسرار خطيئة سيده الاخيرة، كانت شفتاه مختومتين بالشمع. الا ان السيدة ترانتر كانت بالغة العطف - فالعقيد لوك الساكن في منزل اريجا كان يبحث عن خادم. فكانت فترة بطالة سام قصيرة جدا، كذلك فترة عزوبيته.

وكـــان الاحتفال الذي توّجها قد اقيم على نفقة سيدة العروس. من الواضح، كان مضطرا الى رد الجميل.

كانت الخالة ترانتر شأنها شأن كل السيدات العجائز الوحيدات تبحث دوما عن شخص ما لتتبناه وتساعده. ولم يُسمح لها بنسيان ان سام اراد العمل في ميدان بسـيع السلع الرجالية. وهكذا فقد تجرأت ذات يوم لدى وجودها عند شقيقتها في لـــندن ان تطرق الموضوع امام زوج اختها. في اول الامر مال الى هز رأسه بالنفي. الا انـــه ذكـــر بعـــد ذلك على نحو رقيق ان الخادم الشاب كان يتصرف تصرفا نـــزيها. وكان يعرف على نحو افضل مما تعرفه السيدة ترانتر فائدة معلومات سام، وان ثمة امكانية لتوظيفه.

- حسنا جدا يا ان. سأتأكد مما هو موجود فربما هناك شاغر.

وهكـــذا حصل سام على موطئ قدم، متواضع جدا، في المتجر الكبير. الا انه كـــان كافيا. وكان يعوض النقص في ثقافته بالحزم الطبيعي. وكان عمله خادما قد ساعده في التعامل مع الزبائن. كما كان انيق الملبس. وفي يوم ما فعل ما هو افضل من ذلك.

كـــان صباحا مشرقا من شهر نيسان/أبريل بعد ستة اشهر من عودته الخاصة بالزواج الى لندن وقبل تسعة اشهر من ذلك المساء الذي ظهر فيه مكتئبا في مكان تـــناوله المرطبات. فقد اختار السيد فريمان ان يتمشى من منـــزله في هايد بارك الى متجـــره. واخـــيرا مـــر بواجهاته المكتظة ودخله. فشاهد موظفي الطابق الارضي مفعمـــين بالحـــيوية والنشاط، ينحنون تحية له. اما الزبائن فقليلون في تلك الساعة المبكـــرة. رفـــع قبعته على نحو مألوف له مثل السادة الكبار، بيد انه استدار فجأة وســـط دهشة الجميع، وخرج ثانية. فما كان من المشرف على الطابق الارضي الا ان خـــرج هـــو الاخر وقد بان عليه التوتر، وشاهد مالك المال واقفا قبالة احدى الـــواجهات الزجاجية، محملقا فيها. انتاب المشرف خوفا شديدا، بيد انه مشى من وراء السيد فريمان مشية حذرة.

- انها تجربة يا سيد فريمان. وسأعمل على وضع حدّ لها على الفور.

وقـــف ثلاثـــة رجال آخرون الى جانبيهما، فألقى عليهم السيد فريمان نظرة سريعة، ثم امسك ذراع المشرف، وسار به بعيدا بضع خطوات.

- راقب الان يا سيد سمبسون.

وقفـــا حـــوالى خمـــس دقائق. كان الناس يمرون ببقية الواجهات الزجاجية ويتوقفون عند هذه الواجهة. وكما هو شأن السيد فريمان، فقد فهموا القصد دون انتباه، ومن ثم عادوا القهقرى للنظر اليها ثانية.

اخـــشى ان يكون وصفها بمثابة هبوط مفاجئ. الا انه ينبغي لك ان تشاهد بقية الواجهات المملوءة بأشياء مركومة بغير نظام وعلى نحو يثير الملل، والمثبتة عليها بطاقـــات تثير هي الاخرى الملل حتى تدرك الفارق وتقدِّره حق قدره، وعليك ان تتذكـــر ان الفكـــتوريين صدقوا الفكرة السخيفة بأن الشراب الجيد لا يحتاج الى اعلان، بخلاف عصرنا عندما تهب اجمل زهور البشرية حياتهن للاعلان. كان الجزء الخلفـــي من العرض عبارة عن قطعة قماش بسيطة من اللون البنفسجي الغامق. اما في الجزء الامامي فهناك مجموعة مدهشة مثبتة فوق اسلاك رفيعة من ياقات رجالية مخـــتلفة الاشكال والاحجام والانواع. الا ان الشيء البارع فيها يتمثل في ترتيبها لتناســـب الكلمـــات الـــتي كانـــت تصرخ، تجار بصوت عال: (فريمان من اجل الصفوة).

- هذا افضل تجميل فعلناه هذه السنة لواجهة المتجر يا سيد سمبسون.

- تماما يا سيد فريمان. في منتهى الجرأة. لافت للنظر.

- (فـــريمان من اجل الصفوة)، هذا ما نقدمه تماما - والا لماذا لدينا مثل هذا الخزين الهائل، (فريمان من اجل الصفوة) - ممتاز! من الان فصاعدا، اريد ان تكون هذه العبارة في كل نشراتنا واعلاناتنا.

ثم سار عائدا الى المدخل، في حين ابتسم المشرف.

- نحـــن نـــدين بهذا كله لك يا سيدي فريمان. ذلك الرجل الشاب - السيد فارو؟ - الذي اظهرت اهتماما شخصيا في مجيئه الينا؟

توقف السيد فريمان.

- فارو - اسمه الاول سام؟

- اعتقد ذلك يا سيدي.

- احضره اليَّ.

- انه يأتي في الساعة الخامسة يا سيدي خصيصا لاجل ذلك؟

وهكذا احضر سام اخيرا محمر الوجه، لمقابلة الرجل الكبير.

- عمل متقن يا فارو.

انحنى سام انحناءة شديدة.

- يسعدني كثيرا ان افعل ذلك يا سيدي.

- كم ندفع لفارو يا سيد سمبسون؟

- خمسة وعشرين شلنا يا سيدي.

- سبعة وعشرين شلنا ونصف الشلن.

ثم خـــرج قبل ان يتمكن سام من التعبير عن امتنانه. وكان في انتظاره ما هو افـــضل من ذلك. فقد سُلِّم اليه ظرف لما ذهب لاستلام مرتبه عند نهاية الاسبوع ووجد فيه ثلاثة جنيهات وبطاقة كتب عليها **١كرامية للحماس والابتكار**.

بعـــد تـــسعة اشهر زيد راتبه الى اثنين وثلاثين شلنا ونصف الشلن؛ وبما انه اصـــبح عضوا لا يمكن الاستغناء عنه بين مجموعة العاملين في تزيين واجهة المتجر، فقد راوده شك كبير في الحصول على زيادة في مرتبه كلما طلب ذلك.

احـــضر ســـام لنفسه كمية اضافية ومدهشة من الشراب المفضل، وعاد الى مقعـــده. الـــشيء الـــذي لا يبعث على الفرح فيه - وهو عيب استطاع خلفاؤه المعاصرون في لعبة الدعاية ان يتخلصوا منه - هو انه كان يملك ضميرا... او ربما، علـــى وجـــه التبسيط، يملك شعورا بسعادة وحظ سعيد لا مبرر لهما. ان اسطورة فاوست هي النموذج الاعلى عند الانسان المتحضر، بصرف النظر عن ان حضارة ســـام لم تعلمـــه مـــا يكفي لأن يعرف حتى من هو فاوست، بل عرف سماعا عن احـــلاف تعقـــد مع الشيطان وعن المسار الذي سلكته. وقد سارت الامور سيرا حسنا فترة من الوقت عند هذا الشخص، الا ان الشيطان طالب بحصته يوما ما. ان الثـــروة مرهقة تماما، فهي تحفز الخيال على التوقع بخسارتها، والتوقع على نحو ضيق في اغلب الاحوال بلطفها.

مما كان يثير قلقه ايضا انه لم يخبر ماري البتة بما فعله. ليست هناك اي اسرار اخـــرى بينهما، وكان يثق في حكمها. وبين الفينة والفينة كان يراوده توقه القديم الى ان يكـــون ســـيد نفسه في متجره هو لا متجر غيره. اليس هناك ما يدل على ذكائه الطبيعي؟ غير ان ماري - وما تملكه من احساس ريفي صادق بأحسن حقل

يستوجب حرثه - هي التي كانت تعيده برقة - وبلا رقة احيانا قليلة - الى حجر رحاه في شارع اوكسفورد.

كان هذان الاثنان يتقدمان في الحياة حتى لو لم ينعكس ذلك في نبرتهما او في اللغة التي يستخدمانها. وكانا يعرفان ذلك. فقد كان كل شيء عند ماري اشبه بحلم، ان تتزوج رجلا يربو دخله على الثلاثين شلنا في الاسبوع! في حين ان والدها سائق العربة، لم يزد دخله على عشرة شلنات! ان تحيا في بيت يبلغ ايجاره تسعة عشر جنيها في السنة!

الاكثر روعة من هذا كله، ان تتمكن مؤخرا من مقابلة احدى عشرة فتاة صغيرة للعمل في مهنة هي نفسها كانت تمتهنها قبل سنتين لا اكثر! لماذا احدى عشرة؟ اخشى ان ماري كانت تظن كثيرا ان لعب دور السيدة انما هو دور يصعب ارضاؤه - مغالطة قلدت فيها ابنة الاخت لا الخالة. الا انها اتبعت ايضا اجراء لم يكن غير معروف بين الزوجات الشابات المتزوجات بازواج شبان وسيمي الطلة. فقد كان اختيارها احدى الخادمات لا يقوم على اساس الذكاء والكفاءة، بل على اساس الافتقار التام الى الجاذبية. وقد اخبرت سام في نهاية المطاف انها منحت هاربيت ستة جنيهات إنكليزيات في السنة لأنها تشعر بالشفقة عليها. لم تكن تلك كذبة تماما.

لما عاد الى البيت لتناول يخنة لحم الضأن بعد تلك الامسية التي شرب فيها كمية مضاعفة من الشراب المفضل، وضع ذراعه من حول الخصر المنتفخ، وقبّل صاحبته، ثم نظر الى الدبوس الذي كانت تضعه بين نهديها - تتزين به دوما داخل البيت وتخلعه دوما عند الخروج. فقد يسرقه منها احد اللصوص.

- كيف حال اللؤلؤة والمرجان؟

- ابتسمت ورفعته قليلا اليه.

- يسره التعرف اليك يا سام.

وقفا في مكانيهما يحدقان الى رمز حظهما السعيد، الذي تستحقه في حالتها هي، والذي ينبغي له اخيرا الان ان يدفعه ثمنه، في حالته.

58

بحثتُ وبحثتُ، لكن اه، فروحها
لم تُلقِ حتى الان
على روحي
ومضة واحدة! نعم. لقد رحلت. رحلت

هاردي: عند بلدة على ساحل البحر 1869

مــاذا عــن تــشارلز؟ انني ارثي لكل مخبر اضطر الى ملازمته خلال تلك الاشهر العــشرين. لقــد شــاهدته كل مدينة تقريبا في اوروبا، ولكن لفترة قلما كانت طويلة. شــاهدته الاهــرامات، شــاهد الاف المشاهد، والمواقع اذ امضى وقتا ايضا في اليونان وصقلية، دون ان يستوعبها. فهي لم تكن اكثر من جدران رقيقة وقفت بينه وبين العدم، فراغ نهائي، عبث تام. وحيثما توقف اكثر من بضعة ايام، كانت تعاوده الكآبة والخمول علــى نحو لا يطاق. واصبح معتمدا على السفر مثلما يعتمد مدمن على افيونه. المعتاد انه كان يسافر وحيدا، وفي اكثر تقدير في صحبة دليل او مترجم من البلد الذي يزوره. وفي اوقات كثيرة كان يعاشر غيره من المسافرين ويتحمل رفقتهم بضعة ايام، الا انهم كانوا في أغلــب الاحوال نبلاء فرنسيين او ألمان. اما الانكليز فكان يتجنبهم كأنهم الطاعون. ولما كان يقترب منه عدد من ابناء بلده الودودين، كانوا يجابهون بتحفظ بارد.

لم يعد علم الاحاثة يثيره الان. فهو العلم الذي اقترن اقترانا وجدانيا بأحداث ذلــك الربيع المهلك. ولما اغلق بيته في كنــزنغتون، فانه سمح لمتحف علم طبقات الارض ان يأخــذ صفوة مجموعته، اما البقية الباقية فوهبها لطلابه، في حين احتفظ بأثــاث البــيت في مخزن واخبر مونتاغ ان يعرض بيت بيلغرافيا للايجار ثانية لدى انتهاء العقد، اذ ما من شأن تشارلز ان يعيش فيه البتة.

قرأ كثيرا، واحتفظ بيوميات سفره، بيد ان ذلك لم يكن سوى مظهر خارجي يخص الاماكن والاحداث ولا يخص ذهنه - مجرد اسلوب لملء الفراغ في الاماسي الطــويلة في الخانــات المهجورة. كانت محاولته الوحيدة في التعبير عن ذاته الدفينة متمــثلة في اسلوب الشعر، اذ اكتشف في تينيسون عظمة... في ميدانه. من المؤكد

ان العظمة التي وجدها لم تكن العظمة التي رأها العصر في شاعر البلاط. فقصيدة مود[121] التي كانت معرضة لازدراء شامل انذاك وعدت قصيدة غير جديرة تماما بكاتبها - باتت القصيدة الاثيرة عند تشارلز، لا بد انه قرأها مرات كثيرة، وقرأ اجزاء منها مئات المرات وكانت الكتاب الوحيد الذي ظل دوما يحمله في ترحاله. اما شعره فضعيف مقارنة بها. وهو ليؤثر الموت على ان يظهره امام اي شخص. لكن فيما يلي نموذج صغير يوضح كيف كان تشارلز ينظر الى نفسه في اثناء منفاه.

ايتها البحار القاسية التي ابحر فيها، والجبال الخشنة.
يا مئات المدن الغريبة اللسان
التي ليست مناظرها السعيدة التي امر فيها
سوى مستنقع ملعون

حيثما اذهب، اسأل الحياة نفس السؤال
ما الذي جاء بـي الى هنا؟ ما الذي يبعدني عن هذا المكان؟
اليس هو الهروب من العار في افضل الاحوال
وعواقب قانون لا يلين في اسوأ الاحوال؟

للحصول على طعم تلك القصيدة من فمك، دعوني اقتبس قصيدة اعظم منها بكثير- قصيدة حفظها عن ظهر قلب، وهي الشيء الوحيد الذي استطعت ان اتفق فيه معه: لعلها انبل قصيدة لمجمل العصر الفكتوري.

نعم: في بحر الحياة منعزلون،
تمتد بيننا مضائق تردد الصدى،
منقّطة القفر المائي الكبير،

(121) مود (1855): قصيدة شاعر البلاط الانكليزي الفرد لورد تينيسون وهي عبارة عن مونودراما يرويها رجل ذو مزاج متقلب يعبر فيها عن مشاعره في مراحل مختلفة. ففي البداية يرثي ما اصاب اسرته من دمار على يد مدير البلدية ثم يعبر عن حبه لمود ابنة مدير البلدية وانتصاره بفوزه بحب مود ومن ثم الهروب خارج البلاد والجنون الذي يصيبه اثر خيبة اماله وعودته في خاتمة المطاف الى الحياة ليخدم بلاده. في القصيدة افضل مقطوعات تينيسون الغنائية، الا ان بعض الافكار الواردة فيها، ضمنا او صراحة، والخاصة بتمجيده الحرب كانت مثار امتعاض الكثيرين. (المترجم)

نحن الملايين من البشر نعيش وحيدين
الجزر تحس بالمد وهو يطوقها،
وتعرف تخومها اللانهائية.

لكن لما يضيء القمر فجواتها
ويغمرها اريج الربيع،
وتشدو العنادل شدوا رائعا،
في ودياها في الليالي المرصّعة بالنجوم،
وتنساب الانغام الموسيقية الرقيقة،
من ساحل الى ساحل من بين الاصوات والقنوات،

اوه، اذ ذاك ينبعث شوق مثل اليأس
صوب الكهوف البعيدة،
لانها تشعر حقا اننا كنا ذات يوم
جزءا من قارة واحدة.
الان ينتشر من حولنا الحقل المائي –
اه، لو تلتقي ثانية حدودنا!

منذا الذي امر ان تبرد نار حنينها
حالما تحقق الاشتعال؟
منذا الذي حكم على رغبتهما الدفينة ان تكون عقيما؟
وامر ان يكون بين شواطئهما
بحر لا يسبر غوره، مالح، يبعث على النفور(*)(122).

(*) ماثيو ارنولد: الى مارغريت (1853). (المؤلف)

(122) يخاطب ماثيو ارنولد في قصيدة الى مارغريت فتاة التقاها في سويسرا في اربعينات القرن التاسع عشر وساد الاعتقاد انها فرنسية او سويسرية، بيد ان السير الذاتية المنشورة حديثا تعتقد بانهـا ليست سوى ماري كلود، وهي فتاة كان ارنولد يعرفها في انكلترا في نفس الفترة، وكانت لها صلات بالمانيا وتترجم الشعر والنثر الالماني. (المترجم)

الا انه على الرغم من هذه الكآبة المحيرة للنفس، فإن تشارلز لم تداعبه البتة افكار الانتحار. ولما انتابته تلك الرؤية العظيمة عن نفسه وقد تخلص من عصره، اسلافه، طبقته وبلاده، فانه لم يدرك الى اي مدى كانت الحرية مجسدة في سارة؛ في افتراض وجود منفى مشترك. لم يعد يعتقد كثيرا بتلك الحرية، بل شعر انه لم يفعل شيئا سوى تغيير الفخ او السجن. الا ان هناك شيئا ما في عزلته لم يستطع التشبث به؛ لقد كان هو المنبوذ، هو الشخص المختلف عن الاخرين، نستاج قرار لم يستطع سوى القليلين اتخاذه، بغض النظر عن حماقته او حكمته النهائية. ومن وقت الى اخر كان مشهد بعض المتزوجين حديثا يذكره بايرنستينا فيبدأ بالبحث في اعماق روحه. اتراه يحسدهم ام يشفق عليهم؟ ووجد انه لا يأسف الا على اشياء قليلة. فمهما كانت قساوة قدره، فانه انبل من ذلك القدر الذي سبق له ان رفضه.

استغرقت تلك الرحلات الاوروبية والشرق اوسطية ما يقرب من خمسة عشر شهرا، لم يعد في اثنائها مرة واحدة الى انكلترا، ولم يبعث برسائل حميمة الى اي شخص. وكانت معظم رسائله القليلة موجهة الى مونتاغ، وذات مساس بالعمل، وتعليمات حول المكان الذي ترسل اليه النقود وغير ذلك. وقد خُوِّلَ مونتاغ بنشر اعلان في صحف لندن بين وقت واخر: «يرجى من سارة اميلي وودراف او كل من يعرف مكان اقامتها الحالي ان...» لكن دون جدوى.

شعر السير روبرت بالأسف وهو يتلقى انباء فسخ الخطوبة لما وصلته اول مرة عن طريق رسالة، الا انه هزّ كتفيه فيما بعد معربا عن عدم اهتمامه لذلك بتأثير من سعادته الوشيكة. لقد كان تشارلز شابا، اللعنة، وسيعثر على فتاة طيبة، بل افضل بكثير، في مكان ما. كما انه جنَّب سير روبرت على الاقل الحرج من الارتباط بفريمان. وقد ذهب ابن الاخ ذات يوم لتقديم تحياته الى السيدة بيلا تومكنز وذلك قبل سفره من انكلترا. لم ترقه السيدة وشعر بالأسف لعمه. ومن ثم رفض العرض الذي قدم له مجددا فيما يخص البيت الصغير، ولم يتحدث عن سارة. ووعد بالعودة وحضور مراسيم الزفاف. الا انه نكث بذلك الوعد بفبركة اصابته بالملاريا. ولم يأتِ التوأمان، كما تصور، بل ولد ووريث ظهر الى الوجود في الشهر الثالث عشر من منفاه. وفي ذلك الوقت كان قد اعتاد تحمل مصاعب قدره

ولم يعـــد يشعر بما هو اكثر من الاصرار على الا يطأ بقدميه بيت وينـــزيات ثانية خاصة بعد ان ارسل رسالة التهنئة.

اذا لم يبقَ عازبا من وجهة نظر فنية - اذ كان من المعروف تماما بين الفنادق الاوروبـــية الممتازة ان النبلاء الانكليز كانوا يسافرون الى خارج بلادهم ليسلكوا ســـلوكا ســـيئا، وان الفرص متوفرة لذلك الغرض - فانه ظل اعزب من الناحية العاطفـــية. لقد ادى (او شوّه) الفعل بتهكم اخرس في حين كان يتفرس في المعابد الاغـــريقية او يتناول وجبات طعامه. ذلك للحفاظ على الصحة. لقد رحل الحب عـــن هذا العالم. أحيانا، وفي احدى الكاتدرائيات او احدى قاعات الرسم، كان يحلـــم بوجـــود ســـارة الى جانبه برهة وجيزة. بعد مثل هذه اللحظات، كان في الامكـــان مـــشاهدته وهـــو ينتصب ويأخذ نفسا عميقا. ولم يحرم نفسه من متعة الاســـتمتاع بالحـــنين العقيم حسب، بل اصبح غير واثق على نحو متزايد من الحد الفاصـــل بين سارة الحقيقية وسارة التي صنعها في الكثير من الاحلام: الاولى حواء متجـــسدة، بكل ما فيها من غموض وحب وعمق، والثانية، المريبة، نصف مجنونة ونـــصف مخادعة، القادمة من مدينة غامضة على ساحل البحر. بل انه شاهد نفسه وقـــد صادفها ثانية، لا يرى فيها سوى طيشه وضلاله. لم يلغِ ادراج الاعلان، غير انه ظن ايضا انها لن ترد البتة.

كان عدوه اللدود السأم. وكان السأم هو الذي دفعه الى العودة الى وطنه في الـــنهاية. واذا مـــا توخينا الدقة، فإن الذي دفعه الى ذلك هو مساء احد الايام في بـــاريس عـــندما ادرك انه لا يريد ان يبقى في باريس ولا أن يعاود السفر ثانية الى ايطاليا او اسبانيا او اي مكان اخر في اوروبا.

لا بـــد انك ستظن انني اقصد انكلترا بكلمة موطنه. لا. فانكلترا لا يمكن ان تـــصبح وطـــنا لـــ تشارلز ثانية، على الرغم من انه ذهب اليها لقضاء اسبوع اثر مغادرتـــه باريس. لقد حدث مرارا انه في اثناء عودته من ليفورنو[123] الى باريس ان يـــسافر بمعـــية اثـــنين من الاميركان، نبيل عجوز وابن اخيه، من فيلادلفيا. وقد استلطفهما تشارلز ربما بسبب متعة الحديث الى شخص بلغة ليست غريبة تماما، من

(123) ليفورنو: ميناء يقع في مقاطعة توسكاني، وسط ايطاليا. (المترجم)

– في أي يوم تريدين اعتبري هذا البيت بيتك؛ هكذا ببساطة اعتبريه بيتاً كأي بيت آخر تملكينه بمواجهة البحر: – قال ذلك بأفضل ما عنده من اللغة الفرنسية في همس شبيه بالنسيم الصباحي العليل.

أجابت لودميلا بابتسامة ونظرة غاضبتين كما هو مفترض أن تكون الابتسامة والنظـــرة الروســـيتان المخدرتان. والعقيد الشجاع قبل أن يرفع يده عنها قرصها لتتذكر العرض وتعمل بموجب الاتفاق.

رحلـــة بهرت عيني لودميلا غريغوريوفنا سيتيكينباوون. كانت الطريق بجانب حقـــول الكاكاو: الثمار الصفراء تلمع تحت وهج شمس الصباح وزرع أجمل منها: لا. وكانـــوا يتوقفون في مزرعة للاستراحة وقبول شربة ماء أو فنجان قهوة، تذوق حلـــويات الموز أو البرتقال، والتلمظ بكأس عصير طازج ممزوج بالعسل فوقه ثمرة كاكاو ناضجة هي اختراع الآلهة.

وللتعـــرف على المغنية الروسية التي كانوا يعرفونها بصاحبة الأستاذ فنتورينيا، كانت نساء العقداء يهملن المطابخ ويتخلين عن الأحكام المسبقة ويقدمن أنفسهن بأناقة بعدما يدخلن في أجسادهن ملابس العيد سريعاً. وكانت لودميلا تمد برؤوس أصـــابعها ليقـــبلها أصـــحاب المزارع، وتبتسم بتألق وتواضع للسيدات وتقول: "ميرسي". "فوزت تري جانتي، مدام". مغنية روسية رائعة ومشرفة.

كـــل ذلك الامتداد السرابي من العقداء الأثرياء والأجراء التعساء من البيوت الفخمة والأكواخ المتواضعة، كان النقيض والمثيل لامتدادات أراضي روسيا النبلاء والعبيد. وكانت لودميلا غريغوريوفنا تتبادل اللسان مع بيوتر، أخيها، عن الأمل في الحـــصول، يـــوماً أكثر أو أقل، من اليدين الكريمتين للأب الصغير بوافنتورا أو من يـــدي الآخر، هدية حقول واسعة مع قرية من العبيد السود. كانت تعيش في توقد الاكتـــشاف، وكـــان كل شيء يبدو لها حباً رومانسياً، مع حذر واحد من خطر الأفاعي وقطاع الطرق.

أخـــذت تمشي في الحقول، عبر الطرقات مشغوفة بتوكايا غراندي، ومرّت قرب المـــستودع الكبير وتأخرت في محل الحدادة تنظر إلى الحداد ذي الصدر العاري والجلد اللمـــاع وهـــو يضرب على الحديد ليصنع سواراً من المعدن أرادت أن تشتريه ولكن الزنجي قدمه هدية ذكرى متواضعة لا مثيل لها: إنها تلمع تحت أشعة الشمس.

عندما عادت من المشوار، وعيناها متقدتان ووجهها مكسو بالعرق وبصوت يخنقه الانفعال فإن لودي سألت فنتورينيا الذي لا يزال متمدداً في الشبكة المعلقة كأرجوحة وقد أطال قيلولته:

– هل هذه القرية ملكك، يا أبي الصغير؟ وهل اللطفاء هؤلاء هم عبيدك؟ وانحنت فوق الأرجوحة بإثارة: إذا كنت تحبني حقاً فيجب أن تمنحني قرية وعبيداً دليلاً على عطفك.

الخطبة التي ألقاها خلال القداس الذي أقامه الأخ داسنتا أوخارستيا جاءت فصيحة ومثيرة للمشاعر، وفيها يتأسف على حالة الانحطاط الوثني التي يغرق فيها شعب توكايا غراندي ولكنه أشار إلى رحمة الله، الرحمة العلوية رحمة القلب الذي نزف ألماً للخراف الضائعة من قطيعه، ودعت الخطبة إلى الندامة والأسف.

لم يكن سكان توكايا غراندي قساة القلوب ومتحجري العواطف فشاع الخوف عالياً ومغالىً فيه وراحت أيديهم تقرع الصدور الخاطئة: يا ويلاه. كل سكان المكان، ودون استثناء، هم خطاة. وإنه لمما يثير الشفقة الإشارة إلى تسلسل الأحداث في توكايا غراندي وذلك التعبد المفاجئ خوفاً من معاقبة الجمع القليل الواجف أمام الصليب المقدس وهو يصغي بصمت نسبي إلى كلمات المبشر. وفي غمرة التساؤلات عن العقاب والثواب، لم يكونوا متفقين إلا على شيء واحد: أن المحترم كان يتكلم كلاماً جميلاً، بصوت جهوري ودافئ. وهو نفسه جميل في رأي النساء العاميات.

لم يكن هناك بكاء عند الصباح ولا صرير أسنان عند المساء. بل خوف مسيطر خلال خطبة الأخ زيكمونت، مطرقة الله. مع لفظه الشبيه بكلب سلوقي: غوتشهامر. وحظي الأخ تايسون بالنجاح في الوسط النسائي: ففي حين كان مزجوجاً في أعلى منبر الخطابة فإنه كان يتمايل هناك ويتوجع على مصير الأحياء الذين كان إنقاذهم مسألة مشكوكاً فيها. وكانت النساء يتبادلن التعليقات برضى مشكوك فيه ونيَّة خفية ملحة فيما لو أعطين الامتياز للتعلق بذراعي الكاهن الشاب ذي الوجه الطفولي. بالمقابل، فإن الأخ زيكمونت بخطبته الملتهبة وتهديداته وشتائمه أثار حماس الرجال بنوع خاص لأنه أكثر رجولة.

ولم يبكِ إلا بعض الأطفال عندما جيء بحوض ماء معدني، جديد، أعاره التركي فضول وهو على كل حال قطعة غالية من مستودع الأدوات المعروضة

للبيع في الدكان.. أما فضول فقد تنكب مسؤولية في حفلة المعمودية الجماعية ووقفت عن يمينه كوروكا التي كانت تحمل بين ذراعيها الطفل نادو، وعن يساره برناردا والدة الطفل المتألقة الرائعة وهي ترتدي التنورة والسترة المشجّرة وبيدها شمعة مشتعلة.

وإذ كان الأطفال الوثنيون من كل الأعمار ومن كل المزارع قد اجتمعوا فإن الأخ تايون استقبلهم في صحن الكنيسة المقدسة ليحولهم إلى مسيحيين، ومرَّ على كل واحد بمفرده يضع على جبهته الملح والزيت ويبل رؤوسهم بالحوض المليء بالماء المقدس. وكان يطلب أن يردد الجميع وراءه: أؤمن بالله العلي العظيم. وكان الآباء والعسرّابون يرددون بأصوات متشابكة تولد الارتباك وبحرية شبيهة بحرية الصباح في المعرض الأسبوعي الطلق.

العقيد روبستيانو دي أراجو وزوجته السيدة إيزابيل حضرا صباحاً إلى توكايا غراندي ليشهدا على معمودية توفو ابن ديفا وكاستور أبدووين: لقد كانا هناك في ساعة الدهن بالزيوت المقدسة.

الكلب ألما بينادا نبح على الكاهن وحاول أن يعضه عندما بدأ الطفل بالبكاء لدى تذوقه طعم الملح في فمه. حادث هزلي سبب الضحك الجماعي.

وفي طريقهما إلى محطة القطار، في تاكاراس، بعد حفلة المعمودية يرافقهما المرافق نازارينو، فإن العقيد والسيدة إيزابيل التقيا بحاشية فنتورينيا وخلال عدة دقائق تبادل الجميع الملاطفات وسط اللغط. من أعلى سرج الحمار مانسيدا تأملت السيدة إيزابيل في "من هي" التي جاء ابن المرحوم العقيد بوافنتورا الصديق الحميم بها.

لم تستطع أن تنكر عليها الجمال الأجنبي وهي تبدو نسخة طبق الأصل عن مريم وهي هاربة إلى مصر متواضعة طاهرة. النساء الشبيهات بالقديسات هن الأسوأ. علقت بذلك السيدة إيزابيل على مسمع زوجها عند متابعتهما الرحلة. أما ما هو متعلق بالخريج فإنه لم يكن يعدو في نظرها غير قليل أدب.

19

عروسات أيار/مايو، بعضهن حبالى والأخريات يرافقهن أبناؤهن المولودون في حمأة رذيلة المصاحبات، كن يقفن جنباً إلى جنب ووجوههن مرتفعة إلى الأعلى

باتجـــاه المـــذبح. وساعد الأخ تايون في ترتيب وقوف الأزواج وكل زوجين يقف قربهما الإشبينان.

كـــان تيـــساو أبـــدووين قد برم للعروسات الريفيات خواتم معدنية. وكان ضحوكاً وحيوياً عند الصباح خلال حفلة المعمودية، ولكنه بدا رصيناً وجدياً، بعد الظهر، عندما وقف إشبيناً لباستياو دا روزا وأبيغال. وكانت إيبفانيا وهي تقف بين الناس تحدق فيه قلقة: وكانت تعلم أن الزنجي كان يفكر في ديفا التي كان يمكن أن يتزوجها لو لم تستهلكها الحمى.

والقول من هي العروسة الأجمل والأكثر سعادة فمسألة صعبة وغير حكيمة؛ القـــول: من التي كانت الأصغر سناً فمسألة لا تقبل الشكوك وهي الصغيرة شيكا بـــسنيها الأربـــع عشرة غير الكاملة وعذريتها الأكيدة، لأن شيكا لم تفسح المجال لخطيـــبها بالبيـــنو وتزوجت غارقة بالدموع وهي تعبّر بتنهدات عالية عن أسفها للعذرية المعاقبة.

بالتـــزويج والتعميد وصلت البعثة المقدسة إلى النهاية: في اليوم التالي، عند الفجر، انطلق المبعوثان إلى تاكاراس، المكان الأكبر والأقل شقاء. وكانت خطبة الأخ زيكمـــونت قد أنهت القسم الديني من الحدث الذي هزّ توكايا غراندي وقلـــبها رأساً على عقب خلال الثماني والأربعين ساعة من الانطلاق والحيوية. أمـــا القسم الأخير فلم يعتمد فيه على مشاركة الأخوين الدينيين إذ كان تحت إشراف وإدارة بيدرو سيغانو العازف والمواطن الوجيه. وللاحتفال مرة واحدة بكـــل هذا العدد من المعمدين والمتزوجين، فإن العيد يجب أن يطول كما طال فعلاً. وبينما يرافقها فنتورينيا فإن لودميلا غريغوريوفنا سيتيكينباوون ذهبت إلى مزرعة أتالايا قبل أن ينتهي الرقص، ولكن ليس قبل أن ترقص الرباعية الفرنسية تحت قيادة كاستور أبدووين، الزنجي تيساو الذي خضع ذلك اليوم لانفعالات متعددة.

خطـــبة الأخ زيكمونت فون غوتشهامر جاءت بما يسمى بمفتاح الذهب والقفل علـــى جواهر البعثة المقدسة. الكلمات التأكيدية والحارة إن لم تغرس في الأرض الصلبة لـــنفوس ســـكان توكايا غراندي، فإنها وقعت على مسامع أكيدة جعلت المكان كله يغرق في التأمل ويحدد الإجراءات وفقاً للتعليمات وللعادات الجيدة.

إن اســـم المكـــان الذي أعطي إياه تكريماً لجريمة كان يقول على كل شيء: فانظـــر كيف بدأ المخلص الكبير خطبته. باختصار فإنه اتهم توكايا غراندي بمدينة الخطيـــئة ومعقـــل اللـــصوص، مكان بلا قانون، لا قانون الله ولا قانون الإنسان، وأرض الـــسقوط ومملكـــة الشيطان. إن توكايا غراندي هي سدوم وعمورة التي تـــتحدى غـــضب الله، وفي يوم فإن لعنة الله ستتجمد ناراً لتعاقب الملحدين وتدمر جـــدران الـــسوء والكفر وتحول إلى رماد ذلك الكهف من الفضائح والانحراف. هكذا تكهن.

في ســـاعة منح البركة، ومع منازعة الأصيل، فإن الأخ زيكمونت مطرقة الله حرك الكأس ودار بها، ثم رسم في الهواء إشارة الصليب ولعن المكان ومن فيه.

مع وصول القانون انتهت توكايا غراندي،
وهي لا تزال في بدايتها،
ليبدأ تاريخ مدينة إيروزوبوليس

1

ملجأ اللصوص والقتلة الذين لا قانون لهم ولا ملك، مسلحون بالبنادق، وعاهرات - استنكر المرسل من عند الله. كان لا بدّ من كبح العنف المتجذر ووضع حدٍّ للفوضى والانحراف: قرّر العالمون المرفهون. الشائعة كبرت بسرعة في قصر العدل والبلدية والمحافظة والملاهي.

التقليد كان في أن السطو والكمائن والاستزلام ينتج عنها القانون والملكية، وأمام جيشه امتطى الملك صهوة جواده الأصيل وانطلق ليفرض القاعدة والسلام، السلطة والطاعة، حيث لا شيء غير الحرية والحلم.

من بلاغة الخطيب المخلص إلى مسيرة الجنود، كانت الخطوة قصيرة، وتمّ اجتياز المسافة بدقة بين شتاء الاحتفالات وصيف الطلقات النارية، بين الحياة والموت، بين الرجل ومستعبده. وأقصر من الخطوة هو زمن المعركة: من الأخبار المتتالية إلى الاحتلال فإن ما حدث قد حدث خلال أيام قليلة.

2

وصلت رسالة العقيد روبستيانو دي أراجو إلى النقيب ناتاريو دا فونسيكا وهذا في طريق عودته من مزرعة بوافيشتا حيث القطاف كان قد انتهى وجاء إنتاج الغرسات الجديدة أكثر بكثير من الحسابات الأكثر تفاؤلاً.

كان النقيب قد توقع أن يزيد الإنتاج قليلاً على الستماية أقة، ولكنه زاد على السبعمائة. كاكاو كهذا معتنى به إلى هذا الحد، هو فقط كاكاو مزرعة أتالايا، ثم غدا أفضل منه بالرغم من مساعدة الأستاذ لويس سيزار غوسماو ونظرياته الحديثة

حـــول زراعـــة (الكاكاو) (المخصب)، الشجرة الأستركولياسية - بعبارة المهندس الزراعي التشخيصية.

مـــع كل علمه الزراعي فإن المهندس لويس سيزار غوسماو أوشك على الطرد مـــن وظيفـــته عندما عاد سيده فنتورينيا من الريو دي جانيرو حيث ذهب ليأخذ حمامـــاً من الحضارة برفقة لودميلا غريغوريوفنا وأخيها بيوتر، وعلم هبوط الإنتاج بالمقارنـــة مع إنتاج العام السابق. أصابته نوبة من الغضب فهدّد الله والعالم وطلب تفسيرات. أما المهندس الزراعي وهو يقلب صفحات الكتب المتخصصة بالموضوع فقـــد فسّر أن الأمر هو كذلك: لأن النتائج الإيجابية لنظرياته العلمية الحديثة تحتاج إلى وقـــت وصـــبر. الوقت والصبر إلى حيث ألقت رحلها أم...: - تمتم فنتورينيا مغتاظاً. ولكنه عاد ليأخذ ببراهين الأستاذ غوسماو لأن ناتاريو رفض أن يأخذ علماً بالعروض المتجددة والمغرية ليعود إلى مركز إدارة المزرعة.

اغـــتاظ فنتورينـــيا وانفعل برفض ناتاريو بالرغم من أنه وعد ناتاريو سركال العقـــيد بوافنتورا بمنحه نسبة مئوية من الأرباح. وهذه مسألة لم تعرف سابقاً وهي مرفوضة وعرضة للنقد في آراء كبار المزارعين. وقاده الكلام إلى الغلظة في الكلام: لقد تكلم فنتورينيا لمن يريد أن يسمع عن عدم الوفاء واستعمل كلمة خيانة. وقال إن ناتاريو لم يحترم ذكرى رئيسه وحاميه الذي يدين له ناتاريو بكل شيء. وبالتالي إثـــر موت العقيد فإن النقيب أقام بيتاً ومنح مالاً لساكرامنتو صاحبة العقيد والذي وضـــع له قرنين وهو يثوي في مأواه الأخير. وكان يلفظ الكلمات بلهجة أستاذية بـــنفس اللهجـــة التي أشار بها المهندس الزراعي إلى (الكاكاو المخصب والشجرة الأستركولياسية).

3

سمعـــت محادثـــات وشائعات لم أحبها، فاحترز - كانت هذه رسالة العقيد روبـــستيانو دي أراجو، الغامضة، والتي جاء بها المستر لم نازارينيو رجل ثقة، ولكنه لم يعـــرف كـــيف يـــضيف التفاصـــيل. في البداية، ظنَّ النقيب أن المسألة متعلقة بانفعـــالات فنتورينـــيا التي لا تلبث أن تخمد والتي كانت تصل إلى ناتاريو فتحمله علـــى الـــضحك: حـــرد آمر صغير وعندما سيذهب إلى إيتابونا فسيشمط أذنيه،

ونتهي إلى كأس نتحدث معها عن النساء، وينتهي الحرد. وبينما هو يروي الحكاية لفضول عبد الله تفاجأ لمعرفته بأن اللبناني تلقى، وبفارق قصير من الوقت، ورقة كتبها فؤاد كرم بلغة أدبية مصقولة حتى لا نقول شاعرية. الأخير يزرع الواحة بستاناً من النخيل، ولكن من يقطف الثمر فهو "الزنكيل". انتبه جيداً، يا عزيزي فضول، لأن الثمار بدأت تنضج! هكذا أنذر بلغة عربية مخطوطة بإتقان. الورقة أوكلت إلى حادي القوافل زي - ريموندو الطبيب البيطري في المنطقة، لتسلم باليد إلى صاحب الدكان.

حاول الاثنان عصر دماغيهما: ناتاريو وفضول، ثم طلبا رأس كاستور أبدووين وكذلك لم يجسدا مفتاح اللغز القادر على أن يضع تحت الضوء المعنى الواضح لما أعلمت به سفارة العقيد ولغة المثقف العويصة.

- خلال أسبوع سأذهب إلى إيتابونا لاستجلاء الأمر: - قال ناتاريو ذلك وهو لا يزال يحك دماغه.

- ماذا يمكن أن تكون تلك المحادثات التي لم تعجب العقيد روبستيانو؟ احترز من أي شيء؟ ما معنى نضج الثمر الذي ألمح إليه فؤاد كرم؟

ولمرافقة النقيب من كان في البدء عرّاباً في التعامل وأصبح الآن عرّاباً حقيقياً بعد معمودية نادو. ولكي يكون مع النقيب في المشرب، وفي نزل شاندو، قرّر فضول أن يقدم تاريخ سفرة الأعمال: لقاء مع المجهزين، تصفية حسابات، وتجديد المستودع. وفي نزل الفتيات، سيوقظ مع شاندو ذكرى دلال زيزينيا دو بوتيا وهي وقد تاهت في سرجيبي فإنها لم تعد تطمئن بأخبارها وأن حفيدها دورفالينيو، (خذ - و - جيب).

وإذا ظلّ لديه وقت فسيذهب للتفسح مع ألفارو فاريا ويرى البحر الذي، وهو فتى، اجتازه مع مجموعة من المهاجرين ليأتي من بلاد التمر إلى أرض الكاكاو.

4

لم يتمكنا من القيام بالرحلة المخططة، فلم يكن هناك متسع من الوقت لأن الأحداث بدأت تتعقد متتالية وانهارت عليهما بنسق أصابهما بالحيرة والغموض.

60

جاءت لالاج، نعم.

جاءت هي الان، اوه.

هاردي: تسجيل وقتها

طلب من العربة الانصراف قرب الجسر. كان ذلك اليوم الاخير من شهر أيار/مايو، يوما دافئا، فيّاضا ظللت فيه الاشجار واجهات البيوت، السماء نصفها يميل الى الزرقة ونصفها الاخر تكسوه السحب البيض، وظللت احدى هذه السحب برهة وجيزة منطقة تشيلسي، على الرغم من ان المخازن الواقعة قبالة النهر ما زالت مغمورة بنور الشمس.

لم يعرف مونتاغ اي شيء. فقد وصلته المعلومات بالبريد؛ قصاصة ورق لا تحتوي على شيء سوى الاسم والعنوان. تذكر تشارلز وهو يقف قرب مكتب المحامي العنوان السابق الذي تلقاه من سارة، الا ان هذا العنوان طبعة مستخرجة عن ختم نحاسي قاسٍ؛ انه لا يستطيع ان يراها الا من الايجاز في الكلام او الكتابة.

كان مونتاغ قد تصرف تصرفا بالغ العناية حسب اوامر تشارلز التي تلقاها برقيا: يجب ان لا يقترب احد منها، لا يجب اثارة ذعرها او اعطاؤها فرصة اخرى للهروب. لعب احد الكتاب دور المخبر وفي جيبه نفس الاوصاف التي اعطيت الى المخبرين الحقيقيين، وافاد ان سيدة شابة تنطبق عليها الاوصاف المذكورة تقطن على ما يبدو في العنوان المذكور، وان الشخص المطلوب يسكن تحت اسم السيدة رافوود. وقد ازال تبديل مكان حروف الاسم اي شك من حول مدى دقة المعلومات. كما ازال، بعد الصدمة الاولى التي لم تدم طويلا، ما ينطوي عليه لقب الزواج. لقد كانت مثل هذه الخدع مألوفة تماما بين النساء غير المتزوجات في لندن، واثبتت عكس ما كانت تنطوي عليه وهو ان سارة لم تتزوج.

– الاحظ انها مرسلة من لندن. اليس لديك اي فكرة عن...

- ارسلت من هنا. من الواضح جدا انها ارسلت من شخص يعرف عن اعلاناتنا. وقد ارسلت شخصيا اليك، فالشخص هذا يعرف لمن نعمل، الا انه يظهر غير مهتم بالمكافأة التي اعلنا عنها. وهذا يوحي ان السيدة الشابة هي التي ارسلتها.

- لكن لماذا يتعين عليها ان تتأخر كثيرا في الكشف عن نفسها؟ يضاف الى ذلك، ليس هذا خط يدها.

اعترف مونتاغ صامتا بانه لا يدري.

- الم يحصل كاتبك على اي معلومات اضافية؟

- لقد اتبع التعليمات يا تشارلز. وقد منعته من القيام بأي استفسارات. وكان مصادفة ضمن حدود السمع في الشارع لمّا حيته احدى الجارات تحية الصباح. هكذا حصلنا على الاسم.

- والبيت؟

- بيت اسرة محترمة. هذا ما قاله حرفيا.

- يفترض انها مربية هناك.

- يبدو هذا مرجحا.

التفت تشارلز الى النافذة، وهو امر حسن، فالنظرة التي القاها مونتاغ على ظهره اوحت بنوع من الافتقار الى الصراحة. لقد منع الكاتب من طرح اي اسئلة، الا انه لم يمنع نفسه من طرح الاسئلة على الكاتب.

- الديك نية في رؤيتها؟

- انا لم اعبر المحيط الاطلسي يا عزيزي هاري...

وهنا ابتسم تشارلز معتذرا عن لهجته التي تنم عن نفاد الصبر.

- اعرف ما هو سؤالك. ولا استطيع الاجابة. سامحني. فهذه المسألة بالغة الخصوصية. في الحقيقة انني لا اعرف ما هي مشاعري، واظنني لن اعرف حتى اراها ثانية، كل ما اعرفه حقا هو... انها لا تزال تستحوذ عليّ... وانني لا بد ان اتحدث اليها، لا بد... اتفهم...

- يجب ان تسأل ابو الهول.

- اذا كنتَ مهتما بسؤاله على هذا النحو.

- طالما تفكر في الذي حدث لاولئك الذين اخفقوا في حل اللغز.

لوى تشارلز قسمات وجهه بحزن.

- اذا كـــان الـــصمت او الموت هو البديل - واذ ذاك يفضل ان تعد العظة الجنائزية.

- اشك في ان ذلك لن يكون ضروريا.

وابتسما انذاك.

لا انه لم يبتسم الان وهو يقترب من منـــزل سفينيكس. لم يكن يعرف شيئا عن المنطقة، بل كانت لديه فكرة بانها بديل حقير عن غرينويتش - مكان انهى فيه ضباط البحرية المتقاعدون ايامهم. وكان نهر التايمز ايام العصر الفكتوري اكثر تلوثا ممـــا هو عليه اليوم، تغطي كل حركة من حركات مدّه مياه المجاري عل نحو شنيع. وفي احـــدى المرات، كانت الرائحة الكريهة لا تحتمل على نحو حدا باعضاء مجلس اللـــوردات الى الخـــروج مـــن قاعتهم. وألقي عليه اللوم بسبب الكوليرا، وكانت البـــيوت الـــواقعة على شاطئ النهر لا تملك السمة الاجتماعية التي تملكها في قرننا الحـــالي الذي زالت منه الرائحة الكريهة. وعلى الرغم من كل ذلك، فقد كان في وســـع تـــشارلز ان يـــرى ان البيوت جميلة تماما. وعلى الرغم من ان سكان تلك البـــيوت مخطـــئون في اختـــيار بيئتهم، غير انهم لم يأتوا الى هناك بدافع الفقر كما يتضح.

اخـــيرا وصل الى البوابة القدرية وهو يرتعش في اعماقه ويراوده احساس انه ممتقع في اللون واحساس ايضا بالمهانة والاذلال - فقد انحرفت نفسه الاميركية امام الماضي القوي والمتأصل وادرك مرتبكا انه نبيل يوشك ان يزور خادمة اعلى شأنا. كانت البوابة من الحديد المطاوع، تنفتح على ممر يؤدي باختصار الى منـــزل شامخ مـــشيد بالاجر - على الرغم من ان ذلك البيت يتوارى حتى السطح وراء النباتات المعترشة الكثيفة، التي شرعت ورودها المتدلية ذات اللون الازرق الفاتح بالتفتح.

رفـــع مقـــرعة الـــباب النحاسية وطرق مرتين. انتظر عشرين ثانية تقريبا وبعـــدها طـــرق ثانية. في هذه المرة فتح الباب، ووقفت خادمة قبالته، فشاهد ردهـــة فسيحة من ورائها- والعديد من اللوحات مما جعل المكان يبدو متحفا للفنون.

- ارغب في الحديث الى سيدة... رافوود. اعتقد أنها تقيم هنا.

كانـــت الخادمـــة مخلوقة شابة رشيقة، واسعة العينين ولا تعتمر القبعة الممزّقة المألوفة. في الحقيقة، ما كان ليعرف كيف يخاطبها لو لم يشاهدها مرتدية صدرية.

- اسمك لو سمحت؟

لاحـــظ غياب كلمة «سيدي» لعلها ليست خادمة، فلهجتها ارفع كثيرا من لهجة الخادمات. ناولها بطاقته.

- ارجو اخبارها اني قطعت شوطا طويلا من اجل رؤيتها.

قرأت البطاقة بلا استحياء. انها ليست خادمة. وبدت مترددة. ان صوتا تناهى الى الاسمـــاع في نهاية الردهة المظلمة وكان ثمة رجل اكبر من تشارلز بست او سبع سنوات يقف قرب عتبة الباب. التفتت الفتاة ممتنة له.

- يرغب هذا السيد في رؤية سارة.

- نعم؟

كان يمسك قلما بيده، وهنا خلع تشارلز قبعته وتحدث من فوق العتبة.

- لـــو تكـــرمت عليَّ... انها قضية شخصية... فأنا اعرفها قبل ان تأتي الى لندن.

ثمـــة مـــا يثير الازدراء في تقييم تشارلز على الرغم من انه كان تقييما قصيرا جـــدا. وبدا متباهيا بثيابه مباهاة تفتقر الى الاهمال، يلوح اشبه بدزرائيلي في شبابه. نظر الرجل نظرة خاطفة الى الفتاة.

انها...؟

- اعتقد انهما يتحدثان، هذا كل ما هنالك.

- من الواضح ان الامر يخص من في رعايتها: الاولاد.

- خذيه اذا الى الطابق العلوي يا عزيزتي. سيدي.

انحنى انحناءة صغيرة واختفى بالسرعة نفسها التي ظهر فيها للعيان. اما الفتاة، فاشارت الى تشارلز ان يلحق بها، وتركته كي يغلق الباب وحده. وفي حين شرع يرتقـــي السلالم، كان لديه متسع من الوقت كي ينظر فيه الى اللوحات والرسوم المكدســـة. وكـــان يمتلك ما يكفي من المعرفة في الفنّ الحديث ليدرك المدرسة التي تنتمـــي لها معظم اللوحات، والحق، ان يدرك من هو الفنان الشهير السيئ السمعة الذي كان توقيعه يُشاهد على العديد منها. وكان الحماس الذي اثاره قبل ما يقرب

مـــن عشرين سنة قد خف الان. والشيء الذي كان يعتقد بانه جدير بالحرق بات الان غـــالي الثمن. لقد كان السيد ذو القلم مقتني لوحات، لوحات مشكوكا فيها الى حدّ ما، الا انه كما يبدو رجل موسر.

سار تشارلز من وراء ظهر الشابة الرشيق وارتقى مجموعة من السلالم. لا تزال هـــناك الكثير من اللوحات، الا انه اضحى الان بالغ القلق، لا يقوى على اعطائها اي اهمية. وفي حين شرعا يرتقيان مجموعة ثانية من السلالم تجرأ تشارلز على طرح سؤال.

- اتعمل السيدة رافوود مربية هنا؟

تـــوقفت الفـــتاة في منتـــصف السلالم ونظرت الى الوراء. دهشة دفعتها الى الابتسام، ثم خفّضت من عينيها.

- انها لم تعد مربية.

سقطت عيناها على عينيه في لحظة قصيرة ثم واصلت صعودها.

وصلا الى فسحة ثانية في السلالم. وهنا التفتت مرشدته العرافة قرب الباب.

- من فضلك انتظر هنا.

دخلـــت الغـــرفة تاركة الباب نصف مفتوح. استطاع تشارلز ان يشاهد من مكانـــه خـــارج الغرفة نافذة مفتوحة، وستارة مخرمة تتمايل الى الوراء بفعل هواء الصيف، ولمعان النهر من ورائها ومن بين الاوراق المتشابكة. ثمة اصوات مهموسة. غيّـــر مكانه كي يرى على نحو افضل محتويات الغرفة. وهنا شاهد رجلين، نبيلين اثـــنين، يقفـــان قـــبالة لوحة من فوق مسند وضع على نحو مائل الى جهة النافذة للاســـتفادة من ضوئها. انحنى الرجل الاطول قامة لمعاينة بعض التفاصيل، فكشف بـــذلك عن الشخص الثاني الواقف من ورائه الذي نظر مصادفة من خلال الباب صـــوب عيني تشارلز. اظهر رغبة واهية ومن ثم القى نظرة خاطفة على شخص ما في الجانب الاخر من الغرفة المتواري عن الانظار.

وقف تشارلز مذهولا.

فقـــد كان ذلك الوجه وجها يعرفه، انه وجه سبق له ان اصغى له ذات مرة مـــدة ساعة او اكثر وكانت انذاك الى جانبه ايرنستينا. مستحيل ولكن... والرجل في الطابـــق السفلي! هذه اللوحات والرسوم! اشاح بوجهه ونظر، رجل يدخل في

كابوس لا يخرج منه، من خلال نافذة مرتفعة في الجانب الخلفي من الفسحة تؤدي الى حديقـــة خلفية خضراء من تحت. لم يشاهد شيئا، بل مجرد حماقة افتراضية بأن الـسـاقطات لا بد ان يواصلن سقوطهن - او لم يأتِ للقبض على قانون الجاذبية؟ كان يرتعش مثل رجل يجد فجأة العالم من حوله وقد انقلب رأسا على عقب.

صوت.

القى نظرة خاطفة من حوله. كانت تقف هناك قبالة الباب الذي اغلقته على الفـــور، ويدها فوق المقبض النحاسي، لا تقوى على النظر بوضوح بعد ان توارى ضوء الشمس فجأة.

وثوبها!

كـــان ثوبا مختلفا حتى انه ظن فترة وجيزة انها امرأة اخرى. لقد شاهدها دوما في مخيلـــته مرتدية ثيابها السابقة، وجه مسكون ينهض من ظلمة موت الزوج. غير ان هذه المـرأة كانت امرأة ترتدي ثياب المرأة الجديدة، رافضة رفضا قاطعا كل الاراء الشكلية المعاصـــرة الخاصـــة بزي الانثى. كانت تنورتها ذات لون ازرق غامق مثبتة عند الخصر بحزام قرمزي له ابزيم يمثل نجمة مذهبة، ويشد من تحته ايضا قميصا حريريا مقلما بلونين الابيض والوردي، طويل الكمين، منسابا، وبياقة صغيرة دقيقة بيضاء مخرمة، ومن تحتها حجر ثمين يقوم مقام الرباط. اما الشعر فكان مشدودا من الخلف بشريط احمر.

اثـــار هـــذا الشبح البوهيمي الكهربائي استجابتين فوريتين في نفس تشارلز؛ الاولى هـــي انها بدت اصغر سنا بسنتين بدلا من ان تبدو اكبر سنا بعامين؛ والثانية هـــي انـــه علـــى نحو غير مفهوم لم يعد الى انكلترا بل قام برحلة دائرية وعاد الى اميركا، اذ كان الكثير من الشابات الانيقات هناك يرتدين مثل تلك الثياب في اثناء النهار. وكن يدركن معنى مثل هذه الملابس - بساطتها وجاذبيتها بعد الكرنيولين والمشدات والارداف المستعارة البائسة. في الولايات المتحدة، وجد تشارلز اسلوبها جـــذابا جـــدا بما فيه من ايحاءات مغناج للتحرير بأساليب اخرى. اما الان، وتحت شـــكوك اخرى جديدة وكثيرة، تلونت وجنتاه بلون لا يختلف كثيرا عن الخطوط الوردية القرنفلية في قميصها.

غـــير انه ازاء صدمته - ما هي الان، ما الذي آلت اليه! - انتابته موجة من الارتياح، تلك العينان، ذلك الفم، تلك المسحة الخفية الدائمة الموحية بالتحدي...

كلـــها لا تزال موجودة. لقد كانت المخلوقة المدهشة لذكرياته السعيدة - الا الها متفتحة، تدرك بوضوح، تنتقل من طور اليرقانة الى الحشرة الكاملة.

مـــرت عشر لحظات طويلة ساد فيها الصمت التام. ثم شبكت يديها متوترة من فوق الابزيم المذهب وخفضت بصرها.

- كيف اتيت الى هنا يا سيد سميثسون؟

لم تـــشاهد العنوان، و لم تكن مقرة بالجميل. و لم يتذكر ان سؤالها كان يشبه سؤالا سبق له ان طرحه عليها عندما جاءت اليه على نحو غير متوقع. الا انه ادرك ان مكانتيهما قد انقلبت الان. فهو الان الشخص المتضرع وهي المستمعة المترددة.

- لقد أُخبر محاميَّ انك تقطنين هنا. ولا ادري من الذي اخبره.

- محاميك؟

- ألم تعرفي انني فسخت خطوبتي من الانسة ايرنستينا؟

اصـــبحت هي الان في حالة ذهول. وتفرّست عيناها في عينيه لحظة طويلة، ومـــن ثم اطـــرقت. لم تكن على علم. اقترب منها خطوة واحدة وتكلم بصوت خفيض.

- لقـــد فتـــشت عنك في كل ركن من اركان هذه المدينة. ونشرت في كل شهر الاعلانات على أمل...

حدق كلاهما الى الارض الممتدة من بينهما، الى السجاد التركي الانيق الذي كان مفروشا على امتداد الفسحة. حاول ان يجعل صوته طبيعيا.

- ارى انك...

كان يفتقر الى الكلمات، الا انه كان يعني الها قد تغيرت تماما.

قالت.

- لقد رفقت بـــي الدنيا.

- ذلك السيد هناك - اليس هو...؟

أاومات مجيبة على الاسم الذي لا يزال في عينيه غير المصدقتين.

- وهذا البيت يعود الـــ...

اخذت نفسا قليلا، فقد باتت لهجته تنم على الاتهام. ففي ذهنه كان يتوارى علـــى نحو واه شيء من الغيبة والنميمة، لا عن الرجل الذي شاهده في الغرفة، بل

عن الشخص الذي شاهده في الطابق السفلي. وبلا سابق انذار، تقدّمت سارة من الـــسلالم التي كانت تؤدي الى اعلى البيت. وقف تشارلز متسمرا في مكانه. القت عليه نظرة خاطفة مترددة.

- تفضل بالصعود.

ســـار مـسن ورائها وهو يرتقي السلالم ليجد انها دخلت غرفة تواجه الشمال تطـــل على الحدائق الغنّاء الممتدة من تحتها. انه محتَرَف رسام (مرسم الفنّان). فوق منـــضدة قـــريبة من الباب ثمة مخلفات الرسم. وعلى مسند بداية تخطيط زيتي يمثل امرأة، شابة حزينة، مطرقة، وبعض النباتات من وراء رأسها. وهناك لوحات زيتية على قماش، مقلوبة قرب الجدار. وعلى مقربة من جدار اخر، مجموعة من كلاليب علقت عليها مجموعة متنافرة الالوان من الملابس واللفاعات والاوشحة، جرة كبيرة من الخزف، مناضد ملحقات - عبوات، فرش، علب الوان، نقش ضئيل البروز - مـــنحوتات صـــغيرة، قارورة وفيها اعشاب قلما هناك قدم مربع واحد (929 سم مربع) بلا شيء من فوقه.

وقفت سارة قرب احدى النوافذ، وقد ولته ظهرها.

- انا سكرتيرته، مساعدته.

- اتعملين نموذجا له؟

- أحيانا.

- ادرك هذا.

الا انه لم يدرك اي شيء؛ فقد شاهد في زاوية عينه احدى الصور التخطيطية فوق منضدة قرب الباب وكانت تمثل انثى عارية، عارية من الخصر الى اعلى، وقد امـــسكت بقارورة فوق حوضها. لم يكن الوجه على ما يبدو سارة. الا ان النظرة كانت على نحو جعله غير واثق.

- انتِ تعيشين هنا منذ غادرت اكستر؟

- عشتُ هنا في السنة الاخيرة هذه.

كـــان يـــتمنى ان يسألها عن كيفية ذلك. كيف التقيا؟ ما هي الشروط التي يعيشان بموجبها؟ تردد، ثم وضع قبعته وعصاه وقفازه فوق احد المقاعد القريبة من الـــباب. اصـــبح في وســـعه الان ان يشاهد شعرها بكل ما فيه من غنى ممتدا حتى

خـــصرها. لاحـــت لـــه اشد ضألة مما يتذكر، اكثر نحافة. اصطفق جناحا حمامة وحطـــت على حافة النافذة قبالتها. فزعت، ومن ثم حلقت بعيدا. فُتح باب وأُغلق في الطابـــق الـــسفلي. ثمة اصوات خافتة لرجال يسيرون من تحت. كانت الغرفة تفصل بينهما. كل شيء يفصل بينهما. وبات الصمت لا يطاق.

لقد جاء لينقذها من الفقر المدقع، من عمل مبهم في بيت مبهم. جاء مدججا بالـــسلاح، على اهبة لذبح التنين؛ الا ان الانسة خرقت كل القوانين. لا قيود، لا نشيج، لا يدين متوسلتين. كان هو الرجل الذي يبدو مثل ثياب سهرة رسمية تحت الانطباع بانها حفلة ملابس تنكرية.

– ايعلم هو انك غير متزوجة؟

– انني اشق طريقي بوصفي ارملة.

كان سؤاله التالي مشوشا، الا انه فقد كل لباقة.

– اعتقد بأن زوجته ميتة.

– ميتة، لكن ليس في قلبه.

– ألم يتزوج؟

– انه يشاطر اخاه هذا البيت.

ثم اضافت اسم شخص اخر كان يعيش هناك، كأنها تريد الايحاء بأن مخاوف تـــشارلز الـــتي لا يـــستطيع اخفاءها بسبب هذا الدليل على سكان البيت انما هي مخـــاوف لا اســـاس لهـــا من الصحة. بيد ان الاسم الذي اضافته كلن ليجعل اي فكتوري محترم في اواخر ستينات القرن التسع عشر يستاء استياء شديدا. فالاهوال الـــتي كـــان يثيرها شعره عبّر عنها صراحة جون مورلي[125]، احد الكفوئين الذين ولـــدوا ليعبِّـــروا (اي ليكونوا واجهة فارغة) عن عصرهم. تذكر تشارلز العبارة الضرورية الخاصة بإدانته: «الفاسق المكلل بالغار» وسيد البيت نفسه! ألم تسمع انه

---

(125) جون مورلي (1838–1923): سياسي انكليزي من سياسي حزب الاحرار اشتهر بوصفه اديـــبا وبخاصة كاتب سير. من مؤلفاته المنشورة: (ادموند بيرك - 1867)، (فولتير–1872)، (روســـو–1873)، (ديـــدرو والموســـوعيون–1878)، (رالـــف والدو ايمرصن–1884)، (دراســـات فـــي الادب -1891)، (اوليفـــركومويل–1900)، (حـــياة غلادستون–1903)، وغيرها. (المترجم)

كـــان يتعاطى الافيون؟ لاحت في ذهنه صورة بيت يتصف بالقصف والعربدة من اربعة او خمسة اشخاص اذا ما عدَّ المرء ايضا الفتاة التي ارشدته الى الطابق العلوي. الا انـــه لم يكن هناك ما يشير الى العربدة في مظهر سارة. ان تقديم الشاعر بوصفه اشـــارة انمـــا يدل ايضا على شيء من البراءة؛ وما الذي تعين على المحاضر والناقد الـــشهير ان يـــرى من خلال الباب، ما الذي يفعله رجل له افكار متطرفة، الا انه محترم، ومحط اعجاب الكثيرين في عرين خطيئة كهذا؟

اني ابالغ في توكيد الاسوأ – تلك هي الانتهازية في تبسيط النصف المورلي[12] مـــن عقـــل تشارلز؛ اما نفسه الافضل، تلك النفس التي ساعدته من قبل ذات يوم علـــى انـــه يـــدرك على الفور تعمد الاذى الذي كانت تلحقه بلدة لايم بطبيعتها الحقيقية، فقد ناضلت لطرد شكوكه.

بـــدأ يعبر عن افكاره بصوت هادئ؛ بصوت اخر في ذهنه صب لعناته على الـــشكلية التي اتَّسم بها، ذلك الحاجز الموجود في اعماقه الذي لم يستطع قول شيء عن الايام الموحشة، الليالي الموحشة التي لا عد لها ولا حصر، روحها الى جانبه، من فوقه، قبالته... دموع، لم يستطع كيف يعبرٌ عن دموعه. اخبرها بما حدث في تلك الليلة في اكستر، بقراره، بخيانة سام الكبرى.

كـــان يـــتمنى ان تلتفت اليه، الا انها ظلت محدقة، دون ان يتمكن من رؤية وجهها، الى النباتات الخضراء من تحت. هناك اطفال يلعبون. التزم الصمت ثم تقدم مقتربا منها.

– الا يعني ما اقوله لك اي شيء؟

– يعني الشيء الكثير لي. لقد...

قال برفق.

– اتوسل اليك ان تكملي كلامك.

– الكلمات تخونني.

ابـــتعدت، كأنهـــا لا تقوى على رؤيته قريبا منها، ولما اصبحت قرب مسند اللوحات تجرأت ونظرت اليه، وغمغمت.

---

(126) المورلي: نسبة الى جون مورلي الوارد ذكره انفا. (المترجم)

- لا اعرف ماذا اقول.

الا انها قالت ذلك دون عاطفة، بلا اي عرفان كان يتوق اليه، قالتها ببساطة تثير الحيرة لا اكثر، بحقيقة قاسية.

- قلــتِ لي انك كنت تحبينني. ومنحتني اعظم دليل تستطيع المرأة ان... ان الذي استحوذ علينا ليست درجة اعتيادية من العاطفة والانجذاب المشترك.

- لا انكر ذلك.

بـــان وميض يدل على استياء مُمتَعِض في عينيه. اطرقت، وران الصمت من جديد في الغرفة. وهنا التفت تشارلز صوب النافذة.

- الا انك وجدتِ حبا جديدا ابلغ اثرا.

- لم اظن انني سأراك ثانية البتة.

- هذا لا يجيب عن تساؤلي.

- لقد حرّمت على نفسي الندم على ما هو مستحيل.

- لا يزال هذا...

- انا لست عشيقته يا سيد سميثسون. لو كنت تعرفه، لو كنت تعرف مأساة حياته الشخصية. لما كان في وسعك لحظة واحدة ان تكون...

الا انهـــا امـــسكت عن الكلام. لقد بالغ اكثر مما ينبغي، وها هو يقف الان متورد الوجنتين كمن ضرب على ظهر اصابعه. صمت ثانية، ثم قالت بهدوء.

- لقد وجدت حبا جديدا، الا انه ليس حبا كالذي توحي به.

- اذا لا ادري كيف افسر ارتباكك الواضح تماما لدى رؤيتي ثانية.

لم تقل شيئا.

- علـــى الـــرغم من ان في وسعي ان اتخيل ان لديك الان... اصدقاء يثيرون المتعة والبهجة اكثر مما استطعت انا ان اتظاهر به.

غير انه اضاف بعجالة:

- انت تضطرينني الى التعبير عن رأيي على نحو يثير نفوري.

غـــير انهـــا ظلت ساكتة لا تتكلم. فالتفتت اليها وهو يبتسم ابتسامة صغيرة مريرة.

- افهم كيف هي الامور. لقد اصبحت انا مبغض البشر.

حقق صدقه نتيجة افضل، اذ القت اليه نظرة سريعة، نظرة لم تكن لتخلو من الاهتمام. ترددت، ثم توصلت الى قرار.

- لم يكن قصدي ان تصبح على ما انت عليه. اردت ان افعل الشيء الافضل. لقد اسأت الى ثقتك، الى كرمك. نعم، لقد رميت نفسي عليك، فرضتُ نفسي عليك، مدركة كل الادراك ان لديك التزامات اخرى. كنت مجنونة في ذلك الوقت. ولم ادرك ذلك ادراكا واضحا حتى ذلك اليوم في اكستر. ولم يكن تفكيرك السيئ نحوي سوى الحقيقة.

توقفت قليلا في حين انتظر هو.

- منذ ذلك الوقت رأيت فنانين يحطمون اعمالا من شأنها ان تبدو للهواة اعمالا جيدة جدا. اعترضت في احدى المرات. فقيل لي، اذا لم يكن الفنان هو الحكم العنيد على اعماله، فانه غير جدير بأن يكون فنانا. اعتقد بأن ذلك صحيح. اعتقد بانني كنت على حق في تدمير الشيء الذي بدا بيننا. ثمة زيف فيه، و...

- لا يقع اللوم عليَّ بسبب ذلك.

- لا، لا يقع اللوم عليك.

توقفت هنيهة ثم استأنفت كلامها بلهجة أرَقّ.

- لاحظت مؤخرا عبارة عند السيد رسكين[127]. لقد كتب عن تناقض الادراك. وكان يقصد بكلامه ان ما هو طبيعي اصبح زائفا بفعل ما هو اصطناعي والنقي زائفا بما هو غير نقي. اعتقد بأن ذلك هو الشيء الذي حدث قبل عامين.

وهنا قالت بصوت خفيض.

- وانا اعرف اكثر من اللازم الجانب الذي اسهمت فيه.

راوده ذلك الاحساس المتيقظ من جديد بالاعتراض الغريب بالاستواء العقلي. ورأى ايضا التنافر الموجود دوما بينهما: الصفة الرسمية الشكلية التي تكتسبها لغته - البادية على اسوأ ما يكون في رسالة الحب التي لم تستلمها البتة - وصراحة لغته. لغتان اثنتان تدلان من جهة على الفراغ والارتباك الاحمق - الا انها قالت توا، السطحية في التصور - ومن جهة اخرى، جوهر الفكر ونقائهما، الاختلاف بين

(127) جون رسكين (1819 - 1900) كاتب وناقد فني انكليزي. اكد مساوئ المجتمع الصناعي الجديد. (المترجم)

شـــارة بسيطة، اذا جاز التعبير، وصفحة مزوقة من نويل همفريز وكلها عبارة عن زخـــرفة ملولبة، تعقيد، رعب الزخرفة البالغة في الفراغ. ذلك هو التنافر الحقيقي فيما بينهما، على الرغم من ان رقتها - او توقها للتخلص منه - سعت الى اخفائه.

- اني وسعي الاستمرار في المجاز؟ الا يمكن التكفير عما تسميه الجزء الطبيعي والنقي من الادراك - تنبيه ثانية؟

- اخشى انه لا يمكن ذلك.

لم تنظر اليه وهي تتفوه بتلك العبارة.

- كـــنت علـــى بعد اربعة الاف ميل من هذا المكان عندما وصلني خبر يفيد انهم قد عثروا عليك. حدث ذلك قبل شهر. لم تمر بـــي ساعة منذ ذلك الوقت الا وفكّـــرت في هذا الحديث. انكِ... انكِ لا تستطيعين الاجابة بملاحظات عن الفنّ مهما كانت متناقضة.

- غرضها ان تنطبق على الحياة ايضا.

- اذا ما تقولينه هو أنك لم تحبيني البتة.

- لا استطيع ان اقول هذا.

ابتعدت عنه، فسار من ورائها ثانية.

- لكن عليك ان تقرّي بذلك. لا بد لك من القول: «كنت شريرة تماما، انا لم ارَ فـــيه سوى اداة استطيع ان استخدمها، دمار استطيع ان احدثه. اما الان فلا يهمـــني ان كان لا يزال يحبني، وانه شاهد في رحلاته امرأة يقارنها بـــي، انه شبح، ظل، نصف انسان، طالما يظل منفصلا عني».

احنت رأسها في حين خفض صوته.

- لا بـــد لك من القول: «لا يهمني ان جريمته اظهرت ترددا استغرق بضع ســـاعات، لا يهمني ان كفّر عن ذلك بالتضحية باسمه النبيل، بـــ...» ليس ذلك بالشيء المهم، فانا على استعداد للتضحية بكل ما املكه مئات المرات ثانية لو كان في وسعي ان اعرف يا عزيزتي سارة اني...

اوشـــك ان يوصل نفسه على نحو خطير الى حافة البكاء. مدَّ يده دون وعي الى كـــتفها، ولمسه. لكن ما ان لمسه حتى خفّض يده عندما شعر بتصالب موقفها على نحو يصعب فهمه.

– هناك شخص اخر.

– نعم. هناك شخص اخر.

نظـــر الى وجههـــا المائل نظرة غاضبة واخذ نفسا عميقا ومن ثم سار صوب الباب.

– اتوسل اليك. ثمة شيء اخر اريد ان اقوله لك.

– لقد قلت الشيء الوحيد المهم.

– الشخص الاخر ليس هو ما تفكر فيه.

كانـــت لهجتها جديدة تماما، قوية تماما، حتى انه اوقف حركته صوب قبعته. نظر نظرة خاطفة وشاهد مخلوقة منفصمة: سارة الاكبر سنا التي تتهمه، وسارة التي توسلت اليه ان يصغي لها. حدق الى الارض.

– هناك شخص اخر بالمعنى الذي تقصده. انه... فنان التقيت به هنا ويريد ان يتزوجني. انني معجبة به، واحترمه انسانا وفنانا، الا انني لن اتزوجه. لو اجبرتُ في هذه اللحظة على الاختيار بين السيد... بينه وبينك فلن تخرج من هذا البيت اكثر حزنا. اتوسل اليك ان تصدقني.

اقتربت قليلا منه، عيناها ثابتتان في عينيه، تماما واضطر الى ان يصدقها. اطرق ثانية.

– ان خصمكما المشترك هو نفسي انا. انني لا ارغب في الزواج. لا ارغب في الـــزواج بسبب.. اولا، بسبب ماضيَّ الذي عودني على الوحدة. فكرت دوما انني اكـــرهها. اما الان فأنا اعيش في عالم يسهل جدا فيه تجنب الوحدة. ووجدت انني اكتنـــــزها. لا اريد ان يشاركني احدٌ حياتي. اريد ان اكون على ما انا عليه، لا على النحو الذي يجب ان يتوقعه مني زوج مهما كان رقيقا، ومهما كان متسامحا.

وسببك الثاني؟

– ســـبـبــــي الثاني هو حاضري. فأنا لم اتوقع ان اكون سعيدة في الحياة البتة. غير انني أجد نفسي سعيدة حيث انا الان، وعملي متعدد الالوان، مناسب لطبيعتي ومزاجي – عمل يثير البهجة الى حدّ كبير حتى انني لم اعد افكر فيه على انه عمل. اذ يـــسمح لي بالدخـــول في حديث النوابغ اليومي. لمثل هؤلاء الرجال اخطاؤهم، عـــيوبهم. الا انهـــم ليسوا اولئك الذين يختار العالم ان يتخيلهم. فالاشخاص الذين

التقيتهم هنا يدعونني ارى مجموعة من المساعي الشريفة، من الاهداف النبيلة وانا لم اعرف إلى الآن انني موجودة في هذا العالم.

التفتت صوب مسند اللوحة.

– انـــا سعيدة يا سيد سميثسون، فقد وصلت اخيرا الى المكان الذي انتمي اليه، او هذا ما يلوح لي. انني اقول هذا القول بمنتهى التواضع. فانا لا املك اي عبقرية، لا املك ما هو اكثر من القابلية على مساعدة النوابغ مساعدة متواضعة وصغيرة جدا. من الجائز ان تظن انني كنت محظوظة. لا احد يعرف ذلك افضل مني شخصيا. الا انني اعتقد بانني مدينة لحظي السعيد. ولن ابحث عنه في مكان اخـــر. وعليّ ان اراه حظا مزعزعا، مثل شيء يجب الا اسمح لنفسي ان تُحرم منه.

توقف هنيهة، ثم وقفت قبالته.

– من الجائز ان تفكر كيفما تشاء فيّ، الا انني لا استطيع ان اتمنى شيئا لحياتي خـــلاف ما هي عليه في هذه اللحظة، ولا حتى عندما اجد انسانا احترمه يتضرع اليّ، انـــسانا يؤثـــر في اكثر مما يلوحُ عليَّ، انسانا لا استحق منه مثل هذا السخاء المخلص في الحب.

خفضت عينيها.

– انسانا اتوسل اليه ان يفهمني.

كانـــت هـــناك العديد من النقاط التي آثر تشارلز ان يقاطع فيها هذا المبدأ. فـــالحجج الـــواردة فيه ظهرت كلها له هرطقة. الا ان اعجابه بالمتمردة ازداد في اعماقه الدفينة. لم تكن لتشبه اي امرأة، لا تشبه اي امرأة اكثر من اي وقت مضى. ورأى ان لـــندن، حـــياتها الجديـــدة، قد غيرت منها تغييرا طفيفا، قد هذبت من مفرداتها ولكنتها، قد اوضحت الحدس، قد عمّقت من وضوح بصيرتها، قد جعلتها الان تـــستقر من حول مفهومها الاساس عن الحياة ودورها فيها في حين كانت في الـــسابق حائرة على نحو يفتقر الى الامان. لقد ضللته ثيابها البراقة اول الامر. الا انه بـــدأ يـــشعر انهـــا ليـــست سوى عامل من عوامل معرفتها الذاتية وتملكها الذاتي الجديـــدين. لم تعـــد تحتاج الى زي خارجي. فقد كان يراه، الا انه على الرغم من ذلك ما كان ليريد رؤيته. عاد الى مكان قريب من وسط الغرفة.

- الا انـك لا تـستطيعين رفض الهدف الذي من اجله خلقت المرأة. ما هو الثمن؟ ليس لدي شيء اقوله ضد السيد...

اشار الى اللوحة من فوق المسند.

- وحلقته، غير انك لا تستطيعين وضع خدمتك لهم فوق القانون الطبيعي.

زاد من توكيد خصاله الحسنة.

- انـا ايضا تغيرت، عرفت الكثير عن نفسي، عن الاشياء الزائفة فيّ. ليست عـندي اي شروط. وفي وسع الانسة سارة وودراف ان تستمر كما هي عليه مثل السيد تشارلز سميثسون. لن امنعك من عالمك الجديد او من مواصلة الاستمتاع فيه. انا لا اعرض عليك ما هو اكثر من زيادة سعادتك الشخصية الراهنة.

اتجهت صوب النافذة، في حين تقدم هو الى مسند اللوحة وعيناه ترنوان اليها. التفتت نصف التفاتة.

- انـت لا تفهم. ليس الخطأ خطاك. فأنت انسان رقيق. اما انا فلن يفهمني احد.

- لا تنسي انك قلت لي ذلك من قبل. اظن انك تنظرين الى المسألة على انها مسألة كبرياء.

- كـنت اقـصد انـي انا شخصيا لا افهم نفسي، ولا استطيع ان اخبرك بالسبب، غير انني اعتقد بأن سعادتي تعتمد على عدم فهم اي شخص لي.

ابتسم تشارلز على الرغم منه.

- هـذا غـير معقول. فأنتِ ترفضين طلبـي لانني ربما اجعلك تفهمين نفسك.

- انـي ارفـض، كما رفضت النبيل الاخر، لانك لا تستطيع ان تفهم ان المسألة عندي ليست غير معقولة.

اولـته ظهرها ثانية وطفق يجد بصيصا من الامل، اذ بدت وهي تظهر - في اثناء التقاطها شيئا ما من فوق الرافدة البيضاء المستعرضة قبالتها - ما يشبه الارتباك الطفولي العنيد الذي يشبه ما تحاول ان تخفيه.

- لـن تهربـي هناك. من الجائز ان تحتفظي لنفسك بكل الغموض الذي ترغبين غير ان ذلك لن يبقى مقدسا عندي.

- لستَ انتَ ما اخشاه، بل اخشى حبك لي. وانا اعرف معرفة جيدة ان لا شيء يبقى مقدسا هناك.

شعر انه حرم من ثروة بسبب عبارة تافهة في وثيقة قانونية، انه ضحية انتصار قانون لاعقلاني على العزيمة العقلانية. غير ان ما من شأنها ان تستسلم للعقل. ومن الجائز ان تكذب على نحو اكثر صراحة على العاطفة. تردد ثم اقترب اكثر.

- افكرتِ كثيرا فيّ في اثناء غيابـــي؟

اذ ذاك نظرت اليه، نظرة شبه جافة، كأنها توقعت هذا النمط الجديد من الهجوم، فرحّبت به. اشاحت بوجهها بعد لحظة، وحدّقت الى سطوح البيوت المقابلة للحدائق.

- اولا، فكّـــرت فيك كثيرا. فكّرت فيك كثيرا جدا بعد ستة اشهر لما رأيت اول مرة احدى الاعلانات التي نشرتها في -

- اذا كنت تعرفين!

غير انها استأنفت كلامها باصرار.

- ممـــا اضطرني الى تغيير محل سكناي واسمي. اجريت بعض الاستفسارات، وعلمت بعد ذلك، وليس قبله، انك لم تتزوج الانسة فريمان.

وقـــف مـــتجمدا، غـــير مصدق خمس ثوانٍ طويلة. ثم نظرت اليه نظرة خاطفة صـــغيرة، شعر انه رأى فيها اغتباطا واهيا، انها تملكُ دوما هذه الورقة الرابحة على اهبة الاستعداد - والاسوأ من ذلك، انها انتظرت لتكشف عنها عندما ترى كل ما لديه من اوراق. ابـــتعدت بهـــدوء وساد ذلك الهدوء، تلك اللامبالاة الواضحة، رعب اشد من ابتعادها. تتبعها بعينيه ولعله بدا اخيرا يدرك سرها. لقد بدأ نوع من الانحراف الرهيب في القدر الجنسي الانساني. وهو ليس اكثر من جندي مشاة، قطعة شطرنج في معركة اكثـــر هـــولا. ومـــثل كل المعارك، فإنها لم تكن معركة من اجل الحب، بل من اجل الاســـتيلاء والارض. وادرك ادراكـــا عمـــيقا انها لم تكن تكره الرجل، او انها تحتقره احـــتقارا ماديـــا اكثـــر من بقية الرجال، بل ان مناوراتها جزء لا يتجزء من سلاحها، ادوات مـــن اجل غاية اكبر، وادرك ادراكا اشد عمقا ايضا ان سعادتها الراهنة المفترضة كانـــت كذبـــة اخرى. ففي اعماقها الدفينة كانت لا تزال معذبة، على نفس النحو القديم. ذلك هو السر الذي كانت تخشى حقا واخيرا ان يتمكن من اكتشافه.

ران الصمت.

– انتِ اذا لم تحطمي حياتي حسب، بل كان يلذ لك ان تفعلي ذلك.

– كنت اعلم ان لا شيء سيتمخض عن هذا اللقاء سوى التعاسة.

– اعتقد بانك تكذبين. اعتقد بانك تمتعت بفكرة تعاستي. واعتقد بانك أنتِ التي ارسلت تلك الرسالة الى محاميّ.

نظرت اليه نظرة حادة مستنكرة، الا انه واجهها بتكشيرة باردة.

– انت تنسين انني اعرف في غير صالحي توا انك تستطيعين ان تصبحي ممثلة بارعة عندما يلائم ذلك اهدافك. وفي مستطاعي ان احمن السبب الذي دعيت من اجلـــه الى هنا وهو توجيه الضربة القاضية اليّ. فلديك ضحية جديدة. فقد اشفي غلـــيل كـــراهيتك الذي لا يرتوي والبعيد كل البعد عن كل ما هو انثوي لجنس الرجال مرة واحدة اخيرة... والان في وسعي الانصراف.

– انك مخطئ في الحكم عليّ.

تفـــوهت بعبارتها على نحو هادئ تماما كأنما لتظل دليلا على كل اتهاماته، بل استطابت لها في اعماق نفسها الدفينة. هز رأسه بالنفي هزة مريرة.

– لا، بـــل انتِ كما قلت. فأنتِ لم تغرسي الخنجر في صدري حسب، بل طاب لك ان تحركيه فيه حركة دائرية.

انتصبت الان محدقة اليه، كأنها مجرم عنيد ينتظر قرار الحكم، على غير ارادتها، بل مسحورة. ونطقت بالحكم.

– سيأتي اليوم الذي تُسألين فيه عما فعلته فيّ. واذا كانت السماء عادلة، فإن عقابك لن ينتهي الى الابد.

كلمـــات عاطفـــية. الا ان الكلمات أحيانا تكون اهميتها اقل من اهمية عمق المشاعر الكامنة من ورائها – وكانت هذه الكلمات صادرة عن كيان تشارلز كله ويأسه. لم تكن العاطفة هي التي تصرخ من ورائها، بل المأساة. ظلت لحظة طويلة تحـــدق الـــيه وانعكـــس في عينيها شيء من الغضب الجامح الذي كان يتأجج في روحه. وفجأة اطرقت.

تـــردد ثانية اخيرة وكان وجهه اشبه بجدار سد يوشك ان ينهار، اذ كان ثقل الندم يضغط ضغطا هائلا في الاعماق. غير انه اغلق فمه واستدار على عقبيه، وسار صوب الباب بالسرعة نفسها التي تبين فيها انها مذنبة.

هرولت من ورائه بعد ان جمعت اطراف ثوبها بيد واحدة. استدار لدى سماعه الـــصوت، فما كان منها الا ان تقف في مكانها حائرة. الا انه قبل ان يتمكن من السير، اسرعت ومرت من امامه صوب الباب، فوجد طريقه الى الخروج مغلقا.

- لا استطيع تركك لتذهب وانت معتقد بما قلتَ.

انـــتفخ صدرها كأنها مقطوعة الانفاس، عيناها ثابتتان من فوق عينيه، كأنها اعـــتمدت اعـــتمادا كليا على ضغطهما في ايقافه. الا انها تكلمت لما ابدى اشارة غاضبة من يده.

- هناك سيدة في هذا البيت تعرفني، وتفهمني فهما افضل من اي انسان اخر في العالم. وهي ترغب في رؤيتك. اتوسل اليك ان تفعل ما اقول. وستوضح لك... طبـــيعتي الحقيقـــية افضل مني. وستشرح بأن تصرفي ازاءك لا يستحق اللوم الذي تفترضه.

اتقـــدت عيـــناه من فوق عينيها، كأنه سيترك ذلك السد ينهار الان. وبذل جهـــدا صعبا كما يبدو كي يسيطر على نفسه، كي يتخلص من السعير، ويستعيد الهدوء. ونجح.

- انـــي مندهش اذ تعتقدين بأن شخصا لا اعرفه يستطيع ان يبرر سلوكك. والان -

- انها تنتظرك، فهي تعلم انك موجود هنا.

- لا يهمني امرها حتى لو كانت هي الملكة. لن اراها.

- لن اكون حاضرة.

احمـــرت وجنتاها احمرارا شديدا مثل احمرار وجنتي تشارلز. وللمرة الاولى - والاخـــيرة - في حـــياته، مـــال الى استخدام القوة البدنية ضد شخص من الجنس اللطيف.

- تنح جانبا.

الا انها هزّت رأسها بالنفي. اصبح الموضوع الان خارج نطاق الكلمات، انها مسألة ارادة. وكان تصرفها قويا - مأساويا. الا ان شيئا غريبا استحوذ على عينيها - شـــيئا قـــد حدث، نسمة من عالم اخر كانت تهب على نحو غير محسوس من بينهما. راقبته كأنها عرفت انها جعلته في موقف حرج؛ خائفا الى حدّ ما، لا يعرف

مـــاذا يفعـــل، ولكنه بلا مناورة، كان لا شيء من وراء ذلك المظهر سوى حب فضول: ترقب نتيجة تجربة. شيئا ما تردد في اعماق تشارلز. انخفضت عيناه. فوراء كـــل ثورته العاتية ادرك انه لا يزال يحبها، وان هذه هي المخلوقة الوحيدة التي لا يستطيع نسيان ضياعها. قال وهو ينظر الى الابزيم المذهب:

- ماذا افهم من هذا الشيء؟

- ســـتفهم الشيء الذي كان ممكنا ان يتوقعه منذ وقت قصير اي رجل اقل استقامة ونبلا.

نقّب في عينيها. اهناك ادنى ابتسامة فيهما؟ لا. لا يمكن ان توجد، ولا توجد. حملته بين عينيها الغامضتين لحظة اخرى، ثم تركت الباب واجتازت الغرفة صوب مقـــبض جـــرس قـــرب المـــوقد. بات حرا في ان يذهب، بيد انه راقبها دون ان يتحـــرك... اي رجل اقل استقامة ونبلا... اي شناعة جديدة تتهدده الان! امرأة اخـــرى تعـــرفها وتفهمها افضل منه... تلك الكراهية للرجل... هذا البيت الذي يسكنه... لم يتجرأ على البوح بذلك.

اعادت المقبض النحاسي الى الوراء ومن ثم عادت اليه ثانية.

- ستأتي على الفور.

فتحت سارة الباب ونظرت اليه من طرف عينها.

- ارجـــو مـــنك ان تصغي الى ما ستقول، وان تضفي عليها الاحترام اللائق بسنها ومكانتها.

ثم اختـــفت. غـــير انهـــا تركت في تلك الكلمات الاخيرة مفتاحا ضروريا. وحدس على الفور بمن سيلتقي عما قريب. انها شقيقة رئيسها، الشاعرة (لن اخفي الاسمـــاء بعـــد الان) الانسة كريستينا روزيتي[128]. مؤكدا! ألم يجد دوما في شعرها صوفية محددة عصيّة على الفهم في تلك المناسبات النادرة التي القى فيها نظرة عليه،

---

(128) كريستينا روزيتي (1830 - 1894): شقيقة (دانتي غبريال روزيتي) بدات نظم الشعر في سن مبكرة. شعرها مكرس في الاساس لمعالجة موضوعة الزوال وبخاصة زوال الاشياء الماديـــة. عانت كثيرا من سوء حالتها الصحية وعاشت حياة كئيبة استحوذت عليها فكرة نموذج النقاء الروحي الذي يتطلب انكار الذات. كانت النزعة الدينية واضحة في اشعارها ايضا. (المترجم)

غمــوض عنيف، الاحساس بفعل يعوز الى الداخل وينحو منحى انثويا، واذا شئنا الصراحة، يتخبط تخبطا لامعقولا فوق حدود الحب الانساني والمقدس؟

تقــدم صــوب الباب وفتحه. كانت سارة قرب باب يقع في اقصى طرف فسحة السلالم وتوشك ان تدخل. نظرت من ورائها في حين فتح فاه ليتكلم. غير ان صــوتا هادئــا ما انبعث من الاسفل، وشخصا ما كان يرتقي السلالم. رفعت سارة اصبعها الى شفتيها وتوارت عن انظاره داخل الغرفة.

تــردد تشارلز، ثم عاد ادراجه الى داخل المرسم وسار صوب النافذة. وادرك الان على من يقع اللوم بسبب فلسفة سارة عن الحياة – انها المرأة التي وصفتها مجلة بنش ذات يوم بأنها رئيسة دير الراهبات العاطفية، العانس الهستيرية لجمعية الاخوة ما قبل الرافائيلية. كم تمنى لو انه لم يأتِ!، لو انه اجرى تحريات اكثر قبل ان يرمي نفسه في هذا الموقف البائس! لكن ها هو الان، ووجد نفسه فجأة وقد عقد العزم – علــى نحو لا يخلو من تلذذ رهيب – ان السيدة الشاعرة لا ينبغي لها ان تركب رأســها وتصر على فعل ما تريد. فهو عندها قد لا يكون اكثر من ذرة رمل وسط ملايين لا تحصى من الذرات، عشبة ضارة في الحديقة اللطيفة لــ...

تناهــى الى سمعــه صوت. التفت وقد بان الهدوء التام على وجهه، الا انها لم تكــن الانسة روزيتي، بل الفتاة التي ارشدته الى الطابق العلوي، وهي تحمل طفلا صــغيرا بين ذراعيها. يبدو انها شاهدت الباب نصف مفتوح فما كان منها الا ان اختلــست النظــر وهي في طريقها الى ذلك الجزء من البيت المخصص للاطفال، ودهشت اذ رأته منفردا.

– هل انصرفت السيدة رافوود؟

– افهمــتني ان... سيدة ترغب في الحديث اليّ حديثا خاصا. وقد ارسلت في طلبها.

أمالت الفتاة رأسها.

– ادرك هذا.

الا انهــا بدلا من ان تنصرف كما كان تشارلز يتوقع، تقدمت داخل الغرفة ووضــعت الطفــل فــوق سجادة قرب مسند اللوحة. تحسست جيب صدريتها ووضــعت دمية من قماش قرب الطفل، ثم جثت على ركبتيها برهة وجيزة كأنها

تريد ان تتيقن من ان الطفل في منتهى السعادة. وبلا تحذير، استقامت وسارت على نحـــو رشـــيق صـــوب الباب في حين وقف تشارلز وقد بانت عليه امارات الحيرة والاهانة.

– اعتقد ان السيدة ستأتي عما قريب؟

التفتت الفتاة وابتسمت ابتسامة صغيرة، ثم القت نظرة سريعة الى الطفل فوق السجادة.

– ستأتي.

ظـــل تـــشارلز يحدق عشر ثوانٍ على الاقل بعد ان اغلق الباب. كانت طفلة صغيرة ذات شعر اسود وذراعين مكتنـــزتين، وكانت اكبر قليلا من طفل رضيع. ويـــبدو انهـــا ادركت فجأة ان تشارلز شخصا حيا. فرفعت يدها وسلمته الدمية بـــصوت غير مفهوم. تولد الانطباع لديه بوجود قزحيتين رمادتين هادئتين في وجه اعتـــيادي، وساوره شك يثير الخوف لا يدري ما كنهه... بعد ثانية واحدة، حثا قبالة الطفلة من فوق السجادة مساعدا اياها في الوقوف على قدميها غير الثابتتين، متفحـــصا ذلـــك الـــوجه مثل عالم اثار كشف النقاب عن اول نموذج لنص قديم مفقود. اظهرت الطفلة الصغيرة اشارات واضحة على عدم استلطافها هذا الفحص. لعلـــه امسك بالذراعين الهشتين على نحو اقوى مما ينبغي. بحث بسرعة عن ساعته، مثلما كان قد فعل ذلك يوما ما لما وجد نفسه في ورطه مماثلة. فكان لها نفس الاثر الطيب، وبعد بضع لحظات – بات في وسعه ان يرفع الطفلة دون احتجاج ويحملها الى احـــد الكراســـي القريبة من النافذة. جلست فوق ركبتيه مركزة اهتمامها في لعبتها الفضية، اما هو فكان يركز في وجهها، يديها، كل بوصة سنتيمتر منها.

وفي كل كلمة قيلت في تلك الغرفة. اللغة اشبه بحرير متموج الالوان، يعتمد كثيرا على الزاوية التي يمسك بها.

سمـــع صـــوت الـــباب يفتح بهدوء، غير انه لم يلتفت. وبعد لحظة واحدة، استراحت يد فوق ظهر الكرسي الخشبـــي العالي التي كان يجلس فوقها. لم يتكلم كمـــا لم يتكلم صاحب اليد، وكانت الطفلة مستغرقة في الساعة مما دفعها الى ان تبقـــى صامتة هي الاخرى. وفي بيت بعيد، بدأت سيدة تعزف البيانو – سيدة يمر وقـــتها مـــرورا بطيـــئا لأن تنفيذ العزف كان فقيرا، لا تكفر عنه سوى المسافة:

موســـيقى المازوركا لشوبان، تنساب من خلال الجدران، من خلال الاوراق ونور الـــشمس، ذلـــك الصوت المتواصل المهتز هو وحده الذي كان يشير الى التعاقب والتوالي، والا كان الامر مستحيلا: لقد استحال التاريخ الى توقف حي، صورة في الجسد.

غـــير ان الطفلة الصغيرة بدأت تتململ، فمدت يديها الى ذراعي امها. رفعت من مكانها، رقصت ومن ثم حملت مسافة بضع خطوات. ظل تشارلز يحدق الى ما وراء النافذة لحظة طويلة. ثم وقف في مواجهة سارة وحملها. عيناها رزينتان، الا انها تبتـــسم ابتـــسامة شـــاحبة. اصبح الان معرضا للتهكم اللاذع، غير انه كان على استعداد للسفر اربعة الاف ميل كي لا يتعرض لمثل هذا التهكم.

حاولت الطفلة ان تمد يدها الى الارض بعد ان شاهدت دميتها هناك. انحنت سارة قليلا، وتناولت الدمية واعطتها لها. ثم راقبت قليلا استغراق الطفلة في دميتها وهـــي تتكئ على كتفها، ثم انتقلت عيناها لتستقرا فوق قدمي تشارلز، اذ لم تكن تقوى على النظر الى عينيه.

- ما اسمها؟

- لالاج.

لفظت الاسم مثل تفعيلة شعرية، بتركيز في صوت الحرف (ج). الا انها ظلت لا تستطيع رفع عينيها اليه.

- اقتـــرب مني السيد روزيتي[128] ذات يوم وانا في الشارع. لم اعرف ذلك، غـــير انـــه كان يراقبني. وطلب مني ان اسمح له ان يرسمني. لم تكن قد ولدت بعد. كان في منتهى الشفقة والعطف لما عرف بظروفي. وقد اقترح هو شخصيا الاسم، وهو عرّابها.

وتمتمت.

(128) دانتـــي غبريال روزيتي (1828 - 1882): شاعر ورسام انكليزي ومؤسس جمعية الاخوة مـــا قبل الرافائيلية يحظى باحترام شديد في العصر الراهن بوصفه فنانا استخدم نمطا من انماط التعبير الرمزي الذي كان له اثره البالغ في القارة الاوروبية. عاش حياة مضطربة ووصفه الناقد (جون رسكين) بانه «ايطالي عظيم تاه في جحيم لندن». صوّر في اشعاره وبخاصة «بيت الحياة» الحب بين الرجل والمراة وصفا ماساويا. (المترجم)

– اعرف انه اسم غريب.

– مـــن المؤكد ان مشاعر تشارلز كانت غريبة. و لم تزدد هذه الغرابة الاخيرة الا بهـــذا الالحـــاح الغريب على رأيه في مسألة تافهة في مثل هذه الظروف، كان سفينته اصطدمت بشعاب صخرية واذا به يسأل عن رأيه في اي افضل مادة لتنجيد المقصورة. غير انه وجد نفسه يجيب كأنه تحت تأثير المخدر.

– انه اسم اغريقي مأخوذ من كلمة (لا لا جيو) وتعني خرير مثل خرير الغدير.

احـــنت سارة رأسها كأنها تشكره على هذه المعلومات في اشتقاق الكلمات. ما زال تشارلز يتفرس فيها وصواريه تحطم، وصرخات الغرقى في ذهنه. لن يغفر لها البتة. وسمع همسها.

– الا تحبه؟

– انني...

– ابتلع ريقه.

– نعم. اسم جميل.

احنت رأسها ثانية، غير انه لم يستطع الحركة، لم يستطع ان يخلص عينيه من اســـتحواذهما الرهيب؛ كان مثل رجل يحدق الى مبنى منهار ربما كان ليقضي عليه وينهي حياته لو انه مر من امامه بعد لحظة واحدة؛ من باب المصادفة، وهب ذلك العنـــصر الـــذي من المألوف ان تصرف عقلية الانسان النظر عنه، وتتركه في غرفة الاســـطورة الـــزائدة عن الحاجة، الجسد في هذا الشخص، هذا الشخص المزدوج قبالته. ظلت عيناها خفيضتان تظللهما الرموش السود. الا انه رأى، او لعله ادرك، الدمـــوع في مقلتيها. تقدم خطوتين او ثلاث خطوات بلا ارادة صوبها. ثم توقف ثانية. لم يستطع، لم يستطع... وانفجرت الكلمات متدفقة منه على الرغم من انها كانت واهنة.

– لكن لماذا؟ لماذا؟ ماذا لو لم...

انحنى رأسها اكثر من ذي قبل. و لم يتمكن من فهم جوابها.

– كان لا بد من ذلك.

وادرك الامـــر: الامـــر متروك لله، متروك له ان يغفر خطيئتهما. بيد انه ظل يتفرس في وجهها المتواري عنه.

- وكل تلك العبارات القاسية التي تفوهت بها... وارغمتني على الرد عليها؟
- لا بد من التفوه بها.

اخـــيرا رفعـــت بـــصرها اليه، عيناها مغرورقتان بالدموع، نظراتها صريحة لا تُحـــتمل. مـــثل هذه النظرات تلقيناها وشاركنا فيها لكن مرة واحدة او مرتين في حياتـــنا؛ انها نظرات تذوب فيها عوالم ويتحلل فيها اكثر من ماضٍ، لحظات تتصل عـــندما نعلـــم في قرار الضرورة الماسة بأن صخرة عصرنا لا يمكن ان تكون سوى الحب، في هذا المكان وهذا الزمان، تتصل في هاتين اليدين، في هذا الصمت الاعمى الذي يرتاح فيه رأس تحت رأس اخر، صمت يقطعه تشارلز بعد خلود، على الرغم من السؤال يأتي من بين انفاسه اكثر مما ينطق به من شفتيه.

هل لي ان افهم يوما ما حكايتك الرمزية؟

يهتـــز الرأس المتكئ على صدره بحماس مكتوم. لحظة طويلة. ضغط الشفتين على الشعر الكستنائي. تتوقف عن العزف تلك السيدة غير الموهوبة في ذلك البيت البعيد وقد استبد بها الندم بلا ريب (او ربما استبد بها شبح شوبان المعذب البائس). اما لالاج، فتَذكّر والدها - في الوقت الملائم حقا - ان الف كمان يشبع على نحو سريع بلا ضرب، كأن الصمت الرحيم جعلها تفكر في جماليات الموسيقى ودفعها الى ان تضرب دميتها المصنوعة من القماش فوق وجنته المائلة.

61

النشوء هو ببساطة عملية تتعاون فيها الصدفة (التغير الاحيائي العشوائي في لولب الحامض النووي الذي سببه الاشعاع الطبيعي، مع القانون الطبيعي لخلق اشكال حيّة مكيّفة للبقاء حيّة على نحو افضل وافضل.

مارتن غاردنر: الكون البارع 1967

التقوى الصحيحة هي ان يفعل المرء ما يعرفه.

ماثيو ارنولد: دفاتر ملاحظات 1866

من القواعد التي اثبتها الزمن في حرفة الروائي الا يقدم البتة في نهاية الكتاب سوى بعض الشخصيات الثانوية جدا. اعتقد ان من الجائز ان نغفر تقديم لالاج. الا ان الشخص المهم جدا على ما يبدو الذي كان في اثناء المشهد الاخير ينحني من فوق حاجز السدة في الجهة المقابلة للطريق الممتد من (16 شيني ووك) – وهو بيت السيد (دانتي غبريال روزيتي) الذي اصيب بالكوليرا وتوفي بسببها لا بسبب تعاطيه الافيون – قد يبدو اول وهلة وهو يمثل خرقا خطيرا لتلك القواعد. انا لم ارغب في تقديمه. لكن بما انه ذلك النمط من الاشخاص الذين لا يستطيعون البقاء خارج الاضواء، ومن النمط الذي يسافر في مقاعد الدرجة الاولى والا فلا يسافر البتة، والذي يمثل الضمير الاول عنده الضمير الوحيد، وباختصار، تتملكه اول الاشياء، وبما انني رجل يرفض التدخل في الطبيعة (حتى اسوأ طبيعة)، فإنه رجل ادخل نفسه – او كما من شأنه ان يعبر هو – ادخل نفسه كما هو عليه. لن اسهب في الايحاء بأنه ادخل نفسه سابقا لا كما هو عليه حقا، ولهذا فهو ليس بشخصية جديدة البتة؛ ولكن اطمئن، فهذه الشخصية ثانوية تماما على الرغم من المظاهر – وضئيلة مثل ذرة من ذرات اشعة غاما.

كما هو عليه حقا... وكما هو مزاجه الحقيقي فذلك مما لا يبعث على السرور. فاللحية التي كانت ذات يوم لحية ابوية، كاملة تضاءلت الان لتصبح لحية

غـــندور، ومتفرنـــسة. وهناك مسحة واضحة من البهرجة الصارخة في الثياب، في الـــصدرية الصيفية المزركشة على نحو مسرف، في الخواتم الثلاثة التي تزين اصابعه، الـــسيجار الرفيع الطويل في مبسمه العنبري، والخيزرانة ذات الرأس المعدني. يظهر عليه انه ترك الوعظ واهتم بالاوبرا ذات الموضوعات الجادة والغناء المستمر، وكان في الاوبـــرا افضل مما هو في الوعظ. باختصار، هناك اكثر من مسحة تدل على انه متعهد حفلات فنية ناجح.

الان، وفي حين يسند نفسه الى الحاجز، يضغط على حافة انفه ضغطا خفيضا بين خنصره واصبعه الوسطى المطوقين بخاتمين. ويتملك المرء الانطباع انه لا يستطيع احـــتواء متعته. فيحدق الى الوراء صوب بيت السيد روزيتي، وبمسحة تملك كأنه مـــسرح جديد اشتراه توا وعلى ثقة تامة بانه يستطيع ان يملأه. في هذا المنحى، لم يـــتغير: فهـــو، على ما يتضح، ينظر الى العالم بوصفه عالما يملكه ويوظفه حسبما يشاء.

الا انه انتصب. لقد كان التسكع في تشيلسي فترة ممتعة، بيد ان اعمالا اكثر اهمـــية تنتظره. يخُرج ساعته ويختار مفتاحا صغيرا من بين مفاتيح كثيرة مربوطة في سلـــسلة ذهبـــية ثانية. يعدل الوقت، ويبدو انه متقدم على الوقت بربع ساعة على الـــرغم مـــن ان ذلك غير مألوف في ساعة من صنع اعظم صانعي الساعات. ومما يـــزيد في الامـــر غرابة، انه لا توجد ساعة مرئية يمكن ان يكون قد اكتشف من خلالهـــا الخطـــأ في ساعته. الا انه يمكن التكهن بالسبب. فهو يوفر على نحو حقير لنفـــسه عذرا لتأخره عن موعده التالي. فهناك نمط من الاسياد الذين لا يستطيعون تحمل ظهورهم على خطا حتى فيما يخص اتفه المسائل.

اشـــار اشارة حاسمة بعصاه صوب عربة تنتظر على بعد مائة ياردة (91 مترا) منه. فتهادت صوب حافة الرصيف القريبة منه، ويقفز منها مساعد الحوذي ليفتح الـــباب. يصعد متعهد الحفلات، يجلس، يتكئ على نحو يوحي بالعظمة الى الوراء فـــوق الجلـــد القرمزي ويصرف النظر عن البساط الموسوم بالرسوم الذي يعرضه مساعد سائق العربة قرب ساقيه. ثم ينحني ويغلق الباب وينضم الى رفيقه الجالس في مقعـــد الحوذي. وتصدر التعليمات في حين يلمس سائق العربة قبعته ذات الشريط بمقبض سوطه.

وتبتعد مركبة الاغنياء على نحو رشيق.

- لا، كما قلت أنا. فأنت لم تغرسي الخنجر في صدري حسب، بل طاب لك ان تحركيه فيه حركة دائرية.

وقفت الان محدقة الى تشارلز، كأنها مجرم عنيد ينتظر قرار الحكم، على غير ارادتها، بل مسحورة. ونطق بالحكم.

- سيأتي اليوم الذي تسألين فيه عما فعلته فيَّ. واذا كانت السماء عادلة فإن عقابك لن ينتهي الى الابد.

تردد ثانية اخيرة، وجهه اشبه بجدار سد يوشك ان ينهار، اذ كان ثقل الندم يضغط ضغطا هائلا في الاعماق، غير انه اغلق فمه واستدار على عقبيه وسار صوب الباب بالسرعة نفسها التي تبين فيها انها مذنبة.

- سيد سميثسون!

خطا خطوة او خطوتين، توقف، القى نظرة اليها من طرف عينه ومن ثم حدق الى اسفل الباب قبالته على نحو عنيف لا يرحم. سمع حفيف ثيابها الخفيف وهي تقف من ورائه.

- اليس هذا دليلا على ما قلته توا، الافضل لو لم نلتقِ ثانية؟

- ان منطقك يفترض انني عرفت طبيعتك الحقيقية، الا انني لم اعرف.

- اواثق انت؟

- ظننت سيدتك في بلدة لايم امرأة انانية، متزمتة. اما الان فادرك انها قديسة مقارنة برفيقتها.

- ولا يتعين عليّ ان اكون انانية اذا ما قلت ان في وسعك ان تتزوجني مع العلم انني لا استطيع ان احبك كما ينبغي للزوجة ان تحب.

نظر اليها تشارلز نظرة جامدة.

- مرّ وقت تحدثت فيه عني بوصفي ملاذك الاخير، بوصفي الامل الوحيد الباقي لك في هذه الحياة. حسنا جدا. لكن لا تحاولي الدفاع عن نفسك فهذا مما يزيد الطين بلة.

فكر في ذلك طيلة الوقت: فكر في ذلك النقاش القوي على الرغم من انه النقاش الاكثر مدعاة للاحتقار. ولما كان قد قال ما قال، فانه لم يستطع ان يخفي

ارتباكه، بعد ان عيل صبره و لم يبقَ في قوس صبره منـــزع، على الاقل، فيما يخص شعوره بالغضب الجامح. نظر اليها نظرة اخيرة معذبة ثم ارغم نفسه على السير الى امام لفتح الباب.

- سيد سميثسون!

ثانية!

شـــعر الان بـــيدها فوق ذراعه، مرة ثانية يقف مكتوف اليدين، كارها تلك الـــيد، وضعفه في السماح لها ان تشلّه. ظهرت كأنها تحاول ان تقول له شيئا ما لا تـــستطيع ان تعبر عنه بالكلمات. على الارجح، لا اكثر من اشارة ندم او اعتذار. على الرغم من ذلك، فلو كان الامر كذلك، فإن يدها كانت لتسقط حالما لمسته. وهـــذه ما عطله لا على نحو نفسي حسب، بل وبدني ايضا. وعلى نحو بطيء جدا الـــتفت ونظر اليها، وراى لدهشته، ان في عينيها، ان لم يكن فوق شفتيها، شبحَ ابتسامة، شبحا من ذلك النمط الذي عرفه من قبل، بمنتهى الغرابة، لما فاجأهما سام وماري تقريبا. اكانت مفارقة عندما قالت له الا ينظر الى الحياة نظرة جادة اكثر مما ينبغي؟ اهو تلذذٌ اخيرٌ بتعاسته؟ لكن ها هي ثانية، ففي حين كان ينقب فيها بعينيه الحـــزينتين الساخطتين تماما كان ينبغي لها ان تخفض يدها. الا انه على الرغم منذ لك ظل يشعر بضغطها على ذراعه، كأنها تقول انظر، الا تجد ان هناك حلاً؟

عثر عليه. نظر الى اسفل صوب يدها، ثم رفع بصره ثانية الى وجهها. وبمنتهى الـــبطء، توردت وجنتاها، كأنما لترد بذلك عليه، وتلاشت الابتسامة من عينيها. سقطت يدها الى جانبها. وظلا يحدقان الى بعضهما بعضا كأن ثيابهما سقطت من علـــى جسديهما وباتا عاريين. الا ان العري كان في ظنه مرضيا اكثر منه جنسيا، عريا تكشف فيه السرطان بكل حقيقته المتقززة. بحث في عينيها عن دليل يشير الى نياتها الحقيقية و لم يجد سوى روح على استعداد للتضحية بكل شيء سوى نفسها - على استعداد للتخلي عن الصدق والمشاعر وعلى الارجح كل التواضع الانثوي من اجل انقاذ نـــزاهتها. وشعر لبرهة انه معرض للاغواء في تلك التضحية المحتملة النهائـــية. في وسعه ان يشاهد خوفا من وراء المعرفة الواضحة الان بأنها قد قامت بحـــركة زائفة. وان قبول عرضها بصداقة افلاطونية - حتى لو كانت يوما ما غير موقوفة لغرض نبيل - من شأنه ان يؤذي مشاعرها كل اذى.

الا انـــه مـــا ان ادرك ذلك حتى فهم حقيقة مثل هذا الترتيب - انه سيصبح الاضـــحوكة الـــسرية في هذا البيت الفاسد، العاشق، المتمسك بالرسميات، الحمار الصغير. وادرك تفوقه الحقيقي عليها، وهو تفوق ليس مصدره المولد ولا الثقافة ولا الـــذكاء ولا الجنس، بل القدرة في العطاء التي هي ايضا العجز عن المساومة. انها لا تـــستطيع ان تهـــب الا لكي تمتلك. وان امتلاكه - سواء كان ما هو عليه او لأن التملك كان من القوة في اعماقها ما يجعله متجددا على نحو مستمر، وانه لا يمكن اشباعه بانتصار واحد فقط، سواء... الا انه ما كان يدري وما من شأنه ان يدري ابدا - ان امتلاكه لم يكن كافيا.

وادرك اخـــيرا انها عرفت انه سيرفض. لقد استغلته منذ البداية ولسوف تفعل ذلك حتى النهاية.

نظـــر اليها نظرة رفض اخيرة مستعرة ثم خرج من الغرف. لم تبذل اي محاولة اخرى لمنعه. حدّق الى الامام مباشرة كأن اللوحات المعلقة على الجدران التي مر بها اعـــدادا كـــبيرة من مشاهدين يلفهم الصمت، لقد كان الرجل الشريف الاخير في الطريق الى المقصلة. كانت لديه رغبة كبيرة في البكاء، الا ان ما من شيء سينتزع الدمـــع مـــن عينـــيه في ذلك البيت. ان يبكي بصوت عالٍ. وفي حين وصوله الى الـــردهة، بانـــت الفـــتاة الـــتي سبق لها ان ارشدته الى الطابق العلوي من احدى الحجرات، ممسكة بطفل صغير بين ذراعيها. فتحت فمها كي تتكلم، الا ان نظرة تشارلز الجامدة، الوحشية اسكتتها. وغادر المنـــزل.

ولمـــا وصل البوابة - اصبح المستقبل حاضرا - اكتشف انه لا يدري الى اين يـــذهب. كأنـــه وجد نفسه ولد من جديد على الرغم من امتلاكه كل ذكرياته وملكاتـــه الخاصة بالبالغين. الا ان احساس الطفل العاجز انتابه - لا بد ان يبدا من جديد، لا بد ان يتعلم ثانية! عبر الشارع على نحو مائل، بتهور، دون ان ينظر نظرة واحـــدة من ورائه واتجه صوب السدة. كانت مهجورة، باستثناء عربة تترنح على بعد مسافة وتوارت عن الانظار لدى وصوله حاجز السدة.

حـــدق الى الاسفل صوب النهر الرمادي الذي يقبض الصدر الان بفعل المد العـــالي دون ان يـــدري لذلك سببا. كان ذلك يعني العودة الى اميركا. كان يعني اربعة وثلاثين عاما من الصراع من اجل الوصول الى الاعلى - كلها بلا طائل، بلا

طائـــل، بـــلا طائل. كل شيء ضاع. كان يعني انه واثق من هذا الشيء: عزوبية القلـــب التامة مثل عزوبيتها. كان يعني، كما كانت تعني كل الاشياء، التطلع الى المستقبل واستعادة الماضي معا اخذا يلفانه مثل انهيار جليدي اسود كاسح. والتفت اخـــيرا ونظـــر من ورائه الى البيت الذي غادره. فبدت له ستارة شبكية بيضاء قد اسدلت من وراء احدى النوافذ المفتوحة في الطابق العلوي.

الا ان ذلـــك مجـــرد مظهر، حركة عابثة لريح أيار/مايو. فقد بقيت سارة في المرسم، محدقة الى الحديقة من تحتها، الى طفل وامرأة شابه، لعلها ام الطفل، يجلسان من فوق العشب وينهمكان في صنع اكليل من ورد الاقحوان. ثمة دموع في عينيها؟ انها بعيدة على نحو لا يمكنني من تمييز ذلك، مثلما لا استطيع ان اميز ظلا من وراء ضوء طالما ان زجاج النافذة يعكس توهج سماء الصيف.

مـــن المؤكد ان تفكر ان رفض قبول العرض الذي كانت توحي به تلك اليد الـــتي كانت تعطله انما هو اخر حماقة من حماقات تشارلز، فهو كان ينم على الأقل علـــى ضـــعف محدد في النهاية في موقف سارة. ربما تظن انها كانت على حق: ان معـــركتها مـــن اجل الارض كانت انتفاضة شرعية قام بها الخاضعون للغزو ضد الغـــازي الـــدائم. الا ان الـــشيء الذي يجب ان لا تفكر فيه هو ان هذه النهاية لقصتهما هي الاقل مدعاة للرضا.

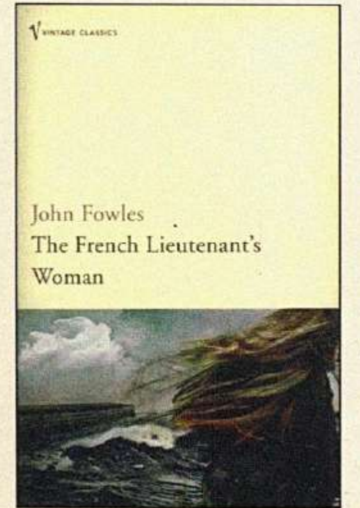
فأنا قد رجعت الى مبدإي الاول على الرغم من ان هذا الرجوع ينحو منحى ملتويا: لا يوجد من يتدخل باستثناء الاشياء التي نراها، على ذلك النحو، من اول عـــبارة استهلالية حتى هذا الفصل. وهكذا لا توجد سوى الحياة التي صنفناها نحن - ضـــمن قدراتنا المحفوفة بالمخاطر - الحياة التي كما عرفها ماركس بأنها «افعال الانسان (وافعال النساء) بحثا عن غاياتهم». ان المبدأ الاساس الذي ينبغي ان يوجه هذه الافعال، المبدأ الذي اعتقد انه وجه سارة دوما، هو المبدأ الذي وضعته بوصفه العبارة الاستهلاليه الثانية. ان الوجودي المعاصر بلا ريب سيحل كلمة «الانسانية» او «المصداقية» محل «الورع»، الا ان من شأنه ان يدرك قصد ارنولد.

ان نهـــر الحـــياة، نهر القوانين الغامضة والاختيار الغامض، يمر من امام سدة مهجورة؛ وعلى امتداد تلك السدة المهجورة يبدأ تشارلز الان يخطو خطواته، رجلا مـــن وراء عربة مدفع غير مرئية مسجى عليها جثمانه يسير صوب صوت وشيك

اختياري؟ لا اعتقد. فهو قد وجد اخيرا ذرة من الايمان في نفسه، تفردا حقيقيا يبني مـــن فـــوقه. لقد بدا توا يدرك - على الرغم من انكاره وعلى الرغم من الدموع المترقرقة في مقلتيه التي تدعم افكاره - ان الحياة ليست رمزا بغض النظر عن محاولة ســـارة لأن تـــبدو مناسبة لدور ابـــي الهول، الحياة ليست احجية واحدة واخفاقا واحـــدا ينبغي التكهن به، لا تحتوي على وجه واحد فقط او يتم التخلي عنها بعد رمـــية واحدة خاسرة للزهر. ان الحياة لا بد من تحملها، على الرغم من كونها غير مناســـبة، فارغة، بلا امل، في قلب المدينة الحديدي. وهناك مرة اخرى، فوق ذلك البحر الذي لا يسبر غوره، المالح، الباعث على النفور.

امرأة الضابط **الفرنسي**

تبدو الكتابة في هذه الرواية وكأنها تمر بين يدي روائي يهتم اهتماماً شديداً بمشكلات العصر الفكتوري وبالوقوف «بين عالمين: الأول عالم ميت والثاني لا يقوى على الولادة»، كما يقول ماثيو أرنولد. ويهتم كذلك بالعلاقة بين الحاضر الذي هو ماض في الرواية والمستقبل الذي هو الحاضر في الرواية، والعلاقة بين موروث الرواية الفكتوري المثير للإعجاب والوضع في القرن العشرين الذي يجعل من المستحيل الكتابة في داخله.



يمكن اعتبار رواية «امرأة الضابط الفرنسي» رواية ذكية تكشف عن استفادة الكاتب الحديث من الموروث الفكتوري، وبهذا تصبح رواية ليبرالية معمارها يقوم في الأساس على أساليب الواقعية الأخلاقية والتأويل الأخلاقي الذي ينتمي إلى أسلوب القرن التاسع عشر. وبهذا، فإن الرواية توسع مدى البصيرة الأخلاقية والوعي الاجتماعي الذي نحصل عليه من قراءة جورج إليوت على سبيل المثال، ليصبح مضافاً إلى شكل أكثر حداثة من أشكال التصور تساعدنا في ذلك المعرفة التاريخية المتزايدة والمشاعر الطيبة الفياضة.

ISBN 978-9953-87-617-7







المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة